تفسير

البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي

المتوفى ٧٤٥ هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود | الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر

الدكتور أحمد النجولي الجمل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

قرظه

الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين جامعة الأزهر

الجزء الثامن

المحتوى

أول الزخرف - آخر الناس



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : **Tafsir al-Bahr al-Muhit**
(The exegesis of the Holy Qur'an)

الكتاب : تفسير البحر المحيط

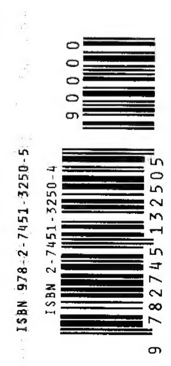
Classification: Exegesis of The Qur'an
Author : Abu Hayyān al-'Andalusi
Editor : Al-šayh ʿĀdil ʿAbdul-Mawjūd
and: Al-šayh ʿAli Muʿawwad
and: Dr. Zakariyyā al-Nūti
and: Dr. Ahmad al-Jamal
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 4704 (9 volumes)
Size : 17*24
Year : 2010
Printed in : Lebanon
Edition : 3rd

التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : أبو حيان الأندلسي
المحقق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
والشيخ علي محمد معوض
والدكتور زكريا عبدالمجيد النوتي
والدكتور أحمد النجولي الجمل
الناشر : دار الكتب العلميــة - بيروت
عدد الصفحات : 4704 (9 أجزاء)
قياس الصفحات: 24*17
سنة الطباعة : 2010
بلد الطباعة : لبنــان
الطبعة : الثالثة (لونان)



Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠


ISBN 978-2-7451-3250-5
ISBN 2-7451-3250-4

سورة الزخرف تسع وثمانون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى
عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً
لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا
عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾
وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن
يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن
كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ
إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ
ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ
عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا
وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا

لِّبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ
بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِى تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾
ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ
تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ
﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكۡوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن
كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرًا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا
لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ
ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ
إِلَٰهٌ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ
عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ
يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ
﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

يعشو : يعرض ، ويعشى : يعمى ، وقال ابن قتيبة : لم نر أحداً حكى عشوت عن الشيء أعرضت عنه ، وإنما يقال : تعاشيت عن كذا ، وتعاميت إذا تغافلت عنه ، وتقول عشوت إلى النار إذا استدللت عليها ببصر ضعيف . وقيل : عشي يعشى إذا حصلت الآفة في بصره ، وعشا يعشو نظر المعشي ولا آفة به ، كما قالوا عرج لمن به الآفة ، وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، قال الحطيئة :

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[١]

أي : تنظر إليها نظر المعشي لما يضعف بصر من عظيم الوقود به . ومنه قول حاتم :

أَعْشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِدْرُ[٢]

الصحفة قال الجوهري : هي القصعة . وقال الكسائي : أعظم القصاع الجفنة ، ثم القصعة تليها تسع العشرة ، ثم الصحفة تسع الخمسة ، ثم المكيلة تسع الرجلين ، والثلاثة والصحيفة : الكتاب ، والجمع صحف وصحائف ، الكوب قال قطرب : الإبريق لا عروة له . وقال الأخفش : الإبريق لا خرطوم له ، وقيل : كالإبريق إلا أنه لا أذن له ، ولا مقبض ، قال أبو منصور الجواليقي : إنما كان بغير عروة ليشرب الشارب من أين شاء ، لأن العروة ترد الشارب من بعض الجهات انتهى . وقال عدي :

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أَبْوَابُهُ يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ[٣]

أبرم قال الفراء : أبرم الأمر بالغ في إحكامه ، وأبرم القاتل إذا أدهم ، وهو القتل الثاني والأول يقال : له سجيل كما قال زهير : من سجيل وبرم ، انتهى . والإبرام أن يجمع خيطين ، ثم يفتلهما فتلاً متقناً ، والبريم خيط فيه لونان . ﴿ **حم والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ، وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ، فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهم العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإننا إلى ربنا لمنقلبون ، وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين** ﴾ .

هذه السورة مكية ، وقال مقاتل : إلا قوله : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) وقال ابن عطية : بإجماع أهل العلم ، (إنا جعلناه) أي : صيرناه أو سميناه ، وهو جواب القسم ، وهو من الأقسام الحسنة لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد ونظيره قول أبي تمام :

وثَنَايَاك إِنَّهَا إِغْرِيضُ[٤]

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥١) الخزانة (٩٤/٩) الكتاب (٨٦/٣) ابن يعيش (٦٦/٢) وقد تقدم .

(٢) لم أجده في ديوانه وهو لمسكين الدارمي انظر ديوانه (٤٥) والكشاف (٢٥١/٤) وفيه لحاتم انظر أمالي المرتضى (٤٤/٢) روح المعاني (٨١/٢٥) .

(٣) البيت من السريع انظر مجاز القرآن (٢٠٦/٢) معاني الفراء (٣٧/٣) القرطبي (٧٦/١٦) .

(٤) صدر بيت من الخفيف وعجزه :

. . . . وَلآلٍ تُؤْمٌ وَبَرْقٌ وَمِيضُ

انظر شرح ديوان أبي تمام ٢٦٩/٢

وقيل : والكتاب أريد به الكتب المنزلة ، والضمير في جعلناه يعود على القرآن ، وإن لم يتقدم له صريح الذكر لدلالة المعنى عليه . وقال الزمخشري : جعلناه بمعنى : صيرناه معدى إلى مفعولين ، أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد كقوله: ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام ١] (وقرآناً عربياً) حال ، ولعل مستعارة لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ، ومعنى الترجي أي : خلقناه عربياً غير عجمي أراد أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته انتهى . وهو على طريقة الاعتزال في كون القرآن مخلوقاً ، وأم الكتاب اللوح المحفوظ ، لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفيع بكونه لديه علياً على جميع الكتب ، وعالياً عن وجوه الفساد حكيماً . أي : حاكماً على سائر الكتب ، أو محكماً بكونه في غاية البلاغة والفصاحة وصحة المعاني . قال قتادة وعكرمة والسدي : اللوح المحفوظ[1] القرآن فيه بأجمعه منسوخ ، ومنه كان جبريل ينزل ، وقيل : أم الكتاب الآيات المحكمات لقوله ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ [آل عمران ٧] ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم . وقرأ الجمهور في أُمّ بضم الهمزة ، والأخوان بكسرها ، وعزاها ابن عطية يوسف بن عمرو إلى العراق ، ولم يعزها للأخوان عقلة منه . يقال : ضرب عن كذا ، وأضرب عنه إذا أعرض عنه . والذكر : قال الضحاك وأبو صالح : القرآن[2] ، أي : افترائي عنكم القرآن ، وقولهم ضرب الغرائب عن الحوض إذ أدارها ونحاها وقال الشاعر :

اضْرِب عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ... ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الفَرَسِ [3]

وقيل : الذكر الدعاء إلى الله ، والتخويف من عقابه . قال الزمخشري : والفاء للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر ، إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب ، وخلقه قرآناً عربياً لتعقلوه ، وتعملوا بموجبه انتهى . وتقدم الكلام معه في تقديره فعلاً بين الهمزة والفاء في نحو ﴿ أفلم يسيروا ﴾ [محمد ١٠] ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [البقرة ٤٤] وبينها وبين الواو في نحو ﴿ أولم يسيروا ﴾ [الروم ٩] كما وأن المذهب الصحيح قول سيبويه والنحويين أن الفاء والواو منوي بهما التقديم ، لعطف ما بعدهما على ما قبلهما ، وأن الهمزة تقدمت لكون الاستفهام له صدر الكلام ، ولا خلاف بين الهمزة والحرف ، وقد رددنا عليه قوله . وقال ابن عباس ومجاهد : المعنى أفنترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم ، وعفواً عن إجرامكم (أن كنتم) أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين ، أي : هذا لا يصلح ونحا قتادة إلى أن المعنى صفحاً أي : معفواً عنه . أي : نتركه ثم لا تؤاخذون بقوله ، ولا بتدبره ولا تنبهون عليه ، وهذا المعنى نظير قول الشاعر :

ثُمَّ الصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِ ذِي الْفَضَا ... وَبِصَدْعِ قَلْبِي أَنْ يَهُبَّ هُبُوبُهَا

وقول كثير :

صَفُوحاً فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بَخِيلَةً ... فَمَنْ مَلَّ منها ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتِ

وقال ابن عباس : المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم ، ولما تفعلوا ما أمرتم به . وقال الكلبي : أن نترككم هملاً بلا أمر ولا نهي ، وقال مجاهد أيضاً : أن لا نعاقبكم بالتكذيب ، وقيل : أن نترك الإنزال للقرآن من أجل تكذيبكم . وقرأ حسان بن عبد الرحمن الضبعي ، والسميط بن عمير ، وشميل بن عذرة : بضم الصاد والجمهور بفتحها ، وهما لغتان

---

(١) انظر الوسيط ٤٢ خ .

(٢) انظر الوسيط ٤٢ خ .

(٣) قال أبو حاتم أنشد الأخفش بيتاً مصنوعاً لطرفة فذكره انظر النوادر (١٦٥) شرح المفصل لابن يعيش (٩/ ٤٤) الكشاف (٤/ ٢٣٧) روح المعاني (٢٥/ ٦٥) اللسان (قنس) .

كالسد والسد ، وانتصاب صفحاً على أنه مصدر من معنى أفنضرب ، لأن معناه أفنصفح ، أو مصدر في موضع الحال أي : صافحين ، قالهما الحوفي وتبعه أبو البقاء ، وقال الزمخشري : وصفحاً على وجهين إما مصدر من صفح عنه إذا أعرض منتصباً على أنه مفعول له على معنى أفنعزل عنكم إنزال القرآن ، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم ، وإما بمعنى الجانب من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى أفننحيه عنكم جانباً فينصب على الظرف . كما تقول : ضعه جانباً ، وامش جانباً ، وتعضده قراءة من قرأة صفحاً بالضم ، وفي هذه القراءة وجه آخر ، وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح ، وينتصب على الحال أي : صافحينَ معرضين ، وقال ابن عطية : صفحاً انتصابه كانتصاب صنع الله انتهى . يعني أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، فيكون العامل فيه محذوفاً ولا يظهر هذا الذي قاله فليس انتصابه انتصاب صنع الله . وقرأ نافع والأخوان بكسر الهمزة وإسرافهم كان متحققاً فكيف دخلت عليه إن الشرطية التي لا تدخل إلا على غير المتحقق ، أو على المتحقق الذي انبهم زمانه . قال الزمخشري : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته ، كما يقول الأجير: إن كنت عملتُ لك فوفني حقي ، وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجهالاً له . وقرأ الجمهور أن بفتح الهمزة ، أي : من أجل أن كنتم ، وقال الشاعر :

أَتَجْزَعُ أَنْ بَانَ الْخَلِيطُ الْمُوَدِّعُ

وقرأ زيد بن علي : (إذ كنتم) بذال مكان النون لما ذكر خطاباً لقريش أفنضرب عنكم الذكر ، وكان هذا الإنكار دليلاً على تكذيبهم للرسول، وإنكاراً لما جاء به آنسه تعالى بأن عادتهم عادة الأمم السابقة من استهزائهم بالرسل ، وأنه تعالى أهلك من كان أشد بطشاً من قريش ، أي : أكثر عَدداً وعُدداً وجلداً ، (ومضى مثل الأولين) أي : فليحذر قريش أن يحل بهم مثل ما حل بالأولين مكذبي الرسل من العقوبة . قال معناه قتادة وهي العقوبة التي سارت سير المثل ، وقيل : مثل الأولين في الكفر والتكذيب ، وقريش سلكت مسكلها ، وكان مقبلاً عليهم بالخطاب في قوله : (أفنضرب عنكم) فأعرض عنهم إلى إخبار الغائب في قوله : (فأهلكنا أشد منهم بطشاً) ، (ولئن سألتهم) احتجاج على قريش بما يوجب التناقش ، وهو إقرارهم بأن موجد العالم العلوي والسفلي هو الله ، ثم هم يتخذون أصناماً آلهة من دون الله يعبدونهم ويعظمونهم ، قال ابن عطية : ومقتضى الجواب أن يقولوا خلقهن الله . فلما ذكر تعالى جاءت العبارة عن الله تعالى بالعزيز العليم ، ليكون ذلك توطئة لما عدد من أوصافه الذي ابتدأ الأخبار بها ، وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش انتهى . وقال الزمخشري : لينسبن خلقها إلى الذي هذه أوصافه ، وليسندنه إليه انتهى . والظاهر أن خلقهن العزيز العليم نفس المحكي من كلامهم ، ولا يدل كونهم ذكروا في مكان خلقهن الله أن لا يقولوا في سؤال آخر خلقهن العزيز العليم ، و (الذي جعل لكم) من كلام الله خطاباً لهم بتذكير نعمه السابقة ، وكرر الفعل في الجواب في قوله : (خلقهن العزيز العليم) مبالغة في التوكيد ، وفي غير ما سؤال اقتصروا على ذكر اسم الله ، إذ هو العلم الجامع للصفات العلا ، وجاء الجواب مطابقاً للسؤال من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ، لأن من مبتدأ فلو طابق في اللفظ كان بالاسم مبتدأ ، ولم يكن بالفعل لعلكم تهتدون ، أي : إلى مقاصدكم في السفر ، أو تهتدون بالنظر والاعتبار بقدر . أي : بقضاء وحتم في الأزل ، أو بكفاية لا كثيراً فيفسد ولا قليلاً فلا يجدي (فأنشرنا) أحيينا به بلدة ميتاً ذكر على معنى القطر ، وبلدة اسم جنس . وقرأ أبو جعفر ، وعيسى (ميّتاً) بالتشديد . وقرأ الجمهور : تخرجون مبنياً للمفعول ، وابن وثاب ، وعبد الله بن جبير المصبح ، وعيسى ، وابن عامر والأخوان مبنياً للفاعل ، و (الأزواج) الأنواع من كل شيء : قيل وكل ما سوى الله فهو زوج ، كفوق وتحت ، ويمين وشمال ، وقدام وخلف ، وماض ومستقبل ، وذوات وصفات ، وصيف وشتاء ، وربيع وخريف ، وكونها أزواجاً تدل على أنها ممكنة الوجود ، ويدل على أن محدثها فرد ، وهو الله المنزه عن الضد والمقابل ،

والمعارض ، انتهى . والأنعام المعهود أن لا يركب من الأنعام إلا الإبل ، ما موصولة ، والعائد محذوف أي : ما يركبونه ، وركب بالنسبة للعلل ويتعدى بنفسه على المتعدي بوساطة في إذ التقدير ما يركبونه ، واللام في لتستووا الظاهر أنها لام كي .

وقال الحوفي : ومن أثبت لام الصيرورة جاز له أن يقول به هنا . وقال ابن عطية : لام الأمر وفيه بعد من حيث استعمال أمر المخاطب بتاء الخطاب ، وهو من القلة بحيث ينبغي أن لا يقاس عليه ، فالفصيح المستعمل اضرب ، وقيل : لتضرب ، بل نص النحويون على أنها لغة رديئة قليلة ، إذ لا تكاد تحفظ إلا قراءة شاذة ، فبذلك فلتفرحوا بالتاء للخطاب ، وما آثر المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام : « لتأخذوا[١] مصافاكم » مع احتمال أن الراوي روى بالمعنى وقال الشاعر :

لِتَقُمْ أَنْتَ يَا ابْنَ خَيْرِ قُرَيْشٍ ... كَيْ لِتَقْضِي حَوَائِجَ الْمُسْلِمِينَا[٢]

وزعم الزجاج أنها لغة جيدة ، وذلك خلاف ما زعم النحويون ، والضمير في ظهوره . عائد على ما ، كأنه قال على ظهور ما تركبون ، قاله أبو عبيدة ، فلذلك حسن الجمع ، لأن مآلها لفظ ، ومعنى فمن جمع فباعتبار المعنى ، ومن أفرد فباعتبار اللفظ ، ويعني من الفلك والأنعام ، وقال الفراء : نحواً منه قال أضاف الظهور ، ثم تذكروا أي في قلوبكم نعمة ربكم معترفين بها ، مستعظمين لها ، لا يريد الذكر باللسان ، بل بالقلب ، ولذلك قابله بقوله : (وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا) أي : تنزهوا الله بصريح القول ، وجاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا وضع رجله في الركاب قال : « بسم[٣] الله ، فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا إلى قوله لمنقلبون ، وكبر ثلاثاً ، وهلل ثلاثاً ، وقالوا : إذا ركب في السفينة قال : بسم الله مجراها ومرساها إلى رحيم ، ويقال عند النزول منها : أنزلها منزلاً مباركاً ، وأنت خير المنزلين ، والقرن الغالب الضابط المطيق للشيء يقال : أقرن الشيء إذا أطاقه ، قال ابن هرمة :

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَّلْتِنِي وَلَقَلَّمَا ... يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ وَالْهَجْرُ[٤]

وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به ، لأن الصعب لا يكون قرينة للضعف ، قال الشاعر :

وابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ ... لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسُ[٥]

والقرن الحبل الذي يقرن به ، وقال أبو عبيد : فلان مقرن لفلان أي : ضابط له ، والمعنى : أنه ليس لنا من القوة ما نضبط به الدابة والفلك ، وإنما الله الذي سخرها . وأنشد قطرب لعمرو بن معد يكرب :

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مَا عقيل ... لَنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُقْرِنِينَا

وقرىء لمقترنين اسم فاعل من اقترن (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) أي : راجعون ، وهو إقرار بالرجوع إلى الله ،

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٨/٣٥٤) .

(٢) البيت من الخفيف لم نهتد لقائله انظر الأشموني (٤/٣) التصريح (١/٥٥) شرح الكافية (٢/٢٥٢) . المغني رقم (٣٧٦) .

(٣) أخرجه مسلم ٢/٩٧٨ في الحج باب ما يقول إذا ركب إلى (سفر) . . (١٣٤٢/٤٢٥) .

(٤) لم أجده في ديوانه انظر الكشاف (٢/٢٤٠) روح المعاني (٢٥/٦٩) .

(٥) تقدم .

(٦) البيت في تفسير القرطبي (١٦/٤٥) .

وبالبعث ، لأن الراكب في مظنة الهلاك بالغرق إذا ركب الفلك ، وبعثور الدابة إذ ركوبها أمر فيه خطر ، ولا تؤمن السلامة فيه ، فقوله هذا تذكير بأنه مستشعر الصيرورة إلى الله ، ومستعد للقائه فهو لا يترك ذلك من قلبه ولا لسانه ، (وجعلوا له) أي : وجعل كفار قريش والعرب له أي : لله في عباده ، أي : ممن هم عبيد الله جزأ . قال مجاهد نصيباً وحظاً ، وهو قول العرب الملائكة بنات الله . وقال قتادة : جزأ أي نداً ، وذلك هو الأصنام ، وفرعون ، ومن عبد من دون الله ، وقيل : الجزء الإناث ، قال بعض اللغويين : يقال أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى ، قال الشاعر :

إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْماً فَلَا عَجَبٌ ... قَدْ تُجْزِىءُ الْحُرَّةُ الْمِذْكَار أَحْيَاناً[1]

قيل : هذا البيت مصنوع وكذا قوله :

زُوِّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجْزِئَةً[2]

ولما تقدم أنهم معترفون بأنه تعالى هو خالق العالم أنكر عليهم جعلهم لله جزأ ، وقد اعترفوا بأنه هو الخالق ، فكيف وصفوه بصفة المخلوق . (إن الإنسان لكفور) نعمة خالقه مبين مظهر لجحوده ، والمراد بالإنسان من جعل لله جزأ وغيرهم من الكفرة . قال ابن عطية : ومبين في هذا الموضع غير متعد انتهى . وليس يتعين ما ذكر ، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران النعم ، ومظهراً لجحوده كما قلنا . (أم اتخذ مما يخلق بنات) استفهام إنكار وتوبيخ لقلة عقولهم كيف زعموا أنه تعالى اتخذ لنفسه ما أنتم تكرهونه حين أنتم تسود وجوهكم عند التبشير بهن ، وتئدونهن (وأصفاكم) جعل لكم صفوة ما هو محبوب ، وذلك البنون ، وقوله (بما يخلق) تنبيه على استحالة الولد ذكراً كان أو أنثى ، وإن فرض اتخاذ الولد فكيف يختار له الأدنى ، ويخصكم بالأعلى ، وقدم البنات لأنه المنكر عليهم لنسبتهن إلى الله ، وعرف البنين دون البنات تشريفاً لهم على البنات . وإذا بشر أحدكم تقدم تفسير نظيرها في سورة النحل . (أو من ينشأ في الحلية) أي : ينتقل في عمره حالاً فحالاً في الحلية ، وهو الحلي الذي لا يليق إلا بالإناث دون الفحول لتزينهن بذلك لأزواجهن ، وهو إن خاصم لا يبين لضعف العقل ، ونقص التدبر والتأمل أظهر بهذا لحقوقهن وشفوف البنين عليهن ، وكان في ذلك إشارة إلى أن الرجل لا يناسب له التزين كالمرأة ، وأن يكون مخشوشناً ، والفحل من الرجال أبى أن يكون متصفاً بصفات النساء ، والظاهر أنه أراد بمن ينشأ في الحلية النساء ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة[3] والسدي ويدل عليه قوله (وهو في الخصام غير مبين) أي : لا يظهر حجة ، ولا يقيم دليلاً ولا يكشف عما في نفسه كشفاً ، ويقال قلما تجد امرأة لا تفسد الكلام وتخلط المعاني حتى ذكر عن بعض الناس أنه قال إذا دخلنا على فلانة لا نخرج حتى نعلم أن عقلها عقل امرأة ، وقال ابن زيد : المراد بمن ينشأ في الحلية الأصنام ، وكانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة ، ويجعلون الحلي على كثير منها ، ويبعد هذا القول قوله : (وهو في الخصام غير مبين) إلا إن أريد بنفي الإبانة نفي الخصام ، أي : لا يكون منها خصام فإنه كقوله :

عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ[4]

أي : لا منار له فيهتدى به ، ومن في موضع نصب ، أي وجعلوا من ينشأ ويجوز أن يكون في موضع رفع على

---

(١) البيت من البسيط انظر غريب القرآن (٣٩٦) وعجزه في القرطبي (٤٧) وانظر روح المعاني (٢٥/ ٦٩) والكشاف (٤/ ٢٤١) .

(٢) البيت من البسيط انظر البيت في القرطبي (١٦/ ٤٧) الكشاف (٤/ ٢٢١) روح المعاني (٢٥/ ٦٩) . (اللسان جزا) .

(٣) انظر جامع البيان للطبري ٢٥/ ٣٥ وفتح الباري (٨/ ٥٨٧) والبغوي ٤/ ١٣٦ وابن كثير ٤/ ١٢٥ والكشاف ٤/ ١٨٩ والدر ٦/ ٢٥ وتفسير عبد الرزاق ٣/ ١٠١٥ .

(٤) تقدم .

الابتداء ، أي : من ينشأ جعلوه لله . وقرأ الجمهور : ينشأ مبنياً للفاعل ، والجحدري في قول مبنياً للمفعول مخففاً . وابن عباس وزيد بن علي والحسن ومجاهد والجحدري في رواية والأخوان وحفص والمفضل وأبان وابن مقسم وهارون عن أبي عمرو مبنياً للمفعول مشدداً ، والحسن في رواية يناشأ على وزن يفاعل مبنياً للمفعول ، والمناشأة بمعنى : الإنشاء ، كالمعالاة بمعنى الإعلاء ، وفي الخصام متعلق بمحذوف تفسيره غير مبين أي : وهو لا يبين في الخصام ، ومن أجاز أما زيداً غير ضارب بأعمال المضاف إليه في غير أجاز أن يتعلق بمبين أجرى غير مجرى لا ، وبتقديم معمول أما بعد لا مختلف فيه ، وقد ذكر ذلك في النحو .

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ، وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ .

لم يكفهم أن جعلوا لله ولداً وجعلوه إناثاً ، وجعلوهم من الملائكة ، وهذا من جهلهم بالله وصفاته ، واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة . وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والإبنان ونافع (عند الرحمن) ظرفاً ، وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة ، لقوله (إن الذين عند ربك) ، وقرأ عبد الله وابن عباس وابن جبير وعلقمة وباقي السبعة عباد الرحمن جمع عبد لقوله : (بل عباد مكرمون) ، ورأى الأعمش : (عباد الرحمن) جمعاً ، وبالنصب حكاها ابن خالويه ، قال : وهي في مصحف ابن مسعود كذلك ، والنصب على إضمار فعل ، أي : الذين هم خلقوا عباد الرحمن، وأنشؤوا عباد الرحمن إناثاً . وقرأ أبيّ (عبد الرحمن) مفرداً ، ومعناه الجمع ، لأنه اسم جنس ، وقرأ الجمهور : (وأشهدوا) بهمزة الاستفهام داخلة على شهدوا ماضياً مبنياً للفاعل ، أي : أحضروا خلقهم ، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدى . وقيل : سألهم الرسول عليه السلام ما يدريكم أنهم إناث فقالوا : سمعنا ذلك من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى : (ستكتب شهادتهم ويسألون) عنها أي : في الآخرة . وقرأ نافع بهمزة داخلة على أشهدوا رباعياً مبنياً للمفعول بلا مد بين الهمزتين ، والمسبي عنه بمدة بينهما وعليّ بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وفي رواية أبي عمرو ونافع بتسهيل الثانية بلا مد وجماعة كذلك بمد بينهما ، وعن عليّ والمفضل عن عاصم تحقيقها بلا مد والزهري وناس أشهدوا بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً ، فقيل : المعنى على الاستفهام ، حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليها ، وقيل : الجملة صفة للإناث أي : إناثاً مشهداً منهم خلقهم ، وهم لم يدعوا أنهم شهدوا خلقهم ، لكن لما ادّعوا لجراءتهم أنهم إناث صاروا كأنهم ادعوا ذلك ، واشهادهم خلقهم . وقرأ الجمهور : إناثاً ، وزيد بن عليّ أنثا جمع الجمع قيل : ومعنى وجعلوا سموا ، وقالوا : والأحسن أن يكون المعنى وصيروا اعتقادهم الملائكة إناثاً ، وهذا الاستفهام فيه تهكم بهم ، والمعنى إظهار فساد عقولهم ، وأن دعاويهم مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الطاعنة على أهل التنجيم والطبائع (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) ، وقرأ

الجمهور : ستكتب بالتاء من فوق مبنياً للمفعول شهادتهم بالرفع مفرداً والزبيري كذلك إلا أنه بالياء ، والحسن كذلك إلا أنه بالتاء ، وجمع شهادتهم وابن عباس وزيد بن عليّ وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجحدري والأعرج بالنون مبنياً للفاعل شهادتهم على الإفراد . وقرأت فرقة (سيكتب) بالياء مبنياً للفاعل ، أي : الله ، شهادتهم بفتح التاء ، والمعنى أنه ستكتب شهادتهم على الملائكة بأنوثتهم ويسألون ، وهذا وعيد . (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم) الضمير للملائكة ، قال قتادة ومقاتل : في آخرين ، وقال مجاهد ؛ الأوثان علقوا انتفاء العبادة على المشيئة ، لكن العبادة وجدت لما انتفت المشيئة ، فالمعنى : أنه شاء العبادة ، ووقع ما شاء ، وقد جعلوا إمهال الله لهم وإحسانه إليهم وهم يعبدون غيره دليلاً على أنه يرضى ذلك ديناً . وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة في أواخر الأنعام ، وفي الكلام حذف ، أي فنحن لا نؤاخذ بذلك إذ هو وفق مشيئة الله ، ولهذا قال : (ما لهم بذلك من علم) أي : بما ترتب على عبادتهم من العقاب (إن هم إلا يخرصون) أي : يكذبون ، وقيل : الإشارة بذلك إلى ادعائهم أن الملائكة إناث . وقال الزمخشري : هما كفرتان مضموتان إلى الكفرات الثلاث ، وهم عبادتهم الملائكة من دون الله ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئته ، كما يقول إخوانهم المجبرة انتهى . جعل أهل السنة أخوات للكفرة عباد الملائكة ، ثم أورد سؤالاً وجوباً جارياً على ما اختاره من مذهب الاعتزال يوقف على ذلك في كتابه ، ولما نفى عنهم علم ترك عقابهم على عبادة غير الله ، أي : ليس يدل على ذلك عقل نفى أيضاً أن يدل على ذلك سمع ، فقال : (أم آتيناهم كتاباً) من قبل نزول القرآن ، أو من قبل إنذار الرسل يدل على تجويز عبادتهم غير الله ، وأنه لا يترتب على ذلك ، ثم أخبر تعالى أنهم في ذلك مقلدون لآبائهم ، ولا دليل لهم من عقل ولا نقل ، ومعنى على أمّة أي طريقة ، ودين وعادة ، فقد سلكنا مسلكهم ، ونحن مهتدون في اتباع آثارهم ، ومنه قول قيس بن الحطيم :

كُنَّـا عَلَى أُمَّـةِ آبـائِنَـا وَيَقْتَدِي بِالأَوَّلِ الآخِـرُ[1]

وقرأ الجمهور : أمّة بضم الهمزة ، وقال مجاهد وقطرب : على ملة ، وقال الجوهري : والأمّة : الطريقة ، والذي يقال فلان لا أمّة له ، أي : لا دين ولا نِحلة .

قال الشاعر :

وَهَل يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفورُ

وتقدّم الكلام في أمّة في قوله : ﴿ وادّكر بعد أمّة ﴾ [يوسف ٤٥] ، وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري بكسر الهمزة ، وهي الطريقة الحسنة لغة في الأمّة بالضم ، قاله الجوهري ، وقرأ ابن عباس : أَمّة بفتح الهمزة ، أي : على قصد ، وحال والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول . وحكى مقاتل أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وأبي سفيان ، وأبي جهل وعتبة ، وشيبة بن أبي ربيعة ، من قريش أي : كما قال من قبلهم أيضاً يسلي رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك ، والمترف : المنعم أبطرتهم النعمة ، فآثروا الشهوات ، وكرهوا مشاق التكاليف . وقرأ الجمهور قل على الأمر وابن عامر وحفص قال على الخبر . وقرأ الجمهور : (جئتكم) بتاء المتكلم ، وأبي جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وأبو شيخ الهنائي وخالد (جئناكم) بنون المتكلمين ، والظاهر أن الضمير في قال ، أو في قل للرسول أي : قل يا محمد لقومك أتتبعون آباءكم ، ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم ، وهذا تجهيل لهم حيث يقلدون ، ولا ينظرون في الدلائل ، قالوا : إنا بما أرسلتم أنت ، والرسل قبلك غلب الخطاب على الغيبة ، فانتقمنا منهم

---

(١) البيت من السريع وليس في ديوانه انظر القرطبي (١٦/ ٥٠) روح المعاني (٢٥/ ٧٣) .

بالقحط ، والقتل ، والسبي والجلاء ، فانظر كيف كان عاقبة من كذبك . وقال ابن عطية : في قال ضمير يعود على النذير ، وباقي الآية يدل على أن قل في قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد ـ ﷺ ـ وإنما هي حكاية لما أمر به النذير ، ولو في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى أن كان معنى الآية وإن جئتكم بأبين ، وأوضح مما كان عليه آباؤكم يصحبكم لجاجكم ، وتقليدكم فأجاب الكفار حينئذ من الأمم المكذبة بأنبيائها كما كذبت بمحمد ـ ﷺ ـ ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر هو ما قدمناه ، (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه) وذكر العرب بحال جدّهم الأعلى ، ونهيه عن عبادة غير الله ، وإفراده بالتوحيد والعبادة هزؤاً لهم ، ليكون لهم رجوع إلى دين جدهم إذ كان أشرف آبائهم ، والمجمع على محبته وأنه ـ ﷺ ـ لم يقلد أباه في عبادة الأصنام ، فينبغي أن تقتدوا به في ترك تقليد آبائكم الأقربين ، وترجعوا إلى النظر واتباع الحق . وقرأ الجمهور براء مصدر ، يستوي فيه المفرد والمذكر ، ومقابلهما يقال : نحن البراء منك ، وهي لغة العالية ، وقرأ الزعفراني والقورصي عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع بضم الباء ، والأعمش بريء ، وهي لغة نجد وشيخيه ، ويجمع ويؤنث ، وهذا نحو طويل وطوال وكريم وكرام . وقرأ الأعمش : إني بنون مشددة دون نون الوقاية ، والجمهور إنني بنوني الأولى مشددة ، والظاهر أن قوله : (إلا الذي فطرني) استثناء منقطع ، إذ كانوا لا يعبدون الله مع أصنامهم ، وقيل : كانوا يشركون أصنامهم معه تعالى في العبادة، فيكون استثناء متصلاً ، وعلى الوجهين ، فالذي في موضع نصب ، وإذا كان استثناء متصلاً كانت شاملة من يعلم ومن لا يعلم ، وأجاز الزمخشري أن يكون الذي مجروراً بدلاً من المجرور بمن ، كأنه قال : إنني براء مما تعبدون إلا من الذي ، وأن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن ما في ما تعبدون نكرة موصوفة تقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ، فهو نظير قوله : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء ٢٢] انتهى . ووجه البدل لا يجوز ، لأنه إنما يكون في غير الموجب من النفي والنهي والاستفهام ، ألا ترى أنه يصلح ما بعد إلا لتفريغ العامل له ، وإنني بريء جملة موجبة فلا يصلح أن يفرغ العامل فيها للذي هو بريء لما بعد إلا ، وعن الزمخشري كون بريء فيه معنى الانتفاء ، ومع ذلك فهو موجب لا يجوز أن يفرغ لما بعد إلا ، وأما تقديره ما نكرة موصوفة فلم يبقها موصولة لاعتقاده أن إلا لا تكون صفة إلا لنكرة ، وهذه المسألة فيها خلاف من النحويين من قال توصف بها النكرة والمعرفة فعلى هذا تبقى ما موصولة ، ويكون إلا في موضع الصفة للمعرفة ، وجعله فطرني في صلة الذي تنبيه على أنه لا يعبد، ولا يستحق العبادة إلا الخالق للعبادة (فإنه سيهدين) أي يديم هدايتي ، وفي مكان آخر الذي خلقني فهو يهدين فهو هاديه في المستقبل والحال ، والضمير في جعلها المرفوع عائد على إبراهيم ، وقيل : على الله ، والضمير المنصوب عائد على كلمة التوحيد التي تكلم بها ، وهي قوله (إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني) ، وقال قتادة ومجاهد والسدي : لا إله إلا الله ، وإن لم يجر لها ذكر ، لأن اللفظ يتضمنها . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام لقوله : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة ١٢٨] ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت ﴾ [البقرة ١٣١] ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ [الحج ٧٨]، وقرأ حميد بن قيس : (كلمة) بكسر الكاف ، وسكون اللام ، وقرىء في عقبه بسكون القاف ، أي : في ذريته ، وقرىء في عاقبه أي : من عقبه ، أي : خلفه ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ، ويدعو إلى توحيده لعلهم ، أي : لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، وقرأ الجمهور (بل متعت) بتاء المتكلم ، والإشارة بهؤلاء لقريش ، ومن كان من عقب إبراهيم عليه السلام من العرب لما قال في عقبه قال تعالى (لكن متعت هؤلاء) وأنعمت عليهم في كفرهم فليسوا بمن تعقب كلمة التوحيد فيهم . وقرأ قتادة والأعمش (بل متعت) بتاء الخطاب ، ورواها يعقوب عن نافع قال صاحب اللوامح : وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى ، والظاهر أنه من مناجاة محمد ـ ﷺ ـ أي : قال يا رب بل متعت ، وقرأ الأعمش : (متعنا) بنون العظمة ، وهي تعضد قراءة الجمهور (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن ، ورسول مبين هو محمد ـ ﷺ ـ ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : فما وجه من قرأ بل متعت بفتح التاء (قلت :) كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله : (وجعلها كلمة باقية في

عقبه لعلهم يرجعون) فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ، لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر ، والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ، ويجعلوا له أنداداً فمثاله : أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه ، فيقول : أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله . (فإن قلت :) قد جعل مجيء الحق ، والرسول غاية للتمتيع ، ثم أردفه قوله : (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر) فما طريقة هذا النظم ومؤداه (قلت :) المراد بالتمتيع ماهو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ، ومقتضياته ، فقال عز وعلا بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم، لاقتضائها التنبه، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاؤوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها ، وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ، ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة ، والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد ـ ﷺ ـ من أهل زمانه بقولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم انتهى . وهو حسن ، لكن فيه إسهاب ، والضمير في وقالوا لقريش كانوا قد استبعدوا أن يرسل الله من البشر رسولاً ، فاستفاض عندهم أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل ـ صلى الله عليهم ـ فلما لم يكن لهم في ذلك مدفع ناقضوا فيما يخص محمداً ـ ﷺ ـ فقالوا : لم كان محمداً ، ولم يكن القرآن ينزل على رجل من القريتين عظيم ، أشاروا إلى من عظم قدره بالسن والقدم ، والجاه وكثرة المال . وقرىء على رجل بسكون الجيم من القريتين أي : من إحدى القريتين ، وقيل : من رجل القريتين ، وهما مكة والطائف .

وقال ابن عباس : والذي من مكة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل[١] . وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . قال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه ، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش ، وكان يقول لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل علي ، أو على ابن مسعود يعني عروة بن مسعود ، وكان يكنى أبا مسعود ، (أهم يقسمون رحمة ربك) فيه توبيخ ، وتعجيب من جهلهم ، كأنه قيل على اختيارهم وإرادتهم تقسم الفضائل من النبوة ، وغيرها . ثم في إضافته في قوله : (رحمة ربك) تشريف لـه ـ ﷺ ـ وأن هذه الـرحمة التي حصلت لـك ليست إلا من ربك ، المصلح لحالك ، والمربيك ، ثم أخبر تعالى أنه هو الذي قسم المعيشة بينهم فلم يحصل لأحد إلا ما قسمه تعالى ، وإذا كان تعالى هو الذي تولى ذلك وفاوت بينهم ، وذلك في الأمر الفاني فكيف لا يتولى الأمر الخطير ، وهو إرسال من يشاء ، فليس لكم أن تتخيروا من يصلح لذلك ، بل أنتم عاجزون عن تدبير أموركم . وقرأ الجمهور (معيشتهم) على الإفراد ، وعبد الله والأعمش وابن عباس وسفيان (معائشهم) على الجمع ، والجمهور (سُخرياً) بضم السين ، وعمرو بن ميمون وابن محيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم وابن عامر بكسرها وهو من التسخير ، بمعنى الاستعباد والاستخدام ليرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك ، وضاع وهلك ، ويبعد أن يكون سخرياً هنا من الهزء ، وقد قال بعضهم : أي الغني بالفقير ، وفي قوله (نحن قسمنا) تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا ، وهون على التوكل على الله . وقال مقاتل : فاضلنا بينهم فمن رئيس ومرؤوس، وقال قتادة: تلقى ضعيف القوة قليل الحيلة غني اللسان ، وهو مبسوط له ، وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه ، وقال الشافعي رحمه الله :

---

(١) انظر البغوي ٤/١٣٧ والقرطبي ١٦/٥٦ والوسيط ٤٤ خ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ بُؤْسَ الْفَقِيرِ وَطِيبَ عَيْشِ الأَحْمَقِ[١]

ورحمة ربك قيل : النبوة[٢] وقيل : الهداية والإيمان ، وقال قتادة والسدي : الجنة خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا ، في هذا اللفظ تحقير للدنيا، وما جمع فيها من متاعها .

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ، أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ، واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ بين تعالى أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله ، أي : ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة ، ويصيروا أمة واحدة في الكفر . قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي : لأعطيناهم من زينة الدنيا كذا وكذا ، ولكن تعالى اقتضت حكمته أن يغني ويفقر الكافر والمؤمن . قال ابن عطية : واللام في (لمن يكفر) لام الملك ، وفي (لبيوتهم) لام تخصيص ، كما تقول هذا الكساء لزيد لدابته ، أي : هو لدابته جلس ، ولزيد ملك انتهى ، ولا يصح ما قاله ، لأن لبيوتهم بدل اشتمال أعيد معه العامل ، فلا يمكن من حيث هو بَدلٌ أن تكون اللام الثانية إلا بمعنى اللام الأولى ، أما أن يختلف المدلول فلا ، واللام في كليهما للتخصيص . وقال الزمخشري : لبيوتهم بدل اشتمال من قوله (لمن يكفر) ويجوز أن تكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوباً لقميصه انتهى . ولا أدري ما أراد بقوله : ويجوز إلى آخره . وقرأ الجمهور (سُقُفاً) بضمتين ، وأبو رجاء بضم وسكون ، وهما جمع : سقف لغة تميم ، كرهن ورهن وابن كثير وأبو عمر وبفتح السين والسكون على الإفراد ، وقال الفراء : جمع سقيفة ، وقرىء بفتحتين كأنه لغة في سقف ، وقرىء سقوفاً جمعاً على فعول ، نحو كعب وكعوب ، وقرأ الجمهور : (ومعارج) جمع معرج ، وطلحة (ومعاريج) جمع معراج ، وهي المصاعد إلى العلالي (عليها) (أي : يعلون السطوح ، كما قال (فما اسطاعوا أن يظهروه) الكهف ٩٧ ، وقرأ الجمهورُ : (وسُرراً) بضم السين ، وقرىء بفتحها ، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب ، وذلك في جمع فعيل المضعف إذا كان اسماً باتفاق، وصفةنحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة ، وهذه الأسماء معاطيف على قوله (سقفاً من فضة) فلا يتعين أن توصف المعاطيف بكونها من فضة ، وقال الزمخشري : سقوفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً كلها من فضة انتهى . كأنه يرى اشتراك المعاطيف في وصف ما عطفت عليه وزخرفاً . قال الزمخشري : وجعلنا لهم زخرفاً ، ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضة وزخرف يعني : بعضها من فضة ، وبعضها من ذهب . فنصب عطفاً على محل من فضة انتهى . والزخرف : الذهب هنا ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ، وفي الحديث : « إياكم والحمرة[٣] فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان » . قال ابن عطية : الحسن أحمر ، والشهوات تتبعه انتهى . قال بعض شعرائنا :

---

(١) تقدم .

(٢) انظر البغوي ١٣٨/٤ والقرطبي ٥٦/١٦ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٤٨/١٨ والهيثمي في المجمع ٥/ ١٣٠ في كتاب اللباس باب ما جاء في الصباغ ، وقال رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن خالد بن نجيح البكري العبدي ولم أعرفه وفي الآخر بكر بن محمد وروي عن سعيد عن شعبة وبقية رجالهما ثقات .

لَمَّـا رَأَيْت الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَـرا ... وَصَبَغْت دِرْعَـكَ مِنْ دِمَـاءِ كُمَـاتِهِمْ[١]

وقال ابن زيد : الزخرف أثاث البيت ، وما يتخذ له من السرر والنمارق ، وقال الحسن : النقوش[٢] ، وقيل : التزاويق كالنقش ، وقرأ الجمهور لما بفتح اللام وتخفيف الميم ، وهي مخففة من الثقيلة ، واللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما زائدة ومتاع خبر كل . وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم ، وأن نافية ، ولما بمعنى إلا . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة لما بكسر اللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما زائدة ومتاع خبر كل . وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم ، وأن نافية ، ولما بمعنى إلا . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة لما بكسر اللام وخرّجوه على أن ما موصولة ، والعائد محذوف تقديره للذي هو متاع كقوله : (تماماً على الذي هو أحسن) وأن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة ، وكل مبتدأ وخبره في المجرور ، أي : وأن كل ذلك لكائن ، أو لمستقر الذي هو متاع ، ومن حيث هي المخففة من الثقيلة ، كان الإتيان باللام هو الوجه ، فكان يكون التركيب لكما متاع ، لكنه قد تحذف هذه اللام إذا دل المعنى على أن إن هي المخففة من الثقيلة فلا يجر إلى ذكر اللام الفارقة ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَنَحْنُ أُبَاةُ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ ... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ الْمَعَادِنِ[٣]

يريد لكانت ، ولكنه حذف ، لأنه لا يتوهم في إن أن تكون نافية ، لأن صدر البيت يدل على المدح وتعين أن لكونها المخففة من الثقيلة ، والآخرة عند ربك للمتقين ، أي : ونعيم الآخرة ، وفيه : تحريض على التقوى ، وقرأ (من يعشُ) بضم الشين ، أي يتعام ويتجاهل عن ذكره ، وهو يعرف الحق ، وقيل : يقل نظره في شرع الله ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن ، والذكر هنا : يجوز أن يراد به القرآن ، واحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول ، أي : يعش عن أن يذكر الرحمن . وقال ابن عطية : أي : فيما ذكر عباده ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل انتهى . كأنه يريد بالذكر التذكير ، وقرأ يحيى بن سلام البصري : (ومن يعشَ) بفتح الشين أي : يعم عن ذكر الرحمن ، وهو القرآن كقوله : (صم بكم عمي) ، وقرأ زيد ابن علي : يعشو بالواو . وقال الزمخشري على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارىء أن يرفع نقيض انتهى . ولا يتعين ما قاله إذ تتخرج ، هذه القراءة على وجهين : أحدهما : أن تكون من شرطية ، ويعشو مجزوم بحذف الحركة تقديراً ، وقد ذكر الأخفش : أن ذلك لغة بعض العرب ، ويحذفون حروف العلة للجازم ، والمشهور عند النحاة أن ذلك يكون في الشعر لا في الكلام والوجه الثاني: أن تكون من موصولة، والجزم بسببها للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعاً في الذي ، وهو لم يكن اسم شرط قط ، فالأولى أن يكون فيما استعمل موصولاً وشرطاً ، قال الشاعر :

وَلَا تَحْفِـرَنْ بِئْراً تُـرِيدُ أَخَـاً بِهَـا ... فَإِنَّكَ فِيهَا أَنْت مِنْ دُونِهِ تَقَـعْ[٤]
كَذَاكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً ... تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ

أنشدهما ابن الأعرابي ، وهو مذهب الكوفيين ، وله وجه من القياس ، وهو أنه كما شبه الموصول بـاسم الشرط فدخلت الفاء في خبره ، فكذلك يشبه به فينجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسبباً عن الصلة بشروطه

---

(١) البيت في روح المعاني (٢٥/ ٨٠) .
(٢) انظر القرطبي ٥٩/١٦ .
(٣) انظر المصدر السابق .
(٤) البيتان من الطويل انظر روح المعاني (٢٥/ ٨١) وتقدم البيت الثاني في سورة البقرة .

المذكورة في علم النحو ، وهذا لا ينفيه البصريون . وقرأ الجمهور : (نقيض) بالنون ، وعلي والسلمي والأعمش ويعقوب وأبو عمر ، وبخلاف عنه ، حماد عن عاصم وعصمة عن الأعمش ، وعن عاصم والعليمي عن أبي بكر بالياء ، أي : (يقيض الرحمن) وابن عباس (يُقيَّض) مبنياً للمفعول له شيطان بالرفع ، أي : ييسر له شيطان ويعد له، وهذا عقاب على الكفر بالحتم وعدم الفلاح . كما يقال : إن الله يعاقب على المعصية بالتزايد من السيئات . وقال الزمخشري : يخذله ويحل بينه وبين الشياطين، كقوله ﴿وقضينا لهم قرناء﴾ [فصلت ٢٥] ﴿ألم تر أرسلنا الشياطين﴾ [مريم ٨٣] انتهى . وهو على طريقة الاعتزال ، والظاهر أن ضمير النصب في (وإنهم ليصدونهم) عائد على من على المعنى أعاد أولاً على اللفظ في إفراد الضمير ، ثم أعاد على المعنى ، والضمير في يصدونهم عائد على شيطان ، وإن كان مفرداً ، لأنه مبهم في جنسه ، ولكل عاش شيطان قرين فجاز أن يعود الضمير مجموعاً . وقال ابن عطية : والضمير في قوله (وإنهم) عائد على الشيطان ، وفي (ليصدونهم) عائد على الكفار انتهى . والأولى ما ذكرناه لتناسق الضمائر في وإنهم وفي ليصدونهم وفي ويحسبون لمدلول واحد ، كأن الكلام : وأن العشاة ليصدونهم الشياطين عن السبيل ، أي : سبيل الهدى والفوز ، ويحسبون أي : الكفار ، وقرأ أبو جعفر وشيبة وقتادة والزهري والجحدري وأبو بكر والحرميان : (حتى إذا جاءانا) على التثنية ، أي : العاشي والقرين إعادة على لفظ من ، والشيطان القرين ، وإن كان من حيث المعنى صالحاً للجمع . وقرأ الأعمش : والأعرج وعيسى : وابن محيصن ، والأخوان (جاءنا) على الإفراد ، والضمير عائد على لفظ من أعاد أولاً على اللفظ ، ثم جمع على المعنى ثم أفرد على اللفظ ، ونظير ذلك ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ [الطلاق ١١] أفرد أولاً ثم جمع في قوله (خالدين) ثم أفرد في قوله : (له رزقاً) ، روى أنهما يجعلان يوم البعث في سلسلة فلا يفترقان حتى يصيرهما الله إلى النار[١] ، قال : أي الكافر للشيطان (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) تمنى لو كان ذلك في الدنيا حتى لا يصدّه عن سبيل الله ، أو تمنى ذلك في الآخرة وهو الظاهر ، لأنه جواب إذا التي للاستقبال ، أي : مشرقي الشمس مشرقها في أقصر يوم من السنة ومشرقها في أطول يوم من السنة ، قاله ابن السائب ، أو بعد المشرق أو المغرب غلب المشرق فثناهما ، كما قالوا العمران في أبي بكر وعمر ، والقمران في الشمس والقمر ، والموصلان في الجزيرة والموصل ، والزهد مان في زهدم وكردم ، والعجاجان في رؤبة والعجاج ، والأبوان في الأب والأم ، وهذا اختيار الفراء والزجاج ، ولم يذكره الزمخشري قال : (فإن قلت :) فما بعد المشرقين (قلت :) تباعدهما ، والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق ، فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية أضاف البعد إليهما انتهى . وقيل : بعد المشرقين من المغربين ، واكتفى بذكر المشرقين وكأنه في هذا القول يريد مشرقي الشمس والقمر ومغربيهما (فبئس القرين) مبالغة منه في ذم قرينه إذا كان سبب إيراده النار ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي : فبئس القرين أنت (ولن ينفعكم اليوم) حكاية حال ، يقال لهم يوم القيامة ، وهي مقالة موحشة حرمتهم روح التأسي ، لأنه وقفهم بها على أنه لا ينفعهم التأسي لعظم المصيبة ، وطول العذاب ، واستمراره مدته إذ التأسي راحة كل مصاب في الدنيا في الأغلب ، ألا ترى إلى قول الخنساء :

وَلَـوْلَا كَثْرَةُ الْبَـاكِيـنَ حَـوْلِي ... عَـلَى إِخْـوَانِـهِمْ لَـقَـتَـلْتُ نَـفْسِي[٢]
وَمَـا يَـبْكُـونَ مِـثْـلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَـزِّي الـنَّـفْسَ عَـنْـهُ بِـالـتَّـأَسِّي

فهذا التأسي قد كفاها مؤنة قتل النفس ، فنفى الله عنهم الانتفاع بالتأسي ، وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل

---

(١) انظر الطبري ٤٥/٢٥ وتفسير عبد الرازق ١٠١٨/٣ وابن كثير ١٢٨/٤ والوسيط ٤٦٠ خ .

(٢) تقدم وانظر القرطبي (٦٢) الكشاف ٢٥٣/٤ . روح المعاني (٨٤/٢٥) وانظر ديوانها (٨٥) .

خير ، وهذا لا يكون إلا على تقدير أن يكون الفاعل ينفعكم أنكم ومعمولاها ، أي : ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب إن لن يخفف عنكم اشتراككم في العذاب ، وإذا كان الفاعل غير أن ، وهو ضمير يعود على ما يفهم من الكلام قبله أي : يتمنى مباعدة القرين والتبرؤ منه ، ويكون إنكم تعليلاً أي : لاشتراككم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه ، وهو الكفر ، وقال مقاتل : المعنى : ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم ، لأنكم وقرناءكم مشتركون في العذاب كما اشتركتم في الكفران في الدنيا ، وعلى كون الفاعل غير أن ، وهي قراءة الجمهور لا يتضمن الكلام نفي التأسي ، وقرىء إنكم بالكسر ، فدل على إضمار الفاعل ، ويقويه حمل (أنكم) بالفتح على التعليل ، واليوم وإذ ظرفان ، فاليوم ظرف حال وإذ ظرف ماض ، أما ظرف الحال فقد يعمل فيه المستقبل لقربه منه ، أو لتجوز في المستقبل كقوله : ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ [الجن ٩]، وقول الشاعر :

سَـأَشْقَـى الآنَ إذْ بَلَغت مُنَـاهَـا[1]

وأما إذ فماض لا يعمل فيه المستقبل ، فقال الزمخشري : وإذ بدل من اليوم انتهى . وحمل إذ ظلمتم على معنى إذ تبين ووضح ظلمكم ، ولم يبق لأحد ولا لكم شبهة في أنكم كنتم ظالمين . ونظيره :

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لم تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ[2]

أي : تبين أني ولد كريمة انتهى . ولا يجوز فيه البدل على بقاء إذ على موضوعها من كونها ظرفاً لما مضى من الزمان ، فإن جعلت لمطلق الوقت جاز ، وتخريجها على البدل أخذه الزمخشري من ابن جني ، قال في مساءلته أبا علي راجعته فيها مراراً ، وآخر ما حصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم الله وعلمه ، فيكون إذ بدلاً من اليوم حتى كأنها مستقبلة ، أو كأن اليوم ماض . وقيل : التقدير بعد إذ ظلمتم فحذف المضاف للعلم به . وقيل : إذ للتعليل حرفاً بمعنى إن .

وقال الحوفي : اليوم ظرف متعلق بينفعكم ، ولا يجوز تعلق إذ به ، لأنها ظرفا زمان يعني متغايرين في المعنى تغايراً لا يمكن أن يجتمعا ، قال : فلا يصح أن يكون بدلاً من الأخير ، يعني لذلك التغاير من كون هذا ظرف حال ، وهذ ظرف مضي ، قال : ولكن تكون إذ متعلقة بما دل عليه المعنى ، كأنه قال : ولن ينفعكم اجتماعكم ، ثم قال : وفاعل ينفعكم الاشتراك ، وقيل : الفاعل محذوف تقديره ظلمكم ، أو جحدكم ، وهو العامل في إذ لا ضمير الفاعل لما ذكر تعالى حال الكفار ، وما يقال لهم ، وكانت قريش تسمع ذلك فلا تزداد إلا عتواً واعتراضاً ، وكان هو ـ ﷺ ـ يجتهد في تحصيل الإيمان لهم ، خاطبه تعالى تسلية له باستفهام تعجيب ، أي : إن هؤلاء صم فلا يمكنك إسماعهم عمي حيارى ، فلا يمكنك أن تهديهم ، وإنما ذلك راجع إليه تعالى ، ولما كانت حواسهم لن ينتفعوا بها الانتفاع الذي يجري خلاصهم من عذاب الله جعلوا صماً عمياً حيارى ، ويريد بهم قريشاً فهم جامعو الأوصاف الثلاثة ، ولذلك عاد الضمير عليهم في قوله : (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون) ولم يجر لهم ذكر إلا في قوله : (أفأنت تسمع الصم) الآية ، والمعنى : إن قبضناك قبل نصرك عليهم ، فإنا منهم منتقمون في الآخرة . كقوله (أو نتوفينك فإلينا يرجعون أو نرينك الذي وعدناهم) من العذاب النازل بهم ، كيوم بدر (فإنا عليهم مقتدرون) أي : هم في قبضتنا ، لا يفوتوننا وهذا قول الجمهور . وقال الحسن

---

(١) عجز بيت من الوافر لعنترة انظر ديوانه (٧٧) .

(٢) من الطويل لزائد بن صعصعة انظر معاني الفراء (١ /٦١) وقد تقدم .

....

وقتادة : المتوعد هم الأمة أكرم الله تعالى نبيه عن أن ينتقم منهم في حياته كما انتقم من أمم الأنبياء في حياتهم فوقعت النقمة منهم بعد على موته عليه السلام في العين الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم ، وقرىء (نرينْك) بالنون الخفيفة ، ولما ردد تعالى بين حايته وموته ـ ﷺ ـ أمره بأن يستمسك بما أوحاه إليه ، وقرأ الجمهور (أُوحِي) مبنياً للمفعول ، وبعض قراء الشام بإسكان الياء والضحاك مبنياً للفاعل ، وأنه أي : وأن ما أوحينا إليك لذكر لك ولقومك ، أي : شرف حيث نزل عليهم ، وبلسانهم جعل تبعاً لهم ، والقوم على هذا قريش ، ثم العرب قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد كان عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، فإذا قالوا : لمن يكون الأمر بعدك ، سكت حتى نزلت هذه الآية ، فكان إذا سئل عن ذلك قال : لقريش ، فكانت العرب لا تقبل حتى قبلته الأنصار . وقال الحسن : القوم هنا أمّته ، والمعنى : وإنه لتذكرة وموعظة . قيل : وهذه الآية تدل على أن الإنسان يرغب في الثناء الحسن الجميل ، ولو لم يكن ذلك مرغوباً فيه ما امتن به تعالى على رسوله ، فقال : (وإنه لذكر لك ولقومك) ، وقال إبراهيم عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) والذكر الجميل قائم مقام الحياة ، بل هو أفضل من الحياة ، لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في الحي ، وأثر الذكر الجميل يحصل في كل مكان ، وفي كل زمان انتهى . وقال ابن دريد :

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ ... حَدِيثاً حَسَنَاً لِمَنْ وَعَى[١]

وقال الآخر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا مَحَاسِنُهَا ... طَيِّبُ مَا يَبْقَى مِنَ الْخَبَرِ[٢]

وذكر أن هلاون ملك التتر سأل أصحابه من الملك ؟ فقالوا : أنت الذي دوخت البلاد ، وملكت الأرض ، وطاعته لك الملوك ، فقال : لا الملك هذا ، وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن هذا الذي له أزيد من ستمائة سنة قد مات ، وهو يذكر على المآذن في كل يوم خمس مرات يريد محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ وسوف تسألون ، قال الحسن : عن شكر هذه النعمة[٣] . وقال مقاتل : المراد من كذب به يسأل سؤال توبيخ . (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) قيل : هو على ظاهره ، وأن جبريل عليه السلام قال له ليلة الإسراء حين أمّ بالأنبياء : واسأل من أرسلنا فلم يسألهم إذ كان أثبت يقيناً ، ولم يكن في شك[٤] وروى ذلك عن ابن عباس ، وابن جبير ، والزهري ، وابن زيد ، وفي الأثر ميكال قال لجبريل : هل سأل محمد عن ذلك ؟ فقال : هو أعظم يقيناً وأوثق إيماناً من أن يسأله ذلك[٥] وقال ابن عباس أيضاً والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء : أراد واسأل أتباع من أرسلنا ، وحملة شرائعهم إذ يستحيل سؤال الرسل أنفسهم ، وليسوا مجتمعين في الدنيا[٦] . قال الفراء : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الرسل ، والسؤال الواقع مجاز عن النظر ، حيث لا

---

(١) انظر روح المعاني (٨٥) .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر البغوي ٤/١٤٠ .

(٤) رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (انظر مجمع الزوائد كتاب الإيمان باب منه في الإسراء ١/٧٤ وانظر الطبري ٢٥/٤٧ والبغوي ٤/١٤١ والقرطبي ٨/٥١٩٥ وابن كثير ٣/٦ ، ٤/١٢٩ والخازن ٦/١٣٦ .

(٥) انظر الطبري ٢٥/٤٧ والقرطبي ٨/٥٩١٥ والبغوي ٤/١٤١ وابن كثير ٤/١٢٩ والوسيط ٤٧ خ .

(٦) انظر الطبري ٢٥/٤٦ والبغوي ٤/١٤١ والقرطبي ٨/٥٩١٦ وزاد المسير ٧/٣١٩ ومصنف عبد الرزاق ٦/١٣٥ وفتح القدير ٤/٥٥٨ والدر ٦/١٩ والوسيط ٤٧ خ .

يصلح لحقيقته كثير منه مساءلة الشعراء الديار والأطلال ، ومنه سيد الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجني ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً ، فالسؤال هنا مجاز عن النظر في أديانهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ، والذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات ، فقيل له : اسأل أيها الناظر أتباع الرسل ، أجاءت رسلهم بعبادة غير الله ، فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ، ولا يمكن أن يأتوا به ، وأبعد من ذهب إلى أن المعنى واسألني عن من أرسلنا ، وعلق واسأل فارتفع من وهو اسم استفهام على الابتداء ، وأرسلنا خبره في موضع نصب باسأل بعد إسقاط الخافض ، كان سؤاله من أرسلت يا رب قبلي من رسلك أجعلت في رسالته آلهة تعبد ، ثم ساق السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب إلى محمد في قوله : (من قبلك) .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ، وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ، وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين :

أحدهما : أنه لما تقدم طعن قريش على الرسول واختيارهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أي : في الجاه والمال ، وذكر أن مثل ذلك سبقهم إليه فرعون في قوله ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ [الزخرف ٥١] إلى آخر الآية أتبعه بالملك والمال ، ففرعون قدوتهم في ذلك ، ومع ذلك فصار فرعون مقهوراً مع موسى منتقماً منه ، فكذلك قريش ، والوجه الثاني أنه لما قال : (واسأل من أرسلنا) الآية . ذكر وقته موسى وعيسى ، وهما أكبر اتباعاً ممن سبقهم من الأنبياء ، وكل جاء بالدعاء إلى الله وإفراده بالعبادة ، فلم يكن فيها جاء أبداً إباحة اتخاذ آلهة من دون الله كما اتخذت قريش ، فناسب ذكر قصتهما للآية التي قبلها ، وآيات موسى هي المعجزات التي أتى بها وخص الملائكة بالذكر وهم الأشراف ، لأن غيرهم من الناس تبع لهم . فلما جاءهم بآياتنا قبله كلام محذوف تقديره : فطالبوه بما يدل على صحة دعواه الرسالة من الله ، فلما جاءهم بآياتنا وهي انقلاب العصا ثعباناً ، وعودها عصاً ، وإخراج اليد البيضاء نيرة ، وعودها إلى لونها الأول إذا هم منها يضحكون ، أي : فاجأهم الضحك بحيث لم يفكروا ، ولم يتأملوا ، بل بنفس ما رأوا ذلك ضحكوا سخرية واستهزاء كما كانت قريش تضحك . قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة . (قلت :) لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضحكهم انتهى . ولا نعلم نحوياً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ ، بل المذاهب فيه ثلاثة مذهب : انها حرف فلا تحتاج إلى عامل . ومذهب أنها ظرف مكان ، فإن صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملاً فيها ، نحو : خرجت فإذا زيد قائم ، فقائم ناصب لا إذا ، كأن التقدير : خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم .

ومذهب : أنها ظرف زمان ، والعامل فيه الخبر أيضاً ، كأنه قال : ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم ، وإن لم يذكر بعد الاسم خبر ، أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت إذا خبراً للمبتدأ ، فإن كان المبتدأ جثة ، وقلنا إذا ظرف

مكان ، كان الأمر واضحاً ، وإن قلنا ظرف زمان ، كان الكلام على حذف أي ففي الزمان حضور زيد ، وما ادعاه الزمخشري من إضمار فعل المفاجأة لم ينطق به ، ولا في موضع واحد ، ثم المفاجأة التي ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق ، بل المعنى يدل على أن المفاجأة تكون من الكلام الذي فيه إذا تقول : خرجت فإذا الأسد ، والمعنى ففاجأني الأسد ، وليس المعنى ففاجأت الأسد ، (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) قال الزمخشري : (فإن قلت :) إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات (قلت :) أختها التي هي آية مثلها ، وهذه صفة كل واحدة منها ، فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات . (قلت :) أختها التي هي آية مثلتها على سبيل التفضيل والاستقراء ، واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيته ، تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم ، إذا قدرتهم رجلاً (فإن قلت :) فهو كلام متناقض ، لأن معناه ما من آية من التسع إلا وهي أكبر من كل واحدة منها ، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة . (قلت :) الغرض بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل ، وتتقارب منازلهم فيه التقارب اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى هذا بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا ، وتارة يفضل ذاك . ومنه بيت الحماسة :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُـلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي[(١)]

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها ، ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها انتهى . وهو كلام طويل ملخصه أن الوصف بالأكبرية مجاز ، وأن ذلك بالنسبة إلى الناظرين فيها[(٢)] . وقال ابن عطية : عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة أمرها ، وحدوثه وذلك أن آية عرضها موسى هي العصا واليد ، وكانت أكبر آياته ، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندها مجيئها ، وتكبر ، لأنهم كانوا نسوا التي قبلها فهذا كما قال الشاعر :

عَلَى أَنَّهَـا تَعْفُـو الْكُلُومَ وَإِنَّمَـا ... يُوَكَّلُ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي[(٣)]

وذهب الطبري إلى أن الآيات هنا الحجج والبيانات انتهى . وقيل : كانت من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ، فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة ، أي : من أختها السابقة عليها ، ولا يبقى في الكلام تعارض ، ولا يكون ذلك الحكم في الآية الأولى ، لأنه لم يسبقها شيء ، فتكون أكبر منه ، وقيل : الأولى تقتضي علماً ، والثانية تقتضي علماً منضماً إلى علم الأولى ، فيزداد الرجوح ، وكنى بأختها مناسبتها . تقول هذه الذرة أخت هذه ، أي : مناسبتها ،

---

(١) البيت من البسيط لعبيد بن العرندس انظر الكامل (٧٨/١) الحماسة البصرية (٤٧٨/١) الكشاف (٢٥٦/٤) روح المعاني (٨٧/٢٥) .

(٢) قلت وما ذكره الزمخشري هو المتبادر من الآية ويؤيد شيوع إدارة ذلك المعنى في مثل هذا التركيب وإن في نقل المصنف رحمه الله خلو الآية من الأكبرية دون ما ذكر الزمخشري أيضاً في أفعل التفضيل على ما ذكر الزمخشري معنى التفضيل قال ابن المنير والظاهر في تسويغ هذا الإطلاق والله أعلم أن محل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته حتى يجزم أنها النهاية وأن كل آية دونها .
والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منها ليحقق عنده الفاضلة من المفضولة بل مهما أفردوه بالفكر جزم بأنه النهاية ، وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يراد من أمثاله الانتصاف ٤٩٠/٣ ـ ٤٩١ .

(٣) من الطويل لأبي خراش الهذلي انظر الخصائص (١٧٠/٢) ابن يعيش (١١٧/٣٠) أمالي القالي (٢٧١/١) الخزانة (٤٥٨/٥) . المغني (١٤٥) .

وأخذناهم بالعذاب بالسنين ، ونقص من الثمرات والطوفان ، والجراد والقمل والضفادع والدم ، وذلك عقاب لهم ، وآيات لموسى لعلهم يرجعون عن كفرهم . قال الزمخشري : (لعلهم يرجعون) أراد أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ، (فإن قلت :) لو أراد رجوعهم لكان . (قلت :) إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ، ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ، وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على اختيار المكلف ، وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ، ولم يختاروه انتهى . وهو على طريق اعتزال ، وقال ابن عطية : لعلهم ترجّ بحسب معتقد البشر وظنهم .
(وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك) أي : في كشف العذاب . قال الجمهور : هو خطاب تعظيم ، لأن السحر كان علم زمانهم أو لأنهم استصحبوا له ما كانوا يدعون به أولاً ، ويكون قولهم : (بما عهد عندك إننا لمهتدون) إخبار مطابق مقصود ، وقيل : بل خطاب استهزاء وانتقاص ، ويكون قولهم : (بما عهد عندك) أي : على زعمك ، وقوله : (وإننا لمهتدون) إخبار مطابق على شرط دعائه ، وكشف العذاب وعهد معزوم على نكثه ، ألا ترى (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) وعلى القول الأول يكون قوله : (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون)[الزخرف ٥٠] جارياً على أكثر عادة الناس إذا مسه الضر تضرع ودعا ، وإذا كشف عنه رجع إلى عادته الأولى ، كقوله : (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ﴿ ثم إذا كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ [يونس ١٢] وقوله : (بما عهد عندك) محتمل أن يكون من أن دعوتك مستجابة ، وفي الكلام حذف أي : فدعا موسى ، فكشف فلما كشفنا ، وقرأ أبو حيوة : (ينكثون) بكسر الكاف ، (ونادى فرعون في قومه) جعل القوم محلاً للنداء ، والظاهر أنه نادى عظماء القبط في محله الذي هو وهم يجتمعون فيه ، فرفع صوته فيما بينهم لتنتشر مقالته في جميع القبط ، ويجوز أن يكون أمر بالنداء فأسند إليه ، وسبب ندائه ذلك أن لما رأى إجابة الله دعوة موسى ورفع العذاب خاف ميل القوم إليه ، فنادى (قال يا قوم أليس لي ملك مصر) أراد أن يبين فضله على موسى بملك مصر ، وهي من إسكندرية إلى أسوان ، وهذه الأنهار أي : الخلجان التي تجري من النيل ، وأعظمها نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس ، والواو في (وهذه الأنهار) واو الحال ، وتجري خبر ، وهذه والأنهار صفة ، أو عطف بيان ، وجوز أن تكون الواو عاطفة على ملك مصر ، وتجري حال من تحتي ، أي : من تحت قهري وملكي . كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصره ، وقيل : كان له سرير عظيم ، وقطع من نيل مصر قطعة قسمها أنهاراً تجري من تحت ذلك السرير ، وأبعد الضحاك في تفسيره الأنهار بالقواد والرؤساء الجبابرة يسيرون تحت لوائه ، ومن فسرها بالأموال يعرفها من تحت يده ، ومن فسرها بالخيل فقيل كما سمي الفرس بحراً يسمى نهراً ، وهذه الأقوال الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية ، (أفلا تبصرون) عظمتي وقدرتي ، وعجز موسى ، وقرأ مهدي بن الصفير : (يبصرون) بياء الغيبة ، ذكره في الكامل للهذلي ، والسباعي عن يعقوب ذكره ابن خالويه . قال الزمخشري : وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوى الربوبية همة من تعاظم بملك مصر ، وعجب الناس من مدى عظمته ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها لئلا تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير ، حتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته ، وكسر نون (أفلا تبصرون) عيسى ، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال لأولينها أحسن عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها ووقع عليها قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : أليس ليس ملك مصر ، والله لهي أقل عندي من أن أدخلها ، فثنى عنانه (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) الظاهر أنها أم المنقطعة المقدرة ببل ، والهمزة ، أي : بل أنا خير ، وهو إذا استفهم أهو خير ممن هو ضعيف لا يكاد يفصح عن مقصوده إذا تكلم ، وهو الملك المتحكم فيهم قالوا له بلا شك أنت خير . وقال السدي وأبو عبيدة : أم بمعنى بل ، فيكون انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خير ممن ذكر كقول الشاعر :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى وَصُورَتُهَا أَم أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ[١]

وقال سيبويه : أم هذه المعادلة ، أي : أم يبصرون الأمر الذي هو حقيقي أن يبصر عنده ، وهو أنه خير من موسى ، وهذا القول بدأ به الزمخشري ، فقال : أم هذه متصلة ، لأن المعنى أفلا تبصرون ، أم تبصرون إلا أنه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا : أنت خير فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب انتهى . وهذا القول متكلف جداً إذ المعادل إنما يكون مقابلاً للسابق ، وإن كان السابق جملة فعلية كان المعادل جملة فعلية ، أو جملة اسمية يتقدر منها فعلية ، كقوله : ﴿ أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ [الأعراف ١٩٣] لأن معناه أم صمتم ، وهنا لا يتقدر منها جملة[٢] فعلية لأن قوله : أم أنا خير ، ليس مقابلاً لقوله أفلا تبصرون ، وإن كان السابق اسماً ، كان المعادل اسماً أو جملة فعلية يتقدر منها اسم ، نحو قوله :

أَمُخْدِجُ الْيَدَيْنِ أَمْ أَتَمَّتِ[٣]

فأتمت معادل للاسم ، فالتقدير أم متماً ، وقيل : حذف المعادل بعد أم لدلالة المعنى عليه ، إذ التقدير تبصرون ، فحذف تبصرون وهذا لا يجوز إلا إذا كان بعد أم لا ، نحو أيقوم زيد أم لا ؟ تقديره أم لا يقوم ، وأزيد عندك أم لا ؟ أي : أم لا هو عندك ، فأما حذفه دون لا ، فليس من كلامهم[٤] ، وقد جاء حذف أم والمعادل وهو قليل[٥] قال الشاعر :

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهَا سَمِيعٌ فَمَا أَدْرِي أَرُشْدٌ طِلَابُهَا[٦]

يريد أم غيّ ، وحكى الفراء أنه قرأ : (أما أنا خير) دخلت الهمزة على ما النافية فأفادت التقدير ، (ولا يكاد يبين) الجمهور أنه كان بلسانه بعض شيء من أثر الجمرة ، ومن ذهب إلى أن الله كان أجابه في سؤاله ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ [طه ٢٧] فلم يبق لها أثر جعل انتفاء الإبانة بأنه لا يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعي ، لأنه لا قدرة له على إيضاح المعنى لأجل كلامه ، وقيل : عابه بما كان عليه موسى من الحسة أيام كان عند فرعون ، فنسب إلى ما عهده مبالغة في التعيير ، وقول فرعون : (ولا يكاد يبين) كذب بحت ، ألا ترى إلى مناظرته له وردّه عليه وإفحامه بالحجة ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم بلغاء ، وقرأ الباقر : (يبين) بفتح الياء من باب إذا ظهر (فلولا ألقى عليه أساورة من ذهب) قال مجاهد كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة لسؤدده[٧] ، قال فرعون :

---

(١) تقدم في سورة البقرة .

(٢) إنما تقدر الجملة الاسمية الفعلية حيث تكون هي المعادلة أما حيث يكون المعادلة غيرها وهو تبصرون المعذور وهو فعل فلا حاجة إلى تأويل .

(٣) عجز بيت وصدره وهو لجحدر بن ضبيعة :

إذا الكماة بالكماة التقت ....

انظر الحماسة لأبي تمام (١/١٠٢) شرح المفصل لابن يعيش (٤/٩٦) المغني (٢/٦٧) الصبان (٣/١٠٣) .

(٤) فإذا حذف لدلالة حرف (على) المعادل أي : دلالة (لا) ففي دلالة السبب أولوية والممنوع إنما هو الحذف دون إقامة شيء وهنا أقيم السبب مقام المسبب .

(٥) فإذا حذفت أم والمعادل فابقاؤها مع سبب المعادل أولى .

(٦) تقدم .

(٧) انظر الوسيط ٤٧ خ والبغوي ٤/١٤٢ والقرطبي ١٦/٦٧ .

هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقاً ، وكان ذلك دليلاً على إلقاء مقاليد الملك إليه لما وصف نفسه بالعزة والملك ، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام فوصفه بالضعف ، وقلة الأعضاد ، فاعترض فقال : إن كان صادقاً فهلا ملكه ربه ، وسوره ، وجعل الملائكة أنصاره ، وقرأ الضحاك : فلولا ألقى مبنياً للفاعل ، أي : الله أساورة نصباً والجمهور أساورة رفعاً ، وأبي وعبد الله أساوير ، والمفرد أسوار بمعنى سوار ، والهاء عوض من الياء ، كهي في زنادقة هي عوض من ياء زناديق المقابلة لياء زنديق ، وهذه مقابلة لألف أسوار ، وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والأعرج ومجاهد وأبو حيوة وحفص : أسورة جمع سوار ، نحو خمار وأخمرة ، وقرأ الأعمش : أساور ، ورويت عن أبي وعن أبي عمرو وجاء معه الملائكة مقترنين أي : يحمونه ويقيمون حجته . قال ابن عباس : يعينونه على من خالفه . وقال السدي : يقارن بعضهم بعضاً[١] ، وقال مجاهد : يمشون معه ، وقال قتادة : متتابعين . (فاستخف قومه) أي : استجهلهم لخفة أحلامهم ، قاله ابن الأعرابي ، وقال غيره : حملهم على أن يخفوا لما يريد منهم فأجابوه لفسقهم . (فلما آسفونا) منقول بالهمزة من أسف إذا غضب ، والمعنى فلما عملوا الأعمال الخبيثة الموجبة لأن يحلم عنهم ، وعن ابن عباس : أحزنوا أولياءنا المؤمنين ، نحو السحرة وبني إسرائيل ، وعنه أيضاً أغضبونا ، وعن علي أسخطونا ، وقيل : خالفوا . وقال القشيري وغيره : الغضب من الله إما إرادة العقوبة ، فهو من صفات الذات ، أو العقوبة فيكون من صفات الفعل . وقرأ الجمهور : سلفاً ، قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة : أي متقدمين إلى النار ، وهو مصدر سلف يسلف سلفاً ، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسلاف ، وقيل : هو جمع سالف ، كحارس وحرس ، وحقيقته أنه اسم جمع ، لأن فعلاً ليس من أبنية الجموع المكسرة . وقال طفيل يرثي قومه :

مَضَوْا سَلَفاً قَصْدَ السَّبِيلِ عَلَيْهِمُ ... صُرُوفُ الْمَنَايَا وَالرِّجَالُ تَقَلَّبُ[٢]

قال الفراء والزجاج : سلفاً ليتعظ بهم الكفار المعاصرون للرسول . وقرأ أبو عبد الله وأصحابه وسعيد بن عياض والأعمش وطلحة والأعرج وحمزة والكسائي : (وسُلُفاً) بضم السين واللام جمع سليف ، وهو الفريق سمع القاسم بن معن العرب تقول مضى سليف من الناس . وقرأ علي ومجاهد والأعرج أيضاً : (وسُلَفاً) بضم السين واللام جمع سلفة ، وهي الأمة والقطيعة ، والسلف في غير هذا ولد القبح والجمع سلفان (ومثلاً للآخرين) أي : حديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل ، يحدث به الآخرون من الكفار ، يقال لهم مثلكم مثل قوم فرعون .

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ، ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ، ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب

---

(١) انظر البغوي ١٤٢/٤ والوسيط ٤٧ خ والقرطبي ٦٧/١٦ .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (٤٠) اللسان (سلف) .

وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذكر طرفاً من قصة عيسى ـ عليه السلام ـ وعن ابن عباس وغيره لما نزل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ [آل عمران ٥٩] ونزل كيف خلق من غير فحل ؟ قالت قريش : ما أراد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى[١] فهذا كان صدودهم عن ضربه مثلاً وقيل ضرب المثل بعيسى هو ما جرى بين الزبعري وبين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في القصة المحكية في قوله (إنكم وما تعبدون) وقد ذكرت في سورة الأنبياء في آخرها أن ابن الزبعري قال : فإذا كان هؤلاء أي : عيسى وأمه ، وعزير في النار ، فقد وصفنا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، وقيل : المثل هو أن الكفار لما سمعوا أن النصارى تعبد عيسى قالوا : آلهتنا خير من عيسى ، قال ذلك منهم من كان يعبد الملائكة ، وضرب مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون الفاعل ابن الزبعري إن صحت قصته ، وأن يكون الكفار ، وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي (يصُدون) بضم الصاد ، أي : يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل . وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها ، أي : يصيحون ، ويرتفع لهم حمية بضرب المثل : وروى ضم الصاد عن علي ، وأنكرها ابن عباس ، ولا يكون إنكاره إلا قبل بلوغه تواترها . وقرأ الكسائي والفراء هما لغتان بمعنى مثل يعرشون ويعرشون . (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) خفف الكوفيون الهمزتين ، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين . وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر ، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها ، واحتمل أن يكون خبراً محضاً حكوا أن آلهتهم خير ، ثم عنّ لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام ، وهذا الاستفهام يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى (ما ضربوه لك إلا جدلاً) أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا لأجل الجدل والغلبة والمغالطة ، لا لتمييز الحق واتباعه ، وانتصب جدلاً على أنه مفعول من أجله ، وقيل : مصدر في موضع الحال . وقرأ ابن مقسم (إلا جدالاً) بكسر الجيم ، وألف خصمون شديد والخصومة واللجاج وفعل من أبنية المبالغة ، نحو هدي ، والظاهر أن الضمير في أم ، هو لعيسى لتتناسق الضمائر في قوله : (إن هو إلا عبد) ، وقال قتادة : يعود على النبي ـ ﷺ ـ (أنعمنا عليه) بالنبوة وشرفناه بالرسالة ، (وجعلناه مثلاً) أي : خبرة عجيبة ، كالمثل لبني إسرائيل إذ خلق من غير أب ، وجعل له من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يجعل لغيره في زمانه ، وقيل : المنعم عليه هو محمد ـ ﷺ ـ (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض) قال بعض النحويين : من تكون للبدل ، أي : لجعلنا بدلكم ملائكة ، وجعل من ذلكم قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة ٣٨] أي بدل الآخرة وقول الشاعر :

أَخَذُوا الْمَخَاضَ مِنَ الْفَصِيلِ غُلُبَّةً ... ظُلْماً وَيُكْتَبُ لِلأَمِيرِ إِفَالاً[٢]

أي : بدل الفصيل ، وأصحابنا لا يثبتون لمن معنى البدلية ، ويتأولون ما ورد ما يوهم ذلك ، قال ابن عطية : لجعلنا بدلاً منكم ، وقال الزمخشري : ولو نشاء لقدرتنا عجائب الأمور ، وبدائع الفطر (لجعلنا منكم) لولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم في الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات القديم متعالية عن ذلك انتهى . وهو تخريج حسن ،

---

(١) انظر القرطبي ١٦/٦٩ والبغوي ٤/١٤٢ .

(٢) البيت من الكامل للراعي النميري انظر ديوانه (٢٤٢) ابن يعيش (٦/٤٤) المغنى (٢/١٦) .

ونحو من هذا التخريج قول من قال : لجعلنا من الإنس ملائكة ، وإن لم تجر العادة بذلك ، والجواهر جنس واحد ، والاختلاف بالأوصاف ، يخلفون قال السدي : يكونون خلفاءكم ، وقال قتادة : يخلف بعضهم بعضاً ، وقال مجاهد : في عمارة الأرض وقيل : في الرسالة بدلاً من رسلكم ، والظاهر أن الضمير في (وإنه لعلم للساعة) يعود على عيسى إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة عليه . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والضحاك وابن زيد : أي : وأن خروجه لعلم للساعة يدل على قرب قيامها ، إذ خروجه شرط من أشراطها ، وهو نزوله من السماء في آخر الزمان . وقال الحسن وقتادة أيضاً وابن جبير: يعود على القرآن على معنى أنه يدل إنزاله على قرب الساعة ، أو أنه به تعلم الساعة وأهوالها وقالت فرقة: يعود على النبي ـ ﷺ ـ إذ هو آخر الأنبياء تميزت الساعة به نوعاً وقدراً من التمييز، ونفي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه . وقرأ الجمهور (لعلم) مصدر علم . قال الزمخشري : أي : شرط من أشراطها تعلم به فسمى العلم شرطاً لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو مالك الغفاري . وزيد بن علي وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، ومالك بن دينار ، والأعمش ، والكلبي ، قال ابن عطية وأبو نصرة . (لعلَم) بفتح العين واللام ، أي : لعلامة ، وقرأ عكرمة به ، قال ابن خالويه وأبو نصرة ، للعلم معرفاً بفتحتين ، (فلا تمترن بها) أي : لا تشكون فيها (واتبعون هذا) أي : هداي ، أو شرعي ، وقيل : أي : قل لهم يا محمد : واتبعوني هذا ، أي الذي أدعوكم له ، أو هذا القرآن كان الضمير في قال للقرآن ، ثم حذر من إغواء الشيطان ونبه على عدواته بالبينات ، أي : المعجزات أو بآيات الإنجيل الواضحات بالحكمة ، أي : بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع . قال السدي : بالحكمة النبوة . وقال أيضاً : قضايا يحكم بها العقل . وذكر القشيري والماوردي الإنجيل . وقال الضحاك : الموعظة (ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه) وهو أمر الديانات ، لأن اختلافهم يكون فيها وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات ، فأمور الديانات بعض ما يختلفون فيه ، ويبن لهم في غيره ما احتاجوا إليه . وقيل : بعض ما يختلفون فيه من أحكام التوراة . وقال أبو عبيدة : بعض بمعنى كل ، ورده الناس عليه . وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم ﴾ [آل عمران ٥٠] أي : في الإنجيل لحم الإبل ، والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت ، وقال مجاهد : بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة . وقيل : مما سألتم من أحكام التوراة . وقال قتادة : ولأبين لكم اختلاف القرون الذين تحزبوا في أمر عيسى في قوله (قد جئتكم بالحكمة) وهم قومه المبعوث إليهم ، أي من تلقائهم ، ومن أنفسهم بأن شرهم ، ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم ، وتقدم الخلاف في اختلافهم في سورة مريم في قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ [مريم ٣٧] ، هل ينظرون الضمير لقريش ، وأن تأتيهم بدل من الساعة ، أي : إتيانها إياهم ، (الأخلاء يومئذ) قيل : نزلت في أبيّ بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، والتنوين في (يومئذ) عوض عن الجملة المحذوفة ، أي : يوم إذ تأتيهم الساعة ، و (يومئذ) منصوب (بعدو) المعنى : أنه ينقطع كل خلة ، وتنقلب إلا خلة المتقين ، فإنها لا تزداد إلا قوّة . وقيل : إلا المتقين إلا المجتنبين أخلاء السوء ، وذلك أن أخلاء السوء كل منهم يرى أن الضرر دخل عليه من خليله ، كما أن المتقين يرى كل منهم النفع دخل عليه من خليله . وقرىء يا عبادي بالياء وهو الأصل ، ويا عباد بحذفها ، وهو الأكثر ، وكلاهما في السبعة ، وعن المعتمر بن سليمان سمع أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا يفزع ، فينادي مناد (يا عبادي لا خوف عليكم) الآية فيرجوها الناس كلهم ، فيتبعها الذين آمنوا الآية قال : فييأس منها الكفار ، وقرأ الجمهور (الأخوف) مرفوع منون ، وابن محيصن بالرفع من غير تنوين ، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر بفتحها من غير تنوين ، والذين آمنوا صفة ليا عبادي ، (تحبرون) تسرون سروراً يظهر حباره ، أي : أثره على وجوهكم ، لقوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين ٢٤] ، وقال الزجاج : يكرمون إكراماً يبالغ فيه ، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل ، وأمال أبو الحرث عن الكسائي بصحاف ،

ذكره ابن خالويه ، والضمير في وفيها عائد على الجنة ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، هذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهاة في القلوب ، أو مستلذة في العيون . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عباس وحفص : (ما تشتهيه) بالضمير العائد على ما ، والجمهور وباقي السبعة بحذف الهاء ، وفي مصحف عبد الله (ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين) بالهاء فيهما (وتلك الجنة) مبتدأ وخبر(والتي أورثتموها) صفة ، أو الجنة صفة ، و (التي أورثتموها بما كنتم تعملون) الخبر ، وما قبله صفتان ، فإذا كان بما الخبر تعلق بمحذوف ، وعلى القولين الأولين يتعلق بأورثتموها ، وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة ، ولما ذكر ما يتضمن الأكل والشرب ذكر الفاكهة (منها تأكلون) من للتبعيض ، أي : لا تأكلون إلا بعضها ، وما يخلف المأكول باق في الشجر كما جاء في الحديث .

﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ، أم يحسبون أنا لانسمع سرّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ، قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذي له السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ، ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ، وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ .

ولما ذكر تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم من لذائذ البشارة ، أعقب ذلك بذكر حال الكفرة ، وما يجاوبون به عند سؤالهم . وقرأ عبد الله (وهم فيها) أي : في جهنم ، والجمهور : (وهم فيه) أي : في العذاب : وعن الضحاك : يجعل المجرم في تابوت من نار ، ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً لا يرى ولا يرى . (لا يفتر عنهم) أي : لا يخفف ولا ينقص من قولهم ، فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ، ونقص حرها ، والمبلس : الساكت اليائس من الخير . (وما ظلمناهم) أي : ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه ، ولكن كانوا هم الظالمين ، أي : الواضعين الكفر موضع الإيمان ، فظلموا بذلك أنفسهم ، وقرأ الجمهور والظالمين على أن هم فصل ، وقرأ عبد الله وأبو زيد النحويان : (الظالمون) بالرفع على أنهم خبرهم، وهم مبتدأ ، وذكر أبو عمر والجرمي : أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ، ويرفعون ما بعده على الخبر . وقال أبو زيد : سمعتهم يقرؤون ﴿تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً ﴾ [المزمل ٢٠] يعني برفع خير وأعظم ، وقال قيس بن ذريح :

تَحِنُّ إِلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَـرَكْتَهَـا وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلاَ أَنْتَ أَقْدَرُ[1]

قال سيبويه : إن رؤبة كان يقول أظن زيداً . هو خير منك يعني بالرفع . (ونادوا يا مالك) تقدم أنهم مبلسون أي : ساكتون ، وهذه أحوال لهم في أزمان متطاولة ، فلا تعارُض بين سكوتهم ، وندائهم . وقرأ الجمهور : (يا مالك) ، وقرأ عبد الله وعليّ وابن وثاب والأعمش : (يا مال) بالترخيم على لغة من ينتظر الحرف . وقرأ أبو السرار

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوان (٣٣) الكتاب (١/ ٣٩٥) شرح المفصل لابن يعيش (١١٢/٣) روح المعاني (١٠٢/٢٥) . الجمل (١٥٤) ورواية الكتاب .

تُـبَكِّـي عَـلَى لُـبْـنَـى وَأَنْـتَ تَـرَكْـتَـهَـا وَكُـنْـتَ عَـلَـيْـهَـا بِـالـمَـلاَ أَنْـتَ أَقْـدَرُ

الغنوي : (يا مال) بالبناء على الضم جعل اسماً على حياله ، واللام في (ليقض) لام الطلب ، والرغبة والمعنى يمتنا مرة حتى لا يتكرر عذابنا كقوله : (فوكزه موسى فقضى عليه) أي : أماته ، قال : أي : مالك (إنكم ماكثون) أي : مقيمون في النار لا تبرحون . وقال ابن عباس : يجيبهم بعد مضي ألف سنة ، وقال : نوف بعد مائة ، وقيل ثمانين[1] وقال عبد الله بن عمر : وأربعين . (لقد جئناكم بالحق) يظهر أنه من كلام الله تعالى ، وقيل : من كلام بعض الملائكة ، كما يقول أحد خدم الرئيس أعلمناكم وفعلنا بكم . وقيل : ويحتمل أن يكون لقد جئناكم من قول الله لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مال ، وفي هذا توعد وتخويف بمعنى انظروا كيف يكون حالكم . (أم أبرموا) والضمير لقريش . أي : بل أحكموا أمراً من كيدهم للرسول ، ومكرهم (فإنا مبرمون) كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ [الطور ٤٢] وكانوا يتناجون ويتسارعون في أمر الرسول فقال تعالى (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم) وهو ما يحدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال (ونجواهم) وهي ما تكلموا به فيما بينهم ، (بلى) أي : نسمعها رسلنا وهم الحفظة ، (قل إن كان للرحمن ولد) كما تقولون فأنا أول من يعبده على ذلك ، ولكن ليس له شيء من ذلك ، وأخذ الزمخشري هذ القول وحسنه بفصاحته ، فقال : إن كان للرحمن ولد ، وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح . يوردونه وحجة واضحة يبذلونها ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ، كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالاً مثلها ، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها ، ثم قال الزمخشري : ونظيره أن يقول العدلي للمجبر ، ثم ذكر كلاماً يستحق عليه التأديب بل السيف ، نزهت كتابي عن ذكره ، ثم قال : وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقلة بالتوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولهم ، بإضافة الولد إليه ، وقيل : إن كان للرحمن ولد ، فأنت أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد . وقرأ بعضهم : (عبدين) وقيل : هي أن النافية أي ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد . وروى أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال :إن الملائكة بنات الله ، فنزلت فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقني ، فقال له الوليد بن المغيرة : وما صدقك ، ولكن قال : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له انتهى . أما القول إن كان لله ولد في زعمكم ، فهو قول مجاهد ، وأما القول فأنا أول الآنفين فهو قول جماعة ، حكاه عنهم أبو حاتم ، ولم يسم أحداً منهم ، ويدل عليه قراءة السلمي واليماني ، العبدين وقراءة ذكرها الخليل بن أحمد في كتابه العين ، العبْدين بإسكان الباء تخفيف العبدين بكسرها ، وذكر صاحب اللوامح أنه جاء عن ابن عباس في معنى العبادين أنه الآنفين انتهى . وقال ابن عرفة : يقال عبد يعبد فهو عبد ، وقلما يقال عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ، ولا الشاذ ، ثم قال كقول مجاهد ، وقال الفرزدق :

أُولَئِـكَ آبَـائِي فَجِئْنِي بِـمِثْـلِهِمْ ... وَأَعْبَدُ أَنْ أَهْجُوا كُلَيْباً بِدَارمِيٍّ[2]

أي : آنف وأستنكف ، وقال آخر :

---

(١) انظر القرطبي ١٦/٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) البيت من الطويل انظر مجاز القرآن (٢/٢٠٦) القرطبي (١٦/٢٨٠) المفضليات (٥٠٢) المحتسب (٢/٣٥٨) .

مَتَى مَا يَشَا ذُو الْوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَهُ وَيُعْبِدْ عَلَيْهِ لاَ مَحَالَةَ ظَالِمَا[١]

وأما القول بأن إن نافية فمروي عن ابن عباس والحسن والسدي وقتادة وابن زيد وزهير بن محمد . وقال مكي : لا يجوز أن تكون إن بمعنى ما النافية ، لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت ، وهذا محال انتهى . ولا يلزم منه محال ، لأن كان قد تستعمل فيما يدوم ولا يزول . كقولك : وكان الله غفوراً رحيماً أي : لم يزل ، فالمعنى ماكان وما يكون . وقال أبو حاتم : العبد بكسر الباء الشديد الغضب ، وقال أبو عبيدة : معناه أول الجاحدين ، والعرب تقول عبدني حقي أي : جحدني ، وقرأ : (وَلَد) بفتحتين عبد الله وابن وثاب وطلحة والأعمش بضم الواو وسكون اللام ثم قال : (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أي : من نسبة الولد إليه ، والمعنى إزالة العلم يجب أن يكون واجب الوجود دوماً كان كذلك ، فهو فرد مطلق لا يقبل التجزي ، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه فيتولد منه شخص مثله ، ولا يكون إلا فيما هو قابل ذاته للتجزي ، وهذا محال في حقه تعالى ، فامتنع إثبات الولد ، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال : (فذرهم يخوضوا) أي : في باطلهم ، (ويلعبوا) أي : في دنياهم ، وظاهر هذين الأمرين مهادنة وترك ، وذلك مما نسخ بآية السيف ، وقرأ الجمهور : (حتى يلاقوا) وأبو جعفر وابن محيصن وعبيد بن عقيل عن أبي عمرو (يلقوا) مضارع لقي (يومهم الذين يوعدون) يوم القيامة . وقال عكرمة وغيره : يوم بدر ، وأضاف اليوم إليهم لأنه الذي فيه هلاكهم وعذابهم . وقرأ الجمهور إله فيهما . وقرأ عمر ، وعبد الله ، وأبي ، وعلي ، والحكم بن أبي العالي ، وبلال بن أبي بردة ، وابن يعمر ، وجابر ، وابن زيد ، وعمر بن عبد العزيز ، وأبو الشيخ الهنائي ، وحميد ، وابن مقسم ، وابن السميفع : الله فيهما ، ومعنى إله معبود به يتعلق الجار والمجرور ، والمعنى : أنه هو معبود في السماء ، ومعبود في الأرض ، والعائد على الموصول محذوف تقديره : هو إله كما حذف في قولهم ما أنا بالذي قائل لك شيئاً ، وحسنه طوله بالعطف عليه ، كما حسن في قائل لك شيئاً طوله ، بالمعمول ، ومن قرأ الله ضمنه أيضاً معنى المعبود ، كما ضمن العلم في نحو قولهم : هو حاتم في طيىء ، أي : جواد في طيىء ، ويجوز أن تكون الصلة الجار والمجرور ، والمعنى : أنه فيهما بالإلهية والربوبية إذ يستحيل حمله على الاستقرار ، وفي قوله : (وفي الأرض) نفي لآلهتهم التي كانت تعبد في الأرض (وعنده علم الساعة) أي : علم تعيين ، وقت قيامها وهو الذي استأثر به تعالى . وقرأ الجمهور : (يرجعون) بياء الغيبة ، ونافع وعاصم والعدنيان بتاء الخطاب ، وهو في كلتا القراءتين مبني للمفعول ، وقرىء بفتح تاء الخطاب مبنياً للفاعل ، وقرأ الجمهور بياء الغيبة وشد الدال ، وعنه بتاء الخطاب ، وشد الدال ، والمعنى : ولا يملك آلهتهم التي يدعون الشفاعة عند الله . قال قتادة : استثنى ممن عبد من دون الله عيسى . وعزيراً والملائكة ، فإنهم يملكون شفعة بأن يملكها الله إياهم إذ هم ممن شهد بالحق ، وهم يعلمونه في أحوالهم ، فالاستثناء على هذا متصل . وقال مجاهد وغيره : من المشفوع فيهم ، كأن قال لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق ، وهو يعلمه ، أي : بالتوحيد ، قالوا : فالاستثناء على هذا منفصل ، كأنه قال : لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء ، وهذا التقدير الذي قدروه يجوز أن يكون فيه الاستثناء متصلاً ، لأنه يكون المستثنى منه محذوفاً ، كأنه قال : ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق ، فهو استثناء من المفعول المحذوف ، كما قال الشاعر :

نَجَا سَالِمٌ وَالنَّفْسُ مِنْهُ بِشِدْقِهِ وَلَمْ يَنْجُ إِلاَّ جَفْنُ سَيْفٍ وَمِئْزَارِ[٢]

---

(١) البيت من الطويل للمرقش الأصغر انظر المفضليات (٥٠٢) روح المعاني (١٠٥/٢٥) .

(٢) تقدم .

أي : ولم ينج إلا جفن سيف ، فهو استثناء من المشفوع فيهم الجائز فيه الحذف ، وهو متصل ، فإن جعلته مستثنى من الذين يدعون ، فيكون منفصلاً ، والمعنى ؛ ولا يملك آلهتهم ، ويعني بهم الأصنام والأوثان الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، ولكن من شهد بالحق ، وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما شهد به ، هو الذي يملك الشفاعة وإن أدرجت الملائكة في الذين يدعون كان استثناء متصلاً ، وقرأ الجمهور (فأنى يؤفكون) بياء الغيبة مناسباً لقوله : (ولئن سألتهم) أي : كيف يصرفون عن عبادة من أقروا أنه موجد العالم وعبد الوارث عن أبي عمرو بتاء الخطاب . وقرأ الجمهور وقيله بالنصب ، فعن الأخفش أنه معطوف على سرهم ونجواهم ، وعنه أيضاً على وقال قيله ، وعن الزجاج على محل الساعة في قوله (وعنده علم الساعة) وقيل : معطوف على مفعول يكتبون المحذوف ، أي : يكتبون أقوالهم وأفعالهم ، وقيل : معطوف على مفعول يعلمون ، أي : يعلمون الحق (وقيله يا رب) وهو قول لا يكاد يعقل ، وقيل منصوب على إضمار فعل ، أي : ويعلم قيله . وقرأ السلمي وابن وثاب وعاصم والأعمش وحمزة . (وقيله) بالخفض ، وخرج على أنه عطف على الساعة ، أو على أنها واو القسم ، والجواب محذوف ، أي : لينصرن أو لأفعلن بهم ما أشاء ، وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد والحسن وقتادة ومسلم بن جندب : (وقيله) بالرفع ، وخرج على أنه معطوف على علم الساعة على حذف مضاف ، أي : وعلم قيله حذف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وروى هذا عن الكسائي ، وعلى الابتداء ، وخبره يا رب إلى لا يؤمنون ، أو على أن الخبر محذوف تقديره مسموع ، أو متقبل ، فجملة النداء وما بعده في موضع نصب بـ (وقيله) ، وقرأ أبو قلابة يا رب بفتح الباء ، أراد يا رباً كما تقول يا غلام ، ويتخرج على جواز الأخفش يا قوم بالفتح ، وحذف الألف والاجتزاء بالفتحة عنها . وقال الزمخشري : والذي قالوه يعني من العطف ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ، ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك ، والوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرب القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : أيمن الله ، وأمانة الله ، ويمين الله . ولعمرك ، ويكون قوله : (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) جواب القسم ، كأنه قال : وأقسم بقيله ، أو وقيله يا رب قسمي ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه ، والتجائه إليه انتهى . وهو مخالف لظاهر الكلام إذ يظهر أن قوله : (يا رب) إلى (لا يؤمنون) متعلق بقيله ، ومن كلامه عليه السلام ، وإذا كان (إن هؤلاء) جواب القسم كان من إخبار الله عنهم ، وكلامه والضمير في وقيله للرسول ، وهو المخاطب بقوله (فاصفح عنهم) أي : أعرض عنهم وتاركهم ، (وقل سلام) أي : الأمر سلام (فسوف يعلمون) وعيد لهم وتهديد وموادعة ، وهي منسوخة بآية السيف ، وقرأ الجمهور يعلمون بياء الغيبة ، كما في فاصفح عنهم . وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام بتاء الخطاب . وقال السدي : وقل سلام أي : خيراً بدلاً من شرهم ، وقال مقاتل : أو رد عليهم معروفاً ، وحكى الماوردي قل ما تسلم به من شرهم .

سورة الدخان تسع وخمسون آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ
وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ
أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ
تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ
ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ
فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾
وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ
ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ
﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ
تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا
يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ

شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

الدخان معروف ، وقال أبو عبيدة : والدخان الجدب ، قال القتبي : سمي دخاناً ليبس الأرض منه ، حتى يرتفع منها كالدخان ، وقياس جمعه في القلة أدخنة ، وفي الكثرة دخنان ، نحو غراب وأغربة وغربان ، وشذوا في جمعه على فواعل ، فقالوا : دواخن ، كأنه جمع داخنة تقديراً كما شذوا في عثان قالوا عواثن . رها البحر يرهو رهواً سكن ، يقال جاءت الخيل رهواً أي : ساكنة قال الشاعر :

وَالْخَيْلُ تَمْزَعُ رَهْواً فِي أَعِنَّتِهَا كَالطَّيْرِ يَنْجُو مِنَ الشُّرْنُوبِ ذِي الْبَرَدِ[1]

ويقال افعل ذلك رهواً ، أي : ساكناً على هينتك ، وقال ابن الأعرابي : رها السير قال القطامي في نعت الركاب :

يَمْشِينَ رَهْواً فَلاَ الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[2]

وقال الليث : عيش راه وارع خافض ، وقال غيره : الرهو والرهوة المكان المرتفع والمنخفض يجتمع فيه الماء ، وهو من الأضداد ، والجمع رها ، والرهو المرأة الواسعة الهن ، حكاه النضر بن شميل ، والرهو ضرب من الطير يقال هو الكركي . وقال أبو عبيدة : رها الرجل يرهو رهواً فتح بين رجليه . المهل دردي الزيت وعكره . عتله : ساقه بعنف ودفع وأهانه والمعتل الجافي الغليظ .

﴿ حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ، بل هم في شك يلعبون فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ،

---

(١) البيت للقطامي انظر ديوانه (٢٣) وروايته :

والخيل تمزع غرباً في أعنتها ....

انظر المفضليات (٢٩٩) القرطبي (١٦/٩٢) روح المعاني (٢٥/١٢٢) .

(٢) البيت من البسيط للقطامي انظر ديوانه (٤) والكشاف (٤/٢٧٥) وفيه نسبته للأعشى وقد تقدم والقرطبي (١٦/٩٢) روح المعاني (٢٥/١٢٢) .

إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ، ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدّوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين ، وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين ، وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ، فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ، فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ، واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ، كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ هذه السورة مكية ، قيل : إلا قوله : (إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون) .

ومناسبة هذه السورة : أنه ذكر في أواخر ما قبلها ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ [الزخرف ٨٣] فذكر يوماً غير معين ، ولا موصوفاً ، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم بوصف وصفه ، فقال : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وأن العذاب يأتيهم من قبلك ، ويحل بهم من الجدب والقحط ، ويكون العذاب في الدنيا ، وإن كان العذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة ، والظاهر أن الكتاب المبين هو القرآن ، أقسم به تعالى ، ويكون الضمير في أنزلناه عائداً عليه ، قيل : ويجوز أن يراد به الكتب الإلهية المنزلة ، وأن يراد به اللوح المحفوظ ، وجواب القسم ، وقال الزمخشري وغيره : قوله إنا أنزلناه على أن الكتاب هو القرآن ، ويكون قد عظمه تعالى بالإقسام به . وقال ابن عطية : لا يحسن وقوع القسم عليه ، أي : على أنا أنزلناه ، وهو اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ، ويكون الذي وقع عليه القسم إنا كنا منذرين انتهى . قال قتادة وابن زيد والحسن : الليلة المباركة ، ليلة القدر[1] ، وقالوا : كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو ذلك ، والقرآن في آخره في ليلة القدر ، ويعني ابتداء نزوله كان في ليلة القدر ، وقيل : أنزل جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل يتلقاه[2] . وقال عكرمة وغيره : هي ليلة النصف من شعبان ، وقد أوردوا فيها أحاديث . وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لا يصح فيها شيء ، ولا في نسخ الآجال فيها (إنا كنا منذرين) أي : مخوفين . قال الزمخشري : (فإن قلت :) إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسربها جواب القسم الذي هو قوله تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ، لأن إنزال القرآن من الأمور المحكمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، والمباركة الكثيرة الخير لما ينتج الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيه إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة انتهى . وقرأ الحسن والأعرج والأعمش : (يَفرُق) بفتح الياء وضم الراء كل بالنصب أي : يفرق الله . وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري : (نفرق) بالنون كل بالنصب ، وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عينه بفتح الياء وكسر الراء ، ونصب كل ، ورفع حكيم على أنه الفاعل بيفرق . وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش بالتشديد مبنياً للمفعول ، أو معنى يفرق يفصل من غيره ويلخص ، ووصف أمر بحكيم أي أمر ذي حكمة ، وقد أبهم تعالى هذا الأمر . وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والأرزاق والآجال وغير ذلك ، ويكتب ذلك إلى مثلها من العام المقبل ، وقال هلال بن أساف : كان يقال انتظر والقضاء في رمضان . وقال عكرمة : لفضل الملائكة في ليلة النصف من شعبان ، وجوزوا في (أمراً) أن يكون مفعولاً به بمنذرين لقوله : (لينذر بأسا شديداً) أو على الاختصاص ، جعل كل أمر حكيم جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة

---

(١) انظر الوسيط ٥١ خ والبغوي ١٤٨/٤ والقرطبي ٨٤/١٦ .

(٢) انظر المراجع السابقة .

وفخامة نفسه بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، كذا قال الزمخشري . وقال : وفي قراءة زيد بن علي أمراً من عندنا على هو أمراً ، وهي نصب على الاختصاص ، ومقبولاً له ، والعامل أنزلنا أو منذرين ، أو يفرق ، ومصدراً من معنى يفرق ، أي : فرقاً من عندنا ، أو من أمرنا محذوفاً ، وحالاً قيل : من كل والذي تلقيناه من أشياخنا أنه حال من أمر ، لأنه وصف بحكيم ، فحسنت الحال منه ، إلا أن فيه الحال من المضاف إليه ، وهو ليس في موضع رفع ولا نصب ، ولا يجوز ، وقيل : من ضمير الفاعل في أنزلناه ، أي : أمرني ، وقيل : من ضمير المفعول في أنزلناه ، أي : في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل ، والظاهر أن من عندنا صفة لـ (أمراً) ، وقيل : يتعلق بـ (يفرق) ، (إنا كنا مرسلين) لما ذكر إنزال القرآن ذكر المرسل أي : مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد ، فالجملة المؤكدة مستأنفة ، وقيل : يجوز أن يكون بدلاً من إنا كنا منذرين ، وجوزوا في رحمة أن يكون مصدراً ، أي : رحمنا رحمة ، وأن يكون مفعولاً له بـ (أنزلناه) أو لـ (ليفرق) أو لـ (أمراً) من عندنا ، وأن يكون مفعولاً بـ(مرسلين)، والرحمة توصف بالإرسال، كما وصفت به في قوله : (وما يمسك فلا مرسل له من بعده) [فاطر ٢] والمعنى : على هذا إنا نفصل في هذه الليلة كل أمر ، أو تصدر الأوامر من عندنا ، لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا . وقرأ زيد بن علي والحسن (رحمةٌ) بالرفع ، أي : تلك رحمة من ربك التفاتاً من مضمر إلى ظاهر ، إذ لو روعي ما قبله لكان رحمة منا لكنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين . وقرأ ابن محيصن والأعمش وأبو حيوة والكوفيون : (رب السموات) بالخفض بدلاً من ربك ، وباقي السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على القطع ، أي : هو رب ، وقرأ الجمهور : (ربكم ورب) برفعهما وابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى عيسى بن سليمان وصالح الناقط : كلاهما عن الكسائي بالجر ، وأحمد بن جبير الأنطاكي (ربكم ورب) بالنصب على المدح ، وهم يخالفون بين الأعراب الرفع والنصب إذا طالت النعوت ، وقوله (إن كنتم موقنين) تحريك لهم بأنكم تقرون بأنه تعالى خالق العالم وأنه أنزل الكتب ، وأرسل رحمة منه ، وأن ذلك منكم من غير علم وإيقان ، ولذلك جاء (بل هم في شك يلعبون) أي : في شك لا يزالون فيه يلعبون ، فإقرارهم ليس عن حد ولا تيقن ، (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) قال علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وزيد بن علي والحسن : هو دخان يجيء يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين، حتى تكون مصقلة حنيذة[١] . وقال ابن مسعود وأبو العالية والنخعي : هو الدخان الذي رأته قريش ، قيل لعبد الله إن قاصاً عند أبواب كندة يقول : إنه دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ أنفاس الناس ، فقال : من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، ألا وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ـ ﷺ ـ دعا عليهم فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز ، والعلهز الصوف يقع فيه القراد فيشوى الصوف بدم القراد ويؤكل ، وفيه أيضاً حتى أكلوا العظام ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدث الرجل فيسمع الكلام ، ولا يرى المحدث من الدخان ، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشده الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم ، وكشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ، وفيه فرحمهم النبي ـ ﷺ ـ وبعث إليهم بصدقة ، ومال وفيه فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا

---

(١) انظر القرطبي ١٦/٨٧، ٨٨ والوسيط ٥١ خ والوسيط ٤/١٤٩ ـ ١٥٠ والبخاري كتاب التفسير تفسير سورة الدخان باب (يغشى الناس هذا عذاب أليم) وسورة يوسف باب (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) وفي سورة الروم وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب سورة الدخان والإمام أحمد في مسنده ١/٣٨٠ والترمذي في كتاب التفسير سورة الدخان باب حدثنا محمود بن غيلان ٥/٣٧٩، ٣٨٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

منتقمون ﴾ [الدخان ١٦] قال : يعني يوم بدر ، وقال عبد الرحمن : خمس قد مضين الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . وقال عبد الرحمن الأعرج : (يوم تأتي السماء) هو يوم فتح مكة ، لما حجبت السماء الغبرة ، وفي حديث حذيفة « أول الآيات خروج الدجال والدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن ، وفيه قلت : يا نبي الله وما الدخان على هذه الآية (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وذكر بقية الحديث ، واختصرناه ، (بدخان مبين) أي : ظاهر لا شك أنه دخان (يغشى الناس) يشملهم ، فإن كان هو الذي رأته قريش فالناس خاص بالكفار من أهل مكة ، وقد مضى كما قال ابن مسعود ، وإن كان من أشراط الساعة ، أو يوم القيامة فالناس عام فيمن أدركه وقت الأشراط ، وعام بالناس يوم القيامة ، (هذا عذاب) إلى (مؤمنون) في موضع نصب بفعل القول محذوفاً ، وهو في موضع الحال ، أي : يقولون ، ويجوز أن يكون إخباراً من الله ، كأنه تعجب منه كما قال في قصة الذبيح ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ [الصافات ١٠٦] ، (إنا مؤمنون) وعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب ، والإمنان واجب ، كشف العذاب ، أو لم يكشف . (أني لهم الذكرى) أي : كيف يذكرون ويتعظون ، ويقولون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ، وقد جاءهم ما هو أعظم ، وأدخل في باب الادكار من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على يد رسول الله ـ ﷺ ـ من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأن عدّاساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون . وقرأ زر بن حبيش معلم بكسر اللام ، (إنا كاشفو العذاب قليلاً) إخبار عن إقامة الحجة عليهم ، ومبالغة في الإملاء لهم ، ثم أخبر أنهم عائدون إلى الكفر . وقال قتادة : هو توعد بمعاد الآخرة ، وإن كان الخطاب لقريش حين حل بهم الجدب ، كان ظاهراً وإن كان الدخان قبل يوم القيامة ، فإذا أتت السماء العذاب تضرع منافقوهم وكافروهم ، وقالوا : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) فيكشف عنهم ، قيل بعد أربعين يوماً ، فحين يكشفه عنهم يرتدون ، ويوم البطشة الكبرى على هذا هو يوم القيامة ، كقوله ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ [النازعات ٣٤] وكونه يوم القيامة هو قول ابن عباس والحسن وقتادة ، وكونه يوم بدر هو قول عبد الله وأبي وابن عباس ومجاهد ، وانتصب يوم نبطش قيل بذكراهم ، وقيل : بننتقم الدال عليه منتقمون ، وضعف بأنه لا نصب إلا بالفعل ، وقيل : بمنتقمون ورد بأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها . وقرأ الجمهور نبطش بفتح النون وكسر الطاء ، والحسن وأبو جعفر بضمها ، والحسن أيضاً وأبو رجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء ، بمعنى نسلط عليهم من يبطش بهم ، والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بـ (نبطش) ، بل بمقدر أي : نبطش ذلك المسلط البطشة ، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة فينتصب بـ (نبطش) . (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) هذا كالمثال لقريش ، ذكرت قصة من أرسل إليهم موسى ـ عليه السلام ـ فكذبوه فأهلكهم الله . وقرىء فتنا بتشديد التاء للمبالغة في الفعل ، أو التكثير متعلقة (وجاءهم رسول كريم) أي : كريم عند الله ، وعند المؤمنين ، قاله الفراء ، أو كريم في نفسه ، لأن الأنبياء إنما يبعثون من سروات الناس ، قاله أبو سليمان ، أو كريم حسن الخلق ، قاله مقاتل . (أن أدوا إليّ عباد الله) يحتمل أن تكون تفسيرية ، لأنه تقدم ما يدل على معنى القول ، وهو رسول كريم ، وأن تكون مخففة من الثقيلة ، أو الناصبة للمضارع فإنها توصل بالأمر . قال ابن عباس : أن أدوا إليّ الطاعة يا عباد الله ، أي : اتبعوني على ما أدعوكم إليه من الإيمان . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل ، كما قال : فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، فعلى قول ابن عباس عباد الله منادى ، ومفعول أدوا محذوف ، وعلى قول مجاهد ومن ذكر معه عباد الله مفعول أدوا . (إني لكم رسول أمين) أي : غير متهم ، قد ائتمني الله على وحيه ورسالته (وأن لا تعلوا على الله) أي : لا تستكبروا على عبادة الله ، قاله يحيى بن سلام ، قال ابن جريج : لا تعظموا على الله ، قيل : والفرق بينهما أن التعظيم تطاول المقتدر ، واستكبار ترفع المحتقر ذكره الماردي ، وأن هنا كان السابق في أوجهها الثلاثة ، (إني آتيكم بسلطان مبين) أي : بحجة واضحة في

نفسها وموضحة صدق دعواي . وقرأ الجمهور (إني) بكسر الهمزة على سبيل الإخبار ، وقرأت فرقة بفتح الهمزة ، والمعنى : لا تعلوا على الله من أجل أني آتيكم ، فهذا توبيخ لهم كما تقول أتغضب إن قال لك الحق (وإني عذت) أي : استجرت بربي وربكم أن ترجمون ، كانوا قد توعدوه بالقتل ، فاستعاذ من ذلك ، وقرىء عدت بالإدغام . قال قتادة وغيره : الرجم هنا بالحجارة . وقال ابن عباس وأبو صالح : بالشتم ، وقول قتادة أظهر ، لأنه قد وقع منهم في حقه ألفاظ لا تناسب ، وهذه المعاذة كانت قبل أن يخبره تعالى بقوله : ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ [القصص ٣٥] ، (وإن لم تؤمنوا لي) أي : تصدقوا (فاعتزلون) أي : كونوا بمعزل ، وهذه مشاركة حسنة . (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) أن هؤلاء لفظ تحقير لهم ، وقرأ الجمهور أن هؤلاء بفتح الهمزة ، أي بأن هؤلاء . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والحسن في رواية وزيد ابن علي بكسرها . (فأسر بعبادي) في الكلام حذف أي فانتقم منهم ، فقال له الله أسر بعبادي ، وهم بنو إسرائيل ، ومن آمن به من القبط . وقال الزمخشري : فيه وجهان إضمار القول بعد الفاء ، فقال أسر بعبادي ، وأن يكون جواباً لشرط محذوف ، كأنه قيل قال : إن كان الأمر كما تقول فأسر بعبادي انتهى . وكثيراً ما يجيز هذا الرجل حذف الشرط ، وإبقاء جوابه وهو لا يجوز إلا لدليل واضح كأنه يتقدمه الأمر وما أشبهه مما ذكر في النحو على خلاف في ذلك (إنكم متبعون) أي : يتبعكم فرعون وجنوده ، فتنجون ويغرق المتبعون ، (واترك البحر رهواً) قال ابن عباس ساكناً ، كما أجراه . وقال مجاهد وعكرمة : يبساً من قوله : (فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً) وقال الضحاك : دمثاً ليناً . وقال عكرمة : جدداً ، وقال ابن زيد : سهلاً . وقال مجاهد أيضاً : منفرداً . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه لما قطعه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبع فرعون ، فقيل : له هذا إنهم جند مغرقون ، أي : فيه لأنهم إذا رأوه ساكناً على حالته حين دخل فيه موسى وبنو إسرائيل ، أو مفتوحاً طريقاً يبساً دخلوا فيه فيطبقه الله عليهم . (كم تركوا) أي : كثيراً تركوا (من جنات وعيون) تقدم تفسيرهما في الشعراء . وقرأ الجمهور : (ومقام) بفتح الميم . قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير أراد المقام ، وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السميفع ونافع في رواية خارجة بضمها . قال قتادة : أراد المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها (ونَعمة) بفتح النون نضارة العيش ولذاذة الحياة . وقرأ أبو رجاء (ونعمةً) بالنصب عطفاً على كم كانوا فيه فاكهين . وقرأ الجمهور بألف ، أي : طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة كلابن وتامر وأبو رجاء والحسن بغير ألف ، والفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزىء فكأنهم كانوا مستخفين بشكل النعمة التي كانوا فيها . وقال الجوهري : فكه الرجل بالكسر ، فهو فكه إذا كان مزاحاً والفكه أيضاً الأشر . وقال القشيري : فاكهين لاهين كذلك . وقال الزجاج : والمعنى الأمر كذلك فيوقف على كذلك ، والكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : الكاف في موضع نصب ، أي : يفعل فعلاً كذلك لمن يريد إهلاكه . وقال الكلبي : كذلك أفعل بمن عصاني ، وقال الحوفي : أهلكنا إهلاكاً ، وانتقمنا انتقاماً كذلك . وقال الزمخشري : الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ، وأورثناها قوماً آخرين ، ليسوا منهم ، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في يد القبط ، فأهلك الله تعالى القبط على أيديهم ، وأورثهم ملكهم ، وقال قتادة وقال الحسن : إن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون ، وضعف قول قتادة بأنه لم ير ، وفي مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ، ولا ملكوها قط إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام انتهى . ولا اعتبار بالتواريخ ، فالكذب فيها كثير ، وكلام الله صدق ، قال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء ٥٩] وقيل : قوماً آخرين ممن ملك مصر بعد القبط من غير بني إسرائيل . (فما بكت عليهم السماء والأرض) استعارة لتحقير أمرهم ، وأنه لم يتغير عن هلاكهم شيء ، ويقال في التعظيم بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس ، وقال زيد بن مفرغ :

الـرِّيـحُ تَـبْكِـي شَجْـوَهُ   وَالْبَرْقُ يَلْمَع فِي غَمَامِه[١]

وقال جرير :

فَالشَّمْسُ طَالِعَـةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَـةٍ   تُبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا[٢]

وقال النابغة :

بَكَى حَادِثُ الْجولانِ مِنْ فَقْدِ رَبِّهِ   وَحورَانُ مِنْهُ خَـاشِعٌ مُتَضَـائِلُ[٣]

وقال جرير :

لَمَّـا أَتَى خَبَـرُ الـزُّهْـوِ تَـوَاضَعَتْ   سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّـعُ[٤]

ويقول في التحقيرمات فلان فما خشعت الجبال ، ونسبة هذه الأشياء لما لا يعقل ولا يصيرذلك منه حقيقة عبارة عن تأثر الناس له ، أو عن عدمه ، وقيل هو على حذف مضاف ، أي : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الملائكة ، وأهل الأرض وهم المؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . روي ذلك عن الحسن ، وما روى عن علي وابن عباس ومجاهد وابن جبير : إن المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً ، وبكى عليه السماء موضع صعود عمله ، قالوا : فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله تمثيل ، وما كانوا منظرين ، أي : مؤخرين عن العذاب لما حان وقت هلاكهم ، بل عجل الله لهم ذلك في الدنيا .

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ، ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ، إن هؤلاء ليقولون ، إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ، وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ، إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون إن المتقين في مقام أمين ، في جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ، فإنما يسرنا بلسانك لعلهم يتذكرون ، فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ .

لما ذكر تعالى إهلاك فرعون ، وقومه ذكر إحسانه لبني إسرائيل فبدأ بدفع الضرر عنهم ، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب ، ثم ذكر اتصال النفع لهم من اختيارهم على العالمين ، وإيتائهم الآيت والعذاب المهين ، قتل أبنائهم واستخدامهم في الأعمال الشاقة . وقرأ عبد الله : (من العذاب المهين) وهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، كبقلة

---

(١) البيت في القرطبي (١٦/٩٣) روح المعاني (٢٥/١٢٤) .

(٢) البيت من البسيط انظر ديوانه (٣٧٢) أمالي المرتضى (١/٥٢) والقرطبي (١٦/٩٣) ، روح المعاني (٢٥/١٢٤).

(٣) البيت من الطويل ، انظر ديوانه (١٢١) اللسان (حول) وسيأتي .

(٤) من الكامل ـ انظر ديوانه (٤٢٠) الكتاب (١/٥٢) ـ الخصائص (١/٤١٨) اللسان (سور) روح المعاني (٢٥/١٢٤) .

الحمقاء ، ومن فرعون بدل من العذاب على حذف مضاف ، أي : من عذاب فرعون ، أولاً حذف جعل فرعون نفسه هو العذاب مبالغة ، وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي : كائناً وصادراً من فرعون . وقرأ ابن عباس : من فرعون من استفهام مبتدأ ، وفرعون خبره ، لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة ، قال : من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوه ، وشيطنته ، ثم عرف حاله في ذلك بقوله : (إنه كان عالياً من المسرفين) أي : مرتفعاً على العالم ، أو متكبراً مسرفاً من المسرفين . (ولقد اخترناهم) أي : اصطفيناهم وشرفناهم على علم ، علم مصدر لم يذكر فاعله ، فقيل : على علم منهم ، وفضل فيهم ، فاخترناهم للنبوات والرسالات ، وقيل : على علم منا ، أي : عالمين بمكان الخيرة ، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ، وقيل : على علم منا بما يصدر من العدل ، والإحسان ، والعلم والإيمان بأنهم يزيفون ، وتفرط منهم الهنات في بعض الأموال ، وقيل : اخترناهم بهذا الإنجاء ، وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم ، وخصصناهم بذلك دون العالم . على العالمين أي : عالمي زمانهم ، لأن أمة محمد ـ ﷺ ـ مفضلة عليهم ، وقيل : على العالمين عام لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاص بهم ، ليس لغيرهم وكان الاختيار من هذه الجهة ، لأن أمة محمد أفضل ، وعلى في قوله (على علم) ليس معناها معنى على في قوله (على العالمين) ولذلك تعلقاً بفعل واحد لما اختلف المدلول كقوله :

وَيَـوْمـاً عَلَى ظَهْـرِ الْكَثِيبِ تَعَـذَّرَتْ ... عَلَيَّ وَآلَتْ حَلْفَـةً لَمْ يُحَلَّلِ

فعلى علم حال إما من الفاعل ، أو من المفعول ، وعلى ظهر حال من الفاعل في تعذرت ، والعامل في ذي الحال . (وآتيناهم من الآيات) أي : المعجزات الظاهرة في قوم فرعون ، وما ابتلوا به ، وفي بني إسرائيل مما أنعم به عليهم من تظليل الغمام والمنّ والسلوى وغير ذلك ، مما لم يظهرها لغيرهم (ما فيه بلاء) أي : اختبار بالنعم ظاهراً والابتلاء بالنعم كقوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير ﴾ [الأنبياء ٣٥] (إن هؤلاء) يعني : قريشاً ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم (ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى) أي : ما الموتة إلا محصورة في موتتنا الأولى ، وكان قد قال تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة ٢٨] فذكر موتتين أولى وثانية ، فأنكروا هم أن يكون لهم موتة ثانية ، والمعنى ما آخر أمرنا ومنتهى وجودنا إلا عند موتتنا ، فيتضمن قولهم هذا إنكار البعث ، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم فقالوا : (وما نحن بمنشرين) أي : بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب ، وكان قولهم ذلك في معنى قولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام ٢٩] ، (فأتوا بآبائنا) خطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ وللمؤمنين الذين كانوا يعدونهم بالبعث ، أي : إن صدقتم فيما تقولون فأحيوا لنا من مات من أبنائنا بسؤالكم ربكم ، حتى يكون ذلك دليلاً على البعث في الآخرة ، قيل : طلبوا من الرسول أن يدعو الله فيحيي لهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة النبوة ، والبعث ، إذ كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل . (أهم) أي : قريش (خير أم قوم تبع) الظاهر أن تبعاً هو شخص معروف وقع التفاضل بين قومه وقوم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن كان لفظ تبع يطلق على كل من ملك العرب ، كما يطلق كسرى على من ملك الفرس ، وقيصر على من ملك الروم ، قيل واسمه : أسعد الحميري ، وكني أبا كرب ، وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وروي أنه لما آمن بالمدينة كتب كتاباً ونظم شعراً أما الشعر فهو :

شَهِـدْتُ عَلَى أَحْمَـدَ أَنَّـهُ ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ[1]

فَلَوْ مُـدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْـرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيـراً لَـهُ وَابْنَ عَمْ

وأما الكتاب فروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فيه : أما بعد فإني آمنت بك ، وبكتابك الذي أنزل عليك ، وأنا على

---

(١) انظر البيتين في القرطبي (١٦/٩٧) وروح المعاني (٢٥/١٢٩) .

دينك وسنتك وآمنت بربك ورب كل شيء ، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام ، فإن أدركتك فبها ونعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لي ، ولا تنسني يوم القيامة ، فإني من أمتك الأولين ، وتابعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، وكتب عنوانه (إلى محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ـ ﷺ ـ من تبع الأول) ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد فلم يزل عنده حتى بعث النبي ـ ﷺ ـ وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر ، حتى أدّوه للنبي ـ ﷺ ـ وعن ابن عباس كان تبع نبياً ، وعنه لما أقبل تبع من الشرق بعد أن حير الحيرة وسمرقند قصد المدينة ، وكان قد خلف بها حين سافر ابناً فقتل غيلة ، فأجمع على خرابها واستئصال أهلها ، فجمعوا له الأنصار وخرجوا لقتاله ، وكانوا يقاتلوه بالنهار ويقرونه بالليل ، فأعجبه ذلك وقال : إن هؤلاء لكرام ، إذ جاءه كعب وأسد ابناعم من قريظة جيران ، وأخبراه أنه يحال بينك وبين ما تريد ، فإنها مهاجر نبي من قريش اسمه محمد ، ومولده بمكة ، فثناه ، قولهما عما كان يريد ، ثم دعواه إلى دينهما فاتبعهما وأكرمهما وانصرفوا عن المدينة ، ومعهم نفر من اليهود فقال له في الطريق نفر من هذيل يدلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة بمكة ، وأرادت هذيل هلاكه ، لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحد بسوء ، إلا هلك ، فذكر ذلك للحبرين فقالوا : ما نعلم لله بيتاً في الأرض غير هذا فاتخذه مسجداً وانسك عنده واحلق رأسك ، وما أراد القوم إلا هلاكك فأكرمه وكساه ، وهو أول من كسا البيت ، وقطع أيدي أولئك النفر من هذيل وأرجلهم وسمر أعينهم وصلبهم[١] . وقال قوم : ليس المراد بتبع رجلاً واحداً ، إنما المراد ملوك اليمن ، وكانوا يسمون التابعة والذي يظهر أنه أرادوا واحداً من هؤلاء تعرفه العرب بهذا الاسم أكثر من معرفة غيره به . وفي الحديث لا تسبوا[٢] تبعاً ، فإنه كان مؤمناً ، فهذا يدل على أنه واحد بعينه . قال الجوهري : التتابعة ملوك اليمن ، والتبع الظل ، والتبع ضرب من الطير . وقال أبو القاسم السهلي : تبع لكل ملك اليمن والشحر وحضرموت ، وملك اليمن وحده لا يسمى تبعاً ، قاله المسعودي ، والخيرية الواقعة فيها التفاضل ، وكلا الصنفين لا خير فيهم هي بالنسبة للقوة والمنعة ، كما قال : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ [القمر ٤٣] بعد ذكر آل فرعون في تفسير ابن عباس ، أهم أشد أم قوم تبع ، وإضافة قوم إلى تبع دليل على أنه لم يكن مذهبهم (أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) إخبار عما فعل تعالى بهم ، وتنبيه على أن علة الإهلاك هي الإجرام ، وفي ذلك وعيد لقريش وتهديد أن يفعل بهم ما فعل بقوم تبع ، ومن قبلهم من مكذبي الرسل لإجرامهم ، ثم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث ، وهو خلق العالم بالحق . وقرأ الجمهور وما بينهما من الجنسين ، وعبيد بن عميس وما بينهن لاعبين ، قال مقاتل : عابثين ما خلقناهما إلا بالحق ، أي بالعدل ، يجازي المحسن والمسيء بما أراد تعالى من ثواب وعقاب ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه تعالى خلق ذلك ، فهم لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً ، وقرىء ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ، والخبر يوم الفصل ، أي : يوم الفصل ميعادهم وجزاؤهم ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً أنعم جميع الموالي من القرابة والعتاقة ، والصلة شيئاً من إغناء أي : قليلاً منه ولا هم ينصرون جمع ، لأن عن مولى في سياق النفي ، فيعم فعاد على المعنى لا على اللفظ . (إلا من رحم الله) قال الكسائي : من رحم منصوب على الاستثناء المنقطع ، أي : لكن من رحمه الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه من لعنهم من المخلوقين ، قيل : ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ، أي : لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض . وقال الحوفي : ويجوز أن يكون بدلاً من مولى المرفوع . ويكون يغني بمعنى ينفع . وقال الزمخشري : ومن رحم الله في محل الرفع على البدل من الواو في ينصرون ، أي : لا يمنع من العذاب إلا من رحم الله .

---

(١) انظر البغوي ٤/١٥٢ ـ ١٥٤ والقرطبي ١٦/٩٦ ـ ٩٨ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٣٤٠ والطبراني في الكبير ١١/٢٩٦ والخطيب في التاريخ ٣/٢٠٥ وابن كثير في البداية ٢/١٦٦ والسيوطي في الدر ٦/٣١ والهيثمي في المجمع ٨/٧٦ وابن عساكر في تهذيب دمشق ١٠/٤٠٩ وابن حجر في الفتح ٨/٥٧١ .

وقاله الحوفي ؛ قبله إنه هو العزيز الرحيم لا ينصر من عصاه الرحيم لمن أطاعه ومن عفا عنه . (إن شجرة الزقوم) قرىء بكسر الشين ، وتقدم الكلام فيها في سورة الصافات (طعام الأثيم) صفة مبالغة ، وهو لكثير الآثام ، ويقال له أثوم صفة مبالغة أيضاً ، وفسر بالمشرك . وقال يحيى بن سلام المكتسب للإثم ، وعن ابن زيدان الأثيم هنا هو أبو جهل ، وقيل : الوليد . (كالمهل) هو دردي الزيت ، أو مذاب الفضة ، أو مذاب النحاس ، أو عكر القطران ، أو الصديد أولها لابن عمر وابن عباس وآخرها لابن عباس . وقال الحسن (كالَمهل) بفتح الميم لغة فيه ، وعن ابن مسعود وابن عباس أيضاً المهل ما أذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص . وقرأ مجاهد وقتادة والحسن والابنان وحفص (يغلي) بالياء أي : الطعام ، وعمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وطلحة والحسن في رواية وباقي السبعة (تغلي) بالتاء ، أي الشجرة ، (كغلي الحميم) وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه . (خذوه فاعتلوه) يقال للزبانية : خذوه فاعتلوه ، أي : سوقوه بعنف وجذب . وقال الأعمش : معنى اعتلوه اقصفوه كما يقصف الحطب إلى سواء الجحيم . قال ابن عباس وسطها . وقال الحسن : معظمها . وقرأ الجمهور فاعتلوه بكسر التاء ، وزيد بن علي والابنان ونافع بضمها ، والخلاف عن الحسن وقتادة والأعرج وأبي عمرو ، (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) وفي الحج يصيب من فوقُ رؤسهم الحميم ، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم ، فتارة اعتبرت الحقيقة ، وتارة اعتبرت الاستعارة ، لأنه أذم من الحميم ، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب ، فعبر بالمسبب عن السبب ، لأن العذاب هو المسبب عن الحميم ، ولفظة العذاب أهول وأهيب . (ذق) أي : العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) وهذا على سبيل التهكم والهزء ، لمن كان يتعزز ويتكرم على قومه ، وعن قتادة إنه لما نزلت (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) قال أبو جهل : أتهددني يا محمد ، وأن ما بين لابيتها أعزمني ، ولا أكرم ، فنزلت هذه الآية ، وفي آخرها (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي : على قولك ، وهذا كما قال جرير :

أَلَمْ تَكُنْ فِي رُسُومٍ قَدْ رَسَمْتَ بِهَا ... مَنْ كَانَ مَوْعِظَةً يَا زَهْرَةَ الْيَمَنِ[١]

يقولها لشاعر سمى نفسه به في قوله :

أَبْلِغْ كُلَيْباً وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا ... أَنِّ الأَعَزُّ وَأَنِّ زَهْرَةُ الْيَمَنِ[٢]

فجاء به جرير على جهة الهزء وقرىء : (إنك) بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب على المنبر والكسائي بفتحها (إن هذا) أي : الأمر أو العذاب(ما كنتم به تمترون) أي : تشكون ، ولما ذكر حال الكفار أعقبه بحال المؤمنين ، فقال : (إن المتقين في مقام أمين) وقرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر (في مُقام) بضم الميم ، وأبو رجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة بفتحها ، ووصف المقام بالأمين أي : يؤمن فيه من الغير ، فكأنه فعيل بمعنى مفعول ، أي : مأمون فيه ، قاله ابن عطية . وقال الزمخشري : الأمين من قولك : أمن الرجل أمانة ، فهو أمين ، وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة ، لأن المكان المخيف كان يخوف صاحبه بما يلقى فيه من المكاره ، وتقدم شرح السندس والإستبرق . وقرأ ابن محيصن وإستبرق جعله فعلاً ماضياً . متقابلين وصف لمجالس أهل الجنة لا يستدبر بعضهم بعضاً في المجالس ، (كذلك) أي : الأمر كذلك ، وقرأ الجمهور(بحورٍ) منوناً وعكرمة بغير تنوين ، لأن العين يُقَسَّمْنَ إلى حور ، وغير حور ، فهؤلاء من حور العين لا من شهلن مثلاً (يدعون فيها) أي : الخدم ،

---

(١) من البسيط انظر ديوانه (٦٧٥) الخصائص (٢/٤٦١) .

(٢) قال ابن حني في خصائصه « وأنشدنا أبو علي لبعض اليمانية بهجو جريراً » فذكره ، الخصائص (٢/٤٦١) .

والمتصرفين عليهم بكل فاكهة أرادوا إحضارها لديهم آمنين من الأمراض والتخم ، (لا يذوقون فيها الموت) وقرأ عبيد بن عمير (لا يذاقون) مبنياً للمفعول (إلا الموتة الأولى) هـذا استثناء منقطع ، أي : لكن الموتة الأولى ذاقوها في الدنيا ، وذلك تنبيه على ما أنعم به عليهم من الخلود السرمدي ، وتذكير لهم بمفارقة الدنيا الفانية إلى هذه الدار الباقية . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي . (قلت :) أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله إلا الموتة الأولى موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ، فإنهم يذوقونها . وقال ابن عطية : قدر قوم إلا بسوي وضعف ذلك الطبري ، وقدرها ببعد وليس تضعيفه بصحيح ، بل يصح المعنى بسوي ويتسق ، وأما معنى الآية فتبين أنه نفى عنهم ذوق الموت ، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا . وقرأ أبو حيوة ووقاهم مشدداً بالقاف ، والضمير في (يسرناه) عائد على القرآن ، (وبلسانك) بلغتك ، وهي لغة العرب (فارتقب) النصر الذي وعدناك (إنهم مرتقبون) فيما يظنون الدوائر عليك ، وفيها وعدٌ له عليه السلام ووعيدٌ لهم ، ومتاركة منسوخة بآيات السيف .

سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

هذه السورة مكية ، قال ابن عطية بلا خلاف ، وذكر الماردي إلا (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية ، فمدنية نزلت في عمر بن الخطاب[١] . قال ابن عباس وقتادة وقال النحاس والمهدوي عن ابن عباس : نزلت في عمر شتمة مشرك بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به فنزلت[٢] . ومناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح ، قال : (فإنما يسرناه بلسانك) وقال : (حم تنزيل الكتاب) وتقدم الكلام على تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم أول الزمر . وقال أبو عبد الله

---

(١) انظر القرطبي ١٦/١٠٤ .

(٢) انظر القرطبي ١٦/١٠٤ .

الرازي ، وقوله : (العزيز الحكيم) يجوز جعله صفة لله فيكون ذلك حقيقة ، وإن جعلناه صفة للكتاب كان ذلك مجازاً ، والحقيقة أولى من المجاز مع أن زيادة القرب توجب الرجحان انتهى . وهذا الذي ردّد في قوله وإن جعلناه صفة للكتاب لا يجوز لو كان صفة للكتاب لوليه ، فكان يكون التركيب تنزيل الكتاب العزيز الحكيم من الله ، لأن من الله إما أن يكون متعلقاً بتنزيل ، وتنزيل خبر لحم ، أو لمبتدأ محذوف فلا يجوز الفصل به بين الصفة والموصوف ، لا يجوز أعجبني ضرب زيد سوط الفاضل ، أو في موضع الخبر ، وتنزيل مبتدأ فلا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف ، أيضاً لا يجوز ضرب زيد شديد الفاضل ، والتركيب الصحيح في نحو هذا أن يلي الصفة موصوفها (إن في السموات والأرض) احتمل أن يريد في خلق السموات ، كقوله : (وفي خلقكم) والظاهر أنه لا يراد التخصيص بالخلق ، بل في السموات والأرض على الإطلاق والعموم ، أي : في أي شيء نظرت منها من خلق وغيره من تسخير وتنوير ونحوهما (لآيات) لم يأت بالآيات مفصلة ، بل أتى بها مجملة إحالة على غوامض يثيرها الفكر ويخبر بكثير منها الشرع ، وجعلها للمؤمنين إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق ، وما يبث من دابة أي : في غير جنسكم ، وهو معطوف على (وفي خلقكم) ومن أجاز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض أجاز في (وما يبث) أن يكون معطوفاً على الضمير في خلقكم ، وهو مذهب الكوفيين ويونس والأخفش وهو الصحيح ، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين ، وقال الزمخشري : يقبح العطف عليه ، وهذا تفريع على مذهب سيبويه وجمهور البصريين ، قال : وكذلك أن أكدوه كرهوا أن يقولوا مررت بك أنت وزيد انتهى . وهذا يجيزه الجرمي والزيباري في الكلام ، وقال لقوم يوقنون وهم الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين (واختلاف الليل والنهار) تقدم الكلام على نظيره في سورة البقرة . وقرأ الجمهور آيات جمعاً بالرفع فيهما ، والأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب بالنصب فيهما ، وزيد بن علي برفعهما على التوحيد . وقرأ أبي وعبد الله لآيات فيهما كالأولى ، فأما آيات لقوم يعقلون رفعاً ونصباً فاستدل به ، وشبهه مما جاء في كلام الأخفش ومن أخذ بمذهبه على عطف معمولي عاملين بالواو ، وهي مسألة فيها أربعة مذاهب ذكرناها في كتاب التذييل والتكميل لشرح التسهيل ، فأما ما يخص هذه الآية فمن نصب آيات بالواو وعطفت واختلاف على المجرور بفي قبله ، وهو وفي خلقكم وما يبث وعطف آيات على آيات ، ومن رفع فكذلك ، والعاملان أولاهما إن وفي ، وثانيهما الابتداء وفي . وقال الزمخشري : أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر ، واختلاف الليل والنهار والنصب في آيات ، وإذا رفعت والعاملان الابتداء ، وفي عملت الرفع للواو وليس بصحيح ، لأن الصحيح من المذاهب أن حرف العطف لا يعمل ، ومن منع العطف على مذهب الأخفش أضمر حرف الجر فقدر وفي اختلاف ، فالعمل للحرف مضمراً ، ونابت الواو مناب عامل واحد ، ويدل على أن في مقدرة قراءة عبد الله ، وفي اختلاف مصرحاً ، وحسن حذف في تقدمها في قوله (وفي خلقكم) وخرج أيضاً النصب في آيات على التوكيد لآيات المتقدمة ، ولإضمار حرف في وقرىء واختلاف بالرفع على خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي آيات ، ولإضمار حرف أيضاً . وقرأ واختلاف الليل والنهار آية بالرفع في اختلاف ، وفي آية موحدة ، وكذلك (وما يبث من دابة) . وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى وتصريف الرياح . وقال الزمخشري : والمعنى : أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا بالله وأقروا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال ، وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ، ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبوراً ، عقلوا واستحكم علمهم ، وخلص يقينهم . وقال أبو عبد الله الرازي : ذكر في البقرة ثمانية دلائل ، وهنا ستة لم يذكر الفلك والسحاب ، والسبب في ذلك أن مدار الحركة للفلك والسحاب على الرياح المختلفة ، فذكر الرياح ، وهناك جعل مقطع الثمانية واحداً ، وهنا رتبها على مقاطع ثلاثة يؤمنون يوقنون يعقلون ،

قال : وأظن سبب هذا الترتيب إن كنتم مؤمنين ، فافهموا هذه الدلائل ، فإن لم تكونوا مؤمنين ولا موقنين فلا أقل أن تكونوا من العاقلين فاجتهدوا ، وقال هناك ﴿ إن في خلق السموات ﴾ [البقرة ١٦٤] وهنا (في السموات) فدل على أن الخلق غير المخلوق ، وهو الصحيح عند أصحابنا ، ولا تفارق بين أن يقال في السموات ، وفي خلق السموات انتهى . وفيه تلخيص وتقديم وتأخير . (تلك آيات الله) أي : تلك الآيات وهي الدلائل المذكورة (نتلوها) أي : نسردها عليك ملتبسة بالحق ، ونتلوها في موضع الحال ، أي : متلوة ، قال الزمخشري : والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا زيد شيخاً[1] أو قائماً انتهى . وليس نحوه ، لأن في وهذا حرف تنبيه ، وقيل : العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه ، أي تنبه ، وأما تلك فليس فيها حرف تنبيه عاملاً بما فيه من معنى التنبيه ، لأن الحرف قد يعمل في الحال تنبه لزيد في حال شيخه ، وفي حال قيامه ، وقيل : العامل في مثل هذا التركيب فعل محذوف يدل عليه المعنى ، أي : انظر إليه في حال شيخه فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ، ولا حرف التنبيه إن كان هناك . وقال ابن عطية : نتلوها فيه حذف مضاف ، أي : نتلو شأنها وشرح العبرة بها ، ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن المنزل في هذه المعاني ، فلا يكون في نتلوها حذف مضاف انتهى . ونتلوها معناه يأمر الملك أن نتوها . وقرىء يتلوها بياء الغيبة عائداً على الله ، و (بالحق) بالصدق ، لأن صحتها معلومة بالدلائل العقلية . (فبأي حديث) الآية فيه تقريع وتوبيخ وتهديد . (بعد الله) أي : حديث الله وهو كتابه وكلامه ، كقوله : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) وقال : (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : بعد حديث الله وكلامه . وقال الضحاك : بعد توحيد الله ، وقال الزمخشري : (بعد الله وآياته) أي : بعد آيات الله ، كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، يريدون أعجبني كرم زيد انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه من حيث المعنى إقحام الأسماء من غير ضرورة ، والعطف والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل ، لأن تقدير كرم زيد إنما يكون في أعجبني زيد كرمه بغير واو على البدل ، وهذا قلب لحقائق النحو ، وإنما المعنى في أعجبني زيد وكرمه أن ذات زيد أعجبته ، وأعجبه كرمه ، فهما إعجابان لا إعجاب واحد ، وقد رددنا عليه مثل قوله هذا فيما تقدم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة والحرميان وأبو عمرو وعاصم في رواية : (يؤمنون) بالياء من تحت ، والأعمش وباقي السبعة بتاء الخطاب ، وطلحة (توقنون) بالتاء من فوق ، والقاف من الإيقان . (ويل لكل أفاك أثيم) قيل : نزلت في أبي جهل ، وقيل : في النضر بن الحارث ، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآية عامة فيمن كان مضاراً لدين الله ، وأفاك أثيم مبالغة ، وألفاظ هذه الآية تقدم الكلام عليها . وقرأ الجمهور : (عَلِمَ) وقتادة ومطر الوراق بضم العين وشد اللام مبنياً للمفعول ، أي : عرف ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما معنى ثم في قوله (ثم يصير مستكبراً) (قلت :) كمعناه في قول القائل :

يَرَى غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

وذلك بأن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ، ويطلب الفرار منها ، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد ، فمعنى (ثم) الإيذان بإن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادة والطباع ، وكذلك آيات الله الواضحة القاطعة بالحق من تليت عليه سمعها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان بها اتخذها هزواً ، ولم يقل اتخذه إشعاراً بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد ـ ﷺ ـ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه . وقال الزمخشري : ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجعله محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه ، واتخذ آيات الله هزواً ،

---

(١) ثبت في ط والأصل وهذا بعلي شيخاً وما أثبتنا هو الموافق لما يأتي بعد .

وذلك نحو افتراص ابن الزبعري قوله عز وجل (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ومغالطته رسول الله ـ ﷺ ـ وقوله خصمتك ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ، لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية :

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَـلَّقَةٌ ... اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا[1]

حيث أراد عتبة انتهى . وعتبة جارية كان أبو العتاهية يهواها ويتنسب بها ، والإشارة بأولئك إلى كل أفاك لشموله الأفاكين حمل أولاً على لفظ كل ، وأفرد على المعنى فجمع كقوله : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الجاثية ١٠] ، (من ورائهم جهنم) أي : من قدامهم والوراء ما توارى من خلف وأمام ، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً من الأموال في متاجرهم ، ولا من اتخذوا من دون الله من الأوثان ، (هذا) أي : القرآن (هدي) أي : بالغ في الهداية ، كقولك : هذا رجل ، أي : كامل في الرجولية . وقرأ طلحة وابن محيصن وأهل مكة وابن كثير وحفص (أليمٌ) بالرفع نعتاً لعذاب والحسن وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وباقي السبعة بالجر نعتاً لرجز ، (الله الذي سخر) الآية آية اعتبار في تسخير هذا المخلوق العظيم ، والسفن الجارية فيه بهذا المخلوق الحقير وهو الإنسان بأمره ، أي بقدرته أناب الأمر مناب القدرة ، كأنه يأمر السفن أن تجري من فضله بالتجارة وبالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، واستخراج اللحم الطري ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء والأملاك الموكلة بهذا كله ، وما في الأرض من البهائم والمياه والجبال والنبات . وقرأ الجمهور (منه) وابن عباس بكسر الميم وشد النون ، ونصب التاء على المصدر ، قال أبو حاتم نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والجحدري ، وعبد الله بن عبيد بن عمير ، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب اللوامح ، وحكاها ابن خالويه عن ابن عباس وعبيد بن عمير . وقرأ سلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضم التاء أي : هو منه وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون وهاء الكناية عائد على الله وهو فاعل سخر على الإسناد المجازي ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : ذلك أو هو منه ، والمعنى على قراءة الجمهور أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه ، وحاصلة عنده إذ هو موجدها بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقه ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون يعني منه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي جميعاً منه ، وأن يكون وما في الأرض مبتدأ ، ومنه خبره انتهى . ولا يجوز هذان الوجهان إلا على قول الأخفش ، لأن جميعاً إذ ذاك حال ، والعامل فيها معنوي وهو الجار والمجرور فهو نظير زيد قائماً في الدار ، ولا يجوز على مذهب الجمهور . (قل للذين آمنوا يغفروا) نزلت في صدر الإسلام أمر المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ، وأن لا يعاقبوهم بذنب ، بل يصبرون لهم ، قاله السدّي ومحمد بن كعب . قيل : وهي محكمة والأكثر على أنها منسوخة بآية السيف . يغفروا في جزمه أوجه للنحاة تقدّمت في ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم ٣١] في سورة إبراهيم (لا يرجون أيام الله) أي : وقائعه بأعدائه ونقمته منهم . وقال مجاهد : وقيل أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك . وقيل : لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز . قيل نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها ، وتقدم قول ابن عباس أنها نزلت في عمر بن الخطاب ، قيل : سبه رجل من الكفار فهم أن يبطش به[2] . وقرأ الجمهور (ليجزي الله) وزيد بن عليّ وأبو عبد الرحمن والأعمش وأبو علية وابن عامر وحمزة والكسائي بالنون ، وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه بالياء مبنياً للمفعول ، وقد روى ذلك عن عاصم ، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول على أن يقام المجرور وهو بما وينصب المفعول به الصريح وهو قوماً ، ونظيره ضرب بسوط زيداً . ولا يجيز ذلك الجمهور ، وخرجت هذه القراءة على أن يكون بني الفعل للمصدر ، أي : وليجزي الجزاء قوماً ، وهذا أيضاً لا يجوز عند

---

(١) البيت في الكشاف (٢٨٧/٤) وروح المعاني (١٤٣/٢٥) .

(٢) انظر البغوي ١٥٨/٤ والقرطبي ١٠٧/١٦ ـ ١٠٨ والوسيط ٥٥ خ .

الجمهور ، لكن يتأول على أن ينصب بفعل محذوف تقديره يجزي قوماً ، فيكون جملتان إحداهما ليجزي الجزاء قوماً ، والأخرى يجزيه قوماً ، وقوماً هنا يعني به الغافرين ، ونكره على معنى التعظيم لشأنهم ، كأنه قيل : قوماً أي قوم من شأنهم التجاوز عن السيئات والصفح عن المؤذيات وتحمل الوحشة . وقيل : هم الذين لا يرجون أيام الله ، أي : بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل لم تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن . من عمل صالحاً كهؤلاء الغافرين ، ومن أساء كهؤلاء الكفار ، وأتى باللام في فلنفسه ، لأن المحاب والحظوظ تستعمل فيها على الدالة على العلو والقهر ، كما تقول : الأمور لزيد متأتية ، على عمرو ومستصعبة ، والكتاب التوراة ، والحكم القضاء ، وفصل الأمور ، لأن الملك كان فيهم . قيل : والحكم الفقه ، ويقال : لم يتسع فقه الأحكام على نبي كما اتسع على لسان موسى من الطيبات المستلذات الحلال ، وبذلك تتم النعمة ، وذلك المن والسلوى ، وطيبات الشام إذ هي الأرض المباركة ، (بينات) أي : دلائل واضحة من الأمر ، أي : من الوحي الذي فصلت به الأمور . وعن ابن عباس من الأمر أي : أمر النبي ـ ﷺ ـ وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب . وقيل : معجزات موسى (فما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم) متقدم تفسيره في شورى .

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

لما ذكر تعالى إنعامه على بني إسرائيل ، واختلافهم بعد ذلك ، ذكر حال نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما منّ به عليه من اصطفائه ، فقال (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء) ، قال قتادة : الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . وقال مقاتل : البينة ، لأنها طريق إلى الحق . وقال الكلبي : السنة ، لأنه كان يستن بطريقة من قبله من الأنبياء ، وقال ابن زيد : الدّين ، لأنه طريق إلى النجاة ، والشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه ، ومنه قول الشاعر :

وَفِي الشَّرَائِعِ مِنْ جِيلَانَ مُقْتَنِصٌ ... رثُّ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبُ[1]

---

(١) من البسيط لم نهتد لقائله وذكره السمين في الدر المصون .

فشريعة الدّين من ذلك من حيث يرد الناس أمر الله ورحمته ، والقرب منه من الأمور التي من دين الله الذي بعثه في عباده في الزمان السالف ، أو يكون مصدر أمر ، أي : من الأمر والنهي وسمى النهي أمراً ، (أهواء الذين لا يعلمون) ، قيل : جهال قريظة والنضير[١] ، وقيل : رؤساء قريش حين قالوا : ارجع إلى دين آبائك ، (هذا بصائر) أي : هذا القرآن جعل ما نافية من معالم الدين بصائر للقلوب ، كما جعل روحاً وحياة ، وقرىء هذي أي هذه (أم حسب) أم منقطعة تتقدر ببل ، والهمزة وهو استفهام ، إنكار ، وقال الكلبي : نزلت في عليّ ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وفي عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولئن كان ما تقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة ، كما هو أفضل في الدنيا[٢] ، واجترحوا اكتسبوا ، والسيئات هنا سيئات الكفر ، ونجعلهم نصيرهم ، والمفعول الثاني هو كالذين وبه تمام المعنى . وقرأ الجمهور : (سواء) بالرفع (ومماتهم) بالرفع أيضاً ، وأعربوا سواء مبتدأ وخبره ما بعده ، ولا مسوغ لجواز الابتداء به ، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ ، والجملة خبر مستأنف ، واحتمل الضمير في محياهم ومماتهم أن يعود على الذين اجترحوا ، أخبر أن حالهم في الزمانين سواء وأن يعود على المجترحين والصالحين بمعنى أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء في إهانتهم عند الله وعدم كرامتهم عليه ، ويكون اللفظ قد لف هذا المعنى وذهن السامع يفرقه إذ قد تقدم إبعاد الله أن يجعل هؤلاء كهؤلاء . قال أبو الدرداء : يبعث الناس على ما ماتوا عليه . وقال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً والكافر يموت كافراً ، ويبعث كافراً[٣] . وقال ابن عطية : مقتضى هذا الكلام أنه لفظ الآية ، ويظهر لي أن قوله : (سواء محياهم ومماتهم) داخل في المحسنة المنكرة السيئة ، وهذا احتمال حسن ، والأول أيضاً أجود انتهى . ولم يبين كيفية تشبث الجملة بما قبلها حتى يدخل في المحسنة . وقال الزمخشري : والجملة التي هي سواء محياهم ومماتهم . بدل من الكاف ، لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً ، فكانت في حكم المفرد ، ألا تراك لو قلت : أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سديداً ، كما تقول : ظننت زيد أبوه منطلق انتهى . وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري من إبدال الجملة من المفرد قد أجازه أبو الفتح ، واختاره ابن مالك ، وأورد على ذلك شواهد على زعمه ، ولا يتعين فيها البدل ، وقال بعض أصحابنا وهو الإمام العامل ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ الإشبيلي ويعرف بابن العلج ، وكان ممن أقام باليمن وصنف بها قال في كتابه البسيط في النحو : ولا يصح أن يكون جملة معمولة للأول في موضع البدل ، كما كان في النعت ، لأنها تقدر تقدير المشتق تقدير الجامد ، فيكون بدلاً ، فيجتمع فيه تجوز أن ، ولأن البدل يعمل فيه العامل الأول فيصح أن يكون فاعلاً ، والجملة لا تكون في موضع الفاعل بغير سائغ ، لأنها لا تضمر ، فإن كانت غير معمولة فهل تكون جملة لا يبعد عندي جوازها كما يتبع في العطف الجملة للجملة ، ولتأكيد الجملة التأكيد اللفظي انتهى . وتبين من كلام هذا الإمام أنه لا يجوز أن تكون الجملة بدلاً من المفرد ، وأما تجويز الزمخشري أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم ، فيظهر لي أنه لا يجوز ، لأنها بمعنى التصيير ، لا يجوز صيرت زيداً أبوه قائم ، ولا صيرت زيداً غلامه منطلق ، لأن التصيير انتقال من ذات إلى ذات ، أو من وصف في الذات ، إلى وصف فيها ، وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صيرت المقدرة مفعولاً ثانياً ليس فيها انتقال مما ذكرنا ، فلا يجوز ، والذي يظهر لي أنه قلنا بتشبث الجملة بما قبلها أن تكون الجملة في موضع الحال ، والتقدير أم حسب الكفار أن نصيرهم مثل المؤمنين في حال استواء محياهم ومماتهم ليسوا كذلك ، بل هم مفترقون أي : افتراق في الحالتين ، وتكون هذه الحال مبنية ما انبهم في المثلية الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني . وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وحفص سواء بالنصب ، وما بعده مرفوع على الفاعلية أجرى سواء مجرى مستوياً كما قالوا مررت برجل سواء هو

---

(١) انظر الوسيط ٥٦ خ والبغوي ٤/١٥٩ والقرطبي ١٦/١٠٩ .

(٢) انظر الوسيط ٥٦ خ والبغوي ٤/١٥٩ والقرطبي ١٦/١١٠ .

(٣) انظر البغوي ٤/١٥٩ والوسيط ٥٦ خ والطبري ٢٥/٩٠ والبغوي ٤/١٥٩ .

والعدم ، وجوز في انتصاب سواء وجهين أحدهما : أن يكون منصوباً على الحال ، وكالذين المفعول الثاني والعكس . وقرأ الأعمش : (سواءً) بالنصب (محياهم ومماتهم) بالنصب أيضاً (محياهم ومماتهم) بالنصب أيضاً ، وخرج على أن يكون محياهم ومماتهم ظرفي زمان ، والعامل إما أن نجعلهم ، وإما سواء ، وانتصب على البدل من مفعول نجعلهم ، والمفعول الثاني سواء ، أي : أن يجعل محياهم ومماتهم سواء . وقال الزمخشري : ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين ، كمقدم الحاج وخفوق النجم ، أي : سواء في محياهم وفي مماتهم ، والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً لافتراق أحوالهم ، وتمثيله بقوله وخفوق النجم ليس بجيد ، لأن خفوق مصدر ليس على مفعل ، فهو في الحقيقة على حذف مضاف ، أي : وقت خفوق النجم بخلاف محيا وممات ومقدم ، فإنها تستعمل بالوضع مصدراً ، واسم زمان ، واسم مكان ، فإذا استعملت اسم مكان أو اسم زمان لم يكن ذلك على حذف مضاف ، قامت هذه مقامه ، لأنها موضوعة للزمان وللمكان ، كما وضعت للمصدر فهي مشتركة بين هذه المدلولات الثلاثة بخلاف خفوق النجم ، فإنه وضع للمصدر فقط . وقد خلط ابن عطية في نقل القرآن ، وله بعض عذر فإنه لم يكن معرباً فقال : وقرأ طلحة بن مصرف وعيسى بخلاف عنه سواء بالنصب محياهم ومماتهم بالرفع ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص والأعمش : (سواءً) بالنصب (محياهم ومماتهم) بالنصب ، ووجه كلاً من القراءتين على ما تقتضيه صنعة الإعراب ، وتبعه على هذا الوهم صاحب التحرير ، وهو معذور لأنه ناسخ من كتاب إلى كتاب ، والصواب ما استبناه من القرآت لمن ذكرنا ، ويستنبط من هذه الآية تباين حال المؤمن العاصي من حال الطائع ، وإن كانت في الكفار وتسمى مبكاة العابدين . وعن تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ، ويردد إلى الصباح (ساء ما يحكمون) وعن الربيع بن خيثم أنه كان يردّدها ليلة أجمع ، وكذلك الفضيل بن عياض كان يقول لنفسه ليث شعري من أي الفريقين أنت ، وقال ابن عطية : وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة هي بالاجتراح وعمل الصالحات ، ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون ساء ما يحكمون هو كقوله : ﴿ بئسما اشتروا ﴾ [البقرة ٩٠] وتقدم إعرابه في البقرة . وقال ابن عطية : هنا ما مصدرية والتقدير ساء الحكم حكمهم بالحق بأن خلقها حق واجب لما فيه من فيض الخيرات ، وليدل عليه دلالة الصنعة على الصانع ، ولتجزي هي لام كي معطوفة علي بالحق ، لأن كلاً من التاء واللام يكونان للتعليل ، فكان الخلق معللاً بالجزاء . وقال الزمخشري : أو على معلل محذوف تقديره ليدل بها على قدرته ، ولتجزي كل نفس . وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون لام الصيرورة ، أي : فصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون ، لأن يجازي كل واحد بعمله ، وبما اكتسب من خير أو شر انتهى .

(أفرأيت) الآية ، قال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي ، وأفرأيت هو بمعنى أخبرني ، والمفعول الأول هو من اتخذ ، والثاني محذوف تقديره بعد الصلاة التي لمن اهتدى يدل عليه قوله بعد (فمن يهديه من بعد الله) أي : لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه (من اتخذ إلهه هواه) أي : هو مطواع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه . قال ابن جبير : إشارة إلى الأصنام إذ كانوا يعبدون ما يهوون من الحجارة . وقال قتادة : لا يهوى شيئاً إلا ركبه لا يخاف الله ، فلهذا يقال الهوى إله معبود ، وقرأ الأعرج وأبو جعفر : آلهة بتاء التأنيث بدل من هاء الضمير ، وعن الأعرج أنه قرأ آلهة على الجمع . قال ابن خالويه : ومعناه أن أحدهم كان يهوى الحجر فيعبده ، ثم يرى غيره فيهواه فيلقى الأول ، فكذلك قوله : (إلهه هواه) الآية ، وإن نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة . قال ابن عباس ما ذكر الله هوى إلا ذمه . وقال وهب : إذا شككت في خبر أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته . وقال سهل التستري : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك . وفي الحديث والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني ، ومن حكمة الشعر قول عنترة وهو جاهلي :

إنّي امْرُؤٌ سَمْحُ الْخَلِيقَـةِ مَاجِـدٌ لَا أتبعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَـوَاهَا[١]

وقال أبو عمران موسى بن عمران الإشبيلي الزاهد رحمه الله تعالى :

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَاعْصِهَا إنَّ مَنْ يُطِعْ هَوَى نَفْسِهِ يَنْزِعْ بِهِ شَرَّ مَنْزَعِ[٢]
وَمَنْ يُـطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ تَـرُدّهُ وَتَرْمِ بِهِ فِي مَصْرَعٍ أَيِّ مَصْرَعِ

(وأضله الله على علم) أي : من الله تعالى سابق ، أو على علم من هذا الضال بأن الحق هو الدين ، ويعرض عنه عناداً فيكون كقوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل ١٤] ، وقال الزمخشري : صرفه عن الهداية واللطف وخذله عن علم عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه ، وأنه ممن لا لطف به ، أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقربة انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقرأ الجمهور (غِشاوة) بكسر الغين ، وعبد الله والأعمش بفتحها ، وهي لغة ربيعة والحسن وعكرمة وعبد الله أيضاً بضمها ، وهي لغة عكلية والأعمش وطلحة وأبو حنيفة ومسعود بن صالح وحمزة والكسائي (غَشْوَة) بفتح الغين وسكون الشين وابن مصرف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا العين ، وتقدم تفسير الجملتين في أول البقرة . وقرأ الجمهور : (تذّكرون) بشد الذال والجحدري يخففها والأعمش بتاءين ، (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا) هي مقالة بعض قريش إنكاراً للبعث ، والظاهر أن قولهم (نموت ونحيا) حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير ، أي : تموت طائفة ، وتحيا طائفة ، وأن المراد بالموت مفارقة الروح للجسد ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، أي : نحيا ونموت ، وقيل : (نموت) عبارة عن كونهم لم يوجدوا (ونحيا) أي : في وقت وجودنا ، وهذا قريب من الأول قبله ولا ذكر للموت الذي هو مفارقة الروح في هذين القولين ، وقيل : تموت الآباء وتحيا الأبناء . وقرأ زيد بن علي (ونُحيا) بضم النون ، (وما يهلكنا إلا الدهر) أي : طول الزمان ، لأن الآفات تستوي فيه كمالاتها هذا إن كان قائلو هذا معترفين بالله ، فنسبوا الآفات إلى الدهر بجهلهم أنها مقدرة من عند الله ، وإن كانوا لا يعرفون الله ولا يقرون به ، وهم الدهرية فنسبوا ذلك إلى الدهر . وقرأ عبد الله (إلا دهر) وتأويله إلا دهر يمر كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر ، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر ، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين ، قال ابن دريد في مقصورته :

يَا دَهْرُ إنْ لَمْ تَكُ عُتْبَى فَاتَّئِـدْ فَـإنَّ إرْوَادَكَ وَالْعُتْبَى سَـوَاءُ

وما كان حجتهم ليست حجة حقيقة ، أي : حجتهم عندهم أو لأنهم أدلوا بها كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوها مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في نحو قولهم ، تحية بينهم ضرب وجيع ، أي : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ، والمراد نفي أن يكون لهم حجة البتة ، وقرأ الجمهـور (حجتَهم) بالنصب ، والحسن وعمـرو بن عبيد وزيد بن علي وعبيد بن عمير وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه حجتهم أي : ما تكون حجتهم ، لأن إذا للاستقبال ، وخالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان منفياً بما لم تدخل الفاء ، بخلاف أدوات الشرط فلا بد من الفاء ، تقول إن تزرنا فما جفوتنا ، أي : فما تجفونا ، وفي كون الجواب منفياً بما ، دليل على ما اخترناه من أن جواب إذا لا يعمل فيها ، لأن ما بعد ما النافية لا يعمل فيما قبلها (ائتوا) يظهر أنـه خطاب للرسـول والمؤمنين ، إذ هم قائلون بمقالته ، أو هو خطاب له ولمن جاء بالبعث ، وهم الأنبياء وغلب الخطاب على الغيبة ، وقال ابن

---

(١) انظر روح المعاني (٢٥/١٥٢) .
(٢) انظر روح المعاني (٢٥/١٥٢) .

عطية : (ائتوا) من حيث المخاطبة له ، والمراد هو وإلهه والملك الوسيط الذي ذكره هو لهم ، فجاء من ذلك جملة ، قيل : لها ائتوا وإن كنتم انتهى . ولما اعترفوا بأنهم ما يهلكهم إلا الدهر ، وأنهم استدلوا على إنكار البعث بما لا دليل لهم فيه من سؤال إحياء آبائهم ، وردّ الله تعالى عليهم بأنه تعالى هو المحيي ، وهو المميت لا الدهر ، وضم إلى ذلك آية جامعة للحساب يوم البعث ، وهذا واجب الاعتراف به إن أنصفوا ومن قدر على هذا قدر على الإتيان بآبائهم .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

العامل في (ويوم تقوم) يخسر ، ويومئذ بدل من يوم ، قاله الزمخشري ، وحكاه ابن عطية عن فرقة ، والتنوين في يومئذ تنوين العوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة إلا قوله : (ويوم تقوم الساعة) ، فيصير التقدير ويوم تقوم يوم إذ تقوم الساعة يخسر ولا مزيد فائدة في قوله يوم إذ تقوم الساعة لأن ذلك مستفاد من ويوم تقوم الساعة ، فإن كان بدلاً توكيدياً وهو قليل ، جاز ذلك ، وإلا فلا يجوز أن يكون بدلاً ، وقالت فرقة العامل في ويوم تقوم ما يدل عليه الملك ، قالوا وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأرض ، لأن ذلك يتبدل فكأنه قال ولله ملك السموات والأرض ، والملك يوم القيامة ، فحذفه لدلالة ما قبله عليه ، ويومئذ منصوب بيخسر ، وهي جملة فيها استئناف ، وإن كان لها تعلق بما قبلها من جهة تنوين العوض ، والمبطلون الداخلون في الباطل جاثية باركة على الركب مستوفزة ، وهي هيئة المذنب الخائف . وقرىء جاذية بالذال ، والجذو أشد استيفازاً من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه ، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة ، وعن قتادة جماعات من الجثوة ، وهي الجماعة يجمع على جثي قال الشاعر :

تَـرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُـرَابٍ عَلَيْهِمَـا ... صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدِ[1]

وعن مورج السدوسي جاثية خاضعة بلغة قريش ، وعن عكرمة جاثية متميزة ، وقرأ يعقوب كل أمة تدعى بنصب كل أمة على البدل بدل النكرة الموصوفة من النكرة ، والظاهر عموم كل أمة من مؤمن وكافر ، قال الضحاك : وذلك عند الحساب . وقال يحيى بن سلام : ذلك خاص بالكفار ، تدعى إلى كتابها المنزل عليها فتحاكم إليه ، هل وافقته أو خالفته أو الذي كتبته الحفظة ، وهو صحائف أعمالها ، أو اللوح المحفوظ ، أو المعنى إلى ما يسبق لها فيه ، أي : إلى حسابها

(١) البيت من الطويل لطرفة انظر ديوانه (٣٣) السبع الطوال (٢٠٠) اللسان (حيث) .

أقوال ، وأفرد كتابها اكتفاء باسم الجنس ، لقوله ﴿ ووضع الكتاب ﴾ [الزمر ٦٩] ﴿ اليوم تجزون ﴾ [الجاثية ٢٨] ﴿ هذا كتابنا ﴾ [الجاثية ٢٩] هو الذي دعيت إليه كل أمة وصحت إضافته إليه تعالى ، لأنه مالكه الآمر بكتبه وإليهم ، لأن أعمالهم مثبتة فيه ، والإضافة تكون بأدنى ملابسة ، فلذلك صحت ، إضافته إليهم ، وإليه تعالى ينطق عليكم يشهد بالحق من غير زيادة ولا نقصان (إنا كنا نستنسخ) أي : الملائكة ، أي : نجعلها تنسخ أي تكتب ، وحقيقة النسخ نقل خط من أصل ينظم فيه فأعمال العباد كأنها الأصل . وقال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم ، وعن ابن عباس يجعل الله الحفظة تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعل العباد ، ثم يمسكونه عندهم ، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فبعيد أيضاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان يقول ابن عباس ألستم عرباً ، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ، ثم بين حال المؤمن بأنه يدخله في رحمته ، وهو الثواب الذي أعدله ، وأن ذلك هو الظفر بالبغية ، وبين حال الكافر بأنه يوبخ ويقال له أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن اتباعها ، والإيمان بها ، وكنتم أصحاب جرائم ، والفاء في أفلم ينوي بها التقديم ، وإنما قدمت الهمزة ، لأن الاستفهام له صدر الكلام ، والتقدير فيقال له ألم . وقال الزمخشري : والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه انتهى . وقد تقدم الكلام معه في زعمه أن بين الفاء والواو إذا تقدمها همزة الاستفهام معطوفاً عليه محذوفاً ورددنا عليه ذلك . وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد وإذا قيل : إن وعد الله بفتح الهمزة ، وذلك على لغة سليم ، والجمهور إن بكسرها . وقرأ الجمهور (والساعة) بالرفع على الابتداء ، ومن زعم أن لاسم إن موضعاً جوز العطف عليه هنا ، أو زعم أن لأن واسمها موضعاً جوز العطف عليه ، وبالعطف على الموضع لأن واسمها هنا . قال أبو علي ذكره في الحجة وتبعه الزمخشري فقال وبالرفع عطفاً على محل إن واسمها ، والصحيح المنع ، وحمزة بالنصب عطفاً على وعد الله ، وهي مروية عن الأعمش وعيسى وأبي عمرو وأبي حيوة والعبسي والمفضل إن نظن إلا ظناً ، تقول ضربت ضرباً ، فإن نفيت لم تدخل إلا إذ لا يفرغ العامل بالمصدر المؤكد فلا تقول ما ضربت إلا ضرباً ، ولا ما قمت إلا قياماً ، فأما الآية فتأول على حذف وصف المصدر حتى يصير مختصاً لا مؤكداً ، وتقديره إلا ظناً ضعيفاً ، أو على تضمين نظن معنى نعتقد ، ويكون ظناً مفعولاً به ، وقد تأول ذلك بعضهم على وضع إلا في غير موضعها ، وقال : التقدير إن نحن إلا نظن ظناً ، وحكي هذا عن المبرد ، ونظيره ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب ليس الطيب إلا المسك . قال المبرد : ليس إلا الطيب المسك انتهى . واحتاج إلى هذا التقدير كون المسك مرفوعاً بعد إلا ، وأنت إذا قلت ما كان زيد إلا فاضلاً نصبت ، فلما وقع بعد إلا ما يظهر أنه خبر ليس احتاج أن يزحزح إلا عن موضعا ، ويجعله في ليس ضمير الشأن ، ويرفع إلا الطيب المسك على الابتداء ، والخبر فيصير كالملفوظ به ، في نحو ما كان إلا زيد قائم ، ولم يعرف المبرد أن ليس في مثل هذا التركيب عاملتها بنو تميم معاملة ما ، فلم يعملوها إلا باقية مكانها ، وليس غير عاملة ، وليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب في نحو : ليس الطيب إلا المسك ، ولا تميمي إلا وهو يرفع في ذلك حكاية جرت بين عيسى بن عمرو أبي عمرو بن العلاء ذكرناها فيما كتبناه من علم النحو ، ونظير (إن نظن إلا ظناً) ، قول الأعشى :

وَجَدَّ بِهِ الشَّيْبُ أَثْقَالَهُ ... وَمَا اغْتَرَّهُ الشَّيْبُ إِلَّا اغْتِرَارَا[1]

أي : اغترارا بيناً ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما معنى أن نظن إلا ظناً (قلت) أصله نظن ظناً ، ومعناه إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفي ما سوى الظن توكيداً بقوله : (وما نحن بمستيقنين) انتهى . وهذا الكلام ممن لا

---

(١) البيت من المتقارب انظر الديوان (٧٣) ابن يعيش (١٠٧/٧) شرح الكافية للرضي (١٣٦/١) الخزانة (٣٧٤/٣) روح المعاني (١٥٧/٢٥) . وروايته في الديوان :

أحل به الشيب أثقاله ... وما اعتره الشيب إلا اعترارا

شعور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر المؤكد ، فإنه لا يكون فيه[١] ، وقدّره بعضهم إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً ، قال : وإنما احتيج إلى هذا التقدير ، لأنه لا يجوز في الكلام ما ضربت إلا ضرباً ، فاهتدى إلى هذه القاعدة النحوية وأخطأ في التخريج ، وهو محكي عن المبرد ، ولعله لا يصح قولهم : إن نظن دليل على أن الكفار قد أخبروا بأنهم ظنوا البعث واقعاً ، ودل قولهم قبل قوله : (إن هي إلا حياتنا الدنيا) على أنهم منكرون البعث ، فهم والله أعلم فرقتان أو اضطربوا ، فتارة أنكروا وتارة ظنوا ، وقالوا : إن نظن إلا ظناً على سبيل الهزء . (وبدا لهم سيئات ما عملوا) أي : قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات ، وأطلق على العقوبة سيئة كما قال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشوري ٤٠] ، (وحاق بهم) أي : أحاط ، ولا يستعمل حاق إلا في المكروه ، (ننساكم) نترككم في العذاب ، أو نجعلكم كالشيء المنسي الملقى غير المبالى به (كما نسيتم لقاء يومكم) أي : لقاء جزاء الله على أعمالكم ولم تخطروه على بال بعدما ذكرتم به ، وتقدم إليكم بوقوعه ، وأضاف اللقاء لليوم توسعاً كقوله : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ ٣٣] وقرأ الجمهور : (لا يخرجون) مبنياً للمفعول ، والحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل منها ، أي : من النار(ولا هم يستعتبون) أي : بطلب مراجعة إلى عمل صالح ، وتقدم الكلام في الاستعتاب ، وقرأ الجمهور رب بالجر في الثلاثة على الصفة ، وابن محيصن بالرفع فيهما على إضمار هو .

---

(١) والمقصد في معنى التفريغ أن يحذف المستثنى منه ويكون بعد نفي أو شبهة وحينئذ يعرب المستثنى على حسب العوامل قبل (إلا) فتكون مفرغة للعمل في ما بعد (إلا) لعدم اشتغاله بمستثنى والاستثناء المفرغ يكون في جميع المعمولات ، الفاعل ونائبه والمفعول به والمجرور والظرف والمفعول به انظر شرح الكافية ١/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

سُورَةُ الأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ
ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ
فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى
وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ
ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا

يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

الحقف : رمل مستطيل مرتفع فيه اعوجاج وانحناء ، ومنه احقوقف الشيء اعوج ، قال امرؤ القيس :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى ۝ بِنَا بَطْنُ حِقْفٍ ذِي رُكَامٍ عَقَنْقَلِ [١]

عيي بالأمر إذا لم يعرف جهته، ويجوز فيه الإدغام ، فتقول عي كما قلت في حيي حي ، قال الشاعر :

عَـيُّـوا بِـأَمْـرِهِـمُ كَـمَـا ۝ عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الْحَمَامَـهْ [٢]

﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ، قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ، ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين ، قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

هذه السورة مكية ، وعن ابن عباس وقتادة أن (قل أرأيتم إن كان من عند الله) و (فاصبر كما صبر) الآيتين مدنيتان ، ومناسبة أولها لما قبلها ، أن في آخر ما قبلها ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ، وقلتم إنه عليه الصلاة والسلام اختلقها ، فقال تعالى : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وهاتان الصفتان هما آخر تلك ، وهما أول هذه (وأجل مسمى) أي : موعد لفساد هذه البنية . قال ابن عباس هو القيامة[١] ، وقال غيره أي : أجل كل مخلوق عن ما أنذروا يحتمل أن تكون ما مصدرية ، وأن تكون بمعنى الذي ، (قل أرأيتم ما تدعون) معناه : أخبروني عن الذين تدعون (من دون الله) وهي الأصنام (أروني ماذا خلقوا من الأرض) استفهام توبيخ ومفعول أرأيتم الأول هو (ما تدعون) و (ماذا خلقوا) جملة استفهامية يطلبها أرأيتم ، لأن مفعولها الثاني يكون استفهاماً ويطلبها أروني على سبيل التعليق ، فهذا من باب الإعمال ، أعمل الثاني وحذف مفعول أرأيتم الثاني ، ويمكن أن يكون أروني توكيداً لا رأيتم بمعنى أخبروني ، وأروني أخبروني كأنهما بمعنى واحد ، وقال ابن عطية : يحتمل أرأيتم وجهين أحدهما : أن تكون متعدية ، وما مفعولة بها ، ويحتمل أن تكون أرأيتم منبهة لا تتعدى وتكون ما استفهاماً على معنى التوبيخ ، وتدعون معناه تعبدون انتهى . وكون أرأيتم لا تتعدى ، وأنها منبهة فيه شيء قاله الأخفش في قوله : ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ [الكهف ٦٣] والذي يظهر أن ما تدعون مفعول أرأيتم كما هو في قوله : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون ﴾ [فاطر ٤٠] في سورة فاطر ، وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة فيها ، وقد أمضي الكلام في أرأيتم في سورة الأنعام ، فيطالع هناك ، ومن الأرض تفسير للمبهم في ماذا خلقوا ، والظاهر أنه يريد من إجزاء الأرض أي : خلق ذلك إنما هو لله ، أو يكون على حذف مضاف ،

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٥ المنصف لابن جني ٣/ ٤١ الإنصاف ٤٥٧ الخزانة ٤/ ٤١٣ الشذور (٢٢) الشاهد فيه أنه استعمل الحقف بمعنى الرمل المشرف المعوج .

(٢) البيت من مجزوء الكامل لعبيد بن الأبرص ، انظر ديوانه ٧٨ المقتضب ١/ ٣١٨ الكتاب ٢/ ٣٨٧ المنصف ٢/ ١٩١ شرح المفصل ١٠/ ١١٥ المقرب (١٠٥) .

شرح شواهد الشافية (٣٥٦) تفسير القرطبي ١٤٤ روح المعاني ٣٣٠ .

انظر الوسيط ٥٨ خ والبغوي ٤/ ١٦٣ والقرطبي ١٦/ ١١٩ .

أي : من العالي على الأرض ، أي : على وجهها من حيوان أو غيره ، ثم وقفهم على عبارتهم ، فقال : أم لهم أي : بل (أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا) أي : من قبل هذا الكتاب ، وهو القرآن يعني أن هذا القرآن ناطق بالتوحيد وبإبطال الشرك ، وكل كتب الله المنزلة ناطقة بذلك فطلب منهم أن يأتوا بكتاب واحد يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله (أو أثارة من علم) أي : بقية من علم أي من علوم الأولين من قولهم سمنت الناقة على أثارة من شحم ، أو على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب ، والأثارة تستعمل في بقية الشرف يقال لبني فلان أثارة من شرف إذا كانت عندهم شواهد قديمة ، وفي غير ذلك قال الراعي :

وَذَاتِ أَثَـارَةٍ أَكَلَتْ عَلَيْنَـا نَبَـاتـاً فِي أَكِمَّتِـهِ قِفَـارَا

أي بقية من شحم ، وقرأ الجمهور : (أو أثارة) وهو مصدر كالشجاعة والسماحة ، وهي البقية من الشيء كأنها أثرة . وقال الحسن : المعنى من علم استخرجتموه فتثيرونه ، وقال مجاهد : المعنى هل من أحد يأثر علماً في ذلك . وقال القرطبي : هو الإسناد ومنه قول الأعشى :

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَـارَيْتُمَـا بُيِّنَ لِلسَّـامِعِ وَالآثِـرِ[٢]

أي : وللمستدعين غيره ، ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ فما خلفت بـه ذاكراً ولا آثـراً . وقال أبـو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : المعنى أو خاصة من علم[٣] فاشتقاقها من الأثرة فكأنها قد آثر الله بها من هي عنده وقال ابن عباس : المراد بالإثارة الخط في التراب ، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهن به ، وتزجر تفسيره الأثارة بالخط يقتضي تقوية أمر الخط في التراب[٤] ، وإنه شيء ليس له وجه إذاية وقف أحد إليه ، وقيل : إن صح تفسير ابن عباس الأثارة بالخط في التراب كان ذلك من باب التهكم بهم ، وبأقوالهم ودلائلهم . وقرأ علي وابن عباس بخلاف عنهما وزيد بن علي وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي والأعمش وعمرو بن ميمون ، أو أثرة بغير ألف ، وهي واحدة جمعها أثر كقترة وقتر ، وعلي والسلمي وقتادة أيضاً بإسكان الثاء وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر أي قد قنعت لكم بخبر واحد ، وأثر واحد يشهد بصحة قولكم ، وعن الكسائي ضم الهمزة وإسكان الثاء . وقال ابن خالويه ، وقال الكسائي على لغة أخرى : إثرة وأثرة يعني بكسر الهمزة وضمها . ومن أضل ممن يعبد الأصنام ، وهي جماد لا قدرة لها على استجابة دعائهم ما دامت الدنيا ، أي : لا يستجيبون لهم أبداً ، ولذلك غيا انتفاء استجابتهم بقوله إلى يوم القيامة ، ومع ذلك لا شعور لهم بعبادتهم إياهم ، وهم في الآخرة أعداء لهم ، فليس لهم في الدنيا بهم نفع ، وهم عليهم في الآخرة ضرر ، كما قال تعالى : ﴿ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ [مريم ٨٢] وجاء من لا يستجيب لأنهم يسندون إليهم ما يسند لأولى العلم من الاستجابة والغفلة ، أو كان من لا يستجيب يراد به من عبد من دون الله من إنس وجن وغيرهما ، وغلب من يعقل وحمل أولاً على لفظ من لا يستجيب ، ثم على المعنى في وهم من ما بعده ، والظاهر عود الضمير أولاً على لفظ من لا يستجيب ، ثم على المعنى في وهم على معنى من في من لا يستجيب كما فسرناه ، وقيل : يعود على معنى من في (ومن أضل) أي : والكفار عن ضلالهم

---

(١) البيت من الوافر نسبه في لسان العرب للشماخ ، ونسبه للراعي البغدادي في الخزانة ، انظر ديوانه ١٤٢ اللسان (أثر) تفسير القرطبي ٢١ ، الشاهد استعمال أثارة بمعنى بقية الشيء أوبقية من شحم .

(٢) البيت من السريع من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة ، ويمدح عامر بن الطفيل ، انظر الديوان ٩٣ اللسان (أثر) .

(٣) انظر البغوي ١٦٣/٤ والقرطبي ١١٩/١٦ .

(٤) انظر البغوي ١٦٣/٤ ، والقرطبي ١١٩/١٦ .

بأنهم يدعون من لا يستجيب غافلون لا يتأملون ما عليهم في دعائهم من هذه صفته ، (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) جمع بينة ، وهي الحجة الواضحة ، واللام في للحق لام العلة ، أي : لأجل الحق وأتى بالظاهرين بدل المضمرين في (قال الذين كفروا للحق) ولم يأت التركيب قالوا لها تنبيهاً على الوصفين ، وصف المتلو عليهم بالكفر ووصف المتلو عليهم بالحق ، ولو جاء بهما الوصفين لم يكن في ذلك دليل على الوصفين من حيث اللفظ ، وإن كان من سمى الآيات سحراً هو كافر ، والآيات في نفسها حق ففي ذكرهما ظاهرين يستحيل على القائلين بالكفر ، وعلى المتلو بالحق وفي قوله (لما جاءهم) تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم ، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عناداً وظلماً ووصفوه بمبين ، أي : ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه . (أم يقولون افتراه) أي : بل يقولون افتراه ، أي : بل أيقولون اختلقه انتقلوا من قولهم هذا سحر إلى هذه المقالة الأخرى والضمير في افتراه عائد إلى الحق ، والمراد به الآيات (قل إن افتريته) على سبيل الفرض فالله حسبي في ذلك ، وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا يمهلني فلا تملكون لي من رد عقوبة الله بي شيئاً فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه ، يقال فلان لا يملك إذا غضب ولا يملك عنانه إذا صم ومثله ﴿ فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ [المائدة ١٧] ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله ﴾ [المائدة ٤١] شيئاً ، ومنه قوله : ـ عليه الصلاة والسلام ـ (لا أملك لكم من الله شيئاً) ثم استسلم إلى الله واستنصر به ، فقال : (هو أعلم بما تفيضون فيه) أي : تندفعون فيه من الباطل ، ومراده الحق وتسميته تارة سحراً ، وتارة فرية ، والضمير في فيه يحتمل أن يعود على ما أو على القرآن ، وبه في موضع الفاعل يكفي على أصح الأقوال (شهيداً بيني وبينكم) شهيداً لي بالتبليغ والدعاء إليه ، وشهيد عليكم بالتكذيب (وهو الغفور الرحيم) عدة لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر ، وإشعار بحمله تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم بالعقاب إذ كان ما تقدم تهديداً لهم في أن يعاجلهم على كفرهم . (قل ما كنت بدعاً من الرسل) أي : جاء قبلي غيري . قاله ابن عباس والحسن وقتادة ، والبدع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله . ومنه قول عدي بن زيد أنشده قطرب :

فَمَـا أَنَـا بِـدْعٌ مِنْ حَـوَادِثَ تَـعْـتَـرِي رِجَـالاً عَـرَتْ مِنْ بَعْـدِ بُؤْسِي فَـأَسْعَـدُ[1]

والبدع والبديع كالخف والخفيف والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً ، وأبدع الشاعر جاء بالبديع ، وشيء بدع بالكسر أي : مبتدع ، وفلان بدع في هذا الأمر ، أي : بديع وقوم إبداع عن الأخفش . وقرأ عكرمة وأبوحيوة وابن أبي عبلة بفتح الدال جمع بدعة ، وهو على حذف مضاف ، أي : ذا بدع . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ، ولحم زيم انتهى . وهذا الذي أجازه إن لم ينقل استعماله عن العرب لم نجزه ، لأن فعل في الصفات لم يحفظ منه سيبويه إلا عدي . قال سيبويه : ولا نعلمه جاء صفة إلا في حرف معتل يوصف به الجمع ، وهو قوم عدي ، وقد استدرك واستدراكه صحيح وأما قيم فأصله قيام وقيم مقصور منه ، ولذلك اعتلت الواو فيه إذ لو لم يكن مقصوراً لصحت كما صحت في حول وعوض . وأما قول العرب مكان سوي وماء روي ، ورجل رضي وماء صري وسبي طيبة فمتأولة عند البصريين لا يثبتون بها فعلاً في الصفات ، وعن مجاهد وأبي حيوة (بَدِعاً) بفتح الباء وكسر الدال كحذر . (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) أي : فيما يستقبل من الزمان أي : لا أعلم مالي بالغيب ، فأفعاله تعالى وما يقدره لي ولكم من قضايا لا أعلمها . وعن الحسن وجماعة وما أدري ما يصير إليه أمري ، وأمركم في الدنيا ومن الغالب منا والمغلوب . وعن الكلبي قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين حتى متى نكون على هذا ، فقال : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، أأنزل بمكة

---

(١) البيت من الطويل انظر المفضليات ص ٨٢٩ وروايته فيه :

فَـلَا أَنَـا بِـدْعٌ مِـنْ حَـوَادِثَ تَـعْـتَـرِي رجـالاً عَـرت مِنْ بَـعْـدِ بُـؤْسٍ نَـأَسْعَـد

انظر فتح القدير ٥/ ١٥ القرطبي ١٦/ ١٢٣ الشاهد فيه استعمال بدع بمعنى بديع الذي لم ير له مثل .

أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت ، ورأيتها يعني في منامه ذات نخل وشجر . وقال ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة والحسن وعكرمة معناه في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ، وهذا القول ليس بظاهر ، بل قد أعلم سبحانه من أول الرسالة حال الكافر وحال المؤمن ، وقيل : ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما يلزم الشريعة . وقيل : نزلت في أمر كان النبي ـ ﷺ ـ ينتظره من الله في غير الثواب والعقاب (إن أتبع إلا ما يوحي إلى) استسلام وتبرؤ من علم المغيبات ووقوف مع النذارة إلا من عذاب الله . وقرأ الجمهور (ما يُفعل) بضم الياء مبنياً للمفعول ، وزيد بن عليّ ، وابن أبي عبلة بفتحها ، والظاهر أن ما استفهامية وأدري معلقة ، فجملة الاستفهام موصولة منصوبة انتهى . والفصيح المشهور إن دري يتعدى بالباء ، ولذلك حين عدي بهمزة النقل يتعدى بالباء ، نحو قوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ [يونس ١٦] فجعل ما استفهامية هو الأولى ، والأجود وكثيراً ما علقت في القرآن نحو ﴿ وإن أدري أقريب ﴾ [الجن ٢٥] ويفعل مثبت غير منفي لكنه قد انسحب عليه النفي لاشتماله على ما ، ويفعل فلذلك قال ولا بكم ، ولولا اعتبار النفي لكان التركيب ما يفعل بي ولا بكم ، ألا ترى زيادة من في قوله : ﴿ أن ينزل عليكم من خير ﴾ [البقرة ١٠٥] لانسحاب قوله : (ما يود الذين كفروا) على يود وعلى متعلق يود ، وهو أن ينزل فإذا انتفت ودادة التنزيل انتفى التنزيل . وقرأ ابن عمير (ما يوحِي) بسكر الحاء ، أي الله عزَّ وجلَّ قل أرأيتم مفعولاً أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما ، والتقدير : أرأيتم حالكم إن كان كذا ، ألستم ظالمين فالأول حالكم ، والثاني ألستم ظالمين وجواب الشرط محذوف ، أي : فقد ظلمتم ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً . وقال الزمخشري : جواب الشرط محذوف تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله ، وكفرتم به ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله : (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) انتهى . وجملة الاستفهام لا تكون جواباً للشرط إلا بالفاء ، فإن كانت الأداة الهمزة تقدمت الفاء نحو إن تزرنا أفما نحسن إليك ، أو غيرها تقدمت الفاء نحو إن تزرنا فهل ترى إلا خيراً ، فقول الزمخشري : ألستم ظالمين بغير فاء لا يجوز أن يكون جواب الشرط . وقال ابن عطية : وأرأيتم يحتمل أن تكون منبهة ، فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً ، ويحتمل أن تكون الجملة كان ، وما عملت فيه تسد مسد مفعوليها انتهى . وهذا خلاف ما قرره محققو النحاة في أرأيتم . وقيل : جواب الشرط فآمن واستكبرتم ، أي : فقد آمن محمد به ، أو الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان ، وقال الحسن : تقديره فمن أضل منكم ، وقيل : فمن المحق منا ومنكم ومن المبطل وقيل : إنما تهلكون ، والضمير في به عائد على ما عاد عليه اسم كان ، وهو القرآن . وقال الشعبي : يعود على الرسول ، والشاهد عبد الله بن سلام قاله الجمهور وابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن سيرين ، والآية مدنية[1] . وعن عبد الله بن سلام نزلت في آيات من كتاب الله نزلت في ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾[2] [الأحقاف ١٠] وقال مسروق : الشاهد موسى عليه السلام لا ابن سلام ، لأنه أسلم بالمدينة ، والسورة مكية ، والخطاب في وكفرتم به لقريش . وقال الشعبي : الشاهد من آمن من بني إسرائيل بموسى ، والتوراة لأن ابن سلام أسلم قبل وفاة النبي ـ ﷺ ـ بعامين ، والسورة مكية . وقال سعد بن أبي وقاص ومجاهد وفرقة الآية مكية ، والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود ، وعبد الله بن سلام مذكور في الصحيح ، وفيه بهت لليهود لعنهم الله ، ومن كذب اليهود وجهلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام أنه ـ ﷺ ـ حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة ـ رضي الله عنها ـ اجتمع بأحبار اليهود وقص

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب عبد الله بن سلام ، والترمذي كتاب التفسير باب من سورة الأحقاف ٣٨١/٥ والبغوي ١٦٥/٤ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

عليهم أحلامه ، فعلموا أنه صاحب دولة ، وعموا فأصحبوه عبد الله بن سلام فقرأ علوم التوراة وفقهها مدة زعمرا وأفرطوا في كذبهم إلى أن نسبوا الفصاحة المعجزة التي في القرآن إلى تأليف عبد الله بن سلام ، وعبد الله هذا لم تعلم له إقامة بمكة ولاتردد إليها ، فما أكذب اليهود وأبهتهم لعنهم الله ، وناهيك من طائفة ما ذم في القرآن طائفة مثلها .

﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ، ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ، ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

قال قتادة : هي مقالة كفار قريش للذين آمنوا[١] أي : لأجل الذين آمنوا ، واللام للتبليغ ، ثم انتقلوا إلى الغيبة في قولهم : (ما سبقونا) ولو لم ينتقلوا لكان الكلام ما سبقتم إليه ، ولما سمعوا أن جماعة آمنوا خاطبوا جماعة من المؤمنين ، أي : قالوا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، أولئك الذين بلغنا إيمانهم يريدون : عماراً وصهيباً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم ، وآمن بالنبي ـ ﷺ ـ ، وقال الكلبي والزجاج : هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة ، قالت ذلك حين أسلمت غفار ومزينة وجهينة ، أي : لو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه الرعاة . وقال الثعلبي : هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وغيره منهم . وقال أبو المتوكل : أسلم أبو ذر ، ثم أسلمت غفار ، فقالت قريش ذلك ، وقيل : أسلمت أمَة لعمر فكان يضربها حتى يفتر ، ويقول : لولا أني فترت لزدتك ضرباً فقال كفار قريش لو كان ما يدعو إليه محمد حقاً ما سبقتنا إليه فلانة ، والظاهر أن اسم كان هو القرآن ، وعليه يعود به ويؤيده (ومن قبله كتاب موسى) وقيل : به عائد على الرسول ، والعامل في إذ محذوف ، أي : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، وقوله : (فسيقولون) مسبب عن ذلك الجواب المحذوف ، لأن هذا القول هو ناشىء عن العناد ، ويمتنع أن يعمل في إذ ، فسيقولون لحيلولة الفاء وليعاند زمان إذ وزمان سيقولون إفك قديم كما قالوا أساطير الأولين ، وقدمه بمرور الأعصار عليه ، ولما طعنوا في صحة القرآن قيل لهم : إنه أنزل الله من قبله التوراة على موسى ، وأنتم لا تنازعون في ذلك فلا ينازع في إنزال القرآن . (إماما) أي : يهتدى به أن فيه البشارة ببعث رسول الله ـ ﷺ ـ وإرساله فيلزم اتباعه ، والإيمان به ، وانتصب ، إماماً على الحال ، والعامل فيه العامل في ومن قبله ، أي : وكتاب موسى كان من قبل القرآن في حال كونه إماماً . وقرأ الكلبي : كتاب موسى نصب ، وفتح ميم من على أنها موصولة تقديره : وآتينا الذي قبله كتاب موسى ، وقيل : انتصب إماماً بمحذوف أي : أنزلناه إماماً أي : قدوة يؤتم به ورحمة لمن عمل به ، وهذا إشارة إلى القرآن كتاب مصدق له أي : لكتاب موسى وهي التوراة التي تضمنت خبره ، وخبر من جاء به وهو الرسول فجاء هو مصدقاً لتلك الأخبار ، أو مصدقاً للكتب الإلهية ولساناً حال من الضمير في مصدق ، والعامل فيه مصدق ، أو من كتاب إذ قد وصف العامل فيه اسم الإشارة ، أو لساناً حال موطئة ، والحال في الحقيقة هو عربياً ، أو على حذف أي ذا الشأن عربي ، فيكون مفعولا بمصدق أي : هذا القرآن مصدق من جاء به وهو الرسول ،

---

(١) انظر البغوي ٤/١٦٦ والوسيط ٥٩ خ والقرطبي ١٦/١٢٦ .

وذلك بإعجازه وأحواله البارعة ، وقيل انتصب على إسقاط الخافض أي : بلسان عربي . وقرأ أبو رجاء وشيبة والأعرج وأبو جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير لتنذر بتاء الخطاب للرسول . والأعمش وابن كثير أيضاً وباقي السبعة بياء الغيبة ، أي : لينذرنا القرآن ، والذين ظلموا الكفار عباد الأصنام حيث وضعوا العبادة في غير من يستحقه ، (وبشرى) قيل : معطوف على مصدق فهو في موضع رفع ، أو على إضمار هو ، وقيل : منصوب بفعل محذوف معطوف على لينذر ، أي : ويبشر بشرى ، وقيل : منصوب على إسقاط الخافض ، أي : ولبشرى . وقال الزمخشري : وتبعه أبو البقاء وبشرى في محل النصب معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له انتهى . وهذا لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين ، لأنهم يشترطون في الحمل على المحل أن يكون المحل بحق الأصالة ، وأن يكون للموضع محرز ، والمحل هنا ليس بحق الأصالة[1] ، لأن الأصل هو الجر في المفعول له ، وإنما النصب ناشىء عن إسقاط الخافض ، لكنه لما كثر بالشروط المذكورة في النحو وصل إليه الفعل فنصبه . ولما عبر عن الكفار بالذين ظلموا عبر عن المؤمنين بالمحسنين ليقابل بلفظ الإحسان لفظ الظلم (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) تقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة فصلت ، ولما ذكر جزاء بما كانوا يعملون قال : ووصينا إذ كان بر الوالدين ثانياً أفضل الأعمال ، إذ في الصحيح أي الأعمال أفضل : فقال الصلاة على ميقاتها ، قال : ثم أي ، قال : ثم بر الوالدين ، وإن كان عقوقهما ثاني أكبر الكبائر إذ قال عليه الصلاة والسلام ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين . والوارد في برهما كثير . وقرأ الجمهور حسناً بضم الحاء وإسكان السين وعلي والسلمي وعيسى بفتحها ، وعن عيسى بضمهما والكوفيون إحساناً فقيل ضمن ووصينا معنى ألزمنا فيتعدى لاثنين فانتصب حسناً واحساناً على المفعول الثاني لوصينا ، وقيل : التقدير إيصاء ذا حسن ، أو ذا إحسان ، ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له ، أي : ووصيناه بهما لإحساننا إليهما ، فيكون الإحسان من الله تعالى ، وقيل : النصب على المصدر على تضمين وصينا معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً . وقال ابن عطية : ونصب هذا إحساناً على المصدر الصريح ، والمفعول الثاني في المجرور ، والباء متعلقة بوصينا أو بقوله إحساناً انتهى . ولا يصح أن يتعلق بإحساناً ، لأنه مصدر بحرف مصدري ، والفعل فلا يتقدم معموله عليه ، ولأن أحسن لا يتعدى بالباء ، إنما يتعدى باللام ، تقول أحسنت لزيد ولا تقول أحسنت بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه ، وتقدم الكلام على ووصينا الإنسان بوالديه حسناً في سورة العنكبوت ، وانجر هنا بالكلام على ذلك مزيداً للفائدة . (حملته أمه كرهاً) ليس الكره في أول علوقها بل في ثاني استمراراً لحمل ، إذ لا تدبير لها في حمله ، ولا تركه انتهى . ولا يلحقها كره إذ ذاك فهذا احتمال بعيد . وقال مجاهد والحسن وقتادة : المعنى حملته مشقة ووضعته مشقة . وقرأ الجمهور بضم الكاف ، وشيبة وأبو جعفر والأعرج والحرميان وأبو عمرو بالفتح وبهما معاً أبو رجاء ومجاهد وعيسى والضم والفتح لغتان بمعنى واحد ، كالعقر والعقر ، وقالت فرقة بالضم المشقة ، وبالفتح الغلبة والقهر ، وضعفوا قراءة الفتح ، وقال بعضهم : لو كان بالفتح لرمت به عن نفسها إذ معناه القهر والغلبة انتهى . وهذا ليس بشيء إذ قراءة الفتح في السبعة المتواترة . وقال أبو حاتم : القراءة بفتح الكاف لا تحسن ، لأن الكره بالفتح النصب والغلبة انتهى . وكان أبو حاتم يطعن في بعض القرآن بما لا علم له به جسارة منه عفا الله

---

(١) يشترط أهل التحقيق من النحاة في صحة العطف على المحل أن يكون هذا المحل بحق الأصالة كما حكى المصنف أي : أن يكون المحل هو الأصل نحو : (ليس زيد بقائم ولا قاعداً) بنصب (قاعداً) عطفاً على موضع (قائم) لأن الأصل في خبر (ليس) النصب ، ونحو (ما جاءني من رجل ولا امرأة) برفع (امرأة) عطفاً على موضع (من رجل) لأنه فاعل الأصل فيه الرفع ، ومنعوا العطف على المحل الذي ليس بحق الأصالة ، منعوا (هذا ضارب زيداً أو أخيه) بجر الأخ على أن يكون محل « زيداً » الخفض بإضافة (ضارب) إليه باعتبار جواز الإضافة ، وذلك أن الوصف المستوفي لشروط الإعمال الأصل فيه إعماله في ما بعده لالتحاقه بالفعل ، وليس الأصل فيه الإضافة وقد تقدم هذا ، وانظر تفصيل ذلك في حاشية الدسوقي ٢/١٢٠ المغني ٢/١٤٠ ابن يعيش ٢/٥٢ ـ ٥٣ .

عنه وانتصابها على الحال من ضمير الفاعل ، أي : حملته ذات كره ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : حملاً ذا كره (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) أي : ومدة حمله وفصاله وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً إما بأن تلد المرأة لستة أشهر ، وترضع عامين ، وإما أن تلد لتسعة أشهر على العرف ، وترضع عامين غير ربع عام ، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع ، فمدة الرضاع عام وتسعة أشهر ، وإكمال العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وقد كشفت التجربة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر كنص القرآن . وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقدار زمن الحمل فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة ، وزعم ابن سينا أنه شاهد ذلك وأما أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه . قال ابن سينا في الشفاء : بلغني من جهة من أثق به كل الثقة أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدت ولداً نبتت أسنانه . وحكي عن أرسطاطاليس : أنه قال : إن مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان ، فربما وضعت لسبعة أشهر ولثمانية ، وقل ما يعيش الولد في الثامن إلا في معينة مثل مصر انتهى . وعبر عن مدة الرضاع بالفصال لما كان الرضاع يلي الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهي به ويتم سمي به . وقرأ الجمهور وفصاله وهو مصدر فاصل ، كأنه من اثنين فاصل أمه وفاصلته . وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة والجحدري : وفصله ، قيل : والفصل والفصال مصدران كالفطم والفطام ، وهنا لطيفة ذكر تعالى الأم في ثلاثة مراتب في قوله (بوالديه) (وحمله) (وإضاعه) المعبر عنه بالفصال وذكر الوالد في واحدة في قوله : (بوالديه) فناسب ما قال الرسول من جعل ثلاثة أرباع البر للأم والربع للأب في قول الرجل : يا رسول الله من أبر ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أباك . حتى إذا بلغ أشده في الكلام حذف تكون حتى غاية له تقديره فعاش بعد ذلك ، أو استمرت حياته ، وتقدم الكلام في بلغ أشده في سورة يوسف ، والظاهر ضعف قول من قال بلوغ الأشد أربعون ، لعطف وبلغ أربعين سنة ، والعطف يقتضي التغاير إلا إن ادعى أن ذلك توكيد لبلوغ الأشد فيمكن ، والتأسيس أولى من التأكيد ، وبلوغ الأربعين اكتمال العقل لظهور الفلاح ، قيل : ولم يبعث نبي إلا بعد الأربعين . وفي الحديث أن الشيطان يجر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، ويقول بأبي وجه لا يفلح . (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه) وتقدم الكلام على هذا في سورة النمل . (وأصلح لي في ذريتي) سأل أن يجعل ذريته موقعاً للصلاح ومظنة له ، كأنه قال هب لي الصلاح في ذريتي فأوقعه فيهم ، أو ضمن وأصلح لي معنى والطف بي في ذريتي ، لأن أصلح يتقدى بنفسه لقوله : ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ [الأنبياء ٩٠] فلذلك احتيج قوله في ذريتي إلى التأويل ، قيل : نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وتتناول من بعده وهو مشكل ، لأنها نزلت بمكة ، وأبوه أسلم عام الفتح ، ولقوله : (أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا) فلم يقصد بذلك أبو بكر ولا غيره ، والمراد بالإنسان الجنس ، ولذلك أشار بقوله أولئك جمعاً ، وقرأ الجمهور (يتقبل) مبنياً للمفعول أحسن رفعاً وكذا ويتجاوز وزيد بن علي وابن وثاب وطلحة وأبو جعفر والأعمش بخلاف عنه وحمزة والكسائي وحفص نتقبل أحسن نصباً ، ونتجاوز بالنون فيهما ، والحسن والأعمش وعيسى بالياء فيهما مفتوحة ، ونصب أحسن في أصحاب الجنة ، قيل : في بمعنى مع ، وقيل : هو نحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، يريد في جملة من أكرم منهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة ، وانتصب وعد الصدق على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله (أولئك الذين نتقبل) وعد منه تعالى بالتقبل والتجاوز لما ذكر الإنسان البار بوالديه ، وما آل إليه من الخبر ذكر العاق بوالديه ، وما آل إليه من الشر ، والمراد بالذي الجنس ، ولذلك جاء الخبر مجموعاً في قوله : (أولئك الذين حق عليهم القول) . وقال الحسن : هو الكافر العاق بوالديه ، المنكر البعث ، وقول مروان بن الحكم واتبعه قتادة : أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قول خطأ ، ناشيء عن جور حين دعا مروان وهو أمير المدينة إلى مبايعة يزيد ، فقال عبد الرحمن : جعلتموها هرقلية كلما مات هرقل ولي ابنه ، وكلما مات قيصر ولي ابنه ، فقال مروان : خذوه فدخل

بيت أخته عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد أنكرت ذلك عائشة فقالت وهي المصدوقة : لم ينزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي ، وقالت : والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته وصدت مروان ، وقالت ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله ، ويدل على فساد هذا القول قال تعالى : (أولئك الذين حق عليهم القول) وهذه صفات الكفار أهل النار ، وكان عبد الرحمن من أفاضل الصحابة وسراتهم وأبطالهم وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره . (أف لكما) تقدم الكلام على أف مدلولا ، ولغات وقراءة في سورة الإسراء واللام في لكما للبيان ، أي لكما أعني التأفيف . وقرأ الجمهور أتعدانني بنونين الأولى مكسورة ، والحسن وعاصم وأبو عمرو وفي رواية وهشام بإدغام نون الرفع في نون الوقاية . وقرأ نافع في رواية وجماعة بنون واحدة ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه ، وعبد الوارث عن أبي عمرو وهارون بن موسى عن الجحدري وسام عن هشام بفتح النون الأولى ، كأنهم فروا من الكسرتين والياء إلى الفتح طلباً للتخفيف ففتحوا كما فر من أدغم ومن حذف . وقال أبو حاتم فتح النون باطل غلط . أن أخرج أي أخرج من قبري للبعث والحساب . وقرأ الجمهور : (أن أخرج) مبنياً للمفعول ، والحسن وابن يعمر والأعمش وابن مصرف والضحاك مبنياً للفاعل . (وقد خلت القرون من قبلي) أي : مضت ولم يخرج منهم أحد ولا بعث . وقال أبو سليمان الدمشقي : (وقد خلت القرون من قبلي) مكذبة بالبعث . (وهما يستغيثان الله) يقال : استغثت الله واستغثت بالله ، والاستعمالان في لسان العرب ، وقد رددنا ابن مالك إنكار تعديته بالباء وذكرنا شواهد على ذلك في الأنفال ، أي : يقولان الغياث بالله منك ومن قولك ، وهو استعظام لقوله (ويلك) دعاء بالثبور ، والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ، وقيل : ويلك لمن يحقر ويحرك لأمر يستعجل إليه . وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد : (أن وعد الله) بفتح الهمزة ، أي : آمن بأن وعد الله حق ، والجمهور بكسرها ، (فيقول ما هذا) أي : ما هذا الذي يقول ، أي : من الوعد بالبعث من القبور إلا شيء سطره الأولون في كتبهم ولا حقيقة له . قال ابن عطية : وظاهر ألفاظ هذه الآية أنها نزلت في مشار إليه ، قال وقيل له فنفى الله أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها ، وقوله (أولئك) ظاهره أنه إشارة إلى جنس يتضمنه قوله : (والذي قال) ويحتمل أن تكون الآية في مشار إليه ، ويكون قوله في أولئك بمعنى صنف هذا المذكور وجنسه هم الذين حق عليهم القول ، أي : قول الله إنه يعذبهم في أمم أي : جملة أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس يقتضي أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس . وقال الحسن في بعض مجالسه : الجن لا يموتون ، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت . وقرأ العباس عن أبي عمر وأنهم كانوا بفتح الهمزة ، والجمهور بالكسر (ولكل) أي : من المحسن والمسيء (درجات) غلب درجات إذ الجنة درجات ، والنار دركات ، والمعنى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ومن أجل ما عملوا منها . قال ابن زيد : درجات المحسنين تذهب علواً ودرجات المسيئين تذهب سفلاً انتهى . والمعلل محذوف تقديره وليوفيهم أعمالهم قدر جزائهم ، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات . وقرأ الجمهور : (وليوفيهم) بالياء أي : الله تعالى ، والأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه بالنون والسلمي بالتاء من فوق أي : ولنوفيهم الدرجات أسند التوفية إليها مجازاً . ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوماً تجهلون ، فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ، ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً**

وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

ويوم يعرض ، أي : يعذب بالنار كما يقال عرض على السيف إذا قتل به ، والعرض المباشرة كما تقول عرضت العود على النار أي : باشرت به النار . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرض الحوض عليها فقبلوا ، ويدل عليه تفسير ابن عباس يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها انتهى . ولا ينبغي حمل القرآن على القلب إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر ، وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً مع عدم القلب فأي ضرورة تدعو إليه ، وليس في قولهم عرضت الناقة على الحوض ولا في تفسير ابن عباس ما يدل على القلب ، لأن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض . وقرأ الجمهور أذهبتم على الخبر أي : فيقال لهم أذهبتم ، ولذلك حسنت الفاء في قوله : (فاليوم تجزون) ، وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير بهمزة بعدها مدة مطولة ، وابن عامر بهمزتين حققهما ابن ذكوان ، ولين الثانية هشام وابن كثير في رواية . وعن هشام الفصل بين المحققة والملينة بألف وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقرير فهو خبر في المعنى ، فلذلك حسنت الفاء ، ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء ، والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطىء وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية ، وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا وترك التنعم فيها والأخذ بالتقشف وما يجتزى به رمق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسي به . وعن عمر في ذلك أخبار تدل على معرفته بأنواع الملاذ وعزة نفسه الفاضلة عنها أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاء وصلائق ، ولكن استبقى حسناتي ، فإن الله عز وجل وصف أقواماً فقال : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم) والصلاء الشواء ، والصفار المتخذ من الخردل والزبيب والصلائق الخبز الرقيق العريض . قال ابن عباس : وهذا من باب الزهد[1] وإلا فالآية نزلت في كفار قريش ، والمعنى : أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا ، فهذه كناية عن عدم الإيمان ، ولذلك نزلت عليه (فاليوم تجزون عذاب الهون) ولو أريد الظاهر ، ولم يكن كناية عن ما ذكرنا لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب . وقرىء الهوان وهو والهون بمعنى واحد ، ثم بين تلك الكناية بقوله بما كنتم تستكبرون ، أي : تترفعون عن الإيمان (وبما كنتم تفسقون) أي : بمعاصي الجوارح ، وقدم ذنب القلب وهو الاستكبار على ذنب الجوارح إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب ، ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا معرضين عن الإيمان وما جاء به الرسول ذكرهم بما جرى للعرب الأولى ، وهم قوم عاد وكانوا أكثر أموالاً وأشد قوة ، وأعظم جاهاً فيهم ، فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم وضرب الأمثال ، وقصص من تقدم تعرف بقبح الشيء وتحسينه ، فقال لرسوله : واذكر لقومك أهل مكة هوداً عليه السلام إذ أنذر قومه عاداً عذبهم الله بالأحقاف . قال ابن عباس : واد بين عمان ومهرة ، وقال ابن إسحاق : من عمان إلى حضرموت . وقال ابن زيد : رمال مشرقة بالشحر من اليمن . وقيل : بين مهرة وعدن ، وقال قتادة : بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني وقال ابن عباس: هي جبل الشام قال ابن عطية والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ، ولهم كانت إرم ذات العماد ، وفي ذكر هذه القصة اعتبار لقريش وتسلية للرسول إذ كذبه قومه ، كما كذبت عاد هوداً عليه السلام ، والجملة من قوله (وقد خلت النذر) وهو جمع نذير (من بين يديه ومن خلفه) يحتمل أن تكون حالاً من الفاعل في النذر من بين يديه ، وهم الرسل الذين تقدموا زمانه (ومن خلفه) الرسل الذين كانوا في زمانه ، ويكون على هذا معنى (ومن خلفه) أي : من بعد

---

(١) انظر البغوي ٤/١٦٩ والقرطبي ١٦/١٣٢ ، ١٣٣ .

إنذاره ، ويحتمل أن يكون اعتراضاً بين إنذار قومه ، وأن لا تعبدوا ، والمعنى : وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك فاذكرهم ، (قالوا أجئتنا) استفهام تقرير وتوبيخ وتعجيز له فيما أنذره إياهم من العذاب العظيم على ترك إفراد الله بالعبادة ، (لتأفكنا) : لتصرفنا قاله الضحاك ، أو لتزيلنا عن آلهتنا بالإفك ، وهو الكذب أي : عن عبادة آلهتنا . (فأتنا بما تعدنا) استعجال منهم بحلول ما وعدهم به من العذاب ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ [الأحقاف ٢٤] (قال إنما العلم عند الله) أي : علم وقت حلوله ، وليس تعيين وقته إليّ وإنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم ، ولما تحقق عنده وعد الله وأنه حال بهم ، وهم في غفلة من ذلك وتكذيب ، قال : (ولكني أراكم قوماً تجهلون) أي : عاقبة أمركم لا شعور لكم بها ، وذلك واقع لا محالة ، وكانت عاد قد حبس الله عنها المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد يقال له : المغيث ، فاستبشروا ، والضمير في رأوه الظاهر أنه عائد على ما في قوله : (بما تعدنا) وهو العذاب ، وانتصب عارضاً على الحال من المفعول . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم الذي فسره قوله : (عارضاً) وقال الزمخشري : فلما رأوه في الضمير وجهان ، أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهما ، قد وضح أمره بقوله : (عارضاً) إما تمييز ، وإما حال ، وهذا الوجه أعرب وأفصح انتهى . وهذا الذي ذكر أنه أعرب ، وأفصح ليس جارياً على ما ذكره النحاة ، لأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رب ، نحو : رب رجلاً لقيته ، وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين ، نحو : نعم رجلا زيد ، وبئس غلاماً عمرو ، وأما أن الحال يوضح المبهم ويفسره فلا نعلم أحداً ذهب إليه ، وقد حصر النحاة المضمر الذي يفسره ما بعده ، فلم يذكروا فيه مفعول رأي : إذا كان ضميراً ولا أن الحال يفسر الضمير ويوضحه .

والعارض : المعترض في الجو من السحاب الممطر ، ومنه قول الشاعر :

يَـا مَنْ رَأَى عَارِضـاً أَرِقت لَـهُ ... بَيْنَ ذِرَاعي وَجَبْهَـة الأَسَـدِ[1]

وقال الأعشى :

يَـا مَـنْ رَأَى عَـارِضـاً قَـدْ بِتُّ أَرْمُقُـهُ ... كَـأَنَّهـا الْبَـرْقُ فِي حَـافَـاتِهَـا الشُّعَـلُ

(مستقبل أوديتهم) هو جمع واد ، وأفعلة في جمع فاعل الاسم شاذ نحو : ناد وأندية ، وجائز وأجوزة ، والجائز الخشبة الممتدة في أعلى السقف ، وإضافة مستقبل وممطر إضافة لا تعرف ، فلذلك نعت بها النكرة (بل هو ما استعجلتم) أي : قال لهم هو العذاب الذي استعجلتم به اضرب عن قولهم عارض ممطرنا ، وأخبر بأن العذاب فاجأهم ، ثم قال (ريح) أي : هي ريح بدل من هو . وقرأ (ما استُعجِلتم) بضم التاء وكسر الجيم ، وتقدمت قصص في الريح فأغنى عن ذكر ها هنا . (تدمر) أي : تهلك والدمار الهلاك وتقدم ذكره . وقرأ زيد بن عليّ (تَدْمُر) بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم . وقرىء كذلك إلا أنه بالياء ، ورفع كل أي : يهلك كل شيء وكل شيء عـام مخصوص ، أي : من نفوسهم وأموالهم ، أو من أمرت بتدميره ، وإضافة الرب إلى الريح دلالة على أنها وتصريفها مما يشهد بباهر قدرته تعالى ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده ، وذكر الأمر لكونها مأمورة من جهته تعالى. وقرأ الجمهور (لا ترى) بتاء الخطاب (إلا مساكنهم) بالنصب وعبد الله ومجاهد وزيد بن علي وقتادة وأبو حيوة وطلحة وعيسى والحسن وعمرو بن ميمون بخلاف عنهما ، وعاصم وحمزة (لا يرى) بالياء من تحت مضمومةً (إلا مساكنهم) بالرفع ، وأبو رجاء ومالك بن دينار بخلاف

---

(١) البيت من المنسرح للفرزدق انظر ديوانه ٢١٥ الخزانة ٣٦٩/١ العيني ٤٥١/٣ ابن يعيش ٢٠/٣ استشهد به على أن (عارضاً) بمعنى السحاب المعترض في الجو .

عنها ، والجحدري والأعمش وابن أبي إسحاق والسلمي بالتاء من فوق مضمومة (مساكنهم) بالرفع ، وهذا لا يجيزه أصحابنا إلا في الشعر ، وبعضهم يجيزه في الكلام ، وقال ذو الرمة :

كَـأَنَّـهُ جَمَـلٌ هَمٌّ وَمَـا بَقِيَتْ   إِلَّا النَّحِيزَةُ وَالْأَلْوَاحُ وَالْعَصَبُ[1]

وقال آخر : فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ[2] ، وقرأ عيسى الهمداني : (لا يُرى) بضم الياء (إلا مسكنهم) بالتوحيد . وروي هذا عن الأعمش ونصر بن عاصم . وقرىء (لا تَرى) بتاء مفتوحة للخطاب (إلا مسكنهم) بالتوحيد مفرداً منصوباً ، واجتزىء بالمفرد عن الجمع تصغيراً لشأنهم ، وأنهم لما هلكوا في وقت واحد فكأنهم كانوا في مسكن واحد ، ولما أخبر بهلاك قوم عاد خاطب قريشاً على سبيل الموعظة ، فقال (ولقد مكناهم) وأن نافية أي : في الذي ما مكناهم فيه من القوة والغنى والبسط في الأجسام والأموال ، ولم يكن النفي بلفظ ما كراهة لتكرير اللفظ ، وإن اختلف المعنى وقيل : إن شرطية محذوفة الجواب ، والتقدير إن مكناكم فيه طغيتم ، وقيل : إن زائدة بعد ما الموصولة تشبيها بما النافية وما التوقيتية ، فهي في الآية كهي في قوله :

يُـرَجِّي الْمَـرْءُ مَـا إِنْ لَا يَـرَاهُ   وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ[3]

أي : مكناهم في مثل الذي مكناكم فيه ، وكونها نافية هوالوجه ، لأن القرآن يدل عليه في مواضع كقوله : ﴿ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا ﴾ [غافر ٨٢] وقوله : ﴿ هم أحسن أثاثاً ورئيا ﴾ [مريم ٧٤] وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث في الاعتبار ، ثم عدد نعمه عليهم وأنها لم تغن عنهم شيئاً حيث لم يستعملوا السمع والأبصار والأفئدة فيما يجب أن يستعمل ، وقيل : ما استفهام بمعنى التقرير وهو بعيد ، كقوله : من شيء إذ يصير التقدير ، أي : شيء مما ذكر أغنى عنهم من شيء ، فتكون من زيدت في الموجب ، وهو لا يجوز على الصحيح ، والعامل في (إذ أغنى) ويظهر فيها معنى التعليل لو قلت : أكرمت زيداً لإحسانه إلي ، أو إذ أحسن إلي استويا في الوقت ، وفهم من إذ ما فهم من لام التعليل ، وأن إكرامك إياه في وقت إحسانه إليك ، وإنما كان لوجود إحسانه لك فيه . **﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ، وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ، أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ،**

---

(١) البيت من البسيط انظر ديوانه ١٤ .

(٢) هذا عجز بيت من الطويل لذي الرمة ، وصدره .

طـوى الحـز والإجـزاز مـا في عـروضـهـا ....

انظر ديوانه ٣٤١ شرح ابن عقيل ١/ ٤٧٨ الكشاف ٤/ ٣٠٧ روح المعاني ٢٦/ ٢٧ .

استشهد به على إدخال تاء التأنيث على الفعل في قوله (فما بقيت) لأن فاعله مؤنث مع كونه قد فصل بين الفعل والفاعل بإلا .

(٣) البيت من الوافر لجابر بن رألان الطائي أو إياس بن الأرث انظر الخزانة ٣/ ٥٦٧ ، حاشية الدسوقي على المغني ١/ ٢٤ الكشاف ٤/ ٣٠٩ روح المعاني ٢٦/ ٢٨ القرطبي ١٦/ ١٣٨ .

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

(ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) خطاب لقريش على جهة التمثيل لهم ، والذي حولهم من القرى مأرب وحجر ثمود وسدوم ، ويريد من أهل القرى (وصرفنا الآيات) أي : الحجج والدلائل والعظاة لأهل تلك القرى (لعلهم يرجعون) عن ما هم فيه من الكفر إلى الإيمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم) أي : فهلا نصرهم حين جاءهم الهلاك (الذين اتخذوا) أي : اتخذوهم من دين الله (قرباناً) أي : في حال التقرب وجعلهم شفعاء آلهة ، وهو المفعول الثاني لاتخذوا ، والأول الضمير المحذوف العائد على الموصول ، وأجاز الحوفي وابن عطية وأبو البقاء أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً لاتخذوا آلهة بدل منه . وقال الزمخشري : وقرباناً حال ، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً ، وآلهة بدل منه لفساد المعنى انتهى . ولم يبين الزمخشري كيف يفسد المعنى ، ويظهر أن المعنى صحيح على ذلك الإعراب ، وأجاز الحوفي أيضاً أن يكون قرباناً مفعولاً من أجله (بل ضلوا عنهم) أي : غابوا عن نصرتهم . وقرأ الجمهور (إفْكُهم) بكسر الهمزة وإسكان الهاء وضم الكاف ، وابن عباس في رواية بفتح الهمزة ، والإفك مصدران ، وقرأ ابن عباس أيضاً وابن الزبير والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض وعكرمة وحنظلة بن النعمان بن مرة ومجاهد أَفَكَهم بثلاث فتحات أي : صرفهم ، وأبو عياض وعكرمة أيضاً كذلك إلا أنهما شددا الفاء للتكثير ، وابن الزبير أيضاً وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه آفكهم بالمد ، فاحتمل أن يكون فاعل ، فالهمزة أصلية ، وأن يكون أفعل فالهمزة للتعدية أي : جعلهم يأفكون ويكون أفعل بمعنى المجرد ، وعن الفراء أنه قرىء (أَفَكُهم) بفتح الهمزة ، والفاء ، وضم الكاف ، وهي لغة في الإفك ، وابن عباس فيما روي قطرب وأبو الفضل الرازي آفكهم اسم فاعل من أفك أي صارفهم ، والإشارة بذلك على من قرأ إفكهم مصدراً إلى اتخاذ الأصنام آلهة ، أي : ذلك كذبهم وافتراؤهم . وقال الزمخشري : وذلك إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم ، وضلالهم عنهم ، أي : وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء انتهى . وعلى قراءة من جعله فعلاً معناه وذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق ، وكذلك قراءة اسم الفاعل أي : صارفهم عن الحق ، ويحتمل أن تكون ما مصدرية أي : وافتراؤهم ، وأن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف أي : يفترونه . (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما بين أن الإنسي مؤمن وكافر ، وذكر أن الجن فيهم مؤمن وكافر ، وكان ذلك بأثر قصة هود وقومه لما كان عليه قومه من الشدة والقوة ، والجن توصف أيضاً بذلك كما قال تعالى : ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ﴾ [النمل ٣٩] وأن ما أهلك به قوم هود هو الريح ، وهو من العالم الذي لا يشاهد ، وإنما يحسن بهبوبه ، والجن أيضاً من العالم الذي لا يشاهد ، وأن هوداً عليه السلام كان من العرب ، ورسول الله ـ ﷺ ـ من العرب فهذه تجوز أن تكون مناسبة لهذه الآية بما قبلها ، وفيها أيضاً توبيخ لقريش وكفار العرب حيث أنزل عليهم هذا الكتاب المعجز فكفروا به ، وهم من أهل اللسان الذي أنزل به القرآن ، ومن جنس الرسول الذي أرسل إليهم وهؤلاء جن فليسوا من جنسه ، وقد أثر فيهم سماع القرآن وآمنوا به ، وبمن أنزل عليه وعلموا أنه من عند الله بخلاف قريش وأمثالها فهم مصرون على الكفر به ، (إذ صرفنا) وجهنا إليك ، وقرأ صرفنا بتشديد الراء ، لأنهم كانوا جماعة فالتكثير بحسب الحال (نفراً من الجن) والنفر دون العشرة ، ويجمع على أنفار . قال ابن عباس كانوا سبعة منهم زوبعة[1] ، والذي يجمع اختلاف الروايات أن قصة الجن كانت مرتين إحداهما حين انصرف من الطائف ، وكان خرج إليهم يستنصرهم في قصة ذكرها أصحاب السير . فروي[2] أن الجن كانت تسترق

---

(١) انظر البغوي ٤/١٧٢ ـ ١٧٤ والقرطبي ١٦/١٣٩ ـ ١٤٣ والوسيط ٦٤ خ .
(٢) انظر المصادر السابقة .

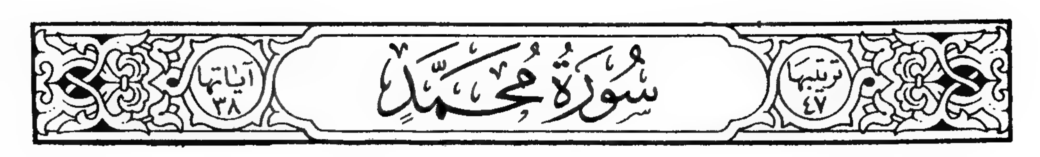
السمع فلما بعث الرسول حرست السماء ، ورمى الجن بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا أمر حدث ، وطافوا الأرض فوافوا رسول الله ـ ﷺ ـ بوادي نخلة وهو قائم يصلي فاستمعوا لقراءته ، وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم ، والمرة الأخرى أن الله أمره أن ينذر الجن ويقرأ عليهم ، فقال : إني أمرت[1] أن أقرأ على الجن فمن يتبعني قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود ، قال : لم يحضره أحد ليلة الجن غيري فانطلقنا حتى إذا كنا في شعب الحجون خط لي خطا ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ـ ﷺ ـ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم تقطعوا تقطع السحاب فقال لي هل رأيت شيئاً قلت : نعم ، رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر ألفاً ، والسورة التي قرأها عليهم اقرأ باسم ربك ، وفي آخر هذا الحديث قلت : يا رسول الله سمعت لهم لغطاً، فقال: إنهم تدارؤوا في قتيل لهم فحكمت بالحق[2] . وقد روي عن ابن مسعود أنه لم يحضر أحد ليلة الجن ، والله أعلم بصحة ذلك ، فلما حضروه أي : القرآن ، أي : كانوا بمسمع منه ، وقيل : حضروا الرسول وهو التفات من إليك إلى ضمير الغيب ، قالوا : (أنصتوا) أي : اسكتوا للاستماع ، وفيه تأديب مع العلم وكيف يتعلم . وقرأ الجمهور (فلما قُضي) مبنياً للمفعول ، وأبو مجلز وحبيب بن عبد الله بن الزبير قضى مبنياً للفاعل ، أي : قضى محمد ما قرأ ، أي : أتمه وفرغ منه ، وقال ابن عمر وجابر بن عبد الله قرأ عليهم سورة الرحمن ، فكان إذا قال فبأي آلاء ربكما تكذبان ، قالوا : لا شيء من آيات ربنا نكذب ربنا لك الحمد ، (ولوا إلى قومهم منذرين) تفرقوا على البلاد ينذرون الجن . قال قتادة : ما أسرع ما عقل القوم انتهى . وعند ذلك وقعت قصة سواد بن قارب ، وخنافر وأمثالهما حين جاءهما رياهما من الجن ، وكان سبب إسلامهما من بعد موسى ، أي : من بعد كتاب موسى ، قال عطاء : كانوا على ملة اليهود ، وعن ابن عباس : لم تسمع الجن بأمر عيسى ، وهذا لا يصح عن ابن عباس ، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمة عظيمة لا تنحصر على ملته فيبعد عن الجن كونهم لم يسمعوا به ، ويجوز أن يكونوا قالوا من بعد موسى تنبيهاً لقومهم على اتباع الرسول إذ كان عليه الصلاة والسلام قد بشر به موسى ، فقالوا ذلك من حيث إن هذا الأمر مذكور في التوراة مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل والكتب الإلهية إذ كانت كلها مشتملة على التوحيد والنبوة والمعاد ، والأمر بتطهير الأخلاق . (يهدي إلى الحق) أي : إلى ما هو حق في نفسه صدق يعلم ذلك بصريح العقل (وإلى صراط مستقيم) غاير بين اللفظين ، والمعنى متقارب ، وربما استعمل أحدهما في موضع لا يستعمل الآخر فيه ، فجمع هنا بينهما وحسن التكرار (أجيبوا داعي الله) هو الرسول والواسطة المبلغة عنه (وآمنوا به) يعود على الله (يغفر لكم من ذنوبكم) من للتبعيض ، لأنه لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم ، قال معناه الزمخشري ، وقيل : من زائدة ، لأن الإسلام يجب ما قبله فلا يبقى معه تبعة (ويجركم من عذاب أليم) وهذا كله ، وظواهر القرآن تدل على الثواب ، وكذا قال ابن عباس لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها ، وقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، وإليه كان يذهب أبو حنيفة . (فليس بمعجز في الأرض) أي : بفائت من عقابه إذ لا منجا منه ، ولا مهرب كقوله (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) الجن ١٢ ، وروي عن ابن عامر وليس لهم بزيادة ميم . وقرأ الجمهور (ولم يعي) مضارع عيي على وزن فعل بكسر العين ، والحسن (ولم يعي) بكسر العين وسكون الياء ، ووجهه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بقي بقا ، وهي لغة لطيىء ، ولما بني الماضي على فعل بفتح العين بني مضارعه عل يفعل بكسر العين ، فجاء يعي فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين فسكنت الياء وبقي يعي ، وقرأ الجمهور بقادر اسم فاعل والباء زائدة في خبر أن ، وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي ، وقد أجاز الزجاج ما ظننت أن أحداً بقائم

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨٧/١ والطبري في التفسير ١١٣/٢ .

(٢) انظر البغوي ١٧٢/٤ والقرطبي ١٣٩/١٦ ـ ١٤٣ والوسيط ٦٤ خ .

قياساً على هذا ، والصحيح قصر ذلك على السماع ، فكأنه في الآية قال أليس الله بقادر ، ألا ترى كيف جاء ببلى مقرراً لإحياء الموتى لا لرؤيتهم ، وقرأ الجحدري وزيد بن علي وعمرو بن عبيد وعيسى والأعرج بخلاف عنه ، ويعقوب يقدر مضارعاً ، (أليس هذا بالحق) أي : يقال لهم ، والإشارة بهذا إلى العذاب أي كنتم تكذبون بأنكم تعذبون ، والمعنى توبيخهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم : (وما نحن بمعذبين) (قالوا بلى وربنا) تصديق حيث لا ينفع ، وقال الحسن : إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك ، لأنفسهم يعترفون أنه العدل ، فيقول لهم المجاوب من الملائكة عند ذلك (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) (فاصبر كما صبر أولـو العزم من الرسل) الفاء عاطفة ، هذه الجملة على الجملة من إخبار الكفار في الآخرة ، والمعنى بينهما مرتبط ، أي : هذه حالهم مع الله (فلا تستعجل) أنت ، واصبر ولا تخف إلا الله (وأولـو العزم) أي : أولـو الجد من الرسل ، وهم من حفظ له شدة مع قومه ومجاهدة فتكون من للتبعيض ، وقيل : يجوز أن تكون للبيان ، أي : الذين هم الرسل ، ويكون الرسل كلهم أولي العزم ، وأولـو العزم على التبعيض يقتضي أنهم رسل وغير رسل ، وعلى البيان يقتضي أنهم الرسل ، وكونها للتبعيض قول عطاء الخراساني والكلبي ، وللبيان قول ابن زيد ، وقال الحسن بن الفضل : هم الثمانية عشر المذكورة في سورة الأنعام ، لأنه قال عقب ذكرهم فبهداهم اقتده . وقال مقاتل : هم ستة نوح صبر على أذى قومه طويلاً ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحٰق صبر نفسه على الذبح ، ويعقوب صبر على الفقد لولده وعمي بصره ، وقال فصبر جميل ، ويوسف صبر على السجن والبئر ، وأيوب على البلاء ، وزاد غيره وموسى قال قومه ﴿ إنا لمدركون قال : كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ [الشعراء ٦١ ، ٦٢] وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة ، وقال : إنها معبر فاعبروها ولا تعمروها . (ولا تستعجل لهم) أي : لكفار قريش بالعذاب ، أي : لا تدع لهم بتعجيله فإنه نازل بهم لا محالة . وإن تأخر، وإنهم مستقصرون حينئذٍ مدة لبثهم في الدنيا ، كأنهم (لم يلبثوا إلا ساعة) ، وقرأ أبي : (من النهار) ، وقرأ الجمهور (من نهار) ، وقرأ الجمهور : (بلاغ) بالرفع ، والظاهر رجوعه إلى المدة التي لبثوا فيها ، كأنه قيل تلك الساعة بلاغهم ، كما قال تعـالى : ﴿ متاع قليـل ﴾ [النحل ١١٧] فبلاغ خبر مبتدأ محذوف ، قيل : ويحتمل أن يكون بلاغ يعني به القرآن والشرع ، أي : هذا بلاغ أي تبليغ وإنذار . وقال أبو مجلز : بلاغ مبتدأ ، وخبره لهم ، ويقف على فلا تستعجل وهذا ليس بجيد ، لأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض ، إذ ظاهر قوله لهم إنه متعلق بقوله (فلا تستعجل لهم) والحيلولة الجملة التشبيهية بين الخبر والمبتدأ . وقرأ الحسن وزيد بن علي وعيسى (بلاغاً) بالنصب فاحتمل أن يراد بلاغاً في القرآن ، أي : بلغوا بلاغاً أو بلغنا بلاغاً . وقرأ الحسن أيضاً بلاغ بالجر نعتاً لنهار . وقرأ أبو مجلز وأبو سراح الهذلي بلغ على الأمر للنبي ـ ﷺ ـ وهذا يؤيد حمل بلاغ رفعاً ونصباً على أنه يعني به تبليغ القرآن والشرع ، وعن أبي مجلز أيضاً بلغ فعلاً ماضياً ، وقرأ الجمهور (يُهْلَكُ) بضم الياء وفتح اللام ، وابن محيصن فيما حكى عنه ابن خالويه بفتح الياء وكسر اللام ، وعنه أيضاً بفتح الياء واللام وماضيه هلك بكسر اللام وهي لغة . وقال أبو الفتح هي مرغوب عنها ، وقرأ زيد بن ثابت (يُهْلِك) بضم الياء وكسر اللام إلا القوم الفاسقون بالنصب ، وفي هذه الآية وعيد وإنذار .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ
وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن
لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ
عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ
أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ
لَهُمۡ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ
أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ
ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ
وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا
فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ
يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

البال الفكر ، تقول خطر في بالي كذا ، ولا يثنى ولا يجمع ، وشذ قولهم بالات في جمعه . تعس الرجل بفتح العين تعساً ضد تنعش وأتعسه الله ، قال مجمع بن هلال :

تقُولُ وَقَدْ أَفْرَدْتُهَا مِنْ حَلِيلِهَا ... تَعِسْتَ كَمَا أَتْعَسْتَنِي يَا مُجَمِّعُ(١)

وقال قوم منهم عمرو بن شميل وأبو الهيثم تعِس بكسر العين . وعن أبي عبيدة تعسه الله ، وأتعسه في باب فعلت

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه الحماسة ٣٠٣/١ اللسان (تعس) تفسير القرطبي ١٥٤/١٦ روح المعاني ٤٤/٢٦ الشاهد فيه (تعست كما اتعستني) التعس ضد السعد .

وأفعلت ، وقال ابن السكيت : التعس أن يجر على الوجه . والنكس أن يجر على الرأس ، وقال هو أيضاً وثعلب التعس **الهلاك** . وقال الأعشى :

بِـذَاتِ لَوْثٍ عِفرنَـاةٍ إِذَا عَثَـرَتْ فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنَ أَنْ أَقُولَ لَعَا(١)

آسن الماء تغير ريحه ، يأسن ويأسن ذكره ثعلب في الفصيح ، والمصدر أسون ، وأسن بكسر السين يأسن بفتحها لغة أسنا ، قاله اليزيدي ، وأسن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح من ريح البئر فغشي عليه ، أو دار رأسه ، قال الشاعر :

قَـدْ أَتْـرُكُ الْقِـرْنَ مُصْفَـرّاً أَنَـامِلُهُ يَمِيدُ فِي الرِّيحِ مَيْدَ الْمَائِحِ الأَسِنِ(٢)

الأشراط العلامات ، واحدها شرط بسكون الراء وبفتحها ، قال أبو الأسود :

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا فَقَدْ جَعَلْتِ أَشْرَاطَ أَوَّلِـهِ تَبْدُو(٣)

وأشراط الرجل نفسه ألزمها أموراً . قال أوس بن حجر :

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهْوَ مُعْصِمٌ فَـأَلْقَى بِأَسْبَـابٍ لَهُ وَتَـوَكَّلا(٤)

العسل معروف ، وعسل بن ذكوان رجل نحوي قديم ، المعي مقصور ، وألفه منقلبة عن ياء يدل عليه تثنيته معيان بقلب الألف ياء ، والمعى ما في البطن من الحوايا . القفل معروف ، وأصله اليبس والصلابة والقفل والقفيل ما يبس من الشجر ، والقفيل أيضاً نبت ، والقفيل السوط ، وأقفله الصوم أيبسه قاله الجوهري . آنفاً وأنفاً هما اسماً فاعل ، ولم يستعمل فعلهما ، والذي استعمل ائتنف وهما بمعنى مبتدياً ، وتفسيرهما بالساعة تفسير معنى . وقال الزجاج : هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته (فأولى لهم) قال صاحب الصحاح قول العرب أولى لك تهديد وتوعيد ، ومنه قول الشاعر :

فَـأَوْلَـى ثُمَّ أَوْلَـى ثُـمَّ أَوْلَـى وَهَلْ لِلدَّارِ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ(٥)

انتهى . واختلفوا أهو اسم أو فعل فذهب الأصمعي إلى أنه بمعنى قاربه ما يهلكه أي : نزل به ، وأنشد :

تَعَـادَى بَيْنَ هَـادِيَتَيْنِ مِنْهَـا وَأَوْلَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلاثِ(٦)

أي : قارب أن يزيد . قال ثعلب : لم يقل أحد في أولى أحسن مما قال الأصمعي . وقال المبرد : يقال لمن هم

---

(١) البيت من البسيط للأعشى ميمون بن قيس ، انظر ديوانه ١٠٧ اللسان (لوث) تفسير القرطبي ١٥٤/١٦ الكشاف ٣١٨/٤ روح المعاني ٤٤/٢٦ .

(٢) البيت من البسيط لزهير بن أبي سلمى ، انظر ديوانه ١٠٥ وروايته فيه :

يـغـادر الـقـرن مـصـفـراً أنـامـلـه يميـد في الـرمـح ميـد المـائـح الأسن

انظر اللسان (أسن) فتح القدير ٣٤/٥ القرطبي ١٥٦/١٦ روح المعاني ٤٨/٢٦ .

(٣) البيت من الطويل انظره في القرطبي ١٥٩/١٦ والكشاف ٣٢٣/٤ روح المعاني ٥٢/٢٦ .

(٤) البيت من الطويل انظر لسان العرب (شرط) تفسير القرطبي ١٥٩/١٦ .

(٥) البيت من الوافر لم نهتد لقائله ، انظر اللسان (ولي) القرطبي ١٦١/١٦ .

(٦) البيت من الوافر لم نهتد لقائله ، انظر الخزانة ٨٩/٤ الهمع ١٢٨/١ الدرر اللوامع ١٠٢/١ مقاييس اللغة ١٤١/٦ اللسان (ولي) .

بالعطب كما روي أن أعرابياً كان يوالي رمي الصيد فينفلت منه ، فيقول أولى لك رمى صيداً فقاربه ، ثم أفلت منه ، وقال :

فَلَوْ كَانَ أَوْلَى يُطْعِمُ الْقَوْمَ صَيْدَهُمْ وَلَكِنَّ أَوْلَى يَتْرُكَ الْقَوْمَ جُوَّعَا(١)

والأكثرون على أنه اسم ، فقيل هو مشتق من الولي ، وهو القرب كما قال الشاعر :

تُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ(٢)

وقال الجرجاني : هو ما حول من الويل فهو أفعل منه ، لكن فيه قلب ، الضغن والضغينة : الحقد ، قال عمرو بن كلثوم :

فَإِنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَغْشُو عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا(٣)

وقد ضغن بالكسر وتضاغن القوم وأضغنوا بطنوا الأحقاد ، وقد ضغن عليه وأضغنت الصبي أخذته تحت حضنك ، وأنشد الأحمر : كَأَنَّهُ مُضْطَغِنٌ صَبِيًّا(٤) ، وقال ابن مقبل : وَمَا اضْطَغَنْتُ سِلَاحِي عِنْدَ مَعْرَكِهَا(٥) ، وفرس ضاغن لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب ، وأصل الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة ، والقناة ، وكل شيء ، وقال بشر : كَذَاتِ الضِّغْنِ تَمْشِي فِي الرِّفَاقِ(٦) ، وأنشد الليث :

إِنَّ فَتَاتِي مِنْ صَلِيَّاتِ الْقَنَا مَا زَادَهَا التَّثْقِيفُ إِلَّا ضِغْنَا(٧)

والحقد في القلب يشبه به ، وقال قطرب : وَاللَّيْثُ أَضْغَنَ الْعَدَاوَةَ ، قال الشاعر :

قُلْ لِابْنِ هِنْدٍ مَا أَرَدْتَ بِمَنْطِقٍ نَشَأَ الصَّدِيقَ وَشَيَّدَ الأَضْغَانَا(٨)

---

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، انظر اللسان (ولي) تفسير القرطبي ١٦/١٦١ .

(٢) تقدم .

(٣) البيت من الوافر من معلقة عمرو بن كلثوم انظر القصائد العشر (١٠١) القرطبي ١٦/١٦٦ .

(٤) البيت من الرجز للعامرية وقبله :

لقد رأيت رجلاً دهريا

يمشي وراء القوم ستهيّا

انظر اللسان (ضغن) وذكر (مضغن) بدل (مضطغن) .

(٥) صدر بيت من البسيط وروايته في اللسان :

إذا اضطغنت سلاحي عند مغرضها ومرفق كرئاس السيف إذ شسفا

انظر اللسان (شسف) تفسير القرطبي ١٦/١٦٦ .

(٦) عجز بيت من الوافر لبشر بن أبي خازم ، وصدره :

فإنك والشكاة من آل لام ....

اللسان (ضغن)

(٧) البيت من الرجز لم نهتد لقائله ، انظر اللسان(ضغن) إروح المعاني ٢٦/٧٧ .

(٨) البيت من الكامل لم نهتد لقائله ، انظر روح المعاني ٢٦/٧٧ القرطبي ١٦/١٦٦ .

لحنت له بفتح الحاء ألحن لحناً قلت له قولاً يفهمه عنك ويخفى عن غيره ، ولَحِنَه هو بالكسر فهمه وألحنه فهمه ، وألحنته أنا إياه ولاحنت الناس فاطنتهم ، وقال الشاعر :

مَـنْـطِقٌ صَـائِـبٌ وَيَـلْحَـنُ أَحْـيَـا ... نـاً وَخَيْرُ الْحَـدِيثِ مَـا كَـانَ لَحْنَـا[1]

وقال القتال الكلابي :

وَلَـقَـدْ وَمَيْـتُ لَكُـمْ لِكَيْـمَـا تَـفْـهَـمُـوا ... وَلَحَنْـتُ لَحْـنـاً لَيْسَ بِـالْـمُـرْتَـابِ[2]

وقيل : لحن القول الذهاب عن الصواب مأخوذ من اللحن في الإعراب . وتره نقصه مأخوذ من الدخل . وقيل : من الوتر ، وهو الفرد . **﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها * ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم * أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾** .

هذه السورة مدنية عند الأكثر وقال الضحاك وابن جبير والسدي : مكية ، وقال ابن عطية مدنية بإجماع وليس كما قال . وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت بعد حجه حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهي (وكاين من قرية) الآية . ومناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة جداً . (**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**) أي : أعرضوا عن الدخول في الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه ، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال ابن عباس : وهم المطعمون يوم بدر[3] . وقال مقاتل : كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدون الناس عن الإسلام ، ويأمرونهم بالكفر ، وقيل : هم أهل الكتاب صدوا من أراد منهم ، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام . وقال الضحاك : عن سبيل الله عن بيت الله يمنع قاصديه وهو عام في كل من كفر وصد ؛ (**أضل أعمالهم**) أي : أتلفها حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع ، بل ضرر محض ، وقيل : نزلت هذه الآية ببدر[4] ، وأن الإشارة بقوله : (**أضل أعمالهم**) إلى الاتفاق الذي اتفقوه في سفرهم إلى بدر ، وقيل : المراد بالأعمال أعمالهم البرة في الجاهلية من صلة رحم ، وفك عانٍ ونحو ذلك ، واللفظ يعم جميع ذلك ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأنصار . وقال مقاتل : ناس من قريش ، وقيل : مؤمنو أهل الكتاب ، وقيل : هو عام وعلى تقدير خصوص السبب في القبيلتين ، فاللفظ عام يتناول كل كافر ، وكل مؤمن (**وآمنوا بما نزل على محمد**) تخصيصه من بين ما يجب الإيمان به تعظيم لشأن الرسول ، وإعلام بأنه لا يصح الإيمان ، ولا يتم إلا به ، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي (**وهو الحق من ربهم**) وقيل : وهو الحق ناسخ لغيره ، ولا يرد عليه النسخ . وقرأ الجمهور :

---

(١) البيت من المديد لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ، انظر اللسان (لحن) الحيوان ١/ ١١ مجمع الأمثال ٢/ ١٣٧ القرطبي ١٦/ ١٦٧ .

(٢) البيت من الكامل ، انظر اللسان (لحن) القرطبي ١٦/ ١٦٧ الأضداد (٢٤٠) .

(٣) انظر القرطبي ١٦/ ١٤٨ .

(٤) انظر القرطبي ١٦/ ١٤٨ .

(نزل) مبنياً للمفعول وزيد بن علي وابن مقسم نزل مبنياً للفاعل ، والأعمش : (أنزل) معدي بالهمزة مبنياً للمفعول . وقرىء : نزل ثلاثياً (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) أي : حالهم قاله قتادة ، وشأنهم قاله مجاهد ، وأمرهم قاله ابن عباس ، وحقيقة لفظ البال أنها بمعنى الفكر ، والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب ، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله ، فكان اللفظ مشير إلى صلاح عقيدتهم ، وغير ذلك من الحال تابع . ذلك إشارة إلى ما فعل بالكفار من إضلال أعمالهم ، وبالمؤمنين من تكفير سيئاتهم، وإصلاح حالهم ، وذلك مبتدأ وما بعده الخبر ، أي : كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك ، أي : كما ذكر بهذا السبب فيكون محل الجار والمجرور منصوباً انتهى . ولا حاجة إلى الإضمار مع صحة الوجه ، وعدم الإضمار، والباطل ما لا ينتفع به . وقال مجاهد : الشيطان وكل ما يأمر به ، والحق هو الرسول والشرع[١] ، وهذا الكلام تسميه علماء البيان التفسير . (كذلك يضرب) قال ابن عطية : الإشارة إلى اتباع المذكورين من الفريقين ، أي : كما اتبعوا هذين السبيلين ، كذلك يبين أمر كل فرقة ، ويجعل لها ضربها من القول وصفها وضرب المثل من الضرب الذي هو بمعنى النوع ، وقال الزمخشري : كذلك أي مثل ذلك الضرب يضرب الله للناس أمثالهم ، لأجل الناس ليعتبروا بهم (فإن قلت :) أين ضرب الأمثال . (قلت :) في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين (فإذا لقيتم الذين كفروا) أي : في أي زمان لقيتموهم فاقتلوهم ، وفي قوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) التوبة ٥ أي في أي مكان فعم في الزمان وفي المكان . وقال الزمخشري : لقيتم من اللقاء وهو الحرب انتهى (فضرب الرقاب) هذا من المصدر النائب مناب فعل الأمر ، وهم مطرد فيه وهو منصوب بفعل محذوف فيه ، واختلف فيه إذا انتصب ما بعده فقيل : هو منصوب بالفعل الناصب للمصدر ، وقيل : هو منصوب بنفس المصدر لنيابته عن العامل فيه ، ومثاله : ضربا زيداً كما قال الشاعر :

عَلَى حِينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ ... فَنَدْلاً زُرَيْقُ الْمَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[٢]

وهذا هو الصحيح ، ويدل على ذلك قوله : (فضرب الرقاب) وهو إضافة المصدر للمفعول ، ولو لم يكن معمولاً له ما جازت إضافته إليه ، وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، ولما كان القتل للإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته عبر بذلك عن القتل ، ولا يراد خصوصية الرقاب فإنه لا يكاد تتأتى حالة الحرب أن تضرب الرقاب ، وإنما يتأتى القتال في أي موضع كان من الأعضاء ، ويقال : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه ، وعلاوته وما فيه عيناه إذا قتله كما عبر بقوله : (بما كسبت أيديكم) عن سائر الأفعال لما كان أكثر الكسب منسوباً إلى الأيدي ، قال الزمخشري : وفي هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق ، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه ، وأوجه أعضائه وقد زاد في هذه في قوله : (فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) انتهى . ولما في ذلك من تشجيع المؤمنين ، وأنهم من الكفار بحيث هم متمكنون منهم إذا أمروا بضرب رقابهم ، (حتى إذا أثخنتموهم) أي : أكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للضرب ، فإذا وقع الإثخان وتمكنوا من أخذ من لم يقتل ، وشدوا وثاق الأسرى (فإما منا) بالإطلاق (وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) أي : أثقالها وآلاتها . ومنه قول عمرو بن معدي كرب :

---

(١) انظر البغوي ٤/١٧٧ والوسيط ٦٥ خ .

(٢) البيت من الطويل نسب للأحوص ، وقيل لأعشى همدان ، وقيل لجرير ، انظر الكتاب ١/٥٩ الخصائص ١/١٢٠ الإنصاف (٢٩٣) العيني ٣/٤٦ ـ ٥٢٣ التصريح على التوضيح ١/٣٣١ الأشموني ٢/١١٦ اللسان (ندل) .

وَأَعْـدَدْتُ لِلْحَـرْبِ أَوْزَارَهَـا   رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُـورَا[١]

أنشده ابن عطية : لعمرو هذا ، وأنشده الزمخشري للأعشى ، وقيل : الأوزار هنا الآثام ، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين ، وهذه الغاية قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم . وقال قتادة : حتى يسلم الجميع ، وقيل : حتى تقتلوهم . وقال ابن عطية : وظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً ، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا يضيع أوزارها ، فجاء هذه كما تقول أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة ، فإنما تريد أنك تفعله دائماً . وقال الزمخشري : وسميت يعني آلات الحرب من السلاح والكراع أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرها ، فكأنها تحملها. وتستقل بها ، فإذا انقضت فكأنها وضعتها ، وقيل : أوزارها آثامها ، يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم ، بأن يسلموا ، والظاهر أن ضرب الرقاب وهو القتل مغياً بشد الوثاق وقت حصول الإثخان ، وأن قوله : (فإما منا بعد) أي : بعد الشد (وإما فداء) حالتان للمأسور إما أن يمن عليه بالإطلاق كما من رسول الله ـ ﷺ ـ بإطلاق ثمامة بن أثال الحنفي[٢] ، وأما أن يفدي كما روي عنه علي السلام أنه فودي منه رجلان من الكفار برجل مسلم ، وهذه الآية معارض ظاهرها لقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة ٥] فذهب ابن عباس وقتادة وابن جريج والسدي والضحاك ومجاهد إلى منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين) الآية ، وأن الأسر والمن والفداء مرتفع ، فإن وقع أسير قتل ، ولا بد إلا أن يسلم[٣] ، ورروي نحوه عن أبي بكر الصديق ، وذهب ابن عمرو عمر بن عبد العزيز وعطاء والحسن إلى أن هذه مخصصة لعموم تلك ، والمنّ والفداء ثابت[٤] ، وقال الحسن : لا يقتل الأسير إلا في الحرب يهيب بذلك على العدو ، وذهب أكثر العلماء إلى أن أهل الكتاب فيهم المنّ والفداء وعباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل ، فخصصوا من المشركين أهل الكتاب ، وخصص من الكفار عبدة الأوثان ، وأما مذهب الأئمة اليوم فمذهب أبي حنيفة أن الإمام يخير في القتل والاسترقاق ، ومذهب الشافعي أنه مخير في القتل والاسترقاق والفداء والمن ، ومذهب مالك أنه مخير في واحد من هذه الأربعة ، وفي ضرب الجزية ، والظاهر أن قوله : (وإما فداء) يجوز فداؤه بالمال وبمن أسر من المسلمين . وقال الحسن : لا يفدى بالمال . وقرأ السلمي (فشِدوا) بكسر الشين ، والجمهور بالضم ، (والوَثاق) بفتح الواو ، وفيه لغة الوثاق ، وهو اسم لم يوثق به ، وانتصب منا وفداء بإضمار فعل يقدر من لفظهما ، أي : فإما تمنون مناً ، وإما تفدون فداء ، وهو فعل يجب إضماره ، لأن المصدر جاء تفصيل عاقبة ، فعامله مما يجب إضماره ، ونحوه قول الشاعر :

لأَجْهَـدَنَّ فَـإِمَّـا دَرْءُ وَاقِعَـةٍ   تُخْشَى وَإِمَّا بُلُوغُ السُّؤْلِ وَالأَمَلِ [٥]

أي : فإما أدرأ درأ واقعة ، وإما أبلغ بلوغ السؤل . وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكونا مفعولين ، أي : أدوهم منا واقبلوا ، وليس إعراب نحوي . وقرأ ابن كثير في رواية شبل : وإما فدى بالقصر . قال أبو حاتم : لا يجوز قصره ، لأنه مصدر فاديته ، وهذا ليس بشيء ، فقد حكى الفراء فيه أربع لغات فداء لك بالمد والإغراء ، وفدى لك بالكسر بياء

---

(١) البيت من المتقارب ، انظر التهذيب ٢٤٤/١٣ اللسان (وزر) مشاهد الإنصاف ٢٥١/١ الكشاف ٣١٧/٤ .

(٢) انظر البغوي ١٧٨/٤ ـ ١٧٩ .

(٣) انظر الوسيط ٦٦ خ وتفسير عبد الرزاق ١٠٥٤/٣ ومصنفه ٢١١/٥ والناسخ والمنسوخ للنحاس ص ٢٢١ والقرطبي ٦٠٤٨/٨ والبغوي ١٧٨/٤ .

(٤) انظر الوسيط ٦٦ خ وتفسير عبد الرزاق ١٠٥٤/٣ ومصنفه ٢١١/٥ والناسخ والمنسوخ للنحاس ص ٢٢١ والقرطبي ٦٠٤٨/٨ والطبري ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ والبغوي ١٧٨/٤ .

(٥) البيت من البسيط لم نهتد لقائله ، انظر الهمع ١٩٢/١ شرح الأشموني ٢٠/٢ .

والتنوين ، وفدى لك بالقصر ، وفداء لك ، والظاهر من قوله : (فإمامنا) لمن بالإطلاق ، كما منّ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ثمامة ، وعلى أبي عروة الحجبي ، وفي كتاب الزمخشري كما منّ على أبي عروة الحجبي ، وأثال الحنفي فغير الكنية والاسم ، ولعل ذلك من الناسخ لا في أصل التصنيف ، وقيل : يجوز أن يراد بالمنّ أي يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا ، أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية ، وكونهم من أهل الذمة ، والظاهر أن قوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) غاية لقوله : (فشدوا الوثاق) لأنه قد غيا فضرب الرقاب بشد الوثاق وقت الإثخان فلا يمكن أن يغيا بغاية أخرى لتدافع الغايتين إلا إن كانت الثانية مبنية للأولى ومؤكدة ، فيجوز لأن شد الوثاق للأسرى لا يكون إلا حتى تضع الحرب أوزارها ، إذا فسرنا ذلك بانتفاء شوكة الكفار الملقين إذ ذاك ، ويكون الحرب المراد بها التي تكون وقت لقاء المؤمنين للكفار ، ويجوز أن يكون المغيا محذوفاً يدل عليه المعنى التقدير الحكم ذلك حتى تضع الحرب أوزارها ، أي : لا يبقى شوكة لهم ، أو كما قال ابن عطية : إنها استعارة بمعنى إلى يوم القيامة ، أي : اصنعوا ذلك دائماً . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) حتى بم تعلقت . (قلت :) لا يخلو من أن تتعلق إما بالضرب والشد ، أو بالمنّ والفداء ، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي ـ رحمه الله ـ أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن يكون حرب مع المشركين ، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة ، وقيل : إذا نزل عيسى ابن مريم، وعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ إذا علق بالضرب والشد فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حتى لا يبقى شوكة للمشركين ، وإذا علق بالمن والفداء فالمعنى أنهم يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلى أن تناول المن والفداء ، يعني بتناول المن بأن يتركوا عن القتل ويسترقوا ، أي : بالتخلية بضرب الجزية بكونهم من أهل الذمة ، وبالعذاب أن يفادي بأسارى المشركين أسارى المسلمين ، وقد رواه الطحاوي مذهباً لأبي حنيفة ، والمشهور أنه لا يرى فداءهم بمال ولا غيره خيفة أن يعودوا حدباً للمسلمين . (ذلك) أي : الأمر ذلك إذا فعلوا (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) أي : لا أنتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب أو غرق ، أو موت جارف (ولكن ليبلو) أي : ولكن أمركم بالقتال ليبلو بعضكم ، وهم المؤمنون أي : يختبرهم ببعض ، وهم الكافرون بأن يجاهدوا ويصبروا ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب . وقرأ الجمهور : (قَاتَلُوا) بفتح القاف والتاء بغير ألف ، وقتادة والأعرج والأعمش وأبو عمرو وحفص قتلوا مبنياً للمفعول ، والتاء خفيفة وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضاً كذلك . وقرأ على (فلن يضل) مبنياً للمفعول (أعمالهم) رفع ، وقرىء يضل بفتح الياء من ضل أعمالهم رفع . (سيهديهم) أي : إلى طريق الجنة . وقال مجاهد : يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، لأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستبدلوا عليها ، وروى عياض عن أبي عمرو (ويدخلهم) و ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ [التغابن ٩] و ﴿ إنما نطعمكم ﴾ [الإنسان ٩] بسكون لام الكلمة (عرفها لهم) عن مقاتل أن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله . وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة : معناه بينها لهم ، أي : جعلهم يعرفون منازلهم منها ، وفي الحديث لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزلة في الدنيا ، وقيل : سماها لهم ورسمها ، كل منزل بصاحبه وهذا نحو من التعريف يقال عرف الدار وأرفها ، أي : حددها فجنة كل أحد مفرزة عن غيرها ، والعرف والأرف الحدود ، وقيل : شرفها لهم ورفعها وعلاها ، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها . وقال مورج وغيره : طيبها مأخوذ من العرف ، ومنه طعام معرف ، أي : مطيب أي : وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل . (إن تنصروا الله) أي : دينه (ينصركم) أي : على أعدائكم بخلق القوة فيكم وغير ذلك من المعارف (ويثبت أقدامكم) أي : في مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام ، وقرأ الجمهور : (ويثبت) مشدداً ، والمفضل عن عاصم مخففاً . (فتعساً لهم) قال ابن عباس : بعداً لهم . وابن جريج والسدي حزناً لهم ، والحسن شتماً ، وابن زيد شقاء ، والضحاك رغماً ، وحكى النقاش قبحاً . (والذين كفروا) مبتدأ والفاء داخلة في

خبر المبتدأ ، وتقديره فتعسهم الله تعساً ، فتعساً منصوب بفعل مضمر ، ولذلك عطف عليه الفعل في قوله : (وأضل أعمالهم) ويجوز أن يكون الذين منصوباً على إضمار فعل يفسره قوله : (فتعساً لهم) كما تقول : زيداً جدعاً له ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) على م عطف قوله : (وأضل أعمالهم) (قلت :) على الفعل الذي نصب تعساً ، لأن المعنى : فقال تعساً لهم ، أو فقضى تعساً لهم ، وتعساً لهم نقيض لغي له انتهى ، وإضمار ما هو من لفظ المصدر أولى ، لأن فيه دلالة على ما حذف . وقال ابن عباس : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردي في النار انتهى . وفي قوله : (فتعساً لهم) أي : هلاكاً بأداة تقوية لقلوب المؤمنين إذ جعل لهم التثبيت وللكفار الهلاك والعثرة . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله يشمل ما أنزل من القرآن في بيان التوحيد ، وذكر البعث والفرائض والحدود وغير ذلك مما تضمنه القرآن (فأحبط أعمالهم) أي : جعلها من الأعمال التي لا تزكو ولا يُعتد بها . (دمّر الله عليهم) أي : أفسد عليهم ما اختصوا به من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وكل ما كان لهم (وللكافرين أمثالها) تلك العاقبة والتدميرة التي يدل عليها دمّروا لهلكة ، لأن التدمير يدل عليها أو السنة لقوله عز وجل ﴿ سنة الله في الذين خلوا ﴾ [الأحزاب ٣٨] والوجه الأول هو الراجح ، لأن العاقبة منطوق بها ، فعاد الضمير على الملفوظ به وما بعده مقول القول . (ذلك بأن) ابتداء وخبر ، والإشارة بذلك إلى النصر في اختيار جماعة ، وإلى الهلاك كما قال : (وللكافرين أمثالها) قال ذلك الهلاك الذي جعل للكفار بأيدي المؤمنين بسبب أن الله مولاهم ، أي : ناصرهم ومؤيدهم وأن الكافرين لا ناصر لهم إذا اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا عبادة من ينفع ويضر ، وهو الله تعالى ، قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أحد ، ومنها انتزع رسول الله ـ ﷺ ـ رده على أبي سفيان حين قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ، حين قال المشركون إنا لنا عزى ، ولا عزى لكم .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار * والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم * وكأين من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم * أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم * مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم * ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها * فإنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم * فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ .

(يتمتعون) أي : ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها ، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ، والكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه ، أي : يأكلونه ، أي : الأكل مشبهاً أكل الأنعام ، والمعنى : أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر ، كما يقال للجاهل يعيش كما تعيش البهيمة لا يريد التشبيه في مطلق العيش ، ولكن في لازمه . (والنار مثوى لهم) أي : موضع إقامة ، ثم ضرب تعالى مثلاً لمكة والقرى المهلكة على عظمها كقرية عاد وغيرهم ، والمراد أهلها وأسند الإخراج إليها مجازاً ، والمعنى كانوا سبب خروجك ، وذلك وقت هجرته عليه السلام إلى المدينة ، وكما جاء في حديث ورقة بن نوفل يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، قال أو مخرجي[1] هم . وقال ابن عطية : ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ ،

---

(١) أخرجه البخاري ١/٤، ٦، ٢١٥ ، ٣٨/٩ من طبعة دار الفكر ، ومسلم في الإيمان رقم (٢٥٢) وأحمد في المسند ٢٣٣/٦ وأبو عوانة ١١١/١ والطبري ١٦٢/٣٠ وابن كثير ٤٥٨/٨ وأحمد والبيهقي ٥١/٧ ، ٩ ، ٦/٩ والبغوي ٢٦٩/٧ والسيوطي في الدر ٣٦٨/٦ .

وقال أهلكناهم حملاً على المعنى انتهى . وظاهر هذا الكلام لا يصح ، لأن الضمير في أهلكناهم ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسند إليها الإخراج ، بل إلى أهل القرية في قوله : (وكأين من قرية) وهو صحيح ، لكن ظاهر قوله حملاً على اللفظ ، وحملاً على المعنى أي : أن يكون في مدلول واحد ، وكان يبقى كأين مفلتاً غير محدث عنه بشيء إلا أن وقت إهلاكهم ، كأنه قال : فهم لا ينصرون إذ ذاك . وقال ابن عباس : لما أخرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة ، وقال أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليّ ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ، فأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه أو قتل غير قاتله ، وقيل : بدخول الجاهلية ، قال : فأنزل الله تعالى : (وكأين من قرية) الآية . وقد تقدّم أول السورة عن ابن عباس خلاف هذا القول . (أفمن كان على بينة من ربه) استفهام توقيف وتقرير على كل شيء متفق عليه ، وهي معادلة بين هذين الفريقين . قال قتادة : والإشارة إلى الرسول ، وإلى كفار قريش انتهى . واللفظ عام لأهل الصنفين ، ومعنى على بينة واضحة وهو القرآن المعجز ، وسائر المعجزات (كمن زين له سوء عمله) وهو الشرك والكفر بالله وعبادة غيره (واتبعوا أهواءهم) أي : شهوات أنفسهم ، ممن لا يكون له بينة فعبدوا غير خالقهم ، والضمير في واتبعوا عائد على معنى من ، وقرىء أمن كان بغير فاء . (مثل الجنة) أي : صفة الجنة وهو مرفوع بالابتداء . قال الزمخشري : قال النضر بن شميل كأنه قال صفة الجنة ، وهو ما تسمعون انتهى . فما تسمعون الخبر ، وفيها أنها تفسير لتلك الصفة فهو استئناف إخبار عن تلك الصفة ، وقال سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وقدر الخبر المحذوف متقدماً ، ثم فسر ذلك الذي يتلى . وقال ابن عطية : وفي الكلام حذف يقتضيه الظاهر ، كأنه قيل : مثل الجنة ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف ، وكان ابن عطية قد قال قبل هذا ويظهر أن القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه فهٰهنا كذا ، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعاً على هذه الصورة ، وذلك هو مثل الجنة ، قال : وعلى هذه التأويلات يعني قول النضر ، وقول سيبويه ، وما قاله هو يكون قبل قوله : (كمن هو خالد في النار : حذف تقديره أساكن ، أو أهؤلاء إشارة إلى المتقين ، قيل : ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر هذه الآية كأنه قال : مثل أهل الجنة ، وهي بهذه الأوصاف (كمن هو خالد في النار) ويجيء قوله : (فيها أنهار) في موضع الحال على هذا التأويل انتهى . ولم يذكر الزمخشري غير هذا الوجه ، قال : ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ وخبر من هو خالد في النار ، وقوله : (فيها أنهار) في حكم الصلة كالتكرير لها ، ألا ترى إلى سر قوله التي فيها أنهار ، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها أنهار ، كأن قائلاً قال : وما مثلها ، فقيل : فيها أنهار . وقال الزمخشري : أيضاً (فإن قلت :) ما معنى قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ، قال : (كمن هو خالد في النار) (قلت :) هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه : النفي والإنكار لانطوائهم تحت كلام مصدر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه وانخراطه في مسلكه ، وهو قوله (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) فكأنه قيل : مثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أي : كمثل جزاء من هو خالد في النار . (فإن قلت :) لم عرى من حرف الإنكار ، وما فائدة التعرية . (قلت :) تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من سوى بين المستمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل :

أَفْـرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْـكِـرَامَ وَأَنْ ... أُورَثَ ذَوْداً شَصَائِصاً نَبَلاَ[1]

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ، ووراثة الذود مع تعريته من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال أتفرح

---

(١) البيت من المنسرح لحضرمي بن عامر ، انظر التهذيب ٢٦٣/١١ اللسان (جزأ) الكشاف ٣٢١١/٤ . الشاهد « أفرح أن أرزأ الكرام » حيث حذف الهمزة على طريقة الإنكار والتقدير (أأخرج) .

بموت أخيك وبوراثة إبله ، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أزن به ، فكأنه قال نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام ، وبأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله ، وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار انتهى . وتلخص من هذا الاتفاق على إعراب (مثل الجنة) مبتدأ ، واختلفوا في الخبر فقيل : هو مذكور وهو (كمن هو خالد في النار) وقيل : محذوف ، فقيل : مقدر قبله ، وهو قول سيبويه ، وقيل : بعده ، وهو قول النضر وابن عطية على اختلاف التقدير ، ولما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق بينهما فيما يؤولان إليه ، وكما قدم من على بينة على من اتبع هواه قدّم حاله على حاله . وقرأ ابن كثير وأهل مكة : آسن على وزن فاعل من أسن بفتح السين ، وقرىء (غير ياسن) بالياء . قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمز لم يتغير وغيره ولذة تأنيث لذو هو اللذيذ ، ومصدر نعت به ، فالجمهور بالجر على أنه صفة لخمر ، وقرىء بالرفع صفة لأنهار ، وبالنصب أي : لأجل لذة فهو مفعول له من عسل مصفى . قال ابن عباس : لم يخرج من بطون النحل ، قيل : فيخالطه الشمع وغيره ، ووصفه بمصفى لأن الغالب على العسل التذكير ، وهو مما يذكر ويؤنث ، وعن كعب أن النيل ودجلة والفرات وجيحان تكون هذه الأنهار في الجنة ، واختلف في تعيين كل فهو منها لماذا يكون ينزل ، وبدىء من هذه الأنهار بالماء ، وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات ، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما تلتذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر في الهيئة . (ولهم فيها من كل الثمرات) وقيل : المبتدأ محذوف ، أي : أنواع من كل الثمرات ، وقدره بعضهم بقوله زوجان . (ومغفرة من ربهم) لأن المغفرة قبل دخول الجنة ، أو على حذف . أي : بنعيم مغفرة إذ المغفرة سبب التنعيم (وسقوا) عائد على معنى من وهو خالد على اللفظ ، وكذا خرجوا على معنى من يستمع كان المنافقون يحضرون عند الرسول ، ويستمعون كلامه وتلاوته ، فإذا خرجوا قالوا للذين أوتوا العلم وهم السامعون كلام الرسول حقيقة ، الواعون له (ماذا قال آنفاً) أي : الساعة ، وذلك على سبيل الهزء والاستخفاف ، أي : لم نفهم ما يقول ، ولم ندر ما نفع ذلك ، وممن سألوه ابن مسعود ، وآنفاً حال ، أي : مبتدأ أي ما القول الذي ائتنفه قبل انفصاله عنه . وقرأ الجمهور آنفاً على وزن فاعل ، وابن كثير على وزن فعل . وقال الزمخشري : وآنفاً نصب على الظرف انتهى . وقال ذلك لأنه فسره بالساعة . وقال ابن عطية : والمفسرون يقولون آنفاً معناه الساعة الماضية القريبة منا ، وهذا تفسير بالمعنى انتهى . والصحيح أنه ليس بظرف ، ولا نعلم أحداً من النحاة عده في الظروف ، والضمير في زادهم عائد على الله كما أظهره قوله : (طبع الله) إذ هو مقابلهم ، وكما هو في (وآتاهم) والزيادة في هذا المعنى تكون بزيادة التفهيم والأدلة ، أو بورود الشرع بالأمر والنهي والإخبار ، فيزيد المهدي لزيادة علم ذلك ، والإيمان به ، قيل : ويحتمل أن يعود على قول المنافقين واضطرابهم ، لأن ذلك مما يعجب به المؤمن ، ويحمد الله على إيمانه ويزيد نصرة في دينه ، وقيل : يعود على قول الرسول (وآتاهم تقواهم) أي : أعطاهم أي : جعلهم متقين له ، فتقواهم مصدر مضاف للفاعل (أن تأتيهم) بدل اشتمال من الساعة ، والضمير للمنافقين أي : الأمر الواقع في نفسه انتظار الساعة ، وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك ، لأن ما في أنفسهم غير مراعى لأنه باطل . وقرأ أبو جعفر الرواسيّ عن أهل مكة (إن تأتهم) على الشرط ، وجوابه فقد جاء أشراطها ، وهذا غير مشكوك فيه ، لأنها آتية لا محالة ، لكن خوطبوا بما كانوا عليه من الشك ، ومعناه : إن شككتم في إتيانها فقد جاء أعلامها ، فالشك راجع إلى المخاطبين الشاكين . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فما جزاء الشرط . (قلت :) قولهم : (فأنى لهم) ومعناه : أن تأتيهم الساعة فكيف لهم ذكراهم أي : تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة ، يعني لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ لقوله : ﴿ يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ [الفجر ٢٣] (فإن قلت :) بم يتصل قوله فقد جاء أشراطها على القراءتين (قلت :) بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول ، كقولك : إن أكرمني زيد ، فأنا حقيق بالإكرام أكرمه . وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو (بَغَتَة) بفتح الغين

وشد التاء . قال صاحب اللوامح : وهي صفة وانتصابها على الحال لا نظير لها في المصادر ، ولا في الصفات ، بل في الأسماء نحو الحرية ، وهو اسم جماعة والسرية اسم مكان انتهى . وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب الأستاذ أبي علي الشلوبين في كتاب المصادر على أبي عمر ، وأن يكون الصواب (بغَتة) بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم انتهى . وهذا على عادته في تغليط الرواية . (فقد جاء أشراطها) أي : علاماتها فينبغي الاستعداد لها ، ومن أشراط الساعة : مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إذ هو خاتم الأنبياء . وروي عنه أنه قال : أنا من أشراط الساعة . وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وكفرسي رهان ، وقيل : منها الدخان وانشقاق القمر ، وعن الكلبي كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام ، (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) الظاهر أن المعنى فكيف لهم الذكرى ، والعمل بها إذا جاءتهم الساعة أي : قد فاتها ذلك ، قيل : ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً ، أي : فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما كانوا يخبرون به ، فيكذبون به بتواصله بالعذاب ، ثم أضرب عن ذكر المنافقين ، وقال : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) والمعنى : دم على عملك بتوحيد ، واحتج بهذا على قول من قال : أول الواجبات العلم والنظر قبل القول ، والإقرار ، وفي الآية ما يدل على التواضع ، وهضم النفس إذ أمره بالاستغفار ، ومع غيره بالاستغفار لهم ، (متقلبكم) متصرفكم في حياتكم الدنيا (ومثواكم) إقامتكم في قبوركم ، وفي آخرتكم ، وقال عكرمة : متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ومثواكم إقامتكم في الأرض . وقال الطبري وغيره : متقلبكم تصرفكم في يقظتكم ، ومثواكم منامكم ، وقيل : متقلبكم في معائشكم ومتاجركم ، ومثواكم حيث تستفزون من منازلكم ، وقيل : متقلبكم بالتاء وابن عباس بالنون .

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نّزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ .

كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعلو كلمته ، وتمني قتل العدو ، وكانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد جعل ذلك بابا ومضروبه لا يتعدى ، فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال سورة[1] ، والمعنى تتضمن أمرنا بمجاهدة العدو وفضح أمر المنافقين ، والظاهر أن ظاني ذلك هم خلص في إيمانهم ، ولذلك قال بعد (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ، وقال الزمخشري : كانوا يدعون الحرص على الجهاد ، ويتمنونه بألسنتهم ، ويقولون : (لولا نزلت سورة) في معنى الجهاد ، فإذا أنزلت وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم ، وسقطوا في أيديهم ، كقوله (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس) النساء ٧٧ انتهى . وفيه تخويف لما يدل عليه لفظ القرآن ، ولولا بمعنى هلا ، وعن أبي مالك لا زائدة ، والتقدير لو نزلت وهذا ليس بشيء ، وقرىء (فإذا نزلت) وقرأ زيد بن علي : (سورة محكمة) بنصبهما ومرفوع نزلت بضم ، وسورة نصب على الحال . وقرأ هو وابن عمر وذكر مبنياً للفاعل ، أي : الله فيها القتال ، ونصب الجمهور برفع سورة محكمة على أنه مفعول لم يسم فاعله ، وبناء وذكر للمفعول ، والقتال رفع به

---

(١) انظر الوسيط ٦٨ خ .

وإحكامها كونها لا تنسخ . قال قتادة : كل سورة فيهاالقتال فهي محكمة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية ، وذلك أن القتال نسخ ما كان من المهادنة والصلح ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة[1] وقيل : محكمة بالحلال والحرام ، وقيل : محكمة أريدت مدلولات ألفاظها على الحقيقة دون المتشابه الذي أريد به المجاز ، نحو قوله : (على العرش استوى) طه ٥ في جنب الله فضرب الرقاب (رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك) أي : تشخص أبصارهم جبناً وهلعا (نظر المغشي عليه) أي : نظراً كما ينظر من أصابته الغشية من أجل حلول الموت ، وقيل : يفعلون ذلك وهو شخوص البصر إلى الرسول من شدة العداوة ، وقيل : من خشية الفضيحة فإنهم إن يخالفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم ، وأولى لهم تقدم شرحه في المفردات . وقال قتادة : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وقيل : وهم المكروه ، وأولى وزنها أفعل أو أفلع على الاختلاف ، لأن الاستفعال الذي ذكرناه في المفردات فعلى قول الجمهور أنه اسم يكون مبتدأ والخبر لهم ، وقيل : أولى مبتدأ ولهم من صلته ، وطاعة خبر ، وكان اللام بمعنى الباء ، كأنه قيل : فأولى بهم طاعة ، ولم يتعرض الزمخشري لإعرابه ، وإنما قال ومعناه الدعاء عليهم بأن يليه المكروه ، وعلى قول الأصمعي أنه فعل يكون فاعله مضمراً يدل عليه المعنى ، وأضمر لكثرة الاستعمال ، كأنه قال : قارب لهم هو أي : الهلاك ، قال ابن عطية : والمشهور من استعمال العرب أولى لك فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القوة ، فيقول على جهة الزجر والتوعد أولى لك يا فلان ، وهذه الآية من هذا الباب ، ومنه قوله (أولى لك فأولى) القيامة ٣٤ وقول الصديق للحسن ـ رضي الله عنهما ـ أولى لك انتهى . والأكثرون على أن طاعة وقول معروف كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين إما الخبر ، وتقديره أمثل ، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه والخليل ، وإما المبتدأ وتقديره الأمر ، أو أمرنا طاعة أي : الأمر المرخي لله طاعة ، وقيل : هي حكاية قولهم أي : قالوا طاعة ويشهد له قراءة أبيّ يقولون طاعة وقول معروف وقولهم هذا على سبيل الهزء والخديعة . وقال قتادة : الواقف على فأولى لهم طاعة ابتداء ، وخبر والمعنى أن ذلك منهم على جهة الخديعة ، وقيل : طاعة صفة لسورة ، أي : فهي طاعة أي : مطاعة ، وهذا القول ليس بشيء لحيلولة الفصل لكثير بين الصفة والموصوف . ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ [عمران٢١] أي جد والعزم الجد وهو لأصحاب الأمر ، واستعير للأمر كما قال تعالى : (لمن عزم الأمور) وقال الشاعر :

قَدَ جَدَّت بِهِم الحَرْبُ فَجِدُّوا[2]

والظاهر أن جواب إذا قوله : (فلو صدقوا الله) كما تقول إذا كان الشتاء فلو جئتني لكسوتك ، وقيل : الجواب محذوف تقديره فإذا عزم الأمر هو ، أو نحوه قاله قتادة ، ومن حمل طاعة وقول معروف على أنهم يقولون ذلك خديعة قدّرناه عزم الأمر ، فاقفوا وتقاضوا ، وقدره أبو البقاء فأصدّق ، فلو صدقوا الله فيما زعموا من حرصهم على الجهاد ، أو في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم ، أو في قلوبهم طاعة وقول معروف . (فهل عسيتم) التفات للذين في قلوبهم مرض أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم ، وعسى تقدّم الخلاف في لغتها ، وفي القراءة فيها إذا اتصل بها ضمير الخطاب في سورة البقرة ، واتصال الضمير بها لغة الحجاز ، وبنو تميم لا يلحقون بها الضمير . وقال أبو عبد الله الرازي وقد ذكروا أن عسى يتصل بها ضمير الرفع وضمير النصب ، وأنها لا يتصل بها ضمير ، قال : وأما قول من قال عسى أنت تقوم ، وعسى أنا أقوم فدون ما ذكرنا لك تطويل الذي فيه انتهى . ولا أعلم أحدا من نقلة العرب ذكر انفصال الضمير بعد عسى ، وفصل بين عسى وخبرها بالشرط ، وهو أن توليتم . وقرأ الجمهور : (إن توليتم) ومعناه إن

---

(١) انظر البغوي ٤/١٨٣ .

(٢) عجز بيت من الرجز لم نهتد لقائله ، انظر الكامل ١/٢٢٤ وروى :

قد شمرت عن ساقبها فشدو وجدّت الحرب بكم فجدوا

أعرضتم عن الإسلام . وقال قتادة[١] : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا الرحمن ، يشير إلى ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول . وقال كعب ومحمد بن كعب وأبو العالية والكلبي : (إن توليتم) أي : أمور الناس من الولاية[٢] ، ويشهد لها قراءة وليتم مبنياً للمفعول ، وعلى هذا قيل نزلت في بني هاشم وبني أمية ، وعن النبي ـ ﷺ ـ (إن تُوليتم) بضم التاء والواو وكسر اللام ، وبها قرأ علي وأويس أي : إن وليتكم ولاية جور دخلتم إلى دنياهم دون إمام العدل ، وعلى معنى إن توليتم بالتعذيب والتنكيل وإقفال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والنبات ، فإن كان ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، وقيل : معناه إن تولاكم الناس وكلكم الله إليهم والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال ، وهو الذي سبقت الآيات فيه ، أي : إن أعرضتم عن امتثال أمر الله في القتال ، وأن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام ، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم ، ويدل على ذلك (أولئك الذين لعنهم الله) فالآيات كلها في المنافقين ، وهذا التوقع الذي في عسى ليس منسوباً إليه تعالى ، لأنه عالم بما كان وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين ، كأنه يقول لهم لنا علم من حيث ضياعهم ، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا ؟ وقرأ الجمهور : (تقطعوا) بالتشديد على التكثير ، وأبو عمرو في رواية وسلام ويعقوب وأبان وعصمة بالتخفيف مضارع قطع ، والحسن وتقطعوا بفتح التاء والقاف على إسقاط حرف الجر ، أي : أرحامكم ، لأن تقطع لازم . أولئك إشارة إلى المرضى القلوب ، فأصمهم عن سماع الموعظة ، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى . وقال الزمخشري : لعنهم الله لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم ، ألطافه وخذلهم حتى عموا انتهى . وهو على طريق الاعتزال ، وجاء التركيب فأصمهم ولم يأت فأصم آذانهم ، وجاء وأعمى أبصارهم ولم يأت وأعماهم ، قيل : لأن الأذن لو أصمَّت لا تسمع الأبصار ، فالعين لها مدخل في الرؤية ، والأذن لها مدخل في السمع انتهى . ولهذا جاؤوا على سمعهم وجعل لكم السمع ، ولم يأت وعلى آذانهم ولا يأتي وجعل لكم الآذان ، وحين ذكر الأذن نسبت إليه الوقر ، وهو دون الصمم كما قال ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت ٥] ، (أفلا يتدبرون) أي : يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ، ووعيد العصاة وهو استفهام توبيخي وتوقيفي على محاربهم . (أم على قلوب أقفالها) استعارة للذين منهم الإيمان ، وأم منقطعة بمعنى بل ، والهمزة للتقرير ولا يستحيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر ، ولم يحتج إلى تعريف القلوب لأنه معلوم أنها قلوب من ذكر ، ولا حاجة إلى تقدير صفة محذوف ، أي : أم على قلوب أقفالها قاسية ، وأضاف الأقفال إليها أي : الأقفال المختصة ، أو هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح . وقرىء : (إقفالها) بكسر الهمزة وهو مصدر ، وأقفلها بالجمع على أفعل . (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى) ، قال قتادة : نزلت في قوم من اليهود وكانوا عرفوا أمر الرسول من التوراة ، وتبين لهم بهذا الوجه ، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى . وقال ابن عباس وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ، ثم ماتت قلوبهم ، والآية تتناول كل من دخل في ضمن لفظها ، وتقدم الكلام على سول في سورة يوسف . قال الزمخشري : سول لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم بالتصريف والاشتقاق جميعاً انتهى . وقال أبو علي الفارسي : بمعنى ولا هم من السول وهو الاسترخاء والتدلي ، وقال غيره : سولهم رجاهم . وقال ابن بحر : أعطاهم سؤلهم ، وقول الزمخشري وقد اشتقه إلى آخره ليس بجيد ، لأنه توهم أن السول أصله الهمزة ، واختلفت المادتان أو عين سول واو وعين السؤل همزة ، والسول له مادتان إحداهما الهمز من سأل يسأل ، والثانية الواو من سال يسال ، فإذا كان

---

(١) انظر الوسيط ٦٩ خ والبغوي ٤/١٨٤ .

(٢) انظر الوسيط ٦٩ والبغوي ٤/١٨٤ .

هكذا فسول يجوز أن يكون من ذوات الهمز . وقال صاحب اللوامح : والتسويل أصله من الإرخاء ، ومنه ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ [الأعراف ٢٢] والسول استرخاء البطن . وقرأ زيد بن علي سول لهم ، أي : كيده على تقدير حذف مضاف . وقرأ الجمهور : (وأملي لهم) مبنياً للفاعل ، والظاهر أنه يعود على الشيطان ، وقاله الحسن وجعل وعده الكاذب بالبقاء كالإبقاء ، والإبقاء هو البقاء ملاوة من الدهر يمد لهم في الآمال والأماني ، قيل : ويحتمل أن يكون فاعل أملي ضميراً يعود على الله ، وهو الأرجح ، لأن حقيقة الإملاء إنما هو من الله . وقرأ ابن سيرين والجحدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى : وأملي مبنياً للمفعول أي : امهلوا ومدوا في عمرهم . وقرأ مجاهد وابن هرمز والأعمش وسلام ويعقوب : وأملي بهمزة المتكلم مضارع أملى ، أي : وأنا أنظرهم كقوله: ﴿ إنما نملي لهم ﴾ [آل عمران ١٧٨] ويجوز أن يكون ماضياً سكنت منه الياء ، كما تقول في يعي بسكون الياء ، (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل) ، وروي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعينون المنافقين في أمر الرسول والخلاف عليه بنصره ومؤازرته ، وذلك قوله : (سنطيعكم في بعض الأمر) وقيل : الضمير في قالوا للمنافقين ، والذين كرهوا ما نزل الله هم قريظة والنضير ، وبعض الأمر قول المنافقين لهم ﴿ لَئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴾ [الحشر ١١] قاله ابن عباس ، وقيل : بعض الأمر التكذيب بالرسول أو بلا إله إلا الله ، أو ترك القتال معه ، وقيل : هو قول الفريقين اليهود والمنافقين للمشركين سنطيعكم في التكافؤ على عداوة الرسول ، والقعود عن الجهاد معه ، وتعين في بعض الأمر في بعض ما يأسرون به ، أو في بعض الأمر الذي يهمكم . وقرأ الجمهور : (أسرارهم) بفتح الهمزة ، وكانت أسرارهم كثيرة وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وحفص بكسرها . وهو مصدر ، قالوا ذلك سراً فيما بينهم وأفشاه الله عليهم . وقال أبو عبد الله الرازي : الأظهر أن يقال والله يعلم أسرارهم ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد ـ عليه السلام ـ فإنهم كانوا معاندين مكابرين ، وكانوا يعرفون رسول الله ـ ﷺ ـ كما يعرفون أبناءهم انتهى .

(فكيف إذا توفتهم الملائكة) تقدم شرح الذين في قلوبهم مرض ، ومبلغهم لأجل القتال ، وتقدم قول المرتدين وما يلحقهم في ذلك من جزائهم على طواعية الكاذبين ما أنزل الله ، وتقدم والله يعلم أسرارهم ، فجاء هذا الاستفهام الذي معناه التوقيف عقب هذه الأشياء ، فقال الطبري : فكيف علمه بها أي : بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، وقيل : فكيف يكون حالهم مع الله فيما ارتكبوه من ذلك القول . وقرأ الأعمش : (توفاهم) بألف بدل التاء ، أن يكون ماضياً ومضارعاً حذفت منه التاء ، والظاهر أن وقت التوفي هو عند الموت . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصيته إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره ، والملائكة ملك الموت والمصرفون معه ، وقيل : هو وقت القتال نصرة للرسول يضرب وجوههم أن يثبتوا وأدبارهم انهزموا ، والملائكة ملائكة النصر ، والظاهر أن يضربون حال من الملائكة ، وقيل : حال من الضمير في توفاهم وهو ضعيف . (ذلك) أي : ذلك الضرب للوجوه والأدبار (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) وهو الكفر أو كتمان بعث الرسول ، أو تسويل الشيطان أقوال والمتبع الشيء هو مقبل بوجهه عليه ، فناسب ضرب الملائكة وجهه (وكرهوا رضوانه) وهو الإيمان بالله واتباع دينه ، والكافر للشيء متول عنه ، فناسب ضرب الملائكة دبره ففي ذلك مقابلة أمرين بأمرين .

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ، إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ، ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا

في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

إخراج أضغانهم وهو حقودها إبرازها للرسول والمؤمنين ، والظاهر أنها من رؤية البصر لعطف العرفان عليه ، وهو معرفة القلب واتصل الضمير في أريناكهم وهو الأفصح ، وإن كان يجوز الانفصال ، وفي هاتين الجملتين تقريب لشهرتهم ، لكنه لم يعينهم بأسمائهم إبقاء عليهم وعلى قراباتهم ، واكتفاء منهم بما يتظاهرون به من اتباع الشرع وإن أبطنوا خلافه . (ولتعرفنهم في لحن القول) كانوا يصطلحون فيما بينهم من ألفاظ يخاطبون بها الرسول مما ظاهره حسن ، ويعنون به القبيح ، وكانوا أيضاً يصدر منهم الكلام يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم عند النصر إنا كنا معكم وغير ذلك كقولهم ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ﴾ [المنافقون ٨] وقوله : ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ [الأحزاب ١٣] والظاهر الإراءة والمعرفة بالسيماء وجود المعرفة في المستقبل بلحن القول ، واللام في ولتعرفنهم لام جواب القسم المحذوف . (والله يعلم أعمالكم) خطاب عام يشمل المؤمن والكافر ، وقيل : خطاب للمؤمنين فقط . وقرأ الجمهور : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم) ونبلو بالنون والواو ، وأبو بكر بالياء فيهن ، وأويس (ونبلُوْ) بإسكان الواو وبالنون ، والأعمش بإسكانها وبالياء ، وذلك على القطع إعلاماً بأن ابتلاءه دائم ، ومعنى (حتى نعلم المجاهدين) أي : نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود ، وبأن مسكهم الذي يتعلق به ثوابهم . (إن الذين كفروا) ناس من بني إسرائيل ، وتبين هداهم معرفتهم بالرسول من التوراة أو منافقون كان الإيمان قد داخل قلوبهم ، ثم نافقوا والمطعمون سفرة بدر وتبين الهدى وجوده عند الداعي إليه ، أو مشاعة في كل كافر ، وتبين الهدى من حيث كان في نفسه أقوال (وسيحبط أعمالهم) أي : التي كانوا يرجون بها انتفاعاً وأعمالهم التي كانوا يكيدون بها الرسول ودين الإسلام . (يا أيها الذين آمنوا) قيل : نزلت في بني إسرائيل أسلموا ، وقالوا لرسول الله قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا ، كأنهم منوا بذلك فنزلت فيهم هذه الآية[١] ، وقوله: (يمنون عليك أن أسلموا) فعلى هذا يكون ولا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام ، وعن ابن عباس : بالرياء والسمعة[٢] ، وعنه بالشرك والنفاق[٣] ، وعن حذيفة بالكبائر[٤] وقيل : بالعجب فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وعن مقاتل بعصيانكم للرسول ، وقيل : أعمالكم صدقاتكم بالمن والأذى . وماتوا وهم كفار عام في الموجب ، لانتفاء الغفران وهو وفاتهم على الكفر ، وقيل : هم أهل القليب ، وقيل : نزلت بسبب عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن أبيه ، قال : وكانت له أفعال بر فما حاله فقال : في النار ، فبكى عدي وولى فدعاه فقال له : أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار فنزلت ، (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) وهو الصلح . وقرأ الجمهور : وتدعوا مضارع دعا ، والسلمي بتشديد الدال أي : تفتروا ، والجمهور إلى السَلم بفتح السين ، والحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر بكسرها ، وتقدم الكلام على السلم في البقرة في قوله ﴿ ادخلوا في السلم كافة ﴾ [البقرة ٢٠٨] وقال الزمخشري : وقرىء ولا تدعوا من ادعى القوم وتداعوا إذا ادعوا ، نحو قولك : ارتموا الصيد وتراموا انتهى . والتلاوة بغير لا ، وكان يجب أن يأتي بلفظ التلاوة فيقول وقرىء وتدعوا معطوف على تهنوا فهو مجزوم ، ويجوز أن يكون مجزوماً بإضمار إن ، (وأنتم الأعلون) أي : الأعليون وهذه الجملة حالية ، وكذا (والله معكم) ويجوز أن يكونوا

---

(١) انظر البغوي ٤/١٨٦ والوسيط ٧٠ خ .

(٢) انظر البغوي ٤/١٨٦ والوسيط ٧٠ خ .

(٣) انظر البغوي ٤/١٨٦ والوسيط ٧٠ خ .

(٤) انظر البغوي ٤/١٨٦ والوسيط ٧٠ خ .

جملتي استئناف أخبر أولاً بقوله : أنتم الأعلون فهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ، ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها ، وهي كون الله تعالى معهم . (ولن يتركم) قال ابن عباس : ولن يظلمكم ، وقيل : لن يعريكم من ثواب أعمالكم ، وقيل : ولن ينقصكم . وقال الزمخشري وقال أبو عبيد : ولن يتركم من وترت الرجل إذا اقتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم أو قريب ، قال : أو ذهبت بماله قال : أو حربته وحقيقته أفردته من قريبه ، أو ماله من الوتر وهو الفرد فشبه إضاعة عمل العامل ، وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام ، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله ، أي : أفرد عنهما قتلاً ونهباً (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وهو تحقير لأثر الدنيا ، أي : فلا تهنوا في الجهاد ، وأخبر عنها بذلك باعتبار ما يختص بها من ذلك ، وأما ما فيها من الطاعة وأمر الآخرة فليس بذلك .

(يؤتكم أجوركم) أي : ثواب أعمالكم من الإيمان والتقوى ، ولا يسألكم أموالكم ، قال سفيان بن عيينة : أي : كثيراً من أموالكم إنما يسألكم ربع العشر فطيبوا أنفسكم ، وقيل : لا حاجة إليها ، بل يرجع ثواب إنفاقكم إليكم ، وقيل : إنما يسألكم أمواله لأنه هو المالك لها حقيقة ، وهو المنعم بإعطائها ، وقيل : الضمير في يسألكم للرسول ، أي : لا يسألكم أجراً على تبليغ الرسالة ، كما قال ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [ص ٨٦] (إن يسألكموها جميعاً فيحفكم) أي : يبالغ في الإلحاح (تبخلوا ، ويخرج أضغانكم) أي : تطعنون على الرسول وتضيق صدوركم كذلك ، وتخفون دينا يذهب بأموالكم . وقرأ الجمهور : (ويخرج أضغانكم) جزماً على جواب الشرط ، والفعل مسند إلى الله وإلى الرسول ، أو إلى البخل . وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو (ويخرجُ) بالرفع على الاستئناف بمعنى وهو يخرج ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى وفي اللوامح عن عبد الوارث عن أبي عمرو (وتخرج) بالتاء وفتحها ، وضم الراء والجيم (أضغانكم) بالرفع بمعنى وهو يخرج أو سيخرج أضغانكم رفع بفعله . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب بن المتوكل واليماني : (وتخرج) بتاء التأنيث مفتوحة (أضغانكم) رفع به ، ويعقوب : (ونخرج) بالنون (أضغانكم) رفعاً ، وهي مروية عن عيسى إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن ، فالواو عاطفة على مصدر متوهم ، أي : يكف بخلكم وإخراج أضغانكم ، وهذا الذي خيف أن يعتري المؤمنين هو الذي تقرب به محمد بن سلمة إلى كعب بن الأشرف ، وتوصل به إلى قتله حين قال له : إن هذا الرجل قد أكثر علينا ، وطلب منا الأموال . (ها أنتم هؤلاء) كررها التنبيه توكيداً ، وتقدم الكلام على هذا التركيب في سورة آل عمران . وقال الزمخشري : هؤلاء موصول بمعنى الذين صلته تدعون ، أي : أنتم الذين تدعون ، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا : وما وصفنا ؟ فقيل : (تدعون لتنفقوا في سبيل الله) انتهى ، وكون هؤلاء موصولا إذا تقدمها ما الاستفهامية باتفاق ، أو من الاستفهامية باختلاف[1] .

(في سبيل الله) قيل : للغزو ، وقيل : الزكاة واللفظ أعم . (ومن يبخل) أي : بالصدقة ، وما أوجب الله عليه (فإنما يبخل عن نفسه) أي : لا يتعدى ضرره لغيره ، وبخل يتعدى بعلى وبعن ، يقال : بخلت عليه وعنه ، وصليت عليه

---

(١) قال أبو حيان : وكون (هؤلاء) موصولاً مذهب باختلاف ، ذهب البصريون إلى أن (ذا) يجوز أن تستعمل اسماً موصولاً بمعنى الذي وفروعه ، فتكون موصولاً مشتركاً بشرط أن تكون مسبوقاً بما الاستفهامية بلا خلاف ، أو بمن الاستفهامية على خلاف ، وإنما اختلفوا في كون (ذا) تستعمل موصولاً بعد (من) ولم يختلفوا في هذا بعد ما لأن من تختص بمن يعقل ، فليس فيها إبهام كالذي في ما التي صارت الاستفهام في غاية الإبهام فأخرجت (ذا) من التخصيص إلى الإبهام وجذبتها إلى الإبهام وليس كذلك (من) لتخصصها فلا تجانس (ذا) في الإبهام . قال الشيخ خالد في التصريح : وكلا التعليلين ضعيف ، أما الأول فلأن بقية أدوات الاستفهام كما في الإبهام فلا خصوصية لإلحاق (ما) دون (من) . وأما الثاني فلأن (ما) مختص بما لا يعقل كما أن (من) مختص بمن يعقل إلا أن يقال : ما لا يعقل أوسع دائرة ممن يعقل ، والمرجع في ذلك إلى السماع ، وكلا الأمرين مسموع . ويشير البصريون ألا تقدر (ذا) ملغاة حكماً بتقديرها مركبة مع (ما) وجعلها اسماً للاستفهام في محل نصب على المفعولية أو في محل جر . ولم يجز البصريون في غير ذا من أسماء الإشارة إلى الموصولية انظر تفصيل ذلك ، الهمع ١٨٤/١ التصريح ١٣٩/١ شرح الكافية٢ /٤٢ .

وعنه ، وكأنهما إذا عديا بعن ضمنا معنى الإمساك ، كأنه قيل : أمسكت عنه بالبخل . (والله الغني وأنتم الفقراء) أي : الغني مطلقاً إذ يستحيل عليه الحاجات ، وأنتم الفقراء مطلقاً لافتقاركم إلى ما تحتاجون إليه في الدنيا ، وإلى الثواب في الآخرة . (وإن تتولوا) عطف على (وإن تؤمنوا وتتقوا) أي : وإن تتولوا أي : عن الإيمان والتقوى (يستبدل قوماً غيركم) أي : يخلق قوماً غيركم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما ، كما قال : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ [فاطر ١٦] وتعيين أولئك القوم وأنهم الأنصار أو التابعون ، أو أهل اليمن أو كندة والنخع أو العجم ، أو فارس والروم أو الملائكة أقوال ، والخطاب لقريش ، أو لأهل المدينة قولان . وروى أبو هريرة أنه ـ عليه السلام ـ سئل عن هذا ، وكان سلمان إلى جنبه فوضع يده على فخذه ، وقال : قوم هذا ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس[1] ، وإن صح هذا الحديث وجب المصير في تعيين ما انبهم من قوله قوماً غيركم إلى تعيين الرسول . (ثم لا يكونوا أمثالكم) أي : في الخلاف والتولي والبخل .

---

(١) والحديث أخرجه مسلم في الفضائل باب ٥٩ حديث (٢٣٠) والبخاري في التاريخ ٣٩/٩ وأحمد في المسند ٣٠٨/٢ والبغوي في التفسير ٨٧/٤ ، ١٨٦/٦٠ وابن كثير ٣٠٦/٧ وابن الجوزي في زاد المسير ٤١٦/٧ والطحاوي في المشكل ٣١/٣ .

سورة الفتح تسع وعشرون آية مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ
إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ
فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ
لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن
يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا
بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ
إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۚ كَذَٰلِكُمْ
قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا

تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

ظفر بالشيء غلب عليه ، وأظفره غلبه . المعرة : المكروه والمشقة اللاصقة مأخوذ من العر ، والعرة ، وهو الجرب الصعب اللازم ، قال الشاعر :

كَذِي الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ[1]

---

(١) عجز بيت للنابغة وصدره :

الشطء الفراخ أشطأ الزرع أفرخ ، والشجرة أخرجت غصونها . آزر ساوى طولاً ، قال الشاعر :

بِمحنيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَا   بِجَرِّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيَّبِ[1]

أي ساوى نبتها الضال طولاً ، وهو شجر ووزنه أفعل لقولهم في المضارع يوزرَ .

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراط مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً ، هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيماً ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت ومصيراً ،ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾

هذه السورة مدنية ، وعن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة ، ولعل بعضاً منها نزل ، والصحيح أنها نـزلت بطريق منصرفه ـ ﷺ ـ من الحديبية سنة ست من الهجرة[2] ، فهي تعد في المدني . ومناسبتها لما قبلها أنه تقدم ﴿ وإن تتولوا ﴾ [محمد ٣٨] الآية ، وهو خطاب لكفار قريش ، أخبر رسوله بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال وآمن كل من كان بها ، وصارت مكة دار إيمان ، ولما قفل رسول الله ـ ﷺ ـ من صلح الحديبية تكلم المنافقون ، وقال : لو كان محمد نبياً ودينه حق ما صد عن البيت ، ولكان فتح مكة فأكذبهم الله تعالى ، وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه إشعاراً بأنه من عند الله لا بكثرة عدد ، ولا عدد ، وأكده بالمصدر ووصفه بأنه مبين مظهر لما تضمنه من النصر والتأييد ، والظاهر أن هذا الفتح هو فتح مكة ، وقال الكلبي وجماعة وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه لما قال ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون ﴾ [محمد ٣٨] الآية بين أنه فتح لهم مكة وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ، ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم ، وأيضاً لما قال : ﴿ وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [محمد ٣٥] بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعليين ، وأيضاً لما قال : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ [محمد ٣٥] كان فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى صلح ، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين ، وكانت هذه البشرى بلفظ الماضي ، وإن كان لم يقع لأن إخباره تعالى بذلك لا بد من وقوعه ، وكون هذا الفتح هو فتح مكة بدأ به الزمخشري . وقال الجمهور : هو فتح الحديبية[3] ، وقاله السدي والشعبي والزهري . قال ابن عطية : وهو الصحيح انتهى . ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام من القوم بحجارة وسهام ، وعن ابن عباس رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم . وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى

= فحملتني ذنب امرىء وتركته .... ـــــ

انظر ديوان النابغة (٥٦) اللسان (عرر).

(١) البيت لامرىء القيس، انظر ديوانه (٣٢) وروي (مجر) بدل (بحر) اللسان روح المعاني ١٢٨/٢٦ القرطبي ١٩٤/١٦ .

(٢) انظر البخاري كتاب التفسير باب سورة الفتح ، وسنن الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الفتح ٣٨٥/٥ والوسيط ٧١ خ والبغوي ١٨٧/٤ ـ ١٨٩ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في تخريجه على الكشاف ٣٣٢/٤ هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري ، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه ، ومن طريق أبي الأسود ، وذكره القرطبي في التفسير ٢٦٠/١٦ .

سألوه الصلح . قال الشعبي : بلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وأطعموا كل خيبر . وقال الزهري : لم يكن فتح أعظم من فتح الحديبية اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . قال القرطبي : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف . وقال موسى بن عقبة : قال رجل منصرفهم من الحديبية : ما هذا الفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : بل هو أعظم الفتوح[١] قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادكم بالراح[٢] ، ويسألونكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان ، ورأوا منكم ما كرهوا ، وكان في فتحها آية عظيمة ، وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله ـ ﷺ ـ ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ، ولم ينفد ماؤها بعد . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف يكون فتحاً ، وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية . (قلت :) كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحاً مبيناً انتهى . وفي هذا الوقت اتفقت بيعة الرضوان ، وهو الفتح الأعظم ، قاله : جابر بن عبد الله والبراء بن عازب ، وفيه استقبل فتح خيبر وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ، ولم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية . وقال مجاهد : هو فتح خيبر[٣] . وفي حديث مجمع بن جارية شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا إذ الناس يهزون الأباعر ، فقيل ما بال الناس قالوا : أوحى الله للنبي ـ ﷺ ـ قال : فخرجنا نرجف فوجدنا النبي ـ ﷺ ـ عند كراع الغميم فلما اجتمع الناس قرأ النبي ـ ﷺ ـ (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أو فتح هو يا رسول الله قال : نعم ، والذي نفسي بيده إنه لفتح ، فقسمت خيبر على أهل الحديبية ولم يدخل فيها أحد إلا من شهد الحديبية . وقال الضحاك : الفتح حصول المقصود بغير قتال ، وكان الصلح من الفتح ، وفتح مكة بغير قتال ، فتناول الفتحين الحديبية ومكة . وقيل : فتح الله تعالى له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة ، والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ، ومتشعب منه . . وقيل : قضينا لك قضاءً بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل ليطوفوا بالبيت من الفتاحة ، وهي الحكومة ، وكذا عن قتادة . قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة . (قلت :) لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ ، وسبب للغفران والثواب ، والفتح والظفر بالبلد عنوة ، أو صلحاً بحرب أو بغير حرب لأنه منغلق ما لم يظفر ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح انتهى . وقال ابن عطية : المراد هنا أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام صيرورة ، ولهذا قال عليه السلام : لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا انتهى . ورد بأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ولو جاز هذا بحال لجاز ليقوم زيد في معنى ليقومنّ زيد انتهى . أما الكسر فقد علل بأنه شبهت تشبيهاً بلام كي ، وأما النصب فله أن يقول ليس هذا نصباً لكنها الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف ، وبعد هذا فهذا القول ليس بشيء إذ لا يحفظ من لسانهم ، والله ليقوم ، ولا بالله ليخرج زيد بكسر اللام ، وحذف النون وبقاء الفعل مفتوحاً ، ويتم نعمته عليك بإظهارك على عدوّك ورضاه عنك وبفتح مكة والطائف وخيبر (نصراً عزيزاً) أي : بالظفر والتمكن من الأعداء بالغنيمة والأسر والقتل ، نصراً فيه عز ومنعة ، وأسندت العزة إليه مجازاً ، والعزيز حقيقة هو المنصور ـ ﷺ ـ وأعيد لفظ الله في وينصرك الله نصراً لما بعد عن ما عطف عليه إذ في الجملتين قبله

---

(١) والراح : الخمر ، والراح : جمع راحة وهي الكف ، والراح الارتياح ، والظاهر هنا الثالث .

(٢) انظر الوسيط ٧١ خ والبغوي ٤/١١٨ .

ضمير يعود على الله ، وليكون المبدأ مسنداً إلى الاسم الظاهر ، والمنتهى كذلك ، ولما كان الغفران وإتمام النعمة والهداية والنصر يشترك في إطلاقها الرسول ـ ﷺ ـ وغيره بقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء ٤٨] وقوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ [الصافات ١٧٢] وكان الفتح لم يبق لأحد إلا للرسول ـ ﷺ ـ أسنده تعالى إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ، وأسند تلك الأشياء الأربعة إلى الاسم الظاهر ، واشتركت الخمسة في الخطاب له ـ ﷺ ـ تأنيساً له ، وتعظيماً لشأنه ، ولم يأت بالاسم الظاهر لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر . (هو الذي أنزل السكينة) وهي الطمأنينة والسكون[١] ، قيل : بسبب الصلح والأمن فيعرفون فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة بعد القتال ، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم . وقيل : السكينة إشارة إلى ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ من الشرائع ليزدادوا إيماناً بها إلى إيمانهم وهو التوحيد ، روي معناه عن ابن عباس[٢] . وقيل : الوقار والعظمة لله ولرسوله[٣] . وقيل : الرحمة ليتراحموا ، وقاله ابن عباس . (ولله جنود السموات والأرض) إشارة إلى تسليم الأشياء إليه تعالى ، ينصر من شاء ، وعلى أي وجه شاء ، ومن جنده السكينة ثبتت قلوب المؤمنين . (ليدخل) هذه اللام تتعلق قيل : بـ (إنا فتحنا لك) ، وقيل : بقوله : (ليزدادوا) (فإن قيل :) ويعذب عطف عليه والازدياد لا يكون سبباً لتعذيب الكفار . (أجيب) عن هذا بأنه ذكر لكونه مقصوداً للمؤمن ، كأنه قيل بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم الجنة ، ويعذب الكفار بأيديكم في الدنيا . وقيل بقوله : (وينصرك الله) أي : بالمؤمنين ، وهذه الأقوال فيها بعد . وقال الزمخشري : ولله جنود السموات والأرض يسلط بعضها على بعض ، كما يقتضيه علمه وحكمته ، ومن قضيته أن صلح قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ، وأن وعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ، ويشكرون فيستحقوا الثواب فيثيبهم ، ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك ، وكرهوه انتهى . ولا يظهر من كلامه هذا ما تتعلق به اللام ، والذي يظهر أنها تتعلق بمحذوف يدل عليه الكلام . وذلك أنه قال : ولله جنود السموات والأرض كان في ذلك دليل على أنه تعالى يبتلي بتلك الجنود من شاء ، فيقبل الخير من قضى له بالخير ، والشر من قضى له بالشر ، ليدخل المؤمنين جنات ، ويعذب الكفار ، فاللام تتعلق بيبتلي هذه ، وما تعلق بالابتلاء من قبول الإيمان ، والكفر ويكفر معطوف على ليدخل ، وهو ترتيب في الذكر لا ترتيب في الوقوع ، وكان التبشير بدخول الجنة أهم فبدىء به . ولما كان المنافقون أكثر ضرراً على المسلمين من المشركين بدىء بذكرهم في التعذيب . (الظانين بالله ظن السوء) الظاهر أنه مصدر أضيف إلى ما يسوء المؤمنين ، وهو أن المشركين يستأصلونهم ولا ينصرون ، ويدل عليه عليهم دائرة السوء ، وبل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وقيل ظن السوء ما يسوى المشركين من إيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة الله ، وتسليط رسوله قتلاً وأسراً ونهباً ، ثم أخبر أنهم يستعلي عليهم السوء ، ويحيط بهم ، فاحتمل أن يكون خبراً حقيقة ، واحتمل أن يكون هو ما بعده دعاء عليهم ، وتقدم الكلام على هذه الجملة في سورة براءة . وقيل : ظن السوء يشمل ظنونهم الفاسدة من الشرك ، كما قال : (إن يتبعون إلا الظن) النجم ٢٨ ، ومن انتفاء رؤية الله تعالى الأشياء ، وعلمه بها كما قال : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ﴾ [فصلت ٢٢] بطلان خلق العالم كما قال ذلك ظن الذين كفروا . وقيل : السوء هنا كما تقول هذا فعل سوء . وقرأ الحسن (السُّوء) فيهما بضم السين ، (وكان الله عزيزاً حكيماً) لما تقدم تعذيب الكفار والانتقام منهم ، ناسب ذكر العزة ، ولما وعد تعالى بمغيبات ناسب ذكر العلم ، وقرن باللفظتين ذكر جنود السموات والأرض ، فمنها السكينة التي للمؤمنين ، والنقمة للمنافقين والمشركين ، ومن جنود الله الملائكة في السماء ، والغزاة في سبيل الله في الأرض . وقرأ

---

(١) انظر البغوي ٤/١٨٩ والوسيط ٧٢ خ .
(٢) انظر البغوي ٤/١٨٩ والوسيط ٧٢ خ .
(٣) انظر البغوي ٤/١٨٩ والوسيط ٧٢ خ .

الجمهور (لتؤمنوا) وما عطف عليه بتاء الخطاب ، وأبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة ، والجحدري بفتح التاء وضم الزاي خفيف ، وهو أيضاً وجعفر بن محمد كذلك إلا أنهم كسروا الزاي ، وابن عباس واليماني بزاءين من العزة ، وتقدم الكلام في وعزّروه في الأعراف ، والظاهر أن الضمائر عائدة على الله تعالى ، وتفريق الضمائر بجعلها للرسول ـ ﷺ ـ وبعضها لله تعالى حيث يليق قول الضحاك . (بكرة وأصيلاً) قال ابن عباس : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر (إن الذين يبايعونك) هي بيعة الرضوان ، وبيعة الشجرة حين أخذ الرسول ـ ﷺ ـ الأهبة لقتال قريش حين أرجف بقتل عثمان بن عفان فقد بعثه إلى قريش يعلمهم أنه جاء معتمراً لا محارباً ، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية بايعهم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد ، ولذلك قال سلمة بن الأكوع وغيره : بايعنا على الموت . وقال ابن عمر وجابر على أن لا نفر[1] ، والمبايعة مفاعلة من البيع ، لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وبقي اسم البيعة بعد على معاهدة الخلفاء والملوك . (إنما يبايعون الله) أي : صفقتهم إنما يمضيها ويمنح الثمن الله عز وجل . وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب (إنما يبايعون لله) أي : لأجل الله ولوجهه ، والمفعول محذوف أي : إنما يبايعونك لله (يد الله فوق أيديهم) ، قال الجمهور : اليد هنا النعمة أي : نعمة الله في هذه المبايعة لما يستقبل من محاسنها ، فوق أيديهم التي مدوها لبيعتك . وقيل : قوة الله فوق قواهم في نصرك ونصرهم . وقال الزمخشري : لما قال إنما يبايعون الله أكد تأكيداً على طريقة التخييل ، فقال : يد الله فوق أيديهم يريد أن يد رسول الله ـ ﷺ ـ التي تعلو يدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول ـ ﷺ ـ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء ٨٠] (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) فلا يعود ضرر نكثه إلا على نفسه انتهى . وقرأ زيد بن علي (ينكث) بكسر الكاف . وقال جابر بن عبد الله : ما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس ، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم فحرم . وقرأ الجمهور : (عليهُ الله) بنصب الهاء ، وقرىء (بما عهِد ثلاثياً) ، وقرىء الحميدي (فسيؤتيه) بالياء والحرميان وابن عامر وزيد بن علي بالنون أجراً عظيماً ، هي الجنة وأوفى لغة تهامة . قوله عز وجل :

﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنَّ السوء وكنتم قوماً بوراً * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيراً * ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً * سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً * قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً ﴾ .

قال مجاهد وغيره : ودخل كلام بعضهم في بعض المخلفون من الأعراب هم جهينة ، ومزينة ، وغفار ، وأشجع ، والديل ، وأسلم ، استنفرهم رسول الله ـ ﷺ ـ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ، ليخرجوا معه ، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو ﷺ . وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً ، ورأى

---

(١) انظر الوسيط ٧٢ خ والبغوي ٤ / ١٩٠ .

أولئك الأعراب أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش ، وثقيف ، وكنانة والقبائل ، والمجاورين بمكة ، وهم الأحابيش ، ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم ، فقعدوا عن النبي ـ ﷺ ـ ، وتخلفوا ، وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ، ففضحهم الله عز وجل في هذه الآية ، وأعلم رسوله ـ ﷺ ـ بقولهم واعتذارهم ، قبل أن يصل إليهم ، فكان كذلك[١] (شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) وهذا اعتلال منهم عن تخلفهم ، أي لم يكن لهم من يقوم بحفظ أموالهم وأهليهم غيرهم، وبدؤوا بذكر الأموال، لأن بها قوام العيش وعطفوا الأهل لأنهم كانوا يحافظون على حفظ الأهل أكثر من حفظ المال ، وقرىء (شغَّلتنا) بتشديد الغين ، حكاه الكسائي ، وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة ، ولما علموا أن ذلك التخلف عن الرسول كان معصية ، سألوا أن يستغفر لهم ، (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) الظاهر أنه راجع إلى الجملتين المقولتين ، من الشغل وطلب الاستغفار ، لأن قولهم (شغلتنا) كذب وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون ، وقال الطبري : ـ هو راجع إلى قولهم (فاستغفر لنا) ، يريد أنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم ، (قل فمن يملك) أي من يمنعكم من قضاء الله (إن أراد بكم ضراً) من قتل أو هزيمة (أو أراد بكم نفعاً) من ظفر وغنيمة ، أي هو تعالى المتصرف فيكم وليس حفظكم أموالكم وأهليكم بمانع من ضياعها إذا أراده الله تعالى وقرأ الجمهور (ضَرًّا) بفتح الضاد ، والأخوان بضمها ، وهما لغتان ، ثم بين تعالى لهم العلة في تخلفهم ، وهي ظنهم أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه لا يرجعون إلى أهليهم ، وتقدم الكلام على (أهل) وكيف جمع بالواو والنون في قوله (ما تطعمون أهليكم) ، وقرأ عبد الله إلى (أَهْلِهِمْ) بغير ياء (وزين) قراءة الجمهور مبنياً للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، وقيل غيره ممن نسب إليه التزيين مجازاً ، وقرىء (وَزَيَّنَ) مبنياً للفاعل (وظننتم ظن السوء) احتمل أن يكون هو الظن السابق ، وهو ظنهم أن لا ينقلبوا ، ويكون قد ساءهم ذلك الظن وأحزنهم حيث أخلف ظنهم ، ويحتمل أن يكون غيره لأجل العطف ، أي ظننتم أنه تعالى يخلف وعده في نصر دينه وإعزاز رسوله ـ ﷺ ـ (بوراً) هَلْكَى والظاهر أنه مصدر كالهلك ولذلك وصف به المفرد المذكر كقول ابن الزبعري :

يَـا رَسُولَ ٱلْمَلِيـكِ إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَـا فَتَقْتَ إذْ أَنَـا بُـورُ[٢]

والمؤنث حكى أبو عبيدة امرأة بور والمثنى والمجموع ، وقيل يجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول هذا في المعتل وباذل وبذل في الصحيح وفسر (بوراً) بفاسدين هلكى ، وقال ابن بحر : أشرار . واحتمل (وكنتم) أن يكون المعنى وصرتم بذلك الظن وأن يكون (وكنتم) على بابها ، أي وكنتم في الأصل قوماً فاسدينَ ، أي الهلاك سابق لكم على ذلك الظن . ولما أخبر تعالى أنهم قوم بور ذكر ما يدل على أنهم ليسوا بمؤمنين فقال : (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) فهو كافر جزاؤه السعير . ولما كانوا ليسوا مجاهرين بالكفر ولذلك اعتذروا وطلبوا الاستغفار مزج وعيدهم وتوبيخهم ببعض الإمهال والترجئة ، وقال الزمخشري : (ولله ملك السموات والأرض) يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ، (وكان الله غفوراً رحيماً) رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر بالتوبة انتهى . وهو على مذهب الاعتزال (سيقول المخلفون) روي أن الله تعالى أمر نبيه ـ ﷺ ـ يغزو ، خيبر ، ووعده بفتحها ، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسيره إلى خيبر ـ وهم عدو مستضعف ـ طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا من الغنيمة وكان كذلك[٣] ، (يريدون أن يبدلوا كلام الله) معناه : أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة

---

(١) انظر البغوي ١٩١/٤ والوسيط ٧٣.

(٢) البيت من الخفيف انظر اللسان (بور) القرطبي ١٧٨/١٦ الشاهد (إذا أنا بور) فـ (بور) مصدر أخبر به عن المفرد، وقال ابن منظور : وكذلك الاثنان والجمع قال تعالى ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ .

(٣) انظر الوسيط ٧٣ خ .

خيبر ، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منها شيئاً ، قاله مجاهد وقتادة ، وعليه عامة أهل التأويل ، وقال ابن زيد : كلام الله قوله تعالى (قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً) وهذا لا يصح لأن هذه الآية نزلت مرجع رسول الله ﷺ من تبوك في آخر عمره ، وهذه السورة نزلت عام الحديبية ، وأيضاً فقد غزت مزينة وجهينة بعد هذه المدة معه عليه الصلاة والسلام ، وفضلهم بعد على تميم وغطفان وغيرهم من العرب ، وقرأ الجمهور (كَلاَم الله) بألف والأخوان (كَلِمَ الله) جمع كلمة وأمره تعالى أن يقول لهم (لن تتبعونا) وأتى بصيغة لن وهي للمبالغة في النفي ، أي لا يتم لكم ذلك . إذ قد وعد تعالى أن ذلك لا يحضرها إلا أهل الحديبية فقط (كذلكم قال الله من قبل) يريد وعده قبل اختصاصهم بها (بل تحسدوننا) أي يعز عليكم أن نصيب مغنماً معكم ، وذلك على سبيل الحسد أن نقاسمكم فيما تغنمون ، وقرأ أبو حيوة بكسر السين . ثم رد عليهم تعالى كلامهم هذا فقال : (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) من أمور الدنيا ، وظاهره ليس لهم فكر إلا فيها كقوله ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم ٧] والإضراب الأول : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم ، وإثبات الحسد ، والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى ما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه (قل للمخلفين من الأعراب) أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم ذلك ، ودل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكونوا أهلاً لذلك الأمر : وأبهم تعالى في قوله (إلى قوم أولي بأس شديد) ، فقال عكرمة وابن جبير وقتادة : هم هوازن ومن حارب الرسول ﷺ في حنين ، وقال كعب : الروم الذين خرج إليهم عام تبوك ، والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة ، وقال الزهري والكلبي : أهل الردة ، وبنو حنيفة باليمامة . وعن رافع بن خديج : إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم أريدوا بها ، وقال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى : هم الفرس ، وقال الحسن : فارس والروم ، وقال أبو هريرة : قوم لم يأتوا بعد . وظاهر الآية يرد هذا القول ، والذي أقوله : إن هذه الأقوال تمثيلات من قائليها لا أن المعنى بذلك ما ذكروا ، بل أخبر بذلك مبهماً دلالة على قوة الإسلام ، وانتشار دعوته ، وكذا وقع حسن إسلام تلك الطوائف ، وقاتلوا أهل الردة زمان أبي بكر ، وكانوا في فتوح البلاد أيام عمر ، وأيام غيره من الخلفاء ، والظاهر أن هؤلاء المقاتلين ليسوا ممن تؤخذ منهم الجزية ، إذ لم يذكر هنا إلا القتال أو الإسلام ، ومذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ أن الجزية لا تقبل من مشركي العرب ، ولا من المرتدين ، وليس إلا الإسلام أو القتل ، وتقبل ممن عداهم من مشركي العجم ، وأهل الكتاب والمجوس . ومذهب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس ، دون مشركي العجم والعرب ، وقال الزمخشري : وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام الرسول ﷺ ، ولكن بعد وفاته . انتهى . وهذا ليس بصحيح فقد حضر كثير منهم مع جعفر في مؤتة ، وحضروا حرب هوازن مع رسول الله ـ ﷺ ـ ، وحضروا معه في سفرة تبوك ، ولا يتم قول الزمخشري إلا على قول من عين أنهم أهل الردة ، وقرأ الجمهور (أو يُسْلمون) مرفوعاً ، وأبي وزيد بن علي بحذف النون منصوباً بإضمار أن في قول الجمهور من البصريين غير الجرمي ، وبها في قول الجرمي والكسائي ، وبالخلاف في قول الفراء وبعض الكوفيين ، فعلى قول النصب بإضمار أن هو عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم أي يكون قتال أو إسلام أي أحد هذين ، ومثله في النصب قول امرىء القيس :

فَقُلْتُ لَـهُ لاَ تَبْـكِ عَيْنك إنَّمَـا … نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرا[1]

---

(١) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ٦٦ الكتاب ٤٢٧/١ المقتضب ٢٨/٢ الجمل ١٩٧ ، الخصائص ٢٣٦/١ ابن يعيش ٢٢/٧ الخزانة ٦٠١/٣ الأشموني ٢٩٥/٣ .

والرفع على العطف على (تقاتلونهم) ، أو على القطع ، أي أو هم يسلمون دون قتال . (فإن تطيعوا) أي فيما تدعون إليه (كما توليتم من قبل) أي في زمان الخروج مع الرسول ﷺ في زمان الحديبية . (يعذبكم) يحتمل أن يكون في الدنيا ، وأن يكون في الآخرة (ليس على الأعمى حرج) نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ، ومع ارتفاع الحرج ، فجائز لهم الغزو ، وأجرهم فيه مضاعف ، والأعرج أحرى بالصبر ، وأن لا يفر ، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان أعمى في بعض حروب القادسية . وكان رضي الله عنه يمسك الراية ، فلو حضر المسلمون فالغرض متوجه بحسب الوسع في الغزو ، وقرأ الجمهور (يُدخله) ويعذبه الباء والحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة وابن عامر ونافع بالنون قوله عز وجل .

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثـابهم فتحاً قريباً * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا * ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنـة الله تبديلاً * وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا * هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنـات لم تعلمـوهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معـرة بغير علم ليـدخل الله في رحمتـه من يشاء لـو تزيلوا لعـذّبنـا الـذين كفـروا منهم عذاباً أليماً * إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

لما ذكر تعالى حال من تخلف عن السفر مع الرسول ـ ﷺ ـ ، ذكر حال المؤمنين الخلص ، الذين سافروا معه . والآية دالة على رضا الله تعالى عنهم ، ولذا سميت بيعة الرضوان ، وكانوا فيما روي ألفاً وخمسمائة وعشرين ، وقال ابن أبي أوفى : وثلاثمائة . وأصل هذه البيعة أن رسول الله ﷺ حين نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة ، وحمله على جمل له يقال له ، الثعلب ، يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً ، فلما أتاهم وكلمهم عقروا جمله ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، وبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فأراد بعث عمر فقال : قد علمت فظاظتي ، وهم يبغضوني ، وليس هناك من بني عدي من يحميني ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني وأحب إليهم عثمان بن عفان ، فبعثه فأخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً لحرمته ، وكان أبان بن سعيد بن العاصي حين لقيه نزل عن دابته وحمله عليها وأجاره ، فقالت له قريش : إن شئت فطف بالبيت وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ . وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال ، فصرخ صارخ من العسكر قتل عثمان . فحمى رسول الله ﷺ والمؤمنون وقالوا : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم ، فنادى منادي رسول الله ـ ﷺ ـ : البيعة البيعة ، فنزل روح القدس ، فبـايعوا كلهم إلا الجد بن قيس المنافق[1] ، وقـال الشعبي : أول من بايـع أبو سنـان بن وهب الأسدي . والعامل في (إذ) رضي ، والرضا على هذا بمعنى إظهار النعم عليهم ، فهو صفة فعل لا صفة ذات ، لتقييده بالزمان . و (تحت) يحتمل أن يكون معمولاً لـ (يبايعونك) ، أو حالاً من المفعول ، لأنه ـ ﷺ ـ كان تحتها جالساً في أصلها ، قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائماً على رأسه ، وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الغصن عن ظهره ، فبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أنتم اليوم خير أهل الأرض ، وكانت الشجرة سمرة ،

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية ، والوسيط ٧٤ خ والبغوي ١٩٣/٤ ، ١٩٤ .

قال بكير بن الأشجع : يوم فتح مكة قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة يصلون عندها ، فبلغ عمر فأمر بقطعها ، وكانت هذه البيعة سنة ست من الهجرة ، وفي الحديث عنه ـ ﷺ ـ (لا يدخل النار من شهد بيعة الرضوان) ، (فعلم ما في قلوبهم) قال قتادة وابن جريج : من الرضا بالبيعة أن لا يفروا ، وقال الفراء : من الصدق والوفاء ، وقال الطبري ومنذر بن سعيد : من الإيمان وصحته ، والحب في الدين ، والحرص عليه ، وقيل من الهم والانصراف عن المشركين ، والأنفة من ذلك ، على نحو ما خاطب به عمر وغيره ، وهذا قول حسن يترتب معه نزول السكينة ، والتعريض بالفتح القريب والسكينة تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وعلى الأقوال السابقة قيل : هذا القول لا يظهر احتياج إلى إنزال السكينة إلا أن يجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم ، وقال مقاتل : (فعلم ما في قلوبهم) من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا ، قال ابن عطية : وهذا فيه مذمة للصحابة رضي الله تعالى عنهم انتهى ، (وأثابهم فتحاً قريباً) قال قتادة وابن أبي ليلى : فتح خيبر ، وكان عقب انصرافهم من مكة ، وقال الحسن : فتح هجر ، وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمناً طويلاً ، وقيل : فتح مكة ، والقرب أمر نسبي ، لكن فتح خيبر كان أقرب ، وقرأ الحسن ونوح القارىء ، (وآتاهم) أي أعطاهم ، والجمهور (وأثابهم) من الثواب ، (ومغانم كثيرة) أي مغانم خيبر ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال فقسمها عليهم ، وقيل : مغانم هجر ، وقيل : مغانم فارس والروم ، وقرأ الجمهور (يأخذونها) بالياء على الغيبة في وأثابهم ، وما قبله من ضمير الغيبة ، وقرأ الأعمش وطلحة ورويس عن يعقوب ودلبة عن يونس عن ورش وأبو دحية وسقلاب عن نافع والأنطاكي عن أبي جعفر بالتاء على الخطاب كما جاء بعد (وعدكم الله مغانم كثيرة) بالخطاب وهذه المغانم الموعود بها هي المغانم التي كانت بعد هذه ، وتكون إلى يوم القيامة . قاله ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين . ولقد اتسع نطاق الإسلام ، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى ، وغنموا مغانم لا تعد ، وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في بلاد الهند وفي بلاد السودان في عصرنا هذا ، وقدم علينا حاجاً أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وذكر عنه أنه استفتح أزيد من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا ، وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه ، وقيل : الخطاب لأهل البيعة ، وأنهم سيغنمون مغانم كثيرة ، وقال زيد بن أسلم وابنه : المغانم الكثيرة مغانم خيبر ، (فعجل لكم هذه) الإشارة بهذه إلى البيعة ، والتخلص من أمر قريش بالصلح ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنه ، وقال مجاهد : مغانم خيبر ، (وكف أيدي الناس عنكم) أي أهل مكة بالصلح ، وقال ابن عباس : عيينة بن حصن الفزاري ، وعوف بن مالك النضري ، ومن كان معهم إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والرسول عليه الصلاة والسلام محاصر لهم ، فجعل الله في قلوبهم الرعب ، وكفهم عن المسلمين ، وقال ابن عباس أيضاً : أسد وغطفان حلفاء خيبر ، وقال الطبري : كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول ـ ﷺ ـ إلى الحديبية وإلى خيبر ، (ولتكون) أي هذه الكفة آية للمؤمنين ، وعلامة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم ، وقيل : رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ، ورؤيا الأنبياء حق ، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة ، فجعل فتح خيبر علامة وعنواناً لفتح مكة ، فيكون الضمير في (ولتكون) عائداً على (هذه) وهي مغانم خيبر ، والواو في (ولتكون) زائدة عند الكوفيين ، وعاطفة على محذوف عند غيرهم ، أي ليشكروه (ولتكون) أو وعد فعجل وكف لينفعكم بها ، ولتكون ، أو يتأخر أو يقدر ما يتعلق به متأخراً ، أي فعل ذلك (ويهديكم صراطاً مستقيماً) أي طريق التوكل ، وتفويض الأمور إليه ، وقيل : بصيرة وإتقاناً ، (وأخرى لم تقدروا عليها) ، قال ابن عباس والحسن ومقاتل : بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون ، وقال الضحاك وابن زيد وابن إسحاق : خيبر ، وقال قتادة والحسن : مكة ، وهذا القول يتسق معه المعنى ويتأيد . وفي قوله (لم تقدروا عليها) دلالة على تقدم محاولة لها ، وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة ، وقال الزمخشري : هي مغانم هوازن في غزوة حنين ، وقال : لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ، وجوز الزمخشري في (وأخرى) أن تكون مجرورة

بإضمار رب ، وهذا فيه غرابة ، لأن رب لم تأت في القرآن جارة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب ، فكيف يؤتى بها مضمرة ؟ وإنما يظهر أن (وأخرى) مرفوع بالابتداء ، فقد وصفت بالجملة بعدها ، وقد أحاط هو الخبر ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بمضمر يفسره معنى قد أحاط الله بها ، أي وقضى الله أخرى ، وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين . ومعنى (قد أحاط الله بها) بالقدرة والقهر لأهلها أي قد سبق في علمه ذلك ، وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها ، (ولو قاتلكم الذين كفروا) هذا ينبني على الخلاف في قوله تعالى (وكف أيدي الناس عنكم) أهم مشركو مكة ، أو ناصرو أهل خيبر أو اليهود (لولوا الأدبار) أي لغلبوا وانهزموا ، (سنة الله) في موضع المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله ، أي سن الله عليه أنبياءه سنة وهو قوله ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة ٢١] (وهو الذي كف أيديهم) أي قضى بينكم المكافة والمحاجزة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وروي في سببها : أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل ، وخرجوا يطلبون غرة في عسكر ـ رسول الله ﷺ ـ فلما أحس بهم المسلمون بعث عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد ، وسماه حينئذٍ سيف الله في جملة من الناس ففروا أمامهم ، حتى أدخلوهم بيوت مكة ، وأسروا منهم جملة ، وسيقوا إلى الرسول ﷺ فمنّ عليهم وأطلقهم ، وقال قتادة : كان ذلك بالحديبية عند معسكره وهو ببطن مكة ، وعن أنس : هبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم مسلحين يريدون غرته فأخذناهم فاستحياهم ، وفي حديث عبد الله بن معقل : أن رسول الله ﷺ دعا عليهم فأخذ الله أبصارهم فقال لهم : هل جئتم في عهد ، وهل جعل لكم أحد أماناً ؟ قالوا : اللهم لا ، فخلى سبيلهم ، وقال الزمخشري : كان يعني هذا الكف يوم الفتح ، وبه استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً ، وقيل : كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة ، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة ، وعن ابن عباس : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت انتهى ، وقرأ الجمهور (بما تعملون) على الخطاب وأبو عمرو بالياء وهو تهديد للكفار (هم الذين كفروا) يعني أهل مكة ، قال ابن خالويه : يقال الهدي والهديّ والهداء ثلاث لغات انتهى ، وقرأ الجمهور (الهدْي) بسكون الدال ، وهي لغة قريش وابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمر (والهَدِيّ) بكسر الدال وتشديد الياء وهما لغتان ، وهو معطوف على الضمير في (صدّوكم) (ومعكوفاً) حال ، أي محبوساً ، عكفت الرجل عن حاجته حبسته عنها ، وأنكر أبو عليّ تعدية عكف ، وحكاه ابن سيدة والأزهري وغيرهما ، وهذا الحبس يجوز أن يكون من المشركين بصدهم ، أو من جهة المسلمين لتردّدهم ونظرهم في أمرهم ، وقرأ الجعفي عن أبي عمرو : (والْهَدْيِ) بالجر معطوفاً على المسجد الحرام أي وعن نحر الهدي ، وقرأ بالرفع على إضمار وصد (الْهَدْيُ) . وكان خرج عليه ومعه مائة بدنة قاله مقاتل ، وقيل : بسبعين ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت البدنة عن عشرة ، قاله المسور بن مخرمة ، وأبي بن الحكم (أن يبلغ محله) قال الشافعي : الحرم . وبه استدل أبو حنيفة أن محل هدى المحصر الحرم لا حيث أحصر ، وقال الفراء : حيث يحل نحره ، و (أن يبلغ) يحتمل أن يتعلق بالصد ، أي وصدوا الهدي ، وذلك على أن يكون بدل اشتمال ، أي وصدوا بلوغ الهدي محله ، أو على أنه مفعول من أجله ، أي كراهة أن يبلغ محله ، ويحتمل أن يتعلق بمعكوفاً ، أي محبوساً لأجل أن يبلغ محله ، فيكون مفعولاً من أجله ، ويكون الحبس من المسلمين ، أو محبوساً عن أن يبلغ محله ، فيكون الحبس من المشركين ، وكان بمكة قوم من المسلمين مختلطين بالمشركين ، غير متميزين عنهم ، ولا معروفي الأماكن ، فقال تعالى (ولولا) كراهة أن يهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين ، وأنتم غير عارفين لهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، ما كف أيديكم عنهم ، وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ، قال الزمخشري : ويجوز أن يكون (لو تزيلوا) كالتكرير لـ (لولا رجال مؤمنون) لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون (لعذبنا) هو الجواب انتهى . وقوله لمرجعهما إلى معنى واحد ليس بصحيح ، لأن ما تعلق به لولا الأولى غير ما تعلق به الثانية ، فالمعنى في الأولى ولولا وطء قوم مؤمنين ، والمعنى في

الثانية لو تميزوا من الكفار ، وهذا معنى مغاير للأول مغايرة ظاهرة ، و (أن تطؤهم) بدل اشتمال من رجال وما بعده ، وقيل : بدل من الضمير في (تعلموهم) أي لم تعلموا وطأتهم ، أي أنه وطء مؤمنين ، وهذا فيه بعد ، والوطء الدوس ، وعبر به عن الإهلاك بالسيف وغيره ، قال الشاعر :

وَوَطِئْتَنَا وَطْئاً عَلَى حَنَقٍ وَطْءَ الْمُقَيَّدِ ثَابِتَ الْهَرِمِ[(١)]

وفي الحديث (اللهم اشدد وطأتك على مضر) و (لم تعلموهم) صفة لرجال ونساء غلب فيها المذكر ، والمعنى لم تعرفوا أعيانهم وإنهم مؤمنون ، وقال ابن زيد : المعرة المأثم ، وقال ابن إسحق : الدية ، وقال ابن عطية : وهذا ضعيف لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان بين أهل الحرب ، وقال الطبري : هي الكفارة ، وقال القاضي منذر بن سعيد : المعرة : أن يعنفهم الكفار ، ويقولون قتلوا أهل دينهم ، وقيل الملامة وتألم النفس منه في باقي الزمن ، ولفق الزمخشري من هذه الأقوال سؤالاً وجواباً على عادته في تلفق كلامه من أقوالهم وإيهامه أنها سؤالات وأجوبة له ، فقال : (فإنه قلت) : أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون ؟ (قلت) : يصيبهم وجوب الدية ، والكفارة ، وسوء مقالة المشركين ، إنهم فعلوا بأهل دينهم ما فعلوا بنا من غير تمييز والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير انتهى بغير علم إخبار عن الصحابة ، وعن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية ، والامتناع من التعدي ، حتى إنهم لو أصابوا من ذلك أحداً لكان من غير قصد ، كقول النملة عن جند سليمان ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ [النمل ١٨] (وبغير علم) متعلق بـ (أن تطؤهم) ، وقيل : متعلق بقوله (فتصيبكم منهم معرّة) من الذين بعدكم ، ممن يعتب عليكم ، وقرأ الجمهور (لو تَـزَيَّلوا) ، وابن أبي عبلة وابن مقسم وأبو حيوة وابن عون (لـو تَزَايَلُوا) عـلى وزن (تفاعلوا) وليـدخل متعلق بمحذوف دل عليه المعنى ، أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة ، وانتفاء العذاب ليدخل الله في رحمته من يشاء ، وهذا المحذوف هو مفهوم من جواب لو ، ومعنى (تزيلوا) لو ذهبوا عن مكة ، أي لو تزيل المؤمنون من الكفار وتفرقوا منهم ، ويجوز أن يكون الضمير للمؤمنين والكفار ، أي لو افترق بعضهم من بعض ، (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) إذ معمول لـ (عذبنا) أو لـ (وصدوكم) أو لـ (اذكر) مضمرة ، والحمية : الأنفة يقال : حميت عن كذا حمية إذا أنفت عنه ، وداخلك عار وأنفة لفعله قال المتلمس :

ألا إنَّني مِنْهُمْ وَعِرْضِي عِرْضُهُمْ كَذَا الرَّأْسُ يَحْمِي أَنْفَهُ أَنْ يُهَشَّمَا[(٢)]

وقال الزهري : حميتهم أنفتهم عن الإقرار لرسول الله ﷺ بالرسالة ، والاستفتاح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) والذي امتنع من ذلك هو سهيل بن عمرو ، وقال ابن بحر : حميتهم : عصبيتهم لآلهتهم ، والأنفة أن يعبدوا غيرها ، وقيل : قتلوا آباءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ؟ واللات والعزى لا يدخلها أبداً ، وكانت حمية جاهلية لأنها بغير حجة ، وفي غير موضعها ، وإنما ذلك محض تعصب ، لأنه ﷺ إنما جاء معظماً للبيت ، لا يريد حرباً ، فهم في ذلك كما قال الشاعر في حمية الجاهلية :

وَهَلْ أَنَا إلاَّ مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ[(٣)]

وحمية بدل من الحمية ، والسكينة : الوقار والاطمئنان ، فتوقروا وحلموا و (كلمة التقوى) لا إله إلا الله . روي

---

(١) البيت من الكامل للحارث بن وعلة انظر شرح المفضليات (٥٤٩) ديوان الحماسة ١/٧١ ـ ٧٣ الكشاف ٤/٣٤٣ روح المعاني ٢٦/١١٣ .

(٢) البيت من الطويل انظر القرطبي ١٦/١٩٠ .

(٣) انظر مغني اللبيب رقم (٨٩٢) .

ذلك عن النبي ﷺ ، وبه قال علي وابن عباس وابن عمر وعمرو بن ميمون وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك وسلمة بن كهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مصرف والربيع والسدي وابن زيد ، وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً : هي لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وقال علي بن أبي طالب وابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، وأضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها ، وقيل : هو على حذف مضاف ، أي كلمة أهل التقوى ، وقال المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم : كلمة التقوى هنا هي بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي التي أباها كفار قريش ، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم أحق بها ، وقيل : قولهم سمعاً وطاعة ، والظاهر أن الضمير في (وكانوا) عائد على المؤمنين ، والمفضل عليهم محذوف ، أي أحق بها من كفار مكة ، لأن الله تعالى اختارهم لدينه ، وصحبة نبيه ﷺ ، وقيل : من اليهود والنصارى ، وهذه الأحقية هي في الدنيا ، وقيل : أحق بها في علم الله تعالى ، وقيل : وأهلها في الآخرة بالثواب ، وقيل : الضمير في (وكانوا) عائد على كفار مكة ، لأنهم أهل حرم الله ، ومنهم رسوله لولا ما سلبوا من التوفيق ، (وكان الله بكل شيء عليماً) إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ، ورفع الكفار عنهم ، وإلى علمه بصلح الكفار في الحديبية ، إذ كان سبباً لامتزاج العرب ، وإسلام كثير منهم ، وعلو كلمة الإسلام ، وكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وبعده بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف ، وقال أبو عبد الله الرازي : في هذه الآية لطائف معنوية ، وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، باين بين الفاعلين إذ فاعل (جعل) هو الكفار ، وفاعل (أنزل) هو الله تعالى ، وبين المفعولين ، إذ تلك حمية وهذه سكينة ، وبين الإضافتين ، أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى الله تعالى ، وبين الفعل (جعل) و (أنزل) فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها ، والحمية قبيحة مذمومة في نفسها ، وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية ، والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى ، والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة ، تقول : أكرمني زيد فأكرمته ، فدلت على المجازاة للمقابلة ، ولذلك جعل فأنزل ولما كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح وكان المؤمنون عازمين على القتال وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر ، وأبوا إلا أن يكتبوا محمد رسول الله ـ ﷺ ـ ، وباسم الله قال تعالى (على رسوله) ولما سكن هو ﷺ للصلح سكن المؤمنون فقال (وعلى المؤمنين) ولما كان المؤمنون عند الله تعالى ألزموا تلك الكلمة قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفيه تلخيص وهو كلام حسن . قوله عز وجل .

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود * ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية ، وقال مجاهد : كانت الرؤيا بالحديبية أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت[١] ، وروي : أن رؤياه كانت أن ملكاً جاءه فقال له (لتدخلنّ) الآية ، ومعنى

(١) انظر تفسير مجاهد ٢/٦٠٣ والطبري ١٦/٦٨ والبغوي ٤/٢٠٣ ، ٢٠٤ وابن كثير ٤/٢٠١ والوسيط ٧٦ خ والدر المنثور ٦/٨١ .

(صدق الله) لم يكذبه ، والله تعالى منزه عن الكذب ، وعن كل قبيح ، و (صدق) يتعدى إلى اثنين ، الثاني بنفسه وبحرف الجر ، تقول : صدقت زيداً الحديث وصدقته في الحديث ، وقد عدها بعضهم في أخوات استغفر وأمر ، وقال الزمخشري : فحذف الجار وأوصل الفعل لقوله تعالى ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [الأحزاب ٢٣] انتهى . فدل كلامه على أن أصله حرف الجر ، و (بالحق) متعلق بمحذوف أي صدقاً ملتبساً بالحق . (لتدخلن) اللام جواب قسم محذوف ، ويبعد قول من جعله جواب بالحق ، و (بالحق) قسم لا تعلق له بصدق ، وتعليقه على المشيئة قيل : لأنه حكاية قول الملك للرسول ﷺ ، قاله ابن كيسان ، وقيل : هذا التعليق تأدب بآداب الله تعالى ، وإن كان الموعود به متحقق الوقوع حيث قال تعالى ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف ٢٣] ، ٢٤ ، وقال ثعلب : استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون ، وقال الحسن بن الفضل : كان الله علم أن بعض الذين كانوا بالحديبية يموت فوقع الاستثناء لهذا المعنى ، وقال أبو عبيدة وقوم : إن بمعنى إذ كما قيل في قوله وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وقيل : هو تعليق في قوله (آمنين) لا لأجل إعلامه بالدخول ، فالتعليق مقدم على موضعه ، وهذا القول لا يخرج التعليق عن كونه معلقاً على واجب ، لأن الدخول والأمن أخبر بهما تعالى ، ووقعت الثقة بالأمرين ، وهم الدخول والأمن الذي هو قيد في الدخول ، و (آمنين) حال مقارنة للدخول ، و (محلقين) و (مقصرين) حال مقدرة و (لا تخافون) بيان لكمال الأمن بعد تمام الحج ، ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يستأنف ، واطمأنت قلوبهم ، ودخلوها معه عليه الصلاة والسلام في ذي القعدة سنة سبع ، وذلك ثلاثة أيام هو وأصحابه ، وصدقت رؤياه ﷺ ، (فعلم ما لم تعلموا) أي ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ، ودخول الناس فيه ، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله بهم ، قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : (فعلم ما لم تعلموا) من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل انتهى . ولم يكن فتح مكة في العام القابل ، إنما كان بعد ذلك بأكثر من عام ، لأن الفتح إنما كان سنة ثمان من الهجرة ، (فجعل من دون ذلك) أي من قبل ذلك ، أي من زمان دون ذلك الزمان الذي وعدوا فيه بالدخول (فتحاً قريباً) قال كثير من الصحابة : هذا الفتح القريب هو بيعة الرضوان ، وقال مجاهد وابن إسحاق : هو فتح الحديبية ، وقال ابن زيد : خيبر . وضعف قول من قال إنه فتح مكة ، لأن فتح مكة لم يكن دون دخول الرسول ﷺ وأصحابه مكة ، بل كان بعد ذلك ، (هو الذي أرسل رسوله) فيه تأكيد لصدق رؤياه ﷺ ، وتبشير بفتح مكة لقوله تعالى (ليظهره على الدين كله) وتقدم الكلام على معظم هذه الآية ، (وكفى بالله شهيداً) على أن ما وعده كائن . وعن الحسن : شهيداً على نفسه أنه سيظهر دينك ، والظاهر أن قوله (محمد رسول الله) مبتدأ وخبر ، وقيل : (رسول الله) صفة ، وقال الزمخشري : عطف بيان ، (والذين) معطوف والخبر عنه وعنهم (أشداء) وأجاز الزمخشري : أن يكون (محمد) خبر مبتدأ محذوف أي هو محمد ، لتقدم قوله (هو الذي أرسل رسوله) ، وقرأ ابن عامر في رواية : (رسولَ الله) بالنصب على المدح (والذين معه) هم من شهد الحديبية ، قاله ابن عباس ، وقال الجمهور : جميع أصحابه (أشداء) جمع شديد ، كقوله أعزة على الكافرين (رحماء بينهم) كقوله ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ [المائدة ٥٤] . وكقوله ﴿ واغلظ عليهم ﴾ [التوبة ٧٣] وقوله ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة ١٢٨] ، وقرأ الحسن (أشداء) (رحماءَ) بنصبهما ، قيل : على المدح ، وقيل : على الحال ، والعامل فيهما العامل في معه ، ويكون الخبر عن المبتدأ المتقدم تراهم ، وقرأ يحيى بن يعمر (أَشِدًا) بالقصر ، وهي شاذة لأن قصر الممدود إنما يكون في الشعر نحو قوله : لَا بدَّ مِنْ صَنْعَا وإِنْ طَالَ السَّفَرْ ، وفي قوله (تراهم ركعاً سجداً) دليل على كثرة ذلك منهم ، وقرأ عمرو بن عبيد : (ورُضْوَاناً) بضم الراء ، وقرىء (سِمْيِيَاهُمْ) بزيادة ياء والمد ، وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر قال الشاعر :

غُلَامٌ رَمَاهُ اللّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعاً   لَهُ سِيمِياءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَر[١]

وهذه السيما قال مالك بن أنس : كانت جباههم منيرة من كثرة السجود في التراب[٢] ، وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية : وعد لهم بأن يجعل لهم نوراً يوم القيامة من أثر السجود[٣] ، وقال ابن عباس أيضاً : السمت الحسن وخشوع يبدو على الوجه[٤] ، وقال الحسن ومعمر بن عطية : بياض وصفرة وبهيج يعتري الوجه من السهر[٥] ، وقال عطاء والربيع بن أنس : حسن يعتري وجوه المصلين[٦] ، وقال منصور : سألت مجاهداً هذه السيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال : لا ، وقد تكون مثل ركبة البعير ، وهي أقسى قلباً من الحجارة[٧] ، وقال ابن جبير : ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود ، وقال الزمخشري : المراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجّاد من كثرة السجود ، وقوله (من أثر السجود) يفسرها أي : من التأثير الذي يؤثره السجود ، وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن العباس أبي الملوك يقال له : ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعة منهما أشباه ثفنات البعير . انتهى ، وقرأ ابن هرمز (إِثْر) بكسر الهمزة وسكون الثاء والجمهور بفتحهما ، وقرأ قتادة من (آثار) السجود بالجمع (ذلك) أي ذلك الوصف من كونهم أشداء رحماء مبتغين سيماهم في وجوههم صفتهم في التوراة ، قال مجاهد والفراء : هو مثل واحد ، أي : ذلك صفتهم في التوراة والإنجيل فيوقف على الإنجيل ، وقال ابن عباس : هما مثلان فيوقف على ذلك في التوراة و (كزرع) خبر مبتدأ محذوف أي مثلهم كزرع ، أو هم كزرع ، وقال الضحاك : المعنى ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة ، وتم الكلام ثم ابتدأ (ومثلهم في الإنجيل كزرع) فعلى هذا يكون (كزرع) خبر و (مثلهم) ، وقال قتادة : مثل أصحاب النبي ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبتون نباتاً كالزرع يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله (كزرع أخرج شطأه) كقوله ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء ﴾ [الحجر ٦٦] ، وقال ابن عطية : وقوله (كزرع) هو على كلا الأقوال وفي أي كتاب أنزل فرض مثل للنبي ﷺ وأصحابه ، في أن النبي ﷺ بعث وحده ، فكان كالزرع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل انتهى ، وقال ابن زيد : شطأه فراخه وأولاده ، وقال الزجاج : نباته ، وقال قطرب : شتول السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، قاله الفراء ، وقال الكسائي والأخفش : طرفه ، قال الشاعر :

أَخْرَجَ الشَّطْءَ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى   وَمِنَ الأَشْجَارِ أَفْنَانُ الثَّمَرْ[٨]

وقرأ الجمهور (شطْأه) بإسكان الطاء ، والهمز وابن كثير وابن ذكوان بفتحها ، وكذلك وبالمدّ أبو حيوة وابن أبي عبلة وعيسى الكوفي ، وبألف بدل الهمزة زيد بن علي ، فاحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز فنقل الحركة

---

(١) البيت من الطويل لأسيد بن عنقاء الفزاري ، انظر ديوان الحماسة ٢/٢٥٢ روح المعاني ٢٦/١٢٤ .
(٢) انظر جامع البيان ٢٦/٧٠ والبغوي ٤/٢٠٦ والقرطبي ٧/٦١١٣ وزاد المسير ٧/٤٤٦ وابن كثير ٤/٢٠٤ والوسيط ٧٧ خ .
(٣) المصادر السابقة .
(٤) المصادر السابقة .
(٥) المصادر السابقة .
(٦) المصادر السابقة .
(٧) المصادر السابقة .
(٨) البيت من الرجز لم نهتد لقائله ، انظر القرطبي ١٦/١٩٤ روح المعاني ١٦/١٢٦ فتح القدير ٥/٥٦ والشاهد في استعمال الشطء في الحنطة والشعير وغيرهما .

وأبدل الهمزة ألفا ، كما قالوا في المرأة والكمأة والمراة والكماة ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين ، وهو عند البصريين شاذ لا يقاس عليه ، وقرأ أبو جعفر (شَطَهُ) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء ، ورويت عن شيبة ونافع والجحدري ، وعن الجحدري أيضاً (شَطْوَهُ) بإسكان الطاء وواو بعدها ، وقال أبو الفتح : هي لغة وبدل من الهمزة ، ولا يكون الشط إلا في البر والشعير وهذه كلها لغات ، وقال صاحب اللوامخ : شطأ الزرع وأشطأ إذا أخرج فراخه ، وهو في الحنطة والشعير وغيرهما ، وقرأ ابن ذكوان (فأزره) ثلاثيا وباقي السبعة (فآزَرَهُ) على وزن أفعله وقرىء (فأَزَّرَهُ) بتشديد الزاي ، وقول مجاهد وغيره (آزره) فاعله خطأ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يؤزر على وزن يكرم ، والضمير المنصوب في (آزره) عائد على الزرع ، لأن الزرع أول ما يطلع رقيق الأصل فإذا خرجت فراخه غلظ أصله وتقوى ، وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أقلة ضعفاء فلما كثروا وتقووا قاتلوا المشركين ، وقال الحسن (آزره) قواه وشدّ أزْرَه ، وقال السدي : صار مثل الأصل في الطول ، (فاستغلظ) صار من الرقة إلى الغلظ ، (فاستوى) أي تم نباته ، (على سوقه) جمع ساق كناية عن أصوله ، وقرأ ابن كثير على (سُؤْقِه) بالهمز ، قيل : وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو الذي قبلها ضمة ، ومنه قول الشاعر ، أَحَبُّ الْمُؤْقِدِينَ إِلَيَّ مُؤْسى[1] ، (يعجب الزراع) جملة في موضع الحال ، وإذا أعجب الزراع فهو أحرى أن يعجب غيرهم ، لأنه لا عيب فيه إذ قد أعجب العارفين بعيوب الزرع ، ولو كان معيبا لم يعجبهم ، وهنا تم المثل و (ليغيظ) متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام قبله تقديره جعلهم الله بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ليغيظ بهم الكفار تعليل لماذا ؟ (قلت) : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ، ويجوز أن يعلل به ، (وعد الله الذين آمنوا) لأن الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ، ومعنى (منهم) للبيان كقوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج ٣٠] ، وقال ابن عطية : وقوله (منهم) لبيان الجنس وليست للتبعيض لأنه وعد مدح الجميع ، وقال ابن جرير : يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة ، فأعاد الضمير على معنى الشطء لأعلن لفظه ، والأجر العظيم : الجنة ، وذكر عند مالك بن أنس رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية وقال : من أصبح بين الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية والله الموفق .

---

(١) صدر بيت من الوافر لجرير وروايته في الديوان :

لحب الواقدين إليَّ موسى ... وجعدة لو أضاءهما الوقود

انظر الديوان ١ /٢٢٨ اللسان (سوق) الشاهد فيه (المؤقدين ـ مؤسى) حيث قلبت الواو همزة ساكنة .

سورة الحجرات ثماني عشرة آية مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

التنابز بالألقاب : التداعي بها تفاعل من نبزه ، وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون ، ويقال : النبز والنزب : لقب السوء ، اللقب : هو ما يدعى به الشخص من لفظ غير اسمه وغير كنيته ، وهو قسمان : قبيح : وهو ما يكرهه الشخص لكونه تقصيرا به وذما ، وحسن : وهو بخلاف ذلك ، كالصديق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وأسد الله لحمزة رضي الله تعالى عنهم ، تجسس الأمر : تطلبه وبحث عن خفيه تفعل من الجس ، ومنه الجاسوس وهو الباحث عن العورات ليعلم بها ، ويقال لمشاعر الإنسان الحواس بالحاء والجيم ، الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي ، الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، فالشعب : يجمع القبائل ، والقبيلة : تجمع العمائر ، والعمارة : تجمع البطون ، والبطن : يجمع الأفخاذ ، والفخذ : يجمع الفصائل ، خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ، وروي عن ابن عباس : الشعوب البطون هذا غير ما تمالأ عليه أهل اللغة ، ويأتي خلاف في ذلك عند قوله (وجعلناكم شعوبا) القبيلة : دون الشعب شبهت بقبائل الرأس لأنها قطع تقابلت ، ألَت يألِتُ بضم اللام وكسرها ألتا ، ولات يليت ، وألات يليت ، رباعياً ثلاث لغات حكاها أبو عبيدة ، والمعنى : نقص ، وقال رؤبة :

وَلَيْـلَةٍ ذَات نَـدَى سَـرَيْـتُ　　　وَلَمْ يَلِتني عَنْ سُرَاهَا لَيْتُ[1]

أي : لم يمنعني ولم يحبسني ، وقال الحطيئة :

أَبْلِغْ سَـرَاة بَنِي سَعْـدٍ مُغَلْظَةً　　　جَهْدَ الرِّسَالَةِ لَا أَلْتاً وَلَا كَذِبَا[2]

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ، يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ .

---

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (ليت) المحتسب ٢/٢٩٠ القرطبي ١٦/٢٢٧ فتح القدير ٥/١٦٨ .

(٢) البيت من البسيط ، انظر ديوانه ١٣٥ المحتسب ٢/٢٩٠ اللسان (ألت) الشاهد استعمال (ألتاً) بمعنى النقص .

هذه السورة مدنية ، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه ثم قال (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، وكانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء ، وأن يتكلم كلٌ بما شاء وفعل ما أحب ، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك ، قال قتادة : فربما قال قوم : ينبغي أن يكون كذا لو أنزل في كذا ، وقال الحسن : ذبح قوم ضحايا قبل النبي ﷺ ، وفعل قوم في بعض غزواته شيئاً بآرائهم فنزلت هذه الآية[1] ناهية عن جميع ذلك ، فقال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وتقول العرب تقدمت في كذا وكذا ، وقدمت فيه إذا قلت فيه ، وقرأ الجمهور (لا تُقَدِّمُوا) فاحتمل أن يكون متعدياً وحذف مفعوله ، ليتناول كل ما يقع في النفس مما تقدم ، فلم يقصد لشيء معين بل النهي متعلق بنفس الفعل دون تعرض لمفعول معين ، كقوله فلان يعطي ويمنع ، واحتمل أن يكون لازما بمعنى : تقدم كما تقول وجه بمعنى توجه ، ويكون المحذوف مما يوصل بحرف أي : لا تتقدّموا في شيء ما من الأشياء أو بما يحبون ، ويعضد هذا الوجه قراءة ابن عباس وأبي حيوة والضحاك ويعقوب وابن مقسم (لا تَقَدَّموا) بفتح التاء والقاف والدال على اللزوم ، وحذفت التاء تخفيفاً ، إذ أصله لا تتقدموا ، وقرأ بعض المكيين (تقدموا) بشد التاء أدغم تاء المضارعة في التار بعدها كقراءة البزي ، وقرىء (لا تُقْدِموا) مضارع قدم بكسر الدال من القدوم ، أي : لا تقدموا إلى أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليها ، والمكان المسامت وجه الرجل قريبا منه ، قيل فيه : يدي المجلوس إليه توسعا لما جاور الجهتين من اليمين واليسار ، وهي في قوله (بين يدي الله) مجاز من مجاز التمثيل ، وفائدة تصوير الهجنة والشناعة ، فيها نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاهتداء على أمثلة الكتاب والسنة ، والمعنى لا تقطعوا أمرا إلا بعد ما يحكمان به ، ويأذنان فيه ، فتكونوا عاملين بالوحي المنزل ، أو مقتدين برسول الله ﷺ ، وهذا وعلى مدار تفسير ابن عباس ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يقصه الله على لسان رسوله ﷺ ، وفي هذا النهي توطئه لما يأتي بعد من نهيهم عن رفع أصواتهم ، ولما نهى أمر بالتقوى ، لأن من التقوى اجتناب المنهي عنه ، (إن الله سميع) لأقوالكم (عليم) بنياتكم وأفعالكم ، ثم ناداهم ثانياً تحريكا لما يلقيه إليه ، واستبعاداً لما يتجدد من الأحكام ، وتطرية للإنصات ، ونزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت (لا ترفعوا أصواتكم) أي إذا انطلق ونطقتم (ولا تجهروا له بالقول) إذا كلمتموه ، لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجل ، ولا يكون الكلام مع الرسول ـ ﷺ ـ كالكلام مغ غيره ، ولما نزلت قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لا أكلمك يا رسول الله إلا السرار ، أو أخا السرار حتى ألقى الله[2] . وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار ، لا يسمعه حتى يستفهمه[3] . وكان أبو بكر إذا قدم على الرسول ـ ﷺ ـ قوم أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ[4] ، ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم ، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء ، لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفراً ، والمخاطبون مؤمنون ، (كجهر بعضكم لبعض) أي في عدم المبالاة وقلة الاحترام ، فلم ينهوا إلا

---

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ٣/١٠٦٧ والطبري ٢٦/٧٤ البغوي ٤/٢٠٩ والقرطبي ٧/١٢١ وزاد المسير ٧/٤٥٤ .

(٢) انظر زاد المسير ٧/٤٥٧ والبغوي ٤/٢١٠ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٧/١٠٨ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٢/٤٦٢ وفتح الباري ٨/٥٩١ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

(٣) انظر زاد المسير ٧/٤٥٧ والبغوي ٤/٢١٠ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٧/١٠٨ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٢/٤٦٢ وفتح الباري ٨/٥٩١ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

(٤) انظر زاد المسير ٧/٤٥٧ والبغوي ٤/٢١٠ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٧/١٠٨ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٢/٤٦٢ وفتح الباري ٨/٥٩١ والوسيط ٧٨، ٧٩ خ .

عن جهر مخصوص ، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر رسول الله ـ ﷺ ـ وبحضرة العالم ، وفي المساجد وعن ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر ، وكان جهير الصوت ، وحديثه في انقطاعه في بيته أياماً بسبب ذلك مشهور ، وأنه قال : يا رسول الله لما أنزلت خفت أن يحبط عملي ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ إنك من أهل الجنة وقال له مرة : أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتموت شهيدا ؟ فعاش كذلك ، ثم قتل باليمامة ـ رضي الله تعالى عنه ـ يوم مسيلمة ، (أن تحبط أعمالكم) إن كانت الآية معرضة بمن يجهر استخفافاً فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة ، وإن كانت للمؤمن الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على عادته فإنما يُحبِطُ عَمَلُهُ البرَّ في توقير النبي ـ ﷺ ـ ، وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك كأنه قال : مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها ، و (أن تحبط) مفعول له ، والعامل فيه (ولا تجهروا) على مذهب البصريين في الاختيار ، و (لا ترفعوا) على مذهب الكوفيين في الاختيار ، ومع ذلك فمن حيث المعنى حبوط العمل علة في كل من الرفع والجهر ، وقرأ عبد الله وزيد بن علي (فَتَحْبَطَ) بالفاء ، وهو مسبب عن مقاماً قبله ، (إن الذين يغضون أصواتهم) قيل : نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لما كأن منهما من غض الصوت[1] ، والبلوغ به أخا السرار (امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي : جربت ودربت للتقوى ، فهي مضطلعة بها ، أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأن تحقيق الشيء باختباره ، أي : عرف قلوبهم كائنة للتقوى ، فـ (للتقوى) في موضع الحال ، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن لأجل التقوى ، أي : لتثبت وتظهر تقواها ، وقيل : أخلصها للتقوى ، من قولهم امتحن الذهب وفتنه إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ، وجاءت في هذه الآية (إن) مؤكدة لمضمون الجملة ، وجعل خبرها جملة من اسم الإشارة الدال على التفخيم والمعرفة بعدم جائياً بعدها ذكر جزائهم على غض أصواتهم ، وكل هذا دليل على أن الارتضاء بما فعلوا من توقير النبي ـ ﷺ ـ بغض أصواتهم ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب رافعو أصواتهم ، واستيجابهم ضد ما استوجبه هؤلاء ، (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) نزلت في وفد بني تميم الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الاهتم وغيرهم ، وفدوا ودخلوا المسجد وقت الظهيرة والرسول ـ ﷺ ـ راقد ، فجعلوا ينادونه بجملتهم يا محمد اخرج إلينا ، فاستيقظ فخرج ، فقال له الأقرع بن حابس : يا محمد إن مدحي زين وذمي شين ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : « ويلك ذلك الله تعالى » ، فاجتمع الناس في المسجد فقالوا : نحن بني تميم بخطيبنا وشاعرنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ، ولكن هاتوا » ، فقال الزبرقان لشاب منهم : فحر واذكر فضل قومك ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه ، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء ، فنحن من خير أهل الأرض ، من أكثرهم عدداً ومالاً وسلاحاً ، فمن أنكر علينا فليأت بقول هو أحسن من قولنا ، وفعل هو أحسن من فعلنا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لثابت بن قيس بن شماس ـ وكان خطيبه ـ : « قم فأجبه » ، فقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوها ، وأعظمهم أحلاماً ، فأجابوه ، والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه ، ووزراء رسوله ، وعزاً لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع نفسه وماله ، ومن أباها قتلناه ، وكان رغمه علينا هيناً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . وقال الزبرقان لشاب : قم فقل أبياتا تذكر فيها فضل قومك ، فقال :

نَحْنُ الْكِرَامَ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... فِينَا الرؤوسُ وفِينَا يُقْسَمُ الرُّبُعُ
وَنُطْعِمُ الناسَ عِنْدَ الْقَحْطِ كُلَّهُمُ ... مِنَ السَّدِيفِ إذَا لَمْ يُؤْنَس الْفَزَعُ

---

(١) انظر زاد المسير ٧/٤٥٧ والبغوي ٤/٢١٠ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٧/١٠٨ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٢/٤٦٢ وفتح الباري ٨/٥٩١ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

إِذَا أَبَيْنَـا فَلاَ يَـأْبَى لَنَا أَحَـدٌ ... إِنَّـا كَذَلِـكَ عِنْـدَ الْفَخْـرِ نَـرْتَفِـعُ

فأمر النبي ـ ﷺ ـ فدعا حسان بن ثابت فقال له : أعد لي قولك فأسمعه ، فأجابه :

إِنَّ الـذَّوَائِبَ مِنْ فِهْـرٍ وَإِخْـوَتِهِمْ ... قَدْ شَـرَّعُـوا سُنَّـةً لِلنَّـاسِ تُتَّبَـعُ
يُوصِي بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْـوَى الإِلَـهِ فَكُـلُّ الْخَيْـرِ يُـطَّلَعُ

ثم قال حسان في أبيات :

نَصَـرْنَا رَسُـولَ اللهِ وَالدِّينَ عَنْـوَةً ... عَلَى رُغْمِ غَابٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ
بِضَرْبٍ كَأَنْوَاعِ الْمَخَاضِ مُشَاشُهُ ... وَطَعْنٍ كَـأَفْوَاهِ اللِّقَـاحِ الْمَصَـادِرِ
وَسَلْ أُحُداً يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ جُمُوعُهُمْ ... بِضَرْبٍ لَنَا مِثْلَ اللُّيوثِ الْخَـوَادِرِ
أَلَسْنَا نَخُوضُ الْمَوْتَ فِي حَوْمَةِ الوغى ... إِذَا طَابَ وِرْدُ الْمَوْتِ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ
فَنَضْرِبُ هَاماً بِالـذِّرَاعَيْنِ نَنْتَمِي ... إِلَى حَسَبٍ مِنْ جِذْعِ غَسَّانَ زَاهِرِ
فَلَوْلاَ حَيَـاءُ اللهِ قُلْنَـا تَكَـرُّمـاً ... عَلَى النَّاسِ بِالْحَقَّينِ هَلْ مِنْ مُنَافِرِ
فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِيءَ الْحَصَا ... وَأَمْـوَاتُنَا مِنْ خَيْـرِ أَهْلِ الْمَقَـابِـرِ

قال فقام الأقرع بن حابس فقال : إني والله لقد جئت لأمر وقد قلت شعراً فاسمعه وقال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْـرِفَ النَّاسُ فَضْلَنَـا ... إِذَا خَـالَفُونَـا عِنْدَ ذِكْـرِ الْمَكَارِمِ
وَإِنَّا رُؤُوسُ النَّاسِ فِي كُـلِّ غَارَةٍ ... تَكُـونُ بِنَجْدٍ أَوْ بِـأَرْضِ التَّهَائِمِ
وَإِنَّ لَنَـا الْمِرْبَـاعَ فِي كُلِّ مَعْشَـرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ

فقال النبي ـ ﷺ ـ لحسان قم فأجبه فقام ، وقال :

بَنِي دَارِمٍ لاَ تَفْخَـرُوا إِنَّ فَخْرَكُمْ ... يَصِيـرُ وَبَالاً عِنْـدَ ذِكْرِ الْمَكَـارِمِ
هَبِلْتُم عَلَيْـنَـا تَفْـخَـرُونَ وَأَنْتُـمُ ... لَنَا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وَخَادِمِ (١)

فقال النبي ـ ﷺ ـ «لقد كنت غنياً يا أخا دارم(٢) أن يذكر منك ما ظننت أنَ الناس قد نسوه » فكان قوله عليه الصلاة والسلام أشد عليهم من جميع ما قاله حسان ، ثم رجع حسان إلى شعره فقال :

فَـإِنْ كُنْتُمُ جِئْتُمْ لَحِقْنِ دِمَـائِكُمْ ... وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَـلاَ تَجْعَلُوا للهِ نِـدّاً وَأَسْلِمُــوا ... وَلاَ تَفْخَـرُوا عِنْـدَ النَّبِيِّ بِـدَارِمِ
وَإِلاَّ وَرَبِّ الْبَيْتِ قَـدْ مَالَتِ الْقَنَـا ... عَلَى هَامِكُمْ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ (٣)

---

(١) انظر ديوان حسان (٢٢٧) .

(٢) الحديث في جامع المسانيد ٢/٣٢٦ .

(٣) انظر ديوان حسان ٢٢٧ .

فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً ، ثم دنا من رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « ما يضرك ما كان قبل هذا » ، ثم أعطاهم وكساهم ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، وذلك أن المناداة من وراء الحجرات فيها رفع الصوت ، وإساءة الأدب ، والله قد أمر بتوقير رسوله وتعظيمه ، والوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص من خلف أو قدام و (مِنْ) لابتداء الغاية ، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : أفرق بين الكلامين ، بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه ، (قلت) : الفرق بينهما أن المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني لا يجوز ، لأن الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن يكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد ، والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار ، لا يريد وجه الدار ولا دبرها ، ولكن أن قطر من أقطارها كان مطلقاً بغير تعيين ولا اختصاص انتهى ، وقد أثبت أصحابنا في معاني (من) أنها تكون لابتداء الغاية وانتهائها في فعل واحد ، وأن الشيء الواحد يكون محلاً لهما ، وتأولوا ذلك على سيبويه وقالوا من ذلك قولهم : أخذت الدرهم من زيد ، فزيد محل لابتداء الأخذ منه وانتهائه معاً ، قالوا : فمن تكون لابتداء الغاية فقط في أكثر المواضع ، وفي بعض المواضع لابتداء الغاية وانتهائها معاً ، وهذه المناداة التي أنكرت ليس إنكارها لكونها وقعت في أدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر ذلك لأنهم نادوه من خارج ، مناداة الأجلاف التي ليس فيها توقير ، كما ينادي بعضهم بعضاً ، و (الحجرات) منازل الرسول ـ ﷺ ـ ، وكانت تسعة ، والحجرة : الرفعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وحظيرة الإبل تسمى حجرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة ، وقرأ الجمهور (الحُجُرات) بضم إتباعا للضمة قبلها ، وأبو جعفر وشيبة بفتحها ، وابن أبي عبلة بإسكانها ، وهي لغى ثلاث في كل فعلة بشرطها المذكور في علم النحو ، والظاهر أن من صدر منه النداء كانوا جماعة ، وذكر الأصم : أن من ناداه كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، فإن صح ذلك كان الإسناد إلى الجماعة لأنهم راضون بذلك ، وإذا كانوا جماعة احتمل أن يكونوا تفرقوا ، فنادى بعض من وراء هذه الحجرة ، وبعض من وراء هذه ، أو نادوه مجتمعين من وراء حجرة حجرة ، أو كانت الحجرة واحدة ، وهي التي كان فيها الرسول ﷺ ، وجمعت إجلالاً له ، وانتفاء العقل عن أكثرهم دليل على أن فيهم عقلا ، وقال الزمخشري : ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل فإن القلة تقعُ موقع النفي في كلامهم انتهى . وليس في الآية الحكم بقلة العقل منطوقاً به فيحمل النفي ، وإنما هو مفهوم من قوله أكثرهم لا يعقلون ، والنفي المحض المستفاد إنما هو من صريح لفظ التقليل ، لا من المفهوم ، فلا يحمل قوله (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) النفي المحض للشكر ، لأن النفي لم يستفد من صريح التقليل ، وهذه الآية سجلت على الذين نادوه بالسفه والجهل ، وابتدأ أول السورة بتقديم الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى ورسوله على الأمور كلها ، ثم ما نهى عنه من التقديم بالنهي عن رفع الصوت والجهر ، فكان الأول بساطاً للثاني ، ثم يلي بما هو ثناء على الذين امتنعوا من ذلك ، فغضوا أصواتهم دلالة على عظم موقعه عند الله تعالى ، ثم جيء على عقبه بما هو أفظع وهو الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرمه من وراء الجدار ، كما يصاح بأهون الناس ليلبيه على فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء معه من المنكر المتفاحش ، ومن هذا وأمثاله تقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد ، ومحله من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال : ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه ، (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) ، قال الزمخشري : (أنهم صبروا) في موضع الرفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم انتهى ، وهذا ليس مذهب سيبويه أن (أنَّ) وما بعدها بعد لو في موضع مبتدأ لا في موضع فاعل ، ومذهب المبرد أنها في موضع فاعل بفعل محذوف كما زعم الزمخشري ، واسم كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من (صبروا) ، أي

لكان هو أي : صبرهم خيراً لهم ، وقال الزمخشري : في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو انتهى لأنه قدر أن وما بعدها فاعل بفعل مضمر ، فأعاد الضمير على ذلك الفاعل ، وهو الصبر المنسبك من أن ومعمولها (خيراً لهم) في الثواب عند الله ، وفي انبساط نفس الرسول ﷺ ، وقضائه لحوائجهم ، وقد قيل : إنه جاؤوا في أسارى فأعتق رسول الله ﷺ النصف وفادى على النصف ، ولو صبروا لأعتق الجميع بغير فداء ، وقيل : لكان صبرهم أحسن لأدبهم ، (والله غفور رحيم) لن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا ، (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة) الآية حدث الحرث بن ضرار قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام ، فأسلمت ، وإلى الزكاة ، فأقررت بها ، فقلت : أرجع إلى قومي وأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن أجابني جمعت زكاته ، فترسل من يأتيك بما جمعت ، فلما جمع ممن استجاب له ، وبلغ الوقت الذي أراد الرسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، واحتبس عليه رسول الله ﷺ ، قال لسروات قومه : كان رسول الله ﷺ وقت لي وقتاً إلى من يقبض الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس الرسول إلا من سخطه ، فانطلقوا بها إليه ، وكان عليه السلام بعث الوليد بن الحرث ، ففرق فرجع فقال : منعني الحرث الزكاة ، وأراد قتلي ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحرث ، فاستقبل الحرث البعث وقد فصل من المدينة فقالوا : هذا الحرث فقال : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك ، قال : ولم ؟ فقالوا : بعث إليك الوليد فرجع وزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ، قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيت رسولك ، ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولك ، خشية أن يكون سخطة من الله ورسوله ، قال : فنزلت هذه الآية[1] و (فاسق) و (بنبأ) مطلقان ، فيتناول اللفظ كل واحد على جهة البدل ، وتقدم قراءة (فتبينوا) و (فتثبتوا) في سورة النساء ، وهو أمر يقتضي أن لا يعتمد على كلام الفاسق ، ولا يبنى عليه حكم ، وجاء الشرط بحرف إن المقتضى للتعليق في الممكن ، لا بالحرف المقتضي للتحقيق ، وهو « إذ » لأن مجيء الرجل الفاسق للرسول وأصحابه بالكذب إنما كان على سبيل الندرة ، وأمروا بالتثبت عند مجيئه لئلا يطمع في قبول ما يلقيه إليهم ونبا ما يترتب على كلامه ، فإذا كانوا بمثابة التبين والتثبت كف عن مجيئهم بما يريد ، (أن تصيبوا) مفعول له أي كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا ، (بجهالة) حال أي : جاهلين بحقيقة الأمر ، معتمدين على خبر الفاسق (فتصبحوا) فتصيروا على ما فعلتم ، من إصابة القوم بعقوبة بناء على خبر الفاسق (نادمين) مغتمين على ما فرط منكم متمنين أنه لم يقع ، ومفهوم (إن جاءكم فاسق) قبول كلام غير الفاسق ، وأنه لا يتثبت عنده ، وقد يستدل به على قبول خبر الواحد العدل ، وقال قتادة لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان[2] ، وقال مقلد بن سعيد : هذه الآية ترد على من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة ، لأن الله تعالى أمر بالتبين قبل القبول انتهى . وليس كما ذكر ، لأنه ما أمر بالتبين إلا عند مجيء الفاسق ، لا مجيء المسلم ، بل بشرط الفسق ، والمجهول الحال يحتمل أن يكون فاسقا ، فالاحتياط لازم ، (واعلموا أن فيكم رسول الله) هذا توبيخ لمن يكذب للرسول عليه الصلاة والسلام ، ووعيد بالنصيحة ، ولا يصدر ذلك إلا ممن هو شاك في الرسالة ، لأن الله تعالى لا يترك نبيه ﷺ يعتمد على خبر الفاسق ، بل بين له ذلك ، والظاهر أن قوله (واعلموا أن فيكم رسول الله) كلام تام ، أمرهم بأن يعلموا أن الذي هو بين ظهرانيكم هو رسول الله ﷺ ، فلا تخبروه بما لا يصح ، فإنه رسول الله يطلعه على ذلك ، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ لو أطاعكم في كثير من الأمر الذي يؤدي إليه اجتهادكم وتقدمكم بين يديه (لعنتم)

---

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ٣/١٠٦٩ والطبري ٢/٧٨ وأسباب النزول للواحدي ص ٤١٣ ، ٤١٤ ومسند الإمام أحمد ٤/٢٧٩ وابن كثير ٤/٢١٠ والدر المنثور ٦/٨٩ والوسيط ٧٩ خ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١/١٠٤ والطبري في التفسير ٢٦/٧٩ وابن عدي في الكامل ٤/١٤٧٣ وأخرجه الترمذي في السنن بلفظ الاناة رقم (٢٠١٢) والبغوي في شرح السنة ١٣/١٧٦ والطبراني في الكبير ٦/١٤٨ .

أي : لشق عليكم ، وقال مقاتل : لأثمتم ، وقال الزمخشري : والجملة المصدرة بلو لا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، ولكن متصلاً بما قبله ، حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور ، وكلاهما مذهب سديد ، والمعنى أن فيكم رسول الله ، وأنتم على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهو أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي ، واستصواب فعل المطواع لغيره ، والتابع له فيما يرتئيه المحتذي على أمثلته ، ولو فعل ذلك لعنتم أي : لوقعتم في الجهد والهلاك ، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق ، وتصديق قول الوليد ، وأن نظائر ذلك من الهنات كانتْ تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم في التقوى ، عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) أي إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ، ولمحاته اللطيفة ، التي لا يفطن إليها إلا الخواص ، وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى انتهى ، وفيه تكثير ، ولا بعد أن تكون الجملة المصدرة بلو مستأنفة لا حالاً ، فلا تعلق لها بما قبلها من جهة الإعراب ، وتقديم خبر (أن) على اسمها قصد إلى توبيخ بعض المؤمنين ، على ما استهجن من استتباعهم رأي الرسول ـ ﷺ ـ لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه ، وقيل : (يطيعكم) دون أطاعكم للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عملهم على ما يستصوبونه ، وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه ، بدليل قوله (في كثير من الأمر) وشريطة (لكن) مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم ، فوقعت (لكن) في حاق موقعها من الاستدراك انتهى ، وهو ملتقط من كلام الزمخشري ، وقال الزمخشري أيضاً : ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق ، وسبيله الكناية كما سبق ، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغْيا عليه أن الرجل لا يمدح بفعل غيره ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله ، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ [آل عمران ١٨٨] انتهى ، وهي على طريق الاعتزال ، وعن الحسن : حبب الإيمان بما وصف من الثناء عليه ، وكره الثلاثة بما وصف من العقاب انتهى . (أولئك هم الراشدون) التفات من الخطاب إلى الغيبة ، (فضلاً من الله ونعمة) ، قال ابن عطية : مصدر مؤكد لنفسه ، لأن ما قبله هو بمعناه إذ التحبيب والتزيين هو نفس الفضل ، وقال الحوفي ، فضلاً نصب على الحال . انتهى . ولا يظهر هذا الذي قاله ، وقال أبو البقاء : مفعول له ، أو مصدر في معنى ما تقدم ، وقال الزمخشري : (فضلاً) مفعول له : أو مصدر من غير فعله ، (فإن قلت) : من أين جاز وقوعه مفعولاً له ، والرشد فعل القوم ، والفضل فعل الله تعالى ، والشرط أن يتحد الفاعل ؟ قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه ولا ينتصب عن (الراشدون) ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى ، والجملة التي هي (أولئك هم الراشدون) اعتراض ، أو عن فعل مقدر ، كأنه قيل : جرى ذلك ، أو كان ذلك فضلاً من الله ، وأما كونه مصدراً من غير فعله فأن يوضع موضع رشداً لأن رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه ، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام . (والله عليم) بأحوال المؤمنين ، وما بينهم من التمايز والتفاضل . (حكيم) حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم انتهى . أما توجيهه كون (فضلاً) مفعولاً من أجله فهو على طريق الاعتزال ، وأما تقديره : أو كان ذلك فضلاً فليس من مواضع إضمار كان ، ولذلك شرط مذكور في النحو .

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ

خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توّاب رحيم ﴾ .

سبب نزولها : ما جرى بين الأوس والخزرج حين أساء الأدب عبد الله بن أبيّ بن سلول على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عبادة في موضعه ، وتعصب بعضهم لعبد الله ، ورد عبد الله بن رواحة على ابن أبيّ فتجالد الحيان . قيل : بالحديد . قيل : بالجريد والنعال والأيدي ، فنزلت ، فقرأها عليهم فاصطلحوا[١] وقال السدّي : وكانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها : أم بدر ، وكان لها زوج من غيرهم ، فوقع بينهم شيء أوجب أن يأنف لها قومها ، وله قومه ، فوقع قتال ، فنزلت الآية بسببه[٢] . وقرأ الجمهور (اقتتلوا) جمعاً حملاً على المعنى ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . وقرأ ابن أبي عبلة (اقتتلتا) على لفظ التثنية ، وزيد بن عليّ وعبيد بن عمير (اقتتلتا) على التثنية مراعي بالطائفتين الفريقان (اقتتلوا) وكل واحد من الطائفتين باغ ، فالواجب السعي بينهما بالصلح ، فإن لم تصطلحا وأقامتا على البغي قوتلتا ، أو لشبهة دخلت عليهما وكل منهما يعتقد أنه على الحق فالواجب إزالة الشبه بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، فإن لجأ فكالباغيتين (فإن بغت إحداهما) فالواجب أن تقاتل حتى تكف عن البغي ، ولم تتعرض الآية من أحكام التي تبغي لشيء إلا لقتالها ، وإلى الإصلاح (إن فاءت) والبغي هنا طلب العلو بغير الحق ، والأمر في (فأصلحوا) و (قاتلوا) هو لمن له الأمر من الملوك وولاتهم . وقرأ الجمهور (حتى تفيء) مضارع فاء بفتح الهمزة ، والزهري (حتى تفي) بغير همزة وفتح الياء ، وهذا شاذ ، كما قالوا في مضارع جاء يجي بغير همز ، فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء أجروه مجرى يفي مضارع وفي شذوذاً ، (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) أي : إخوة في الدين . وفي الحديث : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله . وقرأ الجمهور (بين أخويكم) مثنى ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا كان الإصلاح لازماً بين اثنين فهو ألزم بين أكثر من اثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن بخلاف عنه ، والجحدري وثابت البناني وحماد بن سلمة وابن سيرين (بين إخوانكم) جمعاً بالألف والنون ، والحسن أيضاً وابن عامر في رواية وزيد بن عليّ ويعقوب (بين إخوتكم) جمعاً على وزن غلمة . وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو القراءات الثلاث ، ويغلب الاخوان في الصداقة والإخوة في النسب ، وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر ، ومنه ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات ١٠] قوله : ﴿ أو بيوت إخوانكم ﴾ [النور ٦١] ، (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) هذه الآية والتي بعدها تأديب للأمّة ، لما كان فيه أهل الجاهلية من هذه الأوصاف الذميمة التي وقع النهي عنها . وقيل : نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل ، كان يمشي بالنميمة ، وقد أسلم ، فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأمة ، فعز ذلك عليه وشكاهم ، فنزلت و (قوم) مرادف رجال ، كما قال تعالى ﴿ الرّجال قوّامون على النساء ﴾ [النساء ٣٤] ولذلك قابله هنا بقوله (ولا نساء من نساء) وفي قول زهير :

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إخَالُ أَدْرِي ... أَقَـوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَـاءُ[٣]

وقال الزمخشري : وهو في الأصل جمع قائم ، كصوم وزور في جمع صائم وزائر انتهى . وليس فعل من أبنية الجموع

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٣ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٣ .

(٣) تقدم .

إلا على مذهب أبي الحسن في قوله : إن ركباً جمع راكب . وقال أيضاً الزمخشري : وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد هم الذكور والإناث فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن انتهى . وغيره يجعله من باب التغليب ، والنهي ليس مختصاً بأنصابه على (قوم) و (نساء) بقيد الجمعية من حيث المعنى ، وإن كان ظاهر اللفظ ذلك ، بل المعنى : لا يسخر أحد من أحد ، وإنما ذكر الجمع والمراد به كل فرد فرد ممن يتناوله عموم البدل ، فكأنه إذا سخر الواحد كان بمجالسه ناس يضحكون على قوله ، أو بلغت سخريته ناساً فضحكوا فينقلب الحال إلى جماعة (عسى أن يكونوا) أي : المسخور منهم (خيراً منهم) أي : من الساخرين بهم ، وهذه الجملة مستأنفة وردت مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه ، أي : ربما يكون المسخور منه عند الله خيراً من الساخر ، لأن العلم بخفيات الأمور إنما هو لله تعالى . وعن ابن مسعود : لو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلباً ، (ولا نساء من نساء) ، روي أن عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها ، فقالت عائشة لحفصة : انظري إلى ما يجر خلفها كأنه لسان كلب . وعن عائشة : أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة . وعن أنس : كان نساء النبي ـ ﷺ ـ يعيرن أم سلمة بالقصر[١] . وقالت صفية لرسول الله ـ ﷺ ـ « يعيرنني ويقلن ، يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت : إن أبي هارون وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد »[٢] . وقرأ عبد الله وأبي (عسوا أن يكونوا) و (عسين أن يكن) فعسى ناقصة ، والجمهور (عسى) فيهما تامّة ، وهي لغتان : الإضمار لغة تميم ، وتركه لغة الحجاز ، (ولا تلمزُوا أنفسكم) ضم الميم في (تَلْمُزُوا) الحسن والأعرج وعبيد عن أبي عمرو . وقال أبو عمر : وهي عربية ، والجمهور بالكسر واللمز بالقول والإشارة ونحوه مما يفهمه آخر ، والهمز لا يكون إلا باللسان ، والمعنى : لا يعب بعضكم بعضاً ، كما قال (فاقتلوا أنفسكم) البقرة ٥٤ كأن المؤمنين نفس واحدة ، « إذ هم إخوة كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، « وكالجسد إذ اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى » ، ومفهوم (أنفسكم) أن له أن يعيب غيره مما لا يدين بدينه . ففي الحديث « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » . وقيل : المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به ، لأن من فعل ما استحق اللمز فقد لمز نفسه (ولا تنابزوا بالألقاب) اللقب إن دل على ما يكرهه المدعو به كان منهياً ، وأما إذا كان حسناً فلا ينهى عنه ، وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير . وروي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فنزلت الآية بسبب ذلك . وفي الحديث « كنوا أولادكم » . قال عطاء : مخافة الألقاب . وعن عمر : أشيعوا الكنى فإنها سنة انتهى ، ولا سيما إذا كانت الكنية غريبة لا يكاد يشترك فيه أحد مع من تكنى بها في عصره ، فإنه يطير بها ذكره في الآفاق وتتهادى أخباره الرفاق ، كما جرى في كنيتي بأبي حيان ، واسمي محمد ، فلو كانت كنيتي أبا عبد الله ، أو أبا بكر مما يقع فيه الاشتراك لم أشتهر تلك الشهرة ، وأهل بلادنا جزيرة الأندلس كثيراً ما يلقبون الألقاب حتى قال فيهم أبو مروان الطنبي :

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ مَا عِنْدَكُمْ أَدَبٌ ... بِالْمَشْرِقِ الأَدَبُ النَّفَّاحُ بِالطِّيبِ
يُدْعَى الشَّبَابُ شُيُوخاً فِي مَجَالِسِهِمْ ... وَالشَّيْخُ عِنْدَكُمُ يُدْعَى بِتَلْقِيبِ[٣]

فمن علماء بلادنا وصالحيهم من يدعى الواعي وباللص ، وبوجه نافخ ، وكل هذا يحرم تعاطيه . قيل : وليس من هذا قول المحدثين : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب ، ونحوه مما تدعو الضرورة إليه ، وليس فيه قصد استخفاف ولا

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٥ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٥ .

(٣) انظر الدر اللقيط ٨/١١٣ .

ذى ، قالوا : وقد قال ابن مسعود لعلقمة : وتقول أنت ذلك يا أعور[١] . وقال ابن زيد : أي : لا يقول أحد لأحد يا يهودي بعد إسلامه ، ولا يا فاسق بعد توبته ونحو ذلك[٢] ، وتلاحى ابن أبي حدرد وكعب بن مالك فقال له مالك : يا أعرابي يريد أن يبعده من الهجرة ، فقال له الآخر : يا يهودي يريد المخاطبة لليهود في يثرب[٣] . (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أي : بئس اسم تنسبونه بعصيانكم نبزكم بالألقاب فتكونون فسّاقاً بالمعصية بعد إيمانكم ، أو بئس ما يقوله الرجل لأخيه : يا فاسق بعد إيمانه . وقال الرماني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان انتهى . وقال الزمخشري : نحو قول الرماني . قال : استقباح الجمع بعد الإيمان والفسق الذي يأباه الإيمان ، وهذه نزعة اعتزالية . وقال الزمخشري : الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه في الناس بالكرم ، أو باللوم كما يقال طار ثناؤه وصيته ، وحقيقة ما سمي من ذكره وارتفع بين الناس ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن تذكروا بالفسق . (ومن لم يتب) أي : عن هذه الأشياء (فأولئك هم الظالمون) تشديد وحكم بظلم من لم يتب (اجتنبوا كثيراً من الظن) أي : لا تعملوا على حسبه ، وأمر تعالى باجتنابه لئلا يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن المحكوم عليه بأنه إثم ، وتمييز المجتنب من غيره أنه لا يعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر ، كمن يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث ، كالدخول والخروج إلى حانات الخمر وصحبة نساء المغاني وإدمان النظر إلى المرد ، فمثل هذا يقوي الظن فيه أنه ليس من أهل الصلاح ، ولا إثم فيه[٤] وإن كنا لا نراه يشرب الخمر ، ولا يزني ، ولا يعبث بالشبان ، بخلاف من ظاهره الصلاح فلا يظن به السوء ، فهذا هو المنهي عنه ، ويجب أن يزيله والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ، وقال الزمخشري : والهمزة فيه بدل عن الواو ، كأنه يثم الأعمال أي : يكسرها بإحباطه ، وهذا ليس بشيء ، لأن تصريف هذه الكلمة مستعمل فيه الهمز ، تقول : أثم يأثم فهو آثم ، والإثم ، والآثام ، فالهمزة أصل وليست بدلاً عن واو ، وأما يثم فأصله : يوثم ، وهو من مادة أخرى ، وقيل : الإثم متعلق بتكلم الظان أما إذا لم يتكلم فهو في فسحة ، لأنه لا يقدر على رفع الخواطر التي يبيحها قول النبي ـ ﷺ ـ « الحزم سوء الظن » ، وقرأ الجمهور (ولا تَجَسَّسُوا) بالجيم ، وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء ، وهما متقاربان ، نهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه ، وقيل : لابن مسعود ، هل لك في فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به ، وفي الحديث « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » وقد وقع عمر ـ رضي الله عنه ـ في حراسته على من كان في ظاهره ريبة ، وكان دخل عليه هجماً ، فلما ذكر له نهي الله تعالى عن التجسس انصرف عمر ، (ولا يغتب بعضكم بعضاً) يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله ، والغيبة من الاغتياب ، كالغيلة من الاغتيال . وهي ذكر الرجل بما يكره مما هو فيه ، وفي الحديث : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ ما الغيبة ؟ فقال : «أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع ، فقال : يا رسول الله وإن كان حقاً . قال : رسول الله ـ ﷺ ـ إذا قلت باطلاً فذلك البهتان »[١] وفي الصحيحين « فقد بهته »[٥] ، وقال ابن عباس : الغيبة إدام كلاب الناس . وقالت عائشة عن امرأة : ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة ، فقال لها النبي ـ ﷺ ـ . اغتبتيها ، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرتيه . وحكى الزهراوي عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « الغيبة أشد من الزنا »[٦] لأن الزاني يتوب الله عليه ، والذي يغتاب فلا يتاب عليه حتى يستحل ،

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٦ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٦ .

(٣) انظر البغوي ٤/٢١٦ .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ٩٨٧ وابن عبد البر في تجريد التمهيد ص ٢٠٣ (٦٨٧) .

(٥) أخرجه مسلم ٤/٢٠٠١ كتاب البر باب تحريم الغيبة (٧٠ ـ ٢٥٨٩) والبغوي في شرح السنة ١٣/١٣٩ (٣٥٦١) .

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٨/٩٤ وعزاه للطبراني في الأوسط، وقال: فيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك .

وعرض المسلم مثل دمه في التحريم » . وفي الحديث المستفيض « فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم » ، ولا يباح من هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه ، من تخريج الشهود والرواة ، والخطاب إذا استنصح من يخطب إليه من يعرفهم ، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ، ومنه :

وَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ

(أيحب أحدكم) قال الزمخشري : تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً انتهى . وقال الرماني : كراهية هذا اللحم يدعو إليه الطبع ، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحق أن يجاب ، لأنه بصير عالم والطبع أعمى جاهل انتهى ، وقال أبو زيد السهيلي ، ضرب المثل لأخذه العرض بأكل اللحم ، لأن اللحم ستر على العظم ، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر ، وقال تعالى (ميتاً) لأن الميت لا يحس ، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب ، ثم هو في التحريم كأكل لحم الميت انتهى . وروى في الحديث « ما صام من أكل لحوم الناس » وقال أبو قلابة الرياشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحداً منذ عرفت ما في الغيبة . وقيل لعمر بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك قال : إياه فارحموا ، وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ، قال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي وانتصب (ميتاً) على الحال من لحم ، وأجاز الزمخشري أن ينتصب عن الأخ ، وهو ضعيف ، لأن المجرور بالإضافة لا يجيء الحال منه إلا إذا كان له موضع من الإعراب ، نحو : أعجبني ركوب الفرس مسرجاً ، وقيام زيد مسرعاً ، فالفرس في موضع نصب ، وزيد في موضع رفع ، وقد أجاز بعض أصحابنا أنه إذا كان الأول جزءاً أو كالجزء جاز انتصاب الحال من الثاني ، وقد رددنا عليه ذلك فيما كتبناه في علم النحو ، (فكرهتموه) قال الفراء : أي : فقد كرهتموه فلا تفعلوه ، وقيل : لما وقفهم على التوبيخ بقوله : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) فأجاب عن هذا ، لأنهم في حكم من يقولها ، فخوطبوا على أنهم قالوا : لا فقيل لهم : فكرهتموه ، وبعد هذا يقدر ؛ فلذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك ، وعلى هذا التقدير يعطف قوله (واتقوا الله) قاله أبو علي الفارسي ، وفيه عجرفة العجم ، وقال الزمخشري : ولما قررهم عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله : (فكرهتموه) أي : فتحققت بوجوب الإقرار عليكم بأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية . عليكم أن تجحدوا كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين انتهى . وفيه أيضاً عجرفة العجم . والذي قدره الفراء أسهل وأقل تكلفاً وأجرى على قواعد العربية . وقيل : لفظه خبر ومعناه الأمر تقديره : فاكرهوه ، ولذلك عطف عليه (واتقوا الله) ووضع الماضي موضع الأمر في لسان العرب كثير ، ومنه : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يُثَبْ عليه ، أي : ليتق الله ، ولذلك انجزم يُثَبْ على جواب الأمر ، وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ، ثم نهى ثانياً عن طلب تحقق ذلك الظن فيصير علماً بقوله (ولا تجسسوا) ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم ، فهذه أمور ثلاثة مترتبة ، ظنٌّ ، فعلم بالتجسس ، فاغتياب ، وضمير النصب في (فكرهتموه) الظاهر أنه عائد على الأكل . وقيل : على الميت وقرأ أبو سعيد الخدري وأبو حيوة (فكرِّهتموه) بضم الكاف وتشديد الراء ، ورواها الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ والجمهور بفتح الكاف وتخفيف الراء ، وكره يتعدى إلى واحد ، فقياسه إذا ضعف أن يتعدى إلى اثنين كقراءة الخدري ومن معه ، أي : جعلتم فكرهتموه ، فأما قوله ﴿ وكره إليكم الكفر ﴾ [الحجرات ٧] فعلى التضمين بمعنى بغض ، وهو يتعدى لواحد ، وبإلى إلى آخر ، وبغض منقول بالتضعيف من بغض الشيء إلى زيد ،

والظاهر عطف (واتقوا الله) على ما قبله من الأمر والنهي ، قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ، قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ، قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ، يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ، إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون** ﴾ .

قيل : غضب الحرث بن هشام وعتاب بن أسيد حين أذَّنَ بلال يوم فتح مكة على الكعبة فنزلت[١] ، وعن ابن عباس : سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي ـ ﷺ ـ يا ابن فلانة ، فوبخه النبي ـ ﷺ ـ وقال له : إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى ، ونزل الأمر بالتفسح في ذلك أيضاً (من ذكر وأنثى) أي : من آدم وحواء ، أو كل أحد منكم من أب وأم ، فكل واحد منكم مساوٍ للآخر في ذلك الوجه فلا وجه للتفاخر[٢] ، (وجعلناكم شعوباً وقبائل) وتقدم الكلام على شيء من ذلك في المفردات ، وقيل : الشعوب في العجم ، والقبائل في العرب ، والأسباط في بني إسرائيل ، وقيل : الشعوب عرب اليمن من قحطان ، والقبائل ربيعة ومضر وسائر عدنان ، وقال قتادة ومجاهد والضحاك : الشعب النسب الأبعد ، والقبيلة الأقرب . قال الشاعر :

قَبَائِلُ مِنْ شُعُوبٍ لَيْسَ فِيهِمْ ... كَرِيمٌ قَدْ يُعَدُّ وَلاَ نَجِيبُ[٣]

وقيل : الشعوب الموالي ، والقبائل العرب ، وقال أبو روق : الشعوب الذين ينسبون إلى المدائن والقرى ، والقبائل الذين ينسبون إلى آبائهم انتهى . وواحد الشُعوب شَعب بفتح الشين ، وشعب بطن من همدان ينسب إليه عامر الشعبي من سادات التابعين ، والنسب إلى الشعوب شَعوبية بفتح الشين وهم الأمم التي ليس بعرب ، وقيل : هم الذين يفضلون العجم على العرب ، وكان أبو عبيدة خارجياً شَعوبياً ، وله كتاب في مناقب العرب ، ولابن غرسبة رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب ، وقد رد عليه ذلك علماء الأندلس برسائل عديدة ، وقرأ الجمهور (لتَعارفوا) مضارع تعارف محذوف التاء ، والأعمش بتاءين ، ومجاهد وابن كثير في رواية وابن محيصن بإدغام التاء في التاء ، وابن عباس وأبان عن عاصم (لِتَعْرَفُوا) مضارع عرف ، والمعنى : أنكم جعلكم الله تعالى ما ذكر كي يعرف بعضكم بعضاً في النسب ، فلا ينتمي إلى غير آبائه ، لا التفاخر بالآباء والأجداد ، ودعوى التفاضل وهي التقوى ، وفي خطبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم فتح مكة « إنما الناس رجلان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، ثم قرأ الآية » وعنه ـ ﷺ ـ « من سره أن يكون أكرم[٤] الناس فليتق الله » ، وما زال التفاخر بالأنساب في الجاهلية والإسلام وبالبلاد ، وبالمذاهب ، وبالعلوم ، وبالصنائع ، وأكثره بالأنساب :

وَأَعْجَبُ شَيْءٍ إِلَى عَاقِلٍ ... فُرُوعٌ عَنِ الْمَجْدِ مُسْتَأْخِرَهْ

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٧ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٧ . سورة « ق » .

(٣) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، انظر القرطبي ١٦/٢٢٥ فتح القدير ٥/٦٧ .

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفا ١/٣٧٣ وعزاه للبيهقي ، وأبي يعلى ، والطبراني ، وأبي نعيم ، والحاكم عن ابن عباس .

إِذَا سُئِلُوا مَـا لَهُـم مِنْ عُـلاً أَشَـارُوا إِلَى أَعْظُمٍ نَـاخِرَهْ[1]

ومن ذلك افتخار أولاد مشايخ الزوايا الصوفية بآبائهم ، واحترام الناس لهم بذلك وتعظيمهم لهم ، وإن كان الأولاد بخلاف الآباء في الدين والصلاح ، وقرأ الجمهور (إنَّ) بكسر الهمزة ، وابن عباس بفتحها ، وكان قرأ (لتعرفوا) مضارع عرف ، فاحتمل أن تكون (أن) معمولة (لتعرفوا) وتكون اللام في (لتعرفوا) لام الأمر ، وهو أجود من حيث المعنى ، وأما إن كانت لام كي فلا يظهر المعنى : إن جعلهم شعوباً وقبائل ، لأن تعرفوا أن الأكرم هو الأتقى ، فإن جعلت مفعول « لتعرفوا » محذوفاً أي : لتعرفوا الحق ، لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ساغ في لام (لتعارفوا) أن تكون لام كي ، (قالت الأعراب آمنا) قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة ، قبيلة تجاور المدينة ، أظهروا الإسلام وقلوبهم دخلة ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، وقيل : مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار ، قالوا : آمنا فاستحققنا الكرامة ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله (قل لم تؤمنوا) أكذبهم الله في دعوى الإيمان ، ولم يصرح بإكذابهم بلفظه ، بل بما دل عليه من انتفاء إيمانهم ، وهذا في أعراب مخصوصين ، فقد قال الله تعالى ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة ٩٩] الآية ، (ولكن قولوا أسلمنا) فهو اللفظ الصادق من أقوالكم ، وهو الاستسلام والانقياد ظاهراً ولم يواطىء أقوالكم ما في قلوبكم ، فلذلك قال (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وجاء النفي بـ (لما) الدالة على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار ، وتبين أن قوله (لم تؤمنوا) لا يراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي ، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً ، لأنك إذا نفيت بلم جاز أن يكون النفي قد انقطع ، ولذلك يجوز أن تقول : لم يقم زيد وقد قام ، وجاز أن يكون النفي متصلاً بزمن الإخبار ، فإذا كان متصلاً بزمن الإخبار لم يجز أن تقول : وقد قام لتكاذب الخبرين ، وأما لما فإنها تدل على نفي الشيء متصلاً بزمان الإخبار ، ولذلك امتنع : لما يقم زيد وقد قام للتكاذب ، والظاهر أن قوله (لما يدخل الإيمان في قلوبكم) ليس له تعلق بما قبله من جهة الإعراب . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) هو بعد قوله (قل لم تؤمنوا) يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة (قلت :) ليس كذلك ، فإن فائدة قوله (لم تؤمنوا) هو تكذيب دعواهم وقوله (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من المضير في قوله (قولوا) انتهى . والذي يظهر أنهم أمروا أن يقولوا (قولوا أسلمنا) غير مقيد بحال ، وإن (ولما يدخل الإيمان) إخبار غير قيد في قولهم ، وقال الزمخشري : وما في (لما) من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد انتهى . ولا أدري من أي وجه يكون ما نفي بلما يقع بعد ، ولما إنما تنفي ما كان متصلاً بزمان الإخبار ، ولا تدل على ما ذكر ، وهي جواب لقد فعل ، وهب أن قد تدل على توقع الفعل ، فإذا نفي ما دل على التوقع فكيف يتوهم أن يقع بعد ؟ (وإن تطيعوا الله ورسوله) بالإيمان والأعمال ، وهذا فتح لباب التوبة ، وقرأ الجمهور (لا يَلِتْكُم) من لات يليت ، وهي لغة الحجاز ، والحسن والأعرج وأبو عمر (ولا يَأْلِتْكُمْ) من ألت وهي لغة غطفان وأسد ، (ثم لم يرتابوا) (ثم) تقتضي التراخي ، وانتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان ، فقيل : من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان ، أي : ثم أقول لم يرتابوا ، (وقيل) قد يخلص الإيمـان ثم يعترضـه ما يثلم إخـلاصه فنفى ذلـك ، فحصل التراخي ، أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة ، فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه .

(أولئك هم الصادقون) أي : في قولهم : آمنـا حيث طابقت ألسنتهم عقائدهم ، وظهرت ثمرة ذلك عليهم بالجهاد بالنفس والمال ، و (في سبيل الله) يشمل جميع الطاعات البدنية والمالية ، وليسوا كأعراب بني أسد في قولهم (آمنا) وهم كاذبون في ذلك ، (قل أتعلمون الله بدينكم) هي منقولة من علمت به أي : شعرت به ، ولذلك تعدّت إلى واحد

---

(١) انظر روح المعاني ٢٦/١٦٦ .

بنفسها ، وإلى الآخر بحرف الجر لما ثقلت بالتضعيف ، وفي ذلك تجهيل لهم ، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى ، ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض ، ويقال : منّ عليهم بيد أسداها إليه ، أي : أنعم عليه ، المنة : النعمة التي لا يطلب لها ثواب ، ثم يقال : منّ عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعاماً ، أي : يعتدون عليك (أن أسلموا) (فـإن أسلموا) في موضع المفعول ، ولذلك تعدى إليه في قوله (قل لا تمنوا عليّ إسلامكم) ويجوز أن يكون (أسلموا) مفعولاً من أجله ، أي : يتفضلون عليك بإسلامهم (أن هداكم للإيمان) بزعمكم وتعليق المن بهدايتهم بشرط الصدق يدل على أنهم ليسوا مؤمنين ، إذ قد بين تعالى كذبهم في قولهم (آمنا) بقوله (قل لم تؤمنوا) وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ (إذ هداكم) جعلا (إذ) مكان (أن) وكلاهما تعليل وجواب الشرط محذوف ، أي : (إن كنتم صادقين) فهو المانّ عليكم ، وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم (يَعْلَمُونَ) بياء الغيبة ، والجمهور بتاء الخطاب .

سورة ق أربعون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَم

أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بسقت النخلة بسوقاً : طالت ، قال الشاعر :

لَنَــا خَمْـرٌ وَلَيْسَتْ خَمْـرَ كَـرْمٍ ... وَلَكِنْ مِـنْ نِتَـاجِ الْبَـاسِقَـاتِ
كِـرَامٍ فِي السَّمَـاءِ ذَهَبْنَ طُـولاً ... وَفَـاتَ ثِمَارَهَـا أَيْـدِي الْجُنَـاةِ[1]

وبسق فلان على أصحابه أي : علاهم ، ومنه قول ابن نوفل في ابن هبيرة :

يَـا ابْنَ الَّـذِينَ بِمَجْـدِهِـمْ ... بَسَقَتْ عَلَى قَيْسٍ فَـزَارَهْ[2]

ويقال : بسقت الشاة : ولدت ، وأبسقت الناقة ، وقع في ضرعها اللبأ قبل النتاج فهي مبسق ، ونوق مباسق ، حاد عن الشيء : مال عنه ، حيوداً ، وحيدة ، وحيدودة ، الوريد : عرق كبير في العنق ، يقال : إنهما وريدان عن يمين وشمال ، وقال الفراء : هو ما بين الحلقوم والعلباوين ، وقال الأثرم : هو نهر الجسد ، هو في القلب الوتين ، وفي الظهر الأبهر ، وفي الذراع والفخذ الأكحل والنسا ، وفي الخنصر الأسلم ، وقال الزمخشري : والوريدان : عرقان مكتنفان بصحفتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه ، سمي وريداً لأن الروح ترده ، قال :

كَأَنَّ وَرِيدَيْهِ رِشَا صُلبٍ[3]

﴿ ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ، أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ، كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود

---

(١) البيت من الوافر لم نهتد لقائلها انظر تيسير القرطبي ٦/١٧ فتح القدير ٧٣/٥ .
(٢) البيت من مجزوء الكامل ، انظر اللسان (بسق) .
(٣) هذا عجز من الرجز لرؤبة انظر اللسان (خلب) انظر شواهد الكشاف ص ٢٨ .

وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذّب الرسل فحق وعيد﴾ هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : بإجماع من المتأولين ، وقال صاحب التحرير : قال ابن عباس وقتادة : مكية إلا آية وهي قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض ﴾ [ق ٣٨] الآية . ومناسبتها لآخر ما قبلها : أنه تعالى أخبر أن أولئك الذين قالوا (آمنا) لم يكن إيمانهم حقاً وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوة الرسول ـ ﷺ ـ فقال (بل عجبوا أن جاءهم منذر) وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث ، فلذلك أعقبه به ، و (ق) حرف هجاء ، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة لا دليل على صحة شيء منها ، فاطرحت نقلها في كتابي هذا ، (والقُرْآنِ) مقسم به ، و (المجيد) صفته ، وهو الشريف على غيره من الكتب ، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده ، وتقديره : إنك جئتهم منذراً بالبعث ، فلم يقبلوا (بل عجبوا) ، وقيل : ما ردوا أمرك بحجة . وقال الأخفش والمبرد والزجاج تقديره : لتبعثن ، وقيل : الجواب مذكور ، فعن الأخفش (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) وعن ابن كيسان والأخفش (ما يلفظ من قول) وعن نحاة الكوفة (بل عجبوا) والمعنى : لقد عجبوا ، وقيل : (إن في ذلك لذكرى) وهو اختيار محمد بن علي الترمذي . (وقيل (ما يبدل القول لديّ) وهذه كلها أقوال ضعيفة ، وقرأ الجمهور (قافْ) بسكون الفاء ، ويفتحها عيسى ، ويكسرها الحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال ، وبالضم هرون وابن السميفع ، والحسن أيضاً فيما نقل ابن خالويه ، والأصل في حروف المعجم إذا لم تركب مع عامل أن تكون موقوفة فمن فتح (قافَ) عدل إلى أخف الحركات ، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين ، ومن ضم فكما قطُّ ومنذُ وحيثُ ، (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا صدقه وأمانته ونصحه ، فكان المناسب أن لا يعجبوا ، وهذا مع اعترافهم بقدرة الله تعالى ، فأيُّ بعد في أن يبعث من يخوف وينذر بما يكون في المآل من البعث والجزاء ؟ والضمير في (بل عجبوا) عائد على الكفار ، ويكون قوله (فقال الكافرون) تنبيهاً على القلة الموجبة للعجب وهو أنهم ، قد جبلوا على الكفر ، فلذلك عجبوا ، وقيل : الضمير عائد على الناس ، قيل : لأن كل مفطور يعجب من بعثه بشر رسولاً من الله ، لكن من وفق نظر فاهتدى وآمن ، ومن خذل ضل وكفر وحاج بذلك العجب ، والإشارة بقولهم (هذا شيء عجيب) الظاهر أنها إلى مجيء منذر من البشر ، وقيل : إلى ما تضمنه الإنذار ، وهو الإخبار بالبعث ، وقال الزمخشري : وهذا إشارة إلى المرجع انتهى . وفيه بعد . وقرأ الجمهور (أئذا) بالاستفهام ، وهم على أصولهم في تحقيق الثانية وتسهيلها والفصل بينهما ، وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثاب والأعمش وابن عتبة عن ابن عامر (إذا) بهمزة واحدة على صورة الخبر ، فجاز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة ، وجاز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر ، وأضمر جواب (إذا) أي : إذا متنا وكنا تراباً رجعنا ، وأجاز صاحب اللوامح أن يكون الجواب (رجع بعيد) على تقدير حذف الفاء ، وقد أجاز بعضهم في جواب الشرط ذلك إذا كان جملة اسمية ، وقصره أصحابنا على الشعر في الضرورة ، وأما في قراءة الاستفهام فالظرف منصوب بمضمر أي : أنبعث إذا متنا ، وإليه الإشارة بقوله (ذلك) أي : البعث (رجع بعيد) ، أي : مستبعد في الأوهام والفكر . وقال الزمخشري : و (إذا) منصوب بمضمر معناه : أحين نموت ونبلي نرجع انتهى . وأخذه من قول ابن جني . قال ابن جني : ويحتمل أن يكون المعنى : أئذا متنا بعد رجعنا ، فدل (رجع بعيد) على هذا الفعل ، ويحل محل الجواب لقولهم (أئذا) ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع ، وهو الجواب ويكون من كلام الله تعالى ، استبعاد الإنكار هم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن (فإن قلت :) فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ؟ (قلت :) ما دل عليه المنذر من المنذر به وهو البعث انتهى ، وكون (ذلك رجع بعيد) بمعنى ، مرجوع ، وأنه من كلام الله تعالى لا من كلامهم على ما شرحه مفهوم عجيب ينبو عن إدراكه فهم العرب . (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أي : من لحومهم وعظامهم وآثارهم ، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ، وهذا فيه رد لاستبعادهم الرجع ، لأن من كان عالماً بذلك

كان قادراً على رجعهم . وقال السدي : أي ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، وهذا يتضمن الوعيد . (وعندنا كتاب حفيظ) أي : حافظ لما فيه ، جامع لا يفوت منه شيء ، أو محفوظ من البلى والتغير ، وقيل : هو عبارة عن العلم والإحصاء ، وفي الخبر الثابت « إن الأرض تأكل ابن آدم إلا عجب الذنب » . وهو عظم كالخردلة ، منه يركب ابن آدم (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) وقدروا قبل هذا الإضراب جملة يكون مضروباً عنها ، أي : ما أجادوا النظر (بل كذبوا) ، وقيل : لم يكذبوا المنذر (بل كذبوا) والغالب أن الإضراب يكون بعد جملة منفية ، وقال الزمخشري : (بل كذبوا) إضراب اتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات انتهى . وكان هذا الإضراب الثاني بدلاً من الأول ، وكلاهما بعد ذلك الجواب الذي قدرناه جواباً للقسم ، فلا يكون قبل الثانية ما قدروه من قولهم : ما أجادوا النظر (بل كذبوا بالحق) والحق القرآن ، أو البعث أو الرسول ـ ﷺ ـ أو الإسلام أقوال . وقرأ الجمهور (لما جاءهم) أي : لم يفكروا فيه ، بل بأول ما جاءهم كذبوا ، والجحدري لما جاءهم بكسر اللام وتخفيف الميم ، وما مصدرية واللام لام الجر كهي في قولهم : كتبته لخمس خلون ، أي : عند مجيئهم إياه ، (فهم في أمر مريج) قال الضحاك وابن زيد ، مختلط مرة ساحر . ومرة شاعر ، ومرة كاهن ، وقال قتادة : مختلف ، وقال الحسن : ملتبس وقال أبو هريرة : فاسد ، ومرجت أمانات الناس : فسدت ومرج الدين : اختلط ، قال أبو دؤاد :

وَمَـرِجَ الـدِّينُ فَـأَعْـدَدْتُ لَـهُ ... مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ[1]

وقال ابن عباس : المريج : الأمر المنكر ، وعنه أيضاً : مختلط وقال الشاعر :

فَجَالَتْ وَالْتَمَسْتُ لَهَا حَشَـاهَا ... فَخَـرَّ كَـأَنَّـهُ خَـوْطٌ مَـرِيجُ[2]

والأصل فيه الاضطراب والقلق ، مرج الخاتم في أصبعي إذا قلق من الهزال ، ويجوز أن يكون الأمر المريج باعتبار انتقال أفكارهم فيما جاء به المنذر قائلاً عدم قبولهم أول إنذاره إياهم ، ثم العجب منهم ، ثم استبعاد البعث الذي أنذر به ، ثم التكذيب لما جاء به ، (أفلم ينظروا) حين كفروا بالبعث وبما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ إلى آثار قدرة الله تعالى في العالم العلوي والسفلي (كيف بنيناها) مرتفعة من غير عمُد (وزيناها) بالنيرين وبالنجوم (وما لها من فروج) أي : من فتوق وسقوف ، بل هي سليمة من كل خلل ، (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسي) أي : جبالاً ثوابت ، تمنعها من التكفؤمن (كل زوج) أي نوع : (بهيج) أي : حسن المنظر . أي : يسر من نظر إليه ، وقرأ الجمهور (تبصرةً وذكرى) بالنصب ، وهما منصوبان بفعل مضمر من لفظهما : أي : بصر وذكر ، وقيل : مفعول من أجله زيد بن علي (تبصرةٌ) بالرفع (وذكر) معطوف عليه ، أي : ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة ، والمعنى يتبصر بذلك ويتذكر كل عبد منيب ، أي : راجع إلى ربه مفكر في بدائع صنعه ، (ماء مباركاً) أي : كثير المنفعة (وحب الحصيد) أي : الحب الحصيد ، فهو من حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه ، كما يقوله البصريون ، و (الحصيد) كل طلع يحصد مما له حب كالبر والشعير ، (باسقات) أي : طوالاً في العلو ، وهو منصوب على الحال ، وهي حال متدرة ، لأنها حالة الإنبات لم تكن طوالاً ، و (باسقات) جمع والنخل اسم جنس ، فيجوز أن يذكر نحو قوله ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر ٢٠] وأن يؤنث نحو قوله تعلى ﴿ نخل خاوية ﴾ [الحاقة ٧] وأن يجمع باعتبار أفراده ومنه (باسقات) وقوله ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ [الرعد ١٢] والجمهور (باساقات) بالسين . وروى قطبة بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قرأ (باصقات) بالصاد ، وهي

---

(١) البيت من المتقارب انظر القرطبي ١٧/ ٥ اللسان (حبك) .

(٢) البيت من الوافر لعمرو بن الداخل الهذلي ، انظر ديوان الهذليين ٢/ ١٠٣ اللسان (مرج) . القرطبي ١٧/ ٥ .

لغة لبني العنبر ، يبدلون من السين صاداً إذا وليتها ، أو فصل بحرف أو حرفين خاء ، أو عين أو قاف ، أو طاء (لها طلع) تقدم شرحه عند ﴿ من طلعها قنوان دانية ﴾ [الأنعام ٩٩] ، (نضيد) أي : منضود بعضه فوق بعض : يريد كثرة الطلع وتراكمه ، أي : كثرة ما فيه من الثمر ، وأول ظهور الثمر في الكفرى هو أبيض ينضد كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد ، فإذا خرج من الكفرى تفرق فليس بنضيد ، و (رزقاً) نصب على المصدر ، لأن معنى (وأنبتنا) : رزقنا ، أو على أنه مفعول له ، وقرأ الجمهور (ميتاً) بالتخفيف وأبو جعفر وخالد بالتثقيل ، والإشارة في ذلك إلى الإحياء ، أي : الخروج من الأرض أحياء بعد موتكم ، مثل ذلك الحياة للبلدة الميت ، وهذه كلها أمثلة وأدلة على البعث ، وذكر تعالى في السماء ثلاثة البناء ، والتزين ، ونفي الفروج ، وفي الأرض ثلاثة المد ، وإلقاء الرواسي ، والإنبات ، قابل المد بالبناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، وإلقاء الرواسي بالتزيين بالكواكب لارتكاز كل واحد منهما ، والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا شق فيها ، ونبه فيما تعلق به الإنبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله ، وما يزرع كل سنة أو سنتين ، ويقطف كل سنة ، وعلى ما اختلط من جنسين ، فبعض الثمار فاكهة لا قوت ، وأكثر الزرع قوت ،والثمر فاكهة وقوت . ولما ذكر تعالى قوله (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) ذكر من كذب الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام سلية لرسوله ـ ﷺ ـ وتقدم الكلام على مفردات هذه الآية ، وقصص من ذكر فيها ، وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة ونافع (الأَيْكَةُ) بلام التعريف والجمهور (لَيْكَةُ) ، (كل كذب الرسل) أي : كلهم ، أي : جميعهم كذب ، وحمل على لفظ (كل) فأفرد الضمير في (كَذَّب) ، وقال الزمخشري : يجوز أن يراد به كل واحد منهم انتهى . والتنوين في (كلٌ) تنوين عوض من المضاف إليه المحذوف ، وأجاز محمد بن الوليد ، وهو من قدماء نحاة مصر أن يحذف التنوين من (كُل) جعله غاية ، ويبنى على الضم كما يبنى قبْل ، وبعدُ ، فأجاز : كلُّ منطلق ، بضم اللام دون تنوين ، ورد ذلك عليه الأخفش الصغير ، وهو علي بن سليمان ، (فحق وعيد) أي : وجب تعذيب الأمم المكذبة وإهلاكهم ، وفي ذلك تسلية للرسول ـ ﷺ ـ وتهديد لقريش ومن كذب الرسول .

قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ، ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ .

(أفعيينا بالخلق الأول) وهو إنشاء الإنسان من نطفة على التدريج ، وتقدم تفسير (عيي) في قوله تعالى ﴿ ولم يعي بخلقهن ﴾ [الأحقاف ٣٣] ، وقرأ الجمهور (أفعَيِينَا) بياء مكسورة بعدها ياء ساكنة ماضي عيي كرضي ، وقرأ ابن أبي عبلة والوليد بن مسلم والقورصبي عن أبي جعفر والسمسار عن شيبة وأبو بحر عن نافع بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية ، هكذا قال أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل ، وقال ابن خالويه في كتاب «شواذ القراءات» له (أفعيّنا) بتشديد الياء ابن أبي عبلة ، وفكرت في توجيه هذه القراءة ، إذ لم ذكر أحد توجيهها ، فخرجتها على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي . فقال عي في عيي ، وحي في حيي ، فلما أدغم ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه ولم يفك الإدغام فقال : عيَّنا ، وهي لغة لبعض بكر بن وائل ، يقولون في : رددت : وردّدنا : ردت وردنا ، فلا يفكون ، وعلى هذه اللغة يكون الياء المشدّدة مفتوحة ، فلو كان (نا) ضمير نصب لاجتمعت العرب على الإدغام نحو ، ردّنا زيد ، وقال الحسن : الخلق الأول ادم ـ عليه السلام ـ والمعنى : أعجزنا عن الخلق الأول فنعجز عن الخلق الثاني ، وهذا توقيف للكفار وتوبيخ ، وإقامة الحجة الواضحة عليهم ، (بل هم في لبس أي : خلط وشبهة وحيرة ، ومنه قول : علي يا حار : إنه لملبوس عليك ،

اعرف الحق تعرف أهله ، (من خلق جديد) أي : من البعث من القبور ، (ولقد خلقنا الإنسان) هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث ، والإنسان اسم جنس ، وقيل : آدم ، (ونحن أقرب) قرب علم به وبأحواله لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله في كل مكان ، أي : بعلمه ، وهو منزه عن الأمكنة ، و (حبل الوريد) مثل في فرط القرب ، كقول العرب : هو مِني مقعد القابلة ومقعد الإزار ، قال ذو الرمة :

وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِيْ مِنَ الْوَرِيدِ

والحبل : العرق الذي شبه بواحد الحبال ، وإضافته إلى الوريد للبيان ، كقولهم : بعير سانية ، أو يراد حبل العاتق ، فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد ، والعامل في (إذ أقرب) ، وقيل : اذكر ، قيل : ويحسن تقديراً ذكر ، لأنه أخبر خبراً مجرد بالخلق والعلم بخطرات الأنفس والقرب بالقدرة والملك ، فلما تم الإخبار أخبر بذكر الأحوال التي تصدق هذا الخبر ، وتعيين وروده عند السامع ، فمنها (إذ يتلقى المتلقيان) ومنها مجيء سكرة الموت ، ومنها النفخ في الصور ، ومنها مجيء كل نفس معها سائق وشهيد ، والمتلقيان : الملكان الموكلان بكل إنسان ملك اليمين يكتب الحسنات ، وملك الشمال يكتب السيئات، وقال الحسن: الحفظة أربعة ، اثنان بالنهار ، واثنان بالليل ، و (قعيد) مفرد فاحتمل أن يكون معناه : مقاعد ، كما تقول : جليس وخليط ، أي : مجالس ومخالط ، وأن يكون عدل فاعل إلى فعيل للمبالغة كعليم ، قال الكوفيون : مفرداً قيم مقام اثنين ، والأجود أن يكون حذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، أي : عن اليمين قعيد ، كما قال الشاعر :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِـدِي ۝ بَرِيئاً وَمِنْ أَجلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي[1]

على أحسن الوجهين فيه ، أي : كنت منه بريأ ووالدي بريأ ، ومذهب المبرد أن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال ، فأخر قعيد عن موضعه ، ومذهب الفراء أن لفظ (قعيد) يدل على الإثنين والجمع ، فلا يحتاج إلى تقدير ، وقرأ الجمهور (ما يلفظ من قول) وظاهر (ما يلفظ) العموم ، قال مجاهد وأبو الحوراء : يكتب عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه . وقال الحسن وقتادة : يكتبان جميع الكلام ، فيثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات ، ويمحو غير ذلك ، وقيل : هو مخصوص ، أي : من قول خير أو شر وقال معناه عكرمة ، وما خرج عن هذا لا يكتب ، واختلفوا في تعيين قعود الملكين ، ولا يصح فيه شيء ، (رقيب) ملك يرقب ، (عتيد) حاضر ، وإذا كان على اللفظ (رقيب عتيد) فأحرى على العمل ، وقال الحسن ، فإذا مات طويت صحيفته ، وقيل له يوم القيامة (اقرأ كتابك) الإسراء ١٤[2] ، (وجاءت سكرة الموت) هو معطوف على (إذ يتلقى) و (سكرة الموت) ما يعتري الإنسان عند نزاعه ، والباء في (بالحق) للتعدية ، أي : جاءت سكرة الموت الحق ، وهو الأمر الذي أنطق الله به كتبه ، وبعث به رسله من سعادة الميت أو شقاوته ، أو للحال . أي : ملتبسة بالحق ، وقرأ مسعود (سكران) جمعاً ، (ذلك ما كنت منه تحيد) أي : تميل تقول : أعيش كذا ، وأعيش كذا ، فمتى فكر في قرب الموت حاد بذهنه عنه ، وأمل إلى مسافة بعيدة من الزمن ، ومن الحيد الحذر من الموت ، وظاهر (تحيد) : أنه خطاب للإنسان الذي جاءته سكرة الموت ، وقال الزمخشري : الخطاب للفاجر (تحيد) تنفر وتهرب ، (ذلك يوم الوعيد) هو على حذف أي : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر (نُفِخَ) وأضاف اليوم إلى الوعيد وإن كان يوم الوعد والوعيد معاً على سبيل التخويف ، وقرأ الجمهور (معها) وطلحة بالحاء مثقلة أدغم العين في

---

(١) تقدم .

(٢) انظر القرطبي ٦١٨٢/٨ والدر المنثور ٨٤١٠٥/٦ خ .

الهاء فانقبلتا حاء ، كما قالوا : ذهب محمد يريد : (سائق) جاث على السير (وشهيد) يشهد عليه ، قال عثمان بن عفان ومجاهد وغيره : ملكان موكلان بكل إنسان ، أحدهما يسوقه ، والآخر من حفظه يشهد عليه[٢] ، وقال أبو هريرة : السائق ملك والشهيد النبي[٣] ، وقيل : الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً[٤] والظاهر أن قوله (سائق وشهيد) اسما جنس ، فالسائق ملائكة موكلون بذلك ، والشهيد الحفظة وكل من يشهد ، وقال ابن عباس والضحاك : السائق ملك ، والشهيد جوارح الإنسان[٥] قال ابن عطية : وهذا يبعد عن ابن عباس ، لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي ، وقوله (كل نفس) يعم الصالحين ، فإنما معناه (وشهيد) بخيره وشره ، ويقوى في شهيد اسم الجنس ، فشهد بالخير الملائكة والبقاع ومنه قوله ـ ﷺ ـ لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة[٦] ، وقال أبو هريرة : السائق ملك ، والشهيد العمل ، وقال أبو مسلم : السائق شيطان ، وهو قول ضعيف ، وقال الزمخشري : ملكان ، أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله ، أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : ملك يسوقه ويشهد عليه ، ومحل (معها سائق) النصب على الحال من (كل) لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ، هذا كلام ساقط لا يصدر عن مبتدىء في النحو ، لأنه لو نعت (كل نفس) لما نعت إلا بالنكرة فهو نكرة على كل حال ، فلا يمكن أن يتعرف (كل) وهو مضاف إلى نكرة ، قوله عز وجل .

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد، قال لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد، ما يبدّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد، يوم نقول لجهنم هل امتلئت وتقول هل من مزيد، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

قرأ الجمهور (لقد كنتَ في غفلة) بفتح التاء والكاف في (كنتَ) و (غطاءكَ) و (بصركَ) والجحدري بكسرها على مخاطبة النفس ، وقرأ الجمهور (عنكَ غطاءكَ فبصركَ) بفتح التاء والكاف حملاً على لفظ (كل) من التذكير ، والجحدري وطلحة بن مصرّف (عنكِ غطاءكِ فبصركِ) بالكسر مراعاة للنفس أيضاً ، ولم ينقل الكسر في الكاف صاحب اللوامح إلا عن طلحة وحده ، قال صاحب اللوامح : ولم أجد عنه في (لقد كنت) الكسر فإن كسر فإن الجميع شرع واحد ، وإن فتح (لَقَدْ كُنت) فحمل على كل أنه مذكر ، ويجوز تأنيث (كل) في هذا الباب لإضافته إلى نفس وهو مؤنث ، وإن كان كذلك فإنه حمل بعضه على اللفظ وبعضه على المعنى ، مثل قوله (فله أجره) ثم قال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة ٦٢] انتهى . قال ابن عباس وصالح بن كيسان والضحاك : يقال للكافر الغافل من ذوي النفس التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن وعاين الحقائق التي لا يصدق بها في الدنيا ويتغافل عن النظر فيها : (لقد كنت في غفلة من هذا) أي : من عاقبة الكفر ، فلما كشف الغطاء عنك احتدّ بصرك ، أي : بصيرتك وهذا

---

(١) انظر البغوي ٢٢٣/٤ والوسيط ٨٥ خ .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) المصدران السابقان .

(٥) أخرجه البخاري ١٥٨/١ (دار الفكر) والحميدي في مسنده (٧٣٢) والنووي في أذكاره (٣٥) وذكره الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير ٢٠٨/١ .

كما تقول : فلان حديد الذهن ، وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي : احتدّ التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة ، وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله ، وهو في كتاب ابن عطية ، وكنى بالغطاء عن الغفلة ، كأنها غطت جميعه أو عينيه فهو لا يبصر ، فإذا كان في القيامة زالت عنه الغفلة ، فأبصر ما كان لم يبصره من الحق ، (وقال قرينه) أي : من زبانية جهنم (هذا) العذاب الذي (لدى) لهذا الإنسان الكافر (عتيد) حاضر ، ويحسن هذا القول إطلاق ما على ما لا يعقل ، وقال قتادة (قرينه) الملك الموكل بسوقه[1] ، أي : هذا الكافر الذي أسوقه لديّ حاضر ، وقال الزهراوي : أي : (قرينه) : شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما وقع فيه أن القرين في قوله (ربنا ما أطغيته) هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف ، ولفظ القرين اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، ومماشي الإنسان في طريقه قرين ، وقيل : (قرينه) هنا عمله قلباً وجوارح ، وقال الزمخشري : (وقال قرينه) هو الشيطان الذي قيض له في قوله ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [الزخرف ٣٦] يشهد له قوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته) (هذا ما لدي عتيد) هذا شيء لدي وفي ملكتي (عتيد) لجهنم ، والمعنى : أن ملكاً يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطاناً مقروناً به يقول : قد أعتدته لجهنم ، وهيأته لها بإغوايّ وإضلالي انتهى . وهذا قول مجاهد ، وقال الحسن وقتادة أيضاً : الملك الشهيد عليه ، وقال الحسن أيضاً : هو كاتب سيئاته ، (وما) نكرة موصوفة بالظرف و بـ (عتيد) وموصولة والظرف صلتها ، و (عتيد) قال الزمخشري : بدل أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف انتهى ، وقرأ الجمهور (عتيد) بالرفع ، وعبد الله بالنصب على الحال ، والأولى إذ ذاك أن تكون (ما) موصولة (ألقيا في جهنم) الخطاب من الله للملكين السائق والشهيد ، وقيل : للملكين من ملائكة العذاب ، فعلى هذا الألف ضمير الإثنين ، وقال مجاهد وجماعة : هو قول إما للسائق وإما للذي هو من الزبانية ، وعلى أنه خطاب للواحد ، وقال المبرد : معناه ألق ألق فثني ، وقال الفراء : هو من خطاب الواحد بخطاب الاثنين ، وقيل : الألف بدل من النون الخفيفة ، أجرى الوصل مجرى الوقف ، وهذه أقوال مرغوب عنها ، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد ، وقرأ الحسن (ألقينْ) بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف (كل كفار) أي : يكفر النعمة والمنعم ، (عتيد) قال قتادة : منحرف عن الطاعة ، وقال الحسن : جاحد متمرد ، وقال السدي : المساق من العند ، وهو عظم يعرض في الحلق ، وقال ابن بحر : المعجب بما فيه (مناع للخير) قال قتادة ومجاهد وعكرمة : يعني الزكاة ، أي : بخيل ، أي : مانع بني أخيه من الإيمان ، كالوليد بن المغيرة ، كان يقول لهم : من دخل منكم فيه لم أنفعه بشيء ما عشت ، والأحسن عموم الخير في المال وغيره ، (مريب) قال الحسن : شاك في الله ، أو في البعث ، وقيل : متهم الذي جوزوا فيه أن يكونوا منصوباً بدلاً من (كل كفار) وأن يكون مجروراً بدلاً من (كفار) وأن يكون مرفوعاً بالابتداء مضمناً معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء في خبره وهو (فألقياه) والظاهر تعلقه بما قبله على جهة البدل ويكون (فألقياه) توكيداً ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون صفة من حيث يختص (كفار) بالأوصاف المذكورة ، فجاز وصفه بهذه المعرفة انتهى . وهذا ليس بشيء ، لو وصفت النكرة بأوصاف كثيرة لم يجز أن توصف بالمعرفة ، (قال قرينه) لم تأت هذه الجملة بالواو ، بخلاف (وقال قرينهُ) قبله ، لأن هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون ، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه ، فكأن الكافر قال : ربي ، هو أطغاني (قال قرينه ربنا ما أطغيته) وأما (وقال قرينه) فعطف للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ما قاله له ، ومعنى (ما أطغيته) تنزيه لنفسه من أنه أثر فيه (ولكن كان في ضلال بعيد) أي : من نفسه لا مني ، فهو الذي استحب العمى على الهدى ، كقوله (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن

---

(١) انظر البغوي ٤/٢٢٣ والوسيط ٨٥ خ .

دعوتكم فاستجبتم لي) وكذب القرين ، قد أطغاه بوسوسته وتزيينه ، (قال لا تختصموا لدي) استئناف أيضاً مثل (قال قرينه) كأن قائلاً قال : ما قال الله تعالى ، فقيل (لا تختصموا لدي) أي : في دار الجزاء وموقف الحساب ، (وقد قدّمت إليكم بالوعيد) لمن عصاني ، فلم أترك لكم حجة ، (ما يبدّل القَول لدي) أي : عندي فما أمضيته لا يمكن تبديله ، وقال الفراء : ما يكذب لدي لعلمي بجميع الأمور (وقدمت) يجوز أن يكون بمعنى تقدمت ، أي : قد تقدم قولي لكم ملتبساً بالوعيد ، أو يكون قدم المتعدية و (بالوعيد) هو المفعول ، والباء زائدة والتقديم كان في الدنيا ، ونهيهم عن الاختصام في الآخرة . فاختلف الزمانان ، فلا تكون الجملة من قوله (وقد قدّمت) حالاً إلا على تأويل أي : وقد صح عندكم أني قدمت ، وصحة ذلك في الآخرة ، فاتفق زمان النهي عن الاختصام وصحة التقديم بالحال على هذا التأويل مقارنة . (وما أنا بظلام للعبيد) تقدم شرح مثله في أواخر آل عمران ، والمعنى : لا أعذب من لا يستحق العذاب ، وقرأ (يوم يقول) بياء الغيبة الأعرج وشيبة ونافع وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش ، وباقي السبعة بالنون ، وعبد الله والحسن والأعمش أيضاً (يُقَالُ) مبنياً للمفعول ، وانتصاب (يوم) (بظلام) أو باذكر ، أو بأنذر كذلك ، قال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب بـ (نُفِخَ) ، كأنه قيل : ونفخ في الصور يوم نقول . وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم يقول انتهى . وهذا بعيد جداً قد فصل على هذا القول بين العامل والمعمول بجمل كثيرة ، فلا يناسب هذا القول فصاحة القرآن وبلاغته (وهل امتلئت) تقرير وتوقيف ، لا سؤال استفهام حقيقة ، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم ، قيل : وهذا السؤال والجواب منها حقيقة ، وقيل : هو على حذف مضاف ، أي : نقول لخزنة جهنم قاله الرماني ، وقيل : السؤال والجواب من باب التصوير الذي يثبت المعنى ، أي : حالها حال من لو نطق بالجواب لسائله لقال كذا . وهذا القول يظهر أنها إذ ذاك لم تكن ملأى ، فقولها (من مزيد) سؤال ورغبة في الزيادة والاستكثار من الداخلين فيها ، وقال الحسن وعمر وواصل : كانت ملأى وقت السؤال ، فلا تزداد على امتلائها ، كما جاء في الحديث « وهل ترك لنا عقيل من دار » أي : ما تركه ، و (مزيد) يحتمل أن يكون مصدراً واسم مفعول ، (غير بعيد) مكاناً غير بعيد ، وهو تأكيد لـ (أزلفت) رفع مجاز القرب بالوعد والإخبار فانتصاب (غير) على الظرف صفة قامت مقام مكان ، فأعربت بإعرابه ، وأجاز الزمخشري أن ينتصب (غير بعيد) على الحال من الجنة ، قال : وتذكيره يعني (بعيد) لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث انتهى . وكونه على وزن المصدر لا يسوغ أن يكون المذكر صفة للمؤنث . وقال الزمخشري أيضاً : أو على حذف الموصوف ، أي : شيئاً غير بعيد انتهى . وكأنه يعني : إزلافاً غير بعيد ، هذا إشارة للثواب . وقرأ الجمهور (ما توعدون) خطاب للمؤمنين ، وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة ، أي : هذا القول هو الذي وقع الوعد به ، وهي جملة اعتراضية بين المبدل منه والبدل ، و (لكل أواب) هو البدل من المتقين ، (من خشي) بدل بعد بدل تابع لـ (كل) قاله الزمخشري ، وإنما جعله تابعاً لـ (كل) ، لا بدلاً من للمتقين ، لأنه لا يتكرر الإبدال من مبدل منه واحد ، قال : ويجوز أن يكون بدلاً من موصوف (أواب) و (حفيظ) ولا يجوز أن يكون في حكم (أواب) و (حفيظ) لأن من لا يوصف به ولا يوصف من بين سائر الموصولات إلا بالذي انتهى . يعني بقوله : في حكم (أواب) أن يجعل من صفته ، وهذا حكم صحيح ، وأما قوله : ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي فالحصر ليس بصحيح ، قد وصفت العرب بما فيه أل ، وهو موصول نحو : القائم والمضروب ، ووصفت بذو الطائية وذات في المؤنث ، ومن كلامهم بالفضل ذو فضلكم الله به ، والكرامة ذات أكرمكم الله به ، يريد بالفضل الذي فضلكم ، والكرامة التي أكرمكم ، ولا يريد الزمخشري خصوصية الذي ، بل فروعه من المؤنث والمثنى والمجموع على اختلاف لغات ذلك ، وجوز أن تكون (من) موصولة مبتدأ خبره القول المحذوف ، تقديره : يقال لهم ادخلوها ، لأن من في معنى الجمع ، وأن تكون شرطية ، والجواب الفعل المحذوف ، أي : فيقال ، وأن يكون منادى كقولهم : من لا يزال محسناً أحسن إليّ ، وحذف حرف النداء للتقريب ، وقال

ابن عطية : يحتمل أن تكون من نعتاً انتهى . وهذا لا يجوز ، لأن (من) لا ينعت بها ، و (بالغيب) حال من المفعول ، أي : وهو غائب عنه ، وإنما أدركه بالعلم الضروري ، إذ كل مصنوع لا بد له من صانع ، ويجوز أن تكون صفة لمصدر (خشي) أي : خشيه خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشي عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه ، وقيل : في الخلوة حيث لا يراه أحد ، فيكون حالاً من الفاعل ، وقرن بالخشية الرحمن بناء على الخاشي ، حيث علم أنه واسع الرحمة وهو مع ذلك يخشاه ، (ادخلوها بسلام) أي : سالمين من العذاب ، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته ، (ذلك يوم الخلود) كقوله ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر ٧٣] أي : مقدرين الخلود ، وهو معادل لقوله في الكفار (ذلك يوم الوعيد) ، (لهم مايشاؤون فيها) أي : ما تعلقت به مشيئاتهم من أنواع الملاذ والكرامات ، كقوله تعالى ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ [فصلت ٣١] ، (ولدينا مزيد) زيادة ، أو شيء مزيد على ماتشاؤون ونحوه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة ١٧] وكما جاء في الحديث[1] « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما أطلعتهم عليه » . و (مزيد) مبهم ، فقيل : مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وقيل : أزواج من حور الجنة ، وقيل : تجلي الله تعالى لهم حتى يرونه ، قوله عز وجل **﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ، نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾** أي : كثيراً (أهلكنا) قبل قريش (هم أشدّ منهم بطشاً) لكثرة قوتهم وأموالهم ، وقرأ الجمهور (فَنَقَّبوا) بفتح القاف مشددة ، والظاهر أن الضمير في (نَقَّبوا) عائد على (كم) أي : دخلوا البلاد من أنقابها ، والمعنى : طافوا في البلاد ، وقيل : نقروا وبحثوا ، والتنقيب : التنقير والبحث ، قال امرؤ القيس في معنى التطواف :

وقَـدْ نَقَّبْتُ فِي الآفَـاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ[2]

وروي : وقد طوفت ، وقال الحارث بن خلدة :

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ من حَذَرِ الْمَوْ ... تِ وَجَالُوا فِي الأَرْضِ كُلَّ مَجَال[3]

و (فنَّقبوا) متسبب عن شدة بطشهم ، فهي التي أقدرتهم على التنقيب وقوَّتهم عليه ، ويجوز أن يعود الضمير في (فنقبوا) على قريش ، أي : فنقبوا في أسفارهم في بلاد القرون ، فهل رأوا محيصاً حتى يؤملوه لأنفسهم ، ويدل على عود الضمير على أهل مكة قراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر بن يسار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو بكسر القاف مشدّدة على الأمر لأهل مكة ، أي : فسيحوا في البلاد وابحثوا ، وقرىء بكسر القاف خفيفة ، أي : نقبت أقدامهم وأخاف إبلهم ، أو حفيت لكثرة تطوافهم في البلاد ، من نقب خف البعير إذا انتقب ودمي ، ويحتمل أن يكون (هل من محيص) على إضمار القول ، أي : يقولون : هل من محيص من الهلاك ، واحتمل أن لا يكون ثم قول ، أي : لا محيص

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٣٨ والحميدي في مسنده (١١٣٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٦ .

(٢) تقدم .

(٣) البيت من الوافر ونسب لعدي بن زيد ، انظر تفسير القرطبي ١٧/١٦ الكشاف ٤/٣٩٠ .

من الموت ، فيكون توقيفاً وتقريراً ، (إن في ذلك) أي : في إهلاك تلك القرون (لذكرى) لتذكرة واتعاظاً (لمن كان له قلب) أي : واع ، والمعنى : لمن له عقل وعبر عنه بمحله ، ومن له لا يعي كمن لا قلب له ، وقرأ الجمهور (أو أَلْقَى السَّمْعَ) مبنياً للفاعل و (السمع) نصب به أي : أو أصغى سمعه مفكراً فيه ، و (شهيدٌ) من الشهادة وهو الحضور ، وقال قتادة (لمن كان له) قيل : من أهل الكتاب ، فيعتبر ويشهد بصحتها لعلمه بذلك من التوراة فـ (شهيد) من الشهادة ، وقرأ السلمي وطلحة والسدي وأبو البرّ هيثم (أو أُلْقِيَ) مبنياً للمفعول (السَّمْعُ) رفع به ، أي : السمع منه ، أي : من الذي له قلب ، وقيل : المعنى : أو لمن ألقى غيره السمع ، وفتح له أذنه ولم يحضر ذهنه ، أي : الملقي والفاتح والملقى له والمفتوح أذنه حاضر الذهن متفطن[1] ، وذكر لعاصم أنها قراءة السدي فمقته ، وقال : أليس يقول ﴿ يلقون السمع ﴾ [الشعراء ٢٢٣] ، (ولقد خلقنا السموات والأرض) نزلت في اليهود تكذيباً لهم في قولهم : إنه تعالى استراح من خلق السموات والأرض في ستة أيام يوم السبت ، واستلقى على العرش ، وقيل : التشبيه الذي وقع في هذه الأمة إنماأخذ من اليهود ، (وما مسنا من لغوب) احتمل أن تكون جملة حالية ، واحتمل أن تكون استئنافاً ، واللغوب : الإعياء ، وقرأ الجمهور بضم اللام وعلي والسلمي وطلحة ويعقوب بفتحها ، وهما مصدران ، الأول مقيس وهو الضم ، وأما الفتح فغير مقيس كالقبول والولوع ، وينبغي أن يضاف إلى تلك الخمسة التي ذكرها سيبويه ، وزاد الكسائي الوزوع فتصير سبعة ، (فاصبر) قيل منسوخ بآية السيف (على ما يقولون) أي : وغيرهم من الكفار قريش وغيرهم (وسبح بحمد ربك) أي : فصل قبل طلوع الشمس هي صلاة الصبح ، وقيل الغروب هي صلاة العصر ، قاله قتادة وابن زيد والجمهور . وقال ابن عباس (قبل الغروب) الظهر والعصر (ومن الليل) صلاة العشاءين (وقبل الغروب) : ركعتان قبل المغرب ، وفي صحيح مسلم عن أنس ما معناه أن الصحابة كانوا يصلونها قبل المغرب . وقال قتادة : ما أدركت أحد يصليها إلا أنساً وأبا برزة الأسلمي ، وقال بعض التابعين : كان الصحابة يهبون إليهما كما يهبون إلى المكتوبة ، وقال ابن زيد : هي العشاء فقط ، وقال مجاهد : هي صلاة الليل (وأدبار السجود) قال أبو الأحوص : هو التسبيح في أدبار الصلوات ، وقال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن والشعبي وإبراهيم ومجاهد والأوزاعي : هما ركعتان بعد المغرب ، وقال ابن عباس : هو الوتر بعد العشاء ، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ، وابن زيد : النوافل بعد الفرائض ، وقال مقاتل : ركعتان بعد العشاء ، يقرأ في الأولى (قل يا أيها الكافرون) وفي الثانية(قل هو الله أحد) وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة وشبل وحمزة والحرميان (وإدبار) الهمزة ، وهو مصدر تقول : أَدْبَرَت الصلاة : انقضت وتمت ، وقال الزمخشري وغيره : معناه : وقت انقضاء السجود ، كقولهم : آتيك خفوق النجم ، وقرأ الحسن والأعرج وباقي السبعة بفتحها جمع دبر ، كطنب وأَطْنَاب ، أي : وفي أدبار السجود ، أي : أعقابه ، قال أوس بن حجر :

عَلَى دُبُرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرْضُنَا ... وَمَا حَوْلَهَا جَدْبٌ سُنُونَ تَلَمَّعُ[2]

(واستمع) أمر بالاستماع ، والظاهر أنه أريد به حقيقة الاستماع ، والمستمع له محذوف تقديره : واستمع لما أخبر به من حال يوم القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ لمعاذ « يا معاذ اسمع ما أقول لك » ، ثم حدثه بعد ذلك ، وانتصب (يوم) بما دل عليه ذلك يوم الخروج . أي : يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور ، وقيل : مفعول استمع محذوف تقديره : نداء المنادي ، وقيل : تقديره : نداء الكافر بالويل والثبور ، وقيل : لا يحتاج إلى مفعول ، إذ حذف اقتصاراً والمعنى : كن مستمعاً ، ولا تكن غافلاً معرضاً ، وقيل : معنى (واستمع) وانتظر ،

---

(١) انظر الوسيط ٦٨ خ والبغوي ٤/٢٢٦ .

(٢) البيت من الطويل ، انظر شرح المفصل ٢/٤٥ .

والخطاب لكل سامع ، وقيل : للرسول أي : ارتقبه ، فإن فيه تبين صحة ما قلته ، كما تقول لمن تعده بورود فج : استمع كذا وكذا ، أي : كن منتظراً له مستمعاً فـ (يوم) منتصب على أنه مفعول به ، وقرأ ابن كثير (المنادي) بالياء وصلاً ووقفاً ، ونافع وأبو عمرو بحذف الياء وقفاً ، وعيسى وطلحة والأعمش وباقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً إتباعاً لخط المصحف . ومن أثبتها فعلى الأصل ، ومن حذفها وقفاً فلأن الوقف تغيير يبدل فيه التنوين ألفاً نصباً ، والتاء هاء ويشدّد المخفف ويحذف الحرف في القوافي ، و(المنادي) في الحديث « إن ملكاً ينادي من السماء ، أيتها الأجسام الهامدة . والعظام البالية ، والرمم الذاهبة هلموا إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى » ، (من مكان قريب) وصفه بالقرب من حيث يسمع جيع الخلق ، قيل : و (المنادي) إسرافيل ينفخ في الصور وينادي ، وقيل : المنادي جبريل ، وقال كعب وقتادة وغيرهما : المكان صخرة بيت المقدس ، قال كعب : قربها من السماء بثمانية عشر ميلاً كذا في كتاب ابن عطية وفي كتاب الزمخشري : باثني عشر ميلاً ، وهي وسط الأرض انتهى . ولا يصح ذلك إلا بوحي ، (يوم يسمعون) بدل من (يوم ينادي) و (الصيحة) صيحة المنادي ، قيل : يسمعون من تحت أقدامهم ، وقيل : من تحت شعورهم ، وهي النفخة الثانية[1] ، و (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والحشر ، (ذلك) أي : يوم النداء والسماع يوم الخروج من القبور ، وقيل : الإشارة بذلك إلى النداء واتسع في الظروف ، فجعل خبراً عن المصدر ، أو يكون حذف ، أي : ذلك النداء نداء يوم الخروج ، أو وقت النداء يوم الخروج ، وقرأ نافع وابن عامر (تشّقق) بشدّ الشين ، وباقي السبعة بتخفيفها ، وقرىء (تُشَقَّقُ) بضم التاء مضارع شققت على البناء للمفعول ، و (تَنْشَقُّ) مضارع انشقت ، وقرأ زيد بن عليّ (تشقق) بفك الإدغام ، ذكره أبو عليّ الأهوازي في قراءة زيد بن عليّ من تأليفه ، و (يوم) بدل من (يوم) الثاني ، وقيل : منصوب بالمصدر ، وهو الخروج ، وقيل : (المصير) وانتصب (سراعاً) على الحال من الضمير في (عنهم) والعامل (تشقق) ، وقيل : محذوف تقديره : يخرجون ، فهو حال من الواو في (يخرجون) قاله الحوفي ، ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في (يوم تشقق) ، (ذلك حشر علينا يسير) فصل بين الموصوف وصفته بمعمول الصفة ، وهو (علينا) أي : يسير علينا ، وحسن ذلك كون الصفة فاصلة ، وقال الزمخشري (علينا يسير) تقديم الظرف يدل على الاختصاص يعني : لا يتيسر مثل ذلك اليوم العظيم إلا على القادر الذات ، الذي لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان ٢٨] انتهى . وهو على طريقه في أن تقديم المفعول وما أشبهه من دلالة ذلك على الاختصاص ، وقد بحثنا معه في ذلك في سورة الفاتحة في ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة ٥] ، (نحن أعلم بما يقولون) هذا وعيد محض للكفار ، وتهديد لهم ، وتسلية للرسول ـ ﷺ ـ (وما أنت عليهم بجبار) بمتسلط حتى تجبرهم على الإيمان قاله الطبري . وقيل : التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم ، (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) لأن من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدّق بوقوعه لا يذكر إذ لا تنفع فيه الذكرى ، كما قال ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [الذاريات ٥٥] وختمت بقوله (فذكر بالقرآن) كما افتتحت بـ (ق والقرآن) .

---

١) انظر البغوي ٤/ ٢٢٨ .

سورة الذاريات ستون آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ
ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي
كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي
ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ
فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا
وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا
ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ
أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ
مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ

كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

الحبك الطرائق مثل حبك الرمل والماء القائم إذا ضربته الريح وكذلك حبك الشعر أثار تثنيه وتكسره قال الشاعر :

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ يَنْسِجُهُ ... رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ[1]

والدرع محبوكة لأن حلقها مطرق طرائق وواحدها حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثال ومثل قال الراجز :

كَأَنَّمَا حَلَّلَهَا الْحَوَّاكُ ... طِنْفَسَةٌ فِي وَشْيِهَا حِبَاكُ[2]

ويقال حباك للظفيرة التي يشد بها خطار القصب بكره وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الغراسات المصطفة ، وقال ابن الأعرابي حبكت الشيء أحكمته وأحسنت عمله ، قال الفراء الحبك تكسر كل شيء ، وقال غيره المحبوك الشديد الخلق من فرس وغيره ، قال امرؤ القيس :

قَدْ غَدَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْفِهِ ... لَاحِقُ الْأَطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمِرّْ[3]

الهجود النوم ، السمن معروف وهو امتلاء الجسد بالشحم واللحم يقال سمن سمناً فهو سمين شذُوا في المصدر واسم الفاعل والقياس سمن وسمن وقالوا سامن إذا حدث له السمن ، الذنوب الدلو العظيمة ، قال الراجز :

إِنَّا إِذَا نَازَلَنَا غَرِيبُ ... لَهُ ذَنُوبٌ وَلَنَا ذَنُوب
وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ[4]

وأنشده الزمخشري

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ[5]

---

(١) تقدم .

(٢) البيت من الرجز لرؤبة انظر القرطبي ١٧/٢٣ فتح القدير ٥/٨٣ .

(٣) البيت من الرمل ، انظر ديوانه ١٤٤ القرطبي ١٧/٢٣ .

(٤) الكشاف ٤/٤٠٧ والقرطبي ١٧/٣٩ روح المعاني ٢٧/٢٤ .

(٥) البيت من المتقارب ، انظر المصادر السابقة اللسان (ذنب) .

ويطلق ويراد به الحظ والنصيب ، قال علقمة بن عبدة :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ   فَحُقَّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ[١]

ونسبه الزمخشري لعمرو بن شاس وهو وهمٌ وهو في ديوان علقمة ، وكان الحارث بن أبي شمر الغساني أسر شاساً أخا علقمة فدخل إليه علقمة فمدحه بالقصيدة التي فيها هذا البيت فلما وصل إلى هذا البيت في الإنشاد قال الحرث نعم وأذنبه ، وقال حسان :

لاَ يَبْعُدَنْ رَبِيعَةُ بْنُ مكرمٍ   وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذَنُوبِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ   لِكُلِّ بَنِي أَبٍ فِيهَا ذَنُوبُ[٢]

﴿ والذاريات ذرواً ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسراً ، فالمقسمات أمراً ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، والسماء ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ، قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيان يوم الدين ، يوم هم على النار يفتنون ، ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ، إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها الآخر ما قبلها : أنه قال (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ، وقال أول هذه بعد القسم (إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) ، (والذاريات) الرياح ، (فالحاملات) : السحاب ، (فالجاريات) الفلك ، (فالمقسمات) الملائكة ، هذا تفسير عليّ - كرم الله وجهه - على المنبر وقد سأله ابن الكواء قاله ابن عباس[٣] ، وقال ابن عباس أيضاً (فالحاملات) هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم[٤] ، وقيل : الحوامل من جميع الحيوان[٥] ، وقيل : (الجاريات) السحاب بالرياح ، وقيل : الجواري من الكواكب ، وأدغم أبو عمرو وحمزة (والذاريات) في ذال (ذروا) وذروها تفريقها للمطر أو للتراب ، وقرىء بفتح الواو ، وتسمية للمحمول بالمصدر ، ومعنى (يسراً) جرياً ذا يسر ، أي : سهولة فـ (يسراً) مصدر وصف به على تقدير محذوف ، فهو على رأي سيبويه في موضع الحال (أمراً) تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها (فأمرا) مفعول به ، وقيل : مصدر منصوب على الحال ، أي : مأموره ، ومفعول المقسمات محذوف ، وقال مجاهد : يتولى أمر العباد جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ ، وجاء في الملائكة (فالمقسمات) على معنى الجماعات ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الرياح لا غير ، لأنها تنشىء

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٠٧) أمالي ابن الشجري ٨١/٢ ابن يعيش ٤٨/٥ شرح شواهد الشافية (٤٩٤) المنصف ٣٣٢/٢ المفضليات (٧٨٦) اللسان ٢٨٣/٧ الشاهد استعمال ذنوب بمعنى نصيب .

(٢) انظر البيت في اللسان (ذنب) روح المعاني ٢٤/٢٧ . القرطبي ٣٩/١٧ .

(٣) انظر البغوي ٢٢٩/٤ .

(٤) انظر البغوي ٢٢٩/٤ .

(٥) انظر البغوي ٢٢٩/٤ .

السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصريف الرياح انتهى . فإذا كان المدلول متغايراً ، فتكون أقساماً متعاقبة ، وإذا كان غير متغاير فهو قسم واحد ، وهو من عطف الصفات ، أي ذرت أول هبوبها التراب والحصباء ، فأقلت السحاب ، فجرت في الجو باسطة للسحاب ، فقسمت المطر فهذا كقوله :

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّـ ـصابحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ[1]

أي : الذي صبح العدو ، فغنم منهم ، فآب إلى قومه سالماً غانماً ، والجملة المقسم عليها وهي جواب القسم هي ، (إنما توعدون) و (ما) موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : توعدونه ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي : إنه وعدكم ، أو وعيدكم ، إذ يحتمل (توعدون) الأمرين ، أن يكون مضارع وعد ومضارع أوعد ، ويناسب أن يكون مضارع أوعد لقوله ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق ٤٥] ولأن المقصود التخويف والتهويل ومعنى صدقه : تحقق وقوعه ، والمتصف بالصدق حقيقة هو المخبر ، وقال تعالى (ذلك وعد غير مكذوب) أي : مصدوق فيه ، وقيل : (لصادق) ووضع اسم الفاعل موضع المصدر ، ولا حاجة إلى هذا التقدير ، وقال مجاهد : الأظهر أن الآية في الكفار ، وأنه وعيد محض و (إن الدين) أي : الجزاء (لواقع) أي : صادر حقيقة على المكلفين من الإنس والجن ، والظاهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هي السماء السابعة ، أي : السحاب الذي يظل الأرض (ذات الحبك) أي : ذات الخلق المستوي الجيد[2] قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع ، وقال الحسن وسعيد بن جبير (ذات الحُبُك) أي : الزينة بالنجوم ، وقال الضحاك : ذات الطرائق يعني : من المجرة التي في السماء ، وقال ابن زيد : ذات الشدة لقوله ﴿ سبعاً شداداً ﴾ [النبأ ١٢][3] ، وقيل : ذات الصفاقة ، وقرأ الجمهور (الحُبُك) بضمتين ، وابن عباس والحسن بخلاف عنه ، وأبو مالك الغفاري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو بإسكان الباء ، وعكرمة بفتحها جمع حُبْكَة مثل طُرْفَة وطُرف ، وأبو مالك الغفاري والحسن بخلاف عنه بكسر الحاء والباء ، وأبو مالك الغفاري والحسن أيضاً وأبو حيوة بكسر الحاء وإسكان الباء ، وهو تخفيف فعل المكسورهما ، وهو اسم مفرد لا جمع ، لأن فعلاً ليس من أبنية الجموع ، فينبغي أن يعد مع إبْل فيما جاء من الأسماء على فِعِل بكسر الفاء والعين ، وابن عباس أيضاً وأبو مالك بفتحها ، قال أبو الفضل الرازي : فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب انتهى . والحسن أيضاً (الحِبَك) بكسر الحاء وفتح الباء ، وقرأ أيضاً كالجمهور فصارت قراءته خمساً (الحُبُك) (الحِبِك) (الحِبْك) (الحُبَك) (الحِبَك) ، وقرأ أبو مالك أيضاً (الحِبُك) بكسر الحاء وضم الباء ، وذكرها ابن عطية عن الحسن ، فتصير له ست قراءات ، وقال صاحب اللوامح : وهو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها ، ولا أدري ما رواه انتهى . وقال ابن عطية : هي قراءة شاذة غير متوجهة ، وكأنه أراد كسرها ، ثم توهم الحبك قراءة الضم بعد أن كسر الحاء وضم الباء ، وهذا على تداخل اللغات ، وليس في كلام العرب هذا البناء انتهى . وعلى هذا تأول النحاة هذه القراءات ، والأحسن عندي أن تكون مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة ذات في الكسرة ، ولم يعتد باللام الساكنة ، لأن الساكن حاجز غير حصين ، وجواب القسم (إنكم لفي قول مختلف) والظاهر أنه خطاب عام للمسلم والكافر ، كما أن جواب القسم السابق يشملهما ، واختلافهم ، كونهم مؤمناً بالرسول ـ ﷺ ـ وكتابه وكافراً . وقال ابن زيد : خطاب للكفرة فيقولون : ساحر

---

(١) البيت من السريع لسلمة بن ذهل التيمي ، انظر الحماسة لأبي تمام ٤٧/١ شرح شواهد المغني ٤٦٥/١ الشاهد فيه حيث وسط حرف العطف بين الصفات .

(٢) انظر الوسيط ١٨٨ خ والبغوي ٢٢٩/٤ .

(٣) انظر الوسط ١٨٨ خ والبغوي ٢٢٩/٤ .

شاعر ، كاهن ، مجنون ، وقال الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستوياً ، إنما يكون متناقضاً مختلفاً . وقيل : اختلافهم في الحشر ، منهم من ينفيه ، ومنهم من يشك فيه ، وقيل : اختلافهم إقرارهم بأن الله تعالى أوجدهم وعبادتهم غيره ، والأقوال التي يقولونها في آلهتهم ، (يؤفك) أي : يصرف (عنه) أي : عن القرآن والرسول ، قاله الحسن وقتادة ، (من أفك) أي : من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم ، لقوله « لا يهلك على الله إلا هالك » وقيل : من صرف في سابق علم الله تعالى أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير (لما توعدون) أو للذي أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاكّ ، ومنهم جاحد، ثم قال (يؤفك) عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك ، (عنه) محذوف ، وعن هنا للسبب ، والضمير عائد على (قول مختلف) أي : يصرف بسبب من أراد الإسلام بأن يقول : هو سحر ، هو كهانة حكاه الزهراوي والزمخشري ، وأورده على عادته في إبداء ما هو محكي عن غيره أنه مخترعه ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على (قول مختلف) والمعنى يصرف عنه بتوفيق الله إلى الإسلام من قلبت سعادته وهذا على أن يكون في (قول مختلف) لِلكفار إلا إن عرف الاستعمال في إفكه الصرف من خير إلى شر ، فلذلك لا تجده إلا في المذمومين انتهى ، وفيه بعض تلخيص . وقرأ ابن جبير وقتادة (مَنْ أَفَك) مبنياً للفاعل ، أي : من أفك الناس عنه وهم قريش ، وقرأ زيد بن علي (يَأْفكُ) من أفك ، أي : يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه و (عنه) أيضاً (يأفك عنه من أفِكَ) أي : يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب ، وقرىء (يؤفن عنه من أفن) بالنون فيهما ، أي : يحرمه من حرم ، من أفن الضرع إذا نهكه حلباً ، (قُتِلَ الخَرَّاصُون) أي : قتل الله الخراصين ، وهم المقدرون ما لا يصح (في غمرة) في جهل يغمرهم (ساهون) غافلون عن ما أمروا به ، (أيان يوم الدين) أي : متى وقت الجزاء ، سؤال تكذيب واستهزاء ، وتقدمت قراءة من كسر الهمزة في قوله ﴿ أيان مرساها ﴾ [الأعراف ١٨٧] و (أيان يوم الـدين) فيكون الظرف محلاً للمصدر ، وانتصب (يومَ هم) بمضمر تقديره : هو كائن ، أي : الجزاء قاله الزجاج ، وجوزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو (يومَ هم) والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غير متمكن ، وهي الجملة الاسمية ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني (يومُ هم) بالرفع . وإذا كان ظرفاً جاز أن تكون الحركة فيه حركة إعراب وحركة بناء ، وتقدم الكلام على إضافة الظرف المستقبل إلى الجملة الاسمية في غافر في قوله تعالى ﴿ يوم هم بارزون ﴾ [غافر ١٦] ، وقال بعض النحاة (يومَ هم) بدل من (يوم الدين) فيكون هنا حكاية من كلامهم على المعنى ، ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء ، ولو حكى لفظ قولهم لكان التركيب : يوم نحن على النار يفتنون (ذوقوا فتنتكم) أي : يقال لهم : ذوقوا ، (هذا الذي) مبتدأ وخبر ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (هذا) بدلاً من (فتنتكم) أي : ذوقوا هذا العذاب انتهى . وفيه بعد ، والاستقلال خير من البدل ، ومعنى تفتنون تعذبون في النار ، ولما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين وانتصب (آخذين) على الحال ، أي : قابليه راضين به ، وذلك في الجنة ، وقال ابن عباس (آخذين) أي : في دنياهم (ما آتاهم ربهم) من أوامره ونواهيه وشرعه ، فالحال محكية لتقدمها في الزمان على كونهم في الجنة ، والظاهر أن (قليلاً) ظرف ، وهو في الأصل صفة ، أي : كانوا في قليل من الليل ، وجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أي : كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ، و (ما) زائدة في كلا الإعرابين وفسر أنس بن مالك ذلك فقال : كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء ، ولا يدل لفظ الآية على الاقتصار على هذا التفسير ، وقال الربيع بن خيثم : كانوا يصيبون من الليل حظاً ، وقال مطرف ومجاهد وابن أبي نجيح : قل ليلة أتت عليهم هجوعاً كلها ، وقال الحسن : كابدوا قيام الليل ، لا ينامون منه إلا قليلاً ، وقال الضحاك : كانوا قليلاً ، أي : في عددهم ، وثم خبر كان ، ثم ابتدأ (من الليل ما يهجعون) فما نافية ، و (قليلاً) وقف حسن ، وهذا القول فيه تفكيك للكلام ، وتقدم معمول العامل المنفي بما على عامله ، وذلك لا يجوز عند البصريين ولو كان ظرفاً أو مجروراً ، وقد أجاز ذلك بعضهم ، وجاء في الشعر قوله :

إِذَا هِيَ قَامَتْ حَاسِراً مُشْمَعِلَّةً   يَحْسِبُ الْفُؤَادُ رَأْسَهَا مَا تَقَنَّعُ

فقدم « رأسها » على « ما تقنع » ، وهو منفي بما ، وجوزوا أن تكون ما مصدرية في موضع رفع بـ (قليلاً) أي : كانوا قليلاً هجوعهم ، وهو إعراب سهل حسن ، وأن تكون (ما) موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف تقديره : كانوا قليلاً من الليل من الوقت الذي يهجعون فيه ، وفهي تكلف و (من الليل) يدل على أنهم مشغولون بالعبادة في أوقات الراحات وسكون الأنفس من مشاق النهار ، (وبالأسحار هم يستغفرون) فيه ظهور على أن تهجدهم يتصل بالأسحار ، فيأخذون في الاستغفار مما يمكن أن يقع فيه تقصير ، وكأنهم أجرموا في تلك الليالي ، والأسحار مظنة الاستغفار ، وقال ابن عمروالضحاك (يستغفرون) يصلون[١] ، وقال الحسن : يدعون في طلب المغفرة[٢] والظاهر أن قيام الليل ، وهذا الحق في المال هو من المندوبات ، وأكثر ما تقع زيادة الثواب بفعل المندوب . وقال القاضي منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وضعف بأن السورة مكية ، وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل : كان فرضاً ، ثم نسخ ، وضعف بأنه تعالى لم يشرع شيئاً بمكة قبل الهجرة من أخذ الأموال ، والسائل : الذي يستعطي ، والمحروم : لغة الممنوع من الشيء ، قال علقمة :

وَمُطْعِمُ الْغُنْمِ يَوْمَ الْغُنْمِ مَطْعَمَةً   أَنَّى تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومُ مَحْرُومُ[٣]

وأما في الآية ، فالذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه ، وقيل : الذي تبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه ، فيناله الحرمان ، وقال ابن عباس : المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم مال[٤] وقال زيد بن أسلم : هو الذي أجيحت ثمرته ، وقيل : الذي ماتت ماشيته ، وقال عمر بن عبد العزيز : هو الكلب ، وقيل : الذي لا ينمى له مال ، وقيل : المحارف الذي لا يكاد يكسب ، وقيل : غير ذلك ، وكل هذه الأقوال على سبيل التمثيل لا التعيين ، ويجمعها أنه الذي لا مال له الحرمان أصابه ، (وفي الأرض آيات) تدل على الصانع وقدرته وتدبيره ، من حيث هي كالبساط لما فوقها ، وفيها الفجاج للسلاك ، وهي متجزئة من سهل ووعر ، وبحر وبر ، وقطع متجاورات من صلبة ورخوة ، ومنبتة وسبخة ، وتلقح بأنواع النبات ، وفيها العيون والمعادن والدواب المنبتة في بحرها وبرها المختلفة الأشكال ، وقرأ قتادة (آية) على الإفراد (للموقنين) وهم الذين نظروا النظر الصحيح وأداهم ذلك إلى إيقان ما جاءت به الرسل ، فأيقنوا لم يدخلهم ريب ، (وفي أنفسكم) حال ابتدائها وانتقالها من حال إلى حال ، وما أودع في شكل الإنسان من لطائف الحواس ، وما ترتب على العقل الذي أوتيه من بدائع العلوم وغريب الصنائع ، وغير ذلك مما لا ينحصر ، (وفي السماء رزقكم) قال الضحاك ومجاهد وابن جبير : المطر والثلج لأنه سبب الأقوات ، وكل عين دائمة من الثلج ، وقال مجاهد أيضاً وواصل الأحدب : أراد القضاء والقدر ، أي : الرزق عند الله يأتي به كيف شاء (وما توعدون) الجنة ، أو هي النار ، أو أمر الساعة ، أو من خير وشر ، أو من ثواب وعقاب أقوال ، المراد بها التمثيل لا التعيين ، وقرأ ابن محيصن (أَرْزَاقُكُمْ) على الجمع ، والضمير في (إنه) عائد على القرآن ، أو إلى الدين الذي في قوله (وإن الدين لواقع) أو إلى اليوم المذكور في قوله : (أيان يوم الدين) أو إلى الرزق ، أو إلى الله ، أو إلى النبي ـ ﷺ ـ أقوال منقولة ، والذي يظهر أنه عائد على الإخبار السابق من الله تعالى فيما تقدم في هذه السورة ، من صدق الموعود ، ووقوع الجزاء وكونهم في قول مختلف ، وقتل

---

(١) انظر البغوي ٤/ ٢٣٠ ، ٢٣١ والوسيط ٨٨ خ والطبري ٢٦/ ١٢٢ وابن كثير ٤/ ٢٣٣ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) تقدم .

(٤) انظر البغوي ٤/ ٢٣٠ ، ٢٣١ والوسيط ٨٨ خ والطبري ٢٦/ ٢٢ وابن كثير ٤/ ٢٣٣ .

الخراصون ، وكينونة المتقين في الجنة على ما وصف ، وذكر أوصافهم وما ذكر بعد ذلك ، ولذلك شبه في الحقيقة بما يصدر من نطق الإنسان بجامع ما اشتركا فيه من الكلام ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم (مِثْلُ) بالرفع صفة لقوله (لَحَقٌ) وباقي السبعة والجمهور بالنصب ، وقيل : هي فتحة بناء وهو نعت كحله في قراءة من رفع ، ولما أضيف إلى غير متمكن بني ، و(ما) على هذا الإعراب زائدة للتوكيد والإضافة هي إلى (أنكم تنطقون) ، وقال المازني : بني (مثْل) لأنه ركب مع (ما) فصار شيئاً واحداً ، ومثله : ويحما وهيما وابنما قال حميد بن ثور :

أَلَاهَيَّمَـا مِـمَّـا لَقِيتُ وَهَـيَّـمَـا وَوَيْحاً لِمَنْ لَمْ يَلْقَ مِنْهُنَّ وَيْحَما[١]

قال : فلولا البناء لكان منوناً ، وقال الشاعر :

فَأَكْرِمْ بِنَا أُمًّا وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا[٢]

انتهى . هذا التخريج ، وابنما ليس ابنا بني مع ما ، بل هذا من باب زيادة الميم فيه وإتباع ما في الآخر ، إذ جعل في الميم الإعراب ، تقول : هذا ابنم ورأيت ابنما ، ومررت بابنم ، وليست ما في الثلاث في ابنما مركبة مع ما ، كما قال ، بل الفتحة في ابنما حركة إعراب ، وهو منصوب على التمييز ، وأنشد النحويون في بناء الاسم مع الحرف قول الراجز :

أَثَـوْرُ مَـا أُصِيـدُكُمْ أَوْ ثَـوْرَيْنِ أَمْ تِيكُمُ الْجَمَّاء ذَات الْقَرْنَيْنِ[٣]

وقيل : هو نعت لمصدر محذوف ، تقديره : إنه لحق حقاً مثل ما أنكم ، فحركته إعراب ، وقيل : انتصب على أنه حال من الضمير المستكن في (لَحَقٌّ) ، وقيل : حال من (لَحَقٌ) وإن كان نكرة فقد أجاز ذلك الجرمي وسيبويه في مواضع من كتابه ، والنطق هنا عبارة عن الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني ، ويقول الناس : هذا حق كما أنك ههنا ، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع ، وهذا كما في الآية وما زائدة بنص الخليل ، ولا يحفظ حذفها ، فتقول : هذا حق كأنك ههنا ، والكوفيون يجعلون مثلاً محلى ، فينصبونه على الظرف ، ويجيزون : زيد مثْلك بالنصب ، فعلى مذهبهم يجوز أن تكون (مثلَ) فيها منصوباً على الظرف ، واستدلالهم والرد عليهم مذكور في النحو ، ومن كلام بعض الأعراب : من ذا الذي أغضب الخليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين . قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرّة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ، قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ، وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ، وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح**

---

(١) البيت من الطويل انظر الديوان (٧) اللسان (ويح) ورواية :

ألا هـيـمـا مـمـا لـقـيـت وهَـيَّـمـا وَوَيْـحٌ لـمَـنْ لـم يَـدْرِ مـا هـنَّ وَيحما

(٢) عجز بيت من الطويل لحسان ، انظر ديوانه ٢١٩ ورواية فيه .

ولـدنـا بني الـعـنـقـاء وابـنـي مـحـرق وأكـرم بـنـا خـالاً وأكـرم بـنـا ابـنـمـا

(٣) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر اللسان (ثور) .

العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

(هل أتاك) تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب ، فتقرره : هل سمع ذلك أم لا ؟ فكأنك تقتضي أن يقول لا ، ويستطعمك الحديث ، وفيه تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ـ ﷺ ـ ، وإنما عرفه بالوحي ، و (ضيف) الواحد والجماعة فيه سواء ، وبدأ بقصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن كانت متأخرة عن قصة عاد (هزماً) للعرب إذا كان أباهم الأعلى ، ولكون الرسل الذي وفدوا عليه جاؤوا بإهلاك قوم لوط ، إذ كذبوه ، ففيه وعيد للعرب وتهديد ، واتعاظ وتسلية للرسول ـ ﷺ ـ على ما يجري عليه من قومه ، ووصفهم بالمكرمين لكرامتهم عند الله تعالى ، كقوله تعالى في الملائكة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء ٢٦] قاله الحسن[1] : فهي صفة سابقة فيهم ، أو لإكرام إبراهيم إياهم ، إذ خدمهم بنفسه وزوجته سارة ، وعجل لهم القرا ، وقيل : لكونه رفع مجالسهم في صفة حادثة ، وقرأ عكرمة (المُكَرَّمين) بالتشديد ، وأطلق علهم (ضيف) لكونهم في صورة الضيف ، حيث أضافهم إبراهيم ، أو لحسبانه لذلك ، وتقدم ذكر عددهم في سورة هود ، و (إذ) معمولة للمكرمين إذا كانت صفة حادثة بفعل إبراهيم ، وإلا في (ضيف) من معنى الفعل ، (أو بإضمار) اذكر ، وهذه أقوال منقولة ، وقرأ الجمهور (قالوا سلاماً) بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به . (قال سلام) بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام ، قصد أن يجيبهم بأحسن مما حيوه ، أخذاً بأدب الله تعالى ، إذ (سلاماً) دعاء ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : أمري سلام ، وسلام جملة خبرية قد تحصل مضمونها ووقع ، وقال ابن عطية : ويتجه أن يعمل في (سلاماً) (قالوا) على أن يجعل (سلاماً) في معنى قولاً ، ويكون المعنى حينئذ : أنهم قالوا تحية ، وقولاً معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد ، وقرأ ابن وثاب والنخعي وابن جبير وطلحة.(قال سِلْم) بكسر السين وإسكان اللام ، والمعنى : نحن سِلْم ، أو أنتم سِلْم ، وقرئا مرفوعين ، وقرىء (سلاماً قال سِلْماً) بنصبهما وكسر سين الثاني وسكون لامه ، (قوم منكرون) قال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض ، وذلك الزمان ، وقيل : لا نميزهم ولا عهد لنا بهم ، وقيل : كان هذا سؤالهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرّفوني من أنتم و (قوم) خبر مبتدأ محذوف ، قدره : أنتم والذي يناسب حال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى ، بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون ، وقال ذلك مع نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه ، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف ، (فراغ إلى أهله) أي : مضى أثناء حديثه مخفياً مضيه مستعجلاً ، (فجاء بعجل سمين) ومن أدب الضيف أن يخفي أمره، وأن يبادر بالقرا من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه أن يجيء بالضيافة ، وكونه عطف (فجاء) على (فراغ) يدل على سرعة مجيئه بالقرا ، وأنه كان معداً عنده لمن يرد عليه . وقال في سورة هود ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ [هود ٦٩] وهذا يدل أيضاً على أنه كان العجل سابقاً شيه قبل مجيئهم ، وقال قتادة : كان غالب ما له البقر ، وفيه دليل على أنه يحضر للضيف أكثر مما يأكل ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مضيافاً ، وحسبك وقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها ، (فقربه إليهم) فيه أدب المضيف من تقريب القرا لمن يأكل ، وفيه العرض على الأكل ، فإن في ذلك تأنيساً للآكل ، بخلاف من قدم طعاماً ولم يحث على أكله ، فإن الحاضر قد يتوهم أنه قدمه على سبيل التجمل ، عسى أن يمتنع الحاضر من الأكل ، وهذا موجود في طباع الناس ، حتى إن بعضهم إذا لج الحاضر وتمادى في الأكل أخذ من أحسن ما أحضر وأجزله ، فيعطيه لغلامه برسم رفعه لوقت آخر يختص هو بأكله ، وقيل : الهمزة في (ألا)

---

(١) انظر الوسيط ٨٩ خ .

للإنكار ، وكأنه ثَمَّ محذوف تقديره: فامتنعوا من الأكل ، فأنكر عليهم ترك الأكل ، فقال (ألا تأكلون) وفي الحديث « إنهم قالوا : إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه ، فقال لهم : وإني لا أبيحه لكم إلا بثمن ، قالوا وما هو ؟ وقال : أن تسموا الله عزَّ وجلَّ عند الابتداء وتحمدوه عند الفراغ من الأكل ، فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله خليلاً » ، (فأوجس منهم خيفة) أي : فلما استمروا على الامتناع من الأكل أوجس منهم خيفة ، وذلك أن أكل الضيف أمنة ودليل على انبساط نفسه ، وللطعام حرمة وذمام ، والامتناع من وحشة ، فخشي إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشر يريدونه ، «قالوا (لا تخف) ، وعرفوه أنهم ملائكة ، وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ، وعلمهم بما أضمر في نفسه من الخوف إنما يكون باطلاع الله ملائكته على ما في نفسه ، أو بظهور أمارته في الوجه ، فاستدلوا بذلك على الباطن ، وعن يحيى بن شداد ، مسح جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه ، (بغلام عليم) أي : سيكون عليماً ، وفيه تبشير بحياته حتى يكون من العلماء ، وعن الحسن (عليم) نبي ، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق بن سارة ، وقال مجاهد : هو إسماعيل ، وقيل : علم أنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب ، ووقعت البشارة بعد التأنيس والجلوس ، وكانت البشارة بذكر لأنه أسرّ للنفس وأبهج ، ووصفه بعليم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل إلا بالصورة الجميلة والقوة ، (فأقبلت امرأته في صرَّة) أي : إلى بيتها ، وكانت في زاوية تنظر إليهم وتسمع كلامهم، وقيل : (فأقبلت) أي : شرعت في الصياح ، قيل : وجدت حرارة الدم ، فلطمت وجهها من الحياء ، والصرة ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وسفيان : الصيحة قال الشاعر :

فَـأَلْحَقَـنَـا بِـالْهَـادِيَـاتِ وَدُونَـهُ   حَوَاجِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تُزَيَّلِ [1]

وقال قتادة وعكرمة : الرنة ، قيل : قالت : أوّه بصياح وتعجيب وقال ابن بحر : الجماعة ، أي : من النسوة تبادر وانظـر إلى الملائكة ، وقال الجوهري : الصرة الصيحة والجماعة والشدة (فصكت وجهها) أي : لطمته ، قالـه ابن عباس ، وكذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه ، وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء ، وقال السدي وسفيـان : ضرب بكفها جبهتهـا ، وهذا مستعمـل في النـاس حتى الآن (وقـالت عجـوز عقيم) أي : إنها قـد اجتمـع فيهـا أنها عجوز ، وذلك مانع من الولادة ، وأنها عقيم ، وهي التي لم تلد قط ، فكيف ألد تعجبت من ذلك ، (قالوا كذلك) أي : مثل القول الذي أخبرناك به (قال ربك) وهو القادر على إيجاد ما يستبعد ، وروي أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لها : انظري إلى سقف بيتك فنظرت ، فإذا جذوعه مورقة مثمرة ، (إنه هو الحكيم) أي : ذو الحكمة (العليم) بالمصالح ، ولما علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنهم ملائكة ، وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله تعالى رسلاً (قال فما خطبكم) (إلى قوم مجرمين) أي : ذوي جرائم ، وهي كبار المعاصي من كفر وغيره ، (لنرسل عليهم) أي : لنهلكهم بها(حجارة من طين) وهو السجيل ، طين يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصير في صلابة كالحجارة ، (مسوّمة) معلمة على كل واحد منها اسم صاحبه ، وقيل : معلمة أنها من حجارة العذاب ، وقيـل : معلمة أنها ليست من حجـارة الدنيـا (للمسرفين) وهم المجاوزون الحد في الكفر ، (فأخرجنا من كان فيها) في القرية التي حل العذاب بأهلها ، (غير بيت) هو بيت لوط ـ عليه السلام ـ وهو لوط وابنتاه فقط ، وقيل : ثلاثة عشر نفساً ، وقال الرماني : الآية تدل على أن الإيمان هو الإسلام ، وكذا قال الزمخشري وهما معتزليان ، (وتركنا فيها) أي : في القرية (آية) علامة ، قال ابن جريج : حجراً كبيراً جدّاً منضوداً ، وقيل : ماء أسود منتن ، ويجوز أن يكون (فيها) عائداً على الإهلاكة التي أهلكوها ، فإنها من أعاجيب الإهلاك

---

(١) البيت لامرىء القيس ، انظر ديوانه ١٢٠ القرطبي ١٧/ ٣٢ .

بجعل أعالي القرية أسافل وإمطار الحجارة ، والظاهر أن قوله (وفي موسى) معطوف على (وتركنا فيها) أي : في قصة موسى ، وقال الزمخشري وابن عطية (وفي موسى) يكون عطفاً على (وفي الأرض آيات للموقنين) (وفي موسى) وهذا بعيد جدّاً ، ينزه القرآن عن مثله ، وقال الزمخشري : أيضاً : أو على قوله (وتركنا فيها آية) على معنى : وجعلنا في موسى آية كقوله :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً

انتهى . ولا حاجة إلى إضمار : وتركنا ، لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور : وتركنا ، (فتولى بركنه) أي : ازور وأعرض ، كما قال (ونأى بجانبه) ، وقيل : بقوته وسلطانه ، وقال ابن زيد (بركنه) بمجموعه ، وقال قتادة ، بقوله (وقال ساحر أو مجنون) ظن أحدهما ، أو تعمد الكذب ، وقد علم رسول الله ـ ﷺ ـ حقاً ، وقال أبو عبيدة ، أو بمعنى الواو ، ويدل على ذلك أنه قد قالها ﴿ قال إن هذا لساحر عليم ﴾ [الشعراء ٣٤] وقال (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) الحجر ٦ واستشهد أبو عبيدة بقول جرير :

أَثَعْلَبَةَ الْفَوَارِسِ أَوْ رِيَاحاً ... عَدَلْتَ بِهِمْ طَهِيَّةَ وَالْخَشَايَا

ولا ضرورة تدعو إلى جعل (أو) بمعنى الواو ، إذ يكون قالها وأبهم على السامع ، فأو للإبهام (هو مليم) أي : أتى من المعاصي ما يلام عليه (العقيم) التي لا خير فيها من الشتاء مطر ، أو لقاح شجر ، وفي الصحيح «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » ، فقول : من ذهب إلى أنها الصّبا ، أو الجنوب ، أو النكباء ، وهي ريح بين ريحين نكبت عن سمت القبلة ، فسميت نكباء ليس بصحيح ، لمعارضته للنص الثابت عن الرسول ـ ﷺ ـ أنها الدبور (ما تذر من شيء أتت عليه) وهو عام مخصوص ، كقوله (تدمر كل شيء بأمر ربها) [الأحقاف ٢٥] أي : مما أراد تدميره وإهلاكه ، من ناس أو ديار أو شجر أو نبات ، لأنها لم يرد الله بها إهلاك الجبال والأكام والصخور ، ولا العالم الذي لم يكن من قوم عاد (إلا جعلته كالرميم) جملة حالية و (الرميم) تقدّم تفسيره في يس ، وهنا قال السدّي : التراب ، وقتادة : الهشيم ، ومجاهد : البالي ، وقطرب : الرماد وابن عيسى : المنسحق الذي لا يرم ، جعل الهمزة في أرم للسلب ، روى أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من قوم عاد ، فتنزعه من بينهم وتهلكه ، (تمتعوا حتى حين) قال الحسن : هذا كان حين بعث إليهم صالح ، أمروا بالإيمان بما جاء به والتمتع إلى أن تأتي آجالهم ، ثم إنهم عتوا بعد ذلك ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عن ما أمروا به ، فهو مطابق لفظاً ووجوداً ، وقال الفراء : هذا الأمر بالتمتع كان بعد عقر الناقة ، والحين : ثلاثة أيام التي أوعدوا في تمامها بالعذاب ، فالعتو كان قد تقدم قبل أن يقال لهم (تمتعوا) ولا ضرورة تدعو إلى قول الفراء ، إذ هو غير مرتب في الوجود ، وقرأ الجمهور (الصاعقةُ) وعمر وعثمان رضي الله عنهما والكسائي (الصَّعْقَةُ) وهي الصيحة هنا ، وقرأ الحسن (الصاعقةُ) وزيد بن عليّ كقراءة الكسائي (وهم ينظرون) بعيونهم قاله الطبري ، وكانت نهاراً ، وقال مجاهد (وهم ينظرون) ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموه فيها ، ورأوا علاماته في قلوبهم ، وانتظار العذاب أشد من العذاب ، (فما استطاعوا من قيام) لقوله ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [عنكبوت ٣٧] ونفي الاستطاعة أبلغ من نفي القدرة (وما كانوا منتصرين) أبلغ من نفي الانتصار ، أي : فما قدروا على الهرب ، ولا كانوا ممن ينتصر لنفسه ، فيدفع ما حل به ، وقيل : (من قيام) هو من قولهم : ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ، فليس المعنى انتصاب القامة قاله قتادة . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وقوم بالجر عطفاً على ما تقدم ، أي : وفي قوم نوح وهي قراءة عبد الله ، وقرأ باقي السبعة وأبو عمرو في رواية بالنصب ، قيل : عطفاً على الضمير في (فأخذتهم) ، وقيل : عطفاً على (فنبذناهم) لأن معنى كل منهما : فأهلكناهم ، وقيل : منصوب بإضمار فعل تقديره : وأهلكنا قوم نوح ، لدلالة معنى الكلام عليه ،

وقيل : باذكر مضمرة ، وروى عبد الوارث ومحبوب والأصمعي عن أبي عمرو وأبو السمال وابن مقسم وقوم نوح بالرفع على الابتداء والخبر محذوف ، أي : أهلكناهم قوله عز وجل : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ، كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون ، فتول عنهم فما أنت بملوم ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون** ﴾ .

أي : وبنينا السماء ، فهو من باب الاشتغال ، وكذا : وفرشنا الأرض . وقرأ أبو السمال ومجاهد وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على الابتداء ، (بأيدٍ) أي : بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وهو كقوله ﴿ داود ذا الأيد ﴾ [ص ١٧] ، (وإنا لموسعون) أي : بناءها فالجملة حالية ، أي : بنيناها مُوَسِّعُوها ، كقوله : جاء زيد وإنه لمسرع ، أي : مسرعاً ، فهي بحيث إن الأرض وما يحيط من الماء والهواء كالنقطة وسط الدائرة ، وقال ابن زيد قريباً من هذا ، وهو أن الوسع راجع إلى السماء ، وقيل : (لموسعون) قوة وقدرة ، أي : لقادرون من الوسع وهو الطاقة ، وقال الحسن : أوسع الرزق بالمطر والماء ، (فنعم الماهدون) (وخلقنا زوجين) ، قال مجاهد : إشارة إلى المتضادات والمتقابلات ، كالليل ، والنهار ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض ، والكفر والإيمان ، ونحو ذلك ، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين بخلاف ما يفعل بطبعه ، كالتسخين والتبريد ، ومثل الحسن بأشياء مما تقدم ، وقال : كل اثنين منها زوج ، والله تعالى فرد لا مثل له ، وقال ابن زيد وغيره (من كل شيء) أي : من الحيوان (خلقنا زوجين) ذكراً وأنثى ، وقيل : المراد بالشيء الجنس ، وما يكون تحت الجنس نوعان ، فمن كل جنس خلق نوعين من الجواهر ، مثل النامي والجامد ، ومن النامي المدرك والنبات ، ومن المدرك الناطق والصامت ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه (لعلكم تذكرون) أي : بأني باني السماء وفارش الأرض وخالق الزوجين ، تعالى أن يكون له زوج ، أو (تذكرون) أنه لا يعجزه حشر الأجساد وجمع الأرواح ، وقرأ أبي (تتذَكَّرُون) بتاءين وتخفيف الذال ، وقيل : إرادة أن تتذكروا ، فتعرفوا الخالق وتبعدوه ، (ففروا إلى الله) أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله ، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاب وعذاب ، وأمر حقه أن يفر منه ، فجمعت لفظة (ففروا) بين التحذير والاستدعاء ، وينظر إلى هذا المعنى قوله النبي ـ ﷺ ـ « لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك » قاله ابن عطية ، وهو تفسير حسن ، وقال الزمخشري : إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ، ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وكرر (إني لكم منه نذير مبين) عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العلم كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما ، ألا ترى إلى قوله ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام ١٥٨] والمعنى : قل يا محمد ففروا إلى الله انتهى . وهو على طريق الاعتزال ، وقد رددنا عليه في تفسير (لا ينفع نفساً إيمانها) في موضع هذه الآية ، (كذلك) أي : أمر الأمم السابقة عند مجيء الرسل إليهم مثل الأمر من الكفار الذين بعثت إليهم ، وهو التكذيب (ساحر أو مجنون) أو للتفصيل : أي قال بعض : ساحر ، وقال بعض : مجنون ، وقال بعض : كلاهما ، ألا ترى إلى قوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقولوا عنه : إنه ساحر ، بل قالوا به جُنة ، فجمعوا في الضمير ، ودلت (أو) على التفصيل ، (أتواصوا بـه) أي : بذلك القول ، وهو توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة على تكذيب الأنبياء مع افتراق أزمانهم ، (بل هم قوم طاغون) أي : لم يتواصوا به ، لأنهم لم يكونوا في زمان واحد ، بل جمعتهم علة واحدة ، وهي كونهم طغاة ، فهم مستعلون في الأرض ، مفسدون فيها

عاتون ، (فتول عنهم) أي : أعرض عن الـذين كررت عليهم الـدعوة فلم يجيبـوا ، (فما أنت بملوم) إذ قـد بلغت ونصحت ، (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) تؤثر فيهم وفيمن قدر الله أن يؤمن ، وما دل عليه الظاهر من الموادعة منسوخ بآية السيف وعن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ لما نزل (فتول عنهم) حزن المسلمون ، وظنوا أنه أمر بالتولي عن الجميع ، وأن الوحي قد انقطع ، نزلت (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فسروا بذلك (إلا ليعبدون) أي : وما خلقت الجن والإنس الطائعين قاله زيد بن أسلم وسفيان ، ويؤيده رواية ابن عباس عن رسول الله ـ ﷺ ـ (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين) ، وقال علي وابن عباس (إلا ليعبدون) إلا لآمرهم بعبادتي ، وليقروا لي بالعبادة ، فعبر بقوله (ليعبـدون) إذ العبادة هي مضمن الأمر ، فعلى هذا الجن والإنس عام ، وقيل : يحتمل أن يكون المعنى إلا معدين ليعبدون ، وكأن الآية تعديد نعمه ، أي : خلقت لهم حواس وعقولاً وأجساماً منقادة نحو العبادة ، كما تقول : هذا مخلوق لكذا ، وإن لم يصدر منه الذي خلق له ، كما تقول : القلم مبري لأن يكتب به ، وهو قد يكتب به ، وقد لا يكتب به ، وقال الزمخشري : إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها ، (فإن قلت :) لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً (قلت :) إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة ، لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم انتهى . وهو على طريقة الاعتزال ، وقال مجاهد (إلا ليعبدون) ليعرفون ، وقال ابن زيد : لأحملهم في العبادة على الشقاوة والسعادة ، وقال الربيع بن أنس : إلا للعبادة قال : وهو ظاهر اللفظ ، وقيل : إلا ليذلوا القضائي ، وقال الكلبي : إلا ليوحدون ، فالمؤمن يوحده ، في الشدة والرخاء ، والكافر في الشدة ، وقال عكرمة : ليطيعون ، فأثيب العابد ، وأعاقب الجاحد ، وقال مجاهد أيضاً : إلا للأمر والنهي ، (ما أريد منهم من رزق) أي : أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ، (وما أريد أن يطعمون) أي : أن يطعموا خلقي ، فهو على حذف مضاف ، فالإضافة إلى الضمير تجوز ، قاله ابن عباس . وقيل : (أن يطعمون) أن ينفعون ، فذكر جزءاً من المنافع ، وجعله دالاً على الجميع ، وقال الزمخشري : يريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا في تحصيل معايشهم وأرزاقهم بهم ، فإما مجهز في تجارة يبغي ربحاً ، أو مرتب في فلاحة ليقتل أرضاً ، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته ، أو محتطب ، أو محتش ، أو مستق أو طابخ ، أو خابز ، أو ما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق ، فأما مالك ملاك العبيد ، فقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أنا وحدي انتهى . وهو تكثير وخطابة . وقرأ ابن محيصن : الرزاق ، كما قرأ (وفي السماء رازقكم) اسم فاعل ، وهي قراءة حميد ، وقرأ الأعمش وابن وثاب (المتين) بالجر صفة للقوة على معنى الاقتدار قاله الزمخشري ، أو كأنه قال : ذو الأيد ، وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو ، وخفض على الجوار كقولهم : هذا جحر ضب خرب ، (فإن للذين ظلموا) هم أهل مكة ، وغيرهم من الكفار الذين كذبوا الرسول ـ ﷺ ـ (ذَنُوباً) أي : حظاً ونصيباً (مثل ذَنوب أصحابهم) من الأمم السابقة التي كذبت الرسل في الإهلاك والعذاب ، وعن قتادة سجلاً من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ، وقال الجوهري : الذنوب الدلو الملأى ماء ، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة ، وجمعها العدد ، وفي الكثير ذنائب ، والذنوب : الفرس الطويل الذنب ، والذنوب النصيب ، والذنوب لحم أسفل المتن ، وقـال ابن الأعرابي : يقال : يوم ذنوب ، أي : طويل الشر لا ينقضي ، (فويل للذين كفروا من يومهم) ، قيل : يوم بدر ، وقيل : يوم القيامة (الذي يوعدون) أي : به أو يوعدونه .

سورة الطور مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

الرَّق بالفتح والكسر : جلد رقيق ، يكتب فيه وجمعه : رقوق ، والـرِّق بالكسر المملوك ، مـار الشيء : ذهب وجاء ، وأبو عبيدة : تكفأ وأنشد الأعشى :

كَـأَنَّ مِشْيَتَهَـا مِنْ بَيْتِ جَـارَتِهَـا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ[1]

ويروى ، مرو السحابة ، الدع : الدفع في الضيق بشدّة ،وإهانة. السموم :، الريح الحارة التي تدخل المسام ، ويقال : سم يومنا ، فهو مسموم والجمع سمائم ، وقال ثعلب ، شدّة الحر ، أو شدّة البرد في النهار ، وقال أبو عبيدة : السموم بالنهار ، وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل ، وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم في لفح البرد ، وهو في لفح الحر والشمس أكثر . المنون : الدهر ، وريبه حوادثه ، وقيل : اسم للموت المسيطر : المتسلط ، وحكى أبو عبيدة : سطرت عليّ إذا اتخذتني خولاً ، ولم يأت في كلام العرب اسم على مفيعل إلا خمسة مهيمن ، ومحيمر ، ومبيطر ، ومسيطر ، ومبيقر ، فالمحيمر : اسم جبل ، والبواقي أسماء فاعلين ، والله تعالى أعلم .

﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً ، فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعّاً،هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ، إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوّجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، إذ في آخر تلك **﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾** [الذاريات ٥٩] وقال هنا (إن عذاب ربك لواقـع) ، الطور : الجبـل ، والظاهـر أنه اسم جنس ، لا جبل معين . وفي الشأم جبل يسمى : الطور ، وهو طور سيناء ، فقال نوف البكالي : إنه الذي أقسم الله به لفضله على الجبال ، قيل : وهو الذي كلم الله عليه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ، والكتاب المسطور : القرآن أو المنتسخ من اللوح المحفوظ ، أو التوراة ، أو هي الإنجيل الزبـور ، أو الكتاب الذي فيه أعمال الخلق ، أو الصحف التي تعطى يوم القيامة بالأيمان والشمائل ، أقوال آخرها للفراء ، ولا ينبغي أن يحمل شيء منها على التعيين ، إنما تورد على الاحتمال ، وقرأ أبو السمال (في رِق) بكسر الراء (منشور) أي : مبسوط ، وقيل : مفتوح لا ختم عليه ، وقيل : (منشور) لائح ، وعن ابن عباس (منشور) ما بين المشرق والمغرب . (والبيت المعمور) قال علي وابن عباس وعكرمة : هو بيت في السماء ،

---

(١) تقدم .

مسامت الكعبة ، يقال له : الضراح[١] والضريح أيضاً ، وهو الذي ذكر في حديث الإسراء ، قال جبريل « هذا البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إلى آخر ما عليهم » . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : في كل سماء بيت معمور ، وفي كل أرض كذلك[٢] ، وسأل ابن الكوا علياً ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال : بيت فوق سبع سموات ، تحت العرش ، يقال له : الضراح[٣] ، وقال الحسن (البيت المعمور) : الكعبة يعمره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز من الناس أتمه الله بالملائكة ، (والسقف المرفوع) السماء قال ابن عباس : هو العرش ، وهو سقف الجنة ، (والبحر المسجور) قال مجاهد وشمر بن عطية والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش ، هو البحر الموقد ناراً[٤] ، وروى أن البحر : هو جهنم[٥] وقال قتادة (البحر المسجور) المملوء[٦] وهذا معروف من اللغة ، ورجحه الطبري بوجود ماء البحر كذلك ، ولا ينافي ما قاله مجاهد لأن « سجرت التنور » معناه : ملأته بما يحترق ، وقال ابن عباس : المسجور الذي ذهب ماؤه[٧] ، وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أمة لتستقي ، فقالت : إن الحوض مسجور ، أي : فارغ وليس لذي الرمة حديث إلا هذا ، فيكون من الأضداد ، ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة ، وقال ابن عباس أيضاً : المسجور المحبوس[٨] ، ومنه ساجور الكلب ، وهي القلادة من عود أو حديد تمسكه ، ولولا أن البحر يمسك لفاض على الأرض ، وقال الربيع : المسجود المختلط[٩] العذب بالملح ، وقيل : المفجور ، ويدل عليه ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ [الانفطار ٢] والجمهور على أن البحر المقسم به هو بحر الدنيا ، ويؤيده (وإذا البحار سجرت) وعن علي وابن عمر أنه في السماء تحت العرش ، فيه ماء غليظ يقال له : بحر الحياة يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً ، فينبتون في قبورهم ، وقال قتيبة بن سعيد : هو جهنم ، وسماها بحراً لسعتها وتموجها ، كما جاء في الفرس : « وإن وجدناه لبحراً » قيل : ويحتمل أن تكون الجملة في القسم بالطور والبحر والبيت ، لكونها أماكن خلوة مع الله ـ تعالى ـ خاطب منها ربهم رسله ، فالطور قال فيه موسى ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف ١٤٣] والبيت المعمور لمحمد ـ ﷺ ـ والبحر المسجور ليونس ، قال ﴿لا إله إلا أنت سبحانك﴾ [الأنبياء ٨٧] فشرفت هذه الأماكن بهذه الأسباب والقسم بكتاب مسطور ، لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان لهم مع الله في هذه الأماكن كلام ، واقترانه بالطور دل عل ذلك ، والقسم بالسقف المرفوع لبيان رفعة البيت المعمور انتهى . ونكر (وكتابٍ) لأنه شامل لكل كتاب أنزله الله شمول البدل ، ويحتمل أن يكون شمول العموم ، كقوله (علمت نفس ما أحضرت) وكونه (في رَقٍ) يدل على ثبوته ، وأنه لا يتخطى الرؤوس وصفه بمنشور يدل على وضوحه ، فليس كالكتاب المطوي الذي لا يعلم ما انطوى عليه ، و (المنشور) يعلم ما فيه ولا يمنع من مطالعة ما تضمنه ، والواو الأولى واو القسم ، وما بعدها للعطف ، والجملة المقسم عليها هي قوله (إن عذاب ربك لواقع) وفي إضافة العذاب لقوله (ربك) لطيفة ، إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد

---

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ١٠٨٦/٣ والبخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ومجمع الزوائد ١١٤/٧ والدر المنثور ١١٨/٦ وابن كثير ٢٣٩/٤ والطبري ١١/٢٧ والمستدرك ٤٦٨/٢ وتفسير مجاهد ٦٢٣/٢ ، ٦٢٤ والوسيط ٩٢ خ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) انظر تفسير مجاهد ٦٢٤/٢ والطبري ١٢/٢٧ والبغوي ٢٣٧/٤ والوسيط ٩٣ خ .

(٥) المصادر السابقة .

(٦) المصادر السابقة .

(٧) انظر تفسير مجاهد ٦٢٤/٢ والطبري ١٢/٢٧ والبغوي ٢٣٧/٤ والوسيط ٩٣ خ .

(٨) المصادر السابقة .

(٩) المصادر السابقة .

فبالإضافة إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمان له ـ ﷺ ـ وإن العذاب لواقع هو بمن كذبه و (لواقع) على الشدة ، وهو أدل عليها من لكائن ، ألا ترى إلى قوله ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ [الواقعة] وقوله ﴿ وهو واقع بهم ﴾ [الشورى ٢٢] كأنه مهيأ في مكان مرتفع ، فيقع على من حل به ، وعن جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ـ ﷺ ـ في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وقرأ زيد بن علي (واقع) بغير لام . قال قتادة : يريد عذاب الآخرة للكفار ، أي : لواقع بالكفار ، ومن غريب ما يحكى : أن شخصاً رأى في النوم في كفه مكتوباً خمس واوات ، فعبر له بخير ، فسأل ابن سيرين فقال : تهيأ لما لا يسر ، فقال له : من أين أخذت هذا ؟ فقال : من قوله تعالى (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع) فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص ، وانتصب (يوم) بـ (دافع) قاله الحوفي وقال مكي لا يعمل فيه (واقع) ولم يذكر دليل المنع وقيل هو منصوب بقوله (الواقع) وينبغي أن يكون (ماله من دافع) على هذا جملة اعتراض بين العامل والمعمول ، قال ابن عباس (تمور) تضطرب ، وقال أيضاً : تشقق ، وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض ، وقال مجاهد : تدور وتسير الجبال سيراً ، هذا في أول الأمر ، ثم تنسف حتى تصير آخراً كالعهن المنفوش ، (فويل) عطف على جملة تتضمن ربط المعنى وتأكيده ، والخوض التخبط في الباطل وغلب استعماله في الاندفاع في الباطل ، (يوم يُدَّعُونَ) وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيدي الكفار إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم ، وزجاً في أقفيتهم . وقرأ علي وأبو رجاء والسلمي وزيد بن علي (يُدْعَون) بسكون الدال وفتح العين من الدعاء ، أي : يقال لهم : هلموا إلى النار ، وادخلوها دعاً مدعوعين ، يقال لهم (هذه النار) لما قيل لهم ذلك وقفوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن دخول الشك في أنها النار ، وهي إما أن يكون سحر يلبس ذات المرئي ، وإما أن يكون في نظر الناظر اختلال ، فأمرهم بصليها على جهة التقريع ، ثم قيل لهم على قطع رجائهم (فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) عذابكم حتم ، فسواء صبركم ، وجزعكم ، لا بد من جزاء أعمالكم ، قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : (أفسحر هذا) يعني : كنتم تقولون للوحي : هذا سحر (أفسحر هذا) يريد : أهذا المصداق أيضاً سحر ، ودخلت الفاء لهذا المعنى (أم أنتم لا تبصرون) كما كنتم لا تبصرون في الدنيا يعني : أم أنتم عمي عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم (فإن قلت :) لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إنما تجزون ما كنتم تعملون) (قلت :) لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة ، وبأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع انتهى . و (سحر) خبر مقدم و (هذا) مبتدأ ، و (سواء) مبتدأ والخبر محذوف ، أي : الصبر والجزع ، وقال أبو البقاء : خبر مبتدأ محذوف ، أي : صبركم وتركه سواء ، ولما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين ، ليقع الترهيب والترغيب ، وهو إخبار عن ما يؤول إليه حال المؤمنين ، أخبروا بذلك ، ويجوز أن يكون من جملة القول للكفار ، إذ ذلك زيادة في غمهم وتنكيد لهم ، والأول أظهر . وقرأ الجمهور (فَكِهِين) نصباً على الحال ، والخبر (في جنات ونعيم) وقرأ خالد بالرفع على أنه خبر (إن) و (في جنات) متعلق به ، ومن أجاز تعداد الخبر أجاز أن يكونا خبرين ، (ووقاهم) معطوف على (في جنات) ، إذ المعنى استقروا في جنات ، أو على (آتاهم) و (ما) مصدرية ، أي : فكهين بإيتائهم ربهم النعيم ووقايتهم عذاب الجحيم ، وجوز أن تكون الواو في (ووقاهم) واو الحال ، ومَنْ شرط قد في الماضي ، قال : هي هنا مضمرة . أي : وقد وقاهم ، وقرأ أبو حيوة (ووقَّاهم) بتشديد القاف ، (كلوا واشربوا) على إضمار القول ، أي : يقال لهم (هنيئاً) ، قال الزمخشري : أكلاً وشرباً (هنيئاً) أو طعاماً وشراباً (هنيئاً) وهو الذي لا تنغيص فيه ، ويجوز أن يكون مثله في قوله :

هنيئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ[١]

أعني : صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل ، مرتفعاً به « ما استحلت » كما يرتفع بالفعل ، كأنه قيل : هنا عزة المستحل من أعراضنا ، وكذلك معنى (هنيئاً) ههنا هنأكم الأكل والشرب ، أو هنأكم ما كنتم تعملون ، أي : جزاء ما كنتم تعملون ، والباء مزيدة ، كما في ﴿ وكفى بالله ﴾ [النساء ١٧١] والباء متعلقة بـ (كلوا واشربوا) إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب انتهى . وتقدم لنا الكلام مشبعاً على هنيئاً في سورة النساء ، وأما تجويزه زيادة الباء فليست زيادتها مقيسة في الفاعل إلا في فاعل كفى ، على خلاف فيها . فتجويز زيادتها في الفاعل هنا لا يسوغ ، وأما قوله : إن الباء تتعلق (بكلوا واشربوا) فلا يصح إلا على الإعمال ، فهي تتعلق بأحدهما ، وانتصب (متكئين) على الحال ، قال أبو البقاء : من الضمير في (كلوا) أو من الضمير في (ووقاهم) أو من الضمير في (آتاهم) أو من الضمير في (فاكهين) أو من الضمير في الظرف انتهى . والظاهر أنه حال من الظرف وهو قوله (في جنات) ، وقرأ أبو السمال (عَلَى سُرَرٍ) بفتح الراء ، وهي لغة لكلب في المضعف ، فراراً من توالي ضمتين مع التضعيف ، وقرأ عكرمة (بحور عين) على الإضافة ، والظاهر أن قوله (والذين آمنوا) مبتدأ وخبره (ألحقنا) وأجاز أبو البقاء أن يكون (والذين) في موضع نصب على تقدير : وأكرمنا الذين آمنوا ، ومعنى الآية : قال الجمهور وابن عباس وابن جبير وغيرهما : أن المؤمنين الذين اتبعتهم ذريتهم في الإيمان يكونون في مراتب آبائهم وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال مثلهم ، كرامة لآبائهم فـ (إيمان) متعلق بقوله (واتبعناهم) وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ « قال إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته ، وإن كان لم يبلغها بعمله ليقربها عينه ثم قرأ الآية » ، وقال ابن عباس والضحاك : إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار وإن لم يبلغوا الإيمان بأحكام الآباء المؤمنين انتهى . فيكون (بإيمان) متعلقاً بـ (ألحقنا) أي : ألحقنا بسبب الإيمان الآباء بهم ذرياتهم ، وهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف فهم في الجنة مع آبائهم ، وإذا كان أبناء الكفار الذين لم يبلغوا حدّ التكليف في الجنة ، كما ثبت في صحيح البخاري « فأحرى أولاد المؤمنين » ، وقال الحسن : الآية في الكبار من الذرية ، وقال منذر بن سعيد : هي في الصغار لا في الكبار ، وعن ابن عباس أيضاً الذين آمنوا المهاجرون والأنصار ، والذرية التابعون ، وعنه أيضاً « إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إليهم ، فالآباء داخلون في اسم الذرية ، وقال النخعي : المعنى أعطيناهم أجورهم من غير نقص ، وجعلنا ذريتهم كذلك . وقال الزمخشري : (والذين آمنوا) معطوف على (حور عين) أي : قرناهم بالحور العين ، وبالذين آمنوا ، أي : بالرفقاء والجلساء منهم كقوله تعالى (إخواناً على سرر متقابلين) فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين وأتبعناهم ذرياتهم ، ثم ذكر حديث ابن عباس ثم قال : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم بهم ونسلهم ، ثم قال (بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) أي : بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ، ألقحنا بدرجاتهم ذريتهم ، وإن كانوا لا يستأهلونها ، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم لنتمّ سرورهم ونكمل نعيمهم (فإن قلت :) ما معنى تنكير الإيمان (قلت :) معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ، ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل ، كأنه قال : بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء (ألحقناهم بهم) انتهى . ولا يتخيل أحد أن (والذين) معطوف على (بحور عين) غير هذا الرجل ، وهو تخيل أعجميّ مخالف لفهم العربي القح ابن عباس وغيره ، والأحسن من هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويعضده الحديث الذي رواه ، لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة ، وذكر من جملة إحسانه أنه يرعى

---

(١) البيت من الطويل ، لـ كثير عزة ، انظر ديوانه ٤٩/١ أمالي الشجري ١٦٥/١ الكشاف ٤١١/٤ روح المعاني ٣١/٢٧ .

المحسن في المسيء ، ولفظة (ألحقنا) تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال ، وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) وباقي السبعة (واتبعتهم) وأبو عمرو و (ذرياتهم) جمعاً نصباً ، وابن عامر جمعاً رفعاً ، وباقي السبعة مفرداً وابن جبير (وأتبعناهم ذريتهم) بالمدّ والهمز . وقرأ الجمهور (أَلَتناهم) بفتح اللام من ألات ، والحسن وابن كثير بكسرها وابن هرمز (آلتناهم) بالمدمن آلت على وزن أفعل ، وابن مسعود وأبيّ (لِتنَاهُم) من لات ، وهي قراءة طلحة والأعمش ، ورويت عن شبل وابن كثير ، وعن طلحة والأعمش أيضاً (لتناهم) بفتح اللام ، قال سهل : لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال ، وأنكر (آلتناهم) بالمد وقال لا يروى عن أحد ، ولا يدل عليها تفسير ولا عربية ، وليس كما ذكر ، بل قد نقل أهل اللغة (آلت) بالمد ، كما قرأ ابن هرمز ، وقرىء (وما ولتناهم) ذكره ابن هارون . قال ابن خالويه : فيكون هنا الحرف من لات يليت ، ووليت يلت وألت يألت ، وألات يليت ، ويؤلت ، وكلها بمعنى نقص ، ويقال ، ألت بمعنى غلظ ، وقام رجل إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فوعظه فقال رجل : لا تألت أمير المؤمنين ، أي : لا تغلظ عليه ، والظاهر أن الضمير في (ألتناهم) عائد على المؤمنين ، والمعنى : أنه تعالى يلحق المقصر بالمحسن ، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً، وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور ، وقال أبو زيد : الضمير على عائد على الأبناء ، (من عملهم) أي : الحسن والقبيح ، ويحسن هذا الاحتمال قوله (كل امرىء بما كسب رهين) أي : مرتهن ، وفيه (وأمددناهم) أي : يسرنا لهم شيئاً فشيئاً حتى يكر ولا ينقطع (يتنازعون فيها) أي : يتعاطون ، قال الأخطل :

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ ... صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي[1]

أو (يتنازعون) يتجاذبون تجاذب ملاعبة ، إذ أهل الدنيا لهم في ذلك لذة ، وكذلك في الجنة ، وقرأ الجمهور (لا لغو فيها ولا تأثيم) برفعهما وابن كثير وأبو عمرو بفتحهما ، واللغو السقط من الكلام ، كما يجري بين شراب الخمر في الدنيا ، والتأثيم : الإثم الذي يلحق شارب الخمر في الدنيا ، (غلمان لهم) أي : مماليك ، (مكنون) أي : في الصدف لم تنله الأيدي قاله ابن جبير ، وهو إذ ذاك رطب ، فهو أحسن وأصفى ، ويجوز أن يراد بـ (مكنون) مخزون ، لأنه لا يخزن إلا الغالي الثمن ، والظاهر أن التساؤل هو في الجنة ، إذ هذه كلها ، معاطيف بعضها على بعض ، أي : يتساءلون عن أحوالهم ، وما نال كل واحد منهم ، ويدل عليه (فمنَّ الله علينا) أي : بهذا النعم الذي نحن فيه ، وقال ابن عباس : تساؤلهم إذا بعثوا في النفخة الثانية حكاه الطبري عنه ، (مشفقين) رقيقي القلوب خاشعين لله ، وقرأ أبو حيوة (ووقَّانا) بتشديد القاف و (السموم) هنا النار ، وقال الحسن : اسم من أسماء جهنم . (من قبل) أي : من قبل لقاء الله والمصير إليه ، (ندعوه) نعبده ونسأله الوقاية من عذابه (إنه هو البر) المحسن (الرحيم) الكثير الرحمة إذا عبد أثاب ، وإذا سئل أجاب ، أو (ندعوه) من الدعاء ، وقرأ الحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي (أنه) بفتح الهمزة ، أي : لأنه وباقي السبعة (إنه) بكسر الهمزة ، وهي قراءة الأعرج وجماعة ، وفيها معنى التعليل ، قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن

---

(١) البيت من البسيط ، انظر جمهرة أشعار العرب (٧٢٥) وروايته هكذا :

نازعته طيباً راح الشمول وقد ... صاح الدجاج وحانت وقفة الساري

انظر القرطبي ٤٦/١٧ روح المعاني ٣٤/٢٧ .

رحمة ربك أم هم المسيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ، وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ، يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ، وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب ، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين ، أمره بالتذكير إنذاراً للكافر ، وتبشيراً للمؤمن ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته ، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون إذا كانا طريقين إلى الأخبار ببعض المغيبات ، وكان للجن بهما ملابسة للإنس ، وممن كان ينسبه إلى الكهانة شيبة بن ربيعة ، وممن كان ينسبه إلى الجنون عقبة بن أبي معيط ، وقال الزمخشري (فذكر) فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ، ولا يثبطنك قولهم : كاهن أو مجنون ، ولا تبال به ، فإنه قول باطل متناقض ، فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله ، وما أنت بحمد الله تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورصافة العقل أحد هذين انتهى . وقال الحوفي (بنعمة ربك) متعلق بما دل عليه الكلام ، وهو اعتراض بين اسم ما وخبرها ، والتقدير : ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ، قال أبو البقاء الباء في موضع الحال ، والعامل فيه (بكاهن) أو (مجنون) والتقدير : ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك انتهى . وتكون حالاً لازمة لا منتقلة ، لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه . وقيل (بنعمة ربك) مقسم بها ، كأنه قيل : ونعمة ربك ما أنت كاهن ولا مجنون ، فتوسط المقسم به بين الاسم والخبر ، كما تقول : ما زيد والله بقائم ، ولما نفى عنه الكهانة والجنون اللذين كان بعض الكفار ينسبونهما إليه ذكر نوعاً آخر مما كانوا يقولونه . روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة ، وكثرت آراؤهم فيه ـ ﷺ ـ حتى قال قائل منهم ـ وهم بنو عبد الدار ـ قاله الضحاك (تربصوا به ريب المنون) فإنه شاعر سيهلك ، كما هلك زهير والنابغة والأعشى . فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت الآية في ذلك ، وقول من قال ذلك هو من نقص الفطرة بحيث لا يدرك الشعر ، وهو الكلام الموزون على طريقة معروفة من النثر الذي ليس هو على ذلك المضمار ، ولا شك أن بعضهم كان يدرك ذلك ، إذ كان فيهم شعراء ولكنهم تمالؤوا مع أولئك الناقصي الفطرة على قولهم هو شاعر جحداً لآيات الله بعد استيقانها . وقرأ زيد بن علي (يُتَربَّصُ) بالياء مبنياً للمفعول (به ريبُ) مرفوع و (ريب المنون) حوادث الدهر ، فإنه لا يدوم على حال . قال الشاعر :

تَـرَبَّصْ بِهَـا رَيْبَ الْمَنُـونِ لَعَلَّهَـا ... تُـطَلَّقُ يَوْمـاً أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَـا[1]

وقال الهندي :

أَمِنَ الْمَنُـونِ وَرَيْبِهَـا تَتَـوَجَّـعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[2]

(قل تربصوا) هو أمر تهديد من المتربصين هلاككم ، كما تتربصون هلاكي ، (أم تأمرهم أحلامهم) عقولهم بهذا أي : بقولهم : كاهن وشاعر ومجنون ، وهو قول متناقض ، وكانت قريش تدعى أهل الأحلام والنهى ، وقيل : لعمرو بن العاصي : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟ فقـال : تلك عقول كـادها الله ، أي : لم يصحبها التوفيق . (أم تأمرهم) قيل : أم بمعنى الهمزة أي : أتأمرهم وقدرها مجاهد : ببل ، والصحيح أنها تتقدر ببل والهمزة (أم

---

(١) تقدم .

(٢) تقدم .

هم قوم طاغون) أي : مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق ، وقرأ مجاهد أي : (بل هم) مكان : أم هم وكون الأحلام آمرة مجازاً لما أدت إلى ذلك جعلت آمرة ، كقوله (أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) هود ، وحكى الثعلبي عن الخليل : أنه قال : كل ما في سورة والطور من (أم) وليس بعطف ، (تقوله) اختلقه من قبل نفسه ، كما قال ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ [الحاقة ٤٤]، وقال ابن عطية : (تقوله) معناه : قال عن الغير إنه قاله ، فهو عبارة عن كذب مخصوص انتهى . (بل لا يؤمنون) أي : لكفرهم وعنادهم ثم عجزهم بقوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أي : مماثل للقرآن في نظمه ورصفه ، من البلاغة وصحة المعاني ، والإخبار بقصص الأمم السالفة والمغيبات والحكم (إن كانوا صادقين) في أنه تقوله ، فليقولوا هم مثله ، إذ هو واحد منهم ، فإن كانوا صادقين فليكونوا مثله في التقوّل ، فقرأ الجحدري وأبو السمال (بحديثِ مِثْلِهِ) على الإضافة أي : بحديث رجل مثل الرسول في كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ، ولا رحل عن بلده أو مثله في كونه واحد منهم ، فلا يجوز أن يكون مثله في العرب فصاحة ، فليأت بمثل ما أتى به ، ولن يقدر على ذلك أبداً (أم خلقوا من غير شيء) أي : من غير شيء حي كالجماد ، فهم لا يؤمرون ولا ينهون ، كما هي الجمادات عليه قاله الطبري ، وقيل : (من غير شيء) أي : من غير علة ولا لغاية عقاب وثواب ، فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون ، وهذا كما تقول : فعلت كذا وكذا من غير علة ، أي : لغير علة فمن للسبب وفي القول الأول لابتداء الغاية ، وقال الزمخشري : (أم خلقوا) : أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم (من غير شيء) من غير مقدر أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق (بل لا يوقنون) أي : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا : الله وهم شاكون فيما يقولون (لا يوقنون) (أم خلقوا من غير) رب ولا خالق أي : أم أحدثوا وبرزوا للوجود من غير إله يبرزهم وينشئهم (أم هم الخالقون) لأنفسهم ، فلا يعبدون الله ولا يأتمرون بأوامره ، ولا ينتهون عن مناهيه ، والقسمان باطلان ، وهم يعترفون بذلك فدل على بطلانهم ، وقال ابن عطية : ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنفسهم ، أهم الذين خلقوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون ، ثم خصص من تلك الأشياء السموات والأرض لعظمها وشرفها في المخلوقات ، ثم حكم عليهم بأنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤديهم إلى اليقين . (أم عندهم خزائن ربك) قال الزمخشري : خزائن الرزق حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا أو أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة (أم هم المسيطرون) الأرباب الغالبون ، حتى يديروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ، وقال ابن عطية : عندهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور ، لأن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله تعالى ، وقال الزهراوي : وقيل : يريد بالخزائن العلم ، وهذا قول حسن إذا نؤمل وبسط ، وقال الرماني : خزائنه تعالى مقدوراته انتهى . والمسيطر : قال ابن عباس المسلط القاهر . وقرأ الجمهور (المصيطرون) بالصاد وهشام وقنبل وحفص بخلاف عنه بالسين ، وهو الأصل ، ومن أبدلها صاداً فلأجل حرف الاستعلاء وهو الطاءِ ، وأشم خلف عن حمزة ، وخلاد عنه بخلاف عنه الزاي ، (أم لهم سلم) منصوب إلى السماء (يستمعون فيه) أي : عليه أو منه ، إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض ، وقدره الزمخشري : صاعدين فيه ، ومفعول (يستمعون) محذوف تقديره : الخبر بصحة ما يدعونه ، وقدره الزمخشري : ما يوحى إلى الملائكة من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم ، وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون ، (بسلطان مبين) أي : بحجة واضحة بصدق استماعهم مستمعهم ، (أم تسألهم أجراً) على الإيمان بالله وتوحيده وأتباع شرعه ، فهم من ذلك المغرم الثقيل اللازم مثقلون ، فاقتضى زهدهم في اتباعك[1] ، (أم عندهم الغيب) أي : اللوح المحفوظ (فهم يكتبون) أي : يثبتون ذلك للناس شرعاً ، وذلك عبادة الأوثان وتسييب

---

(١) انظر البغوي ٤/٢٤١ والقرطبي ٨/٦٢٤٤ والوسيط ٩٥ خ .

السوائب ، وغير ذلك من سيرهم . وقيل : المعنى فهم يعلمون متى ، يموت محمد ـ ﷺ ـ الذي يتربصون به ، و (يكتبون) بمعنى يحكمون ، وقال ابن عباس : يعني أم عندهم اللوح المحفوظ ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون ، (أم يريدون كيداً) أي : بك وبشرعك ، وهو كيدهم به في دار الندوة (فالذين كفروا) أي : فهم ، وأبرز الظاهر تنبيهاً على العلة ، أو (الذين كفروا) عام فيندرجون فيه (هم المكيدون) أي : الذين يعود عليهم وبال كيدهم ، ويحيق بهم مكرهم ، وذلك أنهم قتلوا يوم بدر ، وسمى غلبتهم كيداً ، إذ كانت عقوبة الكيد (أم لهم إله غير الله) يعصمهم ويدفع عنهم في صدور إهلاكهم ، ثم نزه تعالى نفسه عما يشركون به من الأصنام والأوثان ، (وإن يروا كسفاً من السماء) كانت قريش قد اقترحت على رسول الله ـ ﷺ ـ فيما اقترحت من قولهم (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً) فأخبر تعالى : أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ، وقالوا هو (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض . (ممطرنا) وليس بكسف ساقط للعذاب ، (فذرهم) أمر موادعة منسوخ بآية السيف ، وقرأ الجمهور (حتى يلاقوا) وأبو حيوة (حتى يلقوا) مضارع لقي (يومهم) أي : يوم موتهم واحداً واحداً ، والصعق العذاب أو يوم بدر ، لأنهم عذبوا فيه ، أو يوم القيامة أقوال ثالثها قول الجمهور ، لأن صعقته تعم جميع الخلائق . وقرأ الجمهور (يَصْعَقُون) بفتح الياء ، وقرأ عاصم وابن عامر وزيد بن عليّ وأهل مكة في قول شبل بن عبادة ، وفتحها أهل مكة كالجمهور في قول إسماعيل وقرأ السلمي بضم الياء ، وكسر العين من أصعق رباعياً ، (وإن للذين ظلموا) أي : لهؤلاء الظلمة (عذاباً دون ذلك) أي : دون يوم القيامة وقبله ، وهو يوم بدر ، والفتح[١] قاله ابن عباس وغيره ، وقال البراء بن عازب وابن وعباس أيضاً : هو عذاب القبر ، وقال الحسن وابن زيد : مصائبهم في الدنيا ، وقال مجاهد : هو الجوع والقحط سبع سنين ، (فإنك بأعيننا) عبارة عن الحفظ والكلاءة ، وجمع لأنه أضيف إلى ضمير الجماعة وحين كان الضمير مفرداً أفرد العين قال تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ [طه ٣٩] ، وقرأ أبو السمال (بأعينَّا) بنون واحدة مشدّدة ، (وسبح بحمد ربك) قال أبو الأحوص عوف بن مالك : هو التسبيح المعروف ، وهو قول : سبحان الله عند كل قيام ، وقال عطاء (حين تقوم) من كل مجلس ، وهو قول ابن جبير ومجاهد : وقال ابن عباس (حين تقوم) من منامك ، وقيل : هو صلاة التطوع ، وقيل : الفريضة ، وقال الضحاك : (حين تقوم) إلى الصلاة تقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك ، وقال زيد بن أسلم (حين تقوم) من القائلة والتسبيح ، إذ ذاك هو صلاة الظهر ، وقال ابن السائب : اذكر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة ، (ومن الليل فسبحه) قبل صلاة المغرب والعشاء ، (وإدبار النجوم) صلاة الصبح ، وعن عمرو وعليّ وأبي هريرة والحسن : أنها النوافل (وإدبار النجوم) ركعتا الفجر . وقرأ سالم بن أبي الجعد والمنهال بن عمرو ويعقوب (وأدبار) بفتح الهمزة بمعنى : وأعقاب النجوم .

---

(١) انظر البغوي ٢٤٣/٤ والوسيط ٩٥ خ .

سورة النجم مكية وهي اثنتان وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ
شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾
۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي
مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ
وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ
يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا
سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ

أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

المِرّة : القوة من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله . وقال قطرب : تقول العرب لكل جزل الرأي خصيف العقل : إنه لذو مرّة قال :

وَإِنِّي لَـذُو مِـرَّةٍ مُـرَّةٍ ... إِذَا رُكِبَتْ خَالَةٌ خَالَهَا[1]

تدلى العذق تدلياً : امتد من علو إلى جهة السفل ، فيستعمل في القرب من العلو قاله الفراء وابن الأعرابي ، قال أسامة الهذلي :

تَـدَلَّى عَلَيْنَـا وَهْـوَ زَرْقُ حَمَـامَـةٍ ... إِذَا طُحْلُبٌ فِي مُنْتَهَى الْقَيْظِ هَامِدُ[2]

القاب والقيب والقاد والقيد : المقدار ، القوس : معروف ، وهو آلة لرمي السهام ، وتختلف أشكاله ، السدرة : شجرة النبق ، الضيزى : الجائرة ، من ضازه يضيزه إذا ضامه ، قال الشاعر :

ضَـازَتْ بَنُـو أَسَـدٍ بِحُكْمِهِمُ ... إِذْ يَجْعَلُونَ الرَّأْسَ كَالذَّنَبِ[3]

وأصلها : ضوزى على وزن فعلى ، نحو حبلى وأنثى وريا ، بها ما فعل ببيض لتسلم الياء ، ولا يوجد فعلى بكسر الفاء في الصفات ، كذا قال سيبويه ، وحكى ثعلب : مشية حبكى ، ورجل كيصى ، وحكى غيره : امرأة عزمى وامرأة سعلى والمعروف : عزماة وسعلاة ، وقال الكسائي : ضاز يضيز ضيزى ، وضاز يضوز ضوزى ، وضأز يضأز ضأزاً ، اللمم : ما قل وصغر ، ومنه اللمم : المس من الجنون ، وألمّ بالمكان : قل لبثه فيه ، وألمّ بالطعام : قل أكله منه ، وقال المبرد : أصل اللمم أن يلم بالشيء من غير أن يركبه ، يقال : ألم بكذا إذا قاربه ولم يخالطه ، وقال الأزهري : العرب تستعمل الإلمام في المقاربة والدنو ، يقال : ألم يفعل كذا بمعنى كاد يفعل ، قال جرير :

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنُّبُـهُ عَـزِيـزٌ ... عَلَيَّ وَمَنْ زِيَـارَتُـهُ لِمَـامُ[4]

---

(١) البيت من المتقارب لعبيد بن ماوية الطائي انظر ديوان الحماسة ١/٢٤٤ .
(٢) البيت من الطويل لأسامة الهذلي ، انظر اللسان (دلا) .
(٣) البيت من السريع نسب لامرىء القيس وليس في ديوانه انظر روح المعاني ٢٧/٥٧ القرطبي ١٧/٦٧ فتح القدير ٥/١٠٩ .
(٤) البيت من الوافر انظر ديوانه ١/٢٧٩ .

وقال آخر :

لِقَـاءُ أخِـلاَّءِ الصَّفَـا لِمَـامُ

الأجنة جمع جنين ، وهو الولد في البطن ، سمي بذلك لاستتاره والاجتنان الاستتار ، أكدى : أصله من الكدية ، يقال لمن حفر بئراً ثم وصل إلى حجر لا يتهيأ له فيها حفر : قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يتمم ، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره . قال الحطيئة :

فَـأَعْطَى قَلِيـلاً ثُمَّ أَكْدَى عَـطَاؤُهُ　　وَمَنْ يَبْذُلِ الْمَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدِ

وقال الكسائي وغيره : أكدى الحافر إذا بلغ كدية أو جبلاً ، ولا يمكنه أن يحفر ، وحفر فـأكدى إذا وصـل إلى الصلب ، ويقال : كديت أصابعه إذا كلت من الحفر ، وكدا البيت : قلّ ريعه ، وقال أبوزيد : أكدى الرجل قلّ خيره ، أقنى : قال الجوهري : قنى يقني قنى ، كغنى يغني غنى ، ويتعدّى بتغيير الحركة ، فتقول : قنيت المال أي : كسبته نحو شترت عين الرجل وشترها الله ، ثم تعدى بعد ذلك بالهمزة أو التضعيف ، فتقول : أقناه الله مالاً ، وقنّاه الله مالاً ، وقال الشاعر :

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصَابَ الدَّهْرُ ثَرْوَتَهُ　　وَمِنْ فَقِيـرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِقْـلالِ[١]

أي : تقنى المال ، ويقال : أقناه الله مالاً وأرضاه من القنية ، قال أبو زيد : تقول العرب لمن أعطي مائة من المعز ، أعطي القنى ، ومن أعطي مائة من الضأن : أعطي الغنى ، ومن أعطي مائة من الإبل : أعطي المنى ، الشعري : هو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر ، ويقال له : مرزم الجوزاء ، وهما الشعريان ، العبور التي في الجوزاء ، والشعرى : الغميصاء التي في الذراع ، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل ، قال الزمخشري : وتسمى كلب الجبار ، وهما شعريان ، الغميصاء والعبور ، ومن كذب العرب : أن سهيلاً والشعرى كانا زوجين ، فانحدر سهيل وصار يمانياً ، فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة ، فسميت العبور ، وأقامت الغميصاء لأنها أخفى من الأخرى ، أزف : قرب ، قال كعب بن زهير :

بَانَ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا　　وَلاَ أَرَى لِشَبَـابٍ بَـائِنٍ خَلَفَـا[٢]

وقال النابغة الذبياني :

أَزِفَ التَّـرَحُّلُ غَيْـرَ أَنَّ رِكَابَنَـا　　لَمَّا تَزلْ بِرِحَالِنَـا وَكَأَنْ قَـدِ[٣]

ويروى : أفد الترحل ، سمد لهي ولعب قال الشاعر :

أَلاَ أَيُّهَـا الإِنْسَـانُ إِنَّـكَ سَـامِـدٌ　　كَأَنَّكَ لاَ تُفْنَى وَلا أَنْتَ هَالِكُ[٤]

---

(١) البيت من البسيط لم نهتد لقائله ، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

(٢) انظر ديوانه ٤٥ وروايته فيه .

بـان الشبـاب وأمسى الشيـب قـد أزفـا　　ولا أرى لـشـبـاب ذاهـب خـلـفـا

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الكامل ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

وقال آخر :

قِيـلَ قُمْ فَـانْـظُرْ إِلَيْهِـمْ ثُمَّ دَعْ عَنْـكَ السُّمُـودَا[١]

وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير ، يقولون : يا جارية اسمدي لنا ، أي : غني لنا .

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القـوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنـا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشىٰ ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظنّ ومـا تهوى الأنفس ولقـد جاءهم من ربهم الهـدى ، أم للإنسـان ما تمنى ، فللّه الآخـرة والأولى ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، لأنه قال : (أم يقولون تقوّله) أي : اختلق القرآن ونسبوه إلى الشعر ، وقالوا هو كاهن ومجنون ، فأقسم تعالى أنه ـ ﷺ ـ ما ضل ، وأن ما يأتي به هو وحي من الله ، وهي أول سورة أعلن رسول الله ـ ﷺ ـ بها في الحرم والمشركون يستمعون ، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس ، غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته ، وقال : يكفي هذا ، وسبب نزولها قول المشركين إن محمداً ـ ﷺ ـ يختلق القرآن ، وأقسم تعالى بالنجم ، فقال ابن عباس ومجاهد والفراء ، والقاضي منذر بن سعيد : هو الجملة من القرآن ، إذا نزلت ، وقد نزل منجماً في عشرين سنة ، وقال الحسن ومعمر بن المثنى : هو هنا اسم جنس ، والمراد النجوم إذا هوت ، أي : غربت قال الشاعر :

فَبَاتَتْ تَعُدّ النَّجْمَ فِي مُسْتَجَرِّهِ سَرِيعٌ بِأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا[٢]

أي : تعد النجوم ، وقال الحسن وأبو حمزة الثمالي : النجوم إذا انتثرت في القيامة ، وقال ابن عباس أيضاً : هو انقض في أثر الشياطين، وهذا تساعده اللغة ، وقال الأخفش : والنجم إذا طلع ،وهويـه سقوطه ، على الأرض ، وقال ابن جبير: الصادق هو النبي ﷺ ، وهويه نزوله ليلة المعراج ، وقيل : النجم معين ، فقال مجاهد وسفيان : هو الثريا وهويها سقوطها مع الفجر ، وهو علم عليها ، بالغلبة ، ولا تقول العرب النجم مطلقاً إلا للثريا ، ومنه قول العرب :

طَلَعَ النَّـجْـمُ عِـشَـاءَ فَـابْتَغَى الـرَّاعِي كِسَـاءَ
طَـلَعَ الـنَّـجْـمُ غُـدَيَّـهْ فَـابْتَغَى الـرَّاعِي كُسَيَّـهْ[٣]

وقيل : الشعرى وإليها الإشارة بقوله (وأنه هو رب الشعرى) والكهان والمنجمون يتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وقيل : الزهرة وكانت تعبد . وقيل : (والنجم) هم الصحابة[٤] وقيل : العلماء مفرد أريد به الجمع . وهو في

---

(١) انظر لسان العرب (سمد) .

(٢) البيت من الطويل للراعي النميري ، انظر ديوانه ٩٢ الكشاف ٤/٤٧٧ اللسان (نجم) روح المعاني ٢٧/٤٤ القرطبي ١٧/٥٥ .

(٣) البيت الأول تقوله العرب عند الشتاء والثاني عند الصيف ، انظر الكشاف ٤/٤١٦ .

(٤) انظر الوسيط ٩٦ خ والبغوي ٤/٢٤٥ .

اللغة خرق الهوى ، ومقصده السفل ، إذ مصيره إليه وإن لم يقصد إليه ، وقال الشاعر :

هَوَىٰ الدَّلْو أَسْلَمَهَا الرِّشَا

ومنه : هوى العقاب صاحبكم هو محمد رسول الله ـ ﷺ ـ والخطاب لقريش أي : هو مهتد راشد ، وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي ، (وما ينطق) أي : الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عن الهوى) أي : عن هوى نفسه ورأيه (إن هو إلا وحي) من عند الله (يوحى) إليه ، وقيل : (وما ينطق) أي : القرآن عن هوى وشهوة ، كقوله (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) (إن هو) أي : الذي ينطق به أو (إن هو) أي : القرآن علمه الضمير عائد على الرسول ـ ﷺ ـ فالمفعول الثاني محذوف ، أي : علمه الوحي ، أو على القرآن ، فالمفعول الأول محذوف ، أي : (علمه) الرسول ـ ﷺ ـ (شديد القوى) هو جبريل[1] وهو مناسب للأوصاف التي بعده . وقاله ابن عباس وقتادة والربيع ، وقال الحسن (شديد القوى) هو الله تعالى وهو بعيد[2] (ذو مرة) ذو قوة ، ومنه « لا تحل الصداقة لغني ولا لذي مرة سوي » وقيل : ذو هيئة حسنة ، وقيل : هو جسم طويل حسن ، ولا يناسب هذان القولان إلا إذا كان شديد القوى ، هو جبريل ـ عليه السلام ـ (فاستوى) الضمير لله في قول الحسن ، وكذا (وهو بالأفق الأعلى) لله تعالى على معنى العظمة والقدرة والسلطان ، وعلى قول الجمهور (فاستوى) أي : جبريل في الجو (وهو بالأفق الأعلى) إن رآه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحراء قد سد الأفق له ستمائة جناح ، وحينئذ دنا من محمد حتى كان قاب قوسين ، وكذلك هو المرئي في النزلة الأخرى بستمائة جناح عند السدرة ، قاله الربيع والزجاج ، وقال الطبري ، والفراء : المعنى : فاستوى جبريل ، وقوله : وهو يعني محمداً ـ ﷺ ـ وفي هذا التأويل العطف على الضمير المرفوع من غير فصل ؛ وهو مذهب الكوفيين ، وقد يقال : الضمير في (استوى) للرسول وهو لجبريل ، و (الأعلى) لعمه الرأس ، وما جرى معه ، وقال الحسن وقتادة : هو أفق مشرق الشمس[3] وقال الزمخشري : (فاستوى) فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التي كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحي ، وكان ينزل في صورة دحية ، وذلك أن الرسول ـ ﷺ ـ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ، فاستوى له بالأفق الأعلى ، وهو أفق الشمس فملأ الأفق ، وقيل : ما رآه أحد الأنبياء في صورته الحقيقة غير محمد ﷺ مرة في الأرض ، ومرة في السماء (ثم دنا) من رسول الله ـ ﷺ ـ (فيتدلى) فتعلق عليه في الهوى ، وكان مقدار مسافة قربه منه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات ، كما قال أبو علي في قوله :

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنَ حَزِيمَةَ أُصْبُعَا[4]

أي : ذا مسافة مقدار أصبع (أو أدنى) على تقديركم ، كقوله (أو يزيدون) (إلى عبده) أي : إلى عبد الله وإن لم يجر لاسمه عز وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ، كقوله (ما ترك على ظهرها) (ما أوحى) تفخيم للوحي الذي أوحي إليه قبل

---

(١) المصدران السابقان .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) انظر البغوي ٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ والوسيط ٩٧ خ وتفسير مجاهد ٢/ ٦٢٨ ، ٦٢٩ وتفسير عبد الرزاق ٣/ ١٠٩١ والطبري ٢٧/ ٢٧ والبغوي ٤/ ٢٤٥ وزاد المسير ٨/ ٦٥ وابن كثير ٤/ ٢٤٧ .

(٤) عجز بيت من الطويل للكلحبة اليربوعي وصدره :

فأدرك إبقاء العرادة ظلعها ....

انظر المفضليات (٢١) اللسان (بقي) الكشاف ٤/ ٤٢٠ روح المعاني ٢٧/ ٤٨ القرطبي ١٧/ ٦٠ .

انتهى . وقال ابن عطية (ثم دنا) ، قال الجمهور : أي : جبريل إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام - عند حراء[1] وقال ابن عباس وأنس في حديث الإسراء ما يقتضي أن الدنو يستند إلى الله تعالى . وقيل : كان الدنو إلى جبريل ، وقيل : إلى الرسول - ﷺ - أي : دنا وحيه وسلطانه وقدرته ، والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) فإنه يقتضي نزلة متقدمة ، وما روى أن رسول الله - ﷺ - رأى ربه قبل ليلة الإسراء ، و (دنا) أعم من (تدلى) فبين هيئة الدنو ، كيف كانت قاب قدر ، قال قتادة : وغيره ، معناه من طرف العود إلى طرفه الآخر ، وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض . وقال أبو رزين : ليست بهذه القوس ، ولكن قدر الذراعين ، وعن ابن عباس : أن القوس هنا ذراع تقاس به الأطوال ، وذكر الثعلبي أنه من لغة الحجاز ، (فأوحى) أي : الله (إلى عبده) أي : الرسول - ﷺ - قاله ابن عباس . وقيل : (إلى عبده) جبريل (ما أوحى) إبهام على جهة التعظيم والتفخيم ، والذي عرف من ذلك فرض الصلوات . وقال الحسن (فأوحى) جبريل إلى عبد الله محمد - ﷺ - (ما أوحى) كالأول في الإبهام ، وقال ابن زيد (فأوحى) جبريل إلى عبد الله محمد - ﷺ - ما أوحاه الله تعالى إلى جبريل عليه السلام ، وقال الزمخشري : ما أوحى أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك ، (ما كذب) فؤاد محمد - ﷺ - ما رآه ببصره من صورة جبريل ، أي : ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك يعني : أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق انتهى . وقرأ الجمهور (ما كَذَب) مخففاً على معنى : لم يكذب قلب محمد - ﷺ - الشيء الذي رآه ، بل صدقه وتحققه نظراً و (كذب) يتعدى ، وقال ابن عباس وأبو صالح ، رأى محمد - ﷺ - الله تعالى بفؤاده ، وقيل : ما رأى بعينه لم يكذب ذلك قلبه ، بل صدقه وتحققه ، ويحتمل أن يكون التقدير : فيما رأى ، وعن ابن عباس وعكرمة وكعب الأحبار : أن محمداً - ﷺ - رأى ربه بعيني رأسه ، وأبت ذلك عائشة - رضي الله تعالى عنها - وقالت : أنا سألت رسول الله - ﷺ - عن هذه الآيات فقال لي : هو جبريل - عليه السلام - فيها كلها ، وقال الحسن المعنى ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته ، وسأل أبو ذر رسول الله - ﷺ - هل رأيت ربك ؟ فقال : نور أنى[2] أراه ، وحديث عائشة قاطع لكل تأويل في اللفظ ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن ، وليست نصاً في الرؤية بالبصر ، بل ولا بغيره ، وقرأ أبو رجاء وأبو جعفر وقتادة والجحدري وخالد بن إلياس وهشام عن ابن عامر (ما كَذَّب) مشدداً ، وقال كعب الأحبار : « إن الله قسم الرؤية والكلام بين محمد وموسى - عليهما الصلاة والسلام - فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد - ﷺ - مرتين[3] وقالت عائشة - رضي الله تعالى - عنها : لقد وقف شعري من سماع هذا ، وقرأت (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)[4] [الأنعام ١٠٣] وذهبت هي وابن مسعود وقتادة والجمهور إلى أن المرئي مرتين هو جبريل ، مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى[5] وقرأ الجمهور (أَفَتُمَارُونه) أي : أتجادلونه على شيء رآه ببصره وأبصره ، وعدي بعلى لما في الجدال من المغالبة ، وجاء (يرى) بصيغة المضارع ، وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعده ، وقرأ علي وعبد الله وابن عباس والجحدري ويعقوب وابن سعدان وحمزة والكسائي بفتح التاء وسكون الميم مضارع مريت ، أي : جحدت يقال : مريته حقه إذا جحدته ، قال الشاعر :

---

(١) انظر البغوي ٤/٢٤٥ - ٢٤٦ والوسيط ٩٧ خ وتفسير مجاهد ٢/٦٢٨ ، ٦٢٩ وتفسير عبد الرزاق ٣/١٠٩١ والطبري ٢٧/٢٧ والبغوي ٤/٢٤٥ وزاد المسير ٦٥٨ وابن كثير ٤/٢٤٧ .

(٢) أخرجه مسلم ١/١٦١ (٢٩١ - ١٧٨) والترمذي (٣٢٨٢) وأحمد في المسند ٥/١٥٧ - ١٧١ وأبو نعيم في الحلية ٩/٦١ .

(٣) انظر البغوي ٤/٢٤٧ ، ٢٤٨ والوسيط ٩٧ ، ٩٨ خ والطبري ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

لَئِنْ سَخِرْتَ أَخَا صِـدْقٍ وَمَكْرُمَـةٍ لَقَدْ مَرَيْتَ أَخاً مَا كَانَ يَمْرِيكَا[١]

وعدي بعلى على معنى التضمين ، وكانت قريش حين أخبرهم ـ ﷺ ـ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر عِيرهم ، وغير ذلك مما هو مستقصى في حديث الإسراء ، وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه ، والشعبي فيما ذكر شعبة بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريت ، قال أبو حاتم : وهـو غلط ، (ولقد رآه) الضمـير المنصوب عائد على جبريل ـ عليه السلام ـ قال ابن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع (نزلة أخرى) أي : مرة أخرى ، أي : نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ مرة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها ، وذلك ليلة المعراج ، وأخرى تقتضي نزلة سابقة ، وهي المفهومة من قوله (ثم دنا) جبريل (فتدلى) وهو الهبوط والنزول من علو . وقال ابن عباس وكعب الأحبار : الضمير عائد على الله على ما سبق من قولهما إن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى ربه مرتين ، وانتصب (نزلةً) قال الزمخشري : نصب الظرف الذي هو (مرة) لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل . وقال الحوفي وابن عطية : مصدر في موضع الحال . وقال أبو البقاء : مصدر أي : مرة أخرى ، أو رؤية أخرى (عند سدرة المنتهى) قيل : هي شجرة نبق في السماء السابعة[٢] وقيل : في السماء السادسة ، ثمرها كقلال هجر ، وورقها كآذان الفيلة تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها[٣] والمنتهى موضع الانتهاء ، لأنه ينتهي إليها علم كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها صعداً إلا الله تعالى عز وجل ، أو ينتهي إليها كل من مات على الإيمان من كل جيل ، أو ينتهي إليها ما نزل من أمر الله تعالى ولاتتجاوزها ملائكة العلو وما صعد من الأرض ، ولا تتجاوزها ملائكة السفل ، أو تنتهي إليها أرواح الشهداء ، أو كأنها في منتهى الجنة وآخرها ، أو تنتهي إليها الملائكة والأنبياء ويقفون عندها ، أو ينتهي إليها علم الأنبياء ويعزب علمهم عن ما وراءها ، أو تنتهي إليها الأعمال ، أو لانتهاء من رفع إليها في الكرامة أقوال تسعة (عندها جنة المأوى) أي : عنـده السدرة ، قيل : ويحتمل عند النزلة ، قال الحسن : هي الجنة التي وعدها الله المؤمنين . وقال ابن عباس بخلاف عنه ، وقتادة : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء ، وليست بالتي وعد المتقون جنة النعيم ، وقيل : جنة مأوى الملائكة ، وقرأ علي وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة (جَنَّه) بها الضمير ، وجن فعل ماض ، والهاء ضمير النبي ـ ﷺ ـ أي : عندها ستره إيواء الله تعالى وجميل صنعه ، وقيل : المعنى ضمه المبيت والليل . وقيل : جنه بظلاله ودخل فيه ، وردّت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا : أجن الله من قرأها ، وإذا كانت قراءة قرأها أكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فليس لأحد ردّها ، وقيل : إن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أجازتها ، وقراءة الجمهور (جنة المأوى) كقوله في آية أخرى ﴿ فلهم جنات المأوى نزلا ﴾ [السجدة ١٩] ، (إذ يغشى السدرة ما يغشى) فيه بـإبهام الموصول وصلته تعظم وتكثير للغاشي الذي يغشاه إذ ذاك أشياء لا يعلم وصفها إلا الله تعالى ، وقيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة ، يعبدون الله عندها ، وقيل : (ما يغشى) من قدرة الله تعالى وأنواع الصفات التي يخترعها لها ، وقال ابن مسعود وأنس ومسروق ومجاهد وإبراهيم: ذلك جراد من ذهب ، كان يغشاها ، وقال مجاهد : ذلك تبدل أغصانها دراً وياقوتاً ، وروى في الحديث : « رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى » ، وأيضاً يغشاها رفرف أخضر ، وأيضاً تغشاها ألوان لا أدري ما هي ؟ وعن أبي هريرة : يغشاها نور الخلاق ، وعن الحسن : غشيها نور رب العزة ،

---

(١) البيت من الهزج لم نهتد لقائله ، انظر الكشاف ٤/ ٤٢٠ روح المعاني ٢٧/ ٤٩ . وروى (هجوت) بدل (سخرت) يقول لصاحبه . الكشاف ٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

(٢) انظر البغوي ٤/ ٢٤٨ والوسيط ٩٩ خ والقرطبي ٢٧/ ٣١ .

(٣) المصادر السابقة .

فاستنارت ، وعن ابن عباس غشيها رب العزة ، أي : أمره ، كما جاء في صحيح مسلم مرفوعاً ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي ، ونظير هذا الإبهام للتعظيم (فأوحى إلى عبده ما أوحى) (والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى) ، (ما زاغ البصر) قال ابن عباس : ما مال هكذا ولا هكذا ، وقال الزمخشري : أي أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره ، أو يتجاوزه ، إذ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ، ومكن منها (وما طغى) وما جاوز ما أمر برؤيته انتهى . وقال غيره (وما طغى) ولا تجاوز المرئي إلى غيره ، بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً ، وهذا تحقيق للأمر ونفي للريب عنه ، (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قيل : الكبرى مفعول (رأى) أي : الآيات الكبرى والعظمى التي هي بعض آيات ربه ، أي : حين رقى إلى السماء رأى عجائب الملكوت ، وتلك بعض آيات الله ، وقيل (من آيات) هو في موضع المفعول ، و (الكبرى) صفة لآيات ربه ، ومثل هذا الجمع يوصف بوصف الواحدة ، وحسن ذلك هنا كونها فاصلة ، وكما في قوله ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ [طه ٢٣] عند من جعلها صفة لـ (آياتنا) وقال ابن عباس وابن مسعود : أي : رفرف أخضر قد سد الأفق ، وقال ابن زيدر : أي : جبريل في الصورة التي هو بها في السماء ، (أفرأيتم) خطاب لقريش ولما قرر الرسالة أولاً وأتبعه من ذكر عظمة الله وقدرته الباهرة ، بذكر التوحيد ، والمنع عن الإشراك بالله تعالى ، وقفهم على حقارة معبوداتهم وهي الأوثان ، وأنها ليست لها قدرة ، واللات : صنم كانت العرب تعظمه ، قال قتادة : كان بالطائف ، وقال أبو عبيدة وغيره : كان في الكعبة ، وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ ، وقال ابن عطية : وقول قتادة أرجح ، يؤيده قول الشاعر :

وَفَـرَّتْ ثَقِيفُ إِلَى لَاتِهَـا ... بِمُنْقَلَبِ الْخَائِبِ الْخَاسِرِ[1]

انتهى . ويمكن الجمع بأن تكون أصناماً سميت باسم اللات ، فأخبر كل عن صنم بمكانه ، والتاء في (اللات) قيل : أصلية لام الكلمة ، كالباء من باب ، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء ، لأن مادة ليت موجودة ، فإن وجدت مادة من (ل و ت) جاز أن تكون منقلبة من واو ، وقيل : التاء للتأنيث ، ووزنها فعلة من لوى قيل : لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتوون عليها ، أي : يطوفون حذف لامها ، وقرأالجمهور (اللات) خفيفة التاء ، وابن عباس ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية بشدها ، قال ابن عباس : كان هذا رجلاً بسوق عكاظ يلت السمن والسويق عند صخرة ، وقيل : كان ذلك الرجل من بهز يلت السويق للحجاج على حجر، فلما مات عبدوا الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك الرجل ،وسموه باسمه ، وقيل : سمي برجل كان يلت عنده السمن بالدب ، ويطعمه الحجاج ، وعن مجاهد : كان رجل يلت السويق بالطائف ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثنا ، وفي التحرير : أنه كان صنماً تعظمه العرب ، وقيل : حجر ذلك اللات وسموه باسمه ، وعن ابن جبير : صخرة بيضاء كانت العرب تعبدها وتعظمها ، وعن مجاهد : شجيرات تعبد ببلادها انتقل أمرها إلى الصخرة انتهى ، ملخصاً وتلخص في (اللات) أهو صنم ، أو حجر يلت عليه ، أو صخرة يلت عندها ، أو قبر اللات ، أو شجيرات ثم صخرة ، أو اللات نفسه ؟ أقوال ، و (العزى) : صنم ، وقيل : سموه لغطفان ، وأصلها تأنيث الأعز بعث إليها رسول الله ـ ﷺ ـ خالد بن الوليد ، فقطعها وخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها ، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ، وهو يقول :

يَـا عُزُّ كُفْـرَانَكِ لَا سُبْحَـانَك ... إِنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَـدْ أَهَـانَكِ[2]

---

(١) البيت من المتقارب لم نهتد لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧ / ٥٤ .

(٢) البيت لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ انظر اللسان (عزر) الكشاف ٤ /٤٢٢ روح المعاني٢٧ /٥٥ القرطبي ١٧ /٦٦ وقوله (يا عزّ) =

ورجع فأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « تلك العزى ولن تعبد أبداً » . وقال أبو عبيدة : كانت العزى ومناة بالكعبة انتهى . ويدل على هذا قول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين : لنا عزى ولا عزى لكم ، وقال ابن زيد : كانت العزى بالطائف ، وقال قتادة : كانت بنخلة ، ويمكن الجمع فإنه كان في كل مكان منها صنم يسمى بـ (العزى) كما قلنا في (اللات) ، فأخبر كل واحد عن ذلك الصنم المسمى ومكانه ، (ومناة) قيل : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وعن ابن عباس : لثقيف ، وقيل : بالمشكك من قديد بين مكة والمدينة ، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً ، وأكثرها عدداً ، وكانت الأوس والخزرج تهل لها ، هذا اضطراب كثير في هذه الأوثان ومواضعها ، والذي يظهر أنها كانت ثلاثتها في الكعبة ، لأن المخاطب بذلك في قوله (أفرأيتم) هم قريش ، وقرأ الجمهور (ومناة) مقصوراً ، فقيل : وزنها فعلة ، سميت مناة لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أي : تراق ، وقرأ ابن كثير (وَمَنَاءَة) بالمد والهمز قيل : ووزنها مفعلة ، فالألف منقلبة عن واو ، نحو : مقالة ، والهمزة أصل مشتقة من النوء ، كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها والقصر أشهر . قال جرير :

أَزَيْدَ مَنَاةٍ تُوعِدُ بَأْسَ تَيْمٍ   تَأَمَّلْ أَيْنَ تَاهَ بِكَ الْوَعِيدُ[1]

وقال آخر في المد والهمز :

أَلَا هَلْ أَتَى تَيْمَ بْنَ عَبْدِ مَنَاءَةٍ   عَلَى النَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا ابْنُ تَمِيمِ[2]

و (اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ) منصوبة بقوله (أفرأيتم) وهي بمعنى : أخبرني والمفعول الثاني الذي لها هو قوله : (ألكم الذكر وله الأنثى) على حد ما تقرر في متعلق (أرأيت) إذا كانت بمعنى : أخبرني ، ولم يعد ضمير من جملة الاستفهام على (اللاتَ والعزَّى ومناة) ، لأن قوله (وله الأنثى) هو في معنى : وله هذه الإناث ، فأغنى عن الضمير ، وكانوا يقولون في هذه الأصنام : هي بنات الله ، فالمعنى : ألكم النوع المحبوب المستحسن الموجود فيكم ، وله النوع المذموم بزعمكم ، وهو المستثقل وحسن إبراز الأنثى كونه نصاً في اعتقادهم أنهن إناث ، وأنهن بنات الله تعالى ، وإن كان في لحاق تاء التأنيث في (اللات) وفي (مناة) وألف التأنيث في (العزى) ما يشعر بالتأنيث ، لكنه قد سمى المذكر بالمؤنث ، فكان في قوله (الأنثى) نص على اعتقاد التأنيث فيها ، وحسن ذلك أيضاً كونه جاء فاصلة ، إذ لو أتى ضميراً فكان التركيب : ألكم الذكر وله هن ، لم تقع فاصلة ، وقال الزجاج : وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها فيقول : أخبروني عن آلهتكم ، هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السالفة ؟ انتهى . فجعل المفعول الثاني لـ (أفرأيتم) جملة الاستفهام التي قدرها ، وحذفت لدلالة الكلام السابق عليها ، وعلى تقديره يبقى قوله : (ألكم الذكر وله الأنثى) متعلقاً بما قبله من جهة المعنى ، لا من جهة الإعراب كما قلناه نحن ، ولا يعجبني قول الزجاج : وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها ، ولو قال : وجه اتصال هذه ، أو وجه انتظام هذه مع ما قبلها لكان الجيد في الأدب ، وإن كان يعني هذا المعنى . وقال ابن عطية : (أفرأيتم) خطاب لقريش ، وهي من رؤية العين ، لأنه أحال على أجرام مرئية ، ولو كانت (أرأيت) التي هي استفتاء لم تتعد انتهى . ويعنى بالأجرام(اللات والعزى ومناة) و (أرأيت) التي هي استفتاء تقع على الأجرام ،

= مرخم عزى ، انظر الكشاف ٤/٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

(١) البيت من الوافر ، انظر ديوانه شرح ديوان جرير . (١٢٦) .

(٢) البيت من الطويل للحارثي ، انظر ديوان أبي تمام ٣/٣٤٤ روح المعاني ٢٧/٥٥ القرطبي ١٧/٦٧ .

نحو : أرأيت زيداً ما صنع ؟ وقوله : ولو كانت « أرأيت » التي هي استفتاء يعني الذي تقول النحاة فيه : إنها بمعنى أخبرني لم تتعد ، والتي هي بمعنى الاستفتاء تتعدى إلى اثنين ، أحدهما منصوب ، والآخر في الغالب جملة استفهامية ، وقد تكرر لنا الكلام في ذلك ، وأوله في سورة الأنعام ، ودل كلام ابن عطية على أنه لم يطالع ما قاله الناس في أرأيت إذا كانت استفتاء على اصطلاحه ، وهي التي بمعنى أخبرني ، والظاهر أن (الثالثة الأخرى) صفتان لـ (مناة) وهما يفيدان التوكيد . قيل : ولما كانت (مناة) هي أعظم هذه الأوثان أكدت بهذين الوصفين ، كما تقول : رأيت فلاناً وفلاناً ، ثم تذكر ثالثاً أجلّ منهما ، فتقول : وفلاناً الآخر الذي من شأنه ، ولفظه آخر وأخرى يوصف به الثالث من المعدودات ، وذلك نص في الآية ، ومنه قول ربيعة بن مكرم :

وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخَرَ ثَالِثِ

انتهى .

وقول ربيعة مخالف للآية ، لأن ثالثاً جاء بعد آخر . وعلى قول هذا القائل : إن (مناة) هي أعظم هذه الأوثان ، يكون التأكيد لأجل عظمها ، ألا ترى إلى قوله : ثم تذكر ثالثاً أجل منهما ، وقال الزمخشري : والأخرى ذم ، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار ، كقوله تعالى (وقالت أخراهم لأولاهم) أي : وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ، ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى انتهى . ولفظ آخر ومؤنثه أخرى لم يوضعا للذم ولا للمدح ، إنما يدلان على معنى غير ، إلا أن من شرطهما أن يكونا من جنس ما قبلهما ، لو قلت : مررت برجل وآخر لم يدل إلا على معنى غير ، لا على ذم ولا على مدح ، وقال أبو البقاء و (الأخرى) توكيد لأن الثالثة لا تكون إلا أخرى انتهى . وقيل : (الأخرى) صفة لـ (العزى) لأنها ثانية (اللات) ، والثانية يقال لها : لأخرى ، وأخرت لموافقة رؤس الآي ، وقال الحسن بن الفضل : فيه تقديم وتأخير تقديره : والعزى الأخرى ومناة الثالثة الذليلة ، وذلك لأن الأولى كانت وثناً على صورة آدمي ، والعزى صورة نبات ، ومناة صورة صخرة ، فالآدمي أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد ، فالجماد متأخر ، ومناة جماد فهي في أخريات المراتب ، والإشارة بـ (تلك) إلى قسمتهم ، وتقديرهم : أن لهم الذكران ، ولله تعالى البنات ، وكانوا يقولون : إن هذه الأصنام والملائكة بنات الله تعالى . قال ابن عباس وقتادة (ضِيزَى) جائرة وسفيان : منقوصة وابن زيد : مخالفة ومجاهد ومقاتل : عوجاء والحسن : غير معتدلة ، وابن سيرين : غير مستوية . وكلها أقوال متقاربة في المعنى ، وقرأ الجمهور (ضيزى) من غير همز ، والظاهر أنه صفة على وزن فُعْلَى بضم الفاء ، كسرت لتصح الياء ، ويجوز أن تكون مصدراً على وزن فعلى كذكرى ووصف به ، وقرأ ابن كثير (ضِئْزَى) بالهمز فوجه على أنه مصدر كذكرى ، وقرأ زيد بن علي (ضَيْزَى) بفتح الضاد وسكون الياء ، ويوجه على أنه مصدر كدعوى ، وصف به ، أو وصف كسكرى وناقة خرمى ، ويقال ضوزى بالواو وبالهمز ، وتقدّم في المفردات حكاية لغة الهمز عن الكِسائي ، وأنشد الأخفش :

فَـإِنْ تَـنْـأَ عَنْـهَـا تَقْـتَضِـيْـكَ وإِنْ تَغِبْ   فَـسَـهْـمُـكَ مَـضْـؤُوزٌ وَأَنْـفُـكَ رَاغِـمُ[1]

(إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) تقدم تفسير نظيرها في سورة هود وفي سورة الأعراف وقرأ الجمهور (إن يَتّبِعُونَ) بياء الغيبة وعبد الله وابن عباس وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر بتاء الخطاب (إلّا الظَّنَ) وهو ميل النفس إلى أحد معتقدين من غير حجة (وما تهوى) أي : تميل إليه بلذة وإنما تهوى أبداً ما هو غير الأفضل ، لأنها مجبولة على حب الملاذ ، وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل . (ولقد جاءهم من ربهم الهدى)

---

(١) البيت من الكامل لم نهتد لقائله ـ انظر لسان العرب (ضأز) .

توبيخ لهم ، والذي هم عليه باطل . واعتراض بين الجملتين أي : يفعلون هذه القبائح والهدى قد جاءهم ، فكانوا أولى من يقبله ويترك عبادة من لا يجدي عبادته . (أم للإنسان ما تمنى) هو متصل بقوله (وما تهوى الأنفس) : بل للإنسان ، والمراد به الجنس (ما تمنى) أي : ما تعلقت به أمانيه ، أي : ليست الأشياء والشهوات تحصل بالأماني ، بل لله الأمر ، وقولكم : إن آلهتكم تشفع وتقرب زلفى ليس لكم ذلك ، وقيل : أمنيتهم قولهم ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [فصلت ٥٠] ، وقيل : قول الوليد بن المغيرة ﴿ لأوتين مالاً وولداً ﴾ [مريم ٧٧] ، وقيل : تمنى بعضهم أن يكون النبي . (فللّه الآخرة والأولى) أي : هو مالكهما ، فيعطي منهما ما يشاء ، ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يبلغ منهما إلا ما شاء الله وقدّم الآخرة على الأولى لتأخرها في ذلك ، ولكونها فاصلة فلم يراع الترتيب الوجودي ، كقوله ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ [الليل ١٣] .

﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ .

(وكم) هي خبرية ، ومعناها : هنا التكثير ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، والخبر (لا يغني) والغنى جلب النفع ودفع الضر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغنى و (كم) لفظها مفرد ومعناها جمع ، وقرأ الجمهور (شفاعَتُهم) بإفراد الشفاعة وجمع الضمير ، وزيد بن علي (شفاعَتُه) بإفراد الشفاعة والضمير . وابن مقسم (شَفَاعَاتُهم) بجمعهما ، وهو اختيار صاحب الكامل ، أي : القاسم الهذلي ، وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور ، لأنها مصدر ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً ، فإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه ، أي : يرضاه أهلاً للشفاعة ، فكيف تشفع الأصنام لمن يعبدها ، ومعنى تسمية الأنثى كونهم يقولون : إنهم بنات الله ، والذين لا يؤمنون بالآخرة : هم العرب منكرو البعث . (وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) أي : ما يدركه العلم لا ينفع فيه الظن ، إنما يدرك بالعلم واليقين . قيل : ويحتمل أن يكون المراد بالحق هنا هو الله تعالى ، أي : الأوصاف الإلهية ، لا تستخرج الظنون ، ويدل عليه ذلك بأن الله هو الحق . (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا) موادعة منسوخة بآية السيف (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أي : لم تتعلق إرادته بغيرها ، فليس له فكر في سواها كالنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة ، والذكر هنا : القرآن ، أو الإيمان ، أو الرسول ـ ﷺ ـ أقوال (عن من تولى عن ذكرنا) هو سبب الإعراض ، لأن من لا يصغي إلى قول كيف يفهم معناه ؟ فأمر ـ ﷺ ـ بالإعراض عن من هذه حاله ، ثم ذكر سبب التولي عن الذكر ، وهو حصر إرادته في الحياة الدنيا ، فالتولي عن الذكر سبب للإعراض عنهم ، وإيثار الدنيا سبب التولي عن الذكر ، وذلك إشارة إلى تعلقهم بالدنيا وتحصيلها (مبلغهم) غايتهم ومنتهاهم من العلم ، وهو ما تعلقت به علومهم من مكاسب الدنيا ، كالفلاحة والصنائع لقوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم ٧] ولما ذكر ما هم عليه أخبر تعالى بأنه عالم بالضال والمهتدي ، وهو مجازيهما . وقال الزمخشري : وقوله (ذلك مبلغهم من العلم) اعتراض انتهى . وكأنه يقول : هو اعتراض بين (فأعرض) وبين (إن ربك) ولا يظهر هذا الذي يقوله من الاعتراض . وقيل : ذلك إشارة إلى جعلهم الملائكة بنات الله . وقال الفراء : صغر رأيهم وسفه أحلامهم أي : غاية عقولهم ونهاية علومهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : ذلك إشارة إلى الظن ، أي : غاية ما يفعلون أن يأخذوا بالظن ، وقوله (إن ربك هو أعلم) في معرض التسلية ،

إذ كان من خلقه عليه الصلاة والسلام الحرص على إيمانهم ، وفي ذلك وعيد للكفار ووعد للمؤمنين . (ولله ما في السموات وما في الأرض) أخبر أن من في العالم العلوي والعالم السفلي ملكه تعالى يتصرف فيهما بما شاء ، واللام في (ليجزي) متعلقة بما دل عليه معنى الملك ، أي : يضل ويهدي ليجزي . وقيل : بقوله (بمن ضل) و (بمن اهتدى) واللام للصيرورة ، والمعنى : إن عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا أي : بعقاب ما عملوا و (الحسنى) الجنة ، وقيل : التقدير بالأعمال الحسنى ، وحين ذكر جزاء المسيء قال (بما عملوا) وحين ذكر جزاء المحسن أتى بالصفة التي تقتضي التفضل وتدل على الكرم ، والزيادة للمحسن ، كقوله تعالى : ﴿ ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ [العنكبوت ٧] والأحسن تأنيث الحسنى . وقرأ زيد بن علي (لنجزي) (ونجزي) بالنون فيهما . وتقدّم الكلام في الكبائر في قوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ [النساء ٣١] في سورة النساء ، والذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر (والفواحش) معطوف على كبائر ، وهي ما فحش من الكبائر أفردها بالذكر لتدل على عظم مرتكبها . وقال الزمخشري : والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . (إلا اللمم) استثناء منقطع ، لأنه لم يدخل تحت ما قبله وهو صغار الذنوب ، أو صفة إلى كبائر الإثم غير اللمم ، كقوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ [الأنبياء ٢٢] أي : غير الله (لفسدتا) ، وقيل : يصح أن يكون استثناء متصلاً ، وهذا يظهر عند تفسير اللمم ما هو ، وقد اختلفوا فيه اختلافاً . فقال الخدري : هو النظرة والغمزة والقبلة . وقال السدي : الخطرة من الذنب[1] . وقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي والكلبي : كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً ولا عذاباً[2] ، وقال ابن عباس أيضاً وابن زيد : ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام[3] ، وعن ابن عباس وزيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه : أن سبب الآية قول الكفار للمسلمين : قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا فنزلت[4] ، وهي مثل قوله (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) ، وقيل : نزلت في نبهان التمار وحديثه مشهور . وقال ابن عباس وغيره : العلقة والسقطة دون دوام ثم يتوب منه . وقال الحسن : والزنا والسرقة والخمر ثم لا يعود ، وقال ابن المسيب : ما خطر على القلب . وقال نفطويه : ما ليس بمعتاد . وقال الرماني : الهم بالذنب ، وحديث النفس دون أن يواقع ، وقيل : نظرة الفجأة ، (إن ربك واسع المغفرة) حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وقال الزمخشري : والكبائر بالتوبة انتهى . وفيه نزعة الاعتزال . (هو أعلم بكم) قيل : نزلت في قوم من اليهود عظموا أنفسهم ، وإذا مات طفل لهم قالوا : هذا صديق عند الله . وقيل : في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم ، والظاهر أنه خطاب عام ، و (أعلم) على بابها من التفضيل . وقال مكي : بمعنى عالم بكم ، ولا ضرورة إلى إخراجها عن أصل موضوعها . كأن مكياً راعى عمل (أعلم) في الظرف الذي هو (إذ أنشأكم من الأرض) والظاهر أن المراد (بأنشأكم) : أنشأ أصلكم وهو آدم ، ويجوز أن يراد من فضلة الأغذية التي منشؤها من الأرض (فلا تزكوا أنفسكم) أي : لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي ، ولا تثنوا عليها واهضموها ، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم ، وكثيراً ما ترى من المتصلحين إذا حدثوا : كان وردنا البارحة كذا ، وفاتنا من وردنا البارحة ، أو فاتنا وردنا ، يوهمون الناس أنهم يقومون بالليل ، وترى لبعضه في جبينه سواداً يوهم أنه من كثرة السجود ، ولبعضهم احتضار النية حالة الإحرام فيحرك يديه مراراً ويصعق حتى ينزعج من بجانبه ، وكأنه يخطف شيئاً بيديه وقت التحريكة الأخيرة يوهم أنه يحافظ على تحقيق النية ، وبعضهم يقول في

(١) انظر الوسيط (١٠١) والطبري ٢٧ ، ٣٩ والبغوي ٤/٢٥٢ ـ ٢٥٣ .
(٢) المصادر السابقة .
(٣) المصادر السابقة .
(٤) المصادر السابقة .

حلفه : وحق البيت الذي زرت . يعلم أنه حاج ، وإذا لاح له فلس يثب عليه وثوب الأسد على الفريسة ، ولا يلحقه شيء من الوسواس ، ولا من إحضار النية في أخذه ، وتراه يحب الثناء عليه بالأوصاف الجميلة التي هو عارضها . وقيل : المعنى لا يزكي بعضكم بعضاً تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية بالقطع ، وأما التزكية لإثبات الحقوق فجائزة للضرورة ، والجنين ما كان في البطن ، فإذا خرج سمي ولداً أو سقطاً ، وقوله (في بطون أمهاتكم) تنبيه على كمال العلم والقدرة ، فإن بطن الأم في غاية الظلمة ، ومن علم حاله وهو مجنّ لا يخفى عليه حاله وهو ظاهر . (بمن اتقى) قيل : الشرك ، وقال علي : عمل حسنة ، وارعوى عن معصية . قوله عز وجل : **﴿ أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعرى * وأنه أهلك عاداً الأولى * وثموداً فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأي آلاء ربك تتمارى * هذا نذير من النذر الأولى * أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة * أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا ﴾** .

(أفرأيت) الآية ، قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت[١] في الوليد بن المغيرة ، كان قد سمع قراءة رسول الله ـ ﷺ ـ وجلس إليه ووعظه ، فقرب من الإسلام وطمع فيه رسول الله ـ ﷺ ـ ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، فقال له : أتترك ملة آبائك ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عن ما هم به من الإسلام ، وضل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عنه وشح . وقال الضحاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس فلايس لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه ، وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه[٢] ، وقال السدي : نزلت في العاصي بن وائل السهمي ، كان ربما يوافق النبي ـ ﷺ ـ في بعض الأمور[٣] ، وقال محمد بن كعب : في أبي جهل بن هشام ، قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق[٤] ، وروي عن ابن عباس[٥] والسدي[٦] : إنها نزلت في عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان يتصدق ، فقال له أخوه من الرضاعة ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح : نحواً من كلام القائل للوليد بن المغيرة الذي بدأنا به ، وذكر القصة بتمامها الزمخشري ، ولم يذكر في سبب النزول غيرها . قال ابن عطية : وذلك كله عندي باطل ، وعثمان ـ رضي الله عنه ـ منزه عن مثله انتهى . و (أفرأيت) هنا بمعنى أخبرني ، ومفعولها الأول الموصول ، والثاني الجملة الاستفهامية ، وهي أعنده علم الغيب ، و (تولى) أي : أعرض عن الإسلام . وقال الزمخشري (تولى) ترك المركز يوم أحد انتهى . لما جعل الآية نزلت في عثمان ، فسر التولي بهذا ، وإذا ذكر التولي غير مقيد في القرآن ، فأكثر استعماله أنه استعارة عن عدم الدخول في الإيمان ، (وأعطى قليلاً وأكدى) ، قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم عصى . وقال مجاهد (أعطى قليلاً) من نفسه

---

(١) انظر البغوي ٢٥٣/٤ وتفسير عبد الرزاق ١٠٩٥/٣ والطبري ٤١/٢٧ ، ٤٢ والقرطبي ٦٢٨١/٨ والبغوي ٢٥٣/٤ وفتح الباري ٦٠٤/٨ وابن كثير ٢٥٧/٤ والوسيط ١٠١ خ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) المصادر السابقة

(٥) المصادر السابقة .

(٦) المصادر السابقة .

بالاستياع ، ثم أكدى بالانقطاع ، وقال الضحاك : أعطى قليلاً من ماله ثم منع ، وقال مقاتل : أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع . (أعنده علم الغيب) أي : أعلم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر فإن المتحمل عنه ينتفع بذلك ، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وله فيه بصيرة ، أم هو جاهل ؟ ، وقال الزمخشري (فهو يرى) فهو يعلم أن ما قاله أخوه من احتمال أوزاره حق ، وقيل : يعلم حاله في الآخرة . وقال الزجاج : يرى رفع مأثمه في الآخرة . وقيل : (فهو يرى) أن ما سمعه من القرآن باطل . وقال الكلبي : أنزل عليه قرآن فرأى ما منعه حق ، وقيل (فهو يرى) أي : الإجزاء ، واحتمل (يرى) أن تكون بصرية أي : فهو يبصر ما خفي عن غيره مما هو غيب ، واحتمل أن يكون بمعنى يعلم أي : فهو يعلم الغيب مثل الشهادة . (أم لم ينبأ) أي : بل ألم يخبر بما في صحف موسى ، وهي التوراة وإبراهيم أي : وفي صحف إبراهيم التي أنزلت عليه ، وخص هذين النبيين عليهما أفضل الصلاة والسلام ، قيل : لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده ، فأول من خالفهم إبراهيم ، ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى ـ عليهما السلام ـ كانوا لا يأخذون الرجل بجريمة غيره. (الذي وفى)، قرأ الجمهور (وَفَّى) بتشديد الفاء ، وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميفع وزيد بن علي بتخفيفها ، ولم يذكر متعلق (وَفَّى) ليتناول كل ما يصلح أن يكون متعلقاً له ، كتبليغ الرسالة والاستقلال بأعباء الرسالة ، والصبر على ذبح ولده ، وعلى فراق إسماعيل وأمه، وعلى نار نمروذ وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه ، وكان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً ، فإن وافقه أكرمه ، وإلا نوى الصوم . وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفَّى به ، وعن عطاء بن السائب ، عهد أن لا يسأل مخلوقاً ، وقال ابن عباس والربيع (وفَّى) طاعة الله في أمر ذبح ابنه . وقال الحسن وقتادة (وفَّى) بتبليغ الرسالة ، والمجاهدة في ذات الله ، وقال عكرمة (وفَّى) هذه العشر الآيات (أن لا تزر) فما بعدها . وقال ابن عباس : أيضاً وقتادة (وفَّى) ما افترض عليه من الطاعة على وجهها ، وكملت له شعب الإيمان والإسلام ، فأعطاه الله براءته من النار ، وقال ابن عباس أيضاً (وفَّى) شرائع الإسلام ثلاثين سهماً ، يعني عشرة في براءة ﴿ التائبون ﴾ [براءة ١٢٢] الخ ، وعشرة في ﴿ قد أفلح ﴾ [المؤمنون ١] وعشرة في الأحزاب ﴿ إن المسلمين ﴾ [الأحزاب ٣٥] ، وقال أبو أمامة ورفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ (وفَّى) أربع صلوات في كل يوم . وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما ادّعى ، وذلك أن الله تعالى (قال له أسلم قال أسلمت لرب العالمين) فطالبه بصحة دعواه . فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده وافياً انتهى . وللمفسرين أقوال غير هذه ، وينبغي أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفى ، لا على سبيل التعيين ، و (أن) هي المخففة من الثقيلة ، وهي بدل من (ما) في قوله (بما في صحف) أو في موضع رفع ، كأن قائلاً قال : ما في صحفهما ؟ فقيل : لا تزر وازرة وزر أخرى . وتقدم شرح ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤] ، (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى) الظاهر أن الإنسان يشمل المؤمن والكافر ، وأن الحصر في السعي فليس له سعي غيره ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمّة فلها سعي غيرها ، يدل عليه حديث سعد بن عبادة « هل لأمي إن تطوعت عنها قال نعم » ، وقال الربيع : الإنسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة ٢٦١] فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بالفضل ما شاء الله ، فقبل عبد الله رأس الحسين ، وما روي عن ابن عباس أنها منسوخة لا يصح لأنه خبر لم يتضمن تكليفاً وعند الجمهور أنها محكمة قال ابن عطية : والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله (للإنسان) فإذا حققت الذي حق الإنسان أن يقول فيه لي كذا لم تجده إلا سعيه ، وما تم بعد من رحمة بشفاعة ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات ، أو تعمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ، ولا يسعه أن يقول : لي كذا وكذا إلا على تجوز ، وإلحاق بما هو حقيقة ، واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته

ببدن أو مال ، وفرق بعض العلماء بين البدن والمال انتهى . والسعي : التكسب و (يُرى) مبني للمفعول أي : سوف يراه حاضراً يوم القيامة ، وفي عرض الأعمال تشريف للمحسن وتوبيخ للمسيء ، والضمير المرفوع في (يجزاه) عائد على الإنسان والمنصوب عائد على السعي ، و (الجزاء) مصدر . قل الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسره بقوله (الجزاء الأوفى) وإذا كان تفسيراً للمصدر المنصوب في (يجزاه) فعلى ماذا انتصابه ؟ وأما إذا كان بدلاً فهو من باب بدل الظاهر من الضمير الذي يفسره الظاهر ، وهي مسألة خلاف ، والصحيح المنع[1] . وقرأ الجمهور (وأن إلى ربك) وما بعدها من (وأنه) (وأنّ) بفتح الهمزة عطفاً على ما قبلها . وقرأ أبو السمال بالكسر فيهن ، وفي قوله (الأوفى) وعيد للكافر ووعد للمؤمن ، ومنتهى الشيء غايته ، وما يصل إليه أي : إلى حساب ربك والحشر لأجله ، كما قال ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران ٢٨] أي : إلى جزائه وحسابه ، أو إلى ثوابه من الجنة وعقابه من النار ، وهذا التفسير المناسب لما قبله في الآية ، وعن أبي عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى (وأن إلى ربك المنتهى) لا فكرة في الرب ، وروى أنس عنه ـ ﷺ ـ « إذا ذكر الرب فانتهوا » (وأنه هو أضحك وأبكى) الظاهر حقيقة الضحك والبكاء ، قال مجاهد : أضحك أهل الجنة ، وأبكى أهل النار ، وقيل : كنى بالضحك عن السرور ، وبالبكاء عن الحزن ، وقيل : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر ، وقيل : أحيا بالإيمان ، وأبكى بالكفر ، وقال الزمخشري (أضحك وأبكى) خلق قوتَي الضحك والبكاء انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال ، إذ أفعال العباد من الضحك والبكاء وغيرهما مخلوقة للعبد عندهم ، لا لله تعالى فلذلك قال : خلق قوتي الضحك والبكاء ، (وأنه خلق الزوجين) المصطحبين من رجل وامرأة وغيرهما من الحيوان (من نطفة إذا تمنى) أي : إذا تدفق وهو المني يقال : أمنى الرجل ومنى . وقال الأخفش (إذا تمنى) أي : يخلق ويقدر ، من منى الماني أي : قدر المقدر ، (وأن عليه النشأة الأخرى) أي : إعادة الأجسام أي : الحشر بعد البلى ، وجاء بلفظ (عليه) المشعرة بالتحتم لوجود الشيء لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله (عليه) بوجودها لا محالة ، وكأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ، وتقدم الخلاف في قراءة (النشأة) في سورة العنكبوت ، وقال الزمخشري : وقال (عليه) لأنها واجبة عليه في الحكمة ، ليجازى على الإحسان والإساءة انتهى . وهو على طريق الاعتزال ، (وأنه هو أغنى وأقنى) أي : أكسب القنية يقال : قنيت المال ، أي : كسبته ، وأقنيته إياه أي : أكسبته إياه ، ولم يذكر متعلق أغنى وأقنى ، لأن المقصود نسبة هذين الفعلين له تعالى ، وقد تكلم المفسرون على ذلك ، فقالوا اثني عشر قولاً ، كقولهم : أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ، وكل قول منها لا دليل على تعيينه ، فينبغي أن تجعل أمثلة . و (الشعرى) التي عبدت . هي العبور . وقال السدّي : كانت تعبدها حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي ـ ﷺ ـ من قبل أمهاته ، وكان اسمه عبد الشعرى ، ولذلك كان مشركو قريش يسمونه ـ عليه السلام ـ ابن أبي كبشة ، ومن ذلك كلام أبي سفيان : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، ومن العرب من كان يعظمها ولا يعبدها ، ويعتقد تأثيرها في العالم ، وأنها من الكواكب الناطقة ، يزعم ذلك المنجمون ، ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وهي تقطع السماء طولاً والنجوم تقطعها عرضاً . وقال مجاهد وابن زيد : هو مرزم الجوزاء ، (وأنه أهلك عاداً الأولى) جاء بين (أن) وخبرها لفظ (هو) ، وذلك في قوله (وأنه هو أضحك) (وأنه هو أمات) (وأنه هو أغنى) (وأنه هو رب الشعرى) ففي الثلاثة الأول لما كان قد يدعي ذلك بعض

---

(١) حاصل ذلك أن الأخفش أجاز أن يفسر الضمير باسم ظاهر بعده ، ويكون هذا الظاهر بدلاً من الضمير ، وذهب غيره إلى المنع يقول ابن هشام أن يكون بدلاً منه الظاهر المفسر له (كضربته زيداً) وقال ابن عصفور : أجازه الأخفش ومنعه سيبويه ، وقال ابن كيسان : هو جائز بإجماع ، ومعنى الإجماع عند أبي كيسان اتفاق سيبويه وغيره ، خلافاً لما قاله ابن عصفور . وقال المصنف ـ رحمه الله ـ في التسهيل ، ويتقدم أيضاً غير منوي التأخير إن جر (برب) أو رفع (بنعم) أو شبهها أو بأول المتنازعين ، أو أبدل منه المفسر ، وقد صحح المصنف ـ رحمه الله ـ في شرحه على التسهيل مذهب الأخفش فكيف منع هنا فقال : والصحيح الجواز ، وهو مذهب أبي الحسن .

الناس ، كقول نمروذ (أنا أحيي وأميت) احتيج إلى تأكيد في أن ذلك إنما هو لله لا غيره ، فهو الذي يضحك ويبكي ، وهو المميت المحيي ، والمغني والمقني حقيقة ، وإن ادّعى ذلك أحد فلا حقيقة له ، وأما (وأنه هو رب الشعرى) فلأنها لما عبدت من دون الله تعالى ، نص على أنه تعالى هو ربها وموجدها، ولما كان خلق الزوجين والإنشاء الآخر وإهلاك عاد ومن ذكر لا يمكن أن يدعي ذلك أحد لم يحتج إلى تأكيد ولا تنصيص أنه تعالى هو فاعل ذلك ، وعاد الأولى : هم قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم ، وقيل (الأولى) القدماء ، لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح ـ عليه السلام ـ ، وقيل : (الأولى) المتقدّمون في الدنيا الأشراف قاله الزمخشري . وقال ابن زيد والجمهور : لأنها في وجه الدهر وقديمه . فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة ، وقال الطبري : وصفت بالأولى لأن عاداً الآخرة قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهو بنو لقيم بن هزال ، وقال المبرد : عاد الأخيرة هي ثمود ، والدليل عليه قول زهير :

كـأحْمَر عَـادٍ ثُم تُرْضِـع فَتفطـمِ

ذكره الزهراوي ، وقيل عاد الأخيرة الجبارون وقيل قبل الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود وقيل ثمود من قبل عاد. وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية : من ولد عاد الأولى ، وقرأ الجمهور (عاداً الأُولى) بتنوين (عاداً) وكسره لالتقائه ساكناً مع سكون لام (الأولى) وتحقيق الهمزة بعد اللام . وقرأ قوم كذلك غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام وحذفوا الهمزة . وقرأ نافع وأبو عمرو بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة ، و (عَاد) هذه القراءة للمازني والمبرد ، وقالت العرب في الابتداء بعد النقل : الحمر ولحمر ، فهذه القراءة جاءت على لَحْمَر ، فلا عيب فيها ، وهمز قالون عين (الأولى) بدل الواو الساكنة ، ولما لم يكن بين الضمة والواو حائل تخيل أن الضمة على الواو ، فهمزها كما قال :

أحب المؤقدين إليّ مؤسى

وكما قرأ بعضهم (على سؤقه) وهو توجيه شذوذ ، وفي حرف أبي عاد غير مصروف جعله اسم قبيلة فمنعه الصرف للتأنيث والعلمية ، والدليل على التأنيث وصفه بـ (الأولى) ، وقرأ الجمهور (وثموداً) مصروفاً ، وقرأه غير مصروف الحسن وعاصم وعصمة ، (فما أبقى) الظاهر أن متعلق (أبقى) يرجع إلى (عاد) و (ثمود) معاً أي : فما أبقى عليهم ، أي : أخذهم بذنوبهم ، وقيل : (فما أبقى) أي : فما أبقى منهم عيناً تطرف ، وقال ذلك الحجاج بن يوسف حين قيل له : إن ثقيفاً من نسل ثمود ، فقال : قال الله تعالى (وثموداً فما أبقى) ، وهؤلاء يقولون : بقيت منهم بقية ، والظاهر القول الأول ، لأن ثمود كان قد آمن منهم جماعة بصالح ـ عليه السلام ـ فما أهلكهم الله مع الذين كفروا به ، (وقوم نوح من قبل) أي : من قبل عاد وثمود ، وكانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ونوح ـ عليه السلام ـ أول الرسل ، والظاهر أن الضمير في (إنهم) عائد على قوم نوح ، وجعلهم (أظلم وأطغى) لأنهم كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح ـ عليه السلام ـ يضربونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون لشيء مما يدعوهم إليه ، وقال قتادة : دعاهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه يحذره منه ، ويقول : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا ولنا مثلك يومئذٍ فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، وقيل : الضمير في (إنهم) عائد على من تقدم (عاد) و (ثمود) (وقوم نوح) أي : كانوا أكفر من قريش ، وأطغى ، ففي ذلك تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ و (هم) . يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ، ويجوز أن يكون فصلاً ، لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول بعد الواقع خبراً لكان ، لأنه جار مجرى خبر المبتدأ ، وحذفه فصيح فيه ،

فكذلك في خبر كان ، (والمؤتفكة) هي مدائن قوم لوط بإجماع من المفسرين[١] ، وسميت بذلك لأنها انقلبت ومنه الإفك لأنه قلب الحق كذباً ، أفكه فائتفك ، قيل : ويحتمل أن يراد بـ (المؤتفكة) كل ما انقلبت مساكنه ودبرت أماكنه (أهوى) : أي خسف بهم بعد رفعهم إلى السماء ، رفعها جبريل ـ عليه السلام ـ ثم أهوى بها إلى الأرض ، وقال المبرد : جعلها تهوي ، وقرأ الحسن (والمؤتفكات) جمعاً والظاهر أن (أهوى) ناصب للمؤتفكة وأخر العامل لكونه فاصلة ويجوز أن يكون (والمؤتفكة) معطوفاً على ما قبله ، و (أهوى) جملة في موضع الحال يوضح كيفية إهلاكهم ، أي : وإهلاك المؤتفكة مهوياً لها ، (فغشاها ما غشي) فيه تهويل للعذاب الذي حل بهم ، لما قلبها جبريل ـ عليه السلام ـ أتبعت حجارة غشيتهم ، واحتمل أن يكون فعل المشدد بمعنى المجرد ، فيتعدى إلى واحد ، فيكون الفاعل (ما) كقوله تعالى ﴿ فغشيهم من أليم ما غشيهم ﴾ [طه ٧٨] ، (فبأي آلاء ربك تتمارى) الباء ظرفية ، والخطاب للسامع ، و (تتمارى) تتشكك ، وهو استفهام في معنى الإنكار ، أي : آلاؤه ، وهي النعم لا يتشكك فيها سامع ، وقد سبق ذكر نعم ونقم ، وأطلق عليها كلها آلاء لما في النقم من الزجر والوعظ لمن اعتبر ، وقرأ يعقوب وابن محيصن (ربك تمارى) بتاء واحدة مشددة ، وقال أبو مالك الغفاري : إن قوله (أن لا تزر) إلى قوله (تتمارى) هو في صحف إبراهيم وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ (هذا نذير) ، قال قتادة ومحمد بن كعب وأبو جعفر : الإشارة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ افتتح أول السورة به ، واختتم آخرها به ، وقيل : الإشارة إلى القرآن ، وقال أبو مالك : إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم ، أي : هذا إنذار من الإنذارات السابقة ، والنذير يكون مصدراً أو اسم فاعل ، وكلاهما من أنذر ، ولا ينقاسان ، بل القياس في المصدر إنذار ، وفي اسم الفاعل منذر ، والنذر : إما جمع للمصدر ، أو جمع لاسم الفاعل ، فإن كان اسم فاعل فوصف النذر بـ (الأولى) على معنى الجماعة ، ولما ذكر إهلاك من تقدّم ذكره ، وذكر قوله (هذا نذير) ذكر أن الذي أنذر به قريب الوقوع ، فقال (أزفت الآزفة) أي : قربت الموصوفة بالقرب ، في قوله (اقتربت الساعة) وهي القيامة ، (ليس لها من دون الله كاشفة) أي : نفس كاشفة تكشف وقتها وتعلمه قاله الطبري والزجاج ، وقال القاضي منذر بن سعيد : هو من كشف الضر ودفعه ، أي : ليس لها من يكشف خطبها وهو لها انتهى . ويجوز أن تكون الهاء في (كاشفة) للمبالغة ، وقال الرماني وجماعة : ويحتمل أن يكون مصدراً كالعاقبة ، و (خائنة الأعين) ، أي : ليس لها كشف من دون الله ، وقيل : يحتمل أن يكون التقدير : حال كاشفة ، (أفمن هذا الحديث) وهو القرآن (تعجبون) فتنكرون وتضحكون مستهزئين (ولا تبكون) جزعاً من وعيده (وأنتم سامدون) قال مجاهد : معرضون ، وقال عكرمة : لاهون ، وقال قتادة : غافلون ، وقال السدّي : مستكبرون ، وقال ابن عباس : ساهون ، وقال المبرد : جامدون ، وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلاً عنه ، وروي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يُرَ ضَاحكاً بعد نزولها[٢] . (فاسجدوا) أي : صلوا له (واعبدوا) أي : أفردوه بالعبادة ، ولا تعبدوا اللات والعزى ومناة والشعرى . وغيرها من الأصنام ، وخرّج البغوي بإسناد متصل إلى عبد الله قال : أول سورة نزلت فيها السجدة النجم ، فسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، والرجل أمية بن خلف . وروي : أن المشركين سجدوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ وفي حرف أبي وعبد الله (تضحكون) بغير واو . وقرأ الحسن (تُعجِبون) (تُضحِكون) بغير واو ، وبضم التاء وكسر الجيم والحاء ، وفي قوله (ولا تبكون) حض على البكاء عند سماع القرآن . والسجود هنا عند كثير من أهل العلم

---

(١) انظر الوسيط ١٠٢ والبغوي ٤/٢٥٦ .

(٢) قال الحافظ في تخريجه على الكشاف ٤/٤٣٠ أخرجه أحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبي الخليل ، ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف .

منهم عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - ، ووردت به أحاديث صحاح[1] ، وليس يراها مالك هنا . وعن زيد بن ثابت : أنه قرأ بها عند رسول الله - ﷺ - فلم يسجدوا - والله تعالى أعلم .

(١) ذكر السيوطي في الدر حديث سجوده - ﷺ - ٦/١٣٢ وعزاه للبخاري ، والترمذي وابن مردويه عن ابن عباس هو في البخاري ٨/٤٨٠ (٤٨٦٢) .

سورة القمر مكية وهي خمس وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

الجدث : القبر ، وتبدل ثاؤه فاء ، فيقال : جدف ، كما أبدلوا ثم فقالوا : فم ، انهمر الماء : نزل بقوة غزيراً ، قال الشاعر :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ تَنَحَّى ... فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرِ[1]

الدسر : المسامير التي تشدّ بها السفينة ، واحدها دسار ، نحو : كتاب وكتب ، ويقال : دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير ، وقال الليث وصاحب الصحاح : الدسر خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، الصرصر : الشديدة الصوت ، أو البرد ، إما من صرير الباب وهو تصويته ، أو من الصر الذي هو البرد ، وهو بناء متأصل على وزن فعلل عند الجمهور ، العجز : مؤخر الشيء ، المنقعر : المنقلع من أصله ، قعرت الشجرة قعراً : اقلعتها من أصلها ، فانقعرت ، والبئر نزلت حتى انتهيت إلى قعرها ، والإناء شربت مافيه حتى انتهيت إلى قعره ، وأقعرته البئر جعلت لها قعراً . الأشر : البطر ، وقرأ (أشر) بالكسر يأشر أشراً ، فهو أشر وآشر وأشران ، وقوم أشارى مثل سكران وسكارى ، سقر : علم لجهنم مشتق من سقرته النار ، بالسين ، وصقرته بالصاد إذا لوّحته ، قال ذو الرمّة :

إِذَا ذَابَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا ... بِأَفْنَانِ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مِعْيَلِ[2]

وامتنعت (سقر) من الصرف للعلمية والتأنيث ، تنزلت حركة وسطه تنزل الحرف الرابع في زينب .

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر ، فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ، كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدّكر ، فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقيل : هي مما نزل يوم بدر ، وقال مقاتل : مكية إلا ثلاث آيات أولها (أم يقولون نحن) وآخرها (أدهى وأمر) ، وسبب نزولها : أن مشركي قريش قالوا للرسول ـ ﷺ ـ : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر

---

(١) البيت من الرمل لامرىء القيس ، انظر ديوانه (١٤٥) القرطبي ١٧/٨٦ فتح القدير ٥/١٢٢ .

(٢) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ٥٨٩ الكشاف ٤/٤٤١ روح المعاني ٢٧/٩٣ .

فرقتين ، ووعدوه بالإيمان إن فعل ، وكانت ليلة بدر ، فسأل ربه ، فانشق القمر نصف على الصفا ، ونصف على قيقعان ، فقال أهل مكة : آية سماوية لا يعمل فيها السحر ، فقال أبو جهل : اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي ، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح ، وإلا فقد سحر محمد أعيننا ، فجاؤا فأخبروا بانشقاق القمر ، فأعرض أبو جهل ، وقال : (سحر مستمر) ، وعن ابن عباس : شق القمر شقين ، شطرة على السويداء ، وشطرة على الحديبية ، وعنه : انشق القمر بمكة مرتين ، وعنه : انفلق فلقتين ، فلقة ذهبت ، وفلقة بقيت ، ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها ظاهرة ، قال : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم ٥٧] وقال (اقتربت الساعة) وممن عاين انشقاق القمر ابن مسعود وجبير بن مطعم ، وأخبر به ابن عمر وأنس وحذيفة وابن عباس ، وحين أرى الله الناس انشقاق القمر ، قال الرسول ـ ﷺ ـ « اشهدوا » ، وقال المشركون إذ ذاك : سحرنا محمد ، وقال بعضهم : سحر القمر ، والأمة مجمعة على خلاف من زعم أن قوله (وانشق القمر) معناه : أنه ينشق يوم القيامة ، ويرده من الآية قوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فلا يناسب هذا الكلام أن يأتي إلا بعد ظهور ما سألوه معينا من انشقاق القمر ، وقيل : سألوا آية في الجملة ، فأراهم هذه الآية السماوية ، وهي من أعظم الآيات ، وذلك التأثير في العالم العلوي ، وقرأ حذيفة (وقد انشق القمر) أي : اقتربت ، وتقدم من آيات اقترابها انشقاق القمر ، كما تقول : أقبل الأمير ، وقد جاء المبشر بقدومه ، وخطب حذيفة بالمدائن ، ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ، ولا التفات إلى قول الحسن : إن المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية ، ولا إلى قول من قال : إن انشقاقه عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه في أثنائها ، فالمعنى : ظهر الأمر ، فإن العرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح ، كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه ، وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق ، قال النابغة :

فَلَمَّا أَدْبَرُوا وَلَهُمْ دَوِيٌّ ... دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصُّبْحِ دَاعِي[1]

وهذه أقوال فاسدة ولولا أن المفسرين ذكروها لأضربت عن ذكرها صفحاً . (وإن يروا آية يعرضوا) وقرىء (وإن يُرَوا) مبنياً للمفعول ، أي : من شأنهم وحالتهم أنهم متى رأوا يدل على صدق الرسول ـ ﷺ ـ من الآيات الباهرة أعرضوا عن الإيمان به ، وبتلك الآية ، وجاءت الجملة شرطية ليدل على أنهم في الاستقبال على مثل حالهم في الماضي (ويقولوا سحر مستمر) أي : دائم ، ومنه قول الشاعر :

ألا إِنَّمَا الدُّنْيَا لَيَالٍ وَأَعْصُر ... وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ قَوِيمٍ بِمُسْتَمِرِ[2]

أي لما رأوا الآيات متوالية لا تنقطع قالوا ذلك ، وقال أبو العالية والضحاك والأخفش : (مسمر) مشدود موثق ، من مرائر الحبل أي : سحر قد أحكم ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى سِرٍّ مَرِيرَتُهُ ... صِدْقُ الْعَزِيمَةِ لَا رَيّاً وَلَا ضِرْعَا[3]

وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفراء واختاره النحاس (مستمر) مار ذاهب زائل عن قريب ، عللوا بذلك أنفسهم[4] ، وقيل : (مستمر) شديد المرارة ، أي : مستبشع عندنا مر[5] يقال ، مر الشيء وأمر إذا صار مراً وأمر غيره

---

(١) البيت من الوافر ليس في ديوانه ، انظر القرطبي ١٧/٨٣ روح المعاني ٢٧/٧٧ .
(٢) البيت من الطويل لامرىء القيس ، انظر ديوانه (١٠٩) .
(٣) البيت من البسيط للقيط الإيادي ، انظر الكامل ١/٣٣٠ القرطبي ١٧/٨٣ وفتح القدير ٥/١٢٠ .
(٤) انظر البغوي ٤/٢٥٨ والوسيط ١٠٤ خ .
(٥) المصادر السابقة .

ومره ، يكون لازماً متعدياً ، وقيل : (مستمر) يشبه بعضه بعضاً[١] ، أي : استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخيلات ، وقيل : (مستمر) مار من الأرض إلى السماء ، أي : بلغ من سحره أنه سحر القمر ، (وكذبوا) أي : بالآيات وبمن جاء بها أي : قالوا : هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد ، (واتبعوا أهواءهم) أي : شهوات أنفسهم وما يهوون ، (وكل أمر مستقرٌ) بكسر القاف وضم الراء مبتدأ ، أو خبر ، قال مقاتل : أي : له غاية ينتهي إليها ، وقال الكلبي (مستقرّ) له حقيقة ، فما كان في الدنيا فسيظهر ، وما كنا في الآخرة فسيعرف[٢] ، وقال قتادة : معناه أن الخير يستقر بأهل الخير ، والشر بأهل الشر[٣] ، وقيل : يستقر الحق ظاهراً ثابتاً ، والباطل زاهقاً ذاهباً[٤] وقيل : كل أمر من أمرهم وأمره يستقر على خذلان أو نصرة في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة[٥] ، وقرأ شيبة (مستقَر) بفتح القاف ، ورويت عن نافع وقال أبو حاتم : لا وجه لفتح القاف انتهى . وخرجت على حذف مضاف ، أي : ذو استقرار ، وزمان استقرار ، وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي (مستقرٍ) بكسر القاف والراء معاصفة لأمر ، وخرجه الزمخشري على أن يكون (وكل) عطفا على (الساعة) أي : اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله ، وهذا بعيد لطول الفصل بجمل ثلاث ، وبعيد أن يوجد مثل هذا التركيب في كلام العرب ، نحو : أكلت خبزاً وضربت زيداً ، وأن يجيء زيد أكرمه ورحل إلى بني فلان ولحماً ، فيكون « ولحماً » عطفا على خبزاً ، بل لا يوجد مثله في كلام العرب ، وخرجه صاحب اللوامح على أنه خبر لكل ، فهو مرفوع في الأصل لكنه جر للمجاورة ، وهذا ليس بجيد ، لأن الخفض على الجوار في غاية الشذوذ ، ولأنه لم يعهد في خبر المبتدأ ، إنما عهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده ، والأسهل أن يكون الخبر مضمر الدلالة المعنى عليه ، والتقدير : وكل أمر مستقر بالغوه ، لأن قبله (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أي : وكل أمر مستقر لهم في القدر من خير أو شر بالغه هم ، وقيل : الخبر (حكمة بالغة) أي : وكل أمر مستقر حكمة بالغة ويكون (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر) اعتراض بين المبتدأ وخبره (ولقد جاءهم من الأنبياء) أي : من الأخبار الواردة في القرآن في إهلاك من كذب الأنبياء وما يؤولون إليه في الآخرة (ما فيه مزدجر) أي : ازدجار رادع لهم عن ما هم فيه ، أو موضع ازدجار وارتداع « أي : ذلك موضع ازدجار أو مظنة له ، وقرىء (مُزَّجَر) بابدال تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها ، وقرأ زيد بن علي (مُزجر) اسم فاعل من أزجر أي : صار ذا زجر ، كأعشب أي : صار ذا عشب ، وقرأ الجمهور (حكمةٌ بالغَةٌ) برفعهما ، وجوزوا أن تكون (حكمةٌ) بدلاً من (مزدجر) أو من (ما) وخبر مبتدأ محذوف ، وتقدم قول من جعله خبرا عن (كل) في قراءة من قرأ (مستقرٍ) بالجر ، وقرأ اليماني (حكمةً بالغةً) النصب فيهما حالا من (ما) سواء كانت (ما) موصولة أم موصوفة تخصصت بالصفة ، ووصفت الحكمة بـ (بالغة) لأنها تبلغ غيرها ، (فما تغن النذر) مع هؤلاء الكفرة ، ثم سلى رسوله ـ ﷺ ـ فقال (فتول عنهم) أي : أعرض عنهم ، فإن الإنذار لا يجدي فيهم ، ثم ذكر شيئاً من أحوال الآخر ، وما يؤولون إليه إذ ذاك متعلق باقتراب الساعة ، فقال (يوم يدع الداعي) والناصب لـ (يوم) اذكر مضمرة ، قاله الرماني أو (يخرجون) ، وقال الحسن : المعنى : فتول عنهم إلى يوم ، وهذا ضعيف من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى ، أما من جهة اللفظ فحذف إلى ، وأما من جهة المعنى فإن توليه عنهم ليس مغياً بـ (يوم يدع الداع) وجوزوا أن يكون منصوباً بقوله (فما تغني النذر) ويكون (فتول عنهم) اعتراضاً ، وأن يكون منصوباً بقوله (يقول الكافرون)

---

(١) المصادر السابقة .

(٢) انظر الوسيط ١٠٤ خ والبغوي ٢٥٨/٤ ومعاني القرآن للفراء ١٠٤/٣ .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) المصادر السابقة .

(٥) المصادر السابقة .

ومنصوباً على إضمار انتظر ومنصوباً بقوله (فتول) وهذا ضعيف جداً ومنصوباً بـ (مستقر) وهو بعيد أيضاً ، وحذفت الواو من (يدع) في الرسم إتباعا للنطق ، والياء من (الداع) تخفيفاً ، أجريت أل مجرى ما عاقبها وهو التنوين ، فكما تحذف معه حذفت معها والداع هو إسرافيل ، أو جبرائيل ، أو ملك غيرهما موكل بذلك أقوال ، وقرأ الجمهور (نُكُر) بضم الكاف ، وهو صفة على فعل وهو قليل في الصفات ، ومنه : رجل شُلُل ، أي : خفيف في الحاجة ، وناقة أُجد ومشية سُجح وروضة أُنُف ، وقرأ الحسن وابن كثير وشبل بإسكان الكاف ، كما قالوا : شُغْل وشُغُل وعُسُر وعُسْر ، وقرأ مجاهد وأبو قلابة والجحدري وزيد بن علي (نُكِر) فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، أي : جهل فنكر ، وقال الخليل : النكر نعت للأمر الشديد ، والوجل : الداهية أي : تنكره النفوس ، لأنها لم تعهد مثله ، وهو يوم القيامة ، قال مالك بن عوف النضري :

أَقْدِمْ مَحَاجُ إنهُ يَوْمُ نُكُـر ... مِثْلي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمي وَيَكُرّ[1]

وقرأ قتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والجمهور (خشعاً) جمع تكسير ، وابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري وأبو عمرو وحمزة والكسائي (خاشعاً) بالإفراد ، وقرأ أبيّ وابن مسعود (خاشعةً) وجمع التكسير أكثر في كلام العرب ، وقال الفراء وأبو عبيدة : كله جائز انتهى ، ومثال جمع التكسير قول الشاعر :

بِمُـطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَـاحٍ كُعُوبُـه ... وَذِي رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ القوانِسَا[2]

ومثال الإفراد قوله :

وَرِجَـالٍ حَسَنٍ أَوْجُـهُـهُـمْ ... مِنْ إِيـادِ بْنِ نِـزارِ بْنِ مَعَـدٌّ[3]

وقال آخر :

تَرْمِي الْفِجَاجَ بِهِ الرُّكْبَانُ مُعْتَرِضاً ... أَعْنَاقَ بزلها مُرْخَى لَهَا الْجَدَلُ[4]

وانتصب (خشعاً) و (خاشعاً) و (خاشعَةً) على الحال من ضمير (يخرجون) والعامل فيه (يخرجون) لأنه فعل متصرف ، وفي هذا دليل على بطلان مذهب الجرمي ، لأنه لا يجوز تقدم الحال على الفعال ، وإن كان متصرفاً ، وقد قالت العرب : شتى تؤوب الحلبة ، فشتى حال ، وقد تقدمت على عاملها ، وهو تؤوب لأنه فعل متصرف وقال الشاعر :

سَرِيعاً يَهُونُ الصَّعْبُ عِنْدَ أُولِي النُّهى ... إِذَا بِرَجَاءٍ صَادِقٍ قَابلُوا الْبَـأْسَا[5]

فسريعاً حال ، وقد تقدمت على عاملها وهو يهون . وقيل : هو حال من الضمير المجرور في (عنهم) من قوله (فتول عنهم) ، وقيل : هو مفعول بـ (يدع) أي : قوماً خشعاً ، أو فريقاً خشعاً ، وفيه بعد ، ومن أفرد (خاشعاً) وذكر

---

(١) البيت من الرجز ذكره السمين في الدر المصون .

(٢) البيت من الطويل لحسيل بن سجيع الضبي ، انظر الحماسة لأبي تمام ١/٢٢٧ اللسان (قنس) شرح المفصل ٦/١٠٧ .

(٣) البيت من الرمل لأبي دؤاد الإيادي انظر اللسان (أيد) القرطبي ١٧/٨٥ روح المعاني ٢٧/٨٠ فتح القدير ٥/١٢١ . وهو في اللسان مختلف .

(٤) البيت من البسيط لقطامي ، انظر معاني الفراء ٣/١٠٥ الجمهرة ٦٤٩ .

(٥) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧/٨٠ .

فعلى تقدير : تخشع أبصارهم ومن قرأ (خاشعة) وأنث فعلى تقدير : تخشع ، ومن قرأ (خشعاً) جمع تكسير فلأن الجمع موافق لما بعده وهو (أبصارهم) وموافق للضمير الذي هو صاحب الحال في (يخرجون) وهو نظير قولهم : مررت برجال كرام آباؤهم ، وقال الزمخشري : و(خشيعاً) على يخشعن (أبصارهم) وهي لغة من يقول : أكلوني البراغيث ، وهم طيىء انتهى ، ولا يجري جمع التكثير مجرى جمع السلامة فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة وقد نصب سيبويه على أن جمع التكسير أكثر في كلام العرب ، فكيف يكون أكثر ويكون على تلك اللغة النادرة القليلة ، وكذا قال الفراء حين ذكر الإفراد مذكراً ومؤنثاً ، وجمع التكسير قال : لأن الصفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك ، والجمع موافق للفظها ، فكان أشبه انتهى . وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع مجموعاً بالواو والنون ، نحو : مررت بقوم كريمين آباؤهم ، والزمخشري قاس جمع التكسير على هذا الجمع السالم ، وهو قياس فاسد ، ويرده النقل عن العرب أن جمع التكسير أجود من الإفراد ، كما ذكرناه عن سيبويه ، وكما دل عليه كلام الفراء ، وجوز أن يكون في (خشعاً) ضمير ، و (أبصارهم) بدل منه ، وقرىء (خشَّعٌ أبصارهم) وهي جملة في موضع الحال ، و (خشع) خبر مقدم ، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة ، وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح ، وكذلك أفعال النفس من ذلة وعزة ، وحياء وصلف وخوف ، وغير ذلك (كأنهم جراد منتشر) جملة حالية أيضاً ، شبههم بالجراد في الكثرة والتموج ، ويقال : جاؤوا كالجواد في الجيش الكثير المتموج ، ويقال : كالذباب ، وجاء تشبيههم أيضاً بالفراش المبثوث ، وكل من الجراد والفراش في الخارجين يوم الحشر شبه منهما ، وقيل : يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ؟ لأن الفراش لا جهة له يقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر والداعي ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، قال معناه مكي بن أبي طالب ، (مهطعين) قال أبو عبيدة : مسرعين ، ومنه قوله :

بِدِجْلَةَ دَارهمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ ... بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ [(١)]

زاد غيره : مادّي أعناقهم ، وزاد غيره : مع هز ورهق ومد بصر ، نحو المقصد ، إما لخوف أو طمع ونحوه . وقال قتادة : عامدين ، وقال الضحّاك ، مقبلين[(٢)] وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، وقال ابن عباس : ناظرين ، ومنه قول الشاعر :

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أُرَى ... وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ [(٣)]

وقيل : خافضين ما بين أعينهم ، وقال سفيان : خاشعة أبصارهم إلى السماء (يوم عسر) لما يشاهدون من مخايل هوله ، وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه ، (كذبت قبلهم) أي : قبل قريش (قوم نوح) وفيه وعيد لقريش ، وضرب مثل لهم ، ومفعول (كذَّبت) محذوف ، أي : كذبت الرسل ، فكذبوا نوحاً ـ عليه السلام ـ لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً ، كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، ويجوز أن يكون المحذوف نوحاً ، أول مجيئه إليهم فكذبوه تكذيباً يعقبه تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب ، وفي لفظ (عبدنا) تشريف وخصوصية بالعبودية ، كقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾[الأنفال ٤١] ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾[الإسراء ١] (وقالوا مجنون) أي : هو مجنون لما رأوا الآيات الدالة على صدقه ، قالوا : هو مصاب الجن : لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون ، أي :

---

(١) البيت من الوافر ليزيد بن مفرغ الحميري ، انظر اللسان (هطع) القرطبي ١٧/ ٨٥ فتح القدير ٥/ ١٢٢ .

(٢) انظر الوسيط ١٠٤ خ والبغوي ٤/ ٢٦٠

(٣) البيت من الطويل لتبع انظر اللسان (هطع) القرطبي ١٧/ ٨٥ الكشاف ٤/ ٤٣٣ روح المعاني ٢٧/ ٨٧ .

يقول ما لا يقبله عاقل، وذلك مبالغة في تكذيبهم، (وازدجر فدعا ربه أني مغلوب)، الظاهر أن قوله (وازدجر) من إخبار الله تعالى أي: انتهروه وزجروه بالسب والتخويف، قاله ابن زيد، وقرأ ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ [الشعراء ١١٦] قيل: والمعنى أنهم فعلوا به ما يوجب الانزجار من دعائهم، حتى ترك دعوتهم إلى الإيمان، وعدل إلى الدعاء عليهم، وقال مجاهد (وازدجر) من تمام قولهم أي: قالوا (وازدجر) أي: استطير جنوباً أي: ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعمش وزيد بن عليّ ورويت عن عاصم (إني) بكسر الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين، أو على إجراء الدعاء مجرى القول على مذهب الكوفيين، وقرأ الجمهور بفتحها: أي: بأني مغلوب أي: غلبني قومي، فلم يسمعوا مني، ويئست من إجاباتهم لي (فانتصر) أي: فانتقم بعذاب تبعثه عليهم، وإنما دعا عليهم بعد ما يئس منهم، وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشياً عليه، وقد كان يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، ومتعلق (فانتصر) محذوف، وقيل: التقدير: فانتصر لي منهم بأن تهلكهم، وقيل: فانتصر لنفسك، إذ كذبوا رسولك، فوقعت الإجابة، وللمتصوفة قول في (مغلوب فانتصر): حكاه ابن عطية يوقف عليه في كتابه، (ففتحنا) بيان أن الله تعالى انتصر منهم وانتقم، قيل: ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم، (أبواب السماء بماء) جعل الماء كأنه آلة يفتح بها، كما تقول: فتحت الباب بالمفتاح، وكأن الماء جاء وفتح الباب، فجعل المقصود وهو الماء مقدّما في الوجود على فتح الباب المغلق، ويجوز أن تكون الباء للحال، أي: ملتبسة بماء منهمر، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج ويعقوب (فَفَتَّحْنَا) مشدّداً، والجمهور مخففاً (أبواب السماء) هذا عند الجمهور مجاز وتشبيه، لأن المطر كثره، كأنه نازل من أبواب، كما تقول: فتحت أبواب القرب، وجرت مزاريب السماء، وقال عليّ وتبعه النقاش: يعني بالأبواب المجرة، وهي سرع السماء كسرع العيبة، وذهب قوم إلى أنها حقيقة فتحت في السماء أبواب جرى منها الماء، ومثله مروي عن ابن عباس قال: أبواب السماء فتحت من غير سحاب لم تغلق أربعين يوماً، قال السدي (منهمر) أي: كثير، قال الشاعر:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ الْهَوَامِرِ عَلَى خَيْرِ بَادٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ[1]

وقرأ الجمهور (وَفَجَّرنا) بتشديد الجيم، وعبد الله وأصحابه وأبو حيوة والمفضل عن عاصم بالتخفيف، والمشهور أن العين لفظ مشترك، والظاهر أنها حقيقة في العين الباصرة، مجاز في غيرها، وهو في غير الماء مجاز مشهور غالب، وانتصب (عيوناً) على التمييز، جعلت الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من وفجرنا عيون الأرض، ومن منع مجيء التمييز من المفعول أعرب به حالاً، ويكون حالاً مقدرة، وأعربه بعضهم مفعولاً ثانياً، كأنه ضمن (وفجرنا) صيرنا بالتفجير الأرض عيوناً، وقيل: وفجرت أربعين يوماً، وقرأ الجمهور (فالتقى الماء) وهو اسم جنس، والمعنى، ماء السماء وماء الأرض، وقرأ عليّ والحسن ومحمد بن كعب والجحدري (الماءان)، وقرأ الحسن أيضاً (الماوان)، وقال الزمخشري وقرأ الحسن (ماوان) بقلب الهمزة واوا كقولهم: علباوان انتهى. شبه الهمزة التي هي بدل من هاء في الماء بهمزة الإلحاق في علباً، وعن الحسن أيضا (المايان) بقلب الهمزة ياء، وفي كلتا القراءتين شذوذ. (على أمر قد قدر) أي: على حالة ورتبة قد فصلت في الأزل. وقيل: على مقادير قد رتبت وقت التقائه فروي: أن ماء الأرض كان على سبعة عشر ذراعاً، ونزل ماء السماء على تكملة أربعين ذراعاً، وقيل: كان ماء الأرض أكثر، وقيل: كانا متساويين، نزل من السماء قدر ما خرج من الأرض، وقيل: (على أمر قد قدر) في اللوح

---

(١) انظر البيت في روح المعاني ٢٧/ ٨١ القرطبي ١٧/ ٨٦.

أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح ـ عليه السلام ـ بالطوفان ، وهذا هو الراجح ولأن كل قصة ذكرت بعد هذه القصة ذكر الله هلاك مكذبي الرسل فيها ، فيكون هذا كناية عن هلاك قوم نوح ولذلك ذكر نجاة نوح بعدها في قوله (وحملناه على ذات ألواح ودسر) ، وقرأ أبو حيوة (قدِّر) بشد الدال ، والجمهور بتخفيفها ، وذات الألواح والدسر : هي السفينة التي أنشأها نوح ـ عليه السلام ـ ويفهم من هذين الوصفين أنها السفينة ، فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ، ونحوه : قميصي مسرودة من حديد ، أي : درع ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه ، ولو جمعت بين الصفة والموصوف فيه لم يكن بالفصيح والدسر المسامير قاله الجمهور ، وقال الحسن وابن عباس : مقاديم السفينة ، لأنها تدسر الماء ، أي : تدفعه والدسر الدفع ، وقال مجاهد وغيره : بطن السفينة ، وعنه أيضاً : عوارض السفينة ، وعنه أيضاً : أضلاع السفينة تجري في ذلك الماء المتلقى بحفظ منا وكلاءة ، بحيث نجا من كان فيها وغرق غيرهم ، وقال مقاتل بن سليمان (بأعيننا) بوحينا ، وقيل : أمرنا ، وقيل : بأوليائنا ، يقال : فلان عين من عيون الله تعالى ، أي : ولي من أوليائه ، وقيل ، بأعين الماء التي أنبعناها ، وقيل : من حفظها من الملائكة سماهم أعيناً ، وقرأ زيد بن علي وأبو السمال (بأعيُنّا) بالإدغام ، والجمهور بالفك ، (جزاءً) أي : مجازاة (لمن كان كفر) أي : لنوح ـ عليه السلام ـ إذ كان نعمة أهداها الله إلى قومه ، لأن يؤمنوا فكفروها ، المعنى : أنه حمله في السفينة ومن آمن معه كان جزاء له على صبره على قومه المئين من السنين ، و (مَنْ) كناية عن نوح ، قيل : يعني بمن كفر : لمن جحدت نبوته ، وقال ابن عباس ومجاهد : من يراد به الله تعالى ، كأنه قال : غضباً وانتصاراً لله تعالى ، أي : انتصر لنفسه ، فأغرق الكافرين ، وأنجى المؤمنين ، وهذان التأويلان في (مَنْ) على قراءة الجمهور (كِفُر) مبنياً للمفعول ، وقرأ مسلمة بن محارب بإسكان الفاء خفف فعل ، كما قال الشاعر :

لَوْ عُصرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمِسْكُ انعَصَرْ[1]

يريد : لو عصر ، وقرأ زيد بن رومان وقتادة وعيسى (كَفَرَ) مبنياً للفاعل ، فمن يراد به قوم نوح ، أي : إن ما نشأ من تفتيح أبواب السماء بالماء ، وتفجر عيون الأرض والتقاء الماءين من غرق قوم نوح ـ عليه الصلاه والسلام ـ كان جزاء لهم على كفرهم ، و (كفر) خبر لـ (كان) ، وفي ذلك دليل على وقوع الماضي بغير قد خبراً لكان ، وهو مذهب البصريين ، وغيرهم يقول : لا بد من قد ظاهرة ، أو مقدرة على أنه يجوز أن كان هنا زائدة ، أي : لمن كفر ، والضمير في (تركناها) عائد على الفعلة والقصة ، وقال قتادة والنقاش وغيرهما : عائد على السفينة ، وأنه تعالى أبقى خشبها حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة ، وقال قتادة : وكم من سفينة بعدها صارت رماداً ، وقرأ الجمهور (مدكر) بإدغام الذال في الدال المبدلة من تاء الافتعال ، وقتادة فيما نقل ابن عطية بالذال أدغمه بعد قلب الثاني إلى الأول ، وقال صاحب كتاب اللوامح : قتادة (فهل من مذكر) فاعل من التذكير ، أي : من يذكر نفسه أو غيره بما مضى من القصص انتهى .
وقرىء (مدتكر) على الأصل ، (فكيف كان عذابي ونذر) تهويل لما حل بقوم نوح من العذاب ، وإعظام له إذ قد استأصل جميعهم وقطع دابرهم ، فلم ينسل منهم أحد ، أي : كيف كان عاقبة إنذاري ، والنذر جمع نذير ، وهو الإنذار ، وفيه توقيف لقريش على ما حل بالمكذبين أمثالهم ، و (كان) إن كانت ناقصة كانت (كيف) في موضع خبر

---

(١) عجز بيت من الرجز لأبي النجم ، انظر المنصف ١/١٢٤ الاقتضاب ٤٦٢ اللسان (عصر) .

كان ، وإن كانت تامة كانت في موضع نصب على الحال ، والاستفهام هنا لا يراد به حقيقته ، بل المعنى على التذكير بما حال بهم ، (ولقد يسرنا) أي : سهلنا (القرآن للذكر) أي : للإذكار والاتعاظ لما تضمنه من الوعظ والوعد والوعيد ، (فهل من مدكر) قال ابن زيد : من متعظ ، وقال قتادة : فهل من طالب خير ، وقال محمد بن كعب : فهل من مزدجر عن المعاصي ، وقيل : (للذكر) للحفظ ، أي : سهلناه للحفظ ، لما اشتمل عليه من حسن النظم ، وسلامة اللفظ ، وعروه عن الحشو ، وشرف المعاني وصحتها ، فله تعلق بالقلوب ، (فهل من مدكر) أي : من طالب لحفظه ليعان عليه ، وتكون زواجره وعلومه حاضرة في النفس ، وقال ابن جبير : لم يستظهر شيء من الكتب الإلهية غير القرآن ، وقيل : (يسرنا) هيأنا (القرآن للذكر) كقولهم : يسر ناقته للسفر إذ أرحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ، قال الشاعر :

وَقُمْتُ إِلَيْـهِ بِـاللِّجَـامِ مُيَسِّـراً هُنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ [1]

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ، أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ .

تقدمت قصة عاد مطولة ومتوسطة ، وهنا ذكرها تعالى موجزة ، كما ذكر قصة نوح ـ علية السلام ـ موجزة ، ولما لم يكن لقوم نوح علم ذكر قوم مضافاً الى نوح ، ولما كانت عاد علماً لقوم هود ذكر العلم ، لأنه أبلغ فى الذكر من التعريف بالإضافة ، وتكرر التهويل بالاستفهام قبل ذكر ما حل بهم وبعده لغرابة ما عذبوا به من الريح وانفرادهم بهذا النوع من العذاب ، ولأن الاختصار داعية الاعتبار والتدبر ، والصرصر : الباردة ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة . وقيل : المصوتة ، والجمهور على إضافة (يوم) إلى (نحْس) وسكون الحاء ، وقرأ الحسن بتنوين (يومٍ) وكسر الحاء جعله صفة لليوم ، كقوله تعالى : في أيام نحسات ، (مستمر) قال قتادة : استمر بهم حتى بلغهم جهنم[2] ، وعن الحسن والضحاك : كان مراً عليهم[3] . وروي أنه كان يوم الأربعاء[4] ، والذي يظهر أنه ليس يوماً معيناً ، بل أريد به الزمان والوقت ، كأنه قيل : في وقت نحس ، ويدل على ذلك أنه قال في سورة فصلت ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ﴾ [فصلت ١٦] ، وقال في الحاقة ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ [الحاقة ٧] إلا أن يكون ابتداء الريح في يوم الأربعاء ، فعبر بوقت الابتداء وهو يوم الأربعاء . فيمكن الجمع بينهما (تنزع الناس) يجوز أن يكون صفة للريح ، وأن يكون حالاً منها ، لأنها وصفت فقربت من المعرفة ، ويحتمل أن يكون (تنزع) مستأنفاً ، وجاء الظاهر

---

(١) البيت من الطويل للأعرج ، انظر ديوان الحماسة ١/١٣٧ الكشاف ٤/٤٣٥ القرطبي ١٧/٨٧ .
(٢) انظر الوسيط ١٠٥ خ ومعاني القرآن للزجاج ٢٣٠ خ والبغوي ٤/٢٦١ .
(٣) انظر المصادر السابقة .
(٤) انظر المصادر السابقة .

مكان المضمر ليشمل ذكورهم وإناثهم ، إذ لو عاد بضمير المذكورين لتوهم أنه خاص بهم ، أي : تقلعهم من أماكنهم ، قال مجاهد : يلقى الرجل على رأسه ، فتفتت رأسه وعنقه ، وما يلي ذلك من بدنه[1] ، وقيل : كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض ، ويدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها ، فتنزعهم ، وتدق رقابهم[2] ، والجملة التشبيهية حال من الناس ، وهي حال مقدرة . وقال الطبري : في الكلام حذف تقديره : فتتركهم كأنهم أعجاز نخل ، فالكاف في موضع نصب بالمحذوف ، شبههم بأعجاز النخل المنقعر ، إذ تساقطوا على الأرض أمواتاً ، وهم جثث عظام طوال ، والأعجاز الأصول بلا فروع ، قد انقلعت من مغارسها ، وقيل : كانت الريح تقطع رؤوسهم ، فتبقى أجساداً بلا رؤوس ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغرسها ، وقرأ أبو نهيك (أَعْجُزُ) على وزن أفعل ، نحو : ضبع وأضبع ، والنخل اسم جنس يذكر ويؤنث ، وإنما ذُكِّر هنا لمناسبة الفواصل ، وأنث في قوله : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة ٧] في الحاقة لمناسبة الفواصل أيضاً . وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلي في كتابه الكامل ، وأبو عمرو الداني برفعهما فـ (أبشر) مبتدأ و (واحد) صفته والخبر (نتبعه) ونقل ابن خالويه وصاحب اللوامح وابن عطية رفع (أبشرٌ) ونصب (واحداً) عن أبي السمال ، قال صاحب اللوامح : فأما رفع (أبشر) فبإضمار الخبر ، بتقدير : أبشر منا يبعث إلينا ، أو يرسل ، أو نحوهما . وأما انتصاب (واحداً) فعلى الحال ، إما مما قبله بتقدير : أبشر كائن منا في الحال نوحده ، وإما مما بعده بمعنى : (نتبعه) في توحده ، أو في حال انفراده ، وقال ابن عطية : ورفعه إما على إضمار فعل مبني للمفعول التقدير : أينبأ بشر ، وإما على الابتداء والخبر في قوله (نتبعه) و (واحداً) على هذه القراءة حال ، إما من الضمير في (نتبعه) وإما من المقدر مع (منا) كأنه يقول : أبشر كائن منا واحداً ، وفي هذا نظر ، وقولهم ذلك حسد منهم واستبعاد أن يكون نوع البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل ، فقالوا : نكون جمعاً ، ونتبع واحداً ، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويفيض نور الهدى على من رضيه انتهى . وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً قلت : قالوا (أبشراً) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية ، وطلبوا أن يكونوا من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة ، وقالوا (منا) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى ، وقالوا (واحداً) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، وأرادوا واحداً من أبنائهم ليس بأشرفهم ولا أفضلهم ، ويدل عليه (أألقي الذكر عليه من بيننا) أي : أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة انتهى . وهو حسن على أن فيه تحميل اللفظ ما لا يحتمله (إنا إذاً) أي : إن اتبعناه ، فنحن في ضلال أي : بعد عن الصواب وحيرة ، وقال الضحاك : في تيه ، وقال وهب : بعد عن الحق (وسُعُر) أي : عذاب قاله ابن عباس ، وعنه : وجنون يقال : ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها ، كأنها مجنونة وقال الشاعر :

كَأَنَّ بِهَا سُعْراً إِذَا الْعِيسُ هَزَّهَا ... زَمِيلٌ وَإِزْجَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعِبُ[3]

وقال قتادة (وسعر) عناء . وقال ابن بحر : (وسعر) جمع سعير ، وهو وقود النار أي : في خطر كمن هو في النار انتهى . وروي : أنه كان يقول لهم إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق (وسعر) أي : نيران فعكسوا عليه ، فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، ثم زادوا في الإنكار والاستبعاد ، فقالوا (أألقي) أي : أأنزل ، قيل : وكأنه يتضمن العجلة في الفعل ، والعرب تستعمل هذا الفعل ، ومنه (وألقيت عليك محبة مني) (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) والذكر هنا الوحي والرسالة ، وما جاءهم من الحكمة والموعظة ، ثم قالوا ليس الأمر كما تزعم ، بل هو القرآن ، (أشر) أي : بطر

---

(١) انظر المصادر السابقة .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧/ ٨٨ القرطبي ١٧/ ٩٠ فتح القدير ٥/ ١٢٣ .

يريد العلوّ علينا ، وأن يقتادنا ويتملك طاعتنا . وقرأ قتادة وأبو قلابة (بل هو الكذاب الأشر) بلام التعريف فيهما وبفتح الشين ، وشد الراء وكذا الأشر الحرف الثاني ، وقرأ الحرف الثاني مجاهد فيما ذكر صاحب اللوامح وأبو قيس الأودي (الأُشُرُ) بثلاث ضمات وتخفيف الراء ، ويقال : أشر وأشر ، كحذر وحذر فضمة الشين لغة ، وضم الهمزة تبع لضمة الشين ، وحكى الكسائي عن مجاهد ضم الشين . وقرأ أبو حيوة هذا الحرف الآخر (الأشر) أفعل تفضيل ، وإتمام خير وشر في أفعل التفضيل قليل . وحكى ابن الأنباري : أن العرب تقول : هو أخير وهو أشر قال الراجز :

بلال خير الناس وابن الأخيرَ

وقال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأخيرَ والأشر إلا في ضرورة الشعر ، وأنشد قول رؤبة بلال البيت ، وقرأ على الجمهور (سَيَعْلَمُون) بياء الغيبة ، وهو من إعلام الله تعالى لصالح ـ عليه السلام ـ وابن عامر وحمزة وطلحة وابن وثاب والأعمش بتاء الخطاب أي : قل لهم يا صالح وعداً يراد به الزمان المستقبل لا اليوم الذي يلي يوم خطابهم ، فاحتمل أن يكون يوم العذاب الحال بهم في الدنيا ، وأن يكون يوم القيامة ، وقال الطرماح :

أَلَا عَلِّلَانِي قَبْـلَ نَوْحِ النَّـوَائِـحِ ... وَقَبْلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَـا لَهْفَ نَفْسِيَ فِي غَدٍ ... إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ (١)

أراد وقت الموت ولم يرد غداً بعينه ، وفي قوله (سيعلمون غداً) تهديد ووعيد ببيان انكشاف الأمر ، والمعنى : أنهم هم الكذابون الأشرون ، وأورد ذلك مورد الإبهام والاحتمال ، وإن كانوا هم المعنيين بقوله تعالى حكاية عن قول نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ فسوف تعلمون منْ يأتيه عذاب يخزيه ﴾ [الزمر ٣٩ ، ٤٠] والمعني به قومه ، وكذا قول شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿سـوف تعلمـون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ [هود ٩٣] وقول الشاعر :

فَلَئِنْ لَقِيتُـكَ خَـالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنْ ... أَيِّـي وَأَيُّكَ فَارِسُ الأَحْزَابِ (٢)

وإنما عنى أنه فارس الأحزاب ، لا الذي خاطبه ، (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أي : ابتلاءً واختياراً وآنس بذلك صالحاً ، ولما هددهم بقوله (سيعلمون غداً) وكانوا قد ادعوا أنه كاذب ، قالوا : ما الدليل على صدقك قال الله تعالى (إنا مرسـلوالناقة) أي : مخرجوها من الهضبة التي سألوها . فارتقبهم أي فانتظرهم وتبصر ما هم فاعلون واصطبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتي أمر الله ، (ونبئهم أن الماء) أي : ماء البئر الذي لهم (قسمة بينهم) أي : بين ثمود وبين الناقة غلب ثمود ، فالضمير في (بينهم) لهم وللناقة أي : لهم شرب يوم وللناقة شرب يوم ، وقرأ الجمهور (قِسْمَةٌ) بكسر القاف ، ومعاذ عن أبي عمرو بفتحها (كل شرب محتضر) أي : محضور لهم وللناقة ، وتقدمت قصة الناقة مستوفـاة فأغنى عن إعادتها ، وهنا محذوف أي : فكانوا على هذه الوتيرة من قسمة الماء ، فملوا ذلـك وعزمـوا على عقـر الناقـة ، (فنادوا صاحبهم) وهو قدار بن سالف فتعاطى هو مطاوع عاطى ، وكان هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده ، ولما (كانوا) راضين نسب ذلك إليهم في قوله (فعقروا الناقة) وفي قوله (فكذبوه فعقروها) والصيحة التي أرسلت عليهم(٣) . يروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ صاح في طرف منازلهم ، فتفتتوا وهمدوا

---

(١) البيتان من الطويل لأبي الطمحان القيني ، انظر ديوان الحماسة ٧٧/٢ فتح القدير ١٢٦/٥ القرطبي ٩١/١٧ روح المعاني ٨٨/٢٧ .
(٢) انظر البيت في روح المعاني ٨٩/٢٧.
(٣) انظر البغوي ٢٦٢/٤ والوسيط ١٠٥ خ.

وصاروا كهشيم المحتظر[1] ، وهو ما تفتت وتهضم من الشجر والمحتظر الذي يعمل الحظيرة ، فإنه تتفتت منه حالة العمل وتتساقط أجزاء مما يعمل به ، أو يكون الهشيم ما يبس من الحظيرة بطول الزمان ، تطأه البهائم فيتهشم ، وقرأ الجمهور بكسر الظاء ، وأبو حيوة وأبو السمال وأبو رجاء وأبو عمرو بن عبيد بفتحها ، وهو موضع الاحتظار ، وقيل : هو مصدر : أي : كهشيم الاحتظار ، وهو ما تفتت حالة الاحتظار ، والحظيرة : تصنعها العرب وأهل البوادي للمواشي والسكنى من الأغصان والشجر المورق ، والقصب والحظر المنع وعن ابن عباس وقتادة : أن المحتظر هو المحترق . قال قتادة : كهشيم محترق ، وعن ابن جبير : هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي . وقيل : المحتظر بفتح الظاء هو الهشيم نفسه ، فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته ، كمسجد الجامع على من تأوله كذلك ، وكان هنا قيل : بمعنى صار ، قوله عز وجل .

﴿ كذبت قوم لوط بالنذر * إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ * إن المجرمين في ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر * ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر * وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر * إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ تقدمت قصة لوط ـ عليه السلام ـ وقومه والحاصب من الحصباء ، وهو المعنيّ بقوله تعالى : (وأرسلنا عليهم حجارة من سجيل إلا آل لوط) ، قيل : إلا ابنتاه و (بسحر) هو بكرة ، فلذلك صرف ، وانتصب (نعمة) على أنه مفعول من أجله ، أي : نجيناهم لإنعامنا عليهم ، أو على المصدر ، لأن المعنى : أنعمنا بالتنجية إنعاماً ، (كذلك نجزي) أي : مثل ذلك الإنعام والتنجية (نجزي من شكر) إنعامنا وأطاع وآمن ، (ولقد أنذرهم بطشتنا) أي : أخذتنا لهم بالعذاب (فتماروا) أي : تشككوا وتعاطوا ذلك بالنذر أي : بالإنذار ، أو يكون جمع نذير ، (فطمسنا) قال قتادة : الطمس حقيقة جر جبريل ـ عليه السلام ـ على أعينهم جناحه ، فاستوت مع وجوههم ، وقال أبو عبيدة : مطموسة بجلد كالوجه . قيل : لما صفقهم جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه تركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب ، حتى أخرجهم لوط ـ عليه السلام ـ ، وقال ابن عباس والضحاك : هذه استعارة ، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ، ولم يروا شيئاً ، فجعل ذلك كالطمس ، وقرأ الجمهور (فَطَمَسْنَا) بتخفيف الميم وابن مقسم بتشديدها ، فذوقوا أي فقلت لهم على ألسنة الملائكة ذوقوا (ولقد صبحهم بكرة) أي أول النهار وباكره لقوله ﴿ مشرقين ﴾ [الحجر ٧٣] ﴿ ومصبحين ﴾ [الحجر ٨٣] ، وقرأ الجمهور (بكرةً) بالتنوين ، أراد بكرة من البكر فصرف ، وقرأ زيد بن علي بغير تنوين (عذاب مستقر) أي : لم يكشفه عنهم كاشف ، بل اتصل بموتهم ، ثم بما بعد ذلك من عذاب القبر ، ثم عذاب جهنم (فذوقوا عذابي ونذر) توكيد وتوبيخ ذلك عند الطمس ، وهذا عند تصبيح العذاب ، وقيل : وفائدة تكرار هذا وتكرار (ولقد يسرنا) التجرد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين للاتعاظ ، واستئناف التيقظ إذا سمعوا الحث على ذلك ، لئلا تستولي عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير لقوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن ١٦] عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله (ويل يومئذ للمكذبين) [المرسلات ١٥] عند كل آية أوردها في سورة (والمرسلات) وكذلك تكرير القصص في أنفسها ، لتكون العبرة حاضرة للقلوب ، مذكورة في كل أوان ، (ولقد جاء آل فرعون النذر) هم موسى

---

(١) انظر المصادر السابقة .

وهارون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون ، أو يكون جمع نذير المصدر بمعنى : الإنذار ، (كذبوا بآياتنا) هي التسع ، والتوكيد هنا كهو في قوله ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ [طه ٥٦] والظاهر أن الضمير في (كذبوا) وفي (فأخذناهم) عائد على آل فرعون ، وقيل : هو عائد على جميع من تقدم من الأمم ذكره ، وتم الكلام عند قوله (النذر) (فأخذناهم أخذ عزيز) لا يغالب (مقتدر) لا يعجزه شيء . (أكفاركم) خطاب لأهل مكة (خير من أولئكم) الإشارة إلى قوم نوح وهود وصالح ولوط ، وإلى فرعون والمعنى : أهم خير في القوّة وآلات الحروب والمكانة في الدنيا ، أو أقل كفؤاً وعناداً ، فلأجل كونهم خيراً لا يعاقبون على الكفر بالله ، وقفهم على توبيخهم أي : ليس كفاركم خيراً من أولئكم ، بل هم مثلهم أو شرّ منهم ، وقد علمتم ما لحق أولئك من الهلاك المستأصل لما كذبوا الرسل ، (أم لكم براءة في الزبر) أي : ألكم في الكتب الإلهية براءة من عذاب الله تعالى ، قاله الضحاك وعكرمة وابن زيد ، (أم يقولون نحن جميع) أي : واثقون بجماعتنا منتصرون بقوتنا ، تقولون ذلك على سبيل الإعجاب بأنفسكم ، وقرأ الجمهور (أم يقولون) بياء الغيبة التفاتاً ، وكذا ما بعده للغائب ، وقرأ أبو حيوة وموسى الأسواري وأبو البرهسم : بتاء الخطاب للكفار إتباعاً لما تقدم من خطابهم ، وقرأوا (سَتَهْزِمَ الجَمْعَ) بفتح التاء وكسر الزاي وفتح العين خطاباً للرسول ـ ﷺ ـ ، وأبو حيوة أيضاً ، ويعقوب بالنون مفتوحة وكسر الزاي وفتح العين ، والجمهور بالياء مبنياً للمفعول وضم العين . وعن أبي حيوة وابن أبي عبلة أيضاً بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب العين أي : سيهزم الله الجمع ، والجمهور (ويولون) بياء الغيبة ، وأبو حيوة وداود بن أبي سالم عن أبي عمرو بتاء الخطاب ، و (الدبر) هنا اسم جنس ، وجاء في موضع آخر ﴿ ليولن الأدبار ﴾ [الحشر ١٢] وهو الأصل ، وحسن اسم الجنس هنا كونه فاصلة ، وقال الزمخشري (ويولون الدبر) أي : الأدبار كما قال : كلوا في بعض بطنكم تعفوا . وقرىء (الأدبار) انتهى . وليس مثل بطنكم ، لأن مجيء الدبر مفرداً ليس بحسن ، ولا يحسن لإفراد بطنكم ، وفي قوله تعالى (سيهزم الجمع) عدة من الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ بهزيمة جمع قريش ، والجمهور على أنها مكية ، وتلاها رسول الله ـ ﷺ ـ مستشهداً بها ، وقيل : نزلت يوم بدر (بل الساعة موعدهم) انتقل من تلك الأقوال إلى أمر الساعة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتال ، (والساعة أدهى) أي : أفظع وأشد ، والداهية : الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدفعه ، وهي الرزية (العظمى) تحل بالشخص ، (وأمر) من المرارة ، استعارة لصعوبة الشيء على النفس ، (إن المجرمين في ضلال) أي : في حيرة وتخبط في الدنيا ، (وسعر) أي : احتراق في الآخرة ، جعلوا فيه من حيث مصيرهم إليه . وقال ابن عباس : وخسران وجنون ، والسعر ، الجنون ، وتقدم مثله في قصة صالح ـ عليه السلام ـ (يوم يسحبون) يجرون في النار ، وفي قراءة عبد الله (إلى النار) ، (على وجوههم ذوقوا) أي : مقولاً لهم (ذوقوا مس سقر) ، وقرأ محبوب عن أبي عمرو (مَسَّقَر) بإدغام السين في السين ، قال ابن مجاهد : إدغامه خطأ ، لأنه مشدد انتهى . والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين ، لاجتماع الأمثال ، ثم أدغم . (إنا كلَّ شيء خلقناه بقدر) قراءة الجمهور (كلَّ شيء) بالنصب . وقرأ أبو السمال قال ابن عطية : وقوم من أهل السنة بالرفع ، قال أبو الفتح : هو الوجه في العربية ، وقراءتنا بالنصب مع الجماعة ، وقال قوم : إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف ، وأن ما بعده يصلح للخبر ، وكان المعنى على أن يكون الفعل هو الخبر اختير النصب في الاسم الأول ، حتى يتضح أن الفعل ليس بوصف ، ومنه هذا الموضع[1] ، لأن في قراءة الرفع يتخيل أن الفعل وصف ، وأن الخبر يقدر ، فقد

---

(١) يقصد أبو حيان ـ رحمه الله ـ أن جماعة من النحاة عللوا ترجيح النصب هذا ، وفي مثله بأنه إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف للاسم السابقة مع الرفع ، وكان الوصل عملاً بالمقصود ترجح النصب نحو : كل مملوك من مماليكي اشتريته بعشرين دينار ، إذا قصد أن كل واحد منهم مشترى بعشرين فنصب (كل) في هذا المعنى ، لأن التقدير ـ حينئذ ـ اشتريت كل مملوك من مماليكي بعشرين ، وإن رفعنا (كلا) احتمل أن يكون (اشتريته) خبراً له و (بعشرين) متعلقاً بالخبر ، فيكون المعنى كل واحد منهم مشترى بعشرين ، وهذا هو المقصود ، واحتمل أن =

تنازع أهل السنة والقدرية الاستدلال بهذه الآية ، فأهل السنة يقولون : كل شيء فهو مخلوق لله تعالى بقدرة ، دليله قراءة النصب ، لأنه لا يفسر في مثل هذا التركيب إلا ما يصح أن يكون خبراً لو وقع الأول على الابتداء ، وقالت القدرية : القراءة برفع (كلٌ) و (خلقناه) في موضع الصفة لـ (كل) أي : إن أمرنا أو شأننا كل شيء خلقناه ، فهو بقدر : أو بمقدار على حد ما في هيئته وزمنه ، وغير ذلك . وقال الزمخشري (كلَّ شيء) منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وقرىء (كلُّ شيء) بالرفع ، والقدر والقدر : هو التقدير ، وقرىء بهما ، أي : خلقنا كل شيء مقدراً ، محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه انتهى . قيل : والقدر : فيه وجوه ، أحدها : أن يكون بمعنى المقدار في ذاته وصفاته ، والثاني : التقدير قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ [المرسلات ٢٣] وقال الشاعر :

وَمَا قدّر الرَّحْمَنُ مَا هُوَ قَادِرُ(١)

أي : ما هو مقدور ، والثالث : القدر الذي يقال مع القضاء ، يقال : كان ذلك بقضاء الله وقدره ، والمعنى : إن القضاء ما في العلم والقدر ما في الإرادة ، فالمعنى : في الآية (خلقناه بقدر) أي : بقدرة مع إرادة انتهى . (وما أمرنا إلا واحدة) أي : إلا كلمة واحدة ، وهي كن . (كلمح بالبصر) تشبيه بأعجل ما يحس ، وفي أشياء أمر الله تعالى أوحى من ذلك ، والمعنى : أنه إذا أراد تكوين شيء لم يتأخر عن إرادته ، (ولقد أهلكنا أشياعكم) أي : الفرق المتشايعة في مذهب ودين . (وكل شيء فعلوه) أي : فعلته الأمم المكذبة محفوظ عليهم إلى يوم القيامة . قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد . ومعنى (في الزبر) . في دواوين الحفظة ، (وكل صغير وكبير) من الأعمال ، ومن كل ما هو كائن (مستطر) أي : مسطور في اللوح يقال : سطرت واستطرت بمعنى . وقرأ الأعمش وعمران بن حدير وعصمة عن أبي بكر بشد راء (مستطرّ) ، قال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون من طرّ النبات والشارب إذا ظهر وثبت ، بمعنى : كل شيء ظاهر في اللوح مثبت فيه ، ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدّد الراء للوقف على لغة من يقول : جعفرّ ونفعلّ بالتشديد وقفاً انتهى . ووزنه على التوجيه الأول استفعل ، وعلى الثاني افتعل ، وقرأ الجمهور (ونهر) على الإفراد ، والهاء مفتوحة ، والأعرج ومجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان بسكونها ، والمراد به الجنس إن أريد به الأنهار ، أو يكون معنى (ونهر) وسعة في الأرزاق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الحطيم :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا ۝ يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا(٢)

أي : أوسعت فتقها ، وقرأ زهير العرقبي والأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز واليماني بضم النون والهاء جمع نَهْر كرَهْن ورُهُن ، أو (نُهْر) كأَسَد وأُسْد ، وهو مناسب لجمع جنات ، وقيل (نهر) جمع نهار ، ولا ليل في الجنة وهو بعيد ، (في مقعد صدق) يجوز أن يكون ضد الكذب ، أي : في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، وأن يكون من قولك : رجل صدق ، أي : خير وجود وصلاح ، وقرأ الجمهور (في مقعد) على الإفراد يراد به اسم الجنس ، وعثمان البتي (في مقاعد) على الجمع ، و (عند) تدل على قرب المكانة من الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

= يكون (اشتريته) صفة (لكل مملوك) و (بعشرين) هو الخبر ، فيكون المعنى : كل من اشتريته من المماليك فهو بعشرين ، وليس هو المعنى المقصود ، انظر تفصيل ذلك في شرح الكافية للرضي ١٧٤/٣ ـ ١٧٥ والتصريح ٣٠٢/١ .

(١) عجز بيت من الطويل لإياس بن مالك انظر ديوان الحماسة ٢٤١/١ اللسان (قدر).

(٢) تقدم .

سورة الرحمن مكية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

النجم : النبات الذي لا ساق له ، من نجم أي : ظهر وطلع ، الأنام : الحيوان ، العصف : ورق الزرع . الريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، المرجان : الخرز الأحمر ، وقيل : صغار الدر ، واللؤلؤ كباره ، واللؤلؤ بناء غريب ، قيل : لا يحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة : اللؤلؤ والجؤجؤ . والدؤدؤ . واليؤيؤ طائر ، والبؤبؤ ، والنفوذ : الخروج من الشيء بسرعة . الشواظ : اللهب الخالص بغير دخان ، وقال حسان :

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ لَهَا بِذُلٍّ ... بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ(١)

وقال رؤبة :

وَنَارُ حَرْبٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وتضم شينه وتكسر . النحاس : قال الخليل ، والنحاس : هو الدخان الذي لا لهب له ، وهو معروف في كلام العرب ، قال نابغة بني جعدة :

تُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيطِ ... لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسَا(٢)

وقال الكسائي : النحاس هو النار الذي له ريح شديد ، وقيل : الصفر المذاب ، وتضم نونه وتكسر الوردة : الشديدة الحمرة ، يقال : فرد ورد وحجرة وردة ، الدهان : الجلد الأحمر ، أنشد القاضي منذر بن سعد رحمه الله :

تَبِعْنَ الدِّهَانَ الْحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... بِمَوْسِمِ بَدْرٍ أَوْ بِسُوقِ عُكَاظِ(٣)

---

(١) البيت من الوافر ، انظر شرح الديوان ٢٩٨ روح المعاني ١٩٢/٢٧ القرطبي ١١٢/١٧ .

(٢) البيت من مجزوء الوافر ، انظر ديوانه ٨١ غريب ابن قتيبة ٤٣٨ مجاز القرآن ٢٤٥/٢ . الاقتضاب ٤٠٧ معاني الفراء ١٣٧/٣ . الكشاف ٤٤٩/٤ روح المعاني ١١٣/٢٧ القرطبي ١١٢/١٧ .

(٣) البيت من الوافر لمنذر بن سعيد ، انظر روح المعاني ١١٤/٢٧ .

الناصية : مقدم الرأس ، آن : نهاية في الحر ، الأفنان : جمع فنن ، وهو الغصن ، أو جمع فن وهو النوع ، قال الشاعر :

وَمِنْ كُـلِّ أَفْنَـانِ اللَّذَاذَةِ وَالصِّبَى   لَهَوْتُ بِهِ وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ نَاضِرُ(١)

وقال نابغة بني ذبيان :

بُكَـاءُ حَمَـامَـةٍ تَـدْعُـو هَـدِيـلاً   مُـفَجَّعَـةً عَلَى فَـنَنٍ تُـغَـنِّي(٢)

الجنى : ما يقطف من الثمرة ، وهو فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى مقبوض ، (قاصرات الطرف) : قصرت ألحاظهن على أزواجهنّ ، قال الشاعر :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ محولُ   مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الأَتْبِ مِنْهَا لأَثَّرَا(٣)

الطمث : دم الحيض ، ودم الافتضاض . الياقوت : حجر معروف ، وقيل : لا تؤثر فيه النار ، قال الشاعر :

وَطَالَمَا أُصْلِي الْيَاقُوتُ جَمْرَ غَضَـىً   ثُمَّ انْطَفَى الْجَمْرُ وَالْيَاقُوتُ يَاقُوتُ(٤)

الادهمام : السواد ، النضخ : فوران الماء ، المقصورة : المحبوسة ، ويقال : قصيرة وقصورة أي : مخدرة وقال كثير :

وَأَنْـتِ الَّتِـي حَبَّبْـتِ كُـلَّ قَـصِيـرَةٍ   إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُـرْ بِـذَاكَ الْقَصَـائِـرُ
عَنَيْتُ قَصِيـرَاتِ الْحِجَـالِ وَلَمْ أُرِدْ   قِصَارَ الْخُطَا شَـرُّ النِّسَاءِ الْبَحَـاتِرُ(٥)

الخيمة معروفة ، وهي بيت المرتحل من خشب وثمام ، وسائر الحشيش ، وإذا كان من شعر فهو بيت ، ولا يقال له : خيمة ، ويجمع على خيام وخيم ، قال جرير :

مَتَى كَـانَ الْخِيَـامُ بِـذِي طُلُوحٍ   سُقِيْتِ الْغَيْثَ أَيَّتُهَـا الْخِيَـامُ(٦)

الرفرف : ما يدلى من الأسرة من غالي الثياب ، وقال الجوهري : ثياب خضر ، تتخذ منها المجالس الواحدة رفرفة ، واشتقاقه من رف إذا ارتفع ، ومنه : رفرفة الطائر لتحريك جناحيه وارتفاعه في الهواء ، وسمي الطائر رفرافاً ، ورفرف جناحيه حركهما ليقع على الشيء ، ورفرف السحاب : هدبه ، العبقري : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه بلد الجن ، فينسبون إليه كل شيء عجيب ، قال زهير :

---

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، انظر الكشاف ٤/٤٥٢ روح المعاني ٢٧/١١٧ .

(٢) البيت من الوافر انظر ديوان النابغة (١٢٢) فتح القدير ٥/١٤٠ .

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الوافر لم نهتد لقائله ، ذكره السمين الحلبي .

(٥) البيتان من الطويل لكثير عزة . اللسان (قصر) .

(٦) البيت من الوافر ، انظر ديوان ١/٢٧٨ .

بِخَيْـلٍ عَلَيْهَـا جِنَّـةٌ عَبْقَـرِيَّـةٌ جَدِيرُونَ يَوْماً أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا[١]

وقال امرؤ القيس :

كَـأَنَّ صَلِيـلَ الْمَـرْوِ حِينَ يَشُـذُّهُ صَلِيـلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَـدْنَ بِعَبْقَـرَا[٢]

وقال ذو الرمة :

حَيٌّ كَـأَنَّ رِيَـاضَ الْعَفِّ أَلْبَسَهَـا مِنْ وَشْيِ عَبْقَـرَ تَحْلِيـلٌ وَتَنْجِيـدُ[٣]

وقال الخليل : العبقري كل جليل نفيس من الرجال والنساء وغيرهم . الجلال : العظمة . قال الشاعر :

خَبَـرٌ مَـا قَـدْ جَـاءَنَـا مُسْتَعْمِـلٌ جَـلَّ حَتَّـى دَقَّ فِيـهِ الأَجَـلُ

﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * رب المشرقين ورب المغربين * فبأي آلاء ربكما تكذبان * مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، مدنية في قول ابن مسعود ، وعن ابن عباس : القولان وعنه : سوى آية هي مدنية ، وهي (يسأله من في السموات والأرض) الآية * وسبب نزولها فيما قال مقاتل : أنه لما نزل ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ﴾ [الفرقان ٦٠] الآية قالوا : ما نعرف الرحمن ، فنزلت (الرحمن علم القرآن)[٤] ، وقيل : لما قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل ١٠٣] ، أكذبهم الله تعالى ، وقال (الرحمن علم القرآن)[٥] ، وقيل : مدنية ، نزلت إذ أبى سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أنه لما ذكر مقر المتقين ، في جنات ونهر ، عند مليك مقتدر ، ذكر شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة ، ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب ، إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز ، ولما ذكر قوله (عند مليك مقتدر) فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير ، فكأنه قيل : من المتصف بذلك ؟ فقال (الرحمن علم القرآن) فذكر ما نشأ عن صفة الرحمة ، وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب . والظاهر أن (الرحمن) مرفوع على الابتداء . و (علم القرآن) خبره ، وقيل (الرحمن) آية بمضمر أي : الله الرحمن ، أو الرحمن ربنا ، وذلك آية ، و (علم القرآن) استئناف إخبار ، ولما عدّد نعمه تعالى بدأ من نعمه بما هو أعلى رتبها ، وهو تعليم القرآن ، إذ هو عماد الدين ونجاة من استمسك به ، ولما ذكر تعليم القرآن

---

(١) انظر ديوان زهير (٨٤) القرطبي ١٧/ ١٢٥ .
(٢) انظر ديوان امرىء القيس (٦٣) .
(٣) انظر القرطبي ١٧/ ١٢٥ .
(٤) انظر البغوي ٤/ ٢٦٦ .
(٥) انظر البغوي ٤/ ٢٦٦ .

ولم يذكر المعلم ذكره بعد في قوله (خلق الإنسان) ليعلم أنه المقصود بالتعليم ، ولما كان خلقه من أجل الدين وتعليمه القرآن كان كالسبب في خلقه ، تقدّم على خلقه ، ثم ذكر تعالى الوصف الذي يتميز به الإنسان من المنطق المفصح عن الضمير، والذي به يمكن قبول التعليم وهو البيان ، ألا ترى أن الأخرس لا يمكن أن يتعلم شيئاً مما يدرك بالنطق ، و (علّم) متعدّية إلى اثنين ، حذف أولهما لدلالة المعنى عليه وهو جبريل ، أو محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ، أو الإنسان أقوال . وتوهم أبو عبد الله الرازي أن المحذوف هو المفعول الثاني . قال : فإن قيل : لم ترك المفعول الثاني . وأجاب بأن النعمة في التعليم ، لا في تعليم شخص دون شخص ، كما يقال : فلان يطعم الطعام إشارة إلى كرمه ، ولا يبين من يطعمه انتهى ، والمفعول الأول هو الذي كان فاعلاً قبل النقل بالتضعيف ، أو الهمزة في (علم) وأطعم وأبعد من ذهب إلى أن معنى (علم القرآن) جعله علامة وآية يعتبر بها ، وهذه جمل مترادفة . أخبار كلها عن الرحمن ، جعلت مستقلة لم تعطف ، إذ هي تعداد لنعمه تعالى ، كما تقول : زيد أحسن إليك خوّلك ، أشار بذكرك و (الإنسان) اسم جنس ، وقال قتادة : (الإنسان) آدم ـ عليه السلام[1] ـ . وقال ابن كيسان : محمد ـ ﷺ ـ ، وقال ابن زيد والجمهور البيان المنطق ، والفهم الإبانة ، وهو الذي فضل به الإنسان على سائر الحيوان[2] ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والشرائع ، وهذا جزء من البيان العام ، وقال محمد بن كعب : ما يقول ، وما يقال له ، وقال الضحاك : الخير والشر ، وقال ابن جريج : الهدى ، وقال يمان : الكتابة ، ومن قال : الإنسان آدم ، فالبيان أسماء كل شيء ، أو التكلم بلغات كثيرة أفضلها العربية ، أو الكلام بعد أن خلقه ، أو علم الدنيا والآخرة ، أو الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء أقوال ، آخرها منسوب لجعفر الصادق ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به على الإنسان من تعليمه البيان ذكر ما امتن به من وجود الشمس والقمر ، وما فيهما من المنافع العظيمة للإنسان ، إذ هما يجريان على حساب معلوم ، وتقدير سوي في بروجهما ومنازلهما ، والحسبان : مصدر كالغفران ، وهو بمعنى الحساب قاله قتادة ، وقال الضحاك وأبو عبيدة : جمع حساب ، كشهاب وشهبان ، قال ابن عباس وأبو مالك وقتادة : لهما في طلوعهما وغروبهما ، وقطعهما البروج ، وغير ذلك حسبانات شتى ، وقال ابن زيد : لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً ، يريد من مقادير الزمان ، وقال مجاهد : الحسبان الفلك المستدير ، شبهه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير الذي باستدارته تستدير المطحنة ، وارتفع الشمس على الابتداء ، وخبره (بحسبان) فأما على حذف ، أي : جرى الشمس والقمر كائن (بحسبان) ، وقيل : الخبر محذوف ، أي : يجريان بحسبان ، و (بحسبان) متعلق بيجريان ، وعلى قول مجاهد تكون الباء في (بحسبان) ظرفية ، لأن الحسبان عنده الفلك ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به من منفعة الشمس والقمر ، وكان ذلك من الآيات العلوية ذكر في مقابلتها من الآثار السفلية النجم ، والشجر ، إذ كانا رزقاً للإنسان ، وأخبر أنهما جاريان على ما أراد الله بهما من تسخيرهما وكينونتهما على ما اقتضته حكمته تعالى ، ولما ذكر ما به حياة الأرواح ، من تعليم القرآن ذكر ما به حياة الأشباح ، من النبات الذي له ساق ، وكان تقديم النجم وهو ما لا ساق له ، لأنه أصل القوت ، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالباً ، والظاهر أن النجم هو الذي شرحناه ، ويدل عليه اقترانه بالشجر ، وقال مجاهد وقتادة والحسن : النجم اسم الجنس ، من نجوم السماء ، وسجودهما قال مجاهد والحسن : ذلك في النجم بالغروب ، ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وقال مجاهد أيضاً : والسجود تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ، والجمل الأول فيها ضمير يربطها بالمبتدأ ، وأما في هاتين الجملتين فاكتفى بالوصل المعنوي عن الوصل اللفظي ، إذ معلوم أن الحسبان هو حسبانه ، وأن السجود له لا لغيره ، فكأنه قيل : بحسبانه ويسجدان له ، ولما أوردت هذه الجمل

---

(١) انظر الوسيط ١٠٨ خ والبغوي ٤/ ٢٦٧ .

(٢) انظر الوسيط ١٠٨ خ والبغوي ٤/ ٢٦٧ .

مورد تعديد النعم رد الكلام إلى العطف في وصل ما يناسب وصله ، والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر ، لأن الشمس والقمر علويان ، والنجم والشجر سفليان ، (والسماء رفعها) أي : خلقها مرفوعة ، حيث جعلها مصدر قضاياه ، ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على عظم شأنه وملكه . وقرأ الجمهور (والسماء) بالنصب على الاشتغال ، روعي مشاكلة الجملة التي تليه ، وهي (يسجدان) ، وقرأ أبو السمال . (والسماءُ) بالرفع ، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية ، وقرأ الجمهور (وَوَضَع الميزان) فعلاً ماضياً ناصباً (الميزانَ) أي : أقره وأثبته ، وقرأ إبراهيم (وَوَضْعِ الميزان) بالخفض وإسكان الضاد ، والظاهر أنه كل ما يوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ، وإن اختلفت الآلات ، قال معناه ابن عباس والحسن وقتادة ، جعله تعالى حاكماً بالسوية في الأخذ والإعطاء ، وقال مجاهد والطبري والأكثرون : الميزان العدل ، وتكون الآلات من بعض ما يندرج في العدل ، بدأ أولاً بالعلم ، فذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم ، وهو القرآن ثم ذكر ما به التعديل في الأمور وهو الميزان ، كقوله ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ [الحديد ٢٥] ليعلموا الكتاب ويفعلوا ما يأمرهم به الكتاب ، (أن لا تطغوا في الميزان) أي : لأن لا تطغوا فـ (تطغوا) منصوب بـ (أن) ، وقال الزمخشري : أو هي (أن) المفسرة ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون (أن) مفسرة ، فيكون (تطغوا) جزماً بالنهي انتهى . ولا يجوز ما قالاه ، من أن (أنْ) مفسرة ، لأنه فات أحد شرطيها ، وهو أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول ، ووضع الميزان جملة ليس فيها معنى القول ، والطغيان في الميزان هو أن يكون بالتعمد ، وأما ما لا يقدر عليه من التحرير بالميزان فمعفو عنه ، ولما كانت التسوية مطلوبة جداً أمر الله تعالى فقال (وأقيموا الوزن) ، وقرأ الجمهور (ولا تُخْسِرُوا) من أخسر أي : أفسد ونقص ، كقوله ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين ٣] أي : ينقصون ، وبلال بن أبي بردة وزيد بن علي (تَخْسُرُوا) بفتح التاء يقال : خسر يخسر ، وأخسر يخسر ، بمعنى واحد ، كجبر وأجبر ، وحكى ابن جني وصاحب اللوامح عن بلال فتح التاء والسين مضارع خَسِر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير (في الميزان) فحذف التاء والسين مضارع خَسِر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير (في الميزان) فحذف الجار ونصب ، ولا يحتاج إلى هذا التخريج ، ألا ترى أن خسر جاء متعدياً ، كقوله تعالى ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ [الزمر ١٥] ، و ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الحج ١١] ، وقرىء أيضاً (تَخْسَروا) بفتح التاء وضم السين ، لما منع من الزيادة وهي الطغيان نهى عن الخسران الذي هو نقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله ، والحث عليه ، ولما ذكر السماء ذكر مقابلتها ، فقال (والأرض وضعها للأنام) أي : خفضها مدحوة على الماء لينتفع بها ، وقرأ الجمهور (والأرضَ) بالنصب ، وأبو السمال بالرفع ، والأنام ، قال ابن عباس : بنو آدم فقط ، وقال أيضاً هو وقتادة وابن زيد والشعبي : الحيوان كله ، وقال الحسن : الثقلان الجن والإنس ، (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به ، وبدأ بقوله (فاكهة) إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقي إلى الأعلى ، ونكر لفظها ، لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها ، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ، ولم يذكر ثمرتها وهو التمر لكثرة الانتفاع بها ، من ليف وسعفٍ وجريد وجذوع وجمار وتمر ، ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم ، وهو البر والشعير وكل ما له سنبل ، وأوراق متشعبة على ساقه ، ووصفه بقوله (ذو العصف) تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب ، ويقوت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن ، وبدأ بالفاكهة ، وختم بالمشموم ، وبينهما النخل والحب ليحصل ما به يتفكه ، وما به يتقوت وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة ، وذكر النخل باسمها والفاكهة دون شجرها لعظم المنفعة بالنخل ، من جهات متعددة ، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة ، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل ، ومن الفاكهة دون شجرتها ، وقرأ الجمهور (والحبُّ ذو العصفِ والريحانُ) برفع الثلاثة عطفاً على المرفوع قبله ، وابن عامر وأبو حيوة وابن أبي عبلة بنصب الثلاثة ، أي : وخلق الحب ، وجوزوا أن يكون (والريحانُ) حالة الرفع ، وحالة النصب على

حذف مضاف ، أي : وذو الريحان حذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، وحمزة والكسائي والأصمعي عن أبي عمرو والريحان بالجر ، والمعنى : والحب ذو العصف الذي هو علف البهائم ، والريحان الذي هو مطعم الناس ، ويبعد دخول المشموم في قراءة الجر ، وريحان من ذوات الواو ، وأجاز أبو علي أن يكون اسماً ، ووضع موضع المصدر ، وأن يكون مصدراً على وزن فعلان كاللبان ، وأبدلت الواو ياء كما أبدلوا الياء واواً في أشاوى ، أو مصدراً شاذاً في المعتل ، كما شذ كبنونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، فصار ريحان ، ثم حذفت عين الكلمة كما قالوا : ميت وهين ، ولما عدد تعالى نعمه خاطب الثقلين بقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي : إن نعمه كثيرة لا تحصى ، فبأيها تكذبان ، أي : من هذه نعمه لا يمكن أن يكذب بها ، وكان هذا الخطاب للثقلين ، لأنها داخلان في الأنام على أصح الأقوال ، ولقوله (خلق الإنسان) و (خلق الجان) ولقوله (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وقد أبعد من جعله خطاباً للذكر والأنثى من بني آدم ، وأبعد من هذا قول من قال : إنه خطاب على حد قوله (ألقيا في جهنم) ويا حرسيّ اضربا عنقه ، يعني : إنه خطاب للواحد بصورة الاثنين (فبأيّ) منوناً في جميع السورة ، كأنه حذف منه المضاف إليه ، وأبدل منه (آلاء ربكما) بدل معرفة من نكرة ، و (آلاء) تقدم في الأعراف أنها النعم واحدها إلى وألا وإلى وألى ، (خلق الإنسان) لما ذكر العالم الأكبر من السماء والأرض ، وما أوجد فيها من النعم ذكر مبدأ من خلقت له هذه النعم ، والإنسان هو آدم ، وهو قول الجمهور ، وقيل : للجنس ، وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق من الصلصال ، وإذا أريد بالإنسان آدم ، فقد جاءت غايات له مختلفة ، وذلك بتنقل أصله . فكان أولاً تراباً ، ثم طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً ، فناسب أن ينسب خلقه لكل واحد منها ، والجان هو أبو الجن ، وهو إبليس قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن ، وليس بإبليس ، وقيل الجان اسم جنس ، والمارج ما اختلط من أصفر وأحمر وأخضر ، أو اللهب ، أو الخالص ، أو الحمرة في طرف النار ، أو المختلط بسواد ، أو المضطرب بلا دخان أقوال ، و (من) الأولى لابتداء الغاية ، والثانية في (من نار) للتبعيض ، وقيل : للبيان ، والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد . والتنبيه والتحريك ، وهي موجودة في مواضع من القرآن ، وذهب قوم منهم ابن قتيبة إلى أن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم ، فكرر التوقيف في كل واحد منها ، وقرأ الجمهور (ربُّ) (وربُّ) بالرفع ، أي : هو رب ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة بالخفض بدلاً من (ربِّكما) وثنى المضاف إليه ، لأنهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ، قاله مجاهد ، وقيل : مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما ، وعن ابن عباس : للشمس مشرق في الصيف مصعد ، ومشرق في الشتاء منحدر ، تنتقل فيهما مصعدة ومنحدرة انتهى[1] . فالمشرقان والمغربان للشمس ، وقيل : المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس ، والمغربان مغرب الشفق ومغرب الشمس ، ولسهل التستري كلام في المشرقين والمغربين ، شبيه بكلام الباطنية المحرفين مدلول كلام الله ضربنا عن ذكره صفحاً ، وكذلك ما وقفنا عليه من كلام الغلاة الذين ينسبون للصوفية ، لأنا لا نستحل نقل شيء منه ، وقد أولغ صاحب كتاب « التحرير والتحبير » بحسب ما قاله هؤلاء الغلاة في كل آية آية . ويسمى ذلك الحقائق وأرباب القلوب ، وما ادعوا نهمه في القرآن فأغلوا فيه ، لم يفهمه عربي قط ، ولا أراده الله تعالى بتلك الألفاظ ، نعوذ بالله من ذلك ، (مرج البحرين) تقدم الكلام على ذلك في الفرقان ، قال ابن عطية وذكر الثعلبي في (مرج البحرين) ألغازاً وأقوالاً باطنة لا يلتفت إلى شيء منها انتهى . والظاهر التقاؤهما ، أي : يتجاوزان ، فلا فصل بين الماءين في رؤية العين ، وقيل (يلتقيان) في كل سنة مرة ، وقيل : معدان للالتقاء ، فحقهما أن يلتقيا لولا البرزخ بينهما ، (برزخ) أي : حاجز من قدرة الله تعالى ، (لا يبغيان) لا يتجاوزان حدهما ، ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة ، وقيل : البرزخ أجرام الأرض ، قاله قتادة ، وقيل (لا يبغيان) أي : على الناس والعمران ، وعلى هذا والذي قبله يكون من البغي ، وقيل : هو من بغى أي : طلب ، فالمعنى : لا يبغيان حالاً غير الحال التي خلقا عليها

---

(١) انظر الوسيط ١٠٩ خ .

وسخرا لها ، وقيل : ماء الأنهار لا يختلط بالماء الملح ، بل هو بذاته باق فيه ، وقال ابن عطية : والعيان لا يقتضيه انتهى . يعني أنه يشاهد الماء العذب يختلط بالملح ، فيبقى كله ملحاً ، وقد يقال : إنه بالاختلاط تتغير أجرام العذب حتى لا تظهر ، فإذا ذاق الإنسان من الملح المنبث فيه تلك الأجزاء الدقيقة لم يحس إلا الملوحة ، والمعقول يشهد بذلك ، لأن تداخل الأجسام غير ممكن ، لكن التفرق والالتقاء ممكن ، وأنشد القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله تعالى :

وَمَمْزُوجَةِ الأَمْـوَاهِ لاَ الْعَذْبُ غَـالِبٌ عَلَى الْمِلْحِ طِيباً لاَ وَلاَ الْمِلْحُ يَعْذُبُ

وقرأ الجمهور (يَخْرُجُ) مبنياً للفاعل ، ونافع وأبو عمرو وأهل المدينة مبنياً للمفعول ، والجعفي عن أبي عمرو بالياء مضمومة وكسر الراء ، أي : يُخْرِج الله ، وعنه وعن أبي عمرو وعن ابن مقسم بالنون ، و (اللؤلؤَ والمَرْجَانَ) نصب في هاتين القراءتين ، والظاهر في (منهما) أن ذلك يخرج من الملح والعذب ، وقال بذلك قوم ، حكاه الأخفش ، ورد الناس هذا القول ، قالوا : والحس يخالفه ، إذ لا يخرج إلا من الملح وعابوا قول الشاعر :

فَجَاءَ بِهَـا مَـا شِئْتَ مِنْ لَـطِيمَـةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمُوجُ[1]

وقال الجمهور : إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة ، فناسب إسناد ذلك إليهما ، وهذا مشهور عند الغواصين ، وقال ابن عباس وعكرمة : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ، لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر ، فلذلك قال (منهما) ، وقال أبو عبيدة : إنما يخرج من الملح لكنه قال (منهما) تجوزاً ، وقال الرماني : العذب فيها ، كاللقاح للملح ، فهو كما يقال الولد : يخرج من الذكر والأنثى ، وقال ابن عطية : وتبع الزجاج من حيث هما نوع واحد ، فخروج هذه الأشياء إنما هي منهما ، وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما ، كما قال ﴿ سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ [نوح ١٥ ، ١٦] وإنما هـو في إحداهن . وهي الـدنيا إلى الأرض ، وقـال الزمخشري نحواً من قول ابن عطية ، قال : (فإن قلت) لم قال (منهما) وإنما يخرجان من الملح (قلت :) لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ، جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال : يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ، ولكن من بعضه وتقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب انتهى . وقال أبو علي الفارسي : هذا من باب حذف المضاف ، والتقدير : يخرج من أحدهما ، كقوله تعالى ﴿على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف ٣١] أي : من إحـدى القريتـين ، وقيل : همـا بحران يخـرج من أحدهمـا اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان ، وقال أبو عبد الله الرازي : كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، ومن أعلم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب ، وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح ، ولكن لم قلتم : إن الصدف لا يخرج بأمر الله من الماء العذب إلى الماء الملح ، وكيف يمكن الجزم به ، والأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز ، وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم ؟ واللؤلؤ قال ابن عباس والضحـاك وقتادة : كبـار الجوهر ، والمرجان صغاره ، وعن ابن عباس أيضاً وعلي ومرة الهمداني عكس هذا ، وقال أبو عبد الله وأبو مالك : المرجان الحجر الأحمر ، وقال الزجاج : حجر شديد البياض ، وحكى القاضي أبـو يعلى : إنـه ضرب من اللؤلؤ ، كالقضبـان والمرجان اسم أعجميّ معرب ، قال ابن دريد : لم أسمع فيه نقل متصرف . وقال الأعشى :

مِنْ كُلِّ مُرْجَانَةٍ فِي الْبَحْرِ أَحْرَزَهَا تَيَّارُهَا وَوَقَاهَا طِينُهَا الصَّدَفُ[2]

---

(١) البيت من الطويل لأبي ذؤيب انظر ديوان الهذليين ١/٥٧ اللسان (فرث) .

(٢) البيت من المنسرح ، انظر ديوانه ١١٢ .

قيل : أراد اللؤلؤة الكبيرة ، وقرأ طلحة : اللؤلؤ بكسر اللام الثالثة ، وهي لغة وعبد اللولى تقلب الهمزة المتطرفة ياء ساكنة بعد كسرة ما قبلها ، وهي لغة قاله أبو الفضل الرازي ، (وله الجوارِ) خص تعالى الجواري بأنها له ، وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن ، لأنهم لما كانوا هم منشئيها أسندها تعالى إليه ، إذ كان تمام منفعتها إنما هو منه تعالى فهو في الحقيقة مالكها ، والجواري : السفن : وقرأ عبد الله والحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو بضم الراء ، كما قالوا في شاك : شاكُ ، وقرأ الجمهور (المنشآت) بفتح الشين اسم مفعول ، أي : أنشأها الله ، أو الناس ، أو المرفوعات الشراع ، وقال مجاهد : ماله شراع من المنشآت ، وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت ، والشراع القلع ، والأعمش وحمزة وزيد بن علي وطلحة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين ، أي : الرافعات الشراع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ، أو التي تنشىء السفر إقبالاً وإدباراً ، وشدد الشين ابن أبي عبلة والحسن (المُنَشَّأَة) وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف ، كقوله : أزواج مطهرة ، وقلب الهمزة ألفاً على حد قوله : إنَّ السِّبَاعَ لَتَهْدَى فِي مَرَابِضِهَا ، يريد : لتهدأ التاء لتأنيث الصفة ، كتبت تاء على لفظها في الوصل ، (كالأعلام) أي : كالجبال والآكام ، وهذا يدل على كبر السفن ، حيث شبهها بالجبال ، وإن كان المنشآت تطلق على السفينة الكبيرة والصغيرة ، وعبر بمن في قوله (كل من عليها) تغليباً لمن يعقل ، الضمير في (عليها) قليل عائد على الأرض في قوله (والأرضَ وضعها للأنام) فعاد الضمير عليها ، وإن كان بعد لفظها ، والفناء عبارة عن إعدام جميع الموجودات من حيوان وغيره ، والوجه يعبر به عن حقيقة الشيء ، والجارحة منتفية عن الله تعالى ، ونحو ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص ٨٨] وتقول صعاليك مكة : أين وجه ، عربي كريم يجود عليّ ؟ وقرأ الجمهور (ذو) بالواو صفة للوجه ، وأبي وعبد الله (ذي) بالياء صفة للرب ، والظاهر أن الخطاب في قوله (وجه ربك) للرسول ، وفيه تشريف عظيم له ـ ﷺ ـ ، وقيل : الخطاب لكل سامع ، ومعنى ذو الجلال الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ، وعن أفعالهم ، أو الذي يتعجب من جلاله ، أو الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده . (يسأله من في السموات والأرض) أي : حوائجهم ، وهو ما يتعلق بمن في السموات من أمر الدين ، وما استعبدوا به ، ومن في الأرض من أمر دينهم ودنياهم . وقال أبو صالح : من في السموات الرحمة ، ومن في الأرض المغفرة والرزق ، وقال ابن جريج : الملائكة الرزق لأهل الأرض ، والمغفرة وأهل الأرض يسألونهما جميعاً ، والظاهر أن قوله : (يسأله) استئناف إخبار . وقيل : حال من الوجه ، والعامل فيه يبقى أي : هو دائم في هذه الحال انتهى ، وفيه بعد ، ومن لا يسأل فحاله تقتضي السؤال ، فيصح إسناد السؤال إلى الجميع باعتبار القدر المشترك ، وهو الافتقار إليه تعالى ، كل يوم أي : كل ساعة ولحظة ، وذكر اليوم ، لأن الساعات واللحظات في ضمنه ، هو في شأن قال ابن عباس : في شأن يمضيه من الخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة . وقال عبيد بن عمير : يجيب داعياً ، ويفك عانياً ، ويتوب على قوم ، ويغفر لقوم ، وقال سويد بن غفلة : يعتق رقاباً ، ويعطي رغاباً ، ويقحم عقابا . وقال ابن عيينة : الدهر عند الله يومان : أحدهما : اليوم الذي هو مدة الدنيا ، فشأنه فيه الأمر ، والنهي ، والإماتة ، والإحياء . والثاني : الذي هو يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء ، والحساب ، وعن مقاتل : نزلت في اليهود ، قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً ، وقال الحسين بن الفضل وقد سأله عبد الله بن طاهر عن قوله : كل يوم هو في شأن ، وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال : شؤون يبديها لا شؤون يبتديها ، وقال ابن بحر : هو في يوم الدنيا في الابتلاء ، وفي يوم القيامة في الجزاء ، وانتصب كل يوم على الظرف ، والعامل فيه العامل في قوله في شأن ، وهو مستقر المحذوف ، نحو يوم الجمعة زيد قائم .

قوله عز وجل :

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان * يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا

تنتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان * ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * ذواتا أفنان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان تجريان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهما من كل فاكهة زوجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ لما ذكر تعالى ما أنعم به من تعليم العلم ، وخلق الإنسان ، والسماء ، والأرض ، وما أودع فيهما ، وفناء ما على الأرض ، ذكر ما يتعلق بأحوال الآخرة ، والجزاء . وقال : سنفرغ لكم أي : ننظر في أموركم يوم القيامة ، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ منه ، وجرى على هذا كلام العرب في أن المعنى سيقصد لحسابكم ، فهو استعارة من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك : أي : سأتجرد للإيقاع بك من كل ما شغلني عنه ، حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد : التوفر على الانتقام منه ، قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا ، والأول أبين ، انتهى . يعني : أن يكون ذلك يوم القيامة ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا ، ويبلغ آخرها ، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله : كل يوم هو في شأن ، فلا يبقى إلا شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل ، انتهى . والذي عليه أئمة اللغة : أن فرغ تستعمل عند انقضاء الشغل الذي كان الإنسان مشتغلاً به ، فلذلك احتاج قوله إلى التأويل ، على أنه قد قيل : إن فرغ يكون بمعنى قصد واهتم ، واستدل على ذلك بما أنشده ابن الأنباري لجرير :

الآنَ وَقَدْ فَرَغْتُ إلَى نُمَيْـرٍ فَهَذَا حِينَ كُنْتُ لَهُمْ عَذَابَا[١]

أي : قصدت ، وأنشد النحاس :

فَرَغْتُ إِلَى الْعَبْدِ الْمُقَيَّدِ فِي الْحِجْلِ[٢]

وفي الحديث[٣] : فرغ ربك من أربع ، وفيه : لأتفرغن إليك يا خبيث يخاطب به رسول الله ﷺ إرب العقبة يوم بيعتها ، أي : لأقصدن إبطال أمرك ، نقل هذا عن الخليل ، والكسائي ، والفراء ، وقرأ الجمهور (سَنَفْرُغُ) بنون العظمة ، وضم الراء ، من فرغ بفتح الراء ، وهي لغة الحجاز ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو حيوة ، وزيد بن علي ، بياء الغيبة ، وقتادة ، والأعرج بالنون ، وفتح الراء ، مضارع فرغ بكسرها ، وهي تميمية ، وأبو السمال وعيسى بكسر النون وفتح الراء ، قال أبو حاتم : هي لغة سفلى مضر ، والأعمش وأبو حيوة بخلاف عنهما ، وابن أبي عبلة والزعفراني بضم الياء ، وفتح الراء ، مبنياً للمفعول ، وعيسى أيضاً بفتح النون ، وكسر الراء ، والأعرج أيضاً بفتح الياء والراء ، وهي رواية يونس والجعفي وعبد الوارث ، عن أبي عمرو ، والثقلان : الإنس والجن ، سميا بذلك ، لكونهما ثقيلين على وجه الأرض ، أو لكونهما مثقلين بالذنوب ، أو لثقل الإنس ، وسمي الجن ثقلاً ، لمجاورة الإنس ، والثقل : الأمر العظيم ، وفي الحديث : إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي ، سميا بذلك لعظمهما وشرفهما ، والظاهر أن قوله : يا معشر

---

(١) البيت من الوافر ، انظر اللسان (أين) القرطبي ١٧/ ١١٠ روح المعاني ٢٧/ ١١١ .

(٢) عجز بيت من الطويل ، وصدره :

ولـمـا اتـقـى (الـقـيـد الـعـراقـي) بـاسـتـه ....

انظر شرح ديوان جرير (٣٤٨) اللسان (فرغ) النقائض ١٥٨ .

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز .

الآية من خطاب الله إياهم يوم القيامة يوم التناد ، وقيل : يقال لهم ذلك ، قال الضحاك : يفرون في أقطار الأرض ، لما يرون من الهول ، فيجدون الملائكة قد أحاطت بالأرض ، فيرجعون من حيث جاؤوا ، فحينئذٍ يقال لهم ذلك [١] . وقيل : هو خطاب في الدنيا [٢] ، والمعنى : إن استطعتم الفرار من الموت ، وقال ابن عباس : إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلمون علم أقطار أي : جهات السموات والأرض [٣] ، قال الزمخشري : يا معشر الجن والإنس ، كالترجمة لقوله أيها الثقلان إن استطعتم أن تهربوا من قضائي . وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرون على النفوذ إلا بسلطان يعني : بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه : وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، انتهى . فانفذوا أمر تعجيز ، وقال قتادة : السلطان هنا الملك وليس لهم ملك [٤] ، وقال الضحاك : أيضاً بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجن والإنس فتحدق بهم الملائكة ، وقرأ زيد بن علي : إن استطعتما على خطاب تثنية الثقلين ، ومراعاة الجن والإنس ، والجمهور على خطاب الجماعة ، إن استطعتم ، لأن كلًا منهما تحته أفراد كثيرة ، كقوله وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، يرسل عليكما شواظ ، قال ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ، ساقهم شواظ إلى المحشر [٥] ، والشواظ لهب النار ، وقال مجاهد : اللهب الأحمر المنقطع [٦] ، وقال الضحاك : الدخان الذي يخرج من اللهب وقرأ الجمهور : (شُوَاظٌ) بضم الشين ، وعيسى وابن كثير وشبل بكسرها ، والجمهور (ونُحَاسٌ) بالرفع وابن أبي إسحق والنخعي وابن كثير وأبو عمرو بالجر ، والكلبي وطلحة ومجاهد بكسر نون نحاس والسين ، وقرأ ابن جبير (وَنَحْس) كما تقول يوم نحس ، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحق أيضاً (ونحس) مضارعاً ، وماضيه حسه أي : قتله أي : ويحس بالعذاب ، وعن ابن أبي إسحق أيضاً ونحس بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير ، وحنظلة بن نعمان ونحس بفتح النون وكسر السين ، والحسن وإسماعيل ونحس بضمتين والكسر ، وقرأ زيد بن علي : نرسل بالنون عليكما شواظاً بالنصب من نار ، ونحاساً بالنصب عطفاً على شواظاً ، قال ابن عباس وابن جبير والنحاس : الدخان [٧] ، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد هو الصفر المعروف ، والمعنى : يعجز الجن والإنس أي : أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه ، فإذا انشقت السماء ، جواب إذا محذوف ، أي : فما أعظم الهول ، وانشقاقها انفطارها يوم القيامة ، فكانت وردة أي : محمرة كالورد ، قال ابن عباس وأبو صالح : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون السماء مؤنثة ، وقال قتادة : هي اليوم زرقاء ، ويومئذٍ تغلب عليها الحمرة ، كلون الورد ، وهي النوار المعروف ، قاله الزجاج ، ويريد : كلون الورد ، وقال الشاعر :

فَلَوْ كُنْتُ وَرْداً لَـوْنُهُ لَعَشِقْتِني ... وَلَكِنَّ رَبِّي شَانَنِي بِسَوَادِيَـا [٨]

وقال أبو الجوزاء : وردة صفراء ، وقال : أما سمعت العرب تسمي الخيل الورد ، قال الفراء : أراد لون الفرس الورد يكون في الربيع إلى الصفرة ، وفي الشتاء إلى الحمرة ، وفي اشتداد البرد إلى الغبرة ، فشبه تلون السماء بتلون الوردة

---

(١) انظر الوسيط ١١٠ خ والبغوي ٤/٢٧١ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر البغوي ٤/٢٧١ والوسيط ١١٠ خ والبغوي ٤/٢٧١ ، ٢٧٢ والقرطبي ٩/٦٣٤٣ وزاد المسير ٨/١١٦ .

(٦) انظر المصادر السابقة .

(٧) انظر المصادر السابقة .

(٨) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

من الخيل ، وهذا قول الكلبي ، كالدهان قال ابن عباس : الأديم الأحمر ، ومنه قول الأعشى :

وَأَجْرَدُ مَنْ كِرَامِ الْخَيْـرِ طِرْفٌ ... كَـأَنَّ عَلَى شَوَاكِلِهِ دِهَـانَـا[١]

وقال الشاعر :

كَالدِّهَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ،

لأنها تتلون ألواناً

وقال الضحاك : كالدهان خالصة جمع دهن ، كقرط وقراط ، وقيل : تصير حمراء من حرارة جهنم ، ومثل الدهن لذوبها ودورانها ، وقيل : شبهت بالدهان في لمعانها ، وقال الزمخشري : كالدهان كدهن الزيت كما قال : كالمهل وهو دردي الزيت ، وهو جمع دهن أو اسم ما يدهن به ، كالحرام والأدام قال الشاعر :

كَـأَنَّهُمَـا مَـزَادَتَـا مُتَعَجِّـلٍ ... فَـرِيَّانِ لَمَّـا سَلَّعَا بِـدِهَـانِ[٢]

وقرأ عبيد بن عمير وردة بالرفع بمعنى فحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد كقوله :

فَلَئِنْ بَقِيتُ لَأَرْحَلَنَّ بِغَـزْوَةٍ ... نَحْوَ الْمَغَانِمِ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ[٣]

انتهى (فيومئذ) التنوين فيه للعوض من الجملة المحذوفة ، والتقدير : فيوم إذ انشقت السماء ، والناصب ليومئذ لا يسأل ، ودل هذا على انتفاء السؤال ، و﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات ٢٤] وغيره من الآيات على وقوع السؤال ، فقال عكرمة وقتادة : هي مواطن يسأل في بعضها ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير ، وحيث نفى فهو استخبار محض عن الذنب ، والله تعالى أعلم بكل شيء ، وقال قتادة أيضاً : كانت مسألة ثم ختم على الأفواه ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يعملون ، وقال أبو العالية وقتادة : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : (ولا جأن) بالهمز فراراً من التقاء الساكنين ، وإن كان التقاؤهما على حدة ، وقرأ حماد بن أبي سليمان بسيمائهم ، والجمهور بسيماهم ، وسيما المجرمين سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، قاله الحسن ، ويجوز أن يكون غير هذا من التشويهات ، كالعمى والبكم والصمم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، قال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدميه ، فيوطأ ويجمع كالحطب ويلقى كذلك في النار ، وقال الضحاك : يجمع بينهما في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل : تسحبهم الملائكة ، تارة تأخذ بالنواصي وتارة بالأقدام ، وقيل : بعضهم سحباً بالناصية ، وبعضهم سحباً بالقدم ، ويؤخذ متعد إلى مفعول بنفسه ، وحذف هذا الفاعل والمفعول ، وأقيم الجار والمجرور مقام الفاعل ، مضمناً معنى ما يعدى بالبار ، أي : فيسحب بالنواصي والأقدام ، وأل فيهما على مذهب الكوفيين عوض من الضمير ، أي : بنواصيهم وأقدامهم ، وعلى مذهب البصريين الضمير محذوف ، أي بالنواصي والأقدام منهم ، هذه جهنم أي يقال لهم ذلك على طريق التوبيخ والتقريع ، يطوفون بينها أي : يتردّدون بين نارها وبين ما غلى فيها من مائع عذابها ، وقال قتادة : الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم ، وآن أي : منتهى الحر والنضج ، فيعاقب بينهم وبين تصلية النار وبين شرب الحميم ، وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم ، وقيل : يغمسون في واد في جهنم ، يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً ، وقرأ علي والسلمي : (يُطَّافون) والأعمش وطلحة وابن

---

(١) البيت من الخفيف ، انظر ديوانه (٢١٢) اللسان (دهن) روح المعاني ٢٧/ ١١٤ .

(٢) البيت من الطويل لامرىء القيس ، انظر ديوانه ٨٨ . الكشاف ٤/ ٣٥٨ .

(٣) البيت من الكامل لقتادة بن مسلمة الحنفي ، من الشعراء الجاهليين ، انظر ديوان الحماسة ١/ ٣٢٧ الكشاف ٤/ ٣٩٥ .

مقسم يطوفون بضم الياء ، وفتح الطاء ، وكسر الواو مشددة ، وقرىء (يطوفون) أي يتطوفون والجمهور : (يطوفون) مضارع طاف ، قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال ابن الزبير : نزلت في أبي بكر ، مقام ربه مصدر فاحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل ، أي : قيام ربه عليه ، وهو مروي عن مجاهد قال : من قوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أي : حافظ مهيمن ، فالعبد يراقب ذلك فلا يجسر على المعصية ، وقيل : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، فالمعنى : أنه يخاف مقامه الذي يقف فيه العباد للحساب من قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف ، وقيل : مقام مقحم ، والمعنى : ولمن خاف ربه كما تقول أخاف جانب فلان يعني فلانا والظاهر : أن لكل فرد فرد من الخائفين جنتان ، قيل : إحداهما : منزله ، والأخرى : لأزواجه وخدمه ، وقال مقاتل : جنة عدن ، وجنة نعيم ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته ، وتظهر ثمار كرامته ، وقيل : هما للخائفين ، والخطاب للثقلين فجنة للخائف الجني ، وجنة للخائف الإنسي ، وقال أبو موسى الأشعري : جنة من ذهب للسابقين ، وجنة من فضة للتابعين ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ، لأن التكليف دائر عليهما ، وأن يقال : جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل لقوله وزيادة ، وخص الأفنان بالذكر جمع فنن ، وهي الغصون التي تتشعب عن فروع الشجر ، لأنها التي تورق وتثمر ، ومنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار ، وقيل : الأفنان جمع فن ، وهي ألوان النعم وأنواعها ، وهو قول ابن عباس ، والأول قال قريباً منه مجاهد وعكرمة ، وهو أولى ، لأن أفعالاً في فعل أكثر منه في فعل بسكون العين ، وفن يجمع على فنون ، (فيهما عينان تجريان) قال ابن عباس : هما عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة ، وقال : تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة ، وقال الحسن : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ، وقال ابن عطية إحداهما من ماء ، والأخرى من خمر ، وقيل : تجريان في الأعالي والأسافل من جبل من مسك ، (زوجان) قال ابن عباس : ما في الدنيا من شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى شجر الحنظل إلا أنه حلو ، انتهى . ومعنى زوجان : رطب ويابس ، لا يقصر هذا عن ذاك في الطيب واللذة ، وقيل : صنفان : صنف معروف ، وصنف غريب ، وجاء الفصل بين قوله ذواتا أفنان وبين قوله : (فيهما من كل فاكهة) بقوله : (فيهما عينان تجريان) والأفنان عليها الفواكه ، لأن الداخل إلى البستان لا يقدم إلا للتفرج بلذة ما فيه ، بالنظر إلى خضرة الشجر ، وجري الأنهار ، ثم بعد يأخذ في اجتناء الثمار للأكل ، وانتصب متكئين على الحال من قوله : ولمن خاف ، وحمل جمعاً على معنى من ، وقيل : العامل محذوف ، أي : يتنعمون متكئين ، وقال الزمخشري : أي : نصب على المدح والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، والمعنى متكئين في منازلهم على فرش ، وقرأ الجمهور : وفرش بضمتين ، وأبو حيوة بسكون الراء ، وفي الحديث : قيل لرسول الله ﷺ : هذه البطائن من إستبرق كيف الظهائر ؟ قال : هي من نور يتلألأ ولو صح هذا لم يجز أن يفسر بغيره وقيل : من سندس ، قال الحسن والفراء : البطائن هي الظهائر ، وروي عن قتادة ، وقال الفراء : قد تكون البطانة الظهارة ، والظهارة البطانة ، لأن كلاً منهما يكون وجهاً ، والعرب تقول هذا وجه السماء ، وهذا بطن السماء ، قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وجنى الجنتين دان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء

ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام . ﴾

قال ابن عباس : تجتنيه قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، لا يرد يده بعد ولا شوك . وقرأ عيسى بفتح الجيم وكسر النون ، كأنه أمال النون وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ ، كما أمال أبو عمر ، و (حتى نرى الله) [البقرة ٥٥] وقرىء : (وجنى) بكسر الجيم ، والضمير في فيهن عائد على الجنان الدال عليهن جنتان ، إذ كل فرد له جنتان ، فصح أنها جنان كثيرة ، وإن كان الجنتان أريد بهما حقيقة التثنية ، وإن لكل جنس من الجن والإنس جنة واحدة ، فالضمير يعود على ما اشتملت عليه الجنة من المجالس والقصور والمنازل ، وقيل : يعود على الفرش ، أي : فيهن معدات للاستماع ، وهو قول حسن قريب المأخذ ، وقال الزمخشري : فيهن في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والجنى ، انتهى ، وفيه بعد ، وقال الفراء : كل موضع من الجنة جنة ، فلذلك قال (فيهن) .

و (الطرف) أصله مصدر ، فلذلك وحد ، والظاهر : أنهن اللواتي يقصرن أعينهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم .

قال ابن زيد : تقول لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك ، وقيل : (الطرف) طرف غيرهن ، أي قصرن عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن .

(لم يطمثهن) قال ابن عباس : لم يفتضهن قبل أزواجهن ، وقيل : لم يطأهن على أي وجه كان الوطء من افتضاض أو غيره وهو قول عكرمة والضمير في قبلهم عائد على من عاد عليه الضمير في متكئين .

وقرأ الجمهور بكسر ميم (يطمثهن) في الموضعين وطلحة وعيسى وأصحاب عبد الله وعليّ بالضم ، وقرأ ناس بضم الأول وكسر الثاني ، وناس بالعكس ، وناس بالتخيير ، والجحدري بفتح الميم فيهما ، ونفى وطئهي عن الأنس ظاهر وأما عن الجن فقال مجاهد والحسن ، قد تجامع مع نساء البشر مع أزواجهن ، إذ لم يذكر الزوج الله تعالى فنفى هنا جميع المجامعين ، وقال ضمرة بن حبيب الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فنفى الافتضاض عن البشريات والجنيات ، قال قتادة كأنهن على صفاء الياقوت ، وحمرة المرجان لو أدخلت في الياقوت سلكا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه انتهى .

وفي الترمذي « ان المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها ، من وراء سبعين حلة » .

وقال ابن عطية : الياقوت والمرجان من الأشياء التي يرتاح بحسنها ، فشبه بهما فيما يحسن التشبيه به ، فالياقوت في إملاسه وشفوفه ، والمرجان في إملاسه وجمال منظره ، وبهذا النحو من النظر ، سمت العرب النساء بذلك ، كدرة بنت أبي لهب ، ومرجانة أم سعيد انتهى .

(هل جزاء الإحسان) في العمل (إلا الإحسان) في الثواب ، وقيل : هل جزاء التوحيد إلا الجنة .

وقرأ ابن أبي إسحق (إلا الحسان) يعني بالحسان الحور العين .

(ومن دونهما) أي من دون تينك الجنتين في المنزلة والقدر جنتان لأصحاب اليمين ، والأوليان هما للسابقين قاله ابن زيد ، والأكثرون وقال الحسن الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين . وقال ابن عباس (ومن دونهما) في القرب للمنعمين والمؤخرتا الذكر أفضل من الأوليين ، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنضخ ، وتينك بالجري فقط ، وهاتين بالدهمة

من شدة النعمة ، وتينك بالأفنان ، وكل جنة ذات أفنان ، ورجح الزمخشري هذا القول ، فقال : للمقربين جنتان ، من دونهم من أصحاب اليمين إدهامتا من شدة الخضرة ، ورجح غيره القول الأول بذكر جري العينين والنضخ دون الجري ، وبقوله (فيهما من كل فاكهة) وفي المتأخرتين (فيهما فاكهة) وبالاتكاء على ما بطائنه من ديباج وهو الفرش ، وفي المتأخرتين الاتكاء على الرفرف وهو كسر الخباء والفرش المعدة للاتكاء أفضل ، و (العبقري) الوشي والديباج أعلى منه والمشبه بالياقوت والمرجان أفضل في الوصف من خيرات حسان ، والظاهر النضج بالماء .

وقال ابن جبير : بالمسك والعنبر والكافور ، في دور أهل الجنة ، كما ينضخ رش المطر وعنه أيضاً بأنواع الفواكه والماء ، (ونخل ورمان) عطف على فاكهة فاقتضى العطف أن لا يندرجا في الفاكهة قاله بعضهم ، وقال يونس بن حبيب وغيره : كرروهما من أفضل الفاكهة تشريفاً لهما ، وإشارة بهما كما قال تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ [البقرة ٩٨] ، وقيل لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه .

(فيهن خيرات) جمع خيرة وصف بني على فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا أشرة ، وقيل مخفف من خيرة ، وبه قرأ بكر بن حبيب وأبو عثمان النهدي وابن مقسم ، أي بشدّ الياء ، وروي عن أبي عمرو بفتح الياء ، كأنه جمع خايرة جمع على فعلة ، وفسر الرسول ـ ﷺ ـ لأم سلمة ذلك فقال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » .

(حور مقصورات) أي قصرن في أماكنهن والنساء تمدح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن كما قال قيس بن الأسلت :

وَتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرْنَهَا وَتَغْفُلُ عَنْ أَبْيَاتِهِنَّ فَتعْـذَر[1]

قال الحسن لسن بطوافات في الطرق ، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ، وقال عمر بن الخطاب هي در مجوف ورواه عبد الله عن النبي ـ ﷺ ـ .

(لم يطمثهن إنس قبلهم) أي قبل أصحاب الجنتين ، ودل عليهم ذكر الجنتين .

(متكئين) قال الزمخشري : نصب على الاختصاص .

(على رفرف) قال ابن عباس وغيره فضول المجلس والبسط[2] ، وقال ابن جبير : رياض الجنة من رف البيت تنعم وحسن[3] وقال ابن عيينة الزرابي ، وقال الحسن وابن كيسان المرافق ، وقرأ الفراء وابن قتيبة المجالس (وعبقري) قال الحسن : بسط حسان فيها صور ، وغير ذلك يصنع بعبقر ، وقال ابن عباس : الزرابي ، وقال مجاهد : الديباج الغليظ ، وقال ابن زيد الطنافس ، قال الفراء : الثخان منها ، وقرأ الجمهور : على رفرف ووصف بالجمع لأنه اسم جنس الواحد منها رفرفة، واسم الجنس يجوز فيه أن يفرد نعته ، وأن يجمع لقوله (والنخل باسقات) وحسن جمعه هنا مقابلته لـ (حسان) الذي هو فاصلة ، وقال صاحب اللوامح : وقرأ عثمان بن عفان ونصر بن عاصم والجحدري ومالك بن دينار

---

(١) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ٢/١٩٤ وروايته فيه .

وتشتاقها جاراتها فيزرنها وتغفل عن أبياتهن فتعذر

(٢) انظر الوسيط ١١٣ وزاد المسير ٨/١٢٧ وفتح القدير ٥/١٤٣ ومجاز القرآن ٢/٢٤٦ .

(٣) انظر الوسيط ١١٣ وزاد المسير ٨/١٢٧ .

وابن محيصن وزهير العرقبي وغيره (رفارف) جمع لا ينصرف (خضر) بسكون الضاد وعباقري بكسر القاف وفتح الياء مشددة ، وعنهم أيضاً ضم الضاد ، وعنهم أيضاً فتح القاف ، قال فأما منع الصرف من عباقري وهي الثياب المنسوبة إلى عبقر ، وهو موضع تجلب منه الثياب على قديم الأزمان ، فإن لم يكن بمجاورتها وإلا فلا يكون يمنع التصرف من ياءي النسب وجه إلا في ضرورة الشعر انتهى .

وقال ابن خالويه قرأ (على رفارف خضر ، وعباقري) النبي ـ ﷺ ـ ، والجحدري وابن محيصن ، وقد روي عمن ذكرنا على رفارف خضر وعباقري بالصرف ، وكذلك روي عن مالك بن دينار .

وقرأ أبو محمد المروزي وكان نحوياً (على رفارف خضار) يعني على وزن فعال .

وقال صاحب الكامل (رفارف) جمع عن ابن مصرف وابن مقسم وابن محيصن ، واختاره شبل وأبو حيوة والجحدري والزعفراني وهو الاختيار لقوله (خضر) و (عباقري) بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابن مقسم وابن محيصن وروي عنهما التنوين ، وقال ابن عطية : وقرأ زهير العرقبي : (رفارف) بالجمع والصرف وعنه عباقري بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع عبقر انتهى .

وقال الزمخشري : وروى أبو حاتم : (عباقري) بفتح القاف ومنع الصرف ، وهذا لا وجه لصحته انتهى .

وقد يقال : لما منع الصرف (رفارف) شاكله في (عباقري) كما قد ينون ما لا ينصرف للمشاكلة يمنع من الصرف للمشاكلة .

وقرأ ابن هرمز (خُضر) بضم الضاد ، قال صاحب اللوامح وهي لغة قليلة انتهى . ومنه قول طرفة :

أَيُّهَـا الْفِتْيَـانُ فِي مَجْلِسِنَـا ... جَـرِّدُوا مِنْهَـا وِرَاداً وشُقُـر [1]

وقال آخر :

وَمَا انْتَمَيْتُ إِلى خورٍ وَلَا كُشُفٍ ... وَلَا لِئَامٍ غَدَاةَ الرَّوْعِ أَوْزَاع [2]

فشقر جمع أشقر وكسف جمع أكسف .

وقرأ الجمهور (ذي الجلال) صفة لربك وابن عامر وأهل الشام (ذو) صفة للاسم ، وفي حرف أبي عبد الله وأبيّ ذي الجلال كقراءاتهما في الموضع الأول ، والمراد هنا بـ (الاسم) المسمى .

وقيل : (اسم) مقحم كالوجه في (ويبقى وجه ربك) يدل عليه إسناد تبارك لغير الاسم في مواضع كقوله ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون ١٤] ﴿ تبارك الذي إن شاء ﴾ [الفرقان ١٠] ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ [الملك ١] وقد صح الإسناد إلى (الاسم) لأنه بمعنى العلو فإذا علا الاسم ، فما ظنك بالمسمى ، ولما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ختم نعم الآخرة بقوله (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) وناسب

---

(١) البيت من الرمل انظر ديوانه ، المحتسب ١/١٦٢ روح المعاني ٢٧/١٢٥ .

(٢) البيت من الوافر لم نهتد لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧/١٢٥ .

هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى إذ ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة وهي النمو والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين ، وما آتاهم في دار كرامته من الخير ، وزيادته وديمومته «يا ذا الجلال والإكرام » من الصفات التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها قال ـ ﷺ ـ « ألظوا بيا ذا الجلال والإكـرام »[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) وأحمد في المسند ١٧٧/٤ والحاكم في المستدرك ٤٩٨/١ ، والطبراني في الكبير ٦٠/٥ والبخاري في التاريخ ٢٨٠/٣ وذكره السيوطي في الدر ١٥٣/٦ والهيثمي في المجمع ١٥٨/١٠ .

سورة الواقعة مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ

تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

رجت الأرض زلزلت وحركت تحريكا شديداً بحيث تنهدم الأبنية وتخر الجبال ، بست الجبال فتتت ، وقيل ، سيرت من قولهم ، بس الغنم ساقها ، ويقال : رجت الأرض وبست الجبال لازمين ، المشأمة من الشؤم أو من اليد الشؤمى وهي الشمال ، الثلاثة الجماعة كثرت أو قلت ، وقال الزمخشري الأمّة من الناس الكثيرة ، وقال الشاعر :

وَجَـاءَتْ إِلَيْهِـمْ ثلة خِنْـدِفِيَّـةٌ ... بِجَيْشٍ كَتَيَّارٍ مِنَ السَّيْلِ مُزْبِدِ[1]

الموضونة المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدّرع ، قال الأعشى :

وَمِـنْ نَسْـجِ دَاوُدَ مَـوْضُـونَـةٌ ... تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عِيـراً فَعِيـرَا[2]

ومنه وضين الناقة وهو خزامها لأنه موضون أي مفتول ، قال الراجز :

إِلَيْـكَ تَغْـدُو قَـلقـاً وَضِيـنُهَـا ... مُعْتَـرِضاً فِي بَـطْنِهَـا جَنِينُهَـا

مُخَالِفاً دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا[3]

الإبريق : فعيل من البريق وهو إناء للشرب له خرطوم ، قيل : وأذن وهو من أواني الخمر عند العرب ، قال الشاعر :

---

(١) البيت من الكامل لم نهتد لقائله ، انظر الكشاف ٤/٤٥٨ روح المعاني ٢٧/١٣٤ .

(٢) البيت من المتقارب ، انظر ديوانه ٨٨ الكشاف ٤/٤٥٩ روح المعاني ٢٧/١٣٤ القرطبي ١٧/١٣١ .

(٣) رجز ، انظر اللسان (وضن) القرطبي ١٧/١٣١ .

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ   مُفَدَّمٌ بَسَبَا الْكِتَّانِ مَلْثُومُ[(١)]

وقال عدي بن زيد :

وَتَدْعُو إِلَى الصَّبَاحِ فَجَاءَتْ   قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيقُ[(٢)]

صدع القوم بالخمر لحقهم الصداع في رؤوسهم منها ، وقيلَ صدعوا فرقوا ، (السدر تقدّم الكلام عليه في سورة سبأ (المخضود) المقطوع شوكه . قال أمية بن أبي الصلت :

إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجِنَانِ ظَلِيلَةٌ   فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودُ[(٣)]

(الطلح) شجر الموز ، وقيل : شجر من العضاة كثير الشوك ، (المَسكوب) المصبوب ، العروب المتحببة إلى زوجها ، الترب : اللذة وهو من يولد هو وآخر في وقت واحد ، سميا بذلك لمسهما التراب في وقت واحد والله تعالى أعلم .

﴿ إذا وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجّاً ، وبست الجبال بسّاً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهنّ إنشاء ، فجعلناهنّ أبكاراً ، عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها أن ما قبلها تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين ، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين ، وجنتي بعض ، بقوله (من دونهما جنتان) فانقسم العالم بذلك إلى كافر ومؤمن مفضول ومؤمن فاضل ، وهكذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة ، وسباق وهو المقربون ، وأصحاب اليمين والمكذبون المختتم بهم آخر هذه السورة .

وقال ابن عباس : (الواقعة) من أسماء القيامة كالصاخة والطامّة والآزفة ، وهذه الأسماء تقتضي عظم شأنها[(٤)] .

ومعنى (وقعت الواقعة) أي : وقعت التي لا بد من وقوعها ، كما تقول حدثت الحادثة ، وكانت الكائنة ، ووقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، أي نزل ما كنت أترقب نزوله ، وقال الضحاك (الواقعة) الصيحة وهي النفخة في الصور ، وقيل : (الواقعة) صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة .

---

(١) البيت من البسيط لعلقمة بن عبدة ، انظر ديوانه ١١٣ المفضليات ٨١٥ اللسان (برق) .
(٢) البيت من المديد لعدي بن زيد ، انظر اللسان (برق .) .
(٣) البيت من الكامل ، انظر ديوانه ٢٦ القرطبي ١٧/ ٣٣٤ مجاز القرآن ٢/ ٢٥٠ فتح القدير ٥/ ١٥٢ .
(٤) انظر الطبري ٢٧/ ٩٦ وزاد المسير ٨/ ١٣٠ .

والعامل في إذا الفعل بعدها على ما قررناه في كتب النحو ، فهو في موضع خفض بإضافة إذا إليها احتاج إلى تقدير عامل ، إذ الظاهر أنه ليس ، ثم جواب ملفوظ به يعمل بها ، فقال الزمخشري ، فإن قلت ، بم انتصب إذا ، قلت ، بليس كقولك يوم الجمعة ليس لي شغل ، أو بمحذوف ، يعني إذا وقعت كان كيت وكيت ، أو بإضمار أذكر انتهى ، أما نصبها بليس فلا يذهب نحوي ، ولا من شدا شيئاً من صناعة الإعراب إلى مثل هذا ، لأن ليس في النفي كما وما لا تعلم فكذلك ليس ، وذلك أن ليس مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان ، والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز ، لأن حد الفعل لا ينطبق عليها ، والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث ، فإذا قلت يوم الجمعة أقوم فالقيام واقع في يوم الجمعة (وليس لا حدث لها) فكيف يكون لها عمل في الظرف ؟ والمثال الذي شبه به ، وهو يوم القيامة ليس لي شغل ، لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بليس ، بل هو منصوب بالعامل في خبر ليس ، وهو الجار والمجرور ، فهو من تقديم معمول الخبر على ليس ، وتقديم ذلك ، مبني على جواز تقديم الخبر ، الذي لليس عليها ، وهو مختلف فيه ، ولم يسمع من لسان العرب قائماً ليس زيد ، وليس إنما تدل على نفي الحكم الخبري عن المحكوم عليه فقط ، فهي كما ، ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع ، جعلها ناس فعلاً ، وهي في الحقيقة حرف نفي كما النافية ، ويظهر من تمثيل الزمخشري إذا بقوله يوم الجمعة ، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها ، ولو كانت شرطاً ، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس ، لزمت الفاء ، إلا أن حذفت في شعر إذ ورد ، ذلك فنقول إذا أحسن إليك زيد ، فلست تترك مكافأته ، ولا يجوز لست بغير فاءٍ إلا إن اضطر إلى ذلك ، وأما تقديره إذا وقعت ، كان كيت وكيت ، فيدل على أن إذا عنده شرطية ، ولذلك قدر لها جواباً عاملاً فيها ، وأما قوله : بإضمار أذكر فإن سلبها الظرفية ، وجعلها مفعولاً بها منصوبة بأذكر ، وكاذبة ظاهره أنه اسم فاعل من كذب ، وهو صفة لمحذوف ، فقدره الزمخشري نفس كاذبة ، أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله ، وتكذب في تكذيب الغيب ، لأن كل نفس حينئذٍ مؤمنة صادقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، كقوله تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ [غافر ٨٤] ﴿ لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم به ﴾ [الشعراء ٢٠١] (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة) واللام مثلها في قوله : ﴿ يا ليتني قدّمت لحياتي ﴾ [الفجر ٢٤] إذ ليس لها نفس تكذبها ، وتقول لها لم تكذبي ، كما لها اليوم نفوس كثيرة يقلن لها لم تكذبي ، أو هي من قولهم كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم ، إذا شجعته على مباشرته ، وقالت له إنك تطيقه ، وما فوقه فتعرض له ، ولا تبال على معنى أنها وقعة لا تطاق بشدة وفظاعة ، وأن لا نفس حينئذٍ تحدث صاحبها ، بما تحدثه به عند عظائم الأمور ، وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذٍ أضعف من ذلك وأذل ، ألا ترى إلى قوله تعالى (كالفراش المبثوث) والفراش مثل في الضعف انتهى ، وهو تكثير وإسهاب ، وقدره ابن عطية حال كاذبة قال : ويحتمل الكلام على هذا معنيين أحدهما : كاذبة ، أي مكذوب فيما أخبر به عنها ، فسماها كاذبة لهذا ، كما تقول هذه قصة كاذبة ، أي مكذوب فيها ، والثاني : حال كاذبة ، أي لا يمضي وقوعها ، كما تقول فلان إذا حمل لم يكذب ، وقال قتادة والحسن : المعنى ليس لها تكذيب ولا رد ، ولا منثوية فكاذبة على هـذا مصدر ، كالعاقبة والعافية وخائنة الأعين ، والجملة من قوله [ليس لوقعتها كاذبة] على ما قدّره الزمخشري : من أن إذا معمولة لليس يكون ابتداء السورة ، إلا إن اعتقد أنها جواب لإذا ، أو منصوبة باذكر ، فلا يكون ابتداء كلام ، وقال ابن عطية : في موضع الحال ، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه ، وقرأ الجمهو (خافضة رافعة) برفعهما على تقدير هي ، وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم والزعفراني واليزيـدي في اختياره بنصبهما ، قال ابن خالويه ، قال الكسائي : لولا أن اليزيدي سبقني إليه ، لقرأت به ونصبهما على الحال ، قال ابن عطية : بعد الحال التي هي (ليس لوقعتها كاذبة) ولك أن تتابع الأحوال ، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ ، والقراءة الأولى أشهر وأبدع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ، ما لو لم يذكر لاستغنى عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما

يتهم به انتهى وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي ، قال في كتاب اللوامح ، وذو الحال الواقعة والعامل وقعت ، ويجوز أن يكون (ليس لوقعتها كاذبة) حال أخرى من الواقعة ، بتقدير إذا وقعت صادقة الواقعة فهذه ثلاثة أحوال من ذي حال ، وجازت أحوال مختلفة عن واحد ، كما جازت عنه نعوت متضادة ، وأخبار كثيرة عن مبتدأ واحد ، وإذا جعلت هذه كلها أحوالاً ، كان العامل في إذا وقعت محذوفاً ، يدل عليه الفحوى بتقدير يحاسبون ونحوه انتهى ، وتعداد الأحوال والأخبار فيه خلاف وتفصيل ، ذكر في النحو ، فليس ذلك مما أجمع عليه النحاة ، قال الجمهور : القيامة تنفطر له السماء والأرض والجبال ، وتنهد له هذه البنية برفع طائفة من الأجرام ، وبخفض أخرى ، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب ، وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى ، وترفعها لتسمع الأقصى ، وقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة : القيامة تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة ، وأخذ الزمخشري هذه الأقوال على عادته ، وكساها بعض ألفاظ رائعة ، فقال : ترفع أقواماً ، وتضع آخرين ، إما وصفاً لها بالشدة ، لأن الواقعات العظام ، كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ، ويتضع ناس ، وإما أن الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يحطون إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء عن مقارها لتخفض بعضاً ، وترفع بعضاً حيث تسقط السماء كسفاً ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمر في الجو مر السحاب انتهى (إذا رجت) قال ابن عباس : زلزلت وحركت بجذب ، وقال أيضاً هو وعكرمة ومجاهد : بسّت فتتت ، وقيل سيرت ، وقرأ زيد بن علي ، رجت وبست مبنياً للفاعل ، و (إذا رجت) بدل من إذا وقعت ، وجواب الشرط عندي ملفوظ به ، وهو قوله فأصحاب الميمنة ، والمعنى إذا كان كذا وكذا ، فأصحاب الميمنة ما أسعدهم ، وما أعظم ما يجازون به أي ، إن سعادتهم وعظم رتبتهم عند الله ، تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم ، وقال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة ، أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال ، لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض ، انتهى ، ولا يجوز أن ينتصب بهما معاً ، بل بأحدهما ، لأنه لا يجوز أن يجتمع مؤثران على أثر واحد ، وقال ابن جني وأبو الفضل الرازي : (إذا رجت) في موضع رفع ، على أنه خبر للمبتدأ الذي هو (إذا وقعت) وليست واحدة منها شرطية ، بل جعلت بمعنى وقت ، وما بعد إذا أحوال ثلاثة ، والمعنى وقت وقوع الواقعة صادقة الوقوع ، خافضة قوم ، رافعة آخرين وقت رج الأرض ، وهكذا ادعى ابن مالك : أن إذا تكون مبتدأ ، واستدل بهذا ، وقد ذكرنا في شرح التسهيل ، ما تبقى به إذا على مدلولها من الشرط ، وتقدم شرح الهباء في سورة الفرقان ، (منبثاً) منتشراً منبتاً بنقطتين بدل الثاء المثلثة ، قراءة الجمهور أي منقطعاً (وكنتم) خطاب للعالم ، (أزواجاً ثلاثة) أصنافاً ثلاثة ، وهذه رتب للناس يوم القيامة (فأصحاب الميمنة) قال الحسن والربيع : هم الميامين على أنفسهم ، وقيل الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، وقيل أصحاب المنزلة السنية ، كما تقول هو مني باليمين ، وقيل المأخوذ بهم ذات اليمين ، أو ميمنة آدم ، المذكورة في حديث الإسراء في الأسودة ، (وأصحاب المشأمة) هم من قابل أصحاب الميمنة في هذه الأقوال ، فأصحاب مبتدأ ، أو مبتدأ ثان استفهام في معنى التعظيم ، وأصحاب الميمنة خبر عن ما ، وما بعدها خبر عن أصحاب ، وربط الجملة هنا بالمبتدأ تكرار المبتدأ بلفظه ، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم ، وما تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة ، والمعنى أي شيء هم ؟ (والسابقون السابقون) جوزوا أن يكون مبتدأ وخبراً ، نحو قولهم أنت أنت ، وقوله أنا أبو النجم ، وشعري شعري ، أي الذين انتهوا في السبق ، أي الطاعات وبرعوا فيها ، وعرفت حالهم ، وأن يكون السابقون تأكيداً لفظياً ، والخبر فيما بعد ذلك ، وأن يكون السابقون مبتدأ ، والخبر فيما بعده ، وتقف على قوله والسابقون ، وأن يكون متعلق السبق الأول مخالفاً للسبق الثاني ، والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة ، فعلى هذا جوزوا أن يكون السابقون خبراً لقوله والسابقون ، وأن يكون صفة ، والخبر فيما بعده ، والوجه الأول ، قال ابن عطية ومذهب سيبويه : أنه يعني السابقون خبر الابتداء ، يعني خبر والسابقون ، وهذا كما

تقول الناس الناس ، وأنت أنت ، وهذا على تفخيم الأمر وتعظيمه ، انتهى ، ويرجح هذا القول أنه ذكر أصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم ، وأصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم ، فناسب أن يذكر السابقون مثبتاً حالهم معظماً ، وذلك بالأخبار أنهم نهاية في العظمة والسعادة ، والسابقون عموم في السبق إلى أعمال الطاعات ، وإلى ترك المعاصي[1] ، وقال عثمان بن أبي سودة : السابقون إلى المساجد[2] ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين[3] ، وقال كعب : هم أهل القرآن[4] ، وفي الحديث سئل عن السابقين ، فقال هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم ، أولئك إشارة إلى السابقين المقربين ، الذين علت منازلهم ، وقربت درجاتهم في الجنة من العرش ، وقرأ الجمهور (في جنات) جمعاً ، وطلحة في جنات مفرداً ، وقسم السابقين المقربين إلى (ثلة من الأولين (وقليل من الآخرين) ، وقال الحسن السابقون من الأمم ، والسابقون من هذه الأمة[5] ، وقالت عائشة : الفرقتان في كل أمة نبي في صدرها ثلة ، وفي آخرها قليل[6] ، وقيل : هما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كانوا في صدر الدنيا وفي آخرها أقل ، وفي الحديث الفرقتان في أمتي ، فسابق في أول الأمة ثلة ، وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل ، وارتفع ثلة على إضمارهم ، وقرأ الجمهور على سرر بضم الراء ، وزيد بن علي وأبو السمال بفتحها ، وهي لغة لبعض بني تميم ، وكلب يفتحون عين فعل ، جمع فعيل المضعف نحو سرير وتقدم ذلك في (والصافات) موضونة : قال ابن عباس : مرمولة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت (متكئين عليها) أي على السرر ، ومتكئين حال من الضمير المستكن في على سرر متقابلين ، ينظر بعضهم إلى بعض وصفوا بحسن العشرة ، وتهذيب الأخلاق وصفاء بطائنهم من غل إخواناً (يطوف عليهم ولدان مخلدون) وصفوا بالخلد ، وإن كان من في الجنة مخلداً ، ليدل على أنهم يبقون دائماً في سن الولدان لا يكبرون ، ولا يتحولون عن شكل الوصافة ، وقال مجاهد : لا يموتون ، وقال الفراء : مقرطون بالخلدات ، وهي ضروب من الأقراط (وكأس من معين) قال : من خمر سائلة جارية معينة (لا يصدعون عنها) قال الأكثرون : لا يلحق رؤوس الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا ، وقرأت على أستاذنا العلامة أبي جعفر بن الزبير ـ رحمه الله تعالى ـ قول علقمة في صفة الخمر :

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيكَ صَالِبُهَا ... وَلَا يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَدْوِيمُ

فقال : هذه صفة أهل الجنة ، وقيل لا يفرقون عنها ، بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم ، بسبب من الأسباب ، كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق ، كما جاء فتصدع السحاب عن المدينة أي فتفرق ، وقرأ مجاهد : لَا يَصَّدَّعُونَ بفتح الياء وشد الصاد أصله ، يتصدعون أدغم التاء في الصاد أي لا يتفرقون ، كقوله (يومئذٍ يصدعون) والجمهور بضم الياء وخفة الصاد ، والجمهور بجر وفاكهة ولحم ، وزيد بن علي برفعهما ، أي ولهم ، والجمهور (ولا ينزفون) مبنياً للمفعول ، قال مجاهد وقتادة وجبير والضحاك : لا تذهب عقولهم سكراً ، وابن أبي إسحق بفتح الياء وكسر الزاي ، نزف البئر استفرغ ماءها ، فالمعنى لا تفرغ خمرهم ، وابن أبي إسحق أيضاً ، وعبد الله والسلمي والجحدري والأعمش وطلحة وعيسى بضم

---

(١) انظر البغوي ٤/ ٢٨٠ والوسيط ١١٤ خ وابن كثير ٤/ ٢٨٣ وزاد المسير ٨/ ١٣٣ .
(٢) انظر المصادر السابقة .
(٣) انظر المصادر السابقة .
(٤) انظر المصادر السابقة .
(٥) انظر المصادر السابقة .
(٦) انظر المصادر السابقة .

الياء وكسر الزاي ، أي لا يفنى لهم شراب (مما يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (مما يشتهون) أي يتمنون ، وقرأ الجمهور : (وحور عين) رفعهما ، وخرج عليّ على أن يكون معطوفاً على ولدان أو على الضمير المستكن في متكئين ، أو على مبتدأ محذوف هو وخبره ، تقديره لهم هذا كله (وحور عين) أو على حذف خبر فقط ، أي ولهم حور ، أو فيهما حور ، وقرأ السلمي والحسن وعمرو بن عبيد وأبو جعفر وشيبة والأعمش وطلحة والمفضل وأبان ، وعصمة والكسائي بجرهما ، والنخعي وحير عين بقلب الواو ياء وجرهما ، والجر عطف على المجرور ، أي يطوف عليهم ولدان بكذا وكذا (وحور عين) وقيل هو على معنى وينعمون بهذا كله ، وبحور عين ، وقال الزمخشري : عطفاً على جنات النعيم ، كأنه قال هم في جنات وفاكهة ولحم وحور انتهى وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض وهو فهم أعجمي ، وقرأ أبي وعبد الله (وحوراً اعينا) بنصبهما ، قالوا على معنى ويعطون هذا كله وحور أعينا ، وقرأ قتادة (وحور عين) بالرفع مضافاً إلى عين ، وابن مقسم بالنصب مضافاً إلى عين ، وعكرمة (وحوراء عيناء) على التوحيد اسم جنس ، وبفتح الهمزة فيهما ، فاحتمل أن يكون مجروراً عطفاً على المجرور السابق ، واحتمل أن يكون منصوباً كقراءة أبي وعبد الله (وحورا عينا) ووصف اللؤلؤ بالمكنون ، لأنه أصفى وأبعد من التغير ، وفي الحديث صفاؤهنّ كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي ، وقال تعالى : (كأنهن بيض مكنون) وقال الشاعر : يصف امرأة بالصون وعدم الابتذال ، فشبهها بالدرة المكنونة في صدفتها فقال :

قَـامَتْ تَـرِءى بَيْنَ سَجْفَيْ كَلَّةٍ ... كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالأَسْعَـدِ
أَوْ دُرَّةٍ صَـدَفِـيَّـةٍ غَـوَّاصُـهَـا ... بَهِجٌ مَتَى يَرَهَـا يَهِلَّ وَيَسْجُـدِ[1]

(جزاء بما كانوا يعملون) روي أن المنازل والقسم في الجنة على قدر الأعمال ، ونفس دخول الجنة برحمة الله تعالى وفضله لا بعمل عامل ، وفيه النص الصحيح الصريح ، لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني بفضل منه ورحمة ، لغو ، أسقط القول وفحشه (ولا تأثيماً) ما يؤثم أحداً ، والظاهر أن (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) استثناء منقطع ، لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم ، ويبعد قول من قال استثناء متصل (وسلاماً) قال الزجاج : هو مصدر نصبه قيلاً ، أي يقول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً ، وقيل : نصب بفعل محذوف ، وهو معمول قيلاً ، أي قيلاً اسلموا سلاماً ، وقيل (سلاماً) بدل من قيلا ، وقيل نعت لقيلا بالمصدر ، كأنه قيل إلا قيلاً سالماً من هذه العيوب ، (في سدر) في الجنة ، شجر على خلقة له ثمر كقلال هجر طيب الطعم والريح (مخضود) عار من الشوك ، وقال مجاهد : المخضود الموقر الذي تثني أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا أثناه ، وقرأ الجمهور (وطلح) بالحاء ، وعليّ وجعفر بن محمد وعبد الله بالعين قرأها على المنبر ، وقال عليّ وابن عباس وعطاء ومجاهد : (الطلح) الموز ، وقال الحسن ليس بالموز ، ولكنه شجر ظله بارد رطب ، وقيل شجر أم غيلان ، وله نوّار كثير طيب الرائحة ، وقال السدّي : شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، (والمنضود) الذي نضد من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق تظهر (وظل ممدود) لا يتقلص بل منبسط لا ينسخه شيء ، قال مجاهد : هذا الظل من سدرها وطلحها (وماء مسكوب) قال سفيان وغيره : جار في غير أخاديد ، وقيل منساب لا يتعب فيه بساقية ولا رشاء (لا مقطوعة) أي هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات ، كفاكهة الدنيا ، (ولا ممنوعة) أي لا يمنع من تناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كالتي في الدنيا ، وقرىء (وفاكهة كثيرة) برفعهما ، أي وهناك فاكهة ، (وفرُش) جمع فراش ، وقرأ الجمهور : بضم الراء ، وأبو حيوة بسكونها مرفوعة ، نضدت حتى ارتفعت ، أو رفعت على الأسرة ، والظاهر أن الفراش ، هو ما يفترش للجلوس عليه والنوم ، وقال أبو عبيدة

---

(١) تقدم ، انظر روح المعاني ٢٧/ ١٣٨ ـ ١٣٩ .

وغيره : المراد بالفرش النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، ورفعهن في الأقدار والمنازل ، والضمير في (أنشأناهن) عائد على الفرش في قول أبي عبيدة إذ هنّ النساء عنده ، وعلى ما دل عليه الفرش ، إذا كان المراد بالفرش ظاهر ما يدل عليه من الملابس التي تفرش ويضطجع عليها ، أي ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً ، من غير ولادة ، والظاهر أن الإنشاء ، هو الاختراع الذي لم يسبق بخلق ، ويكون ذلك مخصوصاً بالحور اللاتي لسن من نسل آدم ، ويحتمل أن يريد إنشاء الإعادة ، فيكون ذلك لبنات آدم ، (فجعلناهن أبكاراً عرباً) والعرب ، قال ابن عباس : العروب المتحببة إلى زوجها ، وقاله الحسن وعبر ابن عباس أيضاً عنهن بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وَفِي الْخُدُورِ عَرُوبٌ غَيْرَ فَاحِشَةٍ ... رَيَّا الرَّوَادِفِ يَغْشَى دُونَهَا الْبَصَرُ[1]

وقال ابن زيد : العروب المحسنة للكلام ، وقرأ حمزة وناس ، منهم شجاع وعباس والأصمعي ، عن أبي عمرو ، وناس منهم خارجة وكردم وأبو خليد ، عن نافع وناس منهم أبو بكر وحماد وأبان عن عاصم بسكون الراء ، وهي لغة تميم ، وباقي السبعة بضمها أتراباً في الشكل ، والقد وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في (أنشأناهن) عائد على الحور العين المذكورة قبل ، لأن تلك قصة قد انقطعت ، وهي قصة السابقين ، وهذه قصة أصحاب اليمين ، واللام في أصحاب متعلقاً بـ (أنشأناهن) (ثلة من الأولين) أي من الأمم الماضية ، (وثلة من الآخرين) أي من أمّة محمد ـ ﷺ ـ ولا تنافي بين قوله (وثلة من الآخرين) وقوله قبل وقليل من الآخرين ، لأن قوله من الآخرين هو في السابقين ، وقوله (وثلة من الآخرين) هو في أصحاب اليمين ، **﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين * نحن خلقناكم فلولا تصدّقون * أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم * فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذٍ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا ان كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأمّا إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾** .

اليحموم الأسود البهيم ، الحنث قال الخطابي هو في كلام العرب العدل الثقيل شبه الاثم به ، الهيم جمع أهيم وهيماء

---

(١) البيت من البسيط للبيد بن ربيعة ، انظر روح المعاني ٢٧/١٤٢ فتح القدير ٥/١٥٣ .

والهيام داء معطش يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً قال :

فَأَصْبَحتُ كَالْهَيْمَاءِ لاَ الْمَاءُ مُبْرِدٌ صَدَاهَا وَلاَ يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُهَا(١)

(والهيم) جمع هيام ، وهو الرمل بفتح الهاء وهو المشهور ، وقال ثعلب : بضمها قال : هو الرمل الذي لا يتماسك ، فبالفتح كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل ، بجمع أهيم من قلب ضمته كسرة لتصح الياء ، أو بالضم يكون قد جمع على فعل ، كقراد وقرد ، ثم سكنت ضمة الراء فصار فعلاً ، ثم فعل به ما فعل ببيض ، أمنى الرجل النطفة ، ومناها قذفها من إحليله ، المزن السحاب ، قال الشاعر :

فَـلاَ مُـزْنَـةٌ وَدَقَـتْ وَدْقَهَـا وَلاَ أَرْض أَبْقَـلَ إِبْقَـالَهَـا(٢)

أوريت النار من الزناد قدحتها ، ووري الزند نفسه ، والزناد حجرين ، أو من حجر وحديدة ومن شجر ، لا سيما في الشجر الرخو ، كالمرخ والعفار والكلح ، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما بالآخر ، ويسمون الأعلى الزند ، والأسفل الزندة ، شبهوهما بالعجل والطروقة ، أقوى الرجل دخل في الأرض ، القوا وهي القفر كأصحر دخل في الصحراء ، وأقوى من أقام أياماً لم يأكل شيئاً ، وأقوت الدار : صارت قفراء ، قال الشاعر :

يَـا دَارَ مَيَّـةَ بِـالْعَلْيَـاءِ فَـالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَمَدِ(٣)

إدهن لاين ، وهاود فيما لا يحمل عند المدهن ، وقال الشاعر :

الْحَـزْمُ وَالْقُـوَّةُ خَيْـرٌ مِنَ الـ إِدهَـانِ وَالْفَهَّـةِ وَالْهَـاعِ (٤)

(الحلقوم) مجرى الطعام ، (الروح) الاستراحة ، (الريحان) تقدم في سورة الرحمن ﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون، لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدّين ، نحن خلقناكم فلولا تصدّقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ،لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ،إنا لمغرمون ،بل نحن محرومون ،أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ لما ذكر حال السابقين ،

---

(١) البيت من الطويل لذي الرمة ، انظر ديوانه ٧١٤ الكشاف ٤/٤٦٤ روح المعاني ٢٧/١٤٦/٢٧ ١٤٦ .

(٢) تقدم .

(٣) تقدم .

(٤) البيت من مجزوء البسيط لأبي القيس بن الأسلمي الأنصاري ، انظر المفضليات ٥٦٨ .

وأتبعهم بأصحاب الميمنة ، ذكر حال أصحاب المشئمة ، فقال (وأصحاب الشمال) وتقدّم إعراب نظير هذه الجملة ، وفي هذا الاستفهام تعظيم مصابهم ، (في سموم) في أشدّ حر (وحميم) ماء شديد السخونة ، (وظل من يحموم) قال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن زيد والجمهور : دخان ، وقال ابن عباس : أيضاً هو سرادق النار المحيط بأهلها ، يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم ، وقال ابن كيسان : اليحموم من أسماء جهنم ، وقال ابن زيد أيضاً وابن بريدة : هو جبل في النار أسود ، يفزع أهل النار إلى داره ، فيجدونه أشد شيء ، وأمر (لا بارد ولا كريم) صفتان للظل ، نفيتا سمي ظلاً ، وإن كان ليس كالظلال ، ونفى عنه برد الظل ونفعه لمن يأوي إليه ، ولا كريم تتميم لنفي صفة المدح فيه ، وتمحيق لما يتوهم في الظل من الاسترواح إليه عند شدّة الحر ، أو نفي لكرامة من يستروح إليه ، ونسب إليه مجازاً ، والمراد هم أي يستظلون إليه وهم مهانون ، وقد يحتمل المجلس الرديء لنيل الكرامة ، وبدىء أولاً بالوصف الأصلي الذي هو الظل ، وهو كونه من يحموم فهو بعض اليحموم ، ثم نفى عنه الوصف الذي يبغي له الظل ، وهو كونه لا بارداً ولا كريماً ، وقد يجوز أن يكون (لا بارد ولا كريم) صفة ليحموم ، ويلزم منه أن يكون الظل موصوفاً بذلك ، وقرأ الجمهور (لا بارد ولا كريم) بجرهما ، وابن أبي عبلة برفعهما ، أي لا هو بارد ولا كريم على حد قوله ، فَأَبِيتُ لَا حَرِجٍ وَلَا مَحْرُومُ ، أي لا أنا حرج ، (إنهم كانوا قبل ذلك) أي في الدنيا مترفين ، فيه ذم الترف والتنعم في الدنيا ، والترف طريق إلى البطالة ، وترك التفكر في العاقبة ، (وكانوا يصرون) أي يداومون ويواظبون على الحنث العظيم ، قال قتادة والضحاك وابن زيد الشرك وهو الظاهر ، وقيل ما تضمنه قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية من التكذيب بالبعث ، وبعده وكانوا يقولون ، فإنه معطوف على ما قبله ، والعطف يقتضي التغاير ، فالحنث العظيم الشرك ، فقولهم (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) تقدم الكلام عليه في والصافات ، وكرر الزمخشري هنا وهمه فقال : (فإن قلت) : كيف حسن العطف على المضمر في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن ؟ (قلت) : حسن للفاصل الذي هو الهمزة ، كما حسن في قوله (ما أشركنا ولا آباؤنا) لفصل لا المؤكدة للنفي . انتهى ، ورددنا عليه هنا ، وهناك إلى مذهب الجماعة في أنهم لا يقدرون بين همزة استفهام وحرف العطف فعلاً ، في نحو (أفلم يسيروا) ولا اسماً في نحو (أو آباؤنا) بل الواو والفاء لعطف ما بعدهما على ما قبلهما ، والهمزة في التقدير متأخرة عن حرف العطف ، لكنه لما كان الاستفهام له صدر الكلام قدمت ، ولما ذكر تعالى استفهامهم عن البعث على طريق الاستبعاد والإنكار ، أمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يخبرهم ببعث العالم أولهم وآخرهم للحساب ، وبما يصل إليه المكذبون للبعث من العذاب ، (والميقات) ماوُقت به الشيء ، أي حد ، أي إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم ، والإضافة بمعنى من كخاتم حديد ، (ثم إنكم) خطاب لكفار قريش ، أيها الضالون عن الهدى ، المكذبون للبعث ، وخطاب أيضاً لمن جرى مجراهم في ذلك ، (لآكلون من شجر من زقوم) من الأولى لابتداء الغاية ، أو للتبعيض ، والثانية إن كان من زقوم بدلاً ، فمن تحتمل الوجهين ، وإن لم تكن بدلاً ، فهي لبيان الجنس ، أي من شجر الذي هو زقوم ، وقرأ الجمهور (من شجر) وعبد الله (من شجرة) ، فمالئون منها الضمير في منها عائد على شجر ، إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر ، وعلى قراءة عبد الله فهو واضح ، (فشاربون عليه) قال الزمخشري : ذكر على لفظ الشجر كما أنث على المعنى في منها ، قال : ومن قرأ (من شجرة من زقوم) فقد جعل الضميرين للشجرة ، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم ، لأنه يفسرها وهي في معناه ، وقال ابن عطية : والضمير في عليه عائد على المأكول ، أو على الأكل ، انتهى ، فلم يجعله عائداً على شجر ، وقرأ نافع وعاصم وحمزة (شُرب) بضم الشين وهو مصدر ، وقيل اسم لما يشرب ، ومجاهد وأبو عثمان النهدي بكسرها ، وهو بمعنى المشروب اسم لا مصدر ، كالطحن والرعي ، والأعرج وابن المسيب وشبيب بن الحجاب ومالك بن دينار وابن جريج وباقي السبعة بفتحها ، وهو مصدر مقيس ، (والهيم) قال ابن عباس ومجاهد

وعكرمة والضحاك : جمع أهيم ، وهو الجمل الذي أصابه الهيام[(١)] ، وقد فسرناه في المفردات ، وقيل جمع هيماء ، وقيل جمع هائم وهائمة ، وجمع فاعل على فعل شاذ ، كباذل وبذل ، وعائذ وعوذ ، والهائم أيضاً من الهيام ، ألا ترى أن الجمل إذا أصابه ذلك هام على وجهه وذهب ، وقال ابن عباس وسفيان (الهيم) الرمال التي لا تروى من الماء ، وتقدم الخلاف في مفرده أهو الهيام بفتح الهاء أم بالضم ، والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم ، الذي كالمهل ، فإذا ملأ وأمنه البطون ، سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم قاله الزمخشري ، وقال أيضاً : (فإن قلت) : كيف صح عطف الشاربين على الشاربين ؟ وهما لذوات متفقة ، وصفتان متفقتان ، فكان عطفاً للشيء على نفسه ، (قلت) : ليستا بمتفقتين من حيث إن كونهم شاربين للحميم ، على ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك ، كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً ، فكانتا صفتين مختلفتين ، انتهى ، والفاء تقتضي التعقيب في الشربين ، وأنهم أولاً لما عطشوا شربوا من الحميم ، ظناً أنه يسكن عطشهم فازداد العطش بحرارة الحميم ، فشربوا بعده شرباً لا يقع به ريّ أبداً ، وهو مثل شرب الهيم ، فهما شربان من الحميم لا شرب واحد ، اختلفت صفتاه فعطف ، والمقصود الصفة ، والمشروب منه في (فشاربون شرب الهيم) محذوف لفهم المعنى ، تقديره فشاربون منه شرب الهيم ، وقرأ الجمهور (نزُلهم) بضم الزاي ، وقرأ ابن محيصن وخارجة عن نافع ونعيم ومحبوب وأبو زيد وهارون وعصمة وعباس ، كلهم عن أبي عمرو بالسكون ، وهو أول ما يأكله الضيف ، وفيه تهكم بالكفار ، وقال الشاعر :

وكُنَّا إذَا ٱلْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا ... جَعَلْنَا الْقَنَاوالْمُرْهِفَاتِ لَهُ نُزلا[(٢)]

(يوم الدين) أي يوم الجزاء (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) بالإعادة وتقرون بها ، كما أقررتم بالنشأة الأولى وهي خلقهم ، ثم قال (فلولا تصدقون) بالإعادة وتقرون بها ، كما أقررتم فهو حض على التصديق ، (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) أو (فلولا تصدقون) به ثم حض على التصديق على وجه تقريعهم بسياق الحجج الموجبة للتصديق ، وكان كافراً قال : ولم أصدق ، فقيل له أفرأيت كذا ، مما الإنسان مفطور على الإقرار به ، فقال (أفرأيتم ما تمنون) وهو المني الذي يخرج من الإنسان ، إذ ليس له في خلقه عمل ولا إرادة ولا قدرة ، وقال الزمخشري : (تخلقونه) تقدرونه وتصورونه ، انتهى ، فحمل الخلق على التقدير والتصوير ، لا على الإنشاء ، ويجوز في (أأنتم) أن يكون مبتدأ ، وخبره تخلقونه ، والأولى أن يكون فاعلاً بفعل محذوف ، كأنه قال أتخلقونه ، فلما حذف الفعل ، انفصل الضمير وجاء أفرأيتم هنا مصرحاً بمفعولها الأول ، ومجيء جملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني على ما هو المقرر فيها ، إذا كانت بمعنى أخبرني ، وجاء بعد أم جملة فقيل أم منقطعة ، وليست المعادلة للهمزة ، وذلك في أربعة مواضع هنا ، ليكون ذلك على استفهامين ، فجواب الأول لا ، وجواب الثاني نعم ، فتقدر أم على هذا بل أنحن الخالقون ؟ فجوابه نعم ، وقال قوم : من النحاة ، أم هنا معادلة للهمزة ، وكان ما جاء من الخبر بعد نحن ، جيء به على سبيل التوكيد ، إذ لو قال أم نحن ، لوقع الاكتفاء به دون ذكر الخبر ، ونظير ذلك جواب من قال من في الدار زيد في الدار ، أو زيد فيها ، ولو اقتصر في الجواب على زيد لاكتفى به ، وقرأ الجمهور (ما تُمنون) بضم التاء ، وابن عباس وأبو السمال بفتحها ، والجمهور قدرنا بشد الدال ، وابن كثير يخفها ، أي قضينا وأثبتنا ، أو رتبنا في التقدم والتأخر فليس موت العالم دفعة واحدة ، بل بترتيب لا يتعدى ، ويقال سبقته

---

(١) انظر الوسيط ١١٦ خ والبغوي ٤/٢٨٦ .

(٢) البيت من الطويل للضبي ، انظر القرطبي ١٧/١٣٩ . روح المعاني ٢٧/١٤٦ .

على الشيء ، أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، والمعنى (وما نحن بمسبوقين) على أن نبدل أمثالكم ، أي نحن قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه إن أردنا ذلك ، وقال الطبري : المعنى نحن قادرون قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أي بموت طائفة ونبدلها بطائفة ، هكذا قرناً بعد قرن ، انتهى ، فعلى أن نبدل متعلق بقوله (نحن قدرنا) وعلى القول الأول متعلق بمسبوقين ، أي لا نسبق على أن نبدل أمثالكم ، وأمثالكم جمع مثل ، وننشئكم فيما لا تعلمون من الصفات ، أي نحن قادرون على أن نعدمكم ، وننشيء أمثالكم وعلى تغيير أوصافكم مما لا يحيط به فكركم ، وقال الحسن : من كونكم قردة وخنازير قال ذلك ، لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل ، بمعنى الصفة ، أي نحن قادرون على أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً وخلقاً ، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ، (ولقد علمتم النشأة الأولى) أي علمتم أنه هو الذي أنشأكم أولا أنشأنا إنساناً ، وقيل : نشأة آدم ، وأنه خلق من طين ولا ينكرها أحد من ولده ، (فلولا تذكرون) حض على التذكير المؤدي إلى الإيمان والإقرار بالنشأة الآخرة ، وقرأ الجمهور (تذكرون) بشد الذال ، وطلحة يخففها ، وضم الكاف قالوا ، وهذه الآية دالة على استعمال القياس والحض عليه انتهى ، ولا تدل إلا على قياس الأولى ، لا على جميع أنواع القياس ، (أفرأيتم ما تحرثون) ما تذرونه في الأرض وتبذرونه (أأنتم تزرعونه) أي زرعاً يتم وينبت حتى ينتفع به ، والحطام اليابس المتفتت الذي لم يكن له حب ينتفع به ، (فظلتم تفكهون) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : تعجبون ، وقال عكرمة : تلاومون ، وقال الحسن : تندمون ، وقال ابن زيد : تفجعون : وهذا كله تفسير باللازم ، ومعنى تفكهون ، تطرحون الفكاهة عن أنفسكم . وهي المسرة ، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء ، وتفكه من أخوات تحرج وتحوب ، وقرأ الجمهور (فظلتم) بفتح الظاء ولام واحدة ، وأبو حيوة وأبو بكر في رواية القيكي عنه بكسرها ، كما قالوا مست بفتح الميم وكسرها ، وحكاها الثوري عن ابن مسعود ، وجاءت عن الأعمش ، وقرأ عبد الله والجحدري (فظَلِلْتم) على الأصل بكسر اللام ، وقرأ الجحدري أيضاً بفتحها ، والمشهور ظَلِلْتُ بالكسر ، وقرأ الجمهور (تفكهون) وأبو حرام بالنون بدل الهاء ، قال ابن خالويه تفكه : تعجب وتفكن تندم ، (إنا لمغرمون) قبله محذوف ، أي : يقولون ، وقرأ الجمهور (إنا) والأعمش والجحدري وأبو بكر (أئنا) بهمزتين (لمغرمون) أي : معذبون من الغرام ، وهو أشد العذاب قال :

إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَامـاً وَإنْ ... يُعْطِ جَزِيلاً فَـإنَّهُ لاَ يُبَـالِي[1]

أو لمحملون الغرم في النفقة ، إذ ذهب عنا غرم الرجل وأغرمته ، (بل نحنُ محرومون) محدودون لا حظ لنا في الخير (الماء الذي تشربون) هذا الوصف يغني عن وصفه بالعذاب ، ألا ترى مقابله وهو الأجاج ودخلت اللام في (لجعلناه حطاماً) وسقطت في قوله (جعلناه أجاجاً) وكلاهما فصيح ، وطول الزمخشري في مسوغ ذلك ، وملخصه أن الحرف إذا كان في مكان وعرف واشتهر في ذلك المكان جاز حذفه لشهرة أمره ، فإن اللام علم لارتباط الجملة الثانية بالأولى فجاز حذفه استغناء بمعرفة السامع ، وذكر في كلامه أن الثاني امتنع لامتناع الأول ، وليس كما ذكر ، إنما هذا قول ضعفاء المعربين ، والذي ذكره سيبويه أنها حرف لما كان سيقع لوقوع الأول ، ويفسد قول أولئك الضعفاء قولهم : لو كان إنساناً لكان حيواناً ، فالحيوانية لا تمتنع لامتناع الإنسانية ، ثم قال : ويجوز أن يقال : إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، وأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ، والظاهر أن (شجرتها) المراد منه الشجر الذي يقدح منه النار ، وقيل : المراد بالشجرة نفس النار ، كأنه يقول نوعها أو جنسها ،

---

(١) البيت من الخفيف للأعشى ، انظر ديوانه ١٦٧ روح المعاني ٢٧/١٤٩ .

فاستعار الشجرة لذلك ، وهذا قول متكلف (نحن جعلناها تذكرة) أي : لنار جهنم (ومتاعاً للمقوين) أي : النازلين الأرض القوا ، وهي القفر[١] ، وقيل : للمسافرين[٢] وهو قريب مما قبله ، وقول ابن زيد الجائعين ضعيف جداً ، وقدم من فوائد النار ما هو أهم وآكد من تذكيرها بنار جهنم ، ثم أتبعه بفائدتها في الدنيا ، وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من المطعوم والمشروب ، والنار من أعظم الدلائل على البعث ، وفيها انتقال من شيء إلى شيء ، وإحداث شيء من شيء ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه تعالى عما يقول الكافرون ، ووصف تعالى نفسه بالعظيم ، إذ من هذه أفعاله تدل على عظمته وكبريائه وانفراده بالخلق والإنشاء ، قوله عز وجل .

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذٍ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأمّا إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قرأ الجمهور (فلا أقسم) فقيل : لا زائدة مؤكدة مثلها في قوله ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾[الحديد ٢٩] والمعنى : فاقسم ، وقيل : المنفي المحذوف ، أي : فلا صحة لما يقول الكفار ، ثم ابتدأ أقسم قاله سعيد بن جبير وبعض النحاة ، ولا يجوز ، لأن في ذلك حذف اسم لا وخبرها ، وليس جواباً لسائل سأل : فيحتمل ذلك نحو قوله : لا ، لمن قال هل من رجل في الدار ؟ ، وقيل : توكيد مبالغة ما وهي كاستفتاح كلام شبهه في القسم إلا في شائع الكلام القسم وغيره ومنه :

فَلاَ وَأَبِي أَعْدَائِهَا لاَ أَخُونُهَا[٣]

والأولى عندي أنها لام أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف كقوله :

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ الْعَقْرَابِ[٤]

وهذا وإن كان قليلاً فقد جاء نظيره في قوله ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾[إبراهيم ٣٧] بياء بعد الهمزة، وذلك في قراءة هشام ، فالمعنى (فلأقسم) كقراءة الحسن وعيسى ، وخرج قراءة الحسن أبو الفتح على تقدير مبتدأ محذوف ، أي : فلأنا أقسم ، وتبعه على ذلك الزمخشري ، وإنما ذهبا إلى ذلك لأنه فعل حال ، وفي القسم عليه خلاف ، فالذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحال لا يجوز أن يقسم عليه ، فاحتاجوا إلى أن يصوروا المضارع خبر المبتدأ محذوف ، فتصير الجملة اسمية ، فيقسم عليها ، وذهب بعض النحويين إلى أن جواز القسم على فعل الحال وهذا الذي اختاره ، فتقول : والله ليخرج زيد وعليه قول الشاعر :

---

(١) انظر الوسيط ١١٧ خ والبغوي ٤/٢٨٨ وفتح القدير ٥/١٥٨ .
(٢) انظر المصادر السابقة .
(٣) عجز بيت من الطويل لم نهتد لقائله ، ذكر السمين الحلبي في الدر المصون .
(٤) صدر بيت من الرجز لم نهتد لقائله ، وعجزه .

.... الشائلات عقد الأذناب

انظر المغني ٢/٣٢ .

لِيَعْلَمَ رَبِّي أَنَّ بَيْتِي وَاسِعُ [(١)]

وقال الزمخشري في قراءة الحسن : ولا يصح أن تكون اللام لام قسم ، لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح ، والثاني : أن لأفعلنّ في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال انتهى ، أما الأمر الأول ففيه خلاف ، فالذي قاله قول البصريين ، وأما الكوفيون فيختارون ذلك ، ولكن يجيزون تعاقبهما ، فيجيزون : لأضربن زيداً ، واضربن عمراً ، وأما الثاني فصحيح : لكنه هو الذي رجح عندنا أن تكون اللام في لا أقسم لام القسم ، وأقسم فعل حال ، والقسم قد يكون جواباً للقسم ، كما قال تعالى ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ [التوبة ١٠٧] فاللام في (وليحلفن) جواب قسم ، وهو قسم لكنه لما لم يكن حلفهم حالاً بل مستقبلاً لزمت النون ، وهي مخلصة المضارع للاستقبال ، وقرأ الجمهور (بمواقع) جمعاً ، وعمر وعبد الله وابن عباس وأهل المدينة وحمزة والكسائي (بموقع) مفرداً مراداً به الجمع ، قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم : هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ ، ويؤيد هذا القول قوله (إنه لقرآن) فعاد الضمير على ما يفهم من قوله (بمواقع النجوم) أي : نجوم القرآن ، وقيل : النجوم الكواكب ومواقعها ، قال مجاهد وأبو عبيدة : عند طلوعها وغروبها ، وقال قتادة : مواقعها مواضعها من السماء ، وقال الحسن : مواقعها عند الانكدار يوم القيامة ، وقيل : عند الانفضاض أثر العفاري ، ومن تأول النجوم على أنها الكواكب جعل الضمير في (إنه) يفسره سياق الكلام ، كقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص ٣٢] وفي إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن ، وقد أعظم ذلك تعالى فقال (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) والجملة المقسم عليها قوله (إنه لقرآن كريم) وفصل بين القسم وجوابه ، فالظاهر أنه اعتراض بينهما ، وفيه اعتراض بين الصفة والموصوف بقوله (لو تعلمون) ، وقال ابن عطية : (وإنه لقسم) تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التهمم به ، وإنما الاعتراض قوله (لو تعلمون) انتهى و (كريم) وصف مدح ينفي عنه ما لا يليق به ، وقال الزمخشري : (كريم) حسن مرضي في جنسه من الكتب ، أو نفاع جم المنافع ، أو كريم على الله تعالى (في كتاب مكنون) أي : مصون ، قال ابن عباس ومجاهد : الكتاب الذي في السماء ، وقال عكرمة : التوراة والإنجيل كأنه قال : ذكر في كتاب مكنون كرمه وشرفه ، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة ، وقيل (في كتاب مكنون) أي : في مصاحف للمسلمين مصونة من التبديل والتغيير ، ولم تكن إذ ذاك مصاحف فهو إخبار بغيب ، والظاهر أن قوله (لا يمسه إلا المطهرون) وصف القرآن كريم ، فالمطهرون هم الملائكة ، وقيل : لا يمسه صفة لكتاب مكنون ، فإن كان الكتاب هو الذي في السماء ، فالمطهرون هم الملائكة أيضاً ، أي : لا يطلع عليه من سواهم ، وكذا على قول عكرمة هم الملائكة ، وإن أريد بـ (كتاب مكنون) الصحف ، فالمعنى أنه لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على طهارة من الناس ، وإذا كان المطهرون هم الملائكة فلا يمسه نفي ، ويؤيد المنفي (ما يمسه) على قراءة عبد الله ، وإذا عني بهم المطهرون من الكفر والجنابة ، فاحتمل أن يكون نفياً محضاً ، ويكون حكمه أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وإن كان يمسه غير المطهر كما جاء « لا يعضد شجرها » أي : الحكم هذا ، وإن كان قد يقع العضد ، واحتمل أن يكون نفياً أريد به النهي ، فالضمة في السين إعراب ، واحتمل أن يكون نهياً ، فلو فك ظهر الجزم ولكنه لما أدغم كان مجزوماً في التقدير ، والضمة فيه لأجل ضمة الهاء ، كما جاء في الحديث « إنا لم نرده عليك إلا أنا جزم » ، وهو مجزوم ، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا من المجزوم المدغم المتصل بالهاء ضمير المذكر إلا الضم ، قال ابن عطية : والقول بأن لا يمسه نهي قول فيه ضعف ،

---

(١) عجز بيت من الطويل للكميت بن معروف ، وصدره (لئن قد ضاقت عليكم بيوتكم) انظر خزانة الأدب ١٠/٦٨ المفضليات ٧١٣ التصريح على التوضيح ٢/٢٥٤ .

وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة . وقوله بعد ذلك (تنزيل) صفة ، فإذا جعلناه نهياً جاء معناه أجنبياً معترضاً بين الصفات ، وذلك لا يحسن في وصف الكلام . فتدبره ، وفي حرف ابن مسعود (ما يمسه) وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه حقه ، وقدره أن لا يمسه إلا طاهراً انتهى ، ولا يتعين أن يكون (تنزيل) صفة ، بل يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، فيحسن إذ ذاك أن يكون (لا يمسه) نهياً ، وذكروا هنا حكم مس المصحف ، وذلك مذكور في الفقه ، وليس في الآية دليل على منع ذلك ، وقرأ الجمهور (الْمُطَهَّرُون) اسم مفعول من طهَّر مشدّداً ، وعيسى كذلك مخففاً من أطهر ، ورويت عن نافع وأبي عمرو ، وقرأ سلمان الفارسي الْمُطَهِّرُون بخف الطاء وشد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر ، أي : المطهرين أنفسهم ، وعنه أيضاً (الْمُطَّهِّرون) بشدهما أصله المتطهرون ، فأدغم التاء في الطاء ، ورويت عن الحسن وعبد الله بن عوف ، وقرىء (المتطهرون) ، وقرىء (تنزيلاً) بالنصب أي : نزل تنزيلاً ، والإشارة في (أفبهذا الحديث) للقرآن و (أنتم) خطاب للكفار (مدهنون) ، قال ابن عباس : مهاودون فيما لا يحل ، وقال أيضاً : مكذبون (وتجعلون رزقكم) أي : شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به أي : تضعون مكان الشكر التكذيب ومن هذا المعنى قول الراجز :

مَكَانَ شُكْرِ الْقَوْمِ عِنْدَ الْمِنَن كَيِّ الصَّحِيحَاتِ وَفَقْءِ الْأَعْيُن[1]

وقرأ عليّ وابن عباس (وتجعلون شكركم) وذلك على سبيل التفسير لمخالفته السواد ، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزدشنوءة: ما رزق فلان فلاناً بمعنى ما شكره ، قيل : نزلت في الأنواء ونسبة السقيا إليها والرزق المطر فالمعنى : ما يرزقكم الله من الغيب ، وقال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر : هذا بنوء كذا وكذا ، وهذا بنوء الأسد ، وهذا بنوء الجوزاء ، وغير ذلك ، وقرأ الجمهور (تكذبون) من التكذيب ، وعليّ والمفضل عن عاصم من الكذب ، فالمعنى : من التكذيب إنه ليس من عند الله ، أي : القرآن أو المطر حيث ينسبون ذلك إلى النجوم ، ومن الكذب قولهم في القرآن : سحر وافتراء ، وفي المطر : من الأنواء ، (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذٍ تنظرون) ، قال الزمخشري : ترتيب الآية ، فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين ، فلولا الثانية مكررة للتوكيد والضمير في (ترجعونها) للنفس ، وقال ابن عطية : توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله مالك كل شيء ، و (أنتم) إشارة إلى جميع البشر (حينئذٍ) حين إذ بلغت الحلقوم (تنظرون) أي : إلى النازع في الموت ، وقرأ عيسى (حينئذِ) بكسر النون اتباعاً لحركة الهمزة في إذ (ونحن أقرب إليه منكم) بالعلم والقدرة ، (ولكن لا تبصرون) من البصيرة بالقلب ، أو أقرب ، أي : ملائكتنا ورسلنا (ولكن لا تبصرون) من البصر بالعين ، ثم عاد التوقيف والتقدير : ثانية بلفظ التخصيص ، والمدين : المملوك ، قال الأخطل :

رَبَّتْ وَرَبَّاني في حِجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ

قيل : ابن مملوكة يصف عبداً ابن أمة وآخر البيت :

تَرَاهُ عَلَى مِسْحَاته يَتَوَكَّلُ

والمعنى : فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحلقوم إن كنتم غير مملوكين وغير مقهورين ، إن كنتم صادقين في تعطيلكم ، وكفركم بالمحيي المميت المبدىء المعيد ، إذ كانوا فيما ذهبوا إليه من أن القرآن سحر وافتراء وأن ما نزل من المطر

---

(١) البيت من الرجز ، ذكره السمين في الدر المصون .

هو بنوء كذا ، تعطيل للصانع وتعجيز له ، وقال ابن عطية : وقوله (ترجعونها) سد مسد جوابها ، والبيانات التي تقتضيها التخصيصات و (إذا) من قوله (فلولا إذا) وإن المتكررة ، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتصاراً انتهى ، وتقول : إذا ليست شرطية ، فتسد (ترجعونها) مسد جوابها ، بل هي ظرف غير شرط معمول لـ (ترجعونها) المحذوف بعد (فلولا) لدلالة (ترجعونها) في التخصيص الثاني عليه ، فجاء التخصيص الأول مقيداً بوقت بلوغ الحلقوم ، وجاء التخصيص الثاني معلقاً على انتفاء مربوبيتهم ، وهم لا يقدرون على رجوعها ، إذ مربوبيتهم موجودة ، فهم مقهورون لا قدرة لهم (فأما إن كان) أي : المتوفى (من المقرّبين) وهم السابقون ، وقرأ الجمهور (فَرَوْح) بفتح الراء ، وعائشة عن النبي ـ ﷺ ـ وابن عباس والحسن وقتادة ونوح القارىء ، والضحاك ، والأشهب ، وشعيب بن الحجاب ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خيثم ، ومحمد بن عليّ ، وأبو عمران الجوني ، والكلبي ، وفياض ، وعبيد ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ويعقوب بن صيان ، وزيد ورويس عنه بضمها ، قال الحسن الروح : الرحمة ، لأنها كالحياة للمرحوم . وقال أيضاً : روحه تخرج في ريحان ، وقيل : الروح البقاء . أي : فهذان له معاً ، وهو الخلود مع الرزق ، وقال مجاهد : الريحان الرزق ، وقال الضحاك : الاستراحة ، وقال أبو العالية وقتادة والحسن أيضاً : الريحان هذا الشجر المعروف في الدنيا ، يلقى المقرب ريحاناً من الجنة ، وقال الخليل : هو ظرف كل بقلة طيبة فيها أوائل النور ، وقال ـ ﷺ ـ في الحسن والحسين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ « هما ريحانتاي من الدنيا » ، وقال ابن عطية : الريحان مما تنبسط به النفوس (فروح فسلام (فنزل) الفاء جواب ، أما تقدم (أما) وهي في تقدير الشرط ، وإن كان من المقربين ، وإن كان من أصحاب اليمين ، وإن كان من المكذبين الضالين ، شرط ، وإذا اجتمع شرطان كان الجواب للسابق منهما ، وجواب الثاني محذوف ، ولذلك كان فعل الشرط ماضي اللفظ ، أو مصحوباً بلم ، وأغنى عنه جواب (أما) هذا مذهب سيبويه ، وذهب أبو عليّ الفارسي إلى أن الفاء جواب (إن) ، وجواب (أما) محذوف ، وله قول موافق لمذهب سيبويه ، وذهب الأخفش إلى أن الفاء جواب (لأمّا) والشرط معاً ، وقد أبطلنا هذين المذهبين في كتابنا المسمى « بالتذييل والتكميل في شرح التسهيل » ، والخطاب في ذلك للرسول ـ ﷺ ـ أي : لا ترى فيهم يا محمد إلا السلامة من العذاب ، ثم لكل معتبر من أمّته ـ ﷺ ـ قيل : لمن يخاطبه من أصحاب اليمين ، فقال الطبري : المعنى فسلام لك أنت من أصحاب اليمين ، وقال قوم : المعنى : فيقال لهم مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وقيل : (فسلام لك) يا صاحب اليمين من أخوانك أصحاب اليمين ، أي : يسلمون عليك ، كقوله (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) والمكذبون الضالون ، هم أصحاب المشأمة أصحاب الشمال ، وقرأ الجمهور (وتصلية) رفعاً عطفاً على (فنزل) وأحمد بن موسى والمقري واللؤلؤي عن أبي عمرو بجر التاء عطفاً على (من حميم) ولما انقضى الإخبار بتقسيم أحوالهم ، وما آل إليه كل قسم منهم أكد ذلك بقوله (إن هذا) أي : إن هذا الخبر المذكور في هذه السورة هو حق اليقين ، فقيل : هو من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة ، كما تقول : هذا يقين اليقين ، وصواب الصواب بمعنى : أنها نهاية في ذلك ، فهما بمعنى واحد ، أضيف على سبيل المبالغة ، وقيل : هو من إضافة الموصوف إلى صفته جعل الحق مبايناً لليقين ، أي : الثابت المتيقن ، ولما تقدم ذكر الأقسام الثلاثة مسهباً الكلام فيهم أمره تعالى بتنزيهه عن ما لا يليق به من الصِفات ، ولما أعاد التقسيم موجزاً الكلام فيه أمره أيضاً بتنزيهه وتسبيحه ، والإقبال على عبادة ربه ، والإعراض عن أقوال الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء ، ويظهر أن سبح يتعدى تارة بنفسه ، كقوله ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى ١] ﴿ وتسبحوه ﴾ [الفتح ٩] وتارة بحرف الجر ، كقوله (فسبح باسم ربك العظيم) والعظيم يجوز أن يكون صفة لاسم ، ويجوز أن يكون صفة لـ (ربك) .

سورة الحديد مدنية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

قال النقاش وغيره : هذه السورة مدنية بإجماع من المفسرين ، وقال غيره كالزمخشري : هي مكية ، وقال ابن عطية : لا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً ، لكن يشبه صدرها أن يكون مكياً ، ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة ، لأنه تعالى أمر بالتسبيح ، ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض ، وأتى (سبح) بلفظ الماضي ، و (يسبح) بلفظ المضارع ، وكله يدل على الديمومة والاستمرار ، وأن ذلك ديدن من في السموات والأرض ، والتسبيح هنا عند الأكثرين بمعنى التنزيه المعروف ، في قولهم : سبحان الله ، فقيل : هو حقيقة في الجميع ، وقيل : فيمن يمكن التسبيح منهم ، وقيل : مجاز بمعنى أن أثر الصنعة فيها ينبه الرائي على التسبيح ، وقيل : التسبيح هنا الصلاة ، ففي الجماد بعيد ، وفي الكافر سجود ظله صلاته ، وفي المؤمن ذلك سائغ ، واللام في (لله) إما أن تكون بمنزلة اللام ، في : نصحت لزيد يقال : سبح الله ، كما يقال : نصحت زيداً ، فجيء باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول ، وإما أن تكون لام التعليل ، أي : أحدث التسبيح لأجل الله ، أي : لوجهه خالصاً ، (يحيي ويميت) جملة مستقلة لا موضع لها من الإعراب ، لقوله (له ملك السموات والأرض) لما أخبر بأنه له الملك أخبر عن ذاته بهذين الوصفين العظيمين ، اللذين بهما تمام التصرف في الملك ، وهو إيجاد ما شاء وإعدام ما شاء ، ولذلك أعقب بالقدرة التي بها الإحياء والإماتة ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ أي : هو يحيي ويميت ، وأن يكون حالاً وذو الحال الضمير في (له) والعامل فيها العامل في الجار والمجرور ، (هو الأول) الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة ، (والآخر) أي : الدائم الذي ليس له نهاية منقضية ، وقيل : الأول الذي كان قبل كل شيء ، والآخر الذي يبقى بعد هلاك كل شيء ، والظاهر بالأدلة ونظر العقول في صفته (والباطن) لكونه غير مدرك بالحواس ، وقال أبو بكر الورّاق : الأول بالأزلية ، والآخر بالأبدية ، وقيل (الظاهر) العالي على كل شيء ، الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه ، (والباطن) الذي بطن كل شيء ، أي : علم باطنه ، وقال الزمخشري فإن قلت : فما معنى الواو قلت : الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين

الأولية والآخرية ، والثانية على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ، ومجموع الصفتين الأخريين ، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن جامع الظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس ، وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال ، (يعلم ما يلج في الأرض) من المطر والأموات وغير ذلك (وما يخرج منها) من النبات والمعادن وغيرها ، (وما ينزل من السماء) من الملائكة والرحمة والعذاب وغيره (وما يعرج فيها) من الملائكة وصالح الأعمال وسيئها (وهو معكم أين ما كنتم) أي : بالعلم والقدرة ، قال الثوري : المعنى علمه معكم ، وهذه آية أجمعت الأمّة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات ، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها ، مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها ، وقال بعض العلماء : فيمن يمتنع من تأويل ما لا يمكن حمله على ظاهره ، وقد تأول هذه الآية ، وتأول « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » ، لو اتسع عقله لتأول غير هذا مما هو في معناه ، وقرأ الجمهور (تُرجع) مبنياً للمفعول والحسن وابن أبي إسحٰق والأعرج مبنياً للفاعل ، و (الأمور) عام في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها ، وتقدم شرح ما قبل هذا وما بعده فأغنى عن إعادته .

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى تسبيح العالم له ، وما احتوى عليه من الملك والتصرف ، وما وصف به نفسه من الصفات العلا ، وختمها بالعلم بخفيات الصدور ، أمر تعالى عباده المؤمنين بالثبات على الإيمان وإدامته والنفقة في سبيل الله تعالى ، قال الضحاك) نزلت في غزوة تبوك ، (مستخلفين فيه) أي : ليست لكم بالحقيقة ، وإنما انتقلت إليكم من غيركم ، وكما وصلت إليكم تتركونها لغيركم ، وفيه تزهيد فيما بيد الناس ، إذ مصيره إلى غيره ، وليس له منه إلا ما جاء في الحديث : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، وقيل لأعرابي : لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي ، أو يكون المعنى : أنه تعالى أنشأ هذه الأموال فمتعكم بها ، وجعلكم خلفاء في التصرّف فيها ، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء ، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى ، ثم ذكر تعالى ما للمؤمن المنفق من الأجر ، ووصفه بالكرم ليصرعه في أنواع الثواب ، قيل : وفيه إشارة إلى عثمان بن عفان ، حيث بذل تلك النفقة العظيمة في جيش العسرة ، ثم قال (وما لكم لا تؤمنون بالله) وهو استفهام على سبيل التأنيب والإنكار ، أي : كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة ، وذلك ركزه فيكم من دلائل العقل ، وموجب ذلك من السمع في قوله (والرسول يدعوكم) لهذا الوصف الجليل ، وقد تقدم أخذ الميثاق عليكم بالإيمان ، فدواعي الإيمان موجودة ، وأسبابه حاصلة ، فلا مانع منه ، ولا عذر في تركه ، و (لا تؤمنون) حال كما تقول : مالك لا تقوم تنكر عليه انتفاء قيامه

(والرسول) الواو واو الحال ، فالجملة بعده حال (وقد أخذ) حال ثالثة ، وهذا الميثاق قيل : هو الذي أخذ عليهم حين الإخراج من ظهر آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وقيل : ما نصب من الأدلة وركز في العقول من النظر فيها ، (إن كنتم مؤمنين) شرط وجوابه محذوف ، أي : إن كنتم مؤمنين لموجب مّا ، فهذا هو الموجب لإيمانكم ، أو إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون والحالة هذه ، وهي دعاء الرسول وأخذ الميثاق ، وقال الطبري : إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن ، وقرأ الجمهور (وقد أَخَذَ) مبنياً للفاعل (ميثاقَكم) بالنصب وأبو عمرو مبنياً للمفعول (ميثاقُكم) رفعاً ، وقال ابن عطية في قوله إن كنتم مؤمنين وإنما المعنى أن قوله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد (أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) يقتضي أن يقدر بأثره ، فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة (إن كنتم مؤمنين) أي : إن دمتم على ما بدأتم به ، ولما ذكر توطئة ما يوجب الإيمان دعاء الرسول إياهم للإيمان ، ذكر أنه تعالى هو المنزل على رسوله ـ ﷺ ـ ما دعا به إلى الإيمان ، وذلك الآيات البينات المعجزات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أي : الله تعالى ، إذ هو المخبر عنه أو الرسول ـ ﷺ ـ لأنه أقرب ، وقرىء في السبعة (ينزل) مضارعاً فبعض ثقل ، وبعض خفف ، وقراءة الحسن بالوجهين ، وزيد بن علي والأعمش (أنزل) ماضياً ، ووصف نفسه تعالى بالرأفة والرحمة ، تأنيساً لهم ولما كان قد أمرهم بالإيمان والإنفاق ، ثم ترك تأنيبهم على ترك الإيمان مع حصول موجبه ، أنبهم على ترك الإنفاق في سبيل الله مع قيام الداعي لذلك ، وهو أنهم يموتون فيخلفونه ، ونبه على هذا الموجب بقوله (ولله ميراث السموات والأرض) وهذا من أبلغ البعث على الإنفاق و (أن لا تنفقوا) تقديره : في أن لا تنفقوا ، فموضعه جر ، أو نصب على الخلاف ، وأن ليست زائدة ، بل مصدرية ، وقال الأخفش في قوله ﴿ وما لنا أن لا نقاتل ﴾ [البقرة ٢٤٦] إنها زائدة عاملة تقديره عنده : وما لنا لا نقاتل فللذلك على مذهبه في تلك هنا تكون أن وتقديره : وما لكم لا تنفقون ، وقد رد مذهبه في كتب النحو (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ، قيل : نزلت في أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكذا من تابعه في السبق في ذلك[١] ، ولذلك قال (أولئك أعظم درجة) وقيل : نزلت بسبب أن ناساً من الصحابة أنفقوا نفقات جليلة ، حتى قيل : إن هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق[٢] وهذه الجملة تضمنت تباين ما بين المنفقين ، وقرأ الجمهور (من قبل الفتح) وزيد بن علي قيل : بغير (من) والفتح : فتح مكة ، وهو المشهور ، وقول قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد ، وقال أبو سعيد الخدري والشعبي : هو فتح الحديبية ، وقد تقدم في أول سورة الفتح كونه فتحاً ورفعه أبو سعيد إلى النبي ـ ﷺ ـ « إن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية » والظاهر أن (مَنْ) فاعل (لا يستوي) وحذف مقابله ، وهو : ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، لوضوح المعنى ، (أولئك) أي : الذين أنفقوا قبل الفتح ، وقبل انتشار الإسلام وفشوّه واستيلاء المسلمين على أم القرى، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين جاء في حقهم قوله ـ ﷺ ـ « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[٣] وأبعد من ذهب إلى أن الفاعل بـ (لا يستوي) ضمير يعود على الإنفاق ، أي : لا يستوي هو الإنفاق ، أي : جنسه إذ منه ما هو قبل الفتح وبعده ، و (من أنفق) مبتدأ ، و (أولئك) مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة في موضع خبر (من) وهذا فيه تفكيك للكلام ، وخروج عن الظاهر لغير موجب وحذف المعطوف لدلالة المقابل كثير ، فأنفق لا سيما المعطوف الذي يقتضيه وضع الفعل وهو (يستوي) . وقرأ الجمهور (وكلاً) بالنصب وهو المفعول الأول لـ (وعد) وقرأ ابن عامر وعبد الوارث من طريق المادراي[١] (وكل) بالرفع والظاهر أنه مبتدأ ، والجملة بعده في موضع الخبر ، وقد أجاز ذلك الفراء وهشام ، وورد في

---

(١) انظر الوسيط ١٢٠ خ والبدوي ٤/٢٩٥ والخازن ٧/٣٢ وابن كثير ٤/٣٠٧ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/٦ وابن أبي عاصم في السنة ٢/٤٧٨ وذكره الهيثمي في المجمع ١/١٨ وعزاه لأحمد وقال : فيه ابن لهيعة=

السبعة فوجب قبوله ، وإن كان غيرهما من النحاة قد خص حذف الضمير الذي حذف من مثل (وعد) بالضرورة ، وقال الشاعر :

وَخَـالِـد تَحْمَـدُ سَـادَاتُنَـا ... بِالْحَقِّ لاَ تَحْمَدُ بِـالْبَاطِـلِ [1]

يريده تحمده ساداتنا ، وفر بعضهم من جهل (وعد) خبراً فقال : كل خبر مبتدأ تقديره : وأولئك كل و (وعد) صفة ، وحذف الضمير المنصوب من الجملة الواقعة صفة أكثر من حذفه منها إذا كانت خبراً نحو قوله :

وَمَـا أَدْرِي أَغَيَّـرَهُمْ تَنَـاءٍ ... وَطُولُ الْعَهْدِ أَمْ مَالٌ أَصَابُوا[2]

يريد : أصابوه ، فأصابوه صفة المال ، وقد حذف الضمير العائد على الموصوف ، و (الحسنى) تأنيث الأحسن ، وفسره مجاهد وقتادة بالجنة ، والوعد يتضمن ذلك في الآخرة ، والنصر والغنيمة في الدنيا (والله بما تعملون خبير) فيه وعد ووعيد ، وتقدم الكلام على مثل قوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفة له ﴾ [البقرة ٢٦١] إعراباً وتفسيراً في سورة البقرة ، وقال ابن عطية : هنا الرفع يعني في (يضاعفه) على العطف ، أو على القطع والاستئناف ، وقرأ عاصم (فيضاعفَه) بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام ، وفي ذلك قلق ، قال أبو علي يعني الفارسي : لأن السؤال لم يقع على القرض ، وإنما وقع السؤال على فاعل القرض وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة ـ يعني من القراء ـ حُملت ذلك على المعنى ، كائن قوله (من ذل الذي يقرض) بمنزلة أن لو قال : أيقرض الله أحد فيضاعفه انتهى ، وهذا الذي ذهب إليه أبو علي من أنه إنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ليس بصحيح ، بل يجوز إذا كان الاستفهام بأدواته الإسمية نحو : من يدعوني فأستجيب له ، وأين بيتك فأزورك ، ومتى تسير فأرافقك ، وكيف تكون فأصحبك ، فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعي ، وعن ظرف المكان وظرف الزمان ، والحال لا عن الفعل ، وحكى ابن كيسان عن العرب : أين ذهب زيدفنتبعه ؟ وكذلك كم مالك فنعرفه ؟ ومن أبوك فنكرمَه ؟ بالنصب بعد الفاء ، وقراءة (فيضاعفَه) بالنصب قراءة متواترة ، والفعل وقع صلة للذي ، والذي صفة لذا ، وذا خبر لمن ، وإذا جاز النصب في نحو هذا فجوازه في المثل السابقة أحرى ، مع أن سماع ابن كيسان ذلك محكياً عن العرب ، ويؤيد ذلك ، والظاهر أن قوله (وله أجر كريم) هو زيادة على التضعيف المترتب على القرض ، أي : وله مع التضعيف أجر كريم قوله عز وجل :

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ

= وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح وقد صحح حديثه الشيخ شاكر ـ رحمه الله ـ .

(١) انظر البيت في المغني رقم (٨٤٥) روح المعاني ١٧٢/٢٧ .

(٢) البيت من السريع لم نهتد لقائله ، حاشية الدسوقي على المغني ٢٤٣/٢ .

ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

العامل في (يوم) ما عمل في (لهم) التقدير : ومستقر له أجر كريم يوم ترى ، أو اذكر يوم ترى إعظاماً لذلك اليوم ، والرؤية هنا رؤية عين ، والنور حقيقة ، وهو قول الجمهور ، وروى في ذلك عن ابن عباس وغيره آثار ، وأن كل مظهر من الإيمان له نور ، فيطفىء نور المنافق ، ويبقي نور المؤمن ، وهم متفاوتون في النور ، منهم من يضيء كما بين مكة وصنعاء ، ومن نوره كالنخلة السحوق ، ومن يضيء له ما قرب قدميه ، ومنهم من يهم بالانطفاء مرة ، ويبين مرة ، وذلك على قدر الإعمال ، وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، والظاهر أن النور يتقدم لهم بين أيديهم ، ويكون أيضاً (بأيمانهم) فيظهر أنهما نوران ، نور ساع بين أيديهم ، ونور بأيمانهم ، فذلك يضيء الجهة التي يؤمونها ، وهذا يضيء ما حواليهم من الجهات ، وقال الجمهور : النور أصله بأيمانهم ، والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك النور ، وقيل : الباء بمعنى عن ، أي : عن أيمانهم ، والمعنى في جميع جهاتهم ، وعبر عن ذلك بالأيمان تشريفاً لها ، وقال الزمخشري : إنما قال (بين أيديهم وبأيمانهم) لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، وقرأ الجمهور (وبأيمانهم) جمع يمين ، وسهل بن شعيب السهمي وأبو حيوة بكسر الهمزة ، وعطف هذا المصدر على الظرف ، لأن الظرف متعلق بمحذوف ، أي : كائناً بين أيديهم ، وكائناً بسبب أيمانهم ، (وبشراكم اليوم جنات) جملة معمولة لقول محذوف ، أي : تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم جنات ، أي : دخول جنات ، قال ابن عطية : خالدين فيها إلى آخر الآية ، مخاطبة لمحمد - ﷺ - انتهى . ولا مخاطبة هنا ، بل هذا من باب الالتفات من ضمير الخطاب في (بشراكم) إلى ضمير الغيبة في (خالدين) ولو جرى على الخطاب لكان التركيب : خالداً أنتم فيها ، والالتفات من فنون البيان (يوم يقول) بدل من (يوم ترى) ، وقيل : معمول لأذكر ، قال ابن عطية : ويظهر لي أن العامل فيه ذلك هو الفوز العظيم ، ومجيء معنى الفوز أفخم ، كأنه يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا ، لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه ومضاده أبدع وأفخم انتهى . فظاهر كلامه وتقديره : أن (يوم) منصوب بالفوز ، وهو لا يجوز ، لأنه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته ، فلا يجوز إعماله ، فلو أعمل وصفه وهو (العظيم) لجاز ، أي : الفوز الذي عظم أي قدره يوم يقول ، (انظرونا) أي : انتظرونا ، لأنهم لما سبقوكم إلى المرور على الصراط ، وقد طفئت أنوارهم قالوا ذلك ، قال الزمخشري (انظرونا) انتظرونا ، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة ، كالبروق الخاطفة على ركاب تذف بهم ، وهؤلاء مشاة أو انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم ، والنور بين أيديهم فيستضيئون به انتهى . فجعل (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، ولا يتعدى النظر هذا في لسان العرب إلا بإلى لا بنفسه وإنما وجد متعدياً بنفسه في الشعر ، وقرأ زيد بن علي وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة (أنظرونا) من أنظر رباعياً ، أي : أخرونا أي : اجعلونا في آخركم ، ولا تسبقونا بحيث تفوتوننا ولا نلحق بكم (نقتبس من نوركم) ، أي : نصب منه حتى ونستضيء به ، ويقال : اقتبس الرجل واستقبس ، أخذ من نار غيره قبساً ، (قيل ارجعوا وراءكم) القائل المؤمنون ، أو الملائكة والظاهر أن (وراءكم) معمول لـ (ارجعوا) وقيل : لا محل له من الإعراب ، لأنه بمعنى ارجعوا ، كقولهم : وراءك أوسع لك ، أي : ارجع تجد مكاناً أوسع لك ، وارجعوا أمر توبيخ وطرد ، أي : ارجعوا إلى الموقف حيث أعطينا الفوز فالتمسوه هناك ، وارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً ، أي : بتحصيل سببه ، وهو الإيمان أو تنحوا عنا فالتمسوا نوراً غير هذا ، فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو إقناط لهم ، (فضرب بينهم) أي : بين المؤمنين والمنافقين (بسور) بحاجز ، وقال ابن زيد : هو الأعراف ،

وقيل : حاجز غيره ، وقرأ الجمهور (فضُرِبَ) مبنياً للمفعول ، وزيد بن علي وعبيد بن عمر مبنياً للفاعل ، أي : الله ويبعد قول من قال : إن هذا السور هو الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس ، وهو مروي عن عبادة بن الصامت ، وابن عباس وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار ، ولعله لا يصح عنهم ، والسور هو الحاجز الدائر على المدينة للحفظ من عدو ، والظاهر في باطنه أن يعود الضمير منه على الباب لقربه ، وقيل : على السور ، وباطنه الشق الذي لأهل الجنة ، وظاهره ما يدانيه من قبله من جهته العذاب ، (ينادونهم) استئناف إخبار أي : ينادون المنافقون المؤمنين (ألم نكن معكم) أي : في الظاهر (قالوا بلى) أي : كنتم معنا في الظاهر (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أي : عرضتم أنفسكم للفتنة بنفاقكم (وتربصتم) أي : بإيمانكم حتى وافيتم على الكفر ، أو (تربصتم) بالمؤمنين الدوائر ، قاله قتادة (وارتبتم) شككتم في أمر الدين (وغرتكم الأماني) وهي الأطماع مثل قولهم : سيهلك محمد هذا العام ، تهزمه قبيلة قريش مستأخرة الأحزاب إلى غير ذلك ، أو طول الآمال في امتداد الأعمار (حتى جاء أمر الله) وهو الموت على النفاق ، و (الغرور) الشيطان بإجماع ، وقرأ سماك بن حرب (الغرور) وتقدم ذلك ، (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) أيها المنافقون والناصب لليوم الفعل المنفي بلا ، وفيه حجة على من منع ذلك (ولا من الذين كفروا) في الحديث « إن الله تعالى يعزر الكافر فيقول له ، أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا ، أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك ، وأنت في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك » ، وقرأ الجمهور (لا يؤخذ) وأبو جعفر والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر وهارون عن أبي عمرو بالتاء لتأنيث الفدية ، (هي مولاكم) قيل : أولى بكم ، وهذا تفسير معنى ، وكانت مولاهم من حيث إنها تضمهم وتباشرهم ، وهي تكون لكم مكان المولى ونحوه قوله :

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد هي ناصركم ، أي : لا ناصر لكم غيرها ، والمراد نفي الناصر على البتات، ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا ، فاستنصر الجزعَ ، ومنه قوله تعالى ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ [الكهف ٢٩] وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار ، قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

عن عبد الله ملت الصحابة ملة فنزلت (ألم يأن)[١] وعن ابن عباس : عوتبوا بعد ثلاث عشرة سنة[٢] ، وقيل : كثر المزاح في بعض شباب الصحابة فنزلت[٣] ، وقرأ الجمهور (ألم) والحسن وأبو السمال (ألمّا) والجمهور (يأن) مضارع أني حان ، والحسن (يئن) مضارع أن حان أيضاً ، والمعنى : قرب وقت الشيء (أن تخشع) تطمئن وتخبت ، وهو من عمل القلب ، ويظهر في الجوارح ، وفي الحديث « أول ما يرفع من الناس الخشوع لذكر الله » ، أي : لأجل ذكر الله ، كقوله ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ [الأنفال ٢] ، وقيل : أو لتذكير الله إياهم ، وقرأ الجمهور (وما نزل) مشدداً ، ونافع وحفص مخففاً ، والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو ، في رواية يونس وعباس عنه مبنياً للمفعول كشدداً وعبد الله أنزل بهمزة النقل مبنياً للفاعل ، والجمهور (ولا يكونوا) بياء الغيبة عطفاً على (أن تخشع) وأبو حيوة وابن أبي عبلة وإسماعيل عن أبي جعفر وعن شيبة ويعقوب وحمزة في رواية عن سليم عنه (ولا تكونوا) على سبيل الالتفات إما نهياً وإما عطفاً على (أن تخشع) (كالذين أوتوا الكتاب من قبل) وهم معاصر وموسى ـ عليه السلام ـ من بني إسرائيل ، حذر المؤمنون أن يكونوا مثلهم في قساوة القلوب ، إذ كانوا إذا سمعوا التوراة رقوا وخشعوا (فطال عليهم الأمد) أي : انتظار الفتح ، أو انتظار القيامة ، وقيل : أمد الحياة ، وقرأ الجمهور (الأمد) مخفف الدال ، وهي الغاية من الزمان وابن كثير بشدها ، وهو الزمان بعينه الأطول (فقست قلوبهم) صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة ، يحيي الأرض بعد موتها ، يظهر أنه تمثيل لتليين القلوب بعد قسوتها ولتأثير ذكر الله فيها ، كما يؤثر الغيث في الأرض ، فتعود بعد إجدابها مخصبة ، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلة يظهر فيها أثر الطاعات والخشوع ، وقرأ الجمهور (المصدّقين والمصدّقات) بشدّ صاديهما وابن كثير وأبو بكر والمفضل وأبان وأبو عمرو في رواية هارون بخفهما وأبيّ بتاء قبل الصاد فيهما ، فهذه وقراءة الجمهور من الصدقة ، والخف من التصديق ، صدّقوا رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغ عن الله تعالى ، قال الزمخشري (فإن قلت :) علام عطف قوله (وأقرضوا) (قلت :) على معنى الفعل في (المصدّقين) لأن اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدّقوا ، كأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا انتهى ، واتبع في ذلك أبا علي الفارسي ، ولا يصح أن يكون معطوفاً على (المصدقين) لأن المعطوف على الصلة صلة ، وقد فصل بينهما بمعطوف ، وهو قوله (والمصدقات) ولا يصح أيضاً أن يكون معطوفاً على صلة ال في (المصدقات) لاختلاف الضمائر ، وإذ ضمير (المتصدّقات) مؤنث ، وضمير (وأقرضوا) مذكر ، فيتخرج هنا على حذف الموصول ، لدلالة عما قبله عليه ، لأنه قيل : (والذين أقرضوا) فيكون مثل قوله :

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ[٤]

يريد : ومن يمدحه ، وصديق من أبنية المبالغة ، قال الزجاج ، ولا يكون فيها أحفظ إلا من ثلاثي ، وقيل : يجيء من غير الثلاثي ، كمسيك ، وليس بشيء ، لأنه يقال : مسك وأمسك فمسيك من مسك (والشهداء) الظاهر أنه مبتدأ خبره ما بعده ، فيقف على (الصديقون) وإن شئت فهو من عطف الجمل ، وهذ قول ابن عباس ومسروق والضحاك أن الكلام تام في قوله (الصديقون) واختلف هؤلاء ، فبعض قال : الشهداء هم الأنبياء يشهدون للمؤمنين بالصدّيقية ، لقوله ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ [النساء ٤١] الآية ، وبعض قال : هم الشهداء في سبيل الله تعالى ، استأنف الخبر عنهم ، فكأنه جعلهم صنفاً مذكوراً وحده ، لعظم أجرهم ، وقال ابن مسعود ومجاهد وجماعة ، (والشهداء)

---

(١) انظر الوسيط ١٢٢ خ والبغوي ٢٩٧/٤ .

(٢) انظر الوسيط ١٢٢ خ ، والبغوي ٢٩٧/٤ .

(٣) انظر الوسيط ١٢٢ خ ، والبغوي ٢٩٧/٤ .

(٤) البيت من الوافر لحسان انظر ديوانه (٦٤) وقد تقدم .

معطوف على (الصديقون) والكلام متصل ، يعنون من عطف المفردات ، فبعض قال : جعل الله كل مؤمن صديقاً وشهيداً قاله مجاهد ، وفي الحديث من رواية البراء « مؤمنو أمتي شهداء » وإنما ذكر الشهداء السبعة تشريفاً ، لأنهم في أعلى رتب الشهادة ، كما خص المقتول ، في سبيل الله من السبعة بتشريف تفرد به ، وبعض قال وصفهم بالصديقية والشهادة من قوله تعالى ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة ١٤٣] (لهم أجرهم) خبر عن الشهداء فقط ، أو عن من جمع بين الوصفين على اختلاف القولين ، والظاهر في نورهم أنه حقيقة . وقال مجاهد وغيره : عبارة عن الهدي والكرامة والبشرى . (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب) أخبر تعالى بغالب أمرها من اشتمالها على أشياء لا تدوم ولا تجدي ، وأما ما كـان من الطاعات وضروري ما يقوم به الأود ، فليس مندرجاً في هذه الآية ، (لعب ولهو) كحالة المترفين من الملوك . (وزينة) تحسين لما هو خارج عن ذات الشيء . (وتفاخر بينكم) قراءة الجمهور بالتنوين ونصب بينكم ، والسلمي بالإضافة ، (وتكاثر) بالعدد والعدد على عادة الجاهلية ، وهذه كلها محقرات بخلاف أمر الآخرة ، فإنها مشتملة على أمور حقيقية عظام ، قال الزمخشري : وشبه تعالى حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة (جدواها) بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليهم العاهة ، فهاج واصفرّ ، وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم ، كما فعل بأصحاب الجنة ، وصاحب الجنتين انتهى . وقال ابن عطية : (كمثل) في موضع رفع صفة لما تقدّم ، وصورة هذا المثال أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك فيشب ويقوى ، ويكسب المال ، والولد ويغشاه الناس ، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط ، فينشف ويضعف ، ويسقم وتصيبه النوائب في ماله ودينه ، ويموت ويضمحلّ أمره ، وتصير أمواله لغيره ، وتغير رسومه ، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات معجب أنيق ، ثم هاج ، أي : يبس واصفر ، ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضمحل انتهى . قيل : الكفار الزراع من كفر الحب ، أي : ستره ، في الأرض ، وخصوا بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة ، فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة . وقيل : من الكفر بالله لأنهم أشدّ تعظيماً للدنيا ، وإعجاباً بمحاسنها وحطام بناء مبالغة كعجاب . وقرىء (مصفاراً) ولما ذكر ما يؤول إليه أمر الدنيا من الفناء ، ذكر ما هو ثابت دائم من أمر الآخرة من العذاب الشديد ، ومن رضاه الذي هو سبب النعيم . قوله عز وجل :

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

ولما ذكر تعالى ما في الآخرة من المغفرة أمر بالمسابقة إليها ، والمعنى : سابقوا إلى سبب مغفرة ، وهو الإيمان وعمل الطاعات ، وقد مثل بعضهم المسابقة في أنواع . قال عبد الله كونوا في أول صف في القتال . وقال أنس : اشهدوا تكبيرة

الإحرام مع الإمام . وقال علي : كن أول داخل في المسجد ، وآخر خارج ، واستدل بهذا السبق على أن أول أوقات الصلوات أفضل ، وجاء لفظ سابقوا كأنهم في مضمار يجرون إلى غاية مسابقين إليها . (عرضها) أي : مساحتها في السعة كما قال : ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت ٥١] أو العرض خلاف الطول ، فإذا وصف العرض بالبسطة عرف أن الطول أبسط وأمد . (أعدّت) يدل على أنها مخلوقة ، وتكرر ذلك في القرآن يقوي ذلك ، والسنة ناصة على ذلك ، وذلك يرد على المعتزلة في قولهم : إنها الآن غير مخلوقة وستخلق . (ذلك) أي : الموعود من المغفرة والجنة (فضل الله) عطاؤه (يؤتيه من يشاء) وهم المؤمنون . (ما أصاب من مصيبة) أي : مصيبة ، وذكر فعلها وهو جائز التذكير والتأنيث ، ومن التأنيث ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ [الحجر ٥] ولفظ مصيبة يدل على الشر ، لأن عرفها ذلك . قال ابن عباس ما معناه : أنه أراد عرف المصيبة ، وهو استعمالها في الشر ، وخصصها بالذكر لأنها أهم على البشر ، والمصيبة في الأرض مثل القحط ، والزلزلة ، وعاهة الزرع ، وفي الأنفس الأسقام والموت ، وقيل : المراد بالمصيبة الحوادث كلها من خير وشر (إلا في كتاب) هو اللوح المحفوظ ، أي : مكتوبة فيه (من قبل أن نبرأها) أي : نخلقها ، برأ : خلق ، والضمير في نبرأها الظاهر أنه يعود على المصيبة ، لأنها هي المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس هو على سبيل محل المصيبة ، وقيل : يعود على الأرض ، وقيل : على الأنفس قاله ابن عباس وقتادة وجماعة ، وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر . قال ابن عطية : وهي كلها معارف صحاح ، لأن الكتاب السابق أزلّي قبل هذه كلها انتهى . (إن ذلك) أي : يحصل كل ما ذكر في كتاب ، وتقديره : (على الله يسير) أي : سهل ، وإن كان عسيراً على العباد ، ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك وسبق قضائه به ، فقال : (لكيلا تأسوا) أي : تحزنوا (على ما فاتكم) لأن العبد إن أعلم ذلك سلم ، وعلم أن ما فاته لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، فلذلك لا يحزن على فائت لأنه ليس بصدد أن يفوته فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك ، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة ، ويظهر أن المراد بقوله : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ [آل عمران ١٥٣] أنْ يلحق الحزن الشديد على ما فات من الخير ، فيحدث عنه التسخط ، وعدم الرضا بالمقدور (ولا تفرحوا بما آتاكم) أن يفرح الفرح المؤدي إلى البطر المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص ٧٦] فإن الحزن قد ينشأ عنه البطر ، ولذلك ختم بقوله (والله لا يحب كل مختال فخور) فالفرح بما ناله من حطام الدنيا يلحقه في نفسه الخيلاء ، والافتخار ، والتكبر على الناس ، فمثل هذا هو المنهي عنه ، وأما الحزن على ما فات من طاعة الله ، والفرح بنعم الله والشكر عليها والتواضع فهو مندوب إليه . وقال ابن عباس : ليس أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ، ومن أصاب خيراً جعله شكراً ، انتهى . يعني هو المحمود . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح . (قلت :) المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغي الملهي عن الشكر ، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس به انتهى . وقرأ الجمهور (بما آتاكم) أي : أعطاكم ، وعبد الله (أوتيتم) مبنياً للمفعول ، أي : أعطيتم وأبو عمر (وأتاكم) أي : (جاءكم الذين يبخلون) أي : هم الذين يبخلون أو يكون الذين مبتدأ محذوف الخبر على جهة الإبهام ، تقديره مذمومون أو موعودون بالعذاب ، أو مستغنى عنهم أو على إضمار ، أعني : فهو في موضع نصب ، أو في موضع نصب صفة لكل مختال ، وإن كان نكرة فهو مخصص نوعاً مّا فيسوغ لذلك وصفه بالمعرفة ، قال ابن عطية : هذا مذهب الأخفش انتهى . عظمت الدنيا في أعينهم فبخلوا أن يؤدوا منها حقوق الله تعالى ، وما كفاهم ذلك حتى أمروا الناس بالبخل ، ورغبوهم في الإمساك ، والظاهر أنهم أمروا الناس حقيقة . وقيل : كانوا قدوة فيه ، فكأنهم يأمرون به ، ومن يقول عن ما أمر الله به . وقرأ الجمهور (فإن الله هو) وقرأ نافع وابن عامر بإسقاط هو ، وكذا في

مصاحف المدينة والشام ، وكلتا القراءتين متواترة ، فمن أثبتت هو فقال أبو علي الفارسي : يحسن أن يكون فصلاً ، قال : ولا يحسن أن يكون ابتداء ، لأن حذف الابتداء غير سائغ انتهى : يعني أنه في القراءة الأخرى حذف ، ولو كان مبتدأ لم يجز حذفه ، لأنك إذا قلت إن زيداً هو الفاضل ، فأعربت هو مبتدأ لم يجز حذفه ، لأن ما بعده من قولك الفاضل صالح أن يكون خبراً لأن ، فلا يبقى دليل على حذف هو الرابط ، ونظيره الذين هم يراؤون ، لا يجوز حذف هم ، لأن ما بعده يصلح أن يكون صلة فلا يبقى دليل على المحذوف ، وما ذهب إليه أبو علي ليس بشيء ، لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين ، وتركيب إحداهما على الأخرى ، وليس كذلك ، ألا ترى أنه يكون قراءتان في لفظ واحد ، ولكل منهما توجيه يخالف الآخر ، كقراءة من قرأ ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ [آل عمران ٣٦] بضم التاء ، والقراءة الأخرى بما وضعت بتاء التأنيث ، فضم التاء يقتضي أن الجملة من كلام أم مريم ، وتاء التأنيث تقتضي أنها من كلام الله تعالى ، وهذا كثير في القراءات المتواترة ، فكذلك هذا يجوز أن يكون هو مبتدأ في قراءة من أثبته ، وإن كان لم يرد في القراءة الأخرى ، ولكل من التركيبين في الإعراب حكم يخصه . (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) الظاهر أن الرسل هنا هم من بني آدم ، والبينات الحجج والمعجزات ، (وأنزلنا معهم الكتاب) الكتاب اسم جنس ، ومعهم حال مقدرة ، أي : وأنزلنا الكتاب صائراً معهم أي : مقدراً صحبته لهم ، لأن الرسل منزلين هم والكتاب ، ولما أشكل لفظ معهم على الزمخشري فسر الرسل بغير ما فسرناه . فقال : (لقد أرسلنا رسلنا) يعني الملائكة إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات (وأنزلنا معهم الكتاب) أي : الوحي ، والميزان وروي أن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل بالميزان فدفعه إلى نوح ، وقال: مر قومك يزنوا به ، (وأنزلنا الحديد) قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد ، السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة . وروي ومعه المسن والمسحاة ، وعن النبي ـ ﷺ ـ « أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، أنزل الحديد والنار والماء والملح » انتهى . وأكثر المتأولين على أن المراد بالميزان العدل ، فقال ابن زيد وغيره : أراد بالموازين المعرفة بين الناس ، وهذا جزء من العدل (ليقوم الناس بالقسط) الظاهر أنه علة لإنزال الميزان فقط ، ويجوز أن يكون علة لإنزال الكتاب والميزان معاً ، لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكاليف ، فإنه لا جور في شيء منها ، ولذلك جاء ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ [آل عمران ١٨] ، (وأنزلنا الحديد) عبر عن إيجاده بالإنزال كما قال (وأنزل لكم من الأنعام) وأيضاً فإن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها قاله ابن عطية . وقال الجمهور : أراد بالحديد جنسه من المعادن . وقال ابن عباس : نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميقعة (فيه بأس شديد) أي : السلاح الذي يباشر به القتال (ومنافع للناس) في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم ، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها . (وليعلم الله) علة لإنزال الكتاب والميزان والحديد (من ينصره ورسله) بالحجج والبراهين المنتزعة من الكتاب المنزل ، وبإقامة العدل ، وبما يعمل من آلة الحرب للجهاد في سبيل الله . قال ابن عطية : أي : ليعلمه موجوداً ، فالتغير ليس في علم الله ، بل في هذا الحديث الذي خرج من العدم إلى الوجود ، وقوله : (بالغيب) معناه بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه ، فآمن بها لقيام الأدلة عليها ، ولما قال تعالى : (من ينصره ورسله) وذكر تعالى أنه غني عن نصرته بقدرته وعزته ، وأنه إنما كلفهم الجهاد لمنفعة أنفسهم ، وتحصيل ما يترتب لهم من الثواب . وقال ابن عطية : ويترتب معنى الآية بأن الله تعالى أخبر بأنه أرسل رسله ، وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً وسلاحاً يحارب به من عاند ، ولم يهتد بهدي الله فلم يبق عذر ، وفي الآية على هذا التأويل حث على القتال . قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة أفرد منهم في هذه الآية نوحاً وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ تشريفاً لهما بالذكر ، أما نوح فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض ، وأما إبراهيم فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهو معظم في كل الشرائع ، ثم ذكر أشرف ما حصل لذريتها ، وذلك النبوة وهي التي بها هدى الناس من الضلال والكتاب ، وهي الكتب الأربعة التوارة والزبور والإنجيل والقرآن ، وهي جميعها في ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإبراهيم من ذرية نوح فصدق أنها في ذريتها ، وفي مصحف عبد الله والنبية مكتوبة بالياء عوض الواو . وقال ابن عباس : والكتاب الخط بالقلم ، والظاهر أن الضمير في منهم عائد على الذرية . وقيل : يعود على المرسل إليهم لدلالة ذكر الإرسال والمرسلين عليهم ، ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العلل بذلك انقسموا إلى مهتد وفاسق ، وأخبر بالفسق عن الكثير منهم . (ثم قفينا) أي : اتبعنا وجعلناهم يقفون من تقدم (على آثارهم) أي : آثار الذرية(برسلنا) وهم الرسل الذين جاؤوا بعد الذرية (وقفينا بعيسى) ذكره تشريفاً له ولانتشار أمته ، ونسبه لأمه على العادة في الأخبار عنه ، وتقدمت قراءة الحسن (الإنجيل) بفتح الهمزة في أول سورة آل عمران . قال أبو الفتح : وهو مثال لا نظير له انتهى . وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب . وقال الزمخشري : أمره أهون من أمر البرطيل يعني أنه بفتح الباء ، وكأنه عربي ، وأما الإنجيل فأعجمي . وقرىء رآفة على وزن فعالة ، وجعلنا يحتمل أن يكون المعنى وخلقنا . كقوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام ١] ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا فيكون في قلوب في موضع المفعول الثاني لجعلنا . (ورهبانية) معطوف على ما قبله فهي داخلة في الجمل . (ابتدعوها) جملة في موضع الصفة لرهبانية ، وخصت الرهبانية بالابتداع ، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها بخلاف الرهبانية ، فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب ، ففيها موضع للتكسب . قال قتادة الرأفة والرحمة من الله ، والرهبانية هم ابتدعوها ، والرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن[1] واتخاذ الصوامع ، وجعل أبو علي الفارسي : ورهبانية مقتطعة من العطف على ما قبلها من رأفة ورحمة ، فانتصب عنده ورهبانية على إضمار فعل يفسره ما بعده ، فهو من باب الاشتغال ، أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، واتبعه الزمخشري ، قال : وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، يعني : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها انتهى . وهذا إعراب المعتزلة ، وكان أبو عليّ معتزلياً وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد ، فالرأفة والرحمة من خلق الله ، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له ، وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعه العربية ، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه الرفع بالابتداء ، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله : (ورهبانية) لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للابتداء بالنكرة . وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق . ففرقة قاتلت الملوك على

---

(١) انظر البغوي ٤/٣٠٠ .

الدين فغلبت وقتلت وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه ، ولم تقاتل فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير فقتلوا . وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصوامع والديارات ، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت ، والرهبانية الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف بني فعلان من رهب كالخشيان من خشي[1] وقرىء (ورهبانيةً) بالضم . قال الزمخشري : كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان انتهى . والأولى أن يكون منسوباً إلى رهبان ، وغير بضم الراء لأن النسب باب تغيير ، ولو كان منسوباً إلى رهبان الجمع لرد إلى مفرده ، فكان يقال راهبية إلا إن كان قد صار كالعلم فإنه ينسب إليه على لفظه كالأنصار ، والظاهر أن (إلا ابتغاء رضوان الله) استثناء متصل من ما هو مفعول من أجله ، وصار المعنى أنه تعالى كتبها عليهم ابتغاء مرضاته ، وهذا قول مجاهد ، ويكون كتب بمعنى قضى . وقال قتادة وجماعة : المعنى لم يفرضها عليهم ، ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى ، فالاستثناء على هذا منقطع ، أي : لكن ابتدعوها لابتغاء رضوان الله تعالى والظاهر أن الضمير في (رعوها) عائد على ما عاد عليه في ابتدعوها ، وهو ضمير الذين اتبعوه ، أي : لم يرعوها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه . وقال نحوه ابن زيد ، قال : لم يدوموا على ذلك ، ولا وفوه حقه ، بل غيروا وبدلوا ، وعلى تقدير أن فيهم من رعى يكون المعنى : فما رعوها بأجمعهم . وقال ابن عباس وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم . وقال الضحاك وغيره : الضمير للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين لها . (فآتينا الذين آمنوا) وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام . (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين لم يرعوها . (يا أيها الذين آمنوا) الظاهر أنه نداء لمن آمن من أمة محمد ـ ﷺ ـ فمعنى آمنوا دوموا وأثبتوا ، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور ملتبساً بما أمر به (يؤتكم كفلين) قال أبو موسى الأشعري : كفلين ضعفين بلسان الحبشة انتهى . والمعنى : أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين ، في قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ [القصص ٥٤] إذ أنتم مثلهم في الإيمانين لا تفرقوا بين أحد من رسله . وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، وادعوا الفضل عليهم فنزلت . وقيل : النداء متوجه لمن آمن من أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ يؤتكم الله كفلين ، أي : نصيبين من رحمته ، وذلك لإيمانكم بمحمد ـ ﷺ ـ وإيمانكم بمن قبله من الرسل ، (ويجعل لكم نوراً تمشون به) وهو النور المذكور في قوله ﴿ يسعى نورهم ﴾ [الحديد ١٢] ويغفر لكم ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ، ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيح :ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي الحديث . ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين ، والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ـ ﷺ ـ فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلاً قط ، وإذا كان النداء لمؤمني هذه الأمة ، والأمر لهم فروي أنه لما نزل هذا الوعد لهم حسدهم أهل الكتاب ، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها ، وتزعم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه ، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك ، وأعلم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون . وقرأ الجمهور : (لئلا يعلم) ولا زائدة كهي في قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف ١٢] وفي وقوله : ﴿ انهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء ٩٥] في بعض التأويلات . وقرأ خطاب بن عبد الله (لأن لا يعلم) وعبد الله وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم ، والجحدري ليعلم أصله ، لأن يعلم قلب الهمزة ياء لكسرة ما قبلها وأدغم النون في الياء بغير غنة ، كقراءة خلف أن يضرب بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن (ليلاً) مثل ليلى اسم المرأة (يعلمُ) برفع الميم ، أصله لأن لا بفتح لام الجر ، وهي لغة فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون في اللام فاجتمعت الأمثال ، وثقل النطق بها فأبدلوا من الساكنة ياء ، فصار

---

(١) انظر البغوي ٤/٣٠٠ .

ليلاً ، ورفع الميم لأن (أن) هي المخففة من الثقيلة ، لا الناصبة للمضارع إذ الأصل لأنه لا يعلم ، وقطرب عن الحسن أيضاً (لئلا) بكسر اللام ، وتوجيهه كالذي قبله ، إلا أنه كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجر ، وعن ابن عباس (كي يعلم) وعنه (لكيلا يعلم) وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة (لكي يعلم) . وقرأ الجمهور أن لا يقدرون بالنون فإن هي المخففة من الثقيلة ، وعبد الله بحذفها فإن الناصبة للمضارع والله تعالى أعلم .

سورة المجادلة مدنية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

فسح في المجلس وسع لغيره **﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ، إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ، يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ، ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾** هذه السورة مدنية . قال الكلبي : إلا قوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) ، وعن عطاء : العشر الأول منها مدني ، وباقيها مكي . قرأ الجمهور قد سمع بالبيان ، وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن محيصن بالإدغام ، قال خلف بن هشام البزار : سمعت الكسائي يقول من قرأ قد سمع فبين الدال عند السين فلسانه أعجمي ليس بعربي ، ولا يلتفت إلى هذا القول ، فالجمهور على البيان ، والتي تجادل : خولة بنت ثعلبة ، ويقال بالتصغير ، أو خولة بنت خويلد ، أو خولة بنت حكيم ، أو خولة بنت دليج ، أو جميلة ، أو خولة بنت الصامت أقوال للسلف ، وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه النازلة أوس بن الصامت أخو عبادة . وقيل : سلمة بن صخر البياضي ظاهر من امرأته ، قالت زوجته : يا رسول الله أكل أوس شبابي ، ونثرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني ، فقال لها : ما أراكِ إلا قد حرمت عليه ، فقالت : يا

رسول الله لا تفعل فإني وحيدة ليس لي أهل سواه ، فراجعها بمثل مقالته فراجعته ، فهذا هو جدالها ، وكانت في خلال ذلك تقول اللهم إن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله ، فنزل الوحي عند جدالها[١] . قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ سبحان من وسع سمعه الأصوات[٢] كان بعض كلام خولة يخفى عليّ ، وسمع الله جدالها فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أوس وعرض عليه كفارة الظهار العتق ، فقال : ما أملك والصوم ، فقال : ما أقدر والإطعام فقال : لا أجد إلا أن تعينني فأعانه ـ ﷺ ـ بخمسة عشر صاعاً ، ودعا له فكفر بالإطعام وأمسك أهله ، وكان عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ يكرم خولة إذا دخلت عليه ويقول قد سمع الله لها[٣] وقال الزمخشري : معنى (قد) التوقع ، لأنه ـ ﷺ ـ والمجادلة كانا متوقعين أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ، وينزل في ذلك ما يفرج عنها انتهى . وقرأ الحرميان وأبو عمرو ويظهرون بشدّهما والأخوان وابن عامر يظاهرون مضارع ظاهر ، وأبيّ يتظاهرون مضارع تظاهر ، وعنه يتظهرون مضارع تظهر ، والمراد به كله الظهار ، وهو قول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي ، يريد في التحريم كأنه إشارة إلى الركوب إذ عرفه في ظهور الحيوان ، والمعنى : أنه لا يعلوها كما لا يعلو أمّه ، ولذلك تقول العرب في مقابلة ذلك نزلت عن امرأتي أي : طلقتها ، وقوله منكم إشارة إلى توبيخ العرب ، وتهجين عادتهم في الظهار ، لأنه كان من إيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم . وقرأ الجمهور (أمّهاتهم) بالنصب على لغة الحجاز ، والمفضل عن عاصم بالرفع على لغة تميم ، وابن مسعود بأمهاتهم بزيادة الباء . قال الزمخشري : في لغة من ينصب انتهى . يعني أنه لا تزاد الباء في لغة تميم ، وهذا ليس بشيء ، وقد رد ذلك على الزمخشري ، وزيادة الباء في مثل ما زيد بقائم كثير في لغة تميم ، والزمخشري تبع في ذلك أبا عليّ الفارسي ـ رحمه الله ـ ولما كان معنى كظهر أمي كأمي في التحريم ، ولا يراد خصوصية الظهر الذي هو من الجسد جاء النفي بقوله (ما هنّ أمّهاتهم) ثم أكد ذلك بقوله (إن أمهّاتهم) أي : حقيقة (إلا اللائي ولدنهم) وألحق بهنّ في التحريم أمّهات الرضاع ، وأمّهات المؤمنين أزواج الرسول ـ ﷺ ـ والزوجات لسن بأمّهات حقيقة ، ولا ملحقات بهنّ . فقول المظاهر منكر من القول تنكرة الحقيقة ، وينكره الشرع ، وزور كذب باطل منحرف عن الحق ، وهو محرم تحريم المكروهات جدّاً فإذا وقع لزم ، وقد رجى تعالى بعده بقوله : (وإن الله لعفو غفور) مع الكفارة ، وقال الزمخشري : وإن الله لعفو غفور لما سلف منه إذا تاب عنه ، ولم يعد إليه انتهى . وهي نزعة اعتزالية ، والظاهر أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها ، فلو قال : أنت عليّ كظهر أختي ، أو ابنتي لم يكن ظهاراً ، وهو قول قتادة والشعبي وداود ، ورواية أبي ثور عن الشافعي . وقال الجمهور : الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة ومالك والشافعي في قول هو ظهار ، والظاهر أن الذمي لا يلزمه ظاهره لقوله : (منكم) أي : من المؤمنين ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي لكونها ليست من نسائه . وقال مالك : يلزمه ظهاره إذا نكحها ، ويصح من المطلقة الرجعية . وقال المزني : لا يصح ، وقال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها ، ولو ظاهر من أمته التي يجوز له وطئها لزمه عند مالك . وقال

---

(١) انظر المسند للإمام (٦/ ٤١٠) وابن ماجة المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث ١٨٨/ ١/ ٦٧ ، والحاكم ٢/ ٤٨١ كتاب التفسير تفسير سورة قد سمع والطبري ٢٨/ ٢ ـ ٦ وتفسير عبد الرزاق (٣/ ١١١٨) وأسباب النزول للواحدي (٣٠٤) والدر المنثور (٦/ ١٧٦) وابن كثير (٤/ ٣١٨) والخازن (٧/ ٤٢/ ٤٤) والبغوي (٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) وزاد المسير (٨/ ١٨٠ ، ١٨١) .

(٢) انظر المسند للإمام أحمد (٦/ ٤١٠) وابن ماجة المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث ١٨٨/ ١/ ٦٧ والحاكم ٢/ ٤٨١ كتاب التفسير تفسر سورة قد سمع ، والطبري (٢٨/ ٢ ـ ٦) عبد الرزاق (٣/ ١١١٨) وأسباب النزول للواحدي (٣٠٤) والدر المنثور (٦/ ١٧٦) وابن كثير (٤/ ٣١٨) والخازن (٧/ ٤٢ ـ ٤٤) والبغوي (٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) وزاد المسير (٨/ ١٨٠ ، ١٨١) .

(٣) انظر المسند للإمام أحمد (٦/ ٤١٠) ابن ماجة المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث ١٨٨ ـ ١/ ٦٧ ، والحاكم (٢/ ٤٨١) كتاب التفسير تفسير سورة قد سمع والطبري (٨/ ٢ ـ ٦) وتفسير عبد الرزاق (٣/ ١١١٨) وأسباب النزول للواحدي (٣٠٤) والدر المنثور (٦/ ١٧٦) وابن كثير (٤/ ٣١٨) والخازن (٧/ ٤٢ ـ ٤٤) والبغوي (٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) وزاد المسير (٨/ ١٨٠ ، ١٨١) .

أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم ، وسبب الخلاف هو هل تندرج في نسائهم أم لا ؟ والظاهر صحة ظهار العبد لدخوله في يظهرون منكم ، لأنه من جملة المسلمين وإن تعذر منه العتق والإطعام فهو قادر على الصوم . وحكى الثعلبي عن مالك أنه لا يصح ظهاره ، وليست المرأة مندرجة في الذين يظهرون ، فلو ظاهرت من زوجها لم يكن شيئاً ، وقال الحسن بن زياد : تكون مظاهرة ، وقال الأوزاعي وعطاء وإسحاق وأبو يوسف : إذا قالت لزوجها أنت عليّ كظهر فلانة فهي يمين تكفرها . وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظهار ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها ، والظاهر أن قوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا) أن يعود واللفظ الذي سبق منهم وهو قول الرجل ثانياً ، أنت مني كظهر أمي ، فلا تلزم الكفار بالقول ، وإنما تلزم بالثاني ، وهذا مذهب أهل الظاهر ، وروى أيضاً عن بكير بن عبد الله بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة وهو قول الفراء . وقال طاووس وقتادة والزهري والحسن ومالك وجماعة : (لما قالوا) أي : للوطء ، والمعنى : لما قالوا إنهم لا يعودون إليه فإذا ظاهر ثم وطىء ، فحينئذ يلزمه الكفارة ، وإن طلق أو مات . وقال أبو حنيفة ومالك أيضاً والشافعي وجماعة : معناه يعودون لما قالوا بالعزم على الإمساك ، والوطء ، فمتى عزم على ذلك لزمته الكفارة طلق أو مات . قال الشافعي : العود الموجب للكفارة أن يمسك عن طلاقها بعد الظهار ، ويمضي بعده زمان يمكن أن يطلقها فيه فلا يطلق . وقال قوم : المعنى والذين يظهرون من نسائهم في الجاهلية ، أي : كان الظهار عادتهم ، ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام وقاله القتبي . وقال الأخفش : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير فتحرير رقبة لما قالوا ، وهذا قول ليس بشيء ، لأنه يفسد نظم الآية فتحرير رقبة ، والظاهر أنه يجزىء مطلق رقبة ، فتجزىء الكافرة . وقال مالك والشافعي : شرطها الإسلام كالرقبة في كفارة القتل ، والظاهر إجزاء المكاتب ، لأنه عبد ما بقي عليه درهم ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وإن عتق نصفي عبدين لا يجزىء . وقال الشافعي : يجزىء . (من قبل أن يتماسا) لا يجوز للمظاهر أن يطأ حتى يكفر ، فإن فعل عصى ولا يسقط عنه التكفير . وقال مجاهد : يلزمه كفارة أخرى . وقيل : تسقط الكفارة الواجبة عليه ، ولا يلزمه شيء . وحديث أوس بن الصامت يرد على هذا القول ، وسواء كانت الكافرة بالعتق ، أم الصوم ، أم الإطعام ، وقال أبو حنيفة : إذا كانت بالإطعام جاز له أن يطأ ، ثم يطعم ، وهو ظاهر قوله : (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً) إذ لم يقل فيه من قبل أن يتماسا ، وقيد ذلك في العتق والصوم ، والظاهر في التماس الحقيقة ، فلا يجوز تماسها قبلة ، أو مضاجعة أو غير ذلك من وجوه الاستمتاع ، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي . وقال الأكثرون هو الوطء فيجوز له الاستمتاع بغيره قبل التكفير ، وقاله الحسن والثوري وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، والضمير في يتماسا عائد على ما عاد عليه الكلام من المظاهر ، والمظاهر منها: (ذلكم توعظون به) إشارة إلى التحرير ، أي : فعل عظة لكم ، لتنتهوا عن الظهار (فمن لم يجد) أي : الرقبة ولا ثمنها، أو وجدها أو ثمنها وكان محتاجاً إلى ذلك ، فقال أبو حنيفة : يلزمه العتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك ، ولا ينتقل إلى الصوم وهو الظاهر . وقال الشافعي : ينتقل إلى الصوم ، والشهران بالأهلة ، وإن جاء أحدهما ناقصاً ، أو بالعدد لا بالأهلة ، فيصوم إلى الهلال ، ثم شهراً بالهلال ، ثم يتم الأول بالعدد ، والظاهر وجوب التتابع ، فإن أفطر بغير عذر استأنف ، أو بعذر من سفر ونحوه فقال ابن المسيب وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي ومالك والشافعي في أحد قوليه : يبني . وقال النخعي وابن جبير والحكم بن عيينة والثوري وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه ، والظاهر أنه إن وجد الرقبة بعد أن شرع في الصوم أنه يصوم ويجزئه ، وهو مذهب مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة : وأصحابه : يلزمه العتق ولو وطىء في خلال الصوم بطل التتابع ويستأنف ، وبه قال مالك وأبو حنيفة . وقال الشافعي : يبطل إن جامع نهاراً لا ليلاً ، (فمن لم يستطع) لصوم لزمانة به ، أو كونه يضعف به ضعفاً شديداً كما جاء في حديث أوس لما قال هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ، فقال : والله يا رسول الله إني إذا لم آكل في اليوم والليلة ثلاث مرات كلّ بصري ، وخشيت أن تعشو عيني ، والظاهر مطلق الإطعام ، وتخصصه ما كانت العادة في الإطعام وقت

النزول ، وهو ما يشبع من غير تحديد بمدّ ، ومذهب مالك أنه مد وثلث بالمدّ النبوي ، ويجب استيعاب العدد ستين عند مالك والشافعي ، وهو الظاهر . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه . (ذلك لتؤمنوا) قال ابن عطية إشارة إلى الرجعة والتسهيل في الفعل من التحرير إلى الصوم والإطعام ، ثم شدّد تعالى بقوله : (وتلك حدود الله) أي : فالزموها وقفوا عندها ، ثم توعد الكافرين بهذا الحكم الشرعي . وقال الزمخشري : ذلك البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه التي شرعها في الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه من جاهليتكم ، وتلك حدود الله التي لا يجوز تعديها . وللكافرين الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها عذاب أليم انتهى . (إن الذين يحادّون الله ورسوله) نزلت في مشركي قريش ، أخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي من قاتل الرسل من قبلهم ، ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادّين المخالفين لها ، والمحادة المعاداة والمخالفة في الحدود . (كبتوا) قال قتادة : أخزوا . وقال السدي : لعنوا . قيل : وهي لغة مذحج . وقال ابن زيد وأبو روق ردّوا مخذولين ، وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق ، (كما كبت الذين من قبلهم) أي : من قاتل الأنبياء . وقيل يوم بدر . وقال أبو عبيدة والأخفش أهلكوا ، وعن أبي عبيدة التاء بدل من الدال ، أي : كبدوا أصابهم داء في أكبادهم . وقيل : والذين من قبلهم منافقو الأمم ، قيل : وكبتوا بمعنى سيكبتون وهي بشارة للمؤمنين بالنصر ، وعبر بالماضي لتحقق وقوعه وتقدّم الكلام في مادة كبت في آل عمران . (وقد أنزلنا آيات بينات) على صدق محمد ـ ﷺ ـ وصحة ما جاء به . (وللكافرين) أي : الذين يحادّونه (عذاب مهين) أي : يهينهم ويذلهم ، والناصب ليوم يبعثهم العامل في للكافرين ، أو مهين ، أو اذكر أو يكون على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء ، فقيل له : يوم يبعثهم الله أي : يكون يوم يبعثهم الله ، وانتصب جميعاً على الحال ، أي : مجتمعين في صعيد واحد ، أو معناه كلهم إذ جميع يحتمل ذينك المعنيين ، فينبئهم بما عملوا تخجيلاً لهم وتوبيخاً . أحصاه بجميع تفاصيله وكميته ، وكيفيته ، وزمانه ومكانه . ونسوه لاستحقارهم إياه واحتقارهم أنه لا يقع عليه حساب . (شهيد) لا يخفى عليه شيء ، وقرأ الجمهور ما يكون بالياء ، وأبو جعفر وأبو حيوة وشيبة بالتاء لتأنيث النجوى . قال صاحب اللوامح : وإن شغلت بالجار فهي بمنزلة ما جاءتني من امرأة إلا أن الأكثر في هذا الباب التذكير على ما في العامة ، يعني القراءة العامة ، قال : لأنه مسند إلى من نجوى ، وهو يقتضي الجنس ، وذلك مذكر انتهى . وليس الأكثر في هذا الباب التذكير ، لأن من زائدة ، فالفعل مسند إلى مؤنث فالأكثر التأنيث وهو القياس ، قال تعالى : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) (ما تسبق من أمّة أجلها) ويكون هنا تامة ، ونجوى احتمل أن تكون مصدراً مضافاً إلى ثلاثة ، أي : من تناجي ثلاثة أو مصدراً على حذف مضاف ، أي : من ذوي نجوى ، أو مصدراً أطلق على الجماعة المتناجين ، فثلاثة على هذين التقديرين . قال ابن عطية : بدل أو صفة . وقال الزمخشري : صفة وقرأ ابن أبي عبلة (ثلاثةً) و (خمسة) بالنصب على الحال ، والعامل يتناجون مضمرة يدل عليه نجوى . وقال الزمخشري : أو على تأويل نجوى بمتناجين ، ونصبها من المستكن فيه . وقال ابن عيسى : كل سرار نجوى ، وقال ابن سراقة : السرار ما كان بين اثنين ، والنجوى ما كان بين أكثر . قيل : نزلت في المنافقين ، واختص الثلاثة والخمسة ، لأن المنافقين كانوا يتناجون على هذين العددين مغايظة لأهل الإيمان ، والجملة بعد إلا في المواضع الثلاثة في موضع الحال ، وكونه تعالى رابعهم وسادسهم ومعهم بالعلم ، وإدراك ما يتناجون به . وقال ابن عباس : نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية تحدّثوا فقال : أحدهم أترى الله يعلم ما نقول ، فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً ، فقال الثالث : إن كان يعلم بعضاً فهو يعلمه كله . (ولا أدنى من ذلك) إشارة إلى الثلاثة والخمسة ، والأدنى من الثلاثة الإثنين ، ومن الخمسة الأربعة (ولا أكثر) يدل على ما يلي الستة فصاعداً . وقرأ الجمهور ولا أكثر عطفاً على لفظ المخفوض ، والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش وأبو حيوة وسلام ويعقوب بالرفع عطفاً على موضع نجوى إن أريد به

المتناجون ، ومن جعله مصدراً محضاً على حذف مضاف ، أي : ولا نجوى أدنى ، ثم حذف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه ، ويجوز أن يكون ولا أدنى مبتدأ ، والخبر إلا هو معهم ، فهو من عطف الجمل ، وقرأ الحسن أيضاً ومجاهد والخليل بن أحمد ويعقوب أيضاً ولا أكبر بالباء بواحدة والرفع ، واحتمل ، الإعرابين العطف على الموضع ، والرفع بالابتداء . وقرىء (ينبئهم) بالتخفيف والهمز ، وزيد بن علي بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء ، والجمهور بالتشديد والهمز وضم الهاء ، قوله عز وجل :

﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ، يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ نزلت (ألم تر) في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم موهمين المؤمنين من أقربائهم أنهم أصابهم شر ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أقرباؤهم ، فلما كثر ذلك منهم شكا المؤمنون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين فلم ينتهوا فنزلت قاله ابن عباس[١] ، وقال مجاهد : نزلت في اليهود[٢] وقال ابن السائب : في المنافقين[٣] ، وقرأ الجمهور (ويتناجون) وحمزة وطلحة والأعمش ويحيى بن وثاب ورويس (وينتجون) مضارع انتجى بما لم يحيك به الله كانوا يقولون السام عليك ، وهو الموت فيرد عليه وعليكم وتحية الله لأنبيائه وسلام على عباده الذين اصطفى . (لولا يعذبنا الله بما نقول) أي : إن كان نبياً فما له لا يدعو علينا حتى نُعذب بما نقول ، فقال تعالى : (حسبهم جهنم) ثم نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار ، وبدأ بالإثم لعمومه ، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظلامات العباد ، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك . وقرأ الجمهور فلا تتناجوا وأدغم ابن محيصن التاء في التاء . وقرأ الكوفيون والأعمش وأبو حيوة ورويس فلا تنتجوا مضارع انتجى ، والجمهور بضم عين (العدوان) وأبو حيوة بكسرها ، حيث وقع والضحاك ، (ومعصيات الرسول) على الجمع . والجمهور على الإفراد ، وقرأ عبد الله (إذا انتجيتم فلا تنتجوا) وأل في إنما النجوى للعهد في نجوى الكفار بالإثم والعدوان ، وكونها من الشيطان ، لأنه هو الذي يزينها لهم ، فكأنها منه . (ليحزن الذين آمنوا) كانوا يوهمون المؤمنين أن غزاتهم غلبوا ، وأن أقاربهم قتلوا ، (وليس) أي : التناجي أو الشيطان أو الحزن (بضارهم) أي : المؤمنين (إلا بإذن الله) أي : بمشيئته فيقضي بالقتل ، أو الغلبة ، وقال ابن زيد هي نجوى قوم من المسلمين يقصدون مناجاة الرسول ـ ﷺ ـ وليس لهم حاجة ولا ضرورة يريدون التبجح بذلك ، فيظن المسلمون ذلك في إخبار بعد وقاصداً نحوه[٤] ، وقال عطية العوفي : نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن في النوم[٥] تسوءه ، فكأنه نجوى يناجى بها انتهى . ولا يناسب هذا القول ما قبل الآية ، ولا ما

---

(١) انظر البغوي (٤/٣٠٧ ـ ٣٠٨) والطبري (٢٨/١٠) والوسيط ١٢٦ ، والبغوي (٤/٣٠٧ ـ ٣٠٨) . وأسباب النزول الواحدي (٤٣٦) والخازن (٧/٤٨) والقرطبي (١٠/٦٤٦١) والدر المنثور (٦/١٨٤) .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

بعدها ، وتقدمت القراءتان في نحو ليحزن . وقرىء بفتح الياء والزاي فيكون الذين فاعلاً ، وفي القراءتين مفعولاً ، ولما نهى تعالى المؤمنين عن ما هو سبب للتباغض والتنافر أمرهم بما هو سبب للتواد والتقارب ، فقال (يا أيها الذين آمنوا) الآية . قال مجاهد وقتادة والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس الرسول ـ ﷺ ـ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض[١] ، وقال ابن عباس : المراد مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان الصحابة يتشاحون على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة فنزلت[٢] وقرأ الجمهور (تفسحوا) وداود بن أبي هند وقتادة وعيسى (تفاسحوا) والجمهور (في المجلس) وعاصم وقتادة وعيسى في (المجالس) . وقرىء (في المجلَس) بفتح اللام ، وهو الجلوس أي : توسعوا في جلوسكم ، ولا تتضايقوا فيه ، والظاهر أن الحكم مطرد في المجالس التي للطاعات ، وإن كان السبب مجلس الرسول ، وقيل : الآية مخصوصة بمجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وكذا مجالس العلم ، ويؤيده قراءة من قرأ في المجالس ، ويتأول الجمع على أن لكل أحد مجلساً في بيت الرسول ـ ﷺ ـ وانجزم (يفسح الله) على جواب الأمر في رحمته ، أو في منازلكم في الجنة ، أو في قبوركم ، أو في قلوبكم ، أو في الدنيا والآخرة أقوال ، (وإذا قيل انشزوا) أي : انهضوا في المجلس للتفسح ، لأن مريد التوسعة على الوارد يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع ، أمروا أولاً بالتفسح ، ثم ثانياً بامتثال الأمر فيه إذا ائتمروا ، وقال الحسن وقتادة والضحاك : معناه إذا دعوا إلى قتال وصلاة ، أو طاعة نهضوا ، وقيل : إذا دعوا إلى القيام عن مجلس الرسول ـ ﷺ ـ نهضوا إذ كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحياناً يؤثر الانفراد في أمر الإسلام ، وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن عامر ونافع وحفص بضم السين في اللفظين ، والحسن والأعمش وطلحة وباقي السبعة بكسرها ، والظاهر أن قوله (والذين أوتوا العلم) معطوف على الذين آمنوا ، والعطف مشعر بالتغاير ، وهو من عطف الصفات ، والمعنى يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة ، وقال ابن مسعود وغيره : تم الكلام عند قوله : (منكم) وانتصب (والذين أوتوا العلم) بفعل مضمر تقديره ويخص الذين أوتوا العلم درجات ، فللمؤمنين رفع ، وللعلماء درجات (بين يدي نجواكم) استعارة ، والمعنى قبل نجواكم ، وعن ابن عباس وقتادة أن قوماً من المؤمنين وأغفالهم كثرت مناجاتهم للرسول ، عليه الصلاة والسلام في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم ، وكان ـ ﷺ ـ سمحاً لا يرد أحداً فنزلت مشددة عليهم أمر المناجاة ، وهذا الحكم قيل : نسخ قبل العمل به[٣] . وقال قتادة : عمل به ساعة من نهار[٤] . وقال مقاتل : عشرة أيام . وقال عليّ كرم الله وجهه : ما عمل به أحد غيري ، أردت المناجاة ولي دينار فصرفته بعشرة دراهم ، وناجيت عشر مرار أتصدق في كل مرة بدرهم ، ثم ظهرت مشقة ذلك على الناس فنزلت الرخصة في ترك الصدقة[٥] . وقرىء (صدقات) بالجمع . وقال ابن عباس : هي منسوخة بالآية التي بعدها[٦] وقيل : بآية الزكاة . (أأشفقتم) أخفتم من ذهاب المال في الصدقة ، أو من العجز عن وجودها تتصدقون به . فإذ لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب الله عليكم عذركم ، ورخص لكم في أن لا تفعلوا فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وأفعال الطاعات . وقرأ عياش

---

(١) انظر تفسير الرزاق (١١٢١/٣) والطبري (١٣/٢٨ ، ١٤) والبغوي (٣٠٩/٤) والخازن (٥٠/٧) وأسباب النزول للواحدي ص (٤٣٧) والقرطبي (٦٤٦٦/١٠ ، ٦٤٦٧) وابن كثير (٣٢٦/٤) ، والدر المنثور (١٨٥/٦٧) وفتح القدير (١٨٩/٥) والوسيط (١٢٧ خ) .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر الوسيط (١٢٨ خ) والطبري (١٥/٢٨) والبغوي (٣١٠/٤) والخازن (٥٢/٧) والقرطبي (٦٤٧١/١٠) وزاد المسير (١٩٥/٨) .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

(٦) انظر المصادر السابقة .

عن أبي عمر وخبير بما يعملون بالياء من تحت ، والجمهور بالتاء ، قوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ، أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ، إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قويّ عزيز ، لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ الذين تولوا هم المنافقون ، والمغضوب عليهم هم اليهود ، عن السدي ومقاتل أنه ـ ﷺ ـ قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعيني شيطان ، فدخل عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ، فقال عليه الصلاة والسلام تشتمني أنت وأصحابك ، فحلف بالله ما فعل فقال عليه الصلاة والسلام له : فعلت فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت ، والضمير في (ما هم) عائد على الذين تولوا ، وهم المنافقون ، أي : ليسوا منكم أيها المؤمنون ، (ولا منهم) أي : ليسوا من الذين تولوهم وهم اليهود ، وما هم اليهود ، ما هم استئناف إخبار بأنهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين ، لأنه مع المؤمنين بقوله ، ومع الكفار بقلبه ، وقال ابن عطية : يحتمل تأويلاً آخر ، وهو أن يكون قوله ما هم يريد به اليهود ، وقوله (ولا منهم) يريد به المنافقين ، فيجيء فعل المنافقين على هذا التأويل أحسن ، لأنهم تولوا مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم ، فيلزمهم ذمامهم ، ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً انتهى . والظاهر التأويل الأول ، لأن الذين تولوا هم المحدث عنهم ، والضمير في ويحلفون عائد عليهم ، فتتناسق الضمائر لهم ولا تختلف ، وعلى هذا التأويل يكون ما هم استئنافاً ، وجاز أن يكون حالاً من ضمير تولوا ، وعلى احتمال ابن عطية يكون ما هم صفة لقوم ، ويحلفون على الكذب إما أنهم ما سبوا كما روي في سبب النزول ، أو على أنهم مسلمون ، والكذب هو ما ادعوه من الإسلام (وهم يعلمون) جملة حالية يقبح عليهم إذ حلفوا على خلاف ما أبطنوا ، فالمعنى : وهم عالمون متعمدون له ، والعذاب الشديد المعد لهم في الآخرة ، وقرأ الجمهور (أيمانهم) جمع يمين ، والحسن (إيمانهم) بكسر الهمزة ، أي : ما يظهرون من الإيمان . (جنة) أي : ما يتسترون به ، ويتقون المحذود وهو الترس (فصدوا) أي : أعرضوا ، أو صدوا الناس عن الإسلام إذ كانوا يثبطون من لقوا عن الإسلام ، ويضعفون أمر الإيمان وأهله ، أو صدوا المسلمين عن قتلهم بإظهار الإيمان ، وقتلهم هو سبيل الله فيهم ، لكن ما أظهروه من الإسلام صدوا به المسلمين عن قتلهم . (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) تقدم الكلام على هذه الجملة في أوائل آل عمران . (فيحلفون له) أي : لله تعالى ، ألا ترى إلى قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام ٢٣] (كما يحلفون لكم) أنهم مؤمنون ، وليسوا بمؤمنين ، والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على عالم الغيب والشهادة ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ، والمقصود أنهم مقيمون على الكذب ، قد تعوده حتى كان على ألسنتهم في الآخرة ، كما كان في الدنيا . (ويحسبون أنهم على شيء) أي : شيء نافع لهم . (استحوذ عليهم الشيطان) أي : أحاط بهم من كل جهة ، وغلب على نفوسهم ، واستولى عليها ،

وتقدمت هذه المادة في قوله تعالى ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ [النساء ١٤١] في النساء ، وأنها محاذ الحمار العانة إذا ساقها ، وجمعها غالباً لها ، ومنه كان أحوذياً نسيج وحده . وقرأ عمر استحاذ أخرجه على الأصل ، والقياس واستحوذ شاذ في القياس فصيح في الاستعمال (فأنساهم ذكر الله) فهم لا يذكرونه لا بقلوبهم ولا بألسنتهم ، وحزب الشيطان جنده قاله أبو عبيدة . (أولئك في الأذلين) هي أفعل التفضيل ، أي : في جملة من هو أذل خلق الله تعالى ، لا ترى أحداً أذل منهم ، وعن مقاتل لما فتح الله مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها قالوا : نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عدداً ، أو أشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك ، فنزلت (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (كتب) أي : في اللوح المحفوظ ، أو قضى . وقال قتادة : بمعنى قال (ورسلي) أي : من بعثت منهم بالحرب ، ومن بعثت منهم بالحجة . (إن الله قوي) ينصر حزبه (عزيز) يمنعه من أن يذل . (لا تجد قوماً) قال الزمخشري : من باب التخييل ، خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوادون المشركين ، والغرض منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتصلب في مجانبة أعداء الله ، وزاد ذلك تأكيداً بقوله : (ولو كانوا آباءهم) انتهى . وبدأ بالآباء لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم ، فنهاهم عن موادتهم ، وقال تعالى : (وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً [العنكبوت ٨] ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب ، ثم أتى ثالثاً بالإخوان ، لأنهم بهم لتعاضد كما قيل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَـهُ ... كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ [1]

ثم رابعاً بالعشيرة ، لأن بها التناصر ، وبهم المقاتلة والتغلب والتسرع إلى ما دعوا إليه كما قال :

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[2]

وقرأ الجمهور (كتب) مبنياً للفاعل (في قلوبهم الإيمان) نصباً أي : كتب الله ، وأبو حيوة والمفضل عن عاصم (كتب) مبنياً للمفعول ، والإيمان رفع . والجمهور : (أو عشيرتهم) على الأفراد ، وأبو رجاء على الجمع ، والمعنى أثبت الإيمان في قلوبهم ، و(أيدهم بروح منه) تعالى وهو الهدى والنور واللطف . وقيل : الروح القرآن . وقيل : جبريل يوم بدر[3] وقيل : الضمير في منه عائد على الإيمان والإنسان في نفسه روح يحيا به المؤمن ، والإشارة بأولئك كتب إلى الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله . قيل والآية نزلت في أبي حاطب بن أبي بلتعة[4] وقيل : الظاهر أنها متصلة بالآي التي في المنافقين الموالين لليهود[5] . وقيل : نزلت في ابن أبيّ ، وأبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان منه سب[6] للرسول ـ ﷺ ـ فصكه أبو بكر صكة سقط منها ، فقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو فعلته قال : نعم ، قال : لا تعد ، قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته . وقيل : في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وفي

---

(١) البيت من الطويل لمسكين الدارمي خزانة الأدب (١/٤٦٦) الأغاني (١٨/٦٠) الهمع (١/١٧٠) الشذور رقم (١٠٦) روح المعاني (٢٧/٣٦) .

(٢) البيت من البسيط لقريط بن أنيف ، انظر ديوان الحماسة (١/١٣) روح المعاني (٢٧/٣٦) .

(٣) انظر البغوي (٤/٣١٢) وزاد المسير (٤/٢٠٠) والوسيط (١٢٨ خ) .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

(٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن السبكي كلام في هذا فراجعه في كتابيهما .

أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه بن عمير يوم أحد . وقال ابن شوذب . يوم بدر ، وفي عمر قتل خاله العاصي بن هشام يوم بدر ، وفي عليّ وحمزة وعبيد بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة يوم بدر . وقال الواقدي في قصة أبي عبيدة : أنه قتل أباه ، قال : كذلك يقول أهل الشام ، وقد سألت رجالاً من بني فهر فقالوا : توفي أبوه قبل الإسلام انتهى . يعنون في الجاهلية قبل ظهور الإسلام . وقد رتب المفسرون ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم أو عشيرتهم على قصة أبي عبيدة ، وأبي بكر ، ومصعب ، وعمر ، وعلي وحمزة ، وعبيد مع أقربائهم ، والله تعالى أعلم .

سورة الحشر مدنية وهي أربع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ
خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ
ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ
نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾
۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ
أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

اللينة قال الأخفش كأنه لون من النخيل ، أي : ضرب منه ، وأصلها لونه قلبوا الواو ياء لسكونها ، وانكسار ما قبلها وأنشد :

قَـدْ شَجَـانِي الأَصْحَـابُ لَمَّـا تَغَنَّـوا بِفِـرَاقِ الأَحْبَـابِ مِنْ فَـوْقِ لِينَـهْ[(١)]

انتهى . وجمعها لين ، كتمرة وتمر ، وقد كسروه على ليان وتكسير ما بينه وبين واحده هاء التأنيث شاذ . كرطبة ورطب شذوا فيه فقالوا أرطاب . وقال الشاعر :

وَسَـالِفَـةٍ كَسَحُـوقِ اللِّيَـا نِ أَضْرَمَ فِيهَا الْغَوِيُّ السُّعُرْ[(٢)]

وقال أبو الحجاج : الأعلم الليان جمع لينة ، وهي النخلة انتهى . وتأتي أقوال المفسرين في اللينة . أوجف البعير حمله على الوجيف ، وهو السير السريع . تقول : وجف البعير يجف وجفاً وجيفاً ووجفاناً قال العجاج :

نَـاجٍ طَـوَاهُ الأَيْنُ مِمَّـا وَجَفَـا

وقال نصيب :

أَلَا رُبَّ رَكْبٍ قَدْ قَطعت وَجِيفَهُمْ إِلَيْكَ وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ يُوجفِ الرَّكْبُ

---

(١) انظر البيت في القرطبي ١٨/٨ .

(٢) البيت من المتقارب لامرىء القيس انظر الديوان (١٦٥) اللسان (لون) القرطبي (١٨/٨) روح المعاني (٢٨/٤٣) .

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ، وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكنّ الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ هذه السورة مدنية . وقيل : نزلت في بني النضير . وتعد من المدينة لتدانيها منها ، وكان بنو النضير صالحوا رسول الله ـ ﷺ ـ على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً ، إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل الرسول ـ ﷺ ـ بذلك ، فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن مسلمة غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة ، وكان النبي ـ ﷺ ـ قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم في دية المسلمين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري منصرفة من بئر معونة ، فهموا بطرح الحجر على رسول الله ـ ﷺ ـ فعصمه الله تعالى ، فلما قتل كعب أمر عليه الصلاة والسلام بالمسير إلى بني النضير ، وكانوا بقرية يقال لها الزهرة فساروا وهو عليه الصلاة والسلام على حمار مخطوم بليف ، فوجدهم ينوحون على كعب ، وقالوا ذرنا نبكي شجونا ، ثم مر أمرك ، فقال : اخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب لنا من ذلك ، وتنادوا بالحرب . وقيل : استمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، ودس المنافق عبد الله بن أبي وأصحابه أن لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ، ولننصرنكم ، وإن أخرجتم لنخرجن معكم ، فدرّبوا على الأزقة وحصنوها ، ثم أجمعوا على الغدر برسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا : اخرج في ثلاثين من أصحابك ، ويخرج منا ثلاثون ليسمعوا منك ، فإن صدقوا آمنا كلنا ، ففعل فقالوا : كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، ففعلوا فاشتملوا على الخناجر ، وأرادوا الفتك ، فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها وكان مسلماً فأخبرته بما أرادوا ، فأسرع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فسارَّه بخبرهم قبل أن يصل الرسول إليهم ، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين ، فطلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من المتاع ، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق ، وآل حيي بن أحطب ، فلحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة ، وقبض أموالهم وسلاحهم فوجد خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، وكان ابن أبي قد قال لهم معي ألفان من قومي وغيرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فلما نازلهم رسول الله ـ ﷺ ـ اعتزلتهم قريظة ، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان[١] ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر حال المنافقين واليهود ، وتولى بعضهم بعضاً ذكر أيضاً ما حل باليهود من غضب الله عليهم ، وجلائهم ، وإمكان الله تعالى رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممن حاد الله ورسوله ، ورام الغدر بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش ، وتقدم الكلام في تسبيح الجمادات التي يشملها العموم المدلول عليه بما من أهل الكتاب هم قريظة ، وكانت قبيلة عظيمة توازن في القدر والمنزلة بني النضير ، ويقال لهما

---

(١) انظر تفسير عبد الرزاق (٣/١١٢٣) والطبري (٢٨/١٩) والرازي (٢٩/٢٧٨) والبغوي (٤/٣١٣) . وأسباب النزول للواحدي ص (٤٤١) والخازن (٧/٥٧ ، ٥٨) وسيرة ابن هشام (٢/١٩٠) وفتح الباري (٧/٢٥٥) والمواهب اللدنية (٢/٩٥ ، ٩٦) .

الكاهنان ، لأنهما من ولد الكاهن بن هارون نزلوا قريباً من المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً لمحمد ـ ﷺ ـ فكان من أمرهم ما قصه الله تعالى في كتابه من ديارهم يتعلق بإخراج ومن أهل الكتاب ، يتعلق بمحذوف أي كائن من أهل الكتاب وصحت الإضافة إليهم لأنهم كانوا ببرية لا عمران فيها ، فبنوا فيها وأنشأوا ، اللام في (لأول الحشر) تتعلق بإخرج وهي لام التوقيت كقوله ﴿ لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء ٧٨] والمعنى عند أولْ الحشر ، والحشر الجمع للتوجيه إلى ناحية ما والجمهور إلى أن هؤلاء الذين أخرجوا هم بنو النضير . وقال الحسن : هم بنو قريظة ، ورد هذا بأن بني قريظة ما حشروا ولا أجلوا ، وإنما قتلوا، وهذا الحشر هو بالنسبة لإخراج بني النضير . وقيل : الحشر هو حشر رسول الله ـ ﷺ ـ الكتائب لقتالهم ، وهو أول حشر منه لهم ، وأول قتال قاتلهم وأول يقتضي ثانياً . فقيل الأول حشرهم للجلاء ، والثاني حشر عمر لأهل خيبر وجلاؤهم ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بجلاء أهل خيبر بقوله ـ ﷺ ـ لا يبقين دينان في جزيرة . وقال الحسن : أراد حشر القيامة أي : هذا أوله ، والقيام من القبور آخره ، وقال عكرمة والزهري : المعنى الأول موضع الحشر ، وهو الشام ، وفي الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام قال لبني النضير : اخرجوا ، قالوا : إلى أين قال إلى أرض المحشر . وقيل : الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وهذا الجلاء كان في ابتداء الإسلام ، وأما الآن فقد نسخ فلا بد من القتل والسبي ، أو ضرب الجزية . (ما ظننتم أن يخرجوا) لعظم أمرهم ومنعتهم وقوتهم ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعددهم (وظنوا أنهم) تمنعهم حصونهم من حرب الله وبأسه ، ولما كان ظن المؤمنين منفياً هنا أجري مجرى نفي الرجاء والطمع ، فتسلط على أن الناصبة للفعل ، كما يتسلط الرجاء والطمع ، ولما كان ظن اليهود قوياً جداً يكاد أن يلحق بالعلم تسلط على أن المشددة وهي التي يصحبها غالباً فعل التحقيق ، كعلمت وتحققت وأيقنت ، وحصونهم الوصم والميضاة والسلاليم والكثيبة . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) أي فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم ، أومانعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه . (قلت :) في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ، ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً ، لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم ، أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم انتهى . يعني أن حصونهم هو المبتدأ ، ومانعتهم الخبر ، ولا يتعين هذا ، بل الراجح أن يكون حصونهم فاعلة بمانعتهم ، لأن في توجيهه تقديماً وتأخيراً ، وفي إجازة مثله من نحو : قائم زيد على الابتداء ، والخبر خلاف ، ومذهب أهل الكوفة منعه فأتاهم الله ، أي : بأسه (من حيث لم يحتسبوا) أي : لم يكن في حسابهم . وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف قاله السدي وأبو صالح وابن جريج ، وذلك مما أضعف قوتهم (وقذف في قلوبهم الرعب) فسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة حتى نزلوا على حكم رسول الله ـ ﷺ ـ (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) قال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا ، وخربوا هم من داخل ونحوه[١] . قال الضحاك والزجاج وغيرهما : كانوا كلما خرب المسلمون من حصونهم هدموا هم من البيوت خربوا الحصن[٢] . وقال الزهري وغيره : كانوا لما أبيح لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبة حسنة ، ولا سارية إلا قلعوها ، وخربوا البيوت عنها ، فيكون قوله : (وأيدي المؤمنين) إسناد التخريب إليها من حيث كان المؤمنون محاصرتهم إياهم داعية إلى ذلك . وقيل : شحوا على بقائها سليمة فخربوها إفساداً ، وقرأ قتادة والجحدري ومجاهد وأبو حيوة وعيسى وأبو عمرو : يخربون مشدّداً وباقي السبعة مخففاً ، والقراءتان بمعنى واحد عدي خرب اللازم بالتضعيف وبالهمزة . وقال صاحب الكامل : في القراءات التشديد الاختيار على التكثير . وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب بمعنى هدم ، وأفسد

---

(١) انظر البغوي (٤/٣١٥) .
(٢) انظر البغوي (٤/٣١٥) .

وأخرب ترك الموضع خرباً وذهب عنه . (فاعتبروا) تفطنوا لما دبر الله من إخراجهم بتسليط المؤمنين عليهم من غير قتال . وقيل : وعد رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم بغير قتال ، فقال فكان كما قال (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا) ، أي : لولا أنه تعالى قضى أنه سيجليهم من ديارهم ويبقون مدة يؤمن بعضهم ، ويولد لبعضهم من يؤمن لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ، كما فعل ، بإخوانهم بني قريظة ، وكان بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق تركوه لجماله وعقله . وقال موسى ـ عليه السلام ـ لا تستحيوا منهم أحداً فلما رجعوا إلى الشام وجدوا موسى ـ عليه السلام ـ قد مات . فقال لهم بنو إسرائيل أنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا ، فانصرفوا إلى الحجاز ، فكانوا فيه فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجلاه بخت نصر على أهل الشام ، وكان الله قد كتب على بني إسرائيل جلاء فنالهم هذا الجلاء على يد محمد ـ ﷺ ـ ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالسيف ، والقتل كأهل بدر وغيرهم ، ويقال : جلا القوم عن منازلهم وأجلاهم غيره . قيل : والفرق بين الجلاء والإخراج أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد ، وقال الماوردي : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد وجماعة . وقرأ الجمهور : الجلاء ممدوداً ، والحسن بن صالح وأخوه علي بن صالح مقصوراً ، وطلحة مهموزاً من غير ألف كالنبأ ، (ولهم في الآخرة عذاب النار) أي : إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا في الآخرة، وقرأ طلحة (ومن يشاقق) بالإظهار ، كالمتفق عليه في الأنفال ، والجمهور ، بالإدغام كان بعض الصحابة قد شرع في بعض نخل بني النضير يقطع ويحرق ، وذلك في صدر الحرب فقالوا : ما هذا الإفساد يا محمد ، وأنت تنهى عن الإفساد فكفوا عن ذلك ، ونزل (ما قطعتم من لينة) الآية رداً على بني النضير ، وإخباراً أن ذلك بتسويغ الله وتمكينه ليخربكم به ، ويذلكم ، واللينة والنخلة اسمان بمعنى واحد ، قاله الحسن ومجاهد ، وابن زيد وعمرو بن ميمون . وقال الشاعر :

كَـأَنَّ قُيُودِي فَـوْقَهَـا عُشُّ طَـائِـرٍ ··· عَلَى لِينَـةٍ سُوقـاً يَهْفُو جُنُـونُهَا[1]

وقال آخر :

طِـرَاقُ الْحَوَامِي وَاقِـعٌ فَوقَ لِينَـةٍ ··· يَـدِي لَيْلَةٍ فِي رَيْشِـهِ يَتَـرَقْـرَقُ[2]

وقال ابن عباس وجماعة من أهل اللغة هي النخلة ما لم تكن عجوة . وقال الثوري : الكريمة من النخل . وقال أبو عبيدة وسفيان : ما ثمرها لون وهو نوع من التمر يقال له اللون . قال سفيان : هو شديد الصفرة يشف عن نواه فيرى من خارج . وقال أيضاً أبو عبيدة : اللين ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برني . وقال جعفر بن محمد : هي العجوة ، وقيل : هي السيلان ، وأنشد فيه :

غَـرَسُـوا لِينَـةً بِمَجْـرَى مَعِينٍ ··· ثُمَّ حَفَّ النَّخِيـلُ بِالآجَـامِ[3]

وقيل : هي أغصان الأشجار للينها فعلى هذا لا يكون أصل الياء الواو . وقيـل : هي النخلة القصيرة . وقـال الأصمعي : هي الدقل ، وما شرطية منصوبة بقطعتم ، ومن لينة تبيين لإبهام ما ، وجواب الشرط (فبإذن الله) أي : فقطعها أو تركها بإذن الله . وقرأ الجمهور (قائمة) أنت قائمة ، والضمير في تركتموها على معنى مـا . وقرأ عبـد الله

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٤٣/٢٧) الكشاف (٥٠١/٤) .

(٢) البيت من الطويل لم نهتد لقائله . انظر القرطبي (٨/١٨) .

(٣) البيت من الكامل لم نهتد لقائله انظر القرطبي (٨/١٨) .

والأعمش وزيد بن علي قوماً على وزن فعل كضرب جمع قائم . وقرىء قائماً اسم فاعل ، فذكر على لفظ ما ، وأنث في على أصولها . وقرىء أصلها بغير واو ، ولما جلا بنو النضير عن أوطانهم ، وتركوا رباعهم وأموالهم طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر ، فنزلت (ما أفاء الله على رسوله) بين أن أموالهم فيء لم يوجف عليها خيل ولا ركاب ، ولاقطعت مسافة إنما كانوا ميلين من المدينة مشوا مشياً ، ولم يركب إلا رسول الله ـ ﷺ ـ[1] . قال عمر بن الخطاب : كانت أموال بني النضير لرسول الله ـ ﷺ ـ خاصة ينفق منها على أهله نفقة سنته ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى[2] وقال الضحاك[3] : كانت له عليه الصلاة والسلام فآثر بها المهاجرين وقسمها عليهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا أبا دجانة ، وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة أعطاهم لفقرهم ، وما في قوله : (وما أفاء الله على رسوله) شرطية ، أو موصولة ، وأفاء بمعنى يفيء ، ولا يكون ماضياً في اللفظ ، والمعنى ولذلك صلة ما الموصولة إذا كانت الباء في خبرها ، لأنها إذ ذاك شبهت باسم الشرط ، فإن كانت الآية نزلت قبل جلائهم كانت مخبرة بغيب ، فوقع كما أخبرت ، وإن كانت نزلت بعد حصول أموالهم للرسول ـ ﷺ ـ كان ذلك بياناً لما يستقبل ، وحكم الماضي المتقدم حكمه ، ومن في من خيل زائدة في المفعول يدل عليه الاستغراق ، والركاب الإبل سلط الله رسوله عليهم ، وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم ، وقال بعض العلماء : كل ما وقع على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة . (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) قال الزمخشري : لم يدخل العاطف على هذه الجملة ، لأنها بيان للأولى ، فهي منها غير أجنبية عنها ، بين لرسول الله ـ ﷺ ـ ما يصنع بما أفاء الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوم على الأقسام الخمسة انتهى . وقال ابن عطية : أهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أهل الصفراء ، وينبع ، ووادي القرى ، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عرينة ، وحكمها مخالف لبني النضير ، ولم يحبس من هذه رسول الله ـ ﷺ ـ لنفسه شيئاً ، بل أمضاها لغيره ، وذلك أنها في ذلك الوقت فتحت انتهى . وقيل : إن الآية الأولى خاصة في بني النضير ، وهذه الآية عامة . وقرأ الجمهور كي لا يكون بالياء ، وعبد الله وأبو جعفر وهشام بالتاء . والجمهور (دُولةً) بضم الدال ونصب التاء ، وأبو جعفر وأبو حيوة وهشام بضمها ، وعلي والسلمي بفتحها . وقال عيسى بن عمر : هما بمعنى واحد . وقال الكسائي وحذاق البصرة : الفتح في الملك بضم الميم ، لأنها الفعلة في الدهر ، والضم في الملك بكسر الميم والضمير في تكون بالتأنيث عائد على معنى ما إذ المراد به الأموال ، والمغانم ، وذلك الضمير هو اسم يكون ، وكذلك من قرأ بالياء أعاد الضمير على لفظ ما ، أي : يكون الفيء وانتصب دولة على الخبر ، ومن رفع دولة فتكون تامة ، ودولة فاعل ، وكيلاً يكون تعليل لقوله : (فلله وللرسول) أي : فالفيء وحكمه لله وللرسول يقسمه على ما أمره الله تعالى (كي لا يكون) الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء بلغة يعيشون بها متداولاً بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم كما كان رؤساؤهم يستأثرون بالغنائم ، ويقولون من عز بزّ ، والمعنى : كي لا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية . وروي أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتتحة ، وقالوا : لنا منها سهمنا فنزل (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وعن الكلبي أن رؤوساً من المسلمين قالوا له : يا رسول الله خذ صفيك ، والربع ودعنا ، والباقي فهكذا كنا نفعل في الجاهلية ، فنزل (وما آتاكم الرسول فخذوه) الآية . وهذا عام يدخل فيه قسمة ما أفاء الله ، والغنائم وغيرها حتى أنه قد استدل بهذا العموم على تحريم الخمر ، وحكم الواشمة والمستوشمة وتحريم المخيط للمحرم . (ومن غريب الحكايات في

---

(١) انظر الطبري (٢٨/٢٤) والبغوي (٤/٣١٦) والقرطبي (١٠/٦٤٩٠) والخازن (٧/٥٩، ٦٠) وزاد المسير (٨/٢٠٩) وابن كثير (٤/٣٣٥) .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر المصدر السابق .

الاستنباط) أن الشافعي ـ رحمه الله تعالى ؛ قال : سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى ، وسنة النبي ـ ﷺ ـ فقال له عبد الله بن محمد بن هارون : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : قال الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر[1] ، وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزنبور انتهى . ويعني في الإحرام بين أنه يقتدي بعمر وأن الرسول ـ ﷺ ـ أمر بالاقتداء به ، وأن الله تعالى أمر بقبول ما يقول رسول الله ـ ﷺ ـ قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ، ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ للفقراء ، قال الزمخشري : بدل من قوله : (ولذي القربى) والمعطوف عليه ، والذي منع الإبدال من الله وللرسول ، والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله ـ ﷺ ـ أن الله عزَّو جلَّ أخرج رسوله من الفقراء في قوله ﴿ينصرون الله﴾ [الحشر ٨] وأنه يترفع برسول الله ـ ﷺ ـ عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وعلا انتهى . وإنما جعله الزمخشري بدلاً من قوله (ولذي القربى) لأنه مذهب أبي حنيفة ، والمعنى إنما يستحق ذو القربى الفقير ، فالفقر شرط فيه على مذهب أبي حنيفة ، ففسره الزمخشري على مذهبه ، وأما الشافعي فيرى أن سبب الاستحقاق هو القرابة ، يأخذ ذو القربى الغني لقرابته . وقال ابن عطية : (للفقراء المهاجرين) بيان لقوله (والمساكين وابن السبيل) وكررت لام الجر لما كانت الأولى مجرورة باللام ليبين (بين الأغنياء منكم) أي : ولكن يكون للفقراء انتهى . ثم وصف تعالى المهاجرين بما يقتضي فقرهم ، ويوجب الإشفاق عليهم ، (أولئك هم الصادقون) أي : في إيمانهم وجهادهم قولاً وفعلاً ، والظاهر أن قوله (والذين تبؤوا) معطوف على المهاجرين وهم الأنصار ، فيكون قد وقع بينهم الاشتراك فيما يقسم من الأموال ، وقيل : هو مستأنف مرفوع بالابتداء ، والخبر يحبون أثنى الله تعالى بهذه الخصال الجليلة كما أثنى على المهاجرين بقوله (يبتغون فضلاً) إلخ ، والإيمان معطوف على الدار ، وهي المدينة والإيمان ليس مكاناً فيتبوأ . فقيل : هو من عطف الجمل ، أي : واعتقدوا الإيمان وأخلصوا فيه ، قاله أبو عليّ فيكون كقوله :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً

أو يكون ضمن تبوؤا معنى لزموا ، واللزوم قدر مشترك في الدار والإيمان ، فيصح العطف أو لما كان الإيمان قد شملهم صار كالمكان الذي يقيمون فيه ، لكن يكون ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز . قال الزمخشري : أو أراد دار الهجرة ، ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٦٦٢) ، (٣٨٠٥) وابن ماجة في المقدمة (٩٧) وأحمد في المسند (٥/٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢) وابن

مقامه ، أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان بالإيمان . وقال ابن عطية : والمعنى تبوؤا الدار مع الإيمان معاً ، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله : (من قبلهم) فتأمله انتهى . ومعنى (من قبلهم) من قبل هجرتهم (حاجة) أي : حسداً (مما أوتوا) أي : مما أعطى المهاجرون ، ونعم الحاجة ما فعله الرسول ـ ﷺ ـ في إعطاء المهاجرين من أموال بني النضير والقرى ، (ويؤثرون على أنفسهم) ، من ذلك قصة الأنصاري مع ضيف الرسول ﷺ حيث لم يكن لهم إلا ما يأكل الصبية ، فأوهمهم أنه يأكل حتى أكل الضيف ، فقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عجب الله من فعلكما البارحة ، فالآية مشيرة إلى ذلك . وروى غير ذلك في إيثارهم (والخصاصة) الفاقة مأخوذة من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح ، فكان حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج ، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة (شِح) بكسر الشين . والجمهور بإسكان الواو ، وتخفيف القاف ، وضم الشين ، والشح اللؤم وهو كزازة النفس على ما عندها والحرص على المنع ، قال الشاعر :

يُمَـــارِسُ نَفْسـاً بَيْنَ جَنْبَيْـــهِ كَـرةً ... إذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاً[1]

وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها . وقال تعالى (وأحضرت الأنفس الشح) وفي الحديث من أدّى الزكاة المفروضة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النائبة فقد برىء من الشح ، (والذين جاؤوا من بعدهم) الظاهر أنه معطوف على ما قبله من المعطوف على المهاجرين . فقال الفراء : هم الفرقة الثالثة من الصحابة ، وهو من آمن أو كفر في آخر مدّة النبي ـ ﷺ ـ وقال الجمهور أراد من يجيء من التابعين ، فعلى القول الأول يكـون معنى من بعدهم ، أي : من بعـد المهاجرين والأنصار السابقين بالإيمان ، وهؤلاء تأخر إيمانهم أو سبق إيمانه ، وتأخرت وفاته حتى انقرض معظم المهاجرين والأنصار ، وعلى القول الثاني يكون معنى (من بعدهم) أي : من بعد ممات المهاجرين مهاجريهم وأنصارهم وإذا كان والذين معطوفاً على المجرور قبله ، فالظاهر أنهم مشاركو من تقدّم في حكم الفيء . وقال مالك بن أوس : قرأ عمرو [التـوبـة ٦٠] (إنمـا الصدقـات للفقـراء) الآيـة فقـال : هـذه لهؤلاء ، ثم قـرأ ﴿واعلمـوا أنمـا غنمتم﴾ [الأنفـال ٤١] فقـال وهذه لهؤلاء ، ثم قرأ (ما أفاء الله على رسوله) حتى بلغ (للفقراء المهاجرين) إلى (والذين جاؤوا من بعدهم) ثم قال لئن عشت لنؤتين الراعي وهو يسير نصيبه منها . وعنه أيضاً أنه استشار المهاجرين والأنصار فيما فتح الله عليه من ذلك في كلام كثير آخره أنه تلا (ما أفاء الله على رسوله) الآية ، فلما بلغ (أولئك هم الصادقون) قال هـي لهؤلاء فقط ، وتلا (والذين جاؤوا من بعدهم)، الآية ، إلى قوله (رؤوف رحيم) ثم قال : ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك . وقال عمر رضي الله تعالى عنه : لولا من يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ـ ﷺ ـ خيبر . وقيل : والذين جاؤوا من بعدهم مقطوع مما قبله معطوف عطف الجمل لا عطف المفردات ، فـإعرابـه (والذين) مبتـدأ ندبـوا بالـدعاء للأولين ، والثناء عليهم ، وهم من يجيء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، والخبر (يقولون) أخبر تعالى عنهم بأنهم لإيمانهم ومحبة أسلافهم يقولون : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا) وعلى القول الأول يكون يقولون استئناف إخبار قيل : أو حال . (ألم تر إلى الذين نافقوا) الآية نزلت في عبد الله بن أبّي ، ورفاعة بن التابوت ، وقوم من منافقي الأنصار ، كانوا بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله : (يقولون) واللام في لإخوانهم للتبليغ والأخوة بينهم أخوة الكفر وموالاتهم (ولا

حبان أورده الهيثمي في الموارد (٢١٩٣) وفي الجمع (٥٣/٩ ، ٢٩٥) وأبو نعيم في الحلية (١٠٩/٩) والطحاوي في مشكل الآثار (٨٣/٢ ، ٨٤ ، ٨٥) والطبراني في الكبير (٦٨/٩) وابن سعد في الطبقات (٢/٢ ـ ٩٨ ، ٩٩) والبخاري في التاريخ (٢٠٩/٨) (٥٠/٩) والبغوي في التفسير (٥٥٦/١) (٢١٦/٦) والحاكم في المستدرك (٧٥/٣) والبيهقي (١٢/٥) ، (١٥٣/٨) .

(١) انظر البيت في الكشاف (٥٠٥/٤) روح المعاني (٥٣/٢٧) .

نطيع فيكم) أي : في قتالكم أحداً من الرسول والمؤمنين ، أو لا نطيع فيكم ، أي : في خذلانكم ، وإخلاف ما وعدناكم من النصرة (ولننصرنكم) جواب قسم محذوف قبل إن الشرطية ، وجواب إن محذوف ، والكثير في كلام العرب إثبات اللام المؤذنة بالقسم قبل أداة الشرط ، ومن حذفها قوله ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين ﴾ [المائدة ٧٣] التقدير : ولئن لم ينتهوا لكاذبون أي : في مواعيدهم لليهود ، وفي ذلك دليل على صحة النبوة ، لأنه إخبار بالغيب ، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير ، بل أقاموا في ديارهم وهذا إذا كان قوله لإخوانهم إنهم بنو النضير ، وقيل : هم يهود المدينة ، والضمائر على هذين القولين . وقيل : فيها اختلاف ، أي : لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون ، ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ، ولئن نصر اليهود المنافقين ليولي اليهود الأدبار ، وكأن صاحب هذا القول نظر إلى قوله (ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) فقد أخبر أنهم لا ينصرونهم ، فكيف يأتي (ولئن نصروهم) فأخرجه في حيز الإمكان ، وقد أخبر أنهم لا ينصرونهم فلا يمكن نصرهم إياهم بعد إخباره تعالى أنه لا يقع ، وإذا كانت الضمائر متفقة فقال الزمخشري : معناه ولئن نصروهم على الفرض ، والتقدير كقوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر ٦٥] وكما يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون ، وقال ابن عطية : معناه ولئن خالفوا ذلك فإنهم ينهزمون انتهى . والظاهر أن الضمير في (ليولن الأدبار) وفي (ثم لا ينصرون) عائد على المفروض أنهم ينصرونهم ، أي : ولئن نصرهم المنافقون ليولن المنافقون الأدبار ، ثم لا ينصر المنافقون . وقيل : الضمير في التولي عائد على اليهود ، وكذا في لا ينصرون . قال ابن عطية : وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله (لا يخرجون) و (لا ينصرون) لأنها راجعة على حكم القسم لا على حكم الشرط ، وفي هذا انظر انتهى . وأي : نظر في هذا ، وهذا جاء على القاعدة المتفق عليها من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم ، وحذف جواب الشرط وكان فعله بصيغة المضي أو مجزوماً بلم ، وله شرط وهو أن لا يتقدمه طالب خبر ، واللام في لئن مؤذنة بقسم محذوف قبله فالجواب له . وقد أجاز الفراء أن يجاب الشرط وإن تقدم القسم ، ورده عليه البصريون ، ثم خاطب المؤمنين بأن هؤلاء يخافونكم أشد خيفة من الله تعالى لأنهم يتوقعون عاجل شركم ، ولعدم إيمانهم لا يتوقعون أجل عذاب الله ، وذلك لقلة فهمهم . و (رهبة) مصدر رهب المبني للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبية فالرهبة واقعة منهم ، لا من المخاطبين والمخاطبون مرهوبون وهذا كما قال :

فَلَهُـوَ أَخْوَفُ عِنْـدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ ... وَقِيـلَ إِنَّكَ مَـأْسُـورٌ وَمَقْتُـولُ
مِنْ ضَيْغَمٍ بِثَرَاءِ الأَرْضِ مَخْدَرُهُ ... بِبَطْنِ عَثَّرَ غِيـلٌ دُونَهُ غِيـلُ[1]

فالمخبر عنه مخوف لا خائف ، والضمير في صدورهم . قيل : لليهود ، وقيل : للمنافقين ، وقيل : للفريقين ، وجعل المصدر مقراً للرهبة دليل على تمكنها منهم ، بحيث صارت الصدور مقراً لها ، والمعنى : رهبتهم منكم أشد من رهبتهم من الله عز وجل : (لا يقاتلونكم) أي : بنو النضير ، وجميع اليهود . وقيل : اليهود والمنافقون جميعاً أي : مجتمعين متساندين يعضد بعضهم بعضاً (إلا في قرى محصنة) لا في الصحراء لخوفهم منكم ، وتحصينها بالدروب والخنادق ، أو من وراء جدار يتسترون به من أن تصيبوهم ، وقرأ الجمهور : (جذر) بضمتين جمع جدار ، وأبو رجاء والحسن وابن وثاب بإسكان الدال تخفيفاً ، ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وكثير من المكيين (جدار) بالألف وكسر الجيم . وقرأ كثير من المكيين وهارون عن ابن كثير (جَدْر) بفتح الجيم وسكون الدال . قال صاحب اللوامح وهو واخذ بلغة اليمن ، وقال ابن عطية : ومعناه أصل بنيان كالسور ونحوه . قال : ويحتمل أن يكون من جدر النخل ، أي من وراء نخلهم ، إذ هي مما يتقى به عند المصافة . (بأسهم بينهم شديد) أي : إذا اقتتلوا بعضهم

---

(١) البيتان من البسيط لكعب بن زهير من قصيدته (بانت سعاد) انظر ديوانه (٢٠) الجمهرة (٦٣٩) المقرب (١/ ٧١ ـ ٧٢) .

مع بعض كان بأسهم شديداً ، أما إذا قاتلوكم فلا يبقى لهم بأس ، لأن من حارب أولياء الله خذل (تحسبهم جميعاً) أي : مجتمعين ذوي إلفة واتحاد ، (وقلوبهم شتى) أي : وأهواؤهم متفرقة ، وكذا حال المخذولين لا تستقر أهواؤهم على شيء واحد ، وموجب ذلك الشتات هو انتفاء عقولهم ، فيهم كالبهائم لا تتفق على حالة . وقرأ الجمهور (شتى) بألف التأنيث ومبشر بن عبيد منوناً جعلها ألف الإلحاق وعبد الله وقلوبهم أشت أي : أشد تفرقاً ، ومن كلام العرب شتى تؤوب الحلبة ، قال الشاعر :

إِلَى اللهِ أَشْكُـو فِتْيَةً شَقَّتِ الْعَصَا ... هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أَمْسِ جَمِيعُ [(١)]

قوله عز وجل : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ كمثل خبر مبتدأ محذوف ، أي : مثلهم ، أي : بني النضير (كمثل الذين من قبلهم قريباً) وهم بنو قينقاع ، أجلاهم الرسول ـ ﷺ ـ من المدينة قبل بني النضير ، فكانوا مثلاً لهم قاله ابن عباس ، أو أهل بدر الكفار فإنه عليه الصلاة والسلام قتلهم فهم مثلهم في أن غلبوا وقهروا ، وقيل : الضمير في من قبلهم للمنافقين ، والذين من قبلهم منافقو الأمم الماضية غلبوا ودلوا على وجه الدهر ، فهؤلاء مثلهم ، ويبعد هذا التأويل لفظة قريباً إن جعلته متعلقاً بما قبله ، وقريباً ظرف زمان ، وإن جعلته معمولاً لذاقوا ، أي : ذاقوا وبال أمرهم قريباً من عصيانهم ، أي : لم تتأخر عقوبتهم في الدنيا كما لم تتأخر عقوبة هؤلاء ، (ولهم عذاب أليم) في الآخرة (كمثل الشيطان) لما مثلهم بمن قبلهم ، ذكر مثلهم مع المنافقين ، فالمنافقون كالشيطان ، وبنو النضير كالإنسان ، والجمهور على أن الشيطان والإنسان اسما جنس يورطه في المعصية ، ثم يفر منه ، كذلك أغوى المنافقون بني النضير ، وحرضوهم على الثبات ووعدوهم النصر ، فلما نشب بنو النضير خذلهم المنافقون وتركوهم في أسوأ حال . وقيل : المراد استغواء الشيطان قريشاً يوم بدر ، وقوله لهم (لا غالب لكم اليوم من الناس وأني جار لكم) إلى قوله (إني بريء منكم)[الأنفال٤٨]،وقيل : التمثيل بشيطان مخصوص مع عابد مخصوص استودِع امرأة فوقع عليها ، فحملت فخشي الفضيحة فقتلها ودفنها ، سول له الشيطان ذلك ، ثم شهره فاستخرجت فوجدت مقتولة ، وكان قال إنها ماتت ودفنتها ، فعلموا بذلك فتعرض له الشيطان ، وقال : اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ففعل ، وتركه عند ذلك ، وقال أنا بريء منك ، وقول الشيطان : إني أخاف الله رياء ، ولا يمنعه الخوف عن سوء يوقع ابن آدم فيه . وقرأ الجمهور (عاقبتهما) بنصب التاء ، والحسن وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم برفعهما ، والجمهور (خالدين) بالياء حالاً و (في النار) خبر إن ، وعبد الله وزيد بن علي والأعمش وابن أبي عبلة بالألف ، فجاز أن يكون خبر إن والظرف ملغى ، وإن كان قد أكد بقوله فيها ، وذلك جائز على مذهب سيبويه ، ومنع ذلك أهل الكوفة ، لأنه إذا أكد عندهم لا يلغى ، ويجوز أن يكون في النار خبراً لأن ، وخالدين خبر ثان ، فلا يكون فيه حجة على مذهب سيبويه ، ولما انقضى في هذه السورة وصف المنافقين واليهود وعظ المؤمنين ، لأن الموعظة بعد ذكر المصيبة لها موقع في النفس

---

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله انظر القرطبي (١٨/ ٢٥) .

لرقة القلوب ، والحذر مما يوجب العذاب ، وكرر الأمر بالتقوى على سبيل التوكيد ، أو لاختلاف متعلق التقوى ، فالأولى في أداء الفرائض لأنه مقترن بالعمل ، والثانية في ترك المعاصي ، لأنه مقترن بالتهديد والوعيد . وقرأ الجمهور ولتنظر أمراً ، واللام ساكنة وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بكسرها ، وروي ذلك عن حفص عن عاصم ، والحسن بكسرها وفتح الراء جعلها لام كي ، ولما كان أمر القيامة كائناً لا محالة عبر عنه بالغد ، وهو اليوم الذي يلي يومك على سبيل التقريب . وقال الحسن وقتادة : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد ،ونحوه (كأن لم تغن بالأمس)[يونس ٢٤] يريد تقريب الزمان الماضي . وقيل : عبر عن الآخرة بالغد ، كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بقوله لغد ليوم الموت ، لأنه لكل إنسان كغده . وقال مجاهد وابن زيد : بالأمس الدنيا ، وغد الآخرة . وقال الزمخشري : أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه . انتهى . وقرأ الجمهور (لا تكونوا) بتاء الخطاب ، وأبو حيوة بياء الغيبة على سبيل الالتفات ، وقال ابن عطية : كناية عن نفس التي هي اسم الجنس ، كالذين نسوا هم الكفار وتركوا عبادة الله وامتثال ما أمر ، واجتناب ما نهى وهذا تنبيه على فرط غفلتهم ، واتباع شهواتهم (فأنساهم أنفسهم) حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب ، وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب ، عوقبوا على نسيان جهة الله تعالى بأن أنساهم أنفسهم . قال سفيان : المعنى حظ أنفسهم ، ثم ذكر مباينة الفريقين أصحاب النار في الجحيم ، وأصحاب الجنة في النعيم ، كما قال ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [السجدة ١٨] وقال تعالى : ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص ٢٨] (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) هذا من باب التخييل والتمثيل ، كما مر في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات ﴾ [الأحزاب ٧٢] ودل على ذلك (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر . وقرأ طلحة (مصدعاً) بإدغام التاء في الصاد ، وأبو السمال وأبو دينار الأعرابي (القدوس) بفتح القاف ، والجمهور بالفك والضم ، وقرأ الجمهور (المُؤمن) بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن . وقال ثعلب المصدق المؤمنين في أنهم آمنوا . وقال النحاس : أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة . وقيل : المصدق نفسه في أقواله الأزلية . وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين . وقيل : أبو جعفر المدني (المُؤَمن) بفتح الميم . قال أبو حاتم لا يجوز ذلك ، لأنه لو كان كذلك لكان المؤمن به ، وكان جائزاً لكن المؤمن المطلق بلا حرف جر يكون من كان خائفاً فأومن . وقال الزمخشري : يعني المؤمن به على حذف حرف الجر ، كما تقول في قوم موسى من قوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف ١٥٥] المختارون ، (المهيمن) تقدم شرحه ، (الجبار) القهار الذي جبر خلقه على ما أراد ، وقيل : الجبار الذي لا يدانيه شيء ، ولا يلحق ومنه نخلة جبارة إذا لم تلحق ، وقال امرؤ القيس :

سَوَابِقُ جَبَّارٍ أَتِيثَ فُرُوعَهُ ... وَعَالِينَ قِنْوَاناً مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا[١]

وقال ابن عباس : هو العظيم ، وجبروته عظمته . وقيل : هو من الجبر ، وهو الإصلاح جبرت العظم أصلحته بعد الكسر . وقال الفراء : من أجبره على الأمر قهره ، وقال : ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار ، ودراك انتهى . وسمع أسار فهو أسار . المتكبر : المبالغ في الكبرياء ، والعظمة ، وقيل : المتكبر عن ظلم عباده ، الخالق المقدر لما يوجده . البارىء المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة المصور الممثل . وقرأ عليّ وحاطب بن أبي بلتعة والحسن وابن السميفع (المصوَّر) بفتح الواو والراء وانتصب مفعولاً بالباري ، وأراد به جنس المصور . وعن على فتح الواو وكسر الراء على إضافته اسم الفاعل إلى المفعول نحو الضارب الغلام .

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥٧) القرطبي (١٨/ ٣١) الشاهد في قوله (جبار) .

سورة الممتحنة مدنية وهي ثلاث عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

هذه السورة مدنية ونزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ، كان قد وجه كتاباً مع امرأة إلى أهل مكة يخبرهم بأن رسول الله ـ ﷺ ـ متوجه إليهم لغزوهم ، فأطلع الله رسوله ـ ﷺ ـ على ذلك ، ووجه إلى المرأة من أخذ الكتاب منها ، والقصة مشهورة في كتب الحديث والسير . ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر فيما قبلها حالة المنافقين والكفار ، افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار ، والتودّد إليهم ، وأضاف في قوله (عدوّي) تغليظاً لجرمهم ، وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم ، والعدو ينطلق على الواحد ، وعلى الجمع وأولياء مفعول ثان لتتخذوا . (تلقون) بيان لموالاتهم فلا موضع له من

الإعراب ، أو استئناف إخبار . وقال الحوفي والزمخشري : حال من الضمير في (لا تتخذوا) أو صفة لأولياء ، وهذا تقدّمه إليه الفراء ، قال تلقون إليهم بالمودّة من صلة أولياء انتهى . وعندهم أن النكرة توصل وعند البصريين لا توصل ، بل توصف ، والحال والصفة قيدوهم قد نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً ، والتقييد يدل على أنه يجوز أن يتخذوا أولياء إذا لم يكونوا في حال إلقاء المودة ، أو إذا لم يكن الأولياء متصفين بهذا الوصف ، وقد قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ [المائدة ٥١] فدل على أنه لا يقتصر على تلك الحال ، ولا ذلك الوصف والأولياء عبارة عن الإفضاء بالمودة ، ومفعول تلقون محذوف ، أي : تلقون إليهم أخبار رسول الله ـ ﷺ ـ وأسراره ، والباء في بالمودة للسبب ، أي : بسبب المودة التي بينهم . وقال الكوفيون : الباء زائدة كما قيل في ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة ١٩٥] أي أيديكم قال الحوفي وقال البصريون : هي متعلقة بالمصدرالذي دل عليه الفعل ، وكذلك قوله ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ [الحج ٢٥] أي : إرادته بإلحاد انتهى . فعلى هذا يكون بالمودّة متعلقاً بالمصدر ، أي : إلقاؤهم بالمودّة ، وهذا ليس بجيد ، لأن فيه حذف المصدر ، وهو موصول ، وحذف الخبر إذ إلقاؤهم مبتدأ ، وبما يتعلق به(قد كفروا) جملة حالية ، وذو الحال الضمير في تلقون ، أي : توادونهم وهذه حالهم ، وهي الكفر بالله ولا ينساب الكافر بالله أن يودّ ، وأجاز الزمخشري أن يكون حالاً من فاعل لا تتخذوا . وقرأ الجمهور (بما جاءكم) والجحدري والمعلى عن عاصم لما باللام مكان الباء . أي : لأجل ما جاءكم (يخرجون الرسول) استئناف كالتفسير لكفرهم ، أو حال من ضمير كفروا (وإياكم) معطوف على الرسول ، وقدّم على إياكم الرسول لشرفه ، ولأنه الأصل للمؤمنين به ، ولو تقدّم الضمير لكان جائزاً في العربية، خلافاً لمن خص ذلك بالضرورة ، قال : لأنك قادر على أن تأتي به متصلاً فلا تفصل إلا في الضرورة ، وهو محجوج بهذه الآية ، وبقوله تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ [النساء ١٣١] وقدّم الموصول هنا على المخاطبين للسبق في الزمان ، وبغير ذلك من كلام العرب ، وأن تؤمنوا مفعول من أجله ، أي : يخرجون لإيمانكم ، أو كراهة إيمانكم (إن كنتم خرجتم) شرط جوابه محذوف ، لدلالة ما تقدّم عليه ، وهو قوله (لا تتخذوا عدوي) ونصب جهاداً ، وابتغاء ، على المصدر في موضع الحال ، أي : مجاهدين ومبتغين ، أو على أنه مفعول من أجله . (تسرون) استئناف ، أي : تسرون وقد علمتم أني أعلم الإخفاء والإعلان ، وأطلع الرسول ـ ﷺ ـ على ذلك ، فلا طائل في فعلكم هذا ، وقال ابن عطية : تسرون بدل من تلقون انتهى . وهو شبيه ببدل الاشتمال ، لأن الإلقاء يكون سراً وجهراً ، فهو ينقسم إلى هذين النوعين ، وأجاز أيضاً أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أنتم تسرون ، والظاهر أن أعلم أفعل تفضيل ، ولذلك عداه بالباء ، وأجاز ابن عطية أن يكون مضارعاً عدي بالباء ، قال : لأنك تقول علمت بكذا (وأنا أعلم) جملة حالية ، والضمير في (ومن يفعله منكم) الظاهر أنه إلى أقرب مذكور ، أي : ومن يفعل الإسرار . وقال ابن عطية : يعود على الاتخاذ ، وانتصب سواء على المفعول به على تقدير تعدي ضل ، أو على الظرف على تقدير اللزوم والسواء الوسط . ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، وشرح ما به الولاية من الإلقاء بالمودة بينهم ، وذكر ما صنع الكفار بهم أولاً من إخراج الرسول ـ ﷺ ـ والمؤمنين ذكر صنيعهم آخراً لو قدروا عليه من أنه إن تمكنوا منكم تظهر عداوتهم لكم ، ويبسطوا أيديهم بالقتل والتعذيب ، وألسنتهم بالسب ، وودوا لو ارتددتم عن دينكم الذي هو أحب الأشياء إليكم ، وهو سبب إخراجهم إياكم . قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ، ثم قال : وودّوا بلفظ الماضي (قلت :) الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم ، وارتدادكم يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا ، والدين جميعاً انتهى . وكأن الزمخشري فهم من قوله : وودوا أنه معطوف على جواب الشرط ، فجعل ذلك سؤالاً وجواباً ، والذي يظهر أن قوله (وودّوا) ليس على جواب الشرط ، لأن ودادتهم كفرهم ليست مترتبة على الظفر بهم والتسلط عليهم ، بل هم وادون

كفرهم على كل حال سواء أظفروا بهم ، أم لم يظفروا ، وإنما هو معطوف على جملة الشرط والجزاء ، أخبر تعالى بخبرين أحدهما اتضاح عداوتهم والبسط إليهم ما ذكر على تقدير الظفر بهم ، والآخر ودادتهم كفرهم لا على تقدير الظفر بهم . ولما كان حاطب قد اعتذر بأن له بمكة قرابة فكتب إلى أهلها بما كتب ليرعوه في قرابته ، قال تعالى : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أي : قراباتكم الذين توالون الكفار من أجلهم ، وتتقربون إليهم محاماة عليهم ، ويوم معمول لينفعكم ، أو ليفصل . وقرأ الجمهور (يفصل) بالياء مخففاً مبنياً للمفعول . وقرأ الأعرج وعيسى وابن عامر كذلك ، إلا أنه مشدد ، والمرفوع إما (بينكم) وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني ، وإما ضمير المصدر المفهوم من يفصل ، أي : يفصل هو ، أي : الفصل . وقرأ عاصم والحسن والأعمش يفصل بالياء مخففاً مبنياً للفاعل ، وحمزة والكسائي وابن وثاب مبنياً للفاعل بالياء مضمومة مشدداً ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة كذلك إلا أنه بالنون مشدداً وهما أيضاً ، وزيد بن علي بالنون مفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل ، وأبو حيوة أيضاً بالنون مضمومة ، فهذا ثماني قراءات، ولما نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأن من سيرته التبرؤ من الكفار ، ليقتدوا به في ذلك ويتأسوا . وقرأ الجمهور (إسوة) بكسر الهمزة ، وعاصم بضمها وهما لغتان ، (والذين معه) قيل : من آمن به وقال الطبري وغيره : الأنبياء معاصروه أو كانوا قريباً من عصره ، لأنه لم ير وأنه كان له أتباع مؤمنون في مكافحته لهم ، ولنمروذ ألا تراه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمروذ ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك ، والتأسي بإبراهيم عليه السلام هو في التبرؤ من الشرك ، وهو في كل ملة وبرسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الإطلاق في العقائد ، وأحكام الشرع . وقرأ الجمهور (برآء) جمع بريء ، كظريف وظرفاء ، وعيسى (براء) جمع بريء أيضاً كظريف وظراف ، وأبو جعفر بضم الباء كتؤام وظؤار ، وهم اسم جمع الواحد بريء ، وتوأم وظئر ورويت عن عيسى . قال أبو حاتم : زعموا أن عيسى الهمداني رووا عنه براء على فعال ، كالذي في قوله تعالى ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ [الزخرف ٢٦] في الزخرف ، وهو مصدر على فعال يوصف به المفرد والجمع ، وقال الزمخشري : وبراء على إبدال الضم من الكسر ، كرخال ورباب انتهى ، فالضمة في ذلك ليست بدلاً من كسرة ، بل هي ضمة أصلية ، وهو قريب من أوزان أسماء الجموع ، وليس جمع تكسير فتكون الضمة بدلاً من الكسرة (إلا قول إبراهيم) استثناء من قوله أسوة حسنة ، قاله قتادة والزمخشري . قال مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم : المعنى أن الأسوة لكم في هذا الوجه لا في الوجه الآخر ، لأنه كان لعلمه ليست في نازلتكم . وقال الزمخشري (فإن قلت :) فإن كان قوله لأستغفرن لك مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فما بال قوله فما أملك لك من الله من شيء ، وهو غير حقيق بالاستثناء ، ألا ترى إلى قوله فمن يملك لكم من الله شيئاً . (قلت :) أراد استثناء جملة قوله (لأبيه) والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبني عليه ، وتابع له ، كأنه قال أنا أستغفر لك ، وما في طاقتي إلا الاستغفار انتهى . وقال الزمخشري : أولاً بعد أن ذكر أن الاستثناء هو من قوله (أسوة حسنة) في مقالات قال : لأنه أراد بالأسوة الحسنة فهو الذي حق عليهم أن يأتسوا به ، ويتخذوه سنة يستنون بها انتهى . والذي يظهر أنه مستثنى من مضاف لإبراهيم ، تقديره أسوة حسنة في مقالات إبراهيم ومحاوراته لقومه (إلا قول إبراهيم) لأبيه(لأستغفرن لك) فليس فيه أسوة حسنة ، فيكون على هذا استثناء متصلاً ، وإما أن يكون قول إبراهيم مندرجاً في أسوة حسنة ، لأن معنى الأسوة هو الاقتداء والتأسي ، فالقول ليس مندرجاً تحته ، لكنه مندرج تحت مقالات إبراهيم عليه السلام . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت لم تبق جملة إلا كذا انتهى . وقيل : هو استثناء منقطع المعنى ، لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك فلا تأسوا به فيه ، فتستغفروا وتفدّوا آباءكم الكفار بالاستغفار (ربنا عليك توكلنا) وما بعده الظاهر أنه من تمام قول إبراهيم متصلاً بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة ما يتأسى به فيه ، وفصل بينهما بالاستثناء اعتناء بالاستثناء ، ولقربه من المستثنى منه ، ويجوز أن يكون أمراً من الله للمؤمنين ، أي : قولوا ربنا عليك توكلنا ، علمهم بذلك قطع العلائق التي

بينهم ، وبين الكفار . (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) ، قال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيسبوننا ويعذبوننا . وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ، أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم محقون ، وأنا مبطلون فيفتنوا لذلك ، وقال قريباً منه قتادة ، وأبو مجلز وقول ابن عباس أرجح ، لأنه دعاء لأنفسهم ، وعلى قول غيره دعاء للكافرين ، والضمير في فيهم عائد على إبراهيم والذين معه ، وكررت الأسوة تأكيداً ، وأكدت ذلك بالقسم أيضاً ، ولمن يرجو بدل من ضمير الخطاب بدل بعض من كل . وروي أنه لما نزلت هذه الآية عزم المسلمون على إظهار عداوات أقربائهم الكفار ، ولحقهم هم لكونهم لم يؤمنوا حتى يتوادوا ، فنزل (عسى الله) الآية مؤنسة ومرجئة ، فأسلم الجميع عام الفتح ، وصاروا إخواناً ومن ذكر أن هذه المودة هي تزويج النبي ـ ﷺ ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأنها كانت بعد الفتح فقد أخطأ ، لأن تزويجها كان وقت هجرة الحبشة ، وهذه الآيات سنة ست من الهجرة ، ولا يصح ذلك عن ابن عباس إلا أن يسوقه مثالاً وإن كان متقدماً لهذه الآية ، لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات قاله ابن عطية ، و (عسى) من الله تعالى واجبة الوقوع (والله قدير) على تقليب القلوب وتيسير العسير (والله غفور) لمن أسلم من المشركين . (لا ينهاكم الله) الآية قال مجاهد : نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكانوا في رتبة سوء لتركهم فرض الهجرة . وقيل : في مؤمنين من أهل مكة وغيرها تركوا الهجرة . وقال الحسن وأبو صالح في خزاعة ، وبني الحارث بن كعب ، وكنانة ومزينة ، وقبائل من العرب كانوا مظاهرين للرسول محبين فيه وفي ظهوره . وقيل : فيمن لم يقاتل ، ولا أخرج ولا أظهر سوءاً من كفار قريش . وقال قرة الهمداني وعطية العوفي : في قوم من بني هاشم منهم العباس . وقال عبد الله بن الزبير : في النساء والصبيان من الكفرة . وقال النحاس والثعلبي : أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة . وقيل : قدمت على أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أمّها نفيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا ، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول ، فنزلت الآية ، فأمرها رسول الله ـ ﷺ ـ أن تدخلها منزلها ، وتقبل منها وتكفيها وتحسن إليها . قال ابن عطية : وكانت المرأة فيما روي خالتها فسمتها أمّاً ، وفي التحرير أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ طلق امرأته نفيلة في الجاهلية وهي أم أسماء بنت أبي بكر ، فقدمت في المدة التي فيها الهدنة وأهدت إلى أسماء قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها فنزلت الآية و (أن تبروهم) و (أن تولوهم) بدلان مما قبلهما بدل اشتمال ، قوله عز وجل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

كان صلح الحديبية قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يرد إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة رد إليهم ، فجاءت أم كلثوم وهي بنت عقبة بن أبي معيط وهي أول امرأة هاجرت بعد هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ في هدنة الحديبية ، فخرج في أثرها أخواها عمارة ، والوليد فقالا : يا محمد أوف لنا بشرطنا ، فقالت يا رسول الله حال النساء إلى الضعف كما قد علمت فتردني إلى الكفار يفتنوني عن ديني ، ولا صبر لي ، فنقض الله العهد في النساء ، وأنزل فيهن الآية ، وحكم بحكم رضوه كلهم . وقيل : سبب نزولها سبيعة بنت الحارث الأسلمية جاءت الحديبية مسلمة ، فأقبل زوجها مسافر المخذومي . وقيل : صيفي بن الراهب ، فقال : يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف ، فنزلت بياناً أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء ، وذكر أبو نعيم الأصبهاني أن سبب نزولها أميمة بنت بشر بن عمرو بن عوف امرأة حسان بن الدحداحة ، وسماهن تعالى مؤمنات قبل أن يمتحن ، وذلك لنطقهن بكلمة الشهادة ، ولم يظهر منهن ما ينافي ذلك أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان . وقرىء مهاجرات بالرفع على البدل من المؤمنات ، وامتحانهن قالت عائشة بآية المبايعة ، وقيل : بأن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وقال ابن عباس بالحلف أنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، ورغبة في دين الإسلام ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة وعكرمة : كانت تستحلف أنها ما هاجرت لبغض في زوجها ولا لجريرة جرتها ولا لسبب من أغراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة (الله أعلم بإيمانهن) لأنه تعالى هو المطلع على أسرار القلوب ومخبآت العقائد ، فإن علمتموهن أطلق العلم على الظن الغالب بالحلف ، وظهور الأمارات بالخروج من الوطن ، والحلول في قوم ليسوا من قومها وبين انتفاء رجعهن إلى الكفار أزواجهن ، وذلك هو التحريم بين المسلمة والكافرة . وقرأ طلحة (لا هن يحلان لهم) وانعقد التحريم بهذه الجملة ، وجاء قوله (ولا هم يحلون لهن) على سبيل التأكيد ، وتشديد الحرمة ، لأنه إذا لم تحل المؤمنة للكافر علم أنه لا حل بينهما البتة . وقيل : أفاد قوله (ولا هم يحلون لهن) استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل ، كما هو في الحال ما داموا على الإشراك ، وهن على الإيمان (وآتوهم ما أنفقوا) أمر أن يعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت ، فلا يجمع عليه خسران الزوجة والمالية . قال ابن عباس : أعطى رسول الله ـ ﷺ ـ بعد امتحانها زوجها الكافر ما أنفق عليها ، فتزوجها عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكان إذا امتحنهن أعطى أزواجهن مهورهن . وقال قتادة : الحكم في رد الصداق إنما كان في نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليه الصداق ، والأمر كما قال قتادة ، ثم نفى الحرج في نكاح المؤمنين إياهن إذا آتوهن مهورهن ، ثم أمر تعالى المؤمنين بفراق نسائهن الكوافر عوابد الأوثان . وقرأ الجمهور (تمسكوا) مضارع أمسك ، كأكرم وأبو عمرو ومجاهد بخلاف عنه وابن جبير والحسن والأعرج مضارع مسك مشدّداً ، والحسن أيضاً وابن أبي ليلى وابن عامر في رواية عبد الحميد وأبو عمرو في رواية معاذ (تَمَسَّكوا) بفتح الثلاثة مضارع تمسك محذوف الثاني بتمسكوا ، والحسن أيضاً تمسكوا بكسر السين مضارع مسك ثلاثياً . وقال الكرخي : الكوافر يشمل الرجال والنساء ، فقال له أبو علي الفارسي : النحويون لا يرون هذا إلا في النساء جمع كافرة ، وقال أليس يقال طائفة كافرة ، وفرقة كافرة ، قال أبو علي : فبهت ، فقلت : هذا تأييد انتهى . وهذا الكرخي معتزلي فقيه ، وأبو علي معتزلي فأعجبه هذا التخريج ، وليس بشيء لأنه لا يقال كافرة في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها ، أو يكون محذوفاً مراداً ، أما بغير ذلك فلا يجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث ، والعصم جمع عصمة ، وهي سبب البقاء في الزوجية (وأسألوا ما أنفقتم) أي : واسألوا الكافرين ما أنفقتم على أزواجكم إذا فروا إليهم (وليسألوا) أي : الكفار ما أنفقوا على أزواجهم إذا فروا إلى المؤمنين . ولما تقرر هذا الحكم ، قالت قريش : فيما روى لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ، ولا ندفع لأحد صداقاً ، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى (وإن فاتكم) فأمر تعالى المؤمنين أن يدفعوا من فرت زوجته من المسلمين ففاتت بنفسها إلى الكفار ، وانقلبت من الإسلام ما كان مهرها . قال

الزمخشري : (فإن قلت :) هل لإيقاع شيء في هذا الموضع فائدة ؟ (قلت :) نعم ، الفائدة فيه أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوض منه تغليظاً في هذا الحكم ، وتشديداً فيه انتهى. واللاتي ارتددن من نساء المهاجرين ، ولحقن بالكفار ، أم الحكم بنت أبي سفيان زوج عياض بن شداد الفهري ، وأخت أم سلمة فاطمة بنت أبي أمية زوج عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وعبدة بنت عبد العزى زوج هشام بن العاصي ، وأم كلثوم بنت جرول زوج عمر أيضاً . وذكر الزمخشري : أنهن ست فذكر أم الحكم ، وفاطمة بنت أبي أمية زوج عمر بن الخطاب ، وعبدة وذكر أن زوجها عمرو بن ود ، وكلثوم وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاصي ، أعطى أزواجهن رسول الله ـ ﷺ ـ مهورهن من الغنيمة . وقرأ الجمهور (فعاقبتم) بألف ومجاهد والزهري والأعرج وعكرمة وحميد وأبو حيوة والزعفراني بشد القاف ، والنخعي والأعرج أيضاً وأبو حيوة أيضاً والزهري أيضاً وابن وثاب بخلاف عنه بخف القاف مفتوحة ، ومسروق والنخعي أيضاً والزهري أيضاً بكسرها ، أيضاً (فأعقبتم) على وزن افعل يقال عاقب الرجل صاحبه في كذا ، أي : جاء فعل كل واحد منهما يعقب فعل الآخر ، ويقال أعقب . قال :

وَحَارَدَتِ النُّكْدُ الجِلادُ وَلَمْ يَكُنْ ... لِعُقْبَةِ قِدْرِ المُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ[١]

وعقب أصاب عقبى ، والتعقيب غزو إثر غزو ، وعقب بفتح القاف وكسرها مخففاً . وقال الزمخشري : فعاقبتم من العقبة ، وهي النوبة شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه ، كما يتعاقب في الركوب وغيره ، ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار ، مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا يؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهري يعطي من صداق من لحق بهم ، ومعنى أعقبتم دخلتم في العقبة ، وعقبتم من عقبه إذا قفاه ، لأن كل واحد من المتعاقبين يقفي صاحبه ، وكذلك عقبتم بالتخفيف يقال عقبه يعقبه انتهى . وقال الزجاج : فعاقبتم قاضيتموهم في القتال بعقوبة ، حتى غنمتم ، وفسر غيرها من القراءات لكانت العقبى لكم ، أي : كانت الغلبة لكم حتى غنمتم ، والكفار من قوله : (إلى الكفار) ظاهره العموم في جميع الكفار ، قاله قتادة ومجاهد ، قال قتادة : ثم نسخ هذا الحكم ، وقال ابن عباس : يعطى من الغنيمة قبل أن تخمس . وقال الزهري : من مال الفيء ، وعنه من صداق من لحق بنا . وقيل : الكفار مخصوص بأهل العهد . وقال الزهري اقتطع هذا يوم الفتح . وقال الثوري : لا يعمل به اليوم . وقال مقاتل : كان في عهد الرسول فنسخ : وقال ابن عطية : هذه الآية كلها قد ارتفع حكمها . وقال أبو بكر بن العربي القاضي : كان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة . وقال القشيري : قال قوم : هو ثابت الحكم إلى الآن . (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) كانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وهو على الصفا وعمر أسفل منه يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، وما مست يده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يد امرأة أجنبية قط . وقالت أسماء بنت يزيد بن السكن : كنت في النسوة المبايعات فقلت يا رسول الله ابسط يدك نبايعك ، فقال لي عليه الصلاة والسلام : إني لا أصافح النساء ، لكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن[٢] ، وكانت هند بنت عتبة في النساء ، فقرأ عليهن الآية ، فلما قررهن على أن لا يشركن بالله شيئاً قالت هند : وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال تعني إن هذا بين لزومه ، فلما وقف على السرقة قالت : والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري أيحل لي ذلك ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما

---

(١) البيت من الطويل للكميت بن زيد ، انظر ديوانه ٢٣ اللسان (عقب ــ حرد) وروي (معقب) بدل (يعقب) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٨٣١) وذكر وبنحوه أخرجه البخاري (٥٠٤/٨) في كتاب التفسير باب (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) (٤٨٩١) .

مضى ، وفيما عبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ، قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك . فقال : (ولا يزنين) فقالت : أو تزني الحرة ؟ قال (ولا يقتلن أولادهن) فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر ، فضحك عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : (ولا يأتين ببهتان) فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا يأمر الله إلا بالرشد ، ومكارم الأخلاق . فقال : (ولا يعصينك في معروف) فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ، ومعنى قول هند أوتزني الحرة ، أنه كان في قريش في الإماء غالباً ، وإلا فالبغايا ذوات الربات قد كن حرائر . وقرأ عليّ والحسن والسلمي (ولا يقتلن) مشدداً ، وقتلهن من أجل الفقر والفاقة ، وكانت العرب تفعل ذلك والبهتان قال الأكثرون : أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس منه ، وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك . (بين أيديهن وأرجلن) لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين . وروى الضحاك : البهتان العضه ، لأنها إذا قذفت المرأة غيرها فقد بهتت ما بين يدي المقذوفة ، ورجليها إذا نفت عنها ولداً قد ولدته ، أو ألحقت بها ولداً لم تلده . وقيل : البهتان السحر . وقيل : بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ، وأرجلهن فروجهن ، وقيل : بين أيديهن قبلة ، أو جسة وأرجلهن الجماع ، ومن البهتان الفرية بالقول على أحد من الناس ، والكذب فيما اؤتمنّ عليه من حمل وحيض ، والمعروف الذي نهي عن العصيان فيه ، قال ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم : هو النوح وشق الجيوب ، ووشم الوجوه ، ووصل الشعر ، وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها . وروي أن قوماً من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ، فقيل لهم : لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم ، وعلى أنهم اليهود فسرهم الحسن وابن زيد ومنذر بن سعيد ، لأن غضب الله قد صار عرفاً لهم . وقال ابن عباس : كفار قريش ، لأن كل كافر عليه غضب من الله . وقيل : اليهود والنصارى قد يئسوا من الآخرة . قال ابن عباس : من خيرها وثوابها ، والظاهر أن من في أصحاب القبور لابتداء الغاية ، أي : من لقاء أصحاب القبور ، فمن الثانية كالأولى من الآخرة ، فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم . وقال ابن عرفة : هم الذين قالوا ما يهلكنا إلا الدهر انتهى والكفار على هذا كفار مكة ، لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا هذا آخر العهد به ، لن يبعث أبداً ، وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن . وقيل : من لبيان الجنس ، أي : الكفار الذين هم أصحاب القبور ، والمأيوس منه محذوف أي : كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله ، لأنه إذا كان حياً لم يقبر كان يرجى له أن لا ييأس من رحمة الله إذ هو متوقع إيمانه ، وهذا تأويل مجاهد ، وابن جبير ، وابن زيد . وقال ابن عطية : وبيان الجنس أظهر انتهى . وقد ذكرنا أن الظاهر كون من لابتداء الغاية إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف . وقرأ ابن أبي الزناد (كما يئس الكافر) على الإفراد . والجمهور على الجمع . ولما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيداً لترك موالاتهم ، وتنفير المسلمين عن توليهم وإلقاء المودّة إليهم .

سورة الصف مدنية وهي أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

المرصوص قال الفرّاء والقاضي منذر بن سعيد : هو المعقود بالرصاص . وقال المبرد : رصصت البناء لاءمت بين أجزائه ، وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، قال الراعي :

مَا لَقِيَ الْبِيضُ مِنَ الْحُرْقُوصِ ... بِفَتْحِ بَابِ الْمُغْلَقِ الْمَرْصُوصِ [1]

---

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (حرقص) .

الحرقوص دويبة تولع بالنساء الأبكار . وقيل : هو من الترصيص وهو انضمام الأسنان ﴿ **سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين . إذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله ولو كره المشركون ، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ هذه السورة مدنية في قول الجمهور ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة . وقال ابن يسار : مكية ، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد . وسبب نزولها قول المنافقين للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك ، أو قول شباب من المسلمين فعلنا في الغزو كذا ، ولم يفعلوا ، أو قول ناس وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نعنى فيه ففرض الجهاد ، وأعلم تعالى بحب المجاهدين فكرهه قوم وفر بعضهم يوم أحد ، فنزلت أقوال . الأول لابن زيد ، والثاني لقتادة ، والثالث لابن عباس وأبي صالح ، ومناسبتها الآخر السورة قبلها أن في آخر تلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ [المجادلة ١٤] فاقتضى ذلك إثبات العداوة بينهم ، فحض تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنون في الحرب أعداءهم ، والنداء بيا أيها الذين آمنوا ، إن كان للمؤمنين حقيقة فالاستفهام يراد به التلطف في العتب ، وإن كان للمنافقين فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا ، أي : بألسنتهم والاستفهام يراد به الإنكار والتوبيخ وتهكم بهم في إسناد الإيمان إليهم ، ولم يتعلق بالفعل وحده وقف عليه بالهاء أو بسكون الميم ، ومن سكن في الوقف فلإجرائه مجرى الوقف ، والظاهر انتصاب مقتاً على التمييز ، وفاعل كبر أن تقولوا ، وهو من التمييز المنقول من الفاعل ، والتقدير كبر مقت قولكم ما لا تفعلون ، ويجوز أن يكون من باب نعم وبئس ، فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالتمييز ، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم ، أي : بئس مقتاً قولكم كذا ، والخلاف الجاري في المرفوع في بئس رجلاً زيد جار في أن تقولوا هنا ، ويجوز أن يكون في كبر ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله (لم تقولون) أي : كبر هو أي القول مقتاً ، ومثله ﴿ كبرت كلمة ﴾ [الكهف ٥] أي : : ما أكبرها كلمة ، و (أن تقولوا) بدل من المضمر ، أو خبر ابتداء مضمر . وقيل : هو من أبنية التعجب ، أي : ما أكبره مقتاً . وقال الزمخشري : قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله :

غَلَتْ نَابَ كُلَيْبٍ بَوَاؤُهَا[1]

ومعنى التعجيب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظرائه وأشكاله ، وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتاً على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشدّ البغض ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كثيراً حتى جعل أشدّه وأفحشه ، وعند الله أبلغ

---

(١) عجز بيت من الطويل لرجل من بني بكر انظر الكشاف (٤/٥٢٣) .

من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته انتهى . وقال ابن عطية : والمقت البغض من أجل ذنب ، أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت انتهى . وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كل أحد انتهى . وقرأ زيد بن عليّ (يقاتَلون) بفتح التاء ، وقيل : قرىء (يقتلون وانتصب صفاً على الحال ، أي : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين كأنهم فيء في تراصهم من غير فرجة ولا خلل بنيان رص بعضه إلى بعض ، والظاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص . وقيل : المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصـوص . قيل : وفيه دليل على فضل القتال راجلاً ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة ، و (صفاً) و (كأنهم) قال الزمخشري : حالان متداخلان . وقال الحوفي : كأنهم في موضع النعت لصفاً انتهى . ويجوز أن يكونا حالين من ضمير يقاتلون ، ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل وهو راجع إلى الكذب فإن ذلك في معنى الإذاية للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ كان في اتباعه من عانى الكذب فناسب ذكر قصة موسى ، وقوله لقومه : (لم تؤذونني) وإذايتهـم له كان بانتقاصه في نفسه ، وجحود آيات الله تعالى ، واقتراحهم عليه ما ليس لهم اقتراحه (وقد تعلمون) جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكريمه ، فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية ، وقد تدل على التحقيق في المـاضي والتوقـع في المضارع ، والمضارع هنا معناه المضي ، أي : وقد علمتم كقوله ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ [النور ٦٤] أي : قد علم ﴿ قد نرى تقلب ﴾ [البقرة ١٤٤] وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب الفعل (فلما زاغوا) عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) . قال الزمخشري : بأن منع ألطافه (والله لا يهدي القوم الفاسقين) لا يلطف بهم ، لأنهم ليسوا من أهل اللطف ، وقال غيره : أسند الزيغ إليهم ، ثم قال أزاغ الله كقوله تعالى (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)[الحشر ١٩] وهو من العقوبة على الذنب بالذنب بخلاف قوله ﴿ ثم تاب الله عليهم ليتوبوا ﴾ [التوبة ١١٨] ولما ذكر شيئاً من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ذكر أيضاً شيئاً من قصة عيسى عليه السلام ، وهناك قال (يا قوم) لأنه من بني إسرائيل وهنا قال عيسى (يا بني إسرائيل) من حيث لم يكن له فيهم أب ، وإن كانت أمه منهم ، و (مصدقاً) و (مبشراً) حالان ، والعامل رسول ، أي : مرسل ويأتي و (اسمه) جملتان في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية ، ولمن تأخر من النبي المذكور ، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته . وروي أن الحواريين قالوا : يا رسول الله هل بعدنا من أمة : قال نعم ، أمة أحمد ـ ﷺ ـ حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل ، وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم ، أو من أحمد أفعل التفضيل ، وقال حسان :

صَلَّى الإِلَهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ ... وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ(١)

وقال القشيري : بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ـ ﷺ ـ والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأن آخر نبي قبل نبينا ـ ﷺ ـ فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام ، والظاهر أن الضمير المرفوع في جاءهم يعود على عيسى ، لأنه المحدث عنه . وقيل : يعود على أحمد لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد ـ ﷺ ـ وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين ، أي : فلما جاء المبشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة (قالوا هذا سحر مبين) ، وقرأ الجمهور (سحر) أي : ما جاء به من البينات . وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب (ساحر) أي : هذا الحال ساحر . وقرأ الجمهور : (يدعي) مبنياً للمفعول ، وطلحة (يدعي) مضارع ادعى مبنياً للفاعل ، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به ، لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب عدي بإلى . وقال الزمخشري أيضاً وقرأ طلحة بن مصرف : (وهو يدّعي) بشد الدال بمعنى يدعي دعاه وادعاه نحو لمسه والتمسه . (يريدون) الآية تقدم

---

(١) البيت من الكامل انظر ديوانه (٦٦) روح المعاني (٢٧/ ٨٦) .

تفسير نظيرها في سورة التوبة . وقال الزمخشري : أصله يريدون أن يطفئوا كما جاء في سورة براءة، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك جئتك لأكرمك ، كما زيدت اللام في لا أبا لك تأكيداً لمعنى الإضافة في لا أبا لك انتهى . وقال نحوه ابن عطية ، قال : واللام في قوله (ليطفئوا) لام مؤكدة دخلت على المفعول ، لأن التقدير يريدون أن يطفئوا، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، تقول لزيد ضربت ولرؤيتك قصرت انتهى . وما ذكره ابن عطية من أن هذه اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر ، بل الأكثر زيداً ضربت من لزيد ضربت ، وأما قولهما إن اللام للتأكيد ، وأن التقدير أن يطفئوا فالإطفاء مفعول يريدون، فليس بمذهب سيبويه والجمهور . وقال ابن عباس وابن زيد : هنا يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول . وقال السدي : يريدون دفع الإسلام بالكلام . وقال الضحاك : هلاك الرسول ـ ﷺ ـ بالأراجيف ، وقال ابن بحر : إبطال حجج الله بتكذيبهم وعن ابن عباس بسبب نزولها أن الوحي أبطأ أربعين يوماً ، فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول ـ ﷺ ـ فنزلت ، واتصل الوحي . وقرأ العربيان ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن (متم) بالتنوين (نوره) بالنصب ، وباقي السبعة والأعمش بالإضافة . وقرأ الجمهور (تنجيكم) مخففاً ، والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر مشدداً ، والجمهور (تؤمنون) (وتجاهدون) وعبد الله (آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا) أمرين وزيد بن علي بالتاء ، فيهما محذوف النون فيهما ، فأما توجيه قراءة الجمهور فقال المبرد : هو بمعنى آمنوا على الأمر ، ولذلك جاء يغفر مجزوماً انتهى . فصورته صورة الخبر ، ومعناه الأمر ، ويدل عليه قراءة عبد الله ، ونظيره قوله : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه ، أي : ليتق الله وجيء به على صورة الخبر . قال الزمخشري : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وهاد موجودين ، ونظيره قول الداعي غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت انتهى . وقال الأخفش : هو عطف بيان على تجارة ، وهذا لا يتخيل إلا على تقدير أن يكون الأصل أن تؤمنوا ، حتى يتقدر بمصدر ، ثم حذف أن فارتفع الفعل كقوله :

أَلَا أَيُّهذا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَى[1]

يريد أن أحضر ، فلما حذف أن ارتفع الفعل ، فكان تقدير الآية هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم إيمان بالله ورسوله وجهاد . وقال ابن عطية : تؤمنون فعل مرفوع تقديره ذلك أنه تؤمنون انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه حذف المبتدأ وحذف أنه وإبقاء الخبر ، وذلك لا يجوز . وقال الزمخشري : وتؤمنون استئناف ، كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال تؤمنون ، ثم اتبع المبرد فقال : هو خبر في معنى الأمر ، وبهذا أجيب بقوله (يغفر لكم) انتهى . وأما قراءة عبد الله فظاهرة المعنى ، وجواب الأمر يغفر ، وأما قراءة زيد فتتوجه على حذف لام الأمر التقدير لتؤمنوا كقول الشاعر :

قُلْتُ لِبَوَّابٍ عَلَى بَابِهَا ... تَأذن لِي إنِّي مِنْ أَحْمَائِهَا[2]

يريد لتأذن ويغفر مجزوم على جواب الأمر في قراءة عبد الله وقراءة زيد وعلى تقدير المبرد . وقال الفراء : هو مجزوم

---

(١) صدر بيت من الطويل لطرفة ، وعجزه :

.... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

انظر أمالي الشجري (١/٨٣) ابن يعيش (٢/٧) ـ (٤/٢٨) الخزانة (١/٥٧) الهمع (١/٥) العيني (٤/٤٠٢) شرح شواهد المغني (٢٦٧٠) .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٧/٨٩) .

على جواب الاستفهام ، وهو قوله : (هل أدلكم) واستبعد هذا التخريج . قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال المهدوي : إنما يصح حملاً على المعنى ، وهو أن يكون يؤمنون وتجاهدون عطف بيان على قوله : (هل أدلكم) كان التجارة لم يدر ما هي فبينت بالإيمان ، والجهاد ، فهي هما في المعنى ، فكأنه قال : هل تؤمنون وتجاهدون ؟ قال : فإن لم تقدر هذا التقدير لم يصح ، لأنه يصير إن دللتم يغفر لكم ، والغفران إنما يجب بالقبول والإيمان لا بالدلالة . وقال الزمخشري نحوه ، قال وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، فكأنه قال : هل تتحرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ؟ انتهى . وتقدم شرح بقية الآية ، ولما ذكر تعالى ما يمنعهم من الثواب في الآخرة ذكر ما يسرهم في العاجلة ، وهي ما يفتح عليهم من البلاد وأخرى صفة المحذوف ، أي : ولكم مثوبة أخرى أو نعمة أخرى عاجلة إلى هذه النعمة الآجلة ، فأخرى مبتدأ وخبره المقدر لكم وهو قول الفراء ، ويرجحه البدل منه بقوله : (نصر من الله) وتحبونها صفة ، أي : محبوبة إليكم ، وقال قوم (وأخرى) في موضع نصب بإضمار فعل ، أي : ويمنحكم أخرى ، ونصر خبر مبتدأ ، أي : ذلك أهو نصر . وقال الأخفش : وأخرى في موضع جر عطفاً على تجارة ، وضعف هذا القول ، لأن هذه الأخرى ليست مما دل عليه إنما هي من الثواب الذي يعطيهم الله على الإيمان والجهاد بالنفس والمال . وقرأ الجمهور (نصرٌ) بالرفع ، وكذا (وفتح قريب) وابن أبي عبلة بالنصب فيها ثلاثتها ووصف أخرى بتحبونها ، لأن النفس قد وكلت بحب العاجل ، وفي ذلك تحريض على ما يحصل ذلك وهو الإيمان والجهاد . وقال الزمخشري : وفي تحبونا شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، قال : (فإن قلت) لم نصب من قرأ نصراً من الله وفتحاً قريباً ؟ (قلت :) يجوز أن ينصب على الاختصاص ، أو على ينصرون نصراً ، ويفتح لكم فتحاً ، أو على يغفر لكم ، ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى ، نصراً وفتحاً قريباً : (فإن قلت :) علام عطف قوله (وبشر المؤمنين) ؟ (قلت :) على تؤمنون ، لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله ، وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك انتهى .

(كونوا أنصار الله) ندب المؤمنين إلى النصرة ، ووضع لهم هذا الاسم ، وإن كان قد صار عرفاً للأوس والخزرج ، وسماهم الله به . وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو الحرميان (أنصاراً لله) بالتنوين ، والحسن والجحدري وباقي السبعة بالإضافة إلى الله ، والظاهر أن كما في موضع نصب على إضمار ، أي : قلنا لكم ذلك كما قال عيسى . وقال مكي : نعت لمصدر محذوف ، والتقدير كونوا كوناً ، وقيل : نعت لأنصاراً ، أي : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال مَن أنصاري إلى الله انتهى . والحواريون : اثنا عشر رجلاً ، وهم أول من آمن بعيسى ، بثهم عيسى في الآفاق بعث بطرس وبولس إلى رومية واندراوس ، ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس ، وبوقاس إلى أرض بابل ، وفيلبس إلى قرطاجنة ، وهي إفريقية ويحنس إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف ، ويعقوبين إلى بيت المقدس ، وابن بليمن إلى أرض الحجاز ، وتستمر إلى أرض البربر وما حولها ، وفي بعض أسمائهم إشكال من جهة الضبط فليلتمس ذلك من مظانه .

(فأيدنا الذين آمنوا) بعيسى (على عدوّهم) وهم الذين كفروا بعيسى ، (فأصبحوا ظاهرين) أي : قاهرين لهم مستولين عليهم . وقال زيد بن عليّ وقتادة : ظاهرين غالبين بالحجة والبرهان . وقيل : أيدنا المسلمين على الفرقتين الضالتين والله أعلم .

سورة الجمعة مدنية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

السفر : الكتاب المجتمع الأوراق منضدة .

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ، هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يـ ملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ، قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ هذه السورة مدنية . وقيل : مكية وهو خطأ ، لأن أمر اليهود وانفضاض الناس في الجمعة لم يكن إلا بالمدينة . ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم ، أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه ، وذكر ما أنعم به على أمّة محمد ـ ﷺ ـ من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتزكيتهم ، فصارت أمّته غالبة سائر الأمم ، وقاهرة لها ، منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم . وقرأ الجمهور (الملكِ) بجرّه وجر ما بعده ، وأبو وائل ومسلمة بن محارب ورؤبة وأبو الدّينار الأعرابي بالرفع على إضمار هو ، وحسنه الفصل الذي فيه طول بين الموصوف والصفة ، وكذلك جاء عن يعقوب . وقرأ أبو الدينار وزيد بن عليّ (القَدوس) بفتح القاف ، والجمهور بالضم . (هو الذي بعث) الآية تقدم الكلام في نظيرها في آل عمران ، وفي نسبة الأمّي وآخرين ، الظاهر أنه معطوف على الأميين ، أي : وفي آخرين من الأمّيين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون . وقيل : (وآخرين) منصوب معطوف على الضمير في ويعلمهم ، أسند تعليم الآخرين إليه عليه الصلاة والسلام مجازاً لما تناسق التعليم إلى آخر الزمان ، وتلا بعضه بعضاً ، فكأنه عليه الصلاة والسلام وجد منه . وقال أبو هريرة وغيره : وآخرين هم فارس ، وجاء نصاً عنه في صحيح البخاري ومسلم ، ولو فهم منه الحصر في فارس لم يجز أن يفسر به الآية ، ولكن فهم المفسرون منه أنه تمثيل . فقال مجاهد وابن جبير : الروم والعجم . وقال مجاهد أيضاً وعكرمة ومقاتل : التابعين من أبناء العرب ، لقوله : (منهم) أي : في النسب . وقال مجاهد أيضاً والضحاك وابن حبان : طوائف من الناس . وقال ابن عمر : أهل اليمن وعن مجاهد أيضاً أبناء الأعاجم ، وعن ابن زيد أيضاً : هم التابعون ، وعن الضحاك أيضاً : العجم ، وعن أبي روق : الصغار بعد الكبار ، وينبغي أن تحمل هذه الأقوال على التمثيل ، كما حملوا قول الرسول ـ ﷺ ـ في فارس وهو العزيز الحكيم في تمكينه رجلاً أمّياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده واختياره من سائر البشر . (ذلك فضل الله) أي : إيتاء النبوة ، وجعله خير خلقه واسطة بينه وبين خلقه (مثل الذين حملوا التوراة) هم اليهود المعاصرون للرسول ـ ﷺ ـ كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها ، ولم يطيقوا القيام بها حين كذّبوا الرسول ـ ﷺ ـ وهي ناطقة بنبوته . وقرأ الجمهور (حملوا) مشدداً مبنياً للمفعول ، ويحيى بن يعمرو وزيد بن عليّ مخففاً مبنياً للفاعل شبه صفتهم بصفة الحمار الذي يحمل كتباً ، فهو لا يدري ما عليه أكتب هي أم صخر وغير ذلك ، وإنما يدرك من ذلك ما يلحقه من التعب بحملها . وقال الشاعر في نحو ذلك :

زَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ ... بِجِيدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا ... بِأَوْسَاقِهِ أَوْرَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ[1]

وقرأ عبد الله (حمار) منكراً ، والمأمون بن هارون يحمل بشد الميم مبنياً للمفعول . والجمهور : (الحمار) معرفاً ، ويحمل مخففاً مبنياً للفاعل ، ويحمل في موضع نصب على الحال . قال الزمخشري : أو الجر على الوصف ، لأن الحمار كاللئيم في قوله :

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي[2]

انتهى . وهذا الذي قاله قد ذهب إليه بعض النحويين ، وهو أن مثل هذا من المعارف يوصف بالجمل ، وحملوا عليه ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس ٣٧] وهذا وأمثاله عند المحققين في موضع الحال لا في موضع الصفة ، ووصفه

(١) انظر أسرار البلاغة (١٣١) المصون (١١) اللسان (زمل) روح المعاني (٢٧/٩٥) القرطبي (١٨/٦٢) .
(٢) تقدم .

بالمعرفة ذي اللام دليل على تعريفه مع ما في ذلك المذهب من هدم ما ذكره المتقدمون من أن المعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة ، والجمل نكرات ، (بئس مثل القوم) قال الزمخشري : بئس مثلاً مثل القوم انتهى ، فخرجه على أن يكون التمييز محذوفاً ، وفي بئس ضمير يفسره مثلاً الذي ادعى حذفه ، وقد نص سيبويه على أن التمييز الذي يفسره الضمير المستكن في نعم وبئس وما أجرى مجراهما لا يجوز حذفه . وقال ابن عطية : والتقدير بئس المثل مثل القوم انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه حذف الفاعل ، وهو لا يجوز ، والظاهر أن مثل القوم فاعل بئس ، والذين كفروا هو المخصوص بالذم على حذف مضاف ، أي : مثل الذين كذبوا بآيات الله ، وهم اليهود ، أو يكون الذين كذبوا صفة للقوم ، والمخصوص بالذم محذوف التقدير ، بئس مثل القوم المكذبين مثلهم ، أي : مثل هؤلاء الذين حملوا التوراة . روى أنه لما ظهر رسول الله ـ ﷺ ـ كتبت يهود المدينة ليهود خيبر إن اتبعتموه أطعناكم ، وإن خالفتموه خالفناه ، فقالوا لهم : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير بن الله ، والأنبياء ، متى كانت النبوة في العرب ، نحن أحق بها من محمد ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت (قل يا أيها الذين هادوا) وكانوا يقولون : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة ١٨] ، وإن كان قولكم حقاً فتمنوا أن تنقلوا سريعاً إلى دار كرامته المعدة لأوليائه ، وتقدم تفسير نظير بقية الآية في سورة البقرة . وقرأ الجمهور (فتمنوُا الموت) بضم الواو ، وابن يعمر وابن أبي إسحاق ابن السميقع بكسرها ، وعن ابن السميفع أيضاً فتحها . وحكى الكسائي عن بعض الأعراب أنه قرأ بالهمز مضمومة بدل الواو ، وهذا كقراءة من قرأ (تلؤون) بالهمز بدل الواو . قال الزمخشري : ولا فرق بين لا ، ولن في أن كل واحد منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فأتى مرة بلفظ التأكيد ﴿ ولن يتمنوه ﴾ [البقرة ٩٥] ومرة بغير لفظه (ولا يتمنونه) وهذا منه رجوع عن مذهبه في أن لن تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة في أنها لا تقتضيه ، وأما قوله إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فيحتاج ذلك إلى نقل عن مستقري اللسان .

وقرأ الجمهور (فإنه) والفاء دخلت في خبر إن إذا جرى مجرى صفته ، فكان إن باشرت الذي ، وفي الذي معنى الشرط فدخلت الفاء في الخبر ، وقد منع هذا قوم منهم الفراء ، وجعلوا الفاء زائدة . وقرأ زيد بن علي (إنه) بغير فاء ، وخرجه الزمخشري على الاستئناف ، وخبر (إن) هو (الذي) كأنه قال : قل إن الموت هو الذي تفرون منه انتهى . ويحتمل أن يكون خبر (إن) هو قوله (إنه ملاقيكم) فالجملة خبر (إن) ويحتمل أن يكون (إنه) توكيداً لـ (إن الموت) و (ملاقيكم) خبر (إن) لما طال الكلام أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي (لأن) ، (إذا نودي) أي : إذا أذن ، وكان الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وكذا كان في زمن الرسول ـ ﷺ ـ كان إذا صعد على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل بعد الخطبة أقيمت الصلاة ، وكذا كان في عهد أبي بكر وعمر إلى زمان عثمان كثر الناس ، وتباعدت المنازل فزاد مؤذناً آخر على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا جلس على المنبر أذن الثاني ، فإذا نزل من المنبر أقيمت الصلاة ولم يعب ذلك أحد على عثمان ـ رضي الله عنه ـ (فإن قلت :) من في قوله (من يوم الجمعة) ما هي ؟ (قلت :) هي بيان لإذا ، وتفسير له انتهى . وقرأ الجمهور (الجمُعة) بضم الميم ، وابن الزبير وأبو حيوة وابن أبي عبلة ، ورواية عن أبي عمرو وزيد بن علي والأعمش بسكونها ، وهي لغة تميم ، ولغة بفتحها لم يقرأ بها ، وكان هذا اليوم يسمى عروبة ، ويقال العروبة . قيل : أول من سماه الجمعة كعب بن لؤي ، وأول جمعة صليت جمعة سعد بن أبي زرارة ، صلى بهم ركعتين ، وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة ، فهي أول جمعة جمعت في الإسلام ، وأما أول جمعة جمعها رسول الله ـ ﷺ ـ فإنه لما قدم المدينة نزل بقباء على بني عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة ، فأدرك صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم ، فخطب وصلى الجمعة ، والظاهر وجوب السعي لقوله تعالى : (فاسعوا إلى ذكر الله) وأنه يكون في المشي خفة وبدار . وقال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم : إنما تؤتى الصلاة بالسكينة ، والسعي هو بالنية والإرادة والعمل وليس

الإسراع في المشي ، كالسعي بين الصفا والمروة ، وإنما هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم ٣٩] فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشي كله سعي ، والظاهر أن الخطاب بالأمر بالسعي للمؤمنين عموماً ، وأنها فرض على الأعيان وعن بعض الشافعية أنها فرض كفاية ، وعن مالك رواية شاذة أنها سنة . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : ثبت عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : الرواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم ، وقالوا : المأمور بالسعي المؤمن الصحيح الحر الذكر المقيم ، فلو حضر غيره أجزأتهم انتهى . والمسافة التي يسعى منها إلى صلاة الجمعة لم تتعرض الآية لها ، واختلف الفقهاء في ذلك . فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس والزهر : ستة أميال . وقيل : خمسة ، وقال ربيعة : أربعة أميال . وروى ذلك عن الزهري وابن المنكدر . وقال مالك والليث : ثلاثة . وقال أبو حنيفة وأصحابه على من في المصر سمع النداء أو لم يسمع ، لا على من هو خارج المصر ، وإن سمع النداء ، وعن ابن عمر وابن المسيب والزهري وأحمد وإسحاق على من سمع النداء . وعن ربيعة على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة . وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين (فامضوا) بدل (فاسعوا) وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث إنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي ، ففسروه بالمضي ، ولا يكون قرآناً لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون ، وذكر الله هنا الخطبة ، قاله ابن المسيب ، وهي شرط في انعقاد الجمعة عند الجمهور . وقال الحسن هي مستحبة ، والظاهر أنه يجزىء من ذكر الله تعالى ما يسمى ذكراً . قال أبو حنيفة : لو قال الحمد لله ، أو سبحان الله ، واقتصر عليه جاز ، وقال غيره لا بد من كلام يسمى خطبة ، وهو قول الشافعي وأبي سفيان ، ومحمد بن الحسن ، والظاهر تحريم البيع ، وأنه لا يصح . وقال ابن العربي : يفسخ وهو الصحيح وقال الشافعي : ينعقد ولا يفسخ ، وكلما يشغل من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ ورعاً انتهى . وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون الأمصار من القرى ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ونهوا عن تجارة الدنيا ، وقت التحريم من الزوال إلى الفراغ من الصلاة ، قاله الضحاك ، والحسن وعطاء . وقال ناس غيرهم من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ ، والإشارة بذلكم إلى السعي ، وترك البيع ، والأمر بالانتشار ، والابتغاء أمر إباحة ، وفضل الله هو ما يلبسه في حالة حسنة ، كعيادة المريض ، وصلة صديق ، واتباع جنازة ، وأخذ في بيع وشراء ، وتصرفات دينية ودنيوية ، فأمر مع ذلك بإكثار ذكر الله . وقال مكحول والحسن وابن المسيب : الفضل المأمور بابتغائه هو العلم . وقال جعفر الصادق : ينبغي أن يكون فجر صبح يوم السبت ، ويعني أن يكون بقية يوم الجمعة في عبادة . وروى أنه كان أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بعير تحمل ميرة . قال مجاهد : وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من درابها ، فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه ، وتركوه ـ ﷺ ـ قائماً على المنبر في اثني عشر رجلاً . قال جابر أنا أحدهم . قال أبو بكر غالب بن عطية هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، والحادي عشر قيل : عمار . وقيل : ابن مسعود . وقيل : ثمانية قالوا فنزلت (وإذا رأوا تجارة) ، وقرأ الجمهور : (إليها) بضمير التجارة ، وابن أبي عبلة (إليه) بضمير اللهو ، وكلاهما جائز نص عليه الأخفش عن العرب . وقال ابن عطية : وقال إليها ، ولم يقل إليهما تهمماً بالأهم ، إذا كانت سبب اللهو ، ولم يكن اللهو سببها ، وتأمّل أن قدّمت التجارة على اللهو في الرؤية ، لأنها أهم ، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين انتهى . وفي قوله (قائماً) دلالة على مشروعية القيام في الخطبة ، وأول من استراح في الخطبة عثمان ، وأول من خطب جالساً معاوية ، وقرىء إليهما بالتثنية للضمير ، كقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ [النساء ١٣٥] وتخريجه على أن يتجوّز بأو فتكون بمعنى الواو ، وقد تقدّم غير هذا التخريج في قوله : (فالله أولى بهما) في موضعه في سورة النساء . وناسب ختمها بقوله (والله خير الرازقين) لأنهم كانوا قد مسهم شيء من غلاء الأسعار ، كما تقدم في سبب النزول وقد ملأ المفسرون كثيراً من أوراقهم بأحكام ، وخلاف في مسائل الجمعة مما لا تعلق لها بلفظ القرآن .

سورة المنافقون مدنية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

الجسم والخشب معرفان أسندت ظهري إلى الحائط أملته وأضفته إليه ، وتساند القوم اصطفوا وتقابلوا للقتال .

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ، يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ هذه السورة مدنية ، نزلت في غزوة بني المصطلق ، كانت من عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه فيها أقوال فنزلت . وسبب نزولها مذكور في قصة طويلة من مضمونها أن اثنين من الصحابة ازدحما على ماء ، وذلك في غزوة بني المصطلق ، فشج أحدهما الآخر، فدعا المشجوج يا للأنصار، والشاج يا للمهاجرين، فقال عبد الله بن أبي بن سلول ما حكى الله تعالى عنه من قوله : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقوله : (ليخرجن الأعز منها الأذل) وعنى الأعز نفسه ، وكلاماً قبيحاً فسمعه زيد بن أرقم ، ونقل ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فلام رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله ، فحلف ما قال شيئاً من ذلك ، فاتهم زيد ، فأنزل الله تعالى : (إذا جاءك المنافقون) إلى قوله (لا يعلمون) تصديقاً لزيد ، وتكذيباً لعبد الله بن أبي . ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً عن المنافقين، واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك ، وذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة إذ كان وقت مجاعة ، جاء ذكر المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبعه بقبائح أفعالهم ، وقولهم (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) إذ كانوا هم أصحاب أموال ، والمهاجرون فقراء قد تركوا أموالهم ، ومتاجرهم ، وهاجروا لله تعالى . (قالوا نشهد) يجري مجرى اليمين ، ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، وكذا فعل اليقين والعلم يجري مجرى القسم بقوله (إنك لرسول الله) وأصل الشهادة أن يواطىء اللسان القلب هذا بالنطق ، وذلك بالاعتقاد ، فأكذبهم الله وفضحهم بقوله : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أي : لم تواطىء قلوبهم ألسنتهم على تصديقك ، واعتقادهم أنك غير رسول ، فهم كاذبون عند الله ، وعند من خبر حالهم ، أو كاذبون عند أنفسهم ، إذا كانوا يعتدون أن قولهم : إنك لرسول الله كذب ، وجاء بين شهادتهم وتكذيبهم قوله تعالى : (والله يعلم إنك لرسوله) إيذاناً أن الأمر كما لفظوا به من كونه رسول الله حقاً ، ولم تأت هذه الجملة لتوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسطت الأمر بينهما ليزول ذلك التوهم ، (اتخذوا أيمانهم) سمى شهادتهم تلك أيماناً . وقرأ الجمهور (أيمانهم) بفتح الهمزة جمع يمين ، والحسن بكسرها مصدر آمن ، ولما ذكر أنهم كاذبون أتبعهم بموجب كفرهم ، وهو اتخاذ أيمانهم جنة ، يستترون بها ، ويذبون بها عن أنفسهم ، وأموالهم ، كما قال بعض الشعراء :

وَمَا انْتَسَبُوا إِلَى الإِسْلَامِ إِلَّا ... لِصَوْنِ دِمَائِهِمْ أَن لَّا تُسَالَا(١)

ومن أيمانهم أيمان عبد الله ، ومن حلف معه من قومه أنه ما قال ما نقله زيد بن أرقم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ جعلوا تلك الأيمان جنة ، تقي من القتل . وقال أعشى همذان :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِعَرْضِكَ جُنَّةً ... مِنَ الْمَالِ سَارَ الْقَوْمُ كُلَّ مَسِيرِ(٢)

وقال الضحاك : اتخذوا حلفهم بالله إنهم لمنكم . وقال قتادة : كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم . وقال السدي : جنة من ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا (فصدوا) أي : أعرضوا وصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام (ذلك) أي : ذلك الحلف الكاذب ، والصد المقتضيان لهم سوء العمل بسبب إيمانهم ، ثم كفرهم ، وقال ابن عطية : ذلك إشارة إلى فعل الله بهم في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة

---

(١) تقدم .

(٢) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر المصون .

إلى سوء ما عملوا فالمعنى ساء عملهم بأن كفروا . وقال الزمخشري : ذلك لقول عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم آمنوا ، ثم كفروا ، أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستخفاف بالأيمان ، أي : ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا . وقرأ الجمهور (فطبع) مبنياً لمفعول ، وزيد بن علي مبنياً للفاعل ، أي : فطبع الله ، وكذا قراءة الأعمش وزيد في رواية مصرحاً بالله ، ويحتمل على قراءة زيد الأولى أن يكون الفاعل ضميراً يعود على المصدر المفهوم من ما قبله ، أي : فطبع هو ، أي : بلعبهم بالدين ، ومعنى (آمنوا) نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل المسلمون (ثم كفروا) أي : ظهر كفرهم بما نطقوا به من قولهم : لئن كان محمد ما يقوله حقاً فنحن شر من الحمير ، وقولهم : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، وبالكفر عند شياطينهم ، أو ذلك فيمن آمن ثم ارتد . (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ أو للسامع ، أي : لحسنها ونضارتها وجهارة أصواتهم ، فكان منظرهم يروق ، ومنطقهم يحلو . وقرأ الجمهور (تسمع) بتاء الخطاب ، وعكرمة وعطية العوفي (يسمع) بالياء مبنياً للمفعول ، ولقولهم الجار والمجرور هو المفعول الذي لم يسم فاعله ، وليست اللام زائدة ، بل ضمن يسمع معنى يصغ ويمل ، تعدى باللام وليست زائدة ، فيكون قولهم هو المسموع ، وشبهوا بالخشب لعزوب إفهامهم ، وفراغ قلوبهم من الإيمان ، ولم يكف حتى جعلها مسندة إلى الحائط لا انتفاع بها ، لأنها إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها ، وأما إذا كانت غير منتفع بها فإنها تكون مهملة مسندة إلى الحيطان ، أو ملقاة على الأرض قد صففت أو شبهوا بالخشب التي هي الأصنام ، وقد أسندت إلى الحيطان ، والجملة التشبيهية مستأنفة أو على إضمارهم . وقرأ الجمهور (خُشُب) بضم الخاء والشين ، والبراء بن عازب والنحويان وابن كثير بإسكان الشين ، تخفيف خشب المضموم . وقيل : جمع خشباء كحمر جمع حمراء ، وهي الخشبة التي نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم . وقرأ ابن المسيب وابن جبير (خَشَب) بفتحتين اسم جنس الواحد خشبة ، وأنت وصفه كقوله (أعجاز نخل خاوية) أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ، وذكر ممن كان ذا بهاء وفصاحة عبد الله بن أبي ، والجد بن قيس ومعتب بن قشير ، قال الشاعر في مثل هؤلاء :

لَا تَخْدَعَنْكَ اللُّحَى وَلَا الصُّوَرْ ... تِسْعَةُ أَعْشَارِ مَنْ تَرَى بَقَرْ
تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مُنْتَشِراً ... وَلَيْسَ فِيهَا لِطَالِبٍ مَطَرْ
فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَهُ ... لَهُ رُوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرْ

وقيل : الجملة التشبيهية وصف لهم بالجبن والخور ، ويدل عليه (يحسبون كل صيحة عليهم) في موضع المفعول الثاني ليحسبون ، أي : واقعة عليهم ، وذلك لجبنهم وما في قلوبهم من الرعب . قال مقاتل : كانوا متى سمعوا بنشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان ، أو أخبروا بنزول وحي طارت عقولهم ، حتى يسكن ذلك ، ويكون في غير شأنهم ، وكانوا يخافون أن ينزل الله تعالى فيهم ما تباح به دماؤهم وأموالهم ، ونحو هذا قول الشاعر :

يَرُوعُهُ السِّرَارُ بِكُلِّ أَرْضٍ ... مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السِّرَارُ

وقال جرير :

مَا زِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ ... خَيْلاً تَكُرُّ عَلَيْهِمُ وَرِجَالاً[٢]

أنشده ابن عطية لجرير ، ونسب هذا البيت الزمخشري للأخطل . قال : ويجوز أن يكون (هم العدو) المفعول

---

(١) انظر روح المعاني (١١١/٢٧) .

(٢) انظر شرح ديوان جرير (٣٣٩) الكشاف (٥٤١/٤) القرطبي (٨٢/١٨) روح المعاني (١١١/٢٧) .

الثاني ، كما لو طرحت الضمير . (فإن قلت :) فحقه أن يقول هي العدو (قلت :) منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر في (هذا ربي) وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل أهل صيحة انتهى . وتخريج (هم العدو) على أنه مفعول ثان لـ (يحسبون) تخريج متكلف بعيد عن الفصاحة ، بل المتبادر إلى الذهن السليم أن يكون (هم العدو) وإخباراً منه تعالى بأنهم ، وإن أظهروا الإسلام وأتباعهم ، هم المبالغون في عداوتك ، ولذلك جاء بعده أمره تعالى أياه بحذرهم ، فقال : فاحذرهم ، فالأمر بالحذر متسبب عن إخباره بأنهم هم العدو و (قاتلهم الله) دعاء يتضمن إبعادهم ، وأن يدعو عليهم المؤمنون بذلك (أنى يؤفكون) أي : كيف يصرفون عن الحق ، وفيه تعجب من ضلالهم وجهلهم ، ولما أخبره تعالى بعداوتهم أمره بحذرهم فلا يثق بأظهار مودتهم ، ولا بلين كلامهم ، وقاتلهم الله كلمة ذم وتوبيخ ، وقالت العرب : قاتله الله ما أشعره ، يضعونه موضع التعجب ، ومن قاتله الله فهو مغلوب ، لأنه تعالى هو القاهر لكل معاند ، وكيف استفهام أي : كيف يصرفون عن الحق ، ولا يرون رشد أنفسهم . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون أنى ظرفاً لقاتلهم ، كأنه قال قاتلهم الله كيف انصرفوا ، أو صرفوا فلا يكون في هذا القول استفهام على هذا انتهى . ولا يصح أن يكون (أنى) لمجرد الظرف ، بل لا بد أن يكون ظرفاً استفهاماً إما بمعنى أين ، أو بمعنى متى ، أو بمعنى كيف ، أو شرطاً بمعنى أين ، وعلى هذه التقادير لا يعمل فيها ما قبلها ، ولا تتجرد لمطلق الظرفية بحال من غير اعتبار ما ذكرناه ، فالقول بذلك باطل ، ولما صدق الله زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن سلول مقت الناس ابن سلول ، ولامه المؤمنون من قومه ، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله ـ ﷺ ـ واعترف بذنبك يستغفر لك ، فلوّى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ، وقال لهم : لقد أشرتم عليّ بالإيمان فآمنت ، وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد ، و (يستغفر) مجزوم على جواب الأمر ، و (رسول الله) يطلب عاملان أحدهما (يستغفر) ، والآخر (تعالوا) فاعمل الثاني على المختار عند أهل البصرة ، ولو أعلم الأول لكان التركيب تعالوا يستغفر لكم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقرأ مجاهد ونافع وأهل المدينة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والمفضل وأبان عن عاصم والحسن ويعقوب بخلاف عنهما (لووا) بفتح الواو ، وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى وأبو رجاء والأعرج وباقي السبعة بشدهاالتكثير، وليّ رؤوسهم على سبيل الاستهزاء، واستغفار الرسول لهم هو استتابتهم من النفاق ، فيستغفر لهم إذ كان استغفاره متسبباً عن استتابتهم فيتوبون ، وهم يصدون عن المجيء واستغفار الرسول . وقرىء (يصدون) ويصدون جملة حالية ، وأتت بالمضارع ليدل على استمرارهم (وهم مستكبرون) جملة حالية أيضاً ، ولما سبق في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون البتة سوى بين استغفاره لهم ، وعدمه . وحكى مكي أنه عليه الصلاة والسلام كان استغفر لهم ، لأنهم أظهروا له الإسلام ، وقال ابن عباس نزلت هذه بعد قوله تعالى في براءة ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ [التوبة ٨٠] وقوله عليه الصلاة والسلام : سوف أستغفر لهم زيادة على السبعين ، فنزلت هذه الآية ، فلم يبق للاستغفار وجه . وقرأ الجمهور (أستغفرت) بهمزة التسوية التي أصلها همزة الاستفهام ، وطرح ألف الوصل وأبو جعفر بمدة على الهمزة ، قيل : هي عوض من همزة الوصل ، وهي مثل المدة في قوله ﴿ قل آلذكرين حرم ﴾ [الأنعام ١٤٣ ، ١٤٤] لكن هذه المدة في الاسم لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر ، ولا يحتاج ذلك في الفعل ، لأن همزة الوصل فيه مكسورة ، وعن أبي جعفر أيضاً ضم ميم عليهم إذ أصلها الضم ، ووصل الهمزة . وروى معاذ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، ووصل الهمزة فتسقط في القراءتين ، واللفظ خبر والمعنى على الاستفهام ، والمراد التسوية ، وجاز حذف الهمزة لدلالة أم عليها ، كما دلت على حذفها في قوله :

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ[1]

---

(١) تقدم .

يريد أبسبع . وقال الزمخشري : وقرأ أبو جعفر (آستغفرت) إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلب همزة الوصل ألفاً كما في آلسحر وآلله . وقال ابن عطية : وقرأ أبو جعفر بن القعقاع (آستغفرت) بمدة على الهمزة ، وهي ألف التسوية . وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا كله ضعف ، لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل ، وقد أغنت عنها همزة الاستفهام ، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريدها ، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر . (هم الذين يقولون) إشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه سفه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم ، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى (لا تنفقوا على من عند رسول الله) إن كان الله تعالى حكى نص كلامهم فقولهم على من عند رسول الله هو على سبيل الهزء ، كقولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر ٦] أو لكونه جرى عندهم مجرى اللعب ، أي : هو معروف بإطلاق هذا اللفظ عليه إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر ، فالظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ ، ولكنه تعالى عبر بذلك عن رسوله ـ ﷺ ـ إكراماً له وإجلالاً . وقرأ الجمهور (ينفضوا) أي : يتفرقوا عن الرسول ، والفضل بن عيسى (ينفضوا) من انفض القوم فني طعامهم ، فنفض الرجل وعاءه ، والفعل من باب ما يعدي بغير الهمزة ، وبالهمزة لا يتعدى . قال الزمخشري : وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم . وقرأ الجمهور (ليخرجن الأعز منها الأذل) فالأعز فاعل ، والأذل مفعول ، وهو من كلام ابن سلول : كما تقدم ، ويعني بـالأعز ، وأصحابه ، وبالأذل المؤمنين ، والحسن وابن أبي عبلة والسبي في اختياره (لنخرجن) بالنون ونصب الأعز والأذل ، فالأعز مفعول ، والأذل حال ، وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو والداني (لنَخْرُجن) بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ونصب الأعز على الاختصاص ، كما قال : نحن العرب أقرى الناس للضيف ، ونصب الأذل على الحال ، وحكى هذه القراءة أبو حاتم ، وحكى الكسائي والفراء أن قوماً قرؤوا (لَيَخرُجن) بالياء مفتوحة وضم الراء فالفاعل الأعز ، ونصب الأذل على الحال . وقرىء مبنياً للمفعول ، وبالياء الأعز مرفوع به الأذل نصباً على الحال ، ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين ، فما كان منها بأل فعلى زيادتها إلا أنها معرفة . ولما سمع عبد الله ولد عبد الله بن أبي هذه الآية جاء إلى أبيه ، فقال : أنت والله يا أبت الذليل ، ورسول الله ـ ﷺ ـ العزيز ، فلما دنا من المدينة جرد السيف عليه ، ومنعه الدخول حتى يأذن له رسول الله ـ ﷺ ـ وكان فيما قال له : وراءك لا تدخلها حتى تقول رسول الله ـ ﷺ ـ الأعز وأنا الأذل ، فلم يزل حبيساً في يده حتى أذن له رسول الله ـ ﷺ ـ بتخليته ، وفي هذا الحديث أنه قال لأبيه : لئن لم تشهد لله ، ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك ، قال : أفاعل أنت ؟ قال : نعم ، فقال أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وقيل : للحسن بن علي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن فيك تيهاً فقال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . (لا تلهكم أموالكم) بالسعي في نمائها ، والتلذذ بجمعها ، ولا أولادكم بسروركم بهم ، وبالنظر في مصالحهم في حياتكم ، وبعد مماتكم عن ذكر الله هو عام في الصلاة ، والثناء على الله تعالى بالتسبيح والتحميد ، وغير ذلك والدعاء . وقال نحواً منه الحسن وجماعة . وقال الضحاك وعطاء : أكد هنا الصلاة المكتوبة . وقال الحسن أيضاً : جميع الفرائض ، وقال الكلبي : الجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ وقيل : القرآن ، (ومن يفعل ذلك) أي : الشغل عن ذكر الله بالمال ، والولد (فأولئك هم الخاسرون) حيث آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، (وأنفقوا مما رزقناكم) قال الجمهور : المراد الزكاة . وقيل : عام في المفروض والمندوب ، وعن ابن عباس نزلت في مانعي الزكاة ، والله لو رأى خيراً ما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة ، قال : نعم ، أنا أقرأ عليكم به قرآناً يعني أنها نزلت في المؤمنين ، وهم المخاطبون بها . (لولا أخرتني) أي : هلا أخرت موتي إلى زمان قليل . وقرأ الجمهور (فأصدق) وهو منصوب على جواب الرغبة ، وأبي وعبد الله وابن جبير (فأتصدق) على الأصل . وقرأ الجمهور السبعة (وأكن) مجزوماً قال الزمخشري : (وأكن) بالجزم عطفاً على محل فأصدق ، كأنه قيل : إن أخرتني أصدق ، وأكن انتهى . وقال ابن عطية عطفاً على الموضع ، لأن التقدير إن

تؤخرني أصدق ، وأكن ، هذا مذهب أبي علي الفارسي ، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا ، وهو أنه جزم وأكن على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمني ، ولا موضع هنا ، لأن الشرط ليس بظاهر ، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط ، كقوله تعالى ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم ﴾ [الأعراف ١٨٦] فمن قرأ بالجزم عطف على موضع فلا هادي له ، لأنه وقع هنالك فعل كان مجزوماً انتهى . والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثره ، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود[1] . وقرأ الحسن وابن جبير وأبو رجاء وابن أبي إسحاق ومالك بن دينار والأعمش وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري وأبو عمرو (وأكون) بالنصب عطفاً على (فأصدق) وكذا في مصحف عبد الله وأبي . وقرأ عبيد بن عمير (وأكونُ) بضم النون على الاستئناف ، أي : وأنا أكون ، وهو وعد الصلاح . (ولن يؤخر الله نفساً) فيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات حذاراً أن يجيء الأجل ، وقد فرط ولم يستعد للقاء الله . وقرأ الجمهور (تعملون) بتاء الخطاب للناس كلهم ، وأبو بكر بالياء حص الكفار بالوعيد ، ويحتمل العموم .

---

(١) فيراد بالتوهم تخيل أن العامل الموجود معدوم كما في (إنك وزيد ذاهبان) فزيد معطوف على الكاف في إنك على توهم عدم (إن) أو تخيل أن العامل المعدوم موجود نحو (ليس زيد قائماً ولا قاعداً) بجر (قاعد) عطفاً على (قائماً) على توهم دخول الباء عليه .
وشرط جوازه : صحة دخول العامل المتوهم وشرطه حسنه كثرة دخول هذا العامل انظر تفصيل ذلك في حاشية الدسوقي (١٢٢/٢) وانظر المغني (١٢٢/٢) والكتاب (٤٥٢/١) والتصريح (٢٤١/٢) حاشية الدسوقي (١٢٣/٢) .

سورة التغابن مدنية وهي ثمانية عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن
يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ
وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

التغابن تفاعل من الغبن ، وليس من اثنين بل هو من واحد ، كتواضع ، وتحامل ، والغبن : أخذ الشيء بدون قيمته ، أو بيعه كذلك . وقيل : الغبن الإخفاء ومنه غَبن البيع لاستخفائه ويقال غبنت الثوب وخبنته إذا أخذت ما طال منه عن مقدارك فمعناه النقص ﴿ **يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السموات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير . يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرّون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ، ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبالَ أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ، زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ، فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ، يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾ هذه السورة مدنية في قول الأكثرين ، وقال ابن عباس وغيره : مكية إلا آيات من آخرها (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) إلخ ، نزلت بالمدينة . وقال الكلبي مدنية ومكية ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها أن ما قبلها مشتمل على حال المنافقين ، وفي آخرها خطاب المؤمنين ، فأتبعه بما يناسبه من قوله (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) هذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله : كل مولود يولد على الفطرة[1] ، وقوله تعالى ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم ٣٠] ، وقيل : ذانك في أصل الخلقة بدليل ما في حديث النطفة من قول الملك أشقيٌّ أم سعيد[2] ، والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع يوم طبع كافراً . وما روى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال خلق الله فرعون في البطن كافراً[3] . وحكى يحيى بن زكريا في البطن مؤمناً . وعن عطاء بن أبي رباح : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب ، وقدّم الكافر لكثرته ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ ١٣] وحين ذكر الصالحين قال : ﴿ وقليل ما هم ﴾ [ص ٢٤] وقال الزمخشري : فمنكم آت بالكفر ، وفاعل له ، ومنكم آت بالإيمان وفاعل له ، كقوله تعالى : (وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) الحديد والدليل عليه قوله تعالى (والله بما تعملون بصير) أي : عالم بكفركم ، وإيمانكم اللذين هما من قبلكم ، والمعنى هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقال أيضاً وقيل : هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق . هم الدهرية ، ومنكم مؤمن به ، وعن الحسن في الكلام حذف دل عليه تقديره ، ومنكم فاسق ، وكأنه من كذب المعتزلة على الحسن ، وتقدم الجار والمجرور في قوله (**له الملك وله الحمد**) قال الزمخشري : ليدل بتقدمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عزَّ وجلَّ ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدىء كل شيء ومبدعه ، والقائم به المهيمن عليه ، وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه ، وأما ملك غيره فتسليط منه وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده . وقرأ الجمهور (صُوركم) بضم الصاد وزيد بن عليّ وأبو رزين بكسرها ، والقياس الضم ، وهذا تعديد للنعمة في حسن

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) وأخرجه أبو داود رقم (٤٧١٤) (٤٧١٦) وأحمد (٢/٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١) ، (٣/٣٥٣) والحميدي (١١١٣) وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٢٨) في تاريخ أصفهان (٢/٢٢٦) ومالك في الموطأ (٢٤١) والترمذي (٢١٣٨) والبيهقي (٦/٢٠٢) .

(٢) البخاري (٦/٣٠٣) في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) في القدر (٦٥٩٤) مسلم (٤/٢٠٣٦) في القدر (١/٢٦٤٣) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٢/٢١) وعزاه لابن عدي ، والدارقطني في الأفراد ، والبيهقي وابن عساكر ، وأخرجه ابن عدي (١/٣٤٣) ، (٧/٢٤٩٨) .

الخلقة ، لأن أعضاء بني آدم متصرّفة بجميع ما تتصرّف فيه أعضاء الحيوان ، وبزيادة كثيرة فضل بها ، ثم هو مفضل بحسن الوجه وجمال الجوارح ، كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين ٤] ، وقيل : النعمة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حسن له حتى لحقته كمالات كثيرة ، وتكاد العرب لا تعرف الصورة إلا الشكل لا المعنى القائم بالصورة ، ونبه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض ، ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه بما أكنته الصدور على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء ، لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله ، ثم بخاص العباد من سرّهم وإعلانهم ، ثم ما خص منه ، وهو ما تنطوي عليه صدورهم من خفي الأشياء وكامنها ، وهذا كله في معنى الوعيد ، إذ هو تعالى المجازي على جميع ذلك بالثواب والعقاب . وقرأ الجمهور (ما تسرون وما تعلنون) بتاء الخطاب ، وعبيد عن أبي عمرو أبان عن عاصم بالياء (ألم يأتكم) الخطاب لقريش ، ذكروا بما حل بالكفار قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم ، ممن صرح بذكرهم في سورة براءة وغيرها ، وقد سمعت قريش أخبارهم (فذاقوا وبال أمرهم) أي : مكروههم وما يسؤوهم منه . (ذلك) أي : الوبال (بأنه) بأن الشأن والحديث استبعدوا أن يبعث الله تعالى من البشر رسولاً ، كما استبعدت قريش ، فقالوا على سبيل الاستغراب : (أبشر يهدوننا) وذلك أنهم يقولون نحن متساوون في البشرية فأنى يكون لهؤلاء تمييز علينا ، بحيث يصيرون هداة لنا ، وارتفع (أبشر) عند الحوفي وابن عطية على الابتداء ، والخبر (يهدوننا) والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية ، لأن همزة الاستفهام تطلب الفعل ، فالمسألة من باب الاشتغال ، فكفروا العطف بالفاء يدل على تعقب كفرهم مجيء الرسل (بالبينات) أي : لم ينظروا في تلك البينات ، ولا تأمّلوها ، بل عقبوا مجيئها بالكفر (واستغنى الله) استفعل بمعنى الفعل المجرد ، وغناه تعالى أزلي ، فالمعنى أنه ظهر تعالى غناه عنهم . إذ أهلكهم وليست استفعل هنا للطلب . وقال الزمخشري : معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال ، والزعم تقدم تفسيره ، و (الذين كفروا) أهل مكة ، و (بلى) إثبات لما بعد حرف النفي (وذلك على الله يسير) أي : لا يصرفه عنه صارف . (فآمنوا بالله ورسوله) وهو محمد ـ ﷺ ـ (والنور الذي أنزلنا) هو القرآن ، وانتصب (يوم يجمعكم) بقوله (لتنبؤن) ، أو بـ (خبير) بما فيه من معنى الوعيد ، والجزاء أو باذكر مضمرة قاله الزمخشري ، والأول عن النحاس ، والثاني عن الحوفي . وقرأ الجمهور (يجمعُكم) بالياء وضم العين ، وروي عنه سكونها وإشمامها الضم ، وسلام ويعقوب وزيد بن علي والشعبي بالنون (ليوم الجمع) يجمع فيه الأولن والآخرون ، وذلك أن كل واحد يبعث طامعاً في الخلاص ، ورفع المنزلة . (ذلك يوم التغابن) مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لأن السعداء نزلوا منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزل الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء ، وفي الحديث ما من عبد يدخل الجنة ، ألا أرى مقعده من النار ، لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة ، لو أحسن ليزداد حسرة ، وذلك معنى (يوم التغابن) وعن مجاهد وغيره إذا وقع الجزاء غبن المؤمنون الكافرين ، لأنهم يجوزون الجنة ، وتحصل الكفار في النار . وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وطلحة ونافع وابن عامر والمفضل عن عاصم وزيد بن عليّ والحسن بخلاف عنه (نكفر) (وندخله) بالنون فيهما ، والأعمش وعيسى والحسن وباقي السبعة بالياء فيهما قوله عز وجل : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** ﴾ الظاهر إطلاق المصيبة

على الرزية وما يسوء العبد ، أي : في نفس ، أو مال أو ولد ، أو قول أو فعل ، وخصت بالذكر وإن كان جميع الحوادث لا تصيب إلا بإذن الله ، وقيل : ويحتمل أن يريد بالمصيب الحادثة من خير وشر إذ الحكمة في كونها بإذن الله وما نافية ، ومفعول أصاب محذوف ، أي : ما أصاب أحداً ، والفاعل من مصيبة ومن زائدة ، ولم تلحق التاء أصاب وإن كان الفاعل مؤنثاً وهو فصيح ، والتأنيث لقوله تعالى :﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾[الحجر٥] وقوله (وما تأتيهم من آية إلا بإذن الله) أي : بإرادته وعلمه وتمكينه ، (ومن يؤمن بالله) أي : يصدق بوجوده ، ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره ، (يهد قلبه) على طريق الخير والهداية . وقرأ الجمهور (يهد) بالياء مضارعاً لهدي مجزوماً وما على جواب الشرط . وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة بالنون ، والسلمي والضحاك وأبو جعفر (يهد) مبنياً للمفعول (قلبه) رفع وعكرمة وعمرو بن دينار ومالك بن دينار (يهدأ) بهمزة ساكنة (قلبه) بالرفع يطمئن قلبه ، ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب ، وعمرو بن فايد (يهدا) بألف بدلاً من الهمزة الساكنة ، وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً (يهد) بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة ، وإبدال الهمزة ألفاً في مثل يهد أو يقرأ ليس بقياس ، خلافاً لمن أجاز ذلك قياساً ، وبني عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قوله زهير بن أبي سلمى :

جَـزِيٌّ مَتَى يُظْلَمْ يُعَـاقِبْ بِـظُلْمِـهِ . سَـرِيعاً وَإِنْ لاَ يُبْـدَ بَالـظُّلْمِ يَـظْلِمِ [١]

أصله يبدأ ، ثم أبدل من الهمزة ألفاً ، ثم حذفها للجازم تشبيهاً بألف يخشى إذا دخل الجازم ، ولما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذر مما يلحق الرجل من امرأته وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة ، ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين ، وذلك في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فبإذهاب ماله وعرضه ، وأما في الآخرة فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما ، وبما يكسبانه منه ، بسبب جاهه ، وكم من امرأة قتلت زوجها وجذمت وأفسدت عقله ، وكم من ولد قتل أباه ، وفي التواريخ وفيما شاهدناه من ذلك كثير ، وعن عطاء بن أبي رباح أن عوف بن مالك الأشجعي أراد الغزو مع النبي - ﷺ - فاجتمع أهله وولده ، فثبطوه وشكوا إليه فراقه ، فرقّ ولم يغز ، ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم فنزلت (يا أيها الذين آمنوا) الآية . وقيل : آمن قوم بالله ، وثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة ، ولم يهاجروا إلا بعد مدة ، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين فندموا ، وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم ، فنزلت . وقيل : قالوا لهم أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم فغضبوا عليهم ، وقالوا لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير ، فلما هاجروا منعوهم الخير ، فحبوا أن يعفو عنهم ويردوا إليهم البر والصلة و (من) في (من أزواجكم وأولادكم) للتبعيض ، وقد توجد زوجة تسر زوجها وتعينه على مقاصده في دينه ودنياه وكذلك الولد ، وقال الشعب العبسي يمدح ولده رباطاً :

إِذَا كَـانَ أَوْلاَدُ الـرِّجَـالِ حَـزَازَةً . فَـأَنْتَ الْحَـلاَلُ الحلوُ وَالْبَـارِدُ الْعَـذْبُ

لَـنَـا جَـانِبٌ مِـنْـهُ دَمِيثٌ وَجَـانِبٌ . إِذَا رَامَـهُ الأَعْـدَاءُ مَـرْكَبُـهُ صَعْبُ

وَتَـأْخُـذُهُ عِـنْـدَ الْـمَـكَـارِمِ هِـزَّةٌ . كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ الْبَـارِحِ الْغُصْنُ الرَّطْبُ

وقال فرعان بن الأعرف في ابنه منازل وكان عاقاً له قصيدة فيها بعض طول منها :

وَرَبَّـيْـتُـهُ حَـتَّـى إِذَا مَـا تَـرَكْـتُـهُ . أَخَا الْقَوْمِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الْمَسْحِ شَارِبُهُ

---

(١) تقدم .

فَلَمَّـا رَآنِي أَحْسَبُ الشَّخْصَ أَشْخصاً   بَعِيـداً وَذَا الشَّخْصُ الْبَعِيـدُ أَقَـارِبُـهْ
تَعَمَّـد حَقِّي ظَـالِمـاً وَلَـوَى يَـدِي   لَـوَى يَـدَهُ اللهُ الَّـذِي هُـوَ غَـالِبُـهْ

(إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة) أي : بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما ، وفي باب العداوة جاء بمن التي تقتضي التبعيض ، وفي الفتنة حكم بها على الأموال والأولاد على بعضها ، وذلك لغلبة الفتنة بهما ، وكفى بالمال فتنة قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله ﴾ [التوبة ٧٥] الآيات ، وقد شاهدنا من ذكر أنه يشغله الكسب والتجارة في أمواله حتى يصلي كثيراً من الصلوات الخمس فائتة ، وقد شاهدنا من كان موصوفاً عند الناس بالديانة والورع ، فحين لاح له منصب وتولاه استناب من يلوذ به من أولاده وأقاربه ، وإن كان بعض من استنابه صغير السن ، قليل العلم سيء الطريقة ، ونعوذ بالله من الفتن ، وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق ٧] ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ [الفتح ١١] ، (والله عنده أجر عظيم) تزهيد في الدنيا ، وترغيب في الآخرة والأجر العظيم : الجنة . (فاتقوا الله ما استطعتم) قال أبو العالية جهدكم . وقال مجاهد : هو أن يطاع فلا يعصى (واسمعوا) ما توعظون به (وأطيعوا) فيما أمرتم به ، ونهيتم عنه (وأنفقوا) فيما وجب عليكم و (خيراً) منصوب بفعل محذوف ، تقديره وأتوا خيراً ، أو على إضمار يكن ، فيكون خبراً ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي : إنفاقاً خيراً ، أو على أنه حال ، أو على أنه مفعول بـ(وأنفقوا) خيراً أي : مالاً أقوال الأول عن سيبويه ، ولما أمر بالإنفاق أكده بقوله (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً) ورتب عليه تضعيف القرض وغفران الذنوب ، وفي لفظ القرض تلطف في الاستدعاء ، وفي لفظ المضاعفة تأكيد للبذل لوجه الله تعالى ، ثم أتبع جوابي الشرط بوصفين أحدهما عائداً في المضاعفة إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة ، وحلمه مقابل للغفران . قيل : وهذا الحض هو في الزكاة المفروضة . وقيل : هو في المندوب إليه ، وتقدم الخلاف في القراءة في (يوق) وفي (شح) وفي (يضاعفه) .

سورة الطلاق مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۖ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

هذه السورة مدنية . قيل : وسبب نزولها طلاق رسول الله ـ ﷺ ـ حفصة ، قاله قتادة عن أنس . وقال السدي : طلاق عبد الله بن عمرو . وقيل : فعل ناس مثل فعله ، منهم عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعتبة بن غزوان فنزلت . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وهذا وإن لم يصح فالقول الأول أمثل ، والأصح فيه أنه بيان لشرع مبتدأ . ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد أشار إلى الفتنة بالنساء ، وأنهن قد يعرضن الرجال للفتنة ، حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق ، فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل بأن لا يكون بينهن اتصال ، لا بطلب ولد ولا حمل . (يا أيها النبي) نداء للنبي ـ ﷺ ـ وخطاب على سبيل التكريم والتنبيه (إذا طلقتم) خطاب له ـ عليه الصلاة والسلام ـ مخاطبة الجمع على سبيل التعظيم ، أو لأمته على سبيل تلوين الخطاب ، أقبل ـ عليه السلام ـ أولاً ، ثم رجع إليهم بالخطاب ، أو على إضمار القول ، أي : قل لأمتك إذا طلقتم أوله ولأمته وكأنه ثم محذوف تقديره : يا أيها النبي وأمة النبي إذا طلقتم ، فالخطاب له ولهم ، أي : أنت وأمتك أقوال . وقال الزمخشري : خص النبي ـ ﷺ ـ وعمّ بالخطاب ، لأن النبي إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهاراً لتقدمه ، واعتباراً لترؤسه ، وأنه مدره قومه ولسانهم والذي يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه ، فكان هو وحده في حكم كلهم ، وساداً مسد جميعهم انتهى . وهو كلام حسن ومعنى (إذا طلقتم) أي : إذا أردتم تطليقهن ، و (النساء) يعني المدخول بهن ، و (طلقوهن) أي : أوقعوا الطلاق (لعدّهن) هو على حذف مضاف ، أي : لاستقبال عدّتهن ، واللام للتوقيت نحو : كتبته لليلة بقيت من شهر كذا ، وتقدير الزمخشري هنا حالاً محذوفة يدل عليها المعنى يتعلق بها المجرور ، أي : مستقبلات لعدتهن ليس بجيد ، لأنه قدر عاملاً خاصاً ، ولا بحذف العامل في الظرف والجار والمجرور إذا كان

خاصاً بل ، كان كوناً مطلقاً ، لو قلت : زيد عندك ، أو في الدار تريد : ضاحكاً عندك ، أو ضاحكاً في الدار لم يجز ، فتعليق اللام بقوله (فطلقوهن) ويجعل على حذف مضاف هو الصحيح ، وما روى عن جماعة من الصحابة والتابعين ـ رضي الله تعالى عنهم ـ من أنهم قرؤوا (فطلقوهن في قبل عدتهن) وعن بعضهم (في قبل عدّتهن) وعن عبد الله (لقبل طهرهن) هو على سبيل التفسير ، لا على أنه قرآن لخلافه سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون شرقاً وغرباً ، وهل تعتبر العدة بالنسبة إلى الأطهار أو الحيض ، تقدم ذلك في البقرة في قوله (ثلاثة قروء) والمراد أن يطلقهن في طهر لم يجامعهن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن ، فإن شاء ردها وإن شاء أعرض عنها ، لتكون مهيأة للزوج ، وهذا الطلاق أدخل في السنة . وقال مالك : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكره الثلاث مجموعة أو مفرقة ، وأبو حنيفة كره ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقاً في الأطهار فلا ، وقال الشافعي : لا بأس بإرسال الطلاق الثلاث ، ولا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ، راعي في السنة الوقت فقط ، وأبو حنيفة التفريق والوقت ، وقوله (فطلقوهن) مطلق لا تعرض فيه لعدد ولا لوصف ، من تفريق أو جمع ، والجمهور على أنه لو طلق لغير السنة وقع ، وعن ابن المسيب وجماعة من التابعين : أنه لو طلق في حيض أو ثلاثة لم يقع . والظاهر أن الخطاب في (وأحصوا العدّة) للأزواج أي : اضبطوا بالحفظ وفي الإحصاء فوائد مراعاة الرجعة وزمان النفقة والسكنى وتوزيع الطلاق على الأقراء ، وإذا أراد أن يطلق ثلاثاً والعلم بأنها قد بانت ، فيتزوج بأختها وبأربع سواها ، ونهى تعالى عن أخراجهن من مساكنهنّ ، حتى تنقضي العدّة ، ونهاهنّ أيضاً عن خروجهنّ ، وأضاف البيوت إليهنّ لما كان سكناهنّ فيها ، ونهيهنّ عن الخروج لا يبيحه إذن الأزواج ، إذ لا أثر لإذنهم ، والإسكان على الزوج ، فإن كان ملكه أو بكراء فذاك ، أو ملكها فلها عليه أجرته ، وسواء في ذلك الرجعية والمبتوتة ، وسنة ذلك أن لا تبيت عن بيتها ، ولا تخرج عنه نهاراً إلا لضرورة ، وذلك لحفظ النسب والاحتفاظ بالنساء ، (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وهي الزنا عند قتادة ومجاهد والحسن والشعبي وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث ، ورواه مجاهد عن ابن عباس « فيخرجن للحد » وعن ابن عباس : البذاء على الأحماء ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى ، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب ، وعنده أيضاً : جميع المعاصي من سرقة ، أو قذف أو زناً ، أو غير ذلك ، واختاره الطبري ، فيسقط حقها في السكنى ، وعند ابن عمر والسدي وابن السائب هي خروجها من بيتها خروج انتقال ، فيسقط حقها في السكنى . وعند قتادة أيضاً نشوزها عن الزوج ، فتطلق بسبب ذلك ، فلا يكون عليه سكنى ، وإذا سقط حقها من السكنى أتمت العدّة . (لا تدري) أيها السامع (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ، قال المفسرون : الأمر هنا الرغبة في ارتجاعها والميل إليها بعد انحرافه عنها ، أو ظهور حمل فيراجعها من أجله ، ونصب (لا تدري) على جملة الترجي فـ (لا تدري) معلقة عن العمل ، وقد تقدم لنا الكلام على قوله ﴿ وإن أدري لعله فتة لكم ﴾ [الأنبياء ١١١] وذكرنا أنه ينبغي أن يزاد في المعلقات (لعل) فالجملة المترجاة في موضع نصب بـ (لا تدري) ، (فإذا بلغن أجلهنّ) أي : أشرفن على انقضاء العدّة (فامسكوهنّ) أي : راجعوهنّ (بمعروف) أي : بغير ضرار (أو فارقوهنّ بمعروف) أي : سرحوهنّ بإحسان ، والمعنى : ارتكوهنّ حتى تنقضي عدّتهنّ ، فيملكن أنفسهنّ ، وقرأ الجمهور (أجلهنّ) على الإفراد ، والضحاك وابن سيرين (آجالهنّ) على الجمع والإمساك بمعروف : هو حسن العشرة فيما للزوجة على الزوج ، والمفارقة بمعروف : هو أداء المهر والتمتيع والحقوق الواجبة والوفاء بالشرط . (وأشهدوا) الظاهر وجوب الإشهاد على ما يقع من الإمساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهي الطلاق وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة ٢٨٢] وعند الشافعية واجب في الرجعة ، مندوب إليه في الفرقة . وقيل (وأشهدوا) يريد على الرجعة فقط ، والإشهاد شرط في صحتها ، فلها منفعة من نفسها حتى يشهد ، وقال ابن عباس : الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع عن النوازل أشكالاً كثيرة ويفسد تاريخ الإشهاد من الأشهاد ، قيل : وفائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا

يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما ، فيدعي الثاني ثبوت الزوجية ليرث انتهى . ومعنى (منكم) قال الحسن ، من المسلمين ، وقال قتادة : من الأحرار ، (وأقيموا الشهادة لله) هذا أمر للشهود ، أي : لوجه الله خالصاً ، لا لمراعاة مشهود له ، ولا مشهود عليه ، ولا يلحظ سوى إقامة الحق ، (ذلكم) إشارة إلى إقامة الشهادة ، إذ نوازل الأشياء تدور عليها ، وما يتميز المبطل من المحق ، (ومن يتق الله) قال علي بن أبي طالب وجماعة : هي في معنى الطلاق ، أي : ومن لا يتعدى طلاق السنة إلا طلاق الثلاث ، وغير ذلك (يجعل) الله (مخرجاً) إن ندم بالرجعة ، ويرزقه ما يطعم أهله انتهى . ومفهوم الشرط أنه إن لم يتق الله ، فبت الطلاق وندم لم يكن له مخرج ، وزال عنه رزق زوجته ، وقال ابن عباس للمطلق ثلاثاً : إنك لم تتق الله ، بانت منك امرأتك ، ولا أرى لك مخرجاً ، وقال (يجعل له مخرجاً) يخلصه من كذب الدنيا والآخرة ، والظاهر أن قوله (ومن يتق الله) متعلق بأمر ما سبق من أحكام الطلاق ، وروى أنها في غير هذا المعنى ، وهو أن أسرابن يسمى سالماً لعوف بن مالك الأشجعي ، فشكا ذلك للرسول ـ ﷺ ـ وأمره بالتقوى ، فقبل ، ثم لم يلبث أن تفلت ولده ، واستاق مائة من الإبل » كذا في الكشاف ، وفي الوجيز « قطيعاً من الغنم كانت للذين أسروه » وجاء أباه فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ « أيطيب له فقال : نعم فنزلت الآية » . وقال الضحاك (من حيث لا يحتسب) امرأة أخرى . وقيل : (ومن يتق) الحرام (يجعل له مخرجاً) إلى الحلال . وقيل : (مخرجاً) من الشدة إلى الرخاء ، وقيل : من النار إلى الجنة ، وقيل : من العقوبة (ويرزقه من حيث لا يحتسب) من الثواب . وقال الكلبي (ومن يتق الله) عند المصيبة (يجعل له مخرجاً) إلى الجنة (ومن يتوكل على الله) أي : يفوض أمره إليه (فهو حسبه) أي : كافيه ، (إن الله بالغ أمره) قال مسروق : أي : لا بد من نفوذ أمر الله توكلت أم لم تتوكل ؟ وقرأ الجمهور (بالغٌ) بالتنوين (أمرَه) بالنصب ، وحفص والمفضل وأبان وجبلة وابن أبي عبلة وجماعة عن أبي عمرو ويعقوب وابن مصرف وزيد بن علي بالإضافة ، وابن أبي عبلة أيضاً وداود بن أبي هند وعصمة عن أبي عمرو (بالغٌ أمرُه) رفع ، أي : نافذ أمره ، والمفضل أيضاً (بالغاً) بالنصب (أمرُه) بالرفع ، فخرجه الزمخشري على أن (بالغاً) حال ، وخبر (إن) هو قوله تعالى (قد جعل الله) ويجوز أن تخرج هذه القراءة على قول من ينصب (بإن) الجزأين كقوله :

إذَا اسْـوَدَّ جُنْـحُ اللَّيْـلِ فَلْتَـأْتِ وَلْتَكُنْ خُـطَاكَ خِفَـافـاً إنَّ حُـرَّاسَـنَـا أُسْـدا[١]

ومن رفع (أمرُه) فمفعول (بالغٌ) محذوف تقديره ، بالغ أمره ما شاء[٢] ، (قد جعل الله لكل شيء قدراً) أي : تقديراً وميقاتاً لا يتعداه ، وهذه الجمل تحض على التوكل . وقرأ جناح بن حبيش (قدَراً) بفتح الدال والجمهور بإسكانها ، قوله عز وجل :

﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم

---

(١) تقدم .

(٢) وهذا مما لا ينبغي الأخذ به في توجيه قراءة المفضل ، قال السيوطي في الاقتراح (١٨٦) فإن قلت إحداهما ـ يعني اللغتين جداً ، وكثرت الأخرى جداً أخذت بأوسعها رواية وأقواهما قياساً .

بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

وروى أن قوماً منهم أبي بن كعب وخلاد بن النعمان لما سمعوا قوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قالوا : يا رسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزلت هذه الآية ، فقال قائل : فما عدة الحامل ؟ فنزلت (أولات الأحمال) وقرأ الجمهور (يَئِسْنَ) فعلاً ماضياً ، وقرىء بياءين مضارعاً ، ومعنى (إن ارتبتم) في أنها يئست ، أم لأجل مكان ظهور الحمل ، وإن كانت انقطع دمها ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، أهو دم حيض استحاضة ؟ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ، وقدر بعضهم مبلغ اليأس بستين سنة ، وبعضهم بخمس وخمسين . وقيل : غالب سن يأس عشيرة المرأة . وقيل : أقصى عادة امرأة في العالم . وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة ، أطبق بها الدم ، لا ندري أهو دم حيض أو دم علة ؟ وقيل : (إن ارتبتم) شككتم في حالهن وحكمهن ، فلم تدر وأما حكمهن ، فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر ، واختار الطبري أن معنى (إن ارتبتم) شككتم ، فلم تدروا ما الحكم ؟ فقيل (إن ارتبتم) أي : إن تيقنتم إياسهن ، وهو من الأضداد ، وقال الزجاج : المعنى (إن ارتبتم) في حيضها ، وقد انقطع عنها الدم وكانت مما يحيض مثلها . وقال مجاهد أيضاً (إن ارتبتم) هو للمخاطبين أي : إن لم تعلموا عدة الآيسة (واللائي لم يحضن) فالعدة هذه ، فتلخص في قوله (إن ارتبتم) قولان : أحدهما : أنه على ظاهر مفهوم اللغة فيه ، وهو حصول الشك ، والآخر أن معناه التيقن للإياس ، والقول الأول معناه : إن ارتبتم في دمها ، أهو دم حيض أو دم علة ؟ أو إن ارتبتم في علوق بحمل أم لا ؟ أو (إن ارتبتم) أي : جهلتم عدتهن أقوال ، والظاهر أن قوله(واللائي لم يحضن) يشمل من لم يحض لصغر ، ومن لا يكون لها حيض البتة ، وهو موجود في النساء ، وهو أنها تعيش إلى أن تموت ولا تحيض ، ومن أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به ولم تحض ، فقيل : هذه تعتد سنة ، (واللائي لم يحضن) معطوف على (واللائي يئسن) فإعرابه مبتدأ كإعراب مبتدأ كإعراب (واللائي يئسن) وقدروا خبره جملة من جنس خبر الأول ، أي : عدتهن ثلاثة أشهر ، والأولى أن يقدر : مثل أولئك أو كذلك ، فيكون المقدر مفرداً جملة (وأولات الأحمال) عام في المطلقة ، وفي المتوفى عنها زوجها ، وهو قول عمر وابن مسعود وأبي مسعود البدري وأبي هريرة وفقهاء الأمصار ، وقال علي وابن عباس : (وأولات الأحمال) في المطلقات ، وأما المتوفى عنها فعدتها أقصى الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر صبرت إلى آخرها ، والحجة عليها حديث سبيعة . وقال ابن مسعود : من شاء لاعنته ، ما نزلت (وأولات الأحمال) إلا بعد آية المتوفي عنها زوجها . وقرأ الجمهور (حملهن) مفرداً ، والضحاك (أحمالهن) جمعاً . (ذلك أمر الله) يريد ما علم من حكم المعتدات ، وقرأ الجمهور (ويُعْظِم) بالياء مضارع أعظم ، والأعمش (نُعْظِمُ) بالنون ، خروجاً من الغيبة للتكلم ، وابن مقسم بالياء ، والتشديد مضارع عظَّم مشدداً ، ولما كان الكلام في أمر المطلقات وأحكامهن من العدد وغيرها ، وكن لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل الأمر بالتقوى من حيث المعنى مبرزاً في صورة شرط وجزاء في قوله : (ومن يتق الله) إذا الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها به وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنه إنما فارقها لأمر ظهر له منها ، فلذلك تكرر قوله (ومن يتق الله) في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ، من ترك الضرار والنفقة على المعتدات ، وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات ، وإعظام الأجر و (من) في (من حيث سكنتم) للتبعيض أي : بعض مكان سكناكم ، وقال قتادة : إن لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه قاله الزمخشري : وقال الحوفي (من) لابتداء الغاية ، وكذا قال أبو البقاء و (من وجدكم) قال الزمخشري : (فإن قلت :) فقوله (من وجدكم) (قلت :) هو عطف بيان كقوله (من حيث سكنتم)

وتفسير له كأنه قيل : أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه ، والوجد : الوسع والطاقة انتهى . ولا نعرف عطف بيان يعاد فيه العالم ، إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً من قوله (من حيث سكنتم) ، وقرأ الجمهور (من وُجْدكم) بضم الواو ، والحسن والأعرج وابن أبي عبلة وأبو حيوة بفتحها ، والفياض بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب بكسرها ، وذكرها المدوي عن الأعرج ، وهي لغات ثلاث بمعنى الوسع ، والوَجد بالفتح يستعمل في الحزن والغضب والحب ، ويقال : وجدت في المال ووجدت على الرجل وجداً وموجدة ، ووجدت الضالة وجداناً ، والوُجد : بالضم الغني والقدرة ، يقال : افتقر الرجل بعد وجد ، وأمر تعالى بإسكان المطلقات ، ولا خلاف في ذلك في التي لم تبت ، وأما المبتوتة فقال ابن المسيب وسليمان بن يسار وعطاء والشعبي والحسن ومالك والأوزاعي وابن أبي ليلى والشافعي وأبو عبيد : لها السكنى ، ولا نفقة لها . وقال الثوري وأبو حنيفة : لها السكنى والنفقة ، وقال الحسن وحماد وأحمد وإسحاق وأبو ثور : لا سكنى لها ولا نفقة . (ولا تضاروهن) ولا تستعملوا معهن الضرار (لتضيقوا عليهن) في المسكن ببعض الأسباب ، من إنزال من لا يوافقهن ، أو بشغل مكانهن ، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج . وقيل : هذه المضارة مراجعتها إذا بقي من عدتها قليل ، ثم يطلقها ، فيطول حبسها في عدته الثانية ، وقيل : إلجاؤها إلى أن تفتدي منه ، (وإن كن أولات حمل) لا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها ، بتت أو لم تبت ، فإن كان متوفى عنها فأكثر العلماء على أنها لا نفقة لها ، وعن علي وابن مسعود : تجب نفقتها في التركة ، (فإن أرضعن لكم) أي : ولدن وأرضعن المولود وجب لها النفقة ، وهي الأجر والكسوة ، وسائر المؤن على ما قرر في كتب الفقه ، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد بينهن ما لم يبن ، ويجوز عند الشافعي ، وفي تعميم المطلقات بالسكنى وتخصيص أولات الأحمال بالنفقة . دليل على أن غيرها من المطلقات لا يشاركها في النفقة ، وتشاركهن في السكنى و(ائتمروا) افتعلوا من الأمر ، يقال : ائتمر القوم وتأمروا إذا أمر بعضهم بعضاً ، والخطاب للآباء والأمهات ، أي : وليأمر بعضكم بعضاً (بمعروف) أي : في الأجرة والإرضاع ، والمعروف : الجميل بأن تسامح الأم ولا يماكس الأب ، لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليه . وقال الكسائي (وائتمروا) تشاوروا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [القصص ٢٠] وقول امرىء القيس :

وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ(١)

وقيل : المعروف الكسوة والدثار ، (وإن تعاسرتم) أي : تضايقتم وتشاكستم فلم ترض إلا بما ترضى به الأجنبية ، وأبي الزوج الزيادة ، أو إن أبى الزوج الإرضاع إلا مجاناً وأبت هي إلا بعوض (فسترضع له أخرى) أي : يستأجر غيرها ، وليس له إكراهها ، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه أجبرت على الإرضاع بأجرة مثلها ، ولا يختص هذا الحكم ، من وجوب أجرة الرضاع بالمطلقة ، بل المنكوحة في معناها ، وقيل : (فسترضع) خبر في معنى الأمر ، أي : فلترضع له أخرى ، وفي قوله (فسترضع له أخرى) يسير معاتبة للأم إذا تعاسرت ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ، والضمير في (له) عائد على الأب كما تعدى في قوله (فإن أرضعن لكم) أي : للأزواج (لينفق) الموسر والمقدور عليه ما بلغه وسعه أي : على المطلقات والمرضعات ، ولا يكلف ما لا يطيقه ، والظاهر أن المأمور بالإنفاق الأزواج ، وهذا أصل في وجوب نفقة الولد على الوالد دون الأم ، وقال محمد بن المواز : إنها على الأبوين على قدر الميراث ، وفي الحديث « يقول لك ابنك أنفق علي ، إلى من تكلني » ، ذكره في صحيح البخاري ، وقرأ الجمهور (لِيُنْفِقْ) بلام الأمر ، وحكى أبو معاذ (لينفقَ) بلام كي ونصب القاف ، ويتعلق بمحذوف تقديره : شرعنا ذلك لينفق ، وقرأ

---

(١) عجز بيت وصدره (أحار بن عمرو كأني خمر) انظر ديوان امرىء القيس (٦٨) .

الجمهور (قدر) مخففاً وابن أبي عبلة مشدد الدال (سيجعل الله) وعد لمن قدر عليه رزقه ، يفتح له أبواب الرزق ، ولا يختص هذا الوعد بفقراء ذلك الوقت ، ولا بفقراء الأزواج مطلقاً ، بل من أنفق ما قدر عليه ولم يقصر ولو عجز عن نفقة امرأته ، فقال أبو هريرة والحسن وابن المسيب ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق : يفرق بينهما ، وقال عمر بن عبد العزيز وجماعة : لا يفرق بينهما ، قوله عز وجل :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

تقدم الكلام على (كأين) في آل عمران ، وعلى (نكراً) في الكهف (عتت) أعرضت (عن أمر ربها) على سبيل العناد والتكبر ، والظاهر في (فحاسبناها) الجمل الأربعة أن ذلك في الدنيا ، لقوله بعدها (أعدّ الله لهم عذاباً شديداً) وظاهره أن المعد عذاب الآخرة ، والحساب الشديد : هو الاستقصاء والمناقشة ، فلم تغتفر لهم زلة ، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب ، وقيل : الجمل الأربعة من الحساب والعذاب والذوق والخسر في الآخرة ، وجيء به على لفظ الماضي ، كقوله (ونادى أصحاب الجنة) ويكون قوله (أعد الله لهم) تكريراً للوعيد ، وبياناً لكونه مترقباً ، كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب . وقال الكلبي الحساب في الآخرة ، والعذاب النكير في الدنيا بالجوع والقحط والسيف ، ولما ذكر ما حل بهذه القرية العاتية أمر المؤمنين بتقوى الله تحذيراً من عقابه ، ونبه على ما يحض على التقوى ، وهو إنزال الذكر ، والظاهر أن الذكر هو القرآن وأن الرسول هو محمد ـ ﷺ ـ فأما أن يجعل نفس الذكر مجاز الكثرة يقدر منه الذكر ، فكأنه هو الذكر ، أو يكون بدلاً على حذف مضاف ، أي : ذكر رسول ، وقيل : (رسولاً) نعت على حذف مضاف ، أي : ذكراً ذا رسول ، وقيل : المضاف محذوف من الأول ، أي : ذا ذكر رسولاً ، فيكون (رسولاً) نعتاً لذلك المحذوف ، أو بدلاً ، وقيل : رسول بمعنى رسالة ، فيكون بدلاً من ذكراً ، ويبعده قوله بعده (يتلو عليكم) والرسالة لا تسند التلاوة إليها إلا مجازاً ، وقيل الذكر أساس أسماء النبي ـ ﷺ ـ ، وقيل الذكر الشرف لقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف ٤٤] فيكون (رسولاً) بدلاً منه ، وبياناً له ، وقال الكلبي : الرسول هنا جبريل ـ عليه السلام ـ وتبعه الزمخشري ، فقال (رسولاً) هو جبريل ـ صَلوات الله وسلامه عليه ـ أبدل من (ذكراً) لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر ، فصح إبداله منه انتهى . ولا يصح لتباين المدلولين بالحقيقة ، ولكونه لا يكون بدل بعض ولا بدل اشتمال ، وهذه الأعاريب على أن يكون (ذكراً) و (رسولاً) لشيء واحد ، وقيل : (رسولاً) منصوب بفعل محذوف ، أي : بعث رسولاً ، أو أرسل رسولاً ، وحذف لدلالة (أنزل) عليه ، ونحا إلى هذا السدي واختاره ابن عطية ، وقال الزجاج وأبو علي الفارسي : يجوز أن يكون (رسولاً) معمولاً للمصدر الذي هو الذكر انتهى . فيكون المصدر مقدراً بأن والقول

تقديره : أن ذكر رسولاً ، وعمل منوناً ، كما عمل : ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسبغة يتيماً ﴾ [البلد ١٤ ، ١٥] كما قال الشاعر :

بِضَـرْبٍ بِـالسُّيُـوفِ رؤوس قَـوْمٍ أَزَلْنَـا هَـامهُنَّ عَنِ المَقِيـلِ[١]

وقرىء (رسول) بالرفع على إضمار هو (ليخرج) يصح أن يتعلق بـ (يتلو) وبـ (أنزل) (الذين آمنوا) أي : الذين قضى وقدر ، وأراد إيمانهم ، أو أطلق عليهم آمنوا باعتبار ما آل أمرهم إليه ، وقال الزمخشري : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح ، لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ انتهى ، والضمير في (ليخرج) عائد على الله تعالى ، أو على الرسول ـ ﷺ ـ ، أو على الذكر ، (ومن يؤمن) راعى اللفظ أولاً في (مَنْ) الشرطية ، فأفرد الضمير في (يؤمن) (ويعمل) و (يدخله) ثم راعى المعنى في (خالدين) ثم راعى اللفظ في (قد أحسن الله له) فأفرد ، واستدل النحويون بهذه الآية على مراعاة اللفظ أولاً ، ثم مراعاة المعنى ، ثم مراعاة اللفظ ، وأورد بعضهم أن هذا ليس كما ذكروا ، لأن الضمير في (خالدين) ليس عائداً على (من) بخلاف الضمير في (يؤمن) و (يعمل) و (يدخله) وإنما هو عائد على مفعول (يدخله) و (خالدين) خال منه ، والعامل فيها (يدخله) لا فعل الشرط ، (الله الذي خلق سبع سموات) لا خلاف أن السموات سبع بنص القرآن والحديث كما جاء في حديث الإسراء ، ولقوله ـ ﷺ ـ لسعد : « حكمت بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة »[٢] وغيره من نصوص الشريعة ، وقرأ الجمهور (مثلَهنّ) بالنصب ، والمفضل عن عاصم وعصمة عن أبي بكر (مثلُهن) بالرفع ، فالنصب قال الزمخشري : عطفاً على (سبع سموات) انتهى ، وفيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف وهو الواو والمعطوف ، وهو مختص بالضرورة عند أبي عليّ الفارسي ، وأضمر بعضهم العامل بعد الواو لدلالة ما قبله عليه ، أي : وخلق من الأرض مثلهن فـ (مثلهن) مفعول للفعل المضمر لا معطوف ، وصار ذلك من عطف الجمل ، والرفع على الابتداء (ومن الأرض) الخبر ، والمثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف ، فقال الجمهور ، المثلية في العدد أي : مثلهن في كونها سبع أرضين ، وفي الحديث « طوقه من سبع أرضين » و « رب الأرضين السبع وما أقللن » ، فقيل سبع طباق ، من غير فتوق . وقيل ؛ بين كل طبقة وطبقة مسافة ، قيل : وفيها سكان من خلق الله ، قيل : ملائكة وجن ، وعن ابن عباس من رواية الواقدي الكذاب ، قال : « في كل أرض آدم كآدم ، ونوح كنوح ، ونبي كنبيكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، وعيسى كعيسى » ، وهذا حديث لا شك في وضعه ، قال أبو صالح : إنها سبع أرضين منبسطة ، ليس بعضها فوق بعض ، تفرق بينها البحار ، وتظل جميعها السماء ، (يتنزل الأمر بينهن) من السموات السبع إلى الأرضين السبع ، وقال مقاتل وغيره : الأمر هنا الوحي فـ (بينهن) إشارة إلى بين هذه الأرض التي هي أدناها ، وبين السماء السابعة ، وقال الأكثرون : الأمر القضاء فـ (بينهن) إشارة إلى بين الأرض السفلى التي هي أقصاها ، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، وقيل : (يتنزل الأمر بينهن) بحياة وموت وغنى وفقر ، وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبير ، وقرأ الجمهور (يَتَنَزَّلُ) مضارع تنزل ، وقرأ عيسى وأبو عمرو وفي رواية (يُنَزِّلُ) مضارع نزَّل مشدّداً (الأمر) بالنصب ، والجمهور (لتعلموا) بتاء الخطاب ، وقرىء بياء الغيبة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) البيت من الوافر لمرار بن منقذ التميمي انظر شواهد سيبويه (١/ ٦٠) روح المعاني (٢٧/ ١٤١) .

(٢) وهو سيدنا سعد بن معاذ أخرجه البخاري (٥/ ٤٤) وفي الأدب المفرد (٩٤٦) والبيهقي (٩/ ٦٣) والطبراني (٧/ ٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٩) .

سورة التحريم مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

هذه السورة مدنية ، وسبب نزولها ما يأتي ذكره في تفسير أوائلها ، والمناسبة بينها وبين السورة قبلها أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين ، ذكر هنا ما جرى من بعض زوجات رسول الله ﷺ (يا أيها النبي) نداء إقبال ، وتشريف ، وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم . (لم تحرم) سؤال تلطف ، وذلك قدم قبله (يا أيها النبي) كما جاء في قوله تعالى﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة٤٣]ومعنى (تحرم) تمنع ، وليس التحريم المشروع بوحي من الله ، وإنما هو امتناع لتطييب خاطر بعض من يحسن معه العشرة (ما أحل الله لك) هو مباشرة مارية جاريته، وكان ﷺ ألمّ بها في بيت بعض نسائه فغارت من ذلك صاحبة البيت فطيَّب خاطرها بامتناعه منها واستكتمها ذلك فأفشته إلى بعض نسائه ، وقيل : هو عسل كان يشربه عند بعض نسائه ، فكان ينتاب بيتها لذلك فغار بعضهن من دخوله بيت التي عندها العسل وتواصين على أن يذكرن له على أن رائحة ذلك العسل ليس بطيب ، فقال : لا أشربه ، وللزمخشري هنا كلام أضربت عنه صفحاً ، كما ضربت عن كلامه في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكلامه هذا ونحوه محقق قوي فيه ، ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً .

فلو حرم الإنسان على نفسه شيئاً أحله الله كشرب عسل أو وطء سرية واختلفوا إذا قال لزوجته أنت عليّ حرام ، أو الحلال عليّ حرام ، ولا يستثني زوجته فقال جماعة : منهم الشعبي ، ومسروق ، وربيعة ، وأبو سلمة ، وأصبغ : هو

كتحريم الماء والطعام ، وقال تعالى (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) والزوجة من الطيبات ومما أحله الله ، وقال أبو بكر ، وعمر ، وزيد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعائشة وابن المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، وسليمان بن يسار ، وابن جبير ، وقتادة ، والحسن ، والأوزاعي ، وأبو ثور وجماعة : هو يمين يكفرها ، وقال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه ، والشافعي ، في أحد قوليه : فيه تكفير يمين ، وليس بيمين ، وقال أبو حنيفة ، وسفيان ، والكوفيون : هذا ما أراد من الطلاق فإن لم يرد طلاقها فهو لاشيء ، وقال آخرون كذلك فإن لم يرد فهو يمين ، وفي التحرير قال أبو حنيفة وأصحابه : إن نوى الطلاق فواحدة بائنة ، أو اثنين فواحدة ، أو ثلاثاً فثلاث ، أولم ينو شيئاً فيمين وهو مول أو الظهار فظهار ، وقال ابن القاسم : لا ينفعه نية الظهار ويكون طلاقاً ، وقال يحيى بن عمر يكون فإن ارتجعها فلا يجوز له وطئها حتى يكفر كفارة الظهار فما زاد من إعداده ، فإن نوى واحدة فرجعية وهو قول الشافعي ، وقال الأوزاعي ، وسفيان ، وأبو ثور رأى أي شيء نوى به من الطلاق وقع ، وإن لم ينو شيئاً فقال سفيان : لا شيء عليه ، وقال الأوزاعي ، وأبو ثور : تقع واحدة . وقال الزهري : له نيته ولا يكون أقل من واحدة ، فإن لم ينو : فلا شيء ، وقال ابن جبير : عليه عتق رقبة وإن لم يكن ظهاراً ، وقال أبو قلابة وعثمان وأحمد وإسحاق التحريم ظهار ففيه كفارة ، وقال الشافعي : إن نوى أنها محرمة كظهر أمه فظهار ، أو تحريم عينها بغير طلاق ، أو لم ينو فكفارة يمين ، وقال مالك : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوي في غير المدخول بها فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، وقاله علي ، وزيد ، وأبو هريرة ، وقيل : في المدخول بها ثلاث ، قاله عليّ أيضاً وزيد بن أسلم ، والحكم ، وقال ابن أبي ليلى وعبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ولا ينوي في شيء ، وروى ابن خويز منداد عن مالك ، وقاله زيد ، وحماد بن أبي سليمان : إنها واحدة بائنة في المدخول بها وغير المدخول بها ، وقال الزهري ، وعبد العزيز بن الماجشون : هي واحدة رجعية ، وقال أبو مصعب ، ومحمد بن الحكم : هي في التي لم يدخل بها واحدة ، وفدي المدخول بها ثلاث . وفي الكشاف : لا يراه الشافعي يميناً ، ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن : وإن نوى الطلاق فهو رجعي . وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي وعن علي : ثلاث . وعن زيد : واحدة ، وعن عثمان : ظهار انتهى . وقال أيضاً : ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لما أحله هو حرام علي ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه وهو قوله : والله لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له (لم تحرّم ما أحلّ الله لك) أي : لم تمتنع منه بسبب اليمين يعني أقدم على ما حلفت عليه وكفر ونحو قوله تعالى : ﴿ وحرّمنا عليه المراضع ﴾ [القصص ١٢] أي : منعناه منها . انتهى . وتبتغي في موضع الحال ، وقال الزمخشري : تفسير لتحرم أو استئناف مرضاة رضا أزواجك أي بالامتناع مما أحله الله لك ، (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) الظاهر : أنه كان حلف على أنه يمتنع من وطء مارية ، أو من شرب ذلك العسل على الخلاف في السبب وفرض إحالة على آية العقود ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ [المائدة ٨٩] وتحلة : مصدر حلل ، كتكرمة من كرم ، وليس مصدراً مقيساً ، والمقيس : التحليل والتكريم ، لأن قياس فعل الصحيح العين غير المهموز هو التفعيل وأصل هذا تحللة فأدغم ، وعن مقاتل : أعتق رقبة في تحريم مارية ، وعن الحسن لم يكفر . انتهى . فدل على أنه لم يكن ثم يمين و (بعض أزواجه) حفصة ، والحديث هو بسبب مارية (فلما نبأت به) أي : أخبرت عائشة ، وقيل : الحديث إنما هو شربت عسلاً ، وقال ميمون بن مهران : هو إسراره إلى حفصة أن أبا بكر وعمر يملكان إمرتي من بعدي خلافه ، وقرأ الجمهور (فلما نَبَّأَتْ به) وطلحة (أَنْبَأَتْ) والعامل في (إذا) « اذكر » ، وذكر ذلك على سبيل التأنيب لمن أسرّ له فأفشاه . ونبأ وأنبأ : الأصل أن يتعديا إلى واحد بأنفسهما ، وإلى ثان بحرف الجر ، ويجوز حذفه فتقول : نبأت به ، المفعول الأول محذوف أي غيرها و (من أنبأك هذا) أي : بهذا (قال نبأني) أي : نبأني به أو نبأنيه ، فإذا ضمنت معنى أعلم تعدت إلى ثلاث مفاعيل نحو قوله الشاعر :

نُبِّئْت زَرْعَـةَ وَالسَّفَـاهَـةَ كَـاسْمِهَـا تُـهْـدِي إِلَيَّ غَـرَائِـبَ الأَشْـعَـار[١]

(وأظهره الله عليه) أي : أطلعه أي على إفشائه ، وكان قد تكوتم فيه ، وذلك بإخبار جبريل عليه السلام وجاءت الكناية ههنا عن التفشية ، والحذف للمفشي إليها بالسر : حياطةً وصوتاً عن التصريح بالاسم ، إذ لا يتعلق بالتصريح بالاسم غرض . وقرأ الجمهور (عَرَّف) بشد الرّاء ، والمعنى أعلم به وأنب عليه وقرأ السلمي ، والحسن ، وقتادة ، وطلحة ، والكسائي ، وأبو عمرو في رواية هارون عنه : بخف الراء أي : جازى بالعتب واللوم ، كما تقول لمن يؤذيك « لأعرفن لك ذلك » أي : لأجازينَّك ، وقيل : إنه طلق حفصة وأمر بمراجعتها ، وقيل : عاتبها ولم يطلقها ، وقرأ ابن المسيب ، وعكرمة (عراف) بألف بعد الراء وهي إشباع ، وقال ابن خالويه ، ويقال : إنها لغة يمانية ومثالها قوله :

أَعُـوذُ بِـالله مِـنَ الْـعَـقْـرَابِ الشَّـائِلاَتِ عُقَـدَ الأَذْنَـابِ[٢]

يريد من العقرب ، (وأعرض عن بعض) أي : تكرُّماً وحياءً وحسنَ عشرةَ ، قال الحسن : ما استقصَى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، ومفعول (عرّف) المشدد محذوف أي : عرّفها بعضه ، أي : أعلم ببعض الحديث ، وقيل : المعرّف خلافة الشيخين ، والذي أعرض عنه حديث مارية ، ولما أفشت حفصة الحديث لعائشة واكتتمتها إياه ونبأها الرسول ﷺ به ظنت أن عائشة فضحتها فقالت (من أنبأك هذا) على سبيل التثبت ، فأخبرها أن الله هو الذي نبأه به فسكنت وسلمت ، (إن تتوبا إلى الله) انتقال من غيبة إلى خطاب ، ويسمى الالتفات ، والخطاب لحفصة وعائشة (فقد صغت) مالت عن الصواب . وفي حرف عبد الله (راغت) . وأتى بالجمع في قوله (قلوبكما) وحسن ذلك إضافته إلى مثنى وهو ضميراهما ، والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع كما قال الشاعر :

فَتَخَـالَسَـا نَفْسَيْهِمَـا بِـنَـوَافِـذٍ كَنَـوَافِذِ الْعُبُطِ الَّتِي لاَ تُـرْقَـعُ[٣]

وهذا كان القياس ، وذلك أن يعبر بالمثنى عن المثنى لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع ، لأن التثنية جمع في المعنى والإفراد لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر كقوله :

حَمَامَةَ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرَنَّمِي[٤]

يريد بطني ، وغلط ابن مالك فقال في كتاب التسهيل : ونختار لفظ الإفراد على لفظ التثنية ، وقرأ الجمهور (تظاهراً) بشد الظاء ، وأصله : تتظاهرا ، وأدغمت التاء في الظاء . وبالأصل قرأ عكرمة ، وبتخفيف الظاء قرأ أبو رجاء ، والحسن ، وطلحة ، وعاصم ، ونافع في رواية . وبشد الظاء والهاء دون ألف قرأ أبو عمرو ، في رواية ، والمعنى : وإن تتعاونا عليه في إفشاء سره والإفراط في الغيرة (فإن الله هو مولاه) أي : مظاهره ومعينه . والأحسن الوقف على قوله مولاه ، ويكون (وجبريل) مبتدأ ، وما بعده معطوف عليه ، والخبر (ظهير) فيكون ابتداء الجملة بجبريل وهو أمين وحي

(١) البيت من الكامل للنابغة انظر ديوانه (٨٦) العيني (٢/ ٤٣٩) التصريح على التوضيح (١/ ٢٦٥) .

(٢) تقدم .

(٣) البيت من الكامل لأبي ذؤيب انظر ديوان الهذليين (١/ ٢٠) . اللسان (خلس) .

(٤) صدر بيت من الطويل وعجزه .

.... سقـال من الـغـر الغـوادي مـطيـرهـا

نسب لتوبة بن الحمير وقيل : للشماخ انظر ديوان توبة (٣٦) ملحق ديوان الشماخ (٤٣٨) أمالي القالي (١/ ٨٨) الهمع (١/ ٥١) المقرب (٢/ ١٢٨) الدرر (١/ ٢٦) .

الله واختتامه بالملائكة . وبدىء بجبريل وأفرد بالذكر تعظيماً له وأظهاراً لمكانته عند الله ، ويكون قد ذكر مرتين ، مرة بالنص ، ومرة في العموم . واكتنف (صالح المؤمنين) جبريل تشريفاً لهم واعتناء بهم إذا جعلهم بين الذين (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فعلى هذا جبريل داخل في الظُّهراءِ لا في الولاية ويختص الرسول بأن الله هو مولاه ، وجوزوا أن يكون (وجبريل وصالح المؤمنين) عطفاً على اسم الله ، فيدخلان في الولاية ويكون (والملائكة) مبتدأ ، والخبر (ظهير) فيكون (جبريل) داخلاً في الولاية بالنص ، وفي الظهراء بالعموم . والظاهر عموم (وصالح المؤمنين) فيشمل كل صالح ، وقال قتادة ، والعلاء بن العلاء بن زيد . هم : الأنبياء ، وتكون مظاهرتهم له كونهم قدوة ، فهم ظهراء بهذا المعنى ، وقال عكرمة ، والضحاك ، وابن جبير ، ومجاهد : المراد أبو بكر وعمر . وزاد مجاهد : وعلي بن أبي طالب ، وقيل : الصحابة ، وقيل : الخلفاء ، وعن ابن جبير : من بريء من النفاق . (وصالح) يحتمل أن يراد به الجمع . وإن كان مفرداً فيكون كالسامر في قوله ﴿ مستكبرين به سامرا ﴾ [المؤمنون ٦٧] أي : سماراً ويحتمل أن يكون جمعاً حذفت منه الواو خطًّا لحذفها لفظاً ، كقوله ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق ١٨] وأفرد الظهير ، لأن المراد فوج ظهير ، وكثيراً ما يأتي فعيل نحو هذا للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المفرد ، كأنهم في المظاهرة يد واحدة على من يعاديه ، فما قدرّ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ، وذلك إشارة إلى تظاهرهما ، أو إلى الولاية . وفي الحديث أن عمر قال يا رسول الله « لا تكترث بأمر نسائك ، والله معك ، وجبريل معك ، وأبو بكر وأنا معك » فنزلت ، وروى عنه أنه قال لزوجات النبي ﷺ « عسى ربه إن طلقكن » الآية فنزلت ، وقرأ الجمهور (طلقَكُنَّ) بفتح القاف . وأبو عمرو في رواية ابن عباس بإدغامها في الكاف . وتقدم ذكر الخلاف في أن يبدله في سورة الكهف . والمتبدل به محذوف لدلالة المعنى عليه ، تقديره : أن يبدله خيراً منكن ، لأنهن إذا طلقهن كان طلاقهن لسوء عشرتهن ، واللواتي يبدلهن بهذه الأوصاف يكن خيراً منهن . وبدأ في وصفهن بالإسلام وهو الانقياد ، ثم بالإيمان وهو التصديق ، ثم بالقنوت وهو الطواعية ، ثم بالتوبة وهي الإقلاع عن الذنب ، ثم بالعبادة وهي التلذذ ، ثم بالسياحة وهي كناية عن الصوم ، قاله أبو هريرة وابن عباس وقتادة والضحاك ، وقيل : إن الرسول ﷺ فسره بذلك ، قاله أيضاً الحسن ، وابن جبير ، وزيد بن أسلم ، وابن عبد الرحمن ، قال الفراء والقتبي : سمي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام ، وقال زيد بن أسلم ويمان مهاجرات ، وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : ذا هبات في طاعة الله وقرأ الجمهور (سائحات) وعمرو بن فائد (سَيِّحات) وهذه الصفات تجتمع ، وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان فلذلك عطف أحدهما على الآخر ، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى . وذكر الجنسين لأن في أزواجه ﷺ من تَزوجها بكراً ، والثيب : الراجع بعد زوال العذرة ، يقال ثابت تثوب ثووباً ووزنه فعيل كسيد . ولما وعظ أزواج الرسول ﷺ موعظة خاصة أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم وعطف (وأهليكم) على (أنفسكم) لأن رب المنزل راع وهو مسؤول عن أهله . ومعنى وقايتهم : حملهم على طاعته وإلزامهم إداء ما فرض عليهم ، قال عمر : يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ قال : تنهونهن عما نهاكم الله تعالى عنه ، وتأمرونهن بما أمركم الله به فتكون ذلك وقاية بينهن وبين النار . ودخل الأولاد في وأهليكم . وقيل : دخلوا في أنفسكم ، لأن الولد بعض من أبيه فيعلمه الحلال والحرام ويجنبه المعاصي ، وقرىء (وأهلوكم) بالواو وهو معطوف على الضمير في (قوا) وحَسّن العطف للفصل بالمفعول . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) أليس التقدير قوا أنفسكم ولْيَقِ أهلوكم أنفسهم ؟ (قلت :) لا ، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده ، فكأنه قيل قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ، لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب . انتهى . وناقض في قوله هذا لأنه قدر : وَلْيَقِ أهلوكم ، فجعله من عطف الجمل ، لأن « أهلوكم » اسم ظاهر لا يمكن عنده أن يرتفع بفعل الأمر الذي للمخاطب وكذا في قوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ [الأعراف ١٩] ثم قال : ولكن المعطوف مقارن

في التقدير للواو ، فناقض ، لأنه في هذا جعله مقارناً في التقدير للواو ، وفيما قبله رفعه بفعل آخر غير الرافع للواو وهو وليق . وتقدم الخلاف في فتح الواو في قوله (وقودها) وضمها في البقرة وتفسير : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [التحريم ٦] في البقرة (عليها ملائكة) هي الزبانية التسعة عشر وأعوانهم . ووصفهم بالغلظ : إما لشدة أجسامهم وقوتها ، وإما لفظاظتهم لقوله ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب ﴾ [آل عمران ١٥٩] أي : ليس فيهم رقة ولا حنة على العصاة وانتصب (ما أمرهم) على البدل أي لا يعصون أمره لقوله تعالى : ﴿ أفعصيت أمري ﴾ [طه ٩٣] أو على إسقاط حرف الجر أي فيما أمرهم (ويفعلون ما يؤمرون) ، قيل : كرر المعنى توكيداً ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) أليس الجملتان في معنى واحد ؟ (قلت :) لا ، فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ، ويلتزمونها ، ولا يأبونها ، ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه ، (لا تعتذروا) خطاب لهم عند دخولهم النار ، لأنهم لاي نفعهم الاعتذار فلا فائدة فيه ، قوله عز وجل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

ذكروا في النصوح أربعة وعشرين قولاً ، وروي عن عمر ، وعبد الله ، وأبي ومعاذ ، أنها التي لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ وقرأ الجمهور (نَصوحاً) بفتح النون ، وصفاً لتوبة ، وهو من أمثلة المبالغة كضروب وقتول ، وقرأ الحسن ، والأعرج ، وعيسى وأبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع : بضمها ، وهو مصدر وصف به ووصفها بالنصح على سبيل المجاز إذا النصح صفة التائب ، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة ، فيأتي بها على طريقها ، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها من قولهم : عسل ناصح أي : خالص من الشمع ، أو من النصاحة وهي الخياطة أي : قد أحكمها وأوثقها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه . وسمع عليّ أعرابياً يقول « اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك » فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين » قال : وما التوبة ؟ قال يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وعلى الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن يعزم على أن لا يعود ، وأن تدئب نفسك في طاعة الله . كما أدأبتها في المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي » . وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه . انتهى . و (نصوحاً) من نصح فاحتمل وهو الظاهر أن تكون التوبة تنصح نفس التائب واحتمل أن يكون متعلق النصح الناس أي : يدعوهم إلى مثلها لظهور أمرها على صاحبها ، وقرأ

زيد بن علي (توبا) بغير تاء ، ومن قرأ بالضم جاز أن يكون مصدراً وصف كما قدمناه ، وجاز أن يكون مفعولاً له ، أي : توبوا لنصح أنفسكم ، وقرأ الجمهور (ويدخلكم) عطفاً على أن يكفر ، وقال الزمخشري : عطفاً على محل (عسى) أن يكفر ، كأنه قيل : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم انتهى . والأولى أن يكون حذف الحركة تخفيفاً وتشبيهاً لما هو من كلمتين بالكملة الواحدة تقول في قمع ونطع قمع ونطع ، (يوم لا يخزى) منصوب بـ (يدخلكم) و (لا يخزى) تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ، و(النبي) هو محمد رسول الله ﷺ . وفي الحديث أنه ﷺ تضرع إلى الله عزَّ وجلَّ في أمر امته فأوحى الله تعالى إليه إن شئت جعلت حسابهم إليك فقال : يا رب أنت أرحم بهم ، فقال تعالى : إذاً لا أخزيك فيهم . وجاز أن يكون (والذين) معطوفاً على (النبي) فيدخلون في انتفاء الخزي . وجاز أن يكون مبتدأ والخبر (نورهم يسعى بني أيديهم وبأمانهم) ، وقرأ سهل بن شعيب ، وأبو حيوة (وبأيمانهم) بكسر الهمزة . وتقدم في الحديث يقولون (ربنا أتمم لنا نورنا) قال ابن عباس والحسن : يقولون ذلك إذا طفىء نور المنافقين . وقال الحسن أيضاً يدعونه تقرباً إليه كقوله : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ [محمد ١٩] وهو مغفور له ، وقيل : يقوله من يمر على الصراط زحفاً وحبواً ، وقيل : بقوله من يعطي من النور مقدار ما يبصر به موضع قدميه (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) تقدم نظير هذه الآية في التوبة (ضرب الله مثلاً للذين كفروا) وضرب تعالى المثل لهم بامرأة نوح وامرأة لوط في أنهم لا ينفعهم في كفرهم لُحْمَة نسب ، ولا وصلة صهر ، إذ الكفر قاطع العلائق بين الكافر والمؤمن ، وإن كان المؤمن في أقصى درجات العلا ألا ترى إلى قوله تعالى (إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح) كما لا ينفع تينك المرأتين كونهما زوجتي نبيين ، وجاءت الكناية عن اسمهما العلمين بقوله (عبدين من عبادنا) لما في ذلك من التشريف بالإضافة إليه تعالى ، ولم يأت التركيب بالضمير عنهما فيكون تحتهما لما قصد من ذكر وصفهما بقوله (صالحين) لأن هو الوصف الذي يمتاز به من اصطفاه الله تعالى بقوله في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [البقرة ١٣٠] وفي قول يوسف عليه السلام ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ [الشعراء ٨٣] وفي قول سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ [النحل ١٩] (فخانتاهما) وذلك بكفرهما وقول امرأة نوح عليه السلام هو مجنون ونميمة امرأة لوط عليه السلام وبمن ورد عليه من الأضياف قاله ابن عباس ، وقال لم تزن امرأة نبي قط ولا ابتلي في نسائه بالزنا ، قال في التحرير : وهذا إجماع من المفسرين وفي كتاب ابن عطية ، وقال الحسن في كتاب النقاش (فخانتاهما) بالكفر والزنا وغيره ، وقال الزمخشري : ولا يجوز أن يراد بالخيانة : الفجور ، لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفر يستسمجونه ويسمونه حقاً ، وقال الضحاك (خانتاهما) بالنميمة ، كان إذا أوحي إليه بشيء أفشتاه للمشركين ، وقيل : بنفاقهما ، قال مقاتل : اسم امرأة نوح « والهة » واسم امرأة لوط « والعة » (فلم يغنيا) بياء الغيبة ، والألف ضمير نوح ولوط ، أي على قربهما فرق بينهما الخيانة (وقيل ادخلا النار) أي وقت موتهما أو يوم القيامة (مع الداخلين) الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو مع من دخلها من إخوانكم من قوم نوح وقوم لوط . وقرأ مبشر بن عبيد (تغنيا) بالتاء والألف ضمير المرأتين ومعنى (عنهما) من أنفسهما ولا بد من هذا المضاف إلا أن يجعل عن اسماً كهي في دع عنك لأنها إن كانت حرفاً كان في ذلك تعدية الفعل الرافع للضمير المتصل إلى ضمير المجرور وهو يجري مجرى المنصوب المتصل وذلك لا يجوز (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون) مثل تعالى حال المؤمنين في أن وصلة الكفار لا تضرهم ولا تنقص من ثوابهم ، بحال امرأة فرعون واسمها آسية بنت مزاحم ، ولم يضرها كونها كانت تحت فرعون عدوّ الله تعالى والمدعي الإلهية بل نجاها منه إيمانها ، وبحال مريم إذ أوتيت من كرامة الله تعالى في الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً (إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة) هذا يدل على إيمانها وتصديقها بالبعث ، قيل : كانت عمة موسى عليه السلام ، وآمنت حين سمعت بتلقف عصاه ما أفك السحرة ، طلبت من ربها القرب من رحمته ، وكان ذلك أهم عندها فقدمت

الظرف وهو (عندك بيتاً) ثم بينت مكان القرب فقالت في الجنة ، وقال بعض الظرفاء وقد سئل : أين في القرآن مثل قولهم الجار قبل الدار ؟ قال قوله تعالى (ابن لي عندك بيتاً في الجنة) فـ (عندك) هو المجاورة ، و (بيتاً في الجنة) هو الدار وقد تقدم (عندك) على قوله (بيتاً) ، ونجني من فرعون قيل : دعت بهذه الدعوات حين أمر فرعون بتعذيبها لما عرف إيمانها بموسى عليه السلام ، وذكر المفسرون أنواعاً مضطربة في تعذيبها ، وليس في القرآن نصاً أنها عذبت ، وقال الحسن لما دعت بالنجاة نجاها الله تعالى أكرم نجاة فرفعها ، إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم ، وقيل : لما قالت (ابن لي عندك بيتاً في الجنة) أريت بيتها في الجنة يبنى وعمله قيل كفره ، وقيل : عذابه وظلمه وشماتته ، وقال ابن عباس : الجماع (ونجني من القوم الظالمين) قال : أهل مصر ، وقال مقاتل ، القبط ، وفي هذا دليل على الالتجاء إلى الله تعالى عند المحن وسؤال الخلاص منها وإن ذلك من سنن الصالحين والأنبياء ، (ومريم) معطوف على امرأة فرعون (بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) تقدم تفسير نظير هذه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقرأ الجمهور (ابنتَ) بفتح التاء . وأيوب السختياني ابنه بسكون الهاء وصلا أجراه مجرى الوقف ، وقرأ الجمهور (فنفخنا فيه) أي : في الفرج . وعبد الله فيها كما في سورة الأنبياء أي : في الجملة . وجمع تعالى في التمثيل بين التي لها زوج ، والتي لا زوج لها ، تسليةً للأرامل وتطييباً لقلوبهن. وقرأ الجمهور (وصدقت) بشد الدال ، ويعقوب ، وأبو مجلز ، وقتادة ، وعصمة عن عاصم بخفها أي : كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى عليه السلام وما أظهر الله له من الكرامات ، وقرأ الجمهور (وكلماته) جمعاً فاحتمل أن تكون الصحف المنزلة على إدريس عليه السلام وغيره وسماها (كلمات) لقصرها ويكون المراد بكتبه الكتب الأربعة ، واحتمل أن تكون « الكلمات » ما كلم الله تعالى به ملائكته وغيرهم ، و « بكتبه » جميع ما يكتب في اللوح وغيره . واحتمل أن تكون الكلمات ما صدر في أمر عيسى عليه السلام ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، والجحدري (بكلمة) على التوحيد فاحتمل أن يكون اسم جنس ، واحتمل أن يكون كناية عن عيسى لأنه قد أطلق عليه أنه « كلمة الله ألقاها إلى مريم » . وقرأ أبو عمرو ، وحفص (وكتبه) جمعاً ، ورواه كذلك خارجة عن نافع ، وقرأ باقي السبعة (وكتابه) على الإفراد ، فاحتمل أن يراد به الجنس ، وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى وقرأ أبو رجاء (وكُتبه) ، قال ابن عطية بسكون التاء (وكتبه) وذلك كله مراد به التوراة والإنجيل وقال صاحب اللوامح ، أبو رجاء (وكَتْبه) بفتح الكاف وهو مصدر أقيم مقام الاسم ، قال سهل (وكتبه) أجمع من كتابه ، لأن فيه وضع المضاف موضع الجنس ، فالكتب عام ، والكتاب هو الإنجيل فقط . انتهى . (وكانت من القانتين) غلب الذكورية على التأنيث و (القانتين) شامل للذكور والإناث و(من) للتبعيض ، وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون لابتداء الغاية ، على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى صلوات الله وسلامه عليهما ، وقال يحيى بن سلام : مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم بنت عمران ، ترغيباً في التمسك بالطاعات والثبات على الدّين انتهى . وأخذ الزمخشري كلام ابن سلام هذا وحسنه وزمكه بفصاحة فقال : وفي طيّ التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الفكر ونحوه ، ومن التغليظ قوله : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ [آل عمران ٩٧] وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص والكتمان فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا يشكلا على أنهما زوجتا رسول الله ﷺ فإن ذلك الفضل لا ينقصهما إلا مع كونهما مخلصين والتعريض بحفصة أرج ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله ﷺ وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى . وقال ابن عطية : وقال بعض الناس : إن في المثلين عبرة لزوجات النبي ﷺ حين تقدم عتابهن ، وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة الملك مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها : أنه لما ضرب للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانت تحت نبيين ومثلاً ، للمؤمنين بآسية ومريم وهما محتوم لهما بالجنة ، وإن كان قوماهما كافرين ، كان ذلك تصرّفاً في ملكه على ما سبق قضاؤه فقال (تبارك) أي : تعالى وتعاظم (الذي بيده الملك) وهو كناية عن الإحاطة والقهر وكثيراً ما جاء نسبة اليد إليه تعالى كقوله : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ [يس ٨٣] ﴿ بيدك الخير ﴾ [آل عمران ٢٦] وذلك في حقه تعالى استعارة لتحقيق الملك إذا كانت في عرف الآدميين آلة للتملك ، والملك هنا هو على الإطلاق لا يبيد ولا يختل ، وعن ابن عباس : ملك الملوك لقوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران ٢٦] وناسب الملك ذكر وصف القدرة والحياة ما يصبح بوجوده الإحساس . ومعنى خلق الموت : إيجاد ذلك المصحح وإعدامه والمعنى : خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ، وسمى علم الواقع منهم باختيارهم بلوى وهي الحيرة استعارة من فعل المختبر ، وفي الحديث : أنه فسر (أيكم

أحسن عملاً) أي : أحسنكم عقلاً ، وأشدّكم خوفاً وأحسنكم في أمره ونهيه نظراً ، وإن كان أقلكم تطوعاً[١] ، وعن ابن عباس ، والحسن ، والثوري : أزهدكم في الدنيا ، وقيل : كنى بالموت عن الدنيا ، إذ هو واقع فيها وعن الآخرة بالحياة من حيث لا موت فيها فكأنه قال هو الذي خلق الدنيا والآخرة ، وصفهما بالمصدرين . وقدّم الموت لأنه أهيب في النفوس و (ليبلوكم) متعلق بـ (خلق) و (أيكم أحسن عملاً) مبتدأ وخبر ، فقدر الحوفي قبلها فعلاً تكون الجملة في موضع معموله ، وهو معلق عنها تقديره « فينظر » . وقدّر ابن عطية فينظر أو فيعلم ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) من أين تعلق قوله (أيكم أحسن عملاً) بفعل البلوى (قلت :) من حيث إنه تضمن معنى العلم ، فكأنه قيل ليعلمكم أيكم أحسن عملاً ، وإذا قلت « علمته أزيد أحسن عملاً أم هو » كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول علمته هو أحسن عملاً (فإن قلت :) أيسمى هذا تعليقاً؟ (قلت :) لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسدّ المفعولين جميعاً ، كقولك « علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق » ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدّراً بحرف الاستفهام وغير مصدّر به ، ولو كان تعليقاً لافترقت الحالتان ، كما افترقتا في قولك « علمت أزيد منطلق وعلمت زيداً منطلقاً » انتهى . وأصحابنا يسمون ما منعه الزمخشري تعليقاً ، فيقولون في الفعل إذا عدي إلى اثنين ونصب الأول وجاءت بعده جملة استفهامية ، أو بلام الابتداء ، أو بحرف نفي كانت الجملة معلقاً عنها الفعل وكانت في موضع نصب كما لو وقعت في موضع المفعولين ، وفيها ما يعلق الفعل عن العلم . وقد تقدّم الكلام على مثل هذه الجملة في الكهف في قوله تعالى (لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) الكهف وانتصب (طباقاً) على الوصف لسبع ، فإما أن يكون مصدر طابق مطابقة وطباقاً ، لقولهم النعل خصفها طبقاً على طبق وصف به على سبيل المبالغة ، أو على حذف مضاف أي « ذا طباق » ، وإما جمع طبق كجمل وجمال أو جمع طبقة كرحبة ورحاب والمعنى : بعضها فوق بعض وما ذكر من مواد هذه المسوات ، فالأولى : من موج مكفوف ، والثانية : من درّة بيضاء ، والثالثة : من حديد ، والرابعة من نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة : من ذهب والسابعة : من زمردة بيضاء يحتاج إلى نقل صحيح ، وقد كان بعض من ينتمي إلى الصلاح وكان أعمى لا يبصر موضع قدمه يخبر أن يشاهد السموات على بعض أوصاف مما ذكرنا ، من تفاوت ، قال ابن عباس : من تفرّق ، وقال السدّي : من عيب ، وقال عطاء بن يسار : من عدم استواء ، وقال ثعلب : أصله من الفوت ، وهو أن يفوت شيء شيئاً من الخلل ، وقيل : من اضطراب ، وقيل : من اعوجاج ، وقيل : من تناقض ، وقيل : من اختلاف ، وقيل : من عدم التناسب والتفاوت تجاوز الحد الذي تجب له زيادة أو نقص ، قال بعض الأدباء :

تَنَاسَبَتِ الأَعْضَاءُ فِيهِ فَلاَ تَرَى ... بِهِنَّ اخْتِلَافاً بَلْ أَتَيْنَ عَلَى قَدَرْ[٢]

وقرأ الجمهور (من تفاوت) بألف مصدر تفاوت ، وعبد الله ، وعلقمة ، والأسود، وابن جبير ، وطلحة ، والأعمش بشدّ الواو مصدر «تفوّت» ، وحكى أبو زيد عن العربي (تفاوُتاً) بضم الواو وفتحها وكسرها ، والفتح والكسر شاذان . والظاهر : عموم خلق الرحمن من الأفلاك وغيرها ، فإنه لا تفوت فيه ولا فطور ، بل كلٌّ جارٍ على الإتقان ، وقيل : المراد في خلق الرحمن السموات فقط . والظاهر : أن قوله تعالى (ما ترى) استئناف أنه لا يُدْرَكَ في خلقه تعالى تفاوت . وجعل الزمخشري هذه الجملة صفة متابعة لقوله (طباقاً) أصلها : ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير في قوله خلق الرحمن ، تعظيماً لخلقهن ، وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المناسب ، انتهى . والخطاب في (ترى) لكل مخاطب ، أو للرسول ﷺ . ولما

---

(١) يروى عن ابن عمر مرفوعاً أخرجه البغوي في التفسير (٤/٣٦٩) .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٨/٧) .

أخبر تعالى أنه لا تفاوت في خلقه ، أمر بترديد البصر في الخلق المناسب ، فقال (فارجع) ففي الفاء معنى التسبب . والمعنى أن العيان يطابق الخبر . و (الفطور) قال مجاهد : الشقوق « فطر ناب البعير » شق اللحم وظهر ، قال الشاعر :

بَنَى لَكُمْ بِلاَ عَمَدٍ سَمَاءً وَسَوَّاهَا فَمَا فِيهَا فُطُورُ

وقال أبو عبيدة : صدوع وأنشد قول عبيد بن مسعود :

شَقَقْتِ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَدْتِ فِيهِ هَوَاكِ فَلِيطَ فَالْتَأَتِ الْفُطُورُ[١]

وقال السدي : حروق ، وقال قتادة : خلل ، ومنه التفطير والانفطار ، وقال ابن عباس : وَهْنٍ وهذه تفاسير متقاربة ، والجملة من قوله (هل ترى من فطور) في موضع نصب بفعل معلق محذوف ، أي : فانظر هل ترى أو ضمن معنى (فارجع البصر) معنى فانظر ببصرك هل ترى ، فيكون معلقاً (ثم ارجع البصر) أي ردده كرتين هي تثنية لا شفع الواحد بل يراد بها التكرار كأنه قال كرة بعد كرة أي كرات كثيرة ، كقوله (لبيك) يريد إجابات كثيرة ، بعضها في إثر بعض ، وأريد بالتثنية التكثير ، كما أريد بما هو أصل لها التكثير وهو مفرد عطف على مفرد نحو قوله :

لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وَقَبْرٌ كَانَ أَكْرَمَهُمْ بَيْتاً وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ مَنْزِلِ الذّامِ[٢]

يريد : لو عدت قبور كثيرة ، وقال ابن عطية وغيره : (كرتين) معناه مرتين ، ونصبها على المصدر ، وقيل : أمر برجوع البصر إلى السماء مرتين ، غلط في الأولى فيستدرك بالثانية ، وقيل : الأولى ليرى حسنها واستواءها ، والثانية ليبصر كوكبها في سيرها وانتهائها ، وقرأ الجمهور (ينقلبْ) جزماً على جواب الأمر ، والخوارزمي عن الكسائي يرفع الباء أي : « فينقلبُ » على حذف الفاء أو على أنه موضع حال مقدرة أي إن رجعتَ البصر وكررت النظر لتطلب فطور شقوق أو خللاً أو عيباً رجع إليك مبعداً عما طلبته لانتفاء ذلك عنها ، وهو كالّ من كثرة النظر . وكلاله يدل على أن المراد بالكرتين ليس شفع الواحد لأنه لا يكل البصر بالنظر مرتين اثنتين و « الحسين » الكال قال الشاعر :

لَهُنَّ الْوَجَى لِمَ كُرَّ عَوْناً عَلَى النَّوَى وَلاَ زَالَ مِنْهَا ظَالِعٌ وَحَسِيرُ

يقال حسر بعيره يحسر حسوراً أي كلّ وانقطع فهو حسير ومحسور ، قال الشاعر يصف ناقة :

فَشَطْرُهَا نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ مَحْسُورُ[٣]

أي ونحرها ، وقد جمع حسير بمعنى أعيا وكل ، قال الشاعر :

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا

البيت ، السماء الدنيا : هي التي نشاهدها ، والدنو أمر نسبي وإلا فليست قريبة بمصابيح أي بنجوم مضيئة كالمصابيح ، ومصابيح مطلق الأعلام ، فلا يدل على أن غير سماء الدنيا ليست فيها مصابيح (وجعلناها رجوماً للشياطين) أي : جعلنا منها ، لأن السماء ذاتها ليست يرجم بها الرجوم هذا إن عاد الضمير في قوله (وجعلناها) على السماء ، والظاهر

---

(١) البيت من الوافر انظر تفسير القرطبي (١٨/١٣٦) .

(٢) البيت من مجزوء البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٣) ذكره ابن منظور في اللسان (٢/٨٥٧) مادة (حسر) القرطبي ١٨/١٣٧ .

عوده على (مصابيح) ونسب الجرم إليها لأن الشهاب المتبع للمسترق منفصل من نارها والكوكب قارّ في ملكه على حاله فالشهاب كقبس يؤخذ من النار ، والنار باقية لا تنقص . والظاهر أن الشياطين هم مسترقو السمع وأن الرجم هو حقيقة يرمون بالشهاب كما تقدم في سورة الحجر وسورة والصافات ، وقيل : معنى (رجوماً) ظنونا لشياطين الإنس وهم المنجمون ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهالهم ، والتمويه والاختلاق من أزكيائهم ، ولهم في ذلك تصانيف تشتمل على خرافات يموهون بها على الملوك وضعفاء العقول ، ويعملون موالد يحكمون فيها بالأشياء لا يصح منها شيء ، وقد وقفنا على أشياء من كذبهم في تلك الموالد وما يحكونه عن أبي معشر وغيره من شيوخ السوء كذب يغرون به الناس الجهال ، وقال قتادة : خلق الله تعالى النجوم زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وليهتدي بها في البر والبحر . فمن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة . والضمير في (لهم) عائد على الشياطين . وقرأ الجمهور (عذابُ جهنم) برفع الباء ، والضحاك ، والأعرج ، وأسيد بن أسيد المزني والحسن في رواية هارون عنه بالنصب ، عطفاً على (عذاب السعير) أي : واعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم (إذا ألقوا فيها) أي : طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به ، ومثله حصب جهنم (سمعوا لها) أي لجهنم شهيقاً أي : صوتاً منكراً كصوت الحمار تصوت مثل ذلك لشدة توقدها وغليانها ، ويحتمل أن يكون على حذف مضاف ، أي : سمعوا لأهلها كما قال تعالى ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ [هود ١٠٦] وهي تفور وتغلي بهم غلي المرجل، (تكاد تميز) أي : ينفصل بعضاً من بعض لشدة اضطرابها، ويقال : فلان يتميز من الغيظ إذا وصفوه بالإفراط في الغضب ، وقرأ الجمهور (تميز) بتاء واحدة خفيفة والبزي يشدّدها ، وطلحة بتاءين ، وأبو عمرو بإدغام الدال في التاء ، والضحاك (تمايز) على وزن تفاعل وأصله « تتمايز » بتاءين ، وزيد بن علي، وابن أبي عبلة (تميز) من « مِن ماز » من الغيظ على الكفرة جعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ومثل هذا التجوز قول الشاعر :

فِـي كَـلْبِ[١] يَـشْـتَـدُّ فِـي جَـرِيِـهِ   يَـكَـادُ أَنْ يَـخْـرُجَ مِـنْ إِهَـابِـهِ[١]

وقولهم : غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء ، إذا أفرط في الغضب ، ويجوز أن يراد من غيظ الزبانية (كلما ألقي فيها فوج) أي فريق من الكفار (سألهم خزنتها) سؤال توبيخ وتقريع ، وهو مما يزيدهم عذاباً إلى عذابهم و (خزنتها) مالك وأعوانه (ألم يأتكم نذير) ينذركم بهذا اليوم قالوا بلى اعتراف بمجيء النذر إليهم ، قال الزمخشري : اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأنه عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم فيما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة ، وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده . انتهى . وهو على طريق المعتزلة والظاهر : أن قوله (إن أنتم إلا في ضلال كبير) من قول الكفار للرسل الذين جاؤوا نذراً إليهم، أنكروا أولاً أن الله نزل شيئاً واستجهلوا ثانياً من أخبر بأنه تعالى أرسل إليهم الرسل ، وأن قائل ذلك في حيرة عظيمة ، ويجوز أن يكون من قول الخزنة للكفار أخباراً لهم وتقريعاً بما كانوا عليه في الدنيا أرادوا بالضلال الهلاك الذي هم فيه ، أو سموا عقاب الضلال ضلالاً لما كان ناشئاً عن الضلال ، وقال الزمخشري : أو من كلام الرسل لهم ، حكوه للخزنة ، أي : قالوا لنا هذا فلم نقبله . انتهى . فإن كان الخطاب في (إن أنتم) للرسل ، فقد يراد به الجنس ، ولذلك جاء الخطاب بالجمع وقالوا أي للخزنة حين حاوروهم لو كنا نسمع سماع طالب للحق أو نعقل عقل متأمل له لم نستوجب الخلود في النار (فاعترفوا بذنبهم) أي : بتكذيب الرسل (فسحقاً) أي : فبعداً لهم ، وهو دعاء عليهم ، والسحق : البعد ، وانتصابه على المصدر أي : سحقهم الله سحقاً قال الشاعر :

---

(١) البيت من الرجز شرح المفصل لابن يعيش (١٣٢/٧) .

يَجُـولُ بِـأَطْـرَافِ الْبِـلَادِ مُغَـرِّبـاً وَتَسْحَقُـهُ رِيحُ الصَّبَـا كُلَّ مَسْحَقِ[١]

والفعل منه ثلاثي ، وقال الزجاج : أي : أسحقهم الله سحقاً ، أي باعدهم بُعداً ، وقال أبو علي الفارسي : القياس إسحاقاً فجاء المصدر على الحذف كما قيل :

وَإِنْ أَهْلِكْ فَذَلِكَ كَانَ قَدرِي

أي تقديري انتهى . ولا يحتاج إلى ادعاء الحذف في المصدر لأن فعله قد جاء ثلاثياً كما أنشد[٢] :

وَتَسْحَقُهُ رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ[٣]

وقرأ الجمهور بسكون الحاء ، وعلي ، وأبو جعفر ، والكسائي بخلاف عن أبي الحرث عنه بضمها ، قال ابن عطية (فسحقاً) نصباً على جهة الدعاء عليهم ، وجاز ذلك فيه وهو من قبل الله تعالى من حيث هذا القول فيهم مستقراً . أولاً ، ووجوده لم يقع إلا في الآخرة فكأنه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى به ، كما تقول « سحقاً لزيد وبعداً » ، والنصب في هذا كله بإضمار فعل وإن وقع وثبت فالوجه فيه الرفع كما قال تعالى: ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففين ١] ﴿ وسلام عليكم ﴾ [الزمر ٧٣] وغير هذا من الأمثلة انتهى . (يخشون ربهم بالغيب) أي : الذي أخبروا به من أمر المعاد وأحواله ، أو غائبين عن أعين الناس أي في خلواتهم كقوله « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (وأسروا قولكم) خطاب لجميع الخلق قال ابن عباس : وسببه أن بعض المشركين قال لبعض أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد (ألا يعلم من خلق) الهمزة للاستفهام ولا للنفي والظاهر : أن (مَنْ) مفعول ، والمعنى أينتفي علمه بمن خلق ، وهو الذي لطف علمه ، ودق ، وأحاط بخفيات الأمور وجلياتها . وأجاز بعض النحاة أن يكون (مَنْ) فاعلاً والمفعول محذوف كأنه قال : ألا يعلم الخالق سركم وجهركم ، وهو استفهام معناه الإنكار أي كيف لا يعلم ما تكلم به من خلق الأشياء وأوجدها من العدم الصرف وحاله أنه اللطيف الخبير المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ،(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً) منة منه تعالى بذلك ، والذلول : فعول للمبالغة من ذلك ، نقول دابة ذلول بينة الذل ورجل ذليل بيّن الذل . وقال ابن عطية والذلول فعول بمعنى مفعول أي مذلولة ، فهي كركوب وحلوب . انتهى . وليس بمعنى مفعول ، لأن فعله قاصر وإنما تعدى بالهمز كقوله وتذل من تشاء وأما بالتضعيف لقوله وذللناها لهم وقوله أي مذلولة يظهر أنه خطأ ، (فامشوا في مناكبها) أمر بالتصرف فيها والاكتساب ومناكبها . قال ابن عباس ، وقتادة ، وبشر بن كعب : أطرافها وهي الجبال ، وقال الفراء ، والكلبي ، ومنذر بن سعيد : جوانبها ، ومنكبا الرجل : جانباه وقال الحسن ، والسدي : طرفها وفجاجها ، قال الزمخشري : والمشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنبأه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم ينزل انتهى . وقال الزجاج : سهل لكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل (وإليه النشور) أي البعث فيسألكم عن شكر هذه النعمة عليكم .

قوله عز وجل :

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) البيت من الطويل انظر القرطبي (١٨/ ١٣٩) وروح المعاني (٢٨/ ١٤) .

(٢) عجز بيت من الوافر المفضليات (١٢٢) .

(٣) تقدم .

حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، والبزي (أأمنتم) بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، وأدخل أبو عمرو ، وقالون بينهما ألفاً . وقنبل بإبدال الأولى واواً لضمةما قبلها . وعنه ، وعن ورش أوجه غير هذه والكوفيون ، وابن عامر بتحقيقهما (من في السماء) هذا مجاز وقد قام البرهان العقلي على أنه تعالى ليس بمتحيز في جهة ، ومجازه : أن ملكوته في السماء ، لأن في السماء هو صلة (من) ففيه الضمير الذي كان في العامل فيه ، وهو استقر أي : من في السماء هو أي ملكوته فهو على حذف مضاف وملكوته في كل شيء ، لكن خص السماء بالذكر ، لأنها مسكن ملائكته ، وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأمره ونهيه أو جاء على هذا على طريق اعتقادهم إذ كانوا مشبهة فيكون المعنى (أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو المتعالي عن المكان) وقيل (من) على حذف مضاف أي خالق من في السماء ، وقيل : من هم الملائكة ، وقيل : جبريل وهو الملك الموكل بالخسف وغيره ، وقيل : (من) بمعنى « على » ويراد بالعلو القهر والقدرة ، لا بالمكان . وفي التحرير الإجماع منعقد على أنه ليس في السماء بمعنى الاستقرار ، لأن من قال من المشبهة والمجسمة أنه على العرش لا يقول بأنه في السماء (أن يخسف بكم الأرض) وهو ذهابها سفلاً (فإذا هي تمور) أي تنهب أو تتموج ، كما يذهب التراب في الريح . وقد تقدم شرح (الحاصب) في سورة الإسراء ، و « النذير » و « النكير » مصدارن بمعنى الإنذار والإنكار ، وقال حسان بن ثابت :

فَأَنْذِرْ مِثْلَهَا نُصْحاً قُرَيْشاً ... مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلَتْ نَذِيرا[1]

وأثبت ورش ياء « نذيري » و « نكيري » ، وحذفها باقي السبعة .

ولما حذرهم ما يمكن إحلاله بهم من الخسف ، وإرسال الحاصب ، نبههم على الاعتبار بالطير ، وما أحكم من خلقها ، وعن عجز آلهتهم عن شيء من ذلك ، وناسب ذلك الاعتبار بالطير إذا قد تقدمه ذكر الحاصب ، وقد أهلك الله

---

(١) البيت ذكره الألوسي في روح المعاني (٢٨/ ٢٠) .

أصحاب الفيل بالطير والحاصب الذي رمتم به ، ففيه إذكار قريش بهذه القصة وأنه تعالى لو شاء لأهلكهم بحاصب ترمي به الطير كما فعل بأصحاب الفيل (صافات) باسطة أجنحتها صافتها ، حتى كأنها ساكنة (ويقبضن) ويضممن الأجنحة إلى جوانبهن ، وهاتان حالتان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى . وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه ، ومثله قوله تعالى ﴿ فالمغيرات صبحاً فأثرن ﴾ [العاديات ٤٣] عطف الفعل على الاسم لما كان المعنى « فاللاتي أغرن صبحاً فأثرن » ومثل هذا العطف فصيح . وعكسه أيضاً جائز إلا عند السهيلي فإنه قبيح نحو قوله :

بَـاتَ يُغَشِّيهَـا بِعَضْـبٍ بَـاتِـرِ يَقْصِدِ فِي أَسْوُقِهَا وَجَائِـرِ[1]

أي : قاصد في أسوقها وجائر ، وقال الزمخشري : (صافات) باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً ، و (يقبضن) ، ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن (فإن قلت :) لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات ؟ (قلت :) أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح انتهى . وملخصه : أن الغالب هو البسط فكأنه هو الثابت فعبر عنه بالاسم والقبض متجدد فعبر عنه بالفعل (بما يمسكهن إلا الرحمن) أي : بقدرته ، قال الزمخشري : وبما دبر لهن من القوادم والخوافي ، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد يأتي منها الجري في الجو (إنه بكل شيء بصير) يعلم كيف يخلق ، وكيف يدبر العجائب . انتهى . وفيه نزوع إلى قول أهل الطبيعة ونحن نقول : إن أثقل الأشياء ، إذا أراد إمساكها في الهواء واستعلاءها إلى العرش كان ذلك ، وإذا أراد إنزال ما هو أخف سفلاً إلى منتهى ما ينزل كان وليس ذلك معذوقاً بشكل لا من ثقل ولا خفة ، وقرأ الجمهور (ما يمسكهن) مخففاً . والزهري مشدداً ، وقرأ الجمهور (أمَّن) بإدغام ميم أم في ميم من إذا الأصلْ « أم من » ، وأم هنا بمعنى بل خاصة ، لأن الذي بعدها هو اسم استفهام في موضع رفع على الابتداء وهذا خبر ، والمعنى : من هو ناصركم إن ابتلاكم بعذابه ؟ وكذلك من هو رازقكم إن أمسك رزقه ؟ والمعنى لا أحد ينصركم ولا يرزقكم ، وقرأ طلحة (أَمَنْ) بتخفيف الميم ونقلها إلى الثانية كالجماعة ، قال صاحب اللوامح : ومعناه أهذا الذي هو جند لكم ينصركم أم الذي يرزقكم ؟ فلفظه لفظ الاستفهام ، ومعناه التقريع والتوبيخ . انتهى . (بل لجوا) تمادوا (في عتوٍّ) في تكبر وعناد (ونفور) شراد عن الحق لثقله عليهم ، وقيل : هذه إشارة إلى أصنامهم (أفمن يمشي مكباً على وجهه) قال قتادة : نزلت مخبرة عن حال القيامة وأن الكفار يمشون فيها على وجوههم ، والمؤمنون يمشون على استقامة وقيل : للنبي ﷺ كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ فقال : « إن الذين أمشاه في الدنيا على رجليه قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه » ، فالمشي على قول قتادة حقيقة ، وقيل : هو مجاز ضرب مثلاً للكافر والمؤمن في الدنيا ، فقيل عام وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك نزلت فيهما ، وقال ابن عباس أيضاً : نزلت في أبي جهل والرسول عليه الصلاة والسلام ، وقيل : في أبي جهل ، وحمزة ، والمعنى أن الكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه كالماشي في انخفاض وارتفاع ، كالأعمى يتعثر كل ساعة فيخر لوجهه ، وأما المؤمن فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان وكونه قد وضح له الحق كالماشي صحيح البصر مستوياً ينحرف على طريق واضح الاستقامة لا حزون فيها فآلة نظره صحيحة ومسلكه لا صعوبة فيه ، و (مكباً) حال من أكب ، وهو لا يتعدى ، وكب متعد قال تعالى (فكبت وجوههم في النار) والهمزة فيه للدخول في الشيء ، أو للصيرورة ، ومطاوع كب انكب تقول كببته فانكب ، وقال الزمخشري : ولا

---

(١) البيت من الرجز . الصبان (٣/ ١٢٠) اللسان (غشي) والقرطبي (١٨/ ١٤٢) وروح المعاني (٢٨/ ٢٠) .

شيء من بناء افعل مطاوعاً ، ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه ، وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه ، وكم من نص في كتاب سيبويه عمى بصره وبصيرته حتى أن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه الزمخشري ، وما جهله من نصوص كتاب سيبويه . و (أهدى) أفعل تفضيل من الهدى في الظاهر ، وهو نظير « العسل أحلى أم الخل » وهذا الاستفهام لا تراد حقيقته ، بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن « الماشي سوياً على صراط » مستقيم أهدى » وانتصب (قليلاً) على أنه نعت لمصدر محذوف ، و (ما) زائدة و (تشكرون) مستأنف ، أو حال مقدرة ، أي تشكرون شكراً قليلاً ، وقال ابن عطية : ظاهره أيهم يشكرون قليلاً ، وما عسى أن يكون للكافرين شكر وهو قليل غير نافع وأما أن يريد به نفي الشكر جملة فعبر بالقلة ، كما تقول العرب « هذه أرض قلّ ما تنبت كذا » وهي لا تنبته بالبتة انتهى . وتقدم نظير قوله والرد عليه في ذلك (ذرأكم) بثكم و (الحشر) البعث و (الوعد) المشار إليه هو وعد يوم القيامة ، أي : متى إنجاز هذ الوعد ، (فلما رأوه زلفة) أي رأوا العذاب وهو الموعود به زلفة أي قرباً أي ذا قرب ، وقال الحسن : عياناً ، وقال ابن زيد : حاضراً وقيل التقدير مكاناً ذا زلفة ، فانتصب على الظرف (سيئته) أي : ساءت رؤيته وجوههم ، وظهر فيها السوء والكآبة ، وغشيها السواد كمن يساق إلى القتل . وأخلص الجمهور كسرة السين . وأشمها الضم أبو جعفر ، والحسن ، وأبو رجاء ، وشيبة ، وابن وثاب ، وطلحة ، وابن عامر ، ونافع ، والكسائي (وقيل لهم) أي : تقول لهم الزبانية ومن يوبخهم ، وقرأ الجمهور (تدَّعون) بشد الدال مفتوحة ، فقيل : من الدعوى ، قال الحسن : تدَّعون أنه لا جنة ولا نار ، وقيل : تطلبون وتستعجلون ، وهو من الدعاء ، ويقوي هذا القول قراءة أبي رجاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن يسار عبد الله بن مسلم ، وسلام ويعقوب (تَدْعون) بسكون الدال ، وهي قراءة ابن أبي عبلة ، وأبي زيد ، وعصمة عن أبي بكر ، والأصمعي عن نافع ، روي أن الكفار كانوا يَدْعون على الرسول ﷺ وأصحابه بالهلاك ، وقيل : كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتل ونحوه ، فأمر أن يقول (إن أهلكني الله) كما تريدون (أو رحمنا) بالنصر عليكم فمن يحميكم من العذاب الذي سببه كفركم ، ولما قال (أو رحمنا) قال (هو الرحمن) ثم ذكر ما به النجاة وهو الإيمان والتفويض إلى الله تعالى ، وقرأ الجمهور (فستعلمون) بتاء الخطاب . والكسائي بياء الغيبة نظراً إلى قوله (فمن يجير الكافرين) ولما ذكر العذاب وهو مطلق ذكر فقد ما به حياة النفوس وهو الماء ، وهو عذاب مخصوص « والغور » مشروح في الكهف ، و (المعين) في (قد أفلح) وجواب (إن أهلكني) (فمن يجير) وجواب (إن أصبح) (فمن يأتيكم) وتليت هذه الآية عند بعض المستهزئين فقال : تجيء به الفؤوس والمعاويل فذهب ماء عينيه .

سورة القلم مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

المهين : قال الرماني : الوضيع لإكثاره من القبائح ، من المهانة وهي القلة ، الهمز : أصله في اللغة : الضرب طعناً باليد أو بالعصا أو نحوها ، ثم استعير للذي ينال بلسانه . قال القاضي منذر بن سعيد وبعينه وإشارته ، النميم والنميمة مصدران لنمّ ، وهو نقل ما يسمع مما يسوء ويحرش النفوس وقيل : النميم جمع نميمة يريدون به اسم الجنس . العتل : قال الكلبي والفرّاء : الشديد الخصومة بالباطل ، وقال معمر : هو الفاحش اللئيم ، قال الشاعر :

بِعُتُلٍّ مِنَ الرِّجَالِ زَنِيمٍ ... غَيْرِ ذِي نَجْدَةٍ وَغَيْرِ كَرِيمِ [١]

وقيل : الذي يعتل الناس أي : يجرّهم إلى حبس أو عذاب ، ومنه ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ [الدخان ٤٨] ، قال ابن السكيت : عتلته وعتنته باللام والنون ، الزنيم : الدعي ، قال حسان :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً ... كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِعُ [٢]

وقال أيضاً :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الْفَرْدُ [٣]

والزنيم : من الزنمة وهي الهبة من جلد الماعز تقطع فتخلى معلقة في حلقه ، سمي الدعي بذلك لأنه زيادة معلقة بغير أهله ، وسمه : جعل له سمة ، وهي العلامة تدل على شيء ، قال جرير :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِي ... وَعَلَى البَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأَخْطَلِ [٤]

الخرطوم الأنف ، والخرطوم من صفات الخمر ، قال الشاعر :

قَدْ أَشْهَدُ الشَّرْبَ فِيهِمْ مِزْهَرٌ زَنِمٌ ... وَالْقَوْمُ تَصْرَعُهُمْ صَهْبَاءُ خُرْطُومُ [٥]

قال الشمنتري : الخرطوم : أول خروجها من الدّن ، ويقال لها الأنف أيضاً ، وذلك أصفى لها وأرق ، وقال النضر بن شميل : الخرطوم : الخمر ، وأنشد للأعرج المعنى :

تَظَلُّ يَوْمَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ ... وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ شَرَّابُ الْخَرَاطِيمِ [٦]

الصرام : جداد النخل ، الحَرْدُ : المنع من قولهم حاردت الإبل : إذا قلت ألبانها ، وحاردت السنة قلّ مطرها وخيرها ، قاله أبو عبيد ، والقتبي ، والحرد : الغضب ، قال أبو نضر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي : وهو مخفف وأنشد :

---

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ذكره السمين في الدر المصون .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (٢١٦) اللسان (زنم) القرطبي (١٨/١٥٣) روح المعاني (٢٩/٣٣) الكشاف (٤/٥٨٧) .

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الكامل انظر شرح ديوان جرير (٣٣٥) القرطبي (١٨/١٥٥) روح المعاني (٢٩/٣٥) قوله ميسمي تعبير مجازي أراد به قصائد الهجاء .

(٥) البيت من البسيط لعلقمة بن عبدة انظر ديوانه (١١٣) المفضليات (٨١٢) انظر القرطبي (١٨/١٥٥) .

(٦) البيت من البسيط للأعرج . انظر القرطبي (١٨/١٥٥) روح المعاني (٢٩/٢٦) فتح القدير (٥/٢٦٩) .

إِذَا جِيَادُ الْخَيْلِ جَاءَتْ تَرْدِي مَمْلُوءَةً مِنْ غَضَبٍ وَحَرْدِ[١]

وقال الأشهب بن رميلة :

أُسُودُ شَرَى لَاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ تَسَاقَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءَ الأَسَاوِدِ[٢]

وقال ابن السكيت : وقد يحرك تقول : حرِد بالكسر حَرْداً فهو حردان ، ومنه قيل : أسد حارد ، وليوث حوارد ، والحَرْد الانفراد حرد يحرد حروداً : تنحى عن قومه ونزل منفرداً ولم يخالطهم وكوكب حرود معتزل عن الكواكب ، وقال الأصمعي : المنحرد : المنفرد في لغة هذيل انتهى . والحرد القصد حَرَدَ يَحْرِد بالكسر : قصد ومنه : حردت حردك أي قصدت قصدك ، ومنه قول الشاعر :

وَجَاءَ سَيْلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّه[٣]

﴿ **ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإنّ لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون ، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، فلا تطع المكذّبين ، ودّوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلافٍ مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين ، سنسمه على الخرطوم ، إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل . انتهى . ومعظمها نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل .

ومناسبتها لما قبلها : أنه فيما قبلها ذكر أشياء من أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة ، وعلمه الواسع ، وأنه تعالى لو شاء لخسف بهم ، أو لأرسل عليهم حاصباً ، وكان ما أخبر تعالى به هو ما تلقفه رسول الله ﷺ بالوحي ، وكان الكفار ينسبونه مرة إلى الشعر ، ومرة إلى السحر ، ومرة إلى الجنون . فبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه العظيم ، (ن) حرف من حروف المعجم نحو ص و ق ، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل والحكم على موضعها بالإعراب تَخَرُّص ، وما يروى عن ابن عباس ومجاهد أنه اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع ، وعن ابن عباس أيضاً ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك : أنه اسم الدواة ، وعن معاوية بن قرة يرفعه : أنه لوح من نور ، وعن ابن عباس أيضاً : أنه آخر حرف من حروف الرحمن . وعن جعفر الصادق : أنه نهر من أنهار الجنة لعله لا يصح شيء من ذلك ، وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري في تفسيره : (ن) حرف من حروف المعجم ، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم ، فهو

---

(١) البيت من الرجز للأعرج انظر اللسان (حرد) . روح المعاني ٢٩/٢٨ فتح القدير (٥/٢٧٢) .

(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (حرد ـ خفا) . أمالي القالي (١/٢٩) فتح القدير (٥/٢٧٢) .

(٣) البيت من الرجز انظره في زيادات ديوان حسان (٥٢٢) الصحاح (حرد) وانظر القرطبي (١٨/١٥٨) روح المعاني (٢٩/٣٨) الكشاف (٤/٥٩١) .

إذن حرف هجاء كما في سار مفاتيح السور . انتهى . ومن قال إنه اسم الدواة أو الحوت ، وزعم أنه مقسم به كالقلم فإن كان عَلَماً فينبغي أن يُجَرَّ ، فإن كان مؤنثاً منع الصرف أو مذكراً صرف ، وإن كان جنساً أعرب ونُوِّنَ ، وليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به ، وقال ابن عطية : إذا كان اسماً للدواة فإما أن يكون لغة لبعض العرب أو لفظة أعجمية عربت قال الشاعر :

إذَا مَـا الـشَّـوْقُ بَـرَّح بِي إلَـيْـهِـمْ   ألقت النُّـون بِـالـدَّمْـعِ السَّجُـوم[(١)]

فمن جعله البهموت جعل القلم هو الذي خلقه الله وأمره بكتب الكائنات ، وجعل الضمير في (يسطرون) للملائكة ، ومن قال هو اسم جعله القلم المتعارف بأيدي الناس . نص على ذلك ابن عباس وجعل الضمير في (يسطرون) للناس ، فجاء القسم على هذا المجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم وأمور الدنيا والآخرة ، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة . انتهى . وقرأ الجمهور (ن) بسكون النون وإدغامها في واو والقلم بغنة ، وقوم بغير غنة ، وأظهرها حمزة ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وقالون وحفص ، وقرأ ابن عباس ، وابن أبي إسحاق ، والحسن ، وأبو السمال بكسر النون ، لالتقاء الساكنين . وسعيد بن جبير ، وعيسى بخلاف عنه بفتحها فاحتمل أن تكون حركة إعراب ، وهو اسم للسورة أقسم به ، وحذف حرف الجر فانتصب ومع الصرف للعلمية والتأنيث ، ويكون (والقلم) معطوفاً عليه واحتمل أن يكون لالتقاء الساكنين ، وأوثر الفتح تخفيفاً كأين ، و (ما) يحتمل أن تكون موصولة ، ومصدرية ، والضمير في (يسطرون) عائد على الكتاب لدلالة القلم عليهم ، فإما أن يراد بهم الحفظة ، وإما أن يراد كل كاتب ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في (يسطرون) لهم كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو تسيطرهم انتهى . فيكون كقوله (كظلمات في) في بحر لجيّ أي : وكذي ظلمات ولهذا عاد عليه الضمير في قوله ﴿يغشاه موج﴾ [النور ٤٠] وجواب القسم (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ويظهر أن(بنعمة ربك) قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ ، وقال ابن عطية : (بنعمة ربك) اعتراض ، كما تقول للإنسان أنت بحمد الله فاضل انتهى ، ولم يبين ما تتعلق به الباء في (بنعمة) ، وقال الزمخشري : يتعلق (بمجنون) منفياً ، كما يتعلق بعاقل مثبتاً في قولك « أنت بنعمة الله عاقل » مستوياً في ذلك النفي والإثبات استواء هما في قولك « ضرب زيد عمراً » و « ما ضرب زيد عمراً » تعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً ، ومحله النصب على الحال كأنه قال : ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي ، والمغنى استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسداً ، وأنه من إنعام الله تعالى عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة . انتهى . وما ذهب إليه الزمخشري من أن (بنعمة ربك) متعلق (بمحنون) وأنه في موضع الحال يحتاج إلى تأمل ، وذلك : أنه إذا تسلط النفي على محكوم به وذلك له معمول ، ففي ذلك طريقان : أحدهما أن النفي يتسلط على ذلك المعمول فقط ، والآخر أن يتسلط النفي على المحكوم به فينتفي معموله لانتفائه بيان ذلك تقول « ما زيد قائم مسرعاً » فالمتبادر إلى الذهن أنه منتف إسراعه دون قيامه فيكون قد قام غير مسرع ، والوجه الآخر : أنه انتفى قيامه فانتفى إسراعه ، أي لا قيام فلا إسراع . وهذا الذي قررناه لا يتأتى معه قول الزمخشري بوجه بل يؤدي إلى ما لا يجوز أن ينطق به في حق المعصوم ﷺ ، وقيل : معناه ما أنت بمجنون والنعمة بربك لقولهم سبحانك اللهم وبحمدك أي والحمد لله ، ومنه قول لبيد :

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/ ٢٨) .

وَأُفْـرِدْتُ فِي الـدُّنْيـا بِفَقْـدِ عَشِيـرَتِي وَفَـارَقَـنِـي جَـارٌ بِـأَرْبَـدَ نَـافِـعُ(١)

أي وهو أربد انتهى . وهذا تفسير معنى ، لا تفسير إعراب وفي المنتخب ما ملخصه : المعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، أي حصول الصفة المحمودة ، وزال عنك الصفة المذمومة بواسطة إنعام ربك ، ثم قرر بهذه الدعوى ما هو كالدليل القاطع على صحتها لأن نعمه كانت ظاهرة في حقه من : كمال الفصاحة ، والعقل ، والسيرة المرضية ، والبراءة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة ، فحصول ذلك وظهوره جار مجرى اليقين في كونهم كاذبين في قولهم إنه مجنون ، (وإن لك لأجراً) في احتمال طعنهم ، وفي دعاء الخلق إلى الله ، فلا يمنعك ما قالوا عن الدعاء إلى الله ، (وإنك لعلى خلق عظيم) هذا كالتفسير لما تقدم من قوله (بنعمة ربك) وتعريف لمن رماه بالجنون أنه كذب وأخطأ ، وأن من كان بتلك الأخلاق المرضية لا يضاف الجنون إليه ، ولفظه يدل على الاستعلاء والاستيلاء . انتهى . (وإن لك لأجراً) أي : على ما تحملت من أثقال النبوة ومن أذاهم مما ينسبون إليك مما أنت لا تلتبس به من المعائب (غير ممنون) أي : غير مقطوع ، ومننت الحبل : قطعته ، وقال الشاعر :

عَبْسٌ كواسِبُ لا يُمَنُّ طَعَامُهَا

أي لا يقطع ، وقال مجاهد : غير محسوب ، وقال الحسن غير مكدر بالمن ، وقال الضحاك : بغير عمل ، وقيل : غير مقدر وهو معنى قول مجاهد ، وقال الزمخشري : أو غير ممنون عليك ، لأنه ثواب تستوجبه على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، وإنما تمن الفواضل لا الأجور على الأعمال ، انتهى وفيه دسيسة الاعتزال (وإنك لعلى خلق عظيم) قال ابن عباس ومجاهد دين عظيم ليس دين أحب إلى الله تعالى منه ، وقالت عائشة : إن خلقه كان القرآن ، وقال علي : هو أدب القرآن ، وقال قتادة : ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى ، وقيل : سمي عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه من كرم السجية ، ونزاهة القريحة ، والملكة الجميلة ، وجودة الضرائب ما دعاه أحد إلا قال « لبيك » ، وقال إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق » ، ووصى أبا ذر فقال « وخالق الناس بخلق حسن » ، وعنه ﷺ « ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن » ، وقال « أحبكم إلى الله تعالى أحسنكم أخلاقاً » ، والظاهر تعلق (بأيكم المفتون) بما قبله ، وقال عثمان المازني : تم الكلام في قوله (ويبصرون) ثم استأنف قوله (بأيكم المفتون) انتهى فيكون قوله (بأيكم المفتون) استفهاماً يراد به التراداد بين أمرين ، ومعلوم نفي الحكم عن أحدهما ، ويعينه الوجود وهو المؤمن ليس بمفتون ، ولا به فتون ، وإذا كان متعلقاً بما قبله وهو قول الجمهور فقال قتادة ، وأبو عبيدة معمر : الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون ، وزيدت الباء في المبتدأ كما زيدت فيه في قوله « بحسبك درهم» أي حسبك ، وقال الحسن ، والضحاك ، والأخفش : الباء ليست بزائدة ، « والمفتون » بمعنى الفتنة أي : بأيكم هي الفتنة ، والفساد الذي سموه جنوناً ، وقال الأخفش : أيضاً بأيكم فتن المفتون ، حذف المضاف وأقام المضاف إله مقامه ، ففي قوله الأول جعل المفتون مصدراً ، وهنا أبقاه اسم مفعول ، وتأوله على حذف مضاف ، وقال مجاهد ، والفراء : الباء بمعنى « في » ، أي : في أيّ فريق منكم النوع المفتون انتهى . فالباء ظرفية نحو « زيد بالبصرة » ، أي في البصرة ، فيظهر من هذا القول أن الباء في القول قبله ليست ظرفية بل هي سببية ، وقال الزمخشري : المفتون المجنون ، لأنه فتن أي محن بالجنون ، أو لأن العرب يزعمون أنه من تخييل الجن وهم الفتان للفتاك منهم . انتهى . وقرأ ابن أبي عبلة (في أيكم المفتون) ، (إن ربك هو أعلم) وعيد للضال ، وهم المجانين على الحقيقة ، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها ولا استعملوها فيما جاءت به الرسل ، وأو يكون (أعلم) كناية عن جزاء الفريقين (فلا تطع المكذبين) أي الذين كذبوا بما أنزل الله عليك من الوحي ، وهذا نهي عن طواعيتهم في شيء مما دعوه إليه من تعظيم آلهتهم ، (ودوا لو تدهن) (لو) هنا على رأي البصريين مصدرية ، بمعنى « أن » أي : ودوا إدهانكم ،

---

(١) البيت من الطويل للبيد بن ربيعة انظر القرطبي (١٨/ ١٤٨) .

وتقدم الكلام في ذلك في قوله تعالى : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة ٩٦] ومذهب الجمهور : أن معمول « ود » محذوف أي « ودوا إدهانكم ، وحذف لدلالة ما بعده عليه ، و (لو) باقية على بابها من كونها حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، وجوابها . محذوف تقديره « لسروا بذلك » ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، وعطية ، والسدي ، (لو تدهن) لو تكفر فيتمادون على كفرهم . وعن ابن عباس أيضاً : لو ترخص لهم فيرخصون لك ، وقال قتادة لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك ، وقال الحسن : لو تصانعهم في دينك، فيصانعونك في دينهم وقال زيد بن أسلم : لو تنافق وترائي فينافقونك ويراؤونك ، وقال الربيع بن أنس : لو تكذب فيكذبون ، وقال أبو جعفر : لو تضعف فيضعفون ، وقال الكلبي ، والفراء : لو تلين فيلينون وقال ابان بن تغلب : لو تحابي فيحابون . وقالوا غير هذه الأقوال ، وقال الفراء : الدهان التليين وقال المفضل : النفاق ، وترك المناصحة وهذا نقل أهل اللغة ، وما قالوه لا يخرج عن ذلك ، لأن ما خالف ذلك هو تفسير باللازم و (فيدهنون) عطف على (تدهن) ، وقال الزمخشري : عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي : فهم يدهنون كقوله : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف ﴾ [الجن ١٣] بمعنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك . انتهى . وجمهور المصاحف على إثبات النون ، وقال هارون : إنه في بعض المصاحف فيدهنوا ، ولنصبه وجهان : أحدهما : إنه جواب (ودوا) لتضمنه معنى ليت ، والثاني أنه على توهم أنه نطق بأن أي : ودوا أن تدهن فيدهنوا فيكون عطفاً على التوهم ، ولا يجيء هذا الوجه إلا على قول من جعل « لو » مصدرية بمعنى « أن » ولا تطع كل حلاّف مهين » تقدّم تفسير « مهين » وما بعده في المفردات . وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ، ونوسب فيها فجاء (حلاف) وبعده (مهين) لأن النون فيها مع الميم تواخ ، ثم جاء (هماز مشاء بنميم) بصفتي المبالغة ، ثم جاء (مناع للخير معتد أثيم) فمناع ، وأثيم صفتا مبالغة . والظاهر أن « الخير » هنا يراد به العموم فيما يطلق عليه خير ، وقيل : « الخير » هنا المال ، يريد : مناع للمال ، عبر به عن الشح ، معناه : متجاوز الحد في الظلم ، وفي حديث شداد بن أوس ، قلت : يعني لرسول الله ﷺ : وما العتل الزنيم ؟ قال الرحيب الجوف ، الوتير الخلق ، الأكول ، الشروب ، الغشوم ، الظلوم ، وقرأ الحسن(عتلٌ) برفع اللام والجمهور بجرها بعد ذلك ، وقال الزمخشري : جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشيء منها ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ « لا يدخل الجنة ولد الزنا ، ولا ولده ، ولا ولد ولده » وبعد ذلك نظير ثم في قوله (ثم كان من الذين آمنوا) ، وقرأ الحسن (عتلّ) رفعاً على الذم ، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك انتهى . وقال ابن عطية : بعد ذلك أي بعد أن وصفناه به ، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف ، لا في حصول تلك الصفات في الموصوف ، وإلا فكونه عتلاً هو قبل كونه صاحب خير يمنعه . انتهى . و « الزنيم » الملصق في القوم وليس منهم . قاله ابن عباس وغيره ، وقيل : « الزنيم » : المريب ، القبيح الأفعال ، وعن ابن عباس أيضاً : « الزنيم » الذي له زنمة في عنقه كزنمة الشاة ، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بزنمته انتهى . وروي أن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة كان له زنمة، وروى ابن جبير عن ابن عباس : أن « الزنيم » هو الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بالزنمة ، وعنه أيضاً : أنه المعروف بالابنة ، وعنه أيضاً : أنه الظلوم ، وعن عكرمة : هو اللئيم ، وعن مجاهد ، وعكرمة ، وابن المسيب : إنه ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم ، وكان الوليد دعياً في قريش ليس من منهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده ، وقال مجاهد : كانت له ستة أصابع في يده في كل إبهام أصبع زائدة ، والذي يظهر أن هذه الأوصاف ليست لمعين ، ألا ترى إلى قوله (كلّ حلاف) وقوله (إنا بلوناهم) فإنما وقع النهي عن طواعية من هو بهذه الصفات ، قال ابن عطية ما ملخصه : قرأ النحويان ، والحرميان ، وحفص ، وأهل المدينة (أن كان) على الخبر . وباقي السبعة والحسن وابن أبي إسحق وأبو جعفر على الاستفهام . وحقق الهمزتين حمزة . وسهل الثانية باقيهم . فأما على الخبر : فقال أبو علي

الفارسي : يجوز أن يعمل فيها (عتل) وإن كان قد وصف انتهى . وهذا قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين ، وقيل (زنيم) لا سيما على قول من فسره بالقبيح الأفعال ، وقال الزمخشري : متعلق بقوله (ولا تطع) يعني : ولا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي ليساره وحظه من الدنيا ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين كذب آياتنا ، ولا يعمل فيه (قال) الذي هو جواب (إذا) لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب . انتهى . وأما على الاستفهام فيحتمل أن يفسر عاملٌ يدل عليه ما قبله ، أي : أيكون طواعية لأن كان ، وقدره الزمخشري : أتطيعه لأن كان أو عامل يدل عليه ما قبله أي أكذب أو جحد لأن كان ، وقرأ نافع في رواية اليزيدي عنه (أن كان) بكسر الهمزة ، قال الزمخشري : والشرط للمخاطب ، أي : لا تطع كل حلاف شارطاً يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الرجاء إليه قوله : ﴿ لعله يذكر ﴾ [طه ٤٤] انتهى . وأقول (إن كان) شرط (وإذا تتلى) شرط فهو مما اجتمع فيه شرطان ، وليسا من الشروط المترتبة الوقوع فالمتأخر لفظاً هو المتقدم ، والمتقدم لفظاً هو شرط في الثاني كقوله :

(١) فَـإِنْ عَـثَـرت بَـعْـدَهَـا إِنْ وَالَـتْ نَفْسِي مِنْ هَـاءٍ تَـاءٍ فَـقُـولاَ لَهَا لـهَـا

لأن الحامل على ترك تدبر آيات الله ، كونه ذا مـال وبنين ، فهو مشغول القلب فذلك غافل عن النظر والفكر ، قد استولت عليه الدنيا وأبطرته ، وقرأ الحسن (أئذا) على الاستفهام وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله القرآن أساطير الأولين لما تليت عليه آيات الله ، ولما ذكر قبائح أفعاله وأقواله ذكر ما يفعل به على سبيل التوعد فقـال (سنسمه عـلى الخرطوم) والسِّمة : العلامة . ولما كان الوجه أشرف ما في الإنسان ، والأنف أكرم ما في الوجه لتقدمه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة وقالوا : حمي الأنف ، شامخ العرنين ، وقالوا في الذليل : جدع أنفه ورغم أنفه وكان أيضاً مما تظهر السمات فيه لعلوه، قال: سنسمه على الخرطوم وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبـلاد ، إذ صـار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف ، وإذا كان الوسم في الوجه شيناً فكيف به على أكرم عضو فيه؟ وقد قيل : الجمال في الأنف ، وقال بعض الأدباء :

وَحُسْنُ الْفَتَى فِي الأَنْفِ وَالأَنْفُ عَـاطِـلٌ فَكَيْفَ إِذَا مَـا الْخَـالُ كَـانَ لَـهُ حليـا

و (سنسمه) فعل مستقبل لم يتعين زمانه ، وقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف ، أي يضرب به وجهه وعلى أنفه فيجيء ذلك كالوسم على الأنف وحل به ذلك يوم بدر ، وقال المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم وهو تعذيب بنار على أنوفهم ، وقال آخرون : ذلك يوم القيامة أي نوسم على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره ، وقال قتادة وغيره : معناه سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً ، كما تقول : « سأطوقك طوق الحمامة » أي أثبت لك الأمر بيناً فيك ، ونحو هذا أراد جرير بقوله :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسمِي[١]

وفي الوسم على الأنف تشويه فجاءت استعارته في المذمات بليغة جدّاً ، قال ابن عطية : وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه ، وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأخروية : رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم . انتهى . وقال أبو العالية ، ومقاتل ، واختاره الفراء : يسود وجهه قبل دخول النار . وذكر (الخرطوم) والمراد الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدي عن

---

(١) تقدم .

بعض ، وقال أبو عبد الله الرازي : إنما بالغ الكافر في عداوة الرسول ﷺ بسبب الأنفة والحمية فلما كان شاهد الإنكار هو الأنفة والحمية ، وعبر عن هذا الاختصاص بقوله (سنسمه على الخرطوم) انتهى . كلامه وفي استعارة الخرطوم مكان الأنف استهانة واستخفاف لأن حقيقة الخرطوم هو للسباع وتلخص من هذا أن قوله (سنسمه على الخرطوم) أهو حقيقة أم مجاز ، وإذا كان حقيقة ، فهل ذلك في الدنيا أو في الآخرة ؟ وأبعد النضر بن شميل في تفسيره الخرطوم بالخمر ، وأن معناه : سنحده على شربها .

ولما ذكر المتصف بتلك الأوصاف الذميمة وهم كفار قريش أخبر تعالى بما حل بهم من الابتلاء بالقحط والجوع بدعوة رسول الله ﷺ « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » الحديث (كما بلونا أصحاب الجنة) المعروف خبرها عندهم ، كانت بأرض اليمن بالقرب منهم قريباً من صنعاء لرجل كان يؤدي حق الله منها فمات ، فصارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله تعالى ، فأهلكها الله تعالى من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بهم ، وقيل : كانت بصوران على فراسخ من صنعاء لناس بعد رفع عيسى عليه السلام وكان صاحبها ينزل للمساكين ما أخطاه المنجل ، وما في أسفل الأكراس ، وما أخطاه القطاف من العنب ، وما بقي على السباط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شيء كثير فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، ونحن أولو عيال فحلفوا (ليصرمنها مصبحين) في السدف خفية من المساكين ولم يستثنوا في يمينهم ، والكاف في (كما بلونا) في موضع نصب و « ما » مصدرية ، وقيل : بمعنى الذي ، وإذ معمول لبلوناهم (ليصرمنها) جواب القسم ، لا على منطوقهم إذ لو كان على منطوقهم لكان « لنصرمنها » بنون المتكلمين ، والمعنى ليجدن ثمرها إذا دخلوا في الصباح قبل خروج المساكين إلى عادتهم مع أبيهم ، (ولا يستثنون) أي لا ينثنون مما عزموا عليه من منع المساكين ، وقال مجاهد : معناه لا يقولون إن شاء الله ، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره ، وقال الزمخشري متبعاً قول مجاهد : ولا يقولون إن شاء الله (فإن قلت :) لم سمي استثناء وإنما هو شرط ؟ (قلت :) لأنه يؤدي مؤدّى الاستثناء من حيث إن معنى قولك « لأخرجن إن شاء الله » و« لا أخرج إلا أن يشاء الله » واحد . انتهى . (فطاف عليها طائف) قرأ النخعي (طَيْف) ، قال الفراء : و « الطائف » الأمر الذي يأتي بالليل ، ورد عليه بقوله : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ [الأعراف ٢٠١] فلم يتخصص بالليل ، و (طائف) مبهم ، فقيل : هو جبريل عليه السلام ، اقتلعها ، وطاف بها حول البيت ، ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت بالطائف . وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الماء والشجر والأعناب غيرها ، وقال ابن عباس : (طائف) من أمر ربك ، وقال قتادة : عذاب من ربك ، وقال ابن جرير : عنق خرج من وادي جهنم (فأصبحت كالصريم) . قال ابن عباس : كالرماد الأسود ، و (الصريم) الرماد الأسود بلغة خزيمة ، وعنه أيضاً (الصريم) رملة باليمن معروفة لا تنبت فشبه جنتهم بها ، وقال الحسن: صرم عنها الخير : أي قطع ، فالصريم : بمعنى مصروم . وقال الثوري : كالصبح من حيث ابيضت كالزرع المحصود ، وقال مؤرج : كالرملة انصرمت من معظم الرمل ، والرملة لا تنبت شيئاً ينفع ، وقال الأخفش : كالصبح انصرم من الليل ، وقال المبرد : كالنهار فلا شيء فيها ، وقال شمر : الصريم الليل ، والصريم النهار أي : ينصرم هذا عن ذاك ، وذاك عن هذا ، وقال الفراء ، والقاضي منذر بن سعيد ، وجماعة : الصريم : الليل من حيث اسودت جنتهم (فتنادوا) دعا بعضهم بعضاً إلى المضي إلى ميعادهم (أن اغدوا على حرثكم) قال الزمخشري : (فإن قلت :) هلا قيل اغدوا إلى حرثكم وما معنى (على) قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه ، كما تقول غدا عليهم العدو ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح أي فأقبلوا على حرثكم باكرين انتهى واستسلف الزمخشري أن غدا يتعدى بإلى ويحتاج ذلك إلى نقل بحيث يكثر ذلك فيصير أصلاً فيه ، ويتأول ما خالفه والذي في حفظي أنه معدى بعلى كقول الشاعر :

بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُوداً عَلَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُه[1]

(إن كنتم صارمين) الظاهر : أنه من صرام النخل ، قيل : ويحتمل أن يريد : إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم ، من قولك « سيف صارم » . (يتخافتون) يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين (أن لا يدخلنها) أي يتخافتون بهذا الكلام وهو لا يدخلنها ، (وأن) مصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية . وقرأ عبد الله ، وابن أبي عبلة (لا يدخلها) بإسقاط « أن » على إضمار يقولون ، أو على إجراء (يتخافتون) مجرى القول ، إذ معناه يسارون القول ، والنهي عن الدخول نهي عن التمكين منه ، أي لا تمكنوهم من الدخول فيدخلوا (وغدوا على حرد قادرين) أي : على قصد وقدوة في أنفسهم ، يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم ، قال معناه ابن عباس ، أي : قاصدين إلى جنتهم بسرعة (قادرين) عند أنفسهم على صرامها . قال أبو أبو عبيدة والقتبي : (على حرد) على منع أي : قادرين في أنفسهم على منع المساكين من خيرها فجزاهم الله بأن منعهم خيراً ، وقال الحسن : (على حرد) أي : حاجة وفاقة ، وقال السدي ، وسفيان (على حرد) على غضب ، أي لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض ، وقيل : (على حرد) على انفراد أي : انفردوا دون المساكين ، وقال الأزهري (حرد) اسم قريتهم ، وقال السدي : اسم جنتهم أي : غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام قيل : ويحتمل أن يكون من التقدير بمعنى التضييق لقوله تعالى و (من قدر عليه رزقه) أي : مضيقين على المساكين إذ حرموهم ما كان أبوهم ينيلهم منها (فلما رأوها) أي : على الحالة التي كانوا غدوها عليها من هلاكها ، وذهاب ما فيها من الخير (قالوا إنا لضالون) أي : عن الطريق إليها ، قاله قتادة ، وذلك في أول وصولهم أنكروا أنها هي ، واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق إليها ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها ، وقيل : لضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين فقالوا(بل نحن محرومون) خيرها بخيانتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أي أفضلهم وأرجحهم عقلاً (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أنبهم ووبخهم عى تركهم ما حضهم عليه من تسبيح الله أي ذكره وتنزيهه عن السوء ، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين ، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك فلما غفلوا عن ذكر الله تعالى ، وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان قد تقدم إليهم وحرضهم على ذكر الله تعالى ، وقال مجاهد ، وأبو صالح : كان استثناؤهم سبحان الله ، قال النحاس : جعل مجاهد التسبيح موضع إن شاء الله ، لأن المعنى تنزيه الله أن يكون شيء إلا بمشيئته ، وقال الزمخشري : لالتقائهما في معنى التعظيم لله لأن الاستثناء تفويض إليه ، والتسبح تنزيه له وكل واحد من التفويض ، والتنزيه تعظيم له ، وقيل : (لولا تسبحون) تستغفرون .

ولما أنبهم رجعوا إلى ذكر الله تعالى واعترفوا على أنفسهم بالظلم وبادروا إلى تسبح الله تعالى فـ (قالوا سبحان ربنا) ، قال ابن عباس : أي نستغفر الله من ذنبنا ، ولما أقروا بظلمهم لام بعضهم بعضاً ، وجعل اللوم في حيز غيره إذ كان منهم من زين ، ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف ، ومنهم من عصى الأمر ، ومنهم من سكت على رضا منه ، ثم اعترفوا بأنهم طغوا وترجوا انتظار الفرج في أن يبدلهم خيراً من تلك الجنة (عسى ربنا أن يبدلنا) أي بهذه الجنة (خيراً منها) وتقدم الكلام في الكهف والخلاف في تخفيف (يبدلنا) وتثقيلها منسوباً إلى القراء ، (إنا إلى ربنا راغبون) أي : طالبون إيصال الخير إلينا منه . والظاهر أن أصحاب هذه الجنة كانوا مؤمنين أصابوا معصية وتابوا ، وقيل : كانوا من أهل الكتاب ، وقال عبد الله بن مسعود : بلغني أن القوم دعوا الله وأخلصوا ، وعلم الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة ، وكل عنقود منها كالرجل الأسود القائم ، وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها ، وقال القشيري : المعظم يقولون : إنهم تابوا

---

(١) البيت من الطويل لزهير بن أبي سلمى انظر ديوانه (٦٨) اللسان (حرم) المغني (٨٩٣) روح المعاني (٢٩/٣٨) .

وأخلصوا انتهى . وتوقف الحسن في كونهم مؤمنين وقال : أكان قولهم (إنا إلى الله راغبون) إيماناً أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة (كذلك العذاب) هذا خطاب للرسول ﷺ في أمر قريش ، قال ابن عطية : والإشارة بذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة ، أي : كذلك العذاب أي الذي نزل بقريش بغتة ثم عذاب الآخرة بعد ذلك أشد عليهم من عذاب الدنيا ، وقال كثير من المفسرين : العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود . انتهى . وقال الزمخشري : مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا (ولعذاب الآخرة) أشد وأعظم منه انتهى وتشبيه بلاء قريش ببلاء أصحاب الجنة هو أن أصحاب الجنة عزموا على الانتفاع بثمرها وحرمان المساكين فقلب الله تعالى عليهم وحرمهم ، وأن قريشاً حين خرجوا إلى بدر حلفوا على قتل الرسول ﷺ وأصحابه ، فإذا فعلوا ذلك رجعوا إلى مكة ، وطافوا بالكعبة ، وشربوا الخمور فقلب الله عليهم بأن قتلوا وأسروا . ولما عذبهم بذلك في الدنيا قال (ولعذاب الآخرة أكبر) ، قوله عز وجل : **﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ، أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ، سلهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ، فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين ، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾**
لما ذكر تعالى أنه بلا كفار قريش وشبه بلاءهم ببلاء أصحاب الجنة أخبر بحال أضدادهم وهم المتقون ، فقال (إن للمتقين) أي الكفر (جنات النعيم) أضافها إلى النعيم ، لأن النعيم لا يفارقها إذ ليس فيها إلا هو فلا يشوبه كدر كما يشوب جنات الدنيا ، وروي : أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش إن كان ثم جنة فلنا فيها أكثر الحظ فنزلت (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) ، قال مقاتل : قالوا فضلنا الله عليكم في الدنيا ، فهو يفضلنا عليكم في الآخرة ، وإلا فالمشاركة . فأجاب تعالى (أفنجعل) أي لا يتساوى المطيع والعاصي ، هو استفهام فيه توقيف على خطأ ما قالوا وتوبيخ . ثم التفت إليهم فقال (ما لكم) أي : أي شيء لكم فيما تزعمون ، وهو استفهام إنكار عليهم ثم قال (كيف تحكمون) وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عليهم ، استفهم عن هيئة حكمهم ففي قولهم (ما لكم) استفهام عن كينونة مبهمة ، وفي (كيف تحكمون) استفهام عن هيئة حكمهم ، ثم أضرب عن هذا إضراب انتقال لشيء آخر لا إبطال لما قبله فقال (أم لكم) أي بل ألكم (كتاب) أي من عند الله (تدرسون) أن ما تختارونه يكون لكم وقرأ الجمهور (إن لكم) بكسر الهمزة فقيل هو استئناف قول على معنى : إن لكم كتاب فلكم فيه متخير ، وقيل : ان معمولة لتدرسون ، أي تدرسون في الكتاب أن لكم لما تخيرون ، أي تختارون من النعيم . وكسرت الهمزة من (ان) لدخول اللام في الخبر وهي بمعنى أن بفتح الهمزة قاله الزمخشري وبدأ به وقال: ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو كقوله : ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح﴾ [الصافات ٧٨ ، ٧٩] انتهى . وقرأ طلحة ، والضحاك (أن لكم) بفتح الهمزة ، واللام في (لما) زائدة كهي في قراءة من قرأ ﴿ إلا أنهم ليأكلون الطعام ﴾ [الفرقان ٢٠] بفتح همزة أنهم ، وقرأ الأعرج (أإن لكم) على الاستفهام ، (أم لكم أيمان) أي أقسام (علينا بالغة) أي متناهية في التوكيد يقال فلان عليّ يمين إذا حلفت له على الوفاء بما حلفت عليه (إلى يوم القيامة) متعلق بما تعلق به الخبر وهو (لكم) أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة ، أو ببالغة ، أي تبلغ إلى ذلك اليوم وتنتهي إليه : وقرأ الجمهور (بالغة) بالرفع على الصفة . والحسن ، وزيد بن علي بالنصب على الحال من الضمير المستكن

في (علينا) وقال ابن عطية : حال من نكرة لأنها مخصصة تغليباً ، (إن لكم لما تحكمون) جواب القسم لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم قاله الزمخشري ، وقرأ الأعرج (أإن لكم عليَّ) كالتي قبلها على الاستفهام ، (سلهم أيهم بذلك زعيم) أي ضامن بما يقولونه ويدعون صحته ؟ و « سل » معلقة عن مطلوبها الثاني ، لما كان السؤال سبباً لحصول العلم جاز تعليقه كالعلم ومطلوبها الثاني أصله أن يعدى بعن أو بالباء ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ [البقرة ٢١٧] ، وقال الشاعر :

فَـإِنْ تَسْـأَلُـونِي بِـالنِّسَـاءِ فَـإِنَّنِي ... عَـلِيمٌ بِـأَدْوَاءِ النِّسَـاءِ طَـبِيبُ[1]

ولو كان « غير » اسم استفهام لتعدى إليه بعن أو بالباء ، كما تقول « سل زيداً عن من ينظر في كذا » ولكنه علق (سلهم) فالجملة في موضع نصب ، وقرأ الجمهور (أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم) وعبد الله بن أبي عبلة (فليأتوا بشركهم) قيل : والمراد في القراءتين الأصنام ، أوناس يشاركونهم في قولهم ويوافقونهم فيه أي لا أحد يقول بقولهم كما أنه لا كتاب لهم ولا عهد من الله ولا زعيم بذلك (فليأتوا بشركائهم) هذا استدعاء وتوقيف ، قيل : في الدنيا أي ليحضروهم حتى ترى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا ، وقيل : في الآخرة على أن يأتوا بهم (يوم يكشف عن ساق) وعلى هذا القول الناصب لـ (يوم) (فليأتوا) ، وقيل : اذكر ، وقيل التقدير : يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت وحذف للتهويل العظيم بما يكون فيه من الحوادث والظاهر وقول الجمهور إن هذا اليوم هو يوم القيامة ، وقال أبو مسلم هذا اليوم هو في الدنيا لأنه قال (ويدعون إلى السجود) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه إما آخر أيام الرجل في دنياه لقوله : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ [الفرقان ٢٢] ثم يرى الناس يدعون إلى الصلاة إذا حضرت أوقاتها فلا يستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذي لا ينفع فيه نفساً إيمانها وإما حال المرض والهرم والمعجزة (وقد كانوا) قبل ذلك اليوم (يدعون إلى السجود وهم سالمون) مما بهم الآن فذلك ، إما لشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، وإما من العجز والهرم ، وأجيب بأن الدعاء إلى السجود ليس على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، وعندما يدعون إلى السجود سلبوا القدرة عليه ، وحيل بينهم وبين الاستطاعة حتى يزداد حزنهم وندامتهم على ما فرطوا فيه حين دعوا إليه وهم سالمو الأطراف والمفاصل ، وقرأ الجمهور (يُكْشف) بالياء مبنياً للمفعول ، وقرأ عبد الله بن أبي عبلة بفتح الياء مبنياً للفاعل ، وابن عباس وابن مسعود أيضاً ، وابن هرمز بالنون ، وابن عباس (يَكْشِفُ) بفتح الياء مبنياً للفاعل ، وعنه أيضاً بالياء مضمومة مبنياً للمفعول ، وقرىء (يُكْشِف) بالياء المضمومة وكسر الشين من أكشف ، إذا دخل في الكشف ، ومنه أكشف الرجل انقلبت شفته العليا ، وكشف الساق : كناية عن شدة الأمر وتفاقمه ، قال مجاهد : هي أول ساعة من يوم القيامة ، وهي أفظعها ومما جاء في الحديث من قوله فيكشف لهم عن ساق محمول أيضاً على الشدة في ذلك اليوم وهو مجاز شائع في لسان العرب ، قال حاتم :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِـهِ الْحَرْبُ عَضَّـهَا ... وَإِنْ شَمَّـرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّـرَا[2]

وقال الراجز :

عَـجِبْتُ مِنْ نَـفْسِـي وَمِـنْ إِشْـفَـاقِـهَـا ... وَمِـنْ طِـرَادِي الْـخَـيْـلِ عَـنْ أَرْزَاقِـهَـا

---

(١) البيت من الطويل لعلقمة انظر ديوانه (١٣١) العيني (١٦/٣) الهمع (٢٢/٢) الدرر (١٤/٢) المفضليات (٣٩٢) القرطبي (١٨/ ١٨٢) .

(٢) تقدم .

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا حَمْرَاءَ تَبْرِي اللَّحْمَ عَنْ عُرَاقِهَا[١]

وقال الراجز :

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا[٢]

وقال آخر :

صَبْراً أَمَامُ إِنْ شَرَّ بَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ[٣]

وقال الشاعر :

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الْبَوَاح[٤]

ويروى الصراح ، وقال ابن عباس يوم يكشف : عن شدة ، وقال أبو عبيدة : هذه كلمة تستعمل في الشدة يقال : كشف عن ساقه إذا تشمر ، قال : ومن هذا تقول العرب لسنة الجدب كشفت ساقها ونكر ساق للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة خارج عن المألوف كقوله تعالى (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) فكأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ظاهره أنهم يدعون ، وتقدم أن ذلك على سبيل التوبيخ لا على سبيل التكليف ، وقيل : الداعي : ما يرونه من سجود المؤمنين فيريدون هم السجود فلا يستطيعونه ، كما ورد في الحديث الذي حاورهم فيه الله تعالى أنهم يقولون أنت ربنا ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن ، وتصير أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً . انتهى .ونفي الاستطاعة للسجود في الآخرة لا يدل على أن لهم استطاعة في الدنيا كما ذهب إليه الجبائي و (خاشعة) حال وذو الحال الضمير في (يدعون) وخص الأبصار بالخشوع وإن كانت الجوارح كلها خاشعة ، لأنه أبين فيه منه في كل جارحة (ترهقهم) تغشاهم (ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود) قيل : هو عبارة عن جميع الطاعات ، وخص بالذكر من حيث هو أعظم الطاعات ومن حيث امتحنوا به في الآخرة ، وقال النخعي ، والشعبي : أراد بالسجود الصلوات المكتوبة ، وقال ابن جبير : كانوا يسمعون النداء للصلاة ، وحي على الفلاح فلا يجيبون (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) المعنى خل بيني وبينه فإني سأجازيه ، وليس ثم مانع . وهذا وعيد شديد لمن يكذب بما جاء به الرسول ﷺ من أمر الآخرة وغيره ، وكان تعالى قدم أشياء من أحوال السعداء والأشقياء و (مَن) في موضع نصب ، إما عطفاً على الضمير في (ذرني) ، وإما على أنه مفعول معه (سنستدرجهم) إلى قوله (متين) تكلم عليه في الأعراف ، (أم تسألهم أجراً) إلى (يكتبون) تكلم عليه في الطور ، روي أنه ﷺ أراد أن يدعو على الذين انهزموا بأحد حين اشتد بالمسلمين الأمر ، وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف فنزلت (فاصبر لحكم ربك) وهو إمهالهم وتأخير نصرك عليهم ، وامض لما أمرت به من التبليغ واحتمال الأذى (ولا تكن كصاحب الحوت) هو يونس عليه السلام (إذ نادى) أي في بطن الحوت وهو قوله : ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ [الأنبياء ٨٧] وليس النهي منصباً على الذوات ، إنما المعنى لا يكن حالك مثل حاله إذ نادى ، فالعامل في (إذ) هو المحذوف المضاف أي كحال أو كقصة صاحب الحوت (إذ نادى) وهو مكظوم مملوء

---

(١) البيتان من الرجز للعجاج انظر اللسان (عرق) روح المعاني (٢٩/٤٢) القرطبي (١٨/١٦٢) .

(٢) البيت من الرجز انظر الكامل (١/٢٢٤) .

(٣) البيت من البسيط لم نهتد لقائله انظر فتح القدير (٥/٢٧٥) .

(٤) البيت من الكامل لسعد بن مالك انظر اللسان (سوق) ديوان الحماسة (١/١٩٧) وروي الصراح بدل (البواح) .

غيظاً على قومه إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى الإيمان ، وأحوجوه إلى استعجال مفارقته إياهم ، وقال ذو الرمة :

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حُزْناً عَانِي الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُومُ[1]

وتقدمت مادة كظم في قوله ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران ١٣٤] ، وقرأ الجمهور (تداركه) ماضياً ولم تلحقه علامة التأنيث لتحسين الفصل ، وقرأ عبد الله ، وابن عباس (تداركته) بتاء التأنيث ، وابن هرمز ، والحسن والأعمش ، بشد الدال ، وقال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك . والأصل في ذلك تتداركه ، لأنه مستقبل انتصب بأن الخفيفة قبله ، وقال بعض المتأخرين : هذا لا يجوز على حكاية الحال الماضية المقتضية أي لولا ان كان يقال تتداركه ، ومعناه لولا هذه الحال الموجودة كانت له من نعم الله (لنبذ بالعراء) ونحوه قوله ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ [القصص ١٥] وجواب (لولا) قوله (لنبذ بالعراء وهو مذموم) أي : لكنه نبذه وهو غير مذموم ، كما قال : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ [الصافات ١٤٥] والمعتمد فيه على الحال لا على النبذ مطلقاً بل بقيد الحال ، وقيل : لنبذ بعراء القيامة مذموماً ، ويدل عليه (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) الصافات ١٤٣ ، ١٤٤ ثم أخبر تعالى أنه اجتباه أي اصطفاه (وجعله من الصالحين) أي الأنبياء ، وعن ابن عباس رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه ولما أمره تعالى بالصبر لما أراده تعالى ، ونهاه عن ما نهاه أخبره بشدة عداوتهم ليتلقى ذلك بالصبر لما أراده تعالى ونهاه عن ما نهاه أخبره فقال (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك) أي ليزلقون قومك بنظرهم الحاد الدال على العداوة المفرطة أو ليهلكونك من قولهم نظر إليّ نظراً يكاديصرعني ويكاد يأكلني أي لو أمكنه بنظره الصرع والأكل لفعله ، وقال الشاعر :

يَتَعَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوا فِي مَوْطِنٍ نَظَراً يـزِلُّ مَوَاطِنَ الأَقْدَامِ[2]

وقال الكلبي : (ليزلقونك) ليصرفونك ، وقرأ الجمهور (لَيُزلقونك) بضم الياء من أزلق ونافع بفتحها ، من زلقت الرجل عدّي بالفتحة من زلق الرجل بالكسر ، ونحو شترت عينه بالكسر وشتَرها الله بالفتح ، وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، والأعمش ، وعيسى (ليزهقونك) وقيل : معنى (ليزلقونك) بأبصارهم ليأخذونك بالعين ، وذكر أن اللفع بالعين كان في بني أسد ، قال ابن الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً ثم تسقط طائفة أو عدة منها ، قال الكفار لهذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ فأجابهم ، وأنشد :

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً وَإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ[3]

أي مصاب بالعين فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل عليه هذه الآية ، قال قتادة : نزلت لدفع العين حين أرادوا أن يعينوه عليه الصلاة والسلام ، وقال الحسن : دواء من أصابته العين أن يقرأ هذه الآية . وقال القشيري : الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان لا مع الكراهة والبغض ، وقال (ويقولون إنه لمجنون) وقال القرطبي : ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة له حتى يهلك انتهى . وقد يكون في المعين وإن كان مبغضاً عند العائن صفة يستحسنها العائن فيعينه من تلك الصفة لا سيما من تكون فيه صفات كمال لما سمعوا الذكر من يقول (لما) ظرف يكون العامل فيه ليزلقونك وإن

---

(١) البيت من البسيط ليس في ديوان ذي الرمة انظر روح المعاني (٤٥/٢٩) فتح القدير (٢٧٧/٥) .

(٢) انظر البيت في الكشاف (٥٩٧/٤) القرطبي (١٦٦/١٨) روح المعاني (٤٦/٢٩) .

(٣) البيت من الكامل للعباس بن مرداس انظر المقتضب (١٠٢/١) الخصائص (٢٦١/١) أمالي الشجري (١١٣/١) التصريح (٣٩٥/٢) الأشموني (٣٢٥/٤) روح المعاني (٤٦/٢٩) القرطبي (١٦٦/١٨) .

كان حرف وجوب لوجوب وهو الصحيح كان الجواب محذوفاً لدلالة ما قبله عليه أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ، و (الذكر) القرآن (ويقولون إنه لمجنون) تنفيراً عنه وقد علموا أنه ﷺ أتمهم فضلاً وأرجحهم عقلاً ، (وما هو) أي القرآن (إلا ذكر) عظة وعبرة (للعالمين) أي للجن والإنس فكيف ينسبون إلى الجن من جاء به .

سورة الحاقة مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

الحسوم : قال الفراء : من حسم الداء أي تابع بالمكواة عليه ، قال الشاعر :

فَفَـرَّق بَيْنَ جَمْعِهِـم زَمَـانٌ ... تَتَـابَـعَ فِيـهِ أَعْـوَامٌ حُسُـومُ[١]

وقال المبرد : حسمت الشيء : فصلته عن غيره ومنه الحسام ، قال الشاعر :

فَـأَرْسَلْتَ رِيحـاً دَبُـوراً عَـقِيـمـاً ... فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَـانَتْ حُسُومَـا[٢]

وقال الليث : الحسوم : الشؤم يقال : هذه ليالي الحسوم أي تحسم الخير عن أهلها وقاله في الصحاح . صرعى : هلكى ، الواحد : صريع وهي الشيء ضعف وتداعى للسقوط ، قال ابن شجرة من قولهم وَهَى السقاء إذا انخرق ، ومن أمثالهم قول الراجز :

خَـلِّ سَبِيـلَ مَنْ وَهَـى سِقَـاؤُهْ ... وَمَنْ هُـرِيـقَ بِـالْـفَـلَاةِ مَـاؤُهْ[٣]

الأرجاء : والجوانب، واحدها رجا ، أي : جانب من حائط أو بئر ونحوه ، وهو من ذوات الواو ، ولذلك برزت في التثنية ، قال الشاعر :

كَـأَنْ لَـمْ تَـرَ قَبْـلِي أَسِيـراً مُـقَـيَّـدا ... ولا رَجُـلاً يَـرْمِـي بـه الـرَّجَـوَانِ[٤]

وقال الآخر :

فَـلَا يَـرْمِي بِـهِ الـرَّجَـوَانِ إِنِّي ... أَقَـلُّ الْيَـوْمَ مَنْ يُغْنِي مَكَـانِـي[٥]

« هاء » بمعنى خذ فيها لغات ذكرناها في شرح التسهيل ، وقال الكسائي وابن السكيت : العرب تقول هـاء يا رجل ، وللاثنين رجلين ، أو امرأتين : هاؤما ، وللرجال : هاؤم وللمرأة : هاء بهمزة مكسورة من غير ياء ، وللنساء : هاؤن، قيل: ومعنى (هاؤم) خذوا، ومنه الخبر في الربا «إلا هاء وهاء» أي: يقـول كل واحـد لصاحبـه خذ، وقيـل: تعالوا ، وزعم القتبي أن الهمزة بدل من الكاف ، وهذا ضعيف إلا إن كان عني أنها تحل محلها في لغة من قال هاكَ وهاكِ وهاكما وهاكُم وهَاكُنَّ ، فيمكن أنه بدل صناعي لأن الكاف لا تبـدل من الهمزة ولا الهمـزة منها ، وقيـل : (هاؤم) كلمة وضعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط ، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ناداه أعرابي بصوت عال فجاوبه عليه الصلاة والسلام « هَاؤم » بصولة صوته ، وزعم قوم أنها مركبة في الأصل ، والأصل « هاء أموا » ثم نقله التخفيف والاستعمال ، وزعم قوم أن هذه الميم ضمير جماعة الذكور ، القطوف : جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمر ويقطف ، السلسلة : معروفة ، وهي حلق يدخل في حلق على سبيل الطول ، الذراع مؤنث وهو معروف ، وقال الشاعر :

أَرْمِي عَلَيْهَـا وَهْيَ فَـرْعٌ أَجْمَـعُ ... وَهْـيَ ثَـلَاثُ أَذْرُعٍ وَأُصْـبُـعُ[٦]

---

(١) البيت من الوافر لعبد العزيز بن زرارة الكلابي انظر القرطبي (١٨/ ١٦٩) الكشاف (٤/ ٥٩٩) .

(٢) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر فتح القدير (٥/ ٢٨٠) .

(٣) البيت من المتقارب لم نهتد لقائله انظر اللسان (وهى) القرطبي (١٨/ ١٧٢) روح المعاني (٢٩/ ٥٥) .

(٤) تقدم .

(٥) تقدم .

(٦) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر اللسان (ذرع) .

حض على الشيء حمل على فعله بتوكيد ،الغسلين: قال اللغويون: ما يجري من الجراح إذا غسلت ، الوتين : عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه، وقال الكلبي: عرق بين العلباء والحلقوم، والعلباء : عصب العنق، وهما علباوان بينهما العرق ، وقيل : عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر ، ومنه قول الشماخ :

إِذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عُرَابَةَ فَاشْرُقِي بِدَمِ الْوَتِينِ[1]

﴿ الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازٍ نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله المؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها، انه لما ذكر شيئاً من أحوال السعداء والأشقياء، وقال ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ [القلم ٤٤] ذكر حديث القيامة ، وما أعد الله تعالى لأهل السعادة ، وأهل الشقاوة وأدرج بينهما شيئاً من أحوال الذين كذبوا الرسل ، كعاد ، وثمود ، وفرعون ليزدجر بذكرهم ، وما جرى عليهم الكفار الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، وكانت العرب عالمة بهلاك عاد وثمود وفرعون فقص عليهم ذلك ، (الحاقة) المراد بها القيامة والبعث ، قاله ابن عباس وغيره ، لأنها حقت لكل عامل عمله ، وقال ابن عباس وغيره : لأنها تبدي حقائق الأشياء ، وقيل : سميت بذلك لأن الأمر يحق فيها ، فهي من باب ليل نائم و الحاقة اسم فاعل ، من حق الشيء : إذا ثبت ، ولم يشك في صحته وقال الأزهري : حاققته فحققته أحقه أي غالبته فغلبته ، فالقيامة حاقة ، لأنها تحقق كل محاق في دين الله بالباطل أي كل مخاصم ، فتغلبه ، وقيل (الحاقة) مصدر كالعاقبة والعافية ، و (الحاقة) مبتدأ و (ما) مبتدأ ثان ، (والحاقة) خبره والجملة خبر عن الحاقة والرابط تكرار المبتدأ بلفظه ، نحو « زيد ما زيد » (وما) استفهام لا يراد حقيقته بل التعظيم ، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد يعني التعظيم والتهويل (وما أدراك ما الحاقة) مبالغة في التهويل ، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة وتفصيل أوصافها (وما) استفهام أيضاً مبتدأ و (أدراك) الخبر ، والعائد على (ما) ضمير الرفع في (أدراك) (وما) مبتدأ ، و (الحاقة) خبر ، والجملة في موضع نصب بإدراك ، و (أدراك) معلقة ، وأصل درى أن يعدى بالباء ، وقد تحذف على قلة ، فإذا دخلت همزة النقل تعدى إلى واحد بنفسه ، وإلى الآخر بحرف الجر ، فقوله (ما الحاقة) بعد (أدراك) في موضع نصب بعد أسقاط حرف الجر، و(القارعة) من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بصدمتها، وقال الزمخشري : تقرع الناس بالأقراع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ، فوضع الضمير ليدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدَّتها .

ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم انتهى . وقرأ الجمهور (فأهلكوا) رباعياً مبنياً للمفعول ، وزيد بن علي (فهلكوا) مبنياً للفاعل ، قال قتادة (بالطاغية) بالصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة ، وقال مجاهد ، وابن زيد : بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها ، وقال ابن عباس ، وابن زيد أيضاً ، وأبو عبيدة ما معناه الطاغية مصدر كالعاقبة ، فكأنه قال بطغيانهم ، ويدل عليه

---

(١) تقدم .

﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس ١١] ، وقيل (الطاغية) عاقر الناقة ، والهاء فيه للمبالغة كرجل راوية وأهلكوا كلهم لرضاهم بفعله ، وقيل : بسبب الفئة الطاغية ، واختار الطبري وغيره أن الطاغية هي الصيحة وترجيح ذلك مقابلة سبب الهلاك في ثمود بسبب الهلاك في عاد وهو قوله (بريح صرصر) وتقدّم القول في (صرصر) في سورة القمر (عاتية) عتت على خُزَّانها فخرجت بغير مقدار ، أو على عاد فما قدروا على أن يتستروا منها ، أو وصفت بـذلك استعـارة لشدّة عصفها . والتسخير : هو استعمال الشيء باقتدار عليه فمعنى (سخرها عليهم) أي أقامها وأدامها (سبع ليال) بدت عليهم صبح الأربعاء لثمان بقين من شوّال إلى آخر الأربعاء تمام الشهر (حسوماً) قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو عبيدة تباعاً ، فلم يتخللها انقطاع ، وقال الخليل : شؤماً ونحساً ، وقال ابن زيد : (حسوماً) جمع حاسم أي تلك الأيام قطعتهم بالإهلاك ومنه حسم العلل والحسام ، وقال الزمخشري : وإن كان مصدراً فإما أن ينتصب بفعل مضمر أي تحسم حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً ، أو تكون صفة كقولك (ذات حسوم) ، تكون مفعولاً له أي سخرها عليهم للاستئصال ، وقرأ السدّي (حَسُوماً) بالفتح حالاً من الريح أي : سخرها عليهم مستأصلة ، وقيل : هي أيام العجز وهي آخر الشتاء ، وأسماؤها : الصين ، والصنبر ، والوبر ، والآمر ، والمؤتمر ، والمعلل ، ومصفى الجمر ، وقيل : مكفي الطعن (فترى القوم فيها) أي في الليالي والأيام ، أو في ديارهم أو في مهاب الريح احتمالات أظهرها : الأول ، لأنه أقرب ، ومصرح به ، وقرأ أبو نهيك (أعجز) على وزن أَفْعَل كضَبْع وأضْبُع ، وحكى الأخفش أنه قرىء (نخيل خاوية) خلت أعجازها بلى وفساداً ، وقال ابن شجرة : كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحسو من أدبارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية ، وقال يحيى بن سلام : خلت أبدانهم من أرواحهم ، وقال ابن جريج : كانوا في سبعة أيام في عذاب ، ثم في الثامن ماتوا وألقتهم الريح في البحر ، فذلك قوله (فهل ترى لهم من باقية) ، وقال ابن الأنباري : (من باقية) أي من باقٍ والهاء للمبالغة ، وقال أيضاً : من فئة باقية، وقيل : (من باقية) من بقاء مصدر جـاء على فـاعلة كالعاقبة ، وقرأ أبو رجاء ، وطلحة ، والجحدري ، والحسن بخلاف عنه ، وعاصم في رواية أبان والنحويان (ومن قِبَله) بكسر القاف وفتح الباء أي أجناده وأهل طاعته،وتقول زيد قبلك أي : فيما يليك من المكان ، وكثر استعمال قبلك حتى صار بمنزلة عندك وفي جهتك وما يليك بأي وجه ولي ، وقرأ باقي السبعة ، وأبو جعفر ، وشيبة والسلمي (ومن قبله) ظرف زمان أي الأمم الكافرة التي كانت قبله ، كقوم نوح ، وقد أشار إلى شيء من حديثه بعد هذا (والمؤتفكات) قـرى قوم لوط، وقرأ الحسن هنا (والمؤتفكة) على الافراد (بالخاطئة) أي بالفعلة أو الفعلات الخاطئة قاله مجاهد : أو بالخطأ فيكون مصدراً جاء على فاعلة كالعاقبة قاله الجرجاني (فعصوا رسول ربهم) (رسول) جنس وهو من جاءهم من عند الله تعالى كموسى ولوط عليهما السلام ، وقيل : لوط عليه السلام أعاده على أقرب مذكور وهو رسول المؤتفكات ، وقال الكلبي : موسى عليه السلام أعاده على الأسبق وهو رسول فرعون ، وقيل (رسول) بمعنى رسالة (رابية) أي نامية ، قال مجاهد : شديدة يريد أنها زادت على غيرها من الأخذات وهي الغرق وقلب المدائن ، (أنا لما طغى الماء) أي : زاد وعلا على أعلى جبل في الدنيا خمس عشر ذراعاً ، قال ابن جبير طغى على الخزان كما طغت الريح على خزانها (حملناكم) أي في أصلاب آبائكم (في الجارية) هي سفينة نوح عليه السلام ، وكثر استعمال الجارية في السفينة ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ [الشورى ٣٢] وقال الشاعر :

تِسْعُونَ جَارِيَةً فِي بَطْنِ جَارِيَةٍ[1]

وقال المهدوي : المعنى في السفن الجارية يعني أن ذلك هو على سبيل الامتنان ، والمحمولـون : هم المخاطبـون

---

(١) شطر بيت من البسيط ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

(لنجعلها) أي سفينة نوح عليه السلام (لكم تذكرة) بما جرى لقومه الهالكين وقومه الناجين فيها وعظة ، قال قتادة أدركها أوائل هذه الأمة ، وقال ابن جريج : كانت ألواحها على الجودي ، وقيل : لنجعل تلك الجملة في سفينة نوح عليه السلام لكم موعظة تذكرون بها نجاة آبائكم ، وإغراق مكذبي نوح عليه السلام (وتعيها) أي تحفظ قصتها أذن من شأنها أن تعي المواعظ ، يقال : وعيت لما حفظ في النفس ، وأوعيت لما حفظ في غير النفس من الأوعية ، وقال قتادة : الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وفي الحديث أنه ﷺ قال لعلي « إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي » » قال علي رضي الله تعالى عنه فما سمعت بعد ذلك شيئاً، فنسيته وقرأها (وتعِيها) بكسر العين وتخفيف الياء العامة ، وابن مصرف ، وأبو عمرو ، في رواية هارون ، وخارجة عنه ، وقنبل بخلاف عنه بإسكانها ، وحمزة باخفاء الحركة . ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل نحو كبد ، وعلم وتعي ليس على وزن فعل بل هو مضارع وعى ، فصار إلى فعل وأصله يفعل حذفت واوه ، وروي عن عاصم عصمة ، وحمزة الأزرق (وتعيّها) بتشديد الياء ، قيل : وهو خطأ ، وينبغي أن يتأول على أنه أريد به شدة بيان الياء احترازاً ممن سكنها لا إدغام حرف في حرف ، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم ، وروي عن حمزة ، وعن موسى بن عبد الله العنسي (وتعيها) بإسكان الياء فاحتمل الاستئناف وهو الظاهر ، واحتمل أن يكون مثل قراءة (من أوسط ما تطعمون أهاليكم) بسكون الياء ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) لم قيل (أذن واعية) على التوحيد والتنكير (قلت :) للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت ، وعقلت عن الله تعالى فهي السواد الأعظم عند الله تعالى ، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وإن ملؤوا ما بين الخافقين انتهى . وفيه تكثير .

ولما ذكر تعالى تعالى ما فعل بمكذبي الرسل من العذاب في الدنيا ذكر أمر الآخرة ، وما يعرض فيها لأهل السعادة ، وأهل الشقاوة وبدأ بأعلام يوم القيامة فقال (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) وهذه النفخة نفخة الفزع ، قال ابن عباس : وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب العالم ، ويؤيد ذلك قوله (وحملت الأرض والجبال) وقال ابن المسيب ، ومقاتل : هي النفخة الآخرة ، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ ، والواو لا ترتب . وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً ، ولما كانت (مرة) أكدت بقوله (واحدة) ، وقرأ الجمهور (نفخةٌ واحدةٌ) برفعهما ولم تلحق التاء نفخ لأن تأنيث النفخة مجازي ووقع الفصل ، وقال ابن عطية : لما نعت صح رفعه . انتهى . ولو لم ينعت لصح لأن نفخة مصدر محدود ونعته ليس بنعت تخصيص ، إنما هو نعت توكيد ، وقرأ أبو السمال بنصبهما أقام الجار والمجرور مقام الفاعل ، وقرأ الجمهور (وحُمِلَت) بتخفيف الميم وابن أبي عبلة ، وابن مقسم ، والأعمش ، وابن عامر في رواية يحيى بتشديدها ، فالتخفيف على أن تكون الأرض والجبال حملتها الريح العاصف ، أو الملائكة ، أو القدرة من غير واسطة مخلوق ، ويبعد قول من قال إنها الزلزلة ، لأن الزلزلة ليس فيها حمل ، إنما هي اضطراب ، والتشديد على أن تكون للتكثير ، أو يكون التضعيف للنقل ، فجاز أن تكون الأرض والجبال المفعول الأول أقيم مقام الفاعل ، والثاني محذوف أي ريحاً تفتتها ، أو ملائكة ، أو قدرة وجاز أن يكون الثاني أقيم مقام الفاعل ، والأول محذوف وهو واحد من الثلاثة المقدرة . وثني الضمير في (فدكتا) وإن كان قد تقدمه ما يعود عليه ضمير الجمع لأن المراد جملة الأرض ، وجملة الجبال أي : ضرب بعضها ببعض حتى تفتتت وترجع كما قال تعالى : ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل ١٤] والدك فيه : تفرق الأجزاء لقوله هباء والدق فيه اختلاف الأجزاء ، وقيل تبسط فتصير أرضاً (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) وهو من قولهم بعير أدَك ، وناقة دكاء إذا ضعفا فلم يرتفع سنامهما واستوت عراجينهما مع ظهريهما (فيومئذ) معطوف على (فإذا نفخ في الصور) وهو منصوب بوقعت كما أن (إذا) منصوب بنفخ على ما اخترناه وقررناه ، واستدللنا له في أن العامل في إذا هو الفعل الذي يليها لا الجواب وإن كان مخالفاً

لقول الجمهور والتنوين في إذ للعوض من الجملة المحذوفة وهي في التقدير « فيوم إذ نفخ في الصور وجرى كيت وكيت » و (الواقعة) هي القيامة ، وقد تقدم في إذا وقعت الواقعة أن بعضهم قال : هي صخرة بيت المقدس ، (وانشقت السماء) أي : انفطرت وتميز بعضها من بعض (فهي) يوم إذ انشقت (واهية) ضعيفة لتشققها بعد أن كانت شديدة ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ [النازعات ٢٧] أو منخرقة كما يقال وهى السقاء انخرق ، وقيل : انشقاقها لنزول الملائكة قال تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان ٢٥] وقيل : انشقاقها لهول يوم القيامة (والملك على أرجائها) ، قال ابن عباس : على حافاتها حين تنشق ، والظاهر : أن الضمير في حافاتها عائد على السماء ، وقال ابن جبير ، والضحاك : على حافات الأرض ينزلون إليها يحفظون أطرافها وإن لم يجر لها ذكر قريب ، كما روي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ، ثم ملائكة الثانية فيصفون حولهم ، ثم ملائكة كل سماء فكلما ندّ أحد من الجن والإنس وجد الأرض أحيط بها (والملك) اسم جنس يراد به الملائكة ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما الفرق بين قولك (والملك) وبين أن يقال والملائكة (قلت :) الملك أعم من الملائكة ، ألا ترى أن قولك ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك ما من ملائكة . انتهى . ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسية قصاراه أن يراد به الجمع المحلى بهما ، ولذلك صح الاستثناء منه فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما ، وأما دعواه أنه أعم منه بقوله ألا ترى إلخ فليس دليلاً على دعواه لأن (من ملك) نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها من المخلصة للاستغراق فشملت كل ملك ، فاندرج تحتها الجمع لوجود الفرد فيه ، فانتفى كل فرد فرد بخلاف من ملائكة فإن (من) دخلت على جمع منكر ، فعم كل جمع جمع من الملائكة ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد فرد من الملائكة ، لو قلت « ما في الدار من رجال » جاز أن يكون فيها واحد ، لأن النفي إنما انسحب على جمع ، ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد والملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه من فيكون أعم من جمع ، دخلت عليه من ، وإنما جيء به مفرداً لأنه أخف ، ولأن قوله على أرجائها يدل على الجمع لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد ، بل في أوقات ، والمراد والله تعالى أعلم : أن الملائكة على أرجائها لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات ، وقال الزمخشري : يعني أنها تنشق وهي مسكن الملائكة فينضوون إلى أطرافها وما حولها من حافاتها انتهى . والضمير في فوقهم عائد على الملك ضمير جمع على المعنى لأنه يراد به الجنس قال معناه الزمخشري ، وقيل يعود على الملائكة الحاملين ، أي فوق رؤوسهم، وقيل: على العالم كلهم ، والظاهر: أن التمييز المحذوف في قوله (ثمانية) أملاك أي ثمانية أشخاص من الملائكة ، وعن الضحاك ثمانية صفوف ، وعن الحسن : الله أعلم كم هم أثمانية صفوف ؟ أم ثمانية أشخاص ؟ وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً (يومئذ) أي : يوم إذ كان ما ذكر (تُعْرَضون) أي : للحساب و (تعرضون) هو جواب قوله (فإذا نفخ) فإن كانت النفخة هي الأولى فجاز ذلك لأنه اتسع في اليوم فجعل ظرفاً للنفخ ووقوع الواقعة ، وجميع الكائنات بعدها وإن كانت النفخة هي الثانية فلا يحتاج إلى اتساع ، لأن قوله (فيومئذ) معطوف على فإذا و (يومئذ تعرضون) بدل من فيومئذ وما بعد هذه الظروف واقع في يوم القيامة ، والخطاب في (تعرضون) لجميع العالم المحاسبين ، وعن عبد الله رأى موسى في القيامة عرضتان فيهما معاذير وتوقيف وخصومات ، وثالثة تتطاير فيها الصحف للأيمان والشمائل ، وقرأ الجمهور (لا تخفى) بتاء التأنيث ، وعلي ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وابن مقسم عن عاصم ، وابن سعدان بالياء (خافية) سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا ، قوله عز وجل ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه**

ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أما حرف تفصيل ، فصل بها ما وقع في يوم العرض ، ويظهر أن من قضي عليه دخول النار من الموحدين أنه في يوم العرض يأخذ كتابه بيمينه مع الناجين من النار ، ويكون ذلك يأنس به مدة العذاب ، وقيل لا يأخذه حتى يخرج من النار وإيمانه أنيسه مدة العذاب ، وقيل : وهذا يظهر لأن من يُسَار به إلى النار كيف يقول (هاؤم اقرؤوا كتابيه) وهل هذا إلا استبشار وسرور فلا يناسب دخول النار ، و (هاؤم) إن كان مدلولها خذ فهي منسلطة على (كتابيه) بغير واسطة ، وإن كان مدلولها تعالوا فهي متعدية إليه بواسطة إلى . و (كتابيه) يطلبه (هاؤم) و(اقرؤوا) فالبصريون يعملون (اقرؤوا) والكوفيون يعملون (هاؤم) وفي ذلك دليل على جواز التنازع بين اسم الفعل والقسم ، وقرأ الجمهور (كتابيه) و (حسابيه) في موضعيها و (ماليه وسلطانيه) وفي القارعة (ماهيه) بإثبات هاء السكت وقفاً ووصلاً لمراعاة خط المصحف ، وقرأ ابن محيصن بحذفها وصلاً ووقفاً وإسكان الياء وذلك : كتابي ، وحسابي ، ومالي ، وسلطاني ، ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه في (ماهيه) في القارعة وابن أبي إسحاق ، والأعمش بطرح الهاء فيهما في الوصل لا في الوقف ، وطرحها حمزة في مالي ، وسلطاني ، وما هي في الوصل لا في الوقف ، وفتح الياء فيهن ، وما قاله الزهراوي من أن إثبات الهاء في الوصل لحن ، لا يجوز عند أحد علمته ليس كما قال ، بل ذلك منقول نقل التواتر فوجب قبوله (إني ظننت) أي : أيقنت ، ولو كان ظناً فيه تجويز لكان كفراً ، (فهو في عيشة راضية) ذات رضا ، وقال أبو عبيدة ، والفراء (راضية مرضية) كقوله (من ماء دافق) أي مدفوق ، (في جنة عالية) أي مكاناً وقدراً ، (قطوفها) أي ما يجنى منها (دانية) أي قريبة التناول يدركها ، القائم ، والقاعد والمضطجع ، بفيه من شجرتها ، (كلوا واشربوا) أي يقال وهنيئاً تقدم الكلام عليه في أول النساء ، وقال الزمخشري : هنيئاً أكلاً وشرباً ، هنيئاً أو هنيتم هنيئاً على المصدر . انتهى . فقوله أكلاً وشرباً هنيئاً يظهر منه جعل هنيئاً صفة لمصدرين ولا يجوز ذلك إلا على تقدير الإضمار عند من يجيز ذلك أي أكلا هنيئاً وشربا هنيئاً (بما أسلفتم) أي قدمتم من العمل الصالح (في الأيام الخالية) يعني أيام الدنيا ، وقال مجاهد ، وابن جبير ، ووكيع ، وعبد العزيز بن رفيع : أيام الصوم ، أي بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله تعالى ، والظاهر : العموم في قوله (بما أسلفتم) أي من الأعمال الصالحة ، (يا ليتني لم أوت كتابيه) لما رأى فيه قبائح أفعاله وما يصير أمره إليه تمنى أنه لم يعطه وتمنى أنه لم يدر حسابه ، فإنه انجلى عنه حسابه عن ما يسوءه فيه ، إذ كان عليه لا له (يا ليتها) أي الموتة التي متها في الدنيا (كانت القاضية) أي القاطعة لأمري فلم أبعث ولم أعذب ، أو يا ليت الحالة التي انتهيت إليها الآن كانت الموتة التي منها في الدنيا ، حيث رأى أن حالته التي هو فيها أمر مما ذاقه من الموتة ، وكيف لا وأمره آل إلى عذاب لا ينقطع ، (ما أغنى عني ماليه) يجوز أن يكون نفياً محضاً ، أخبر بذلك متأسفاً على ماله حيث لم ينفعه ويجوز أن يكون استفهاماً وبخ به نفسه وقررها عليه ، (هلك عني سلطانيه) أي حجتي ، قاله ابن عباس ، ومجاهد والضحاك ، وعكرمة ، والسدي ، وقال ابن زيد : ذلك ملوك الدنيا وكان عضد الدولة بن بويه لما تسمى بملك الأملاك غلاب القدر لم يفلح وجن فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله (هلك عني سلطانيه) خذوه أي يقال للزبانية (خذوه فغلوه) أي اجعلوا في عنقه غلاً (ثم الجحيم صلوه) قال الزمخشري : ثم لا تصلوه الا الجحيم وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس يقال صلي النار وصلاه النار . انتهى . وإنما قدره لا تصلوه إلا الجحيم لأنه يزعم أن تقديم المفعول يدل على الحصر ، وقد تكلمنا معه في ذلك عند قوله (إياك نعبد) وليس ما قاله مذهباً لسيبويه ولا لحذاق النحاة ، وأما قوله لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس ، فهذا قول ابن زيد وهو مرجوح والراجح قول ابن عباس ومن ذكر معه أن السلطان هنا هو الحجة التي كان يحتج بها في الدنيا لأن من أوتي كتابه بشماله ليس مختصاً بالملوك بل هو عام في جميع أهل الشقاوة ، (ثم في سلسلة ذرعها) أي قياسها ومقدار طولها (سبعون ذراعاً) يجوز أن يراد ظاهره من العدد ، ويجوز أن يراد المبالغة في طولها

وإن لم يبلغ هذا العدد ، قال ابن عباس ، وابن جريج ، ومحمد بن المنكدر بذراع الملك ، وقال نوف البكالي وغيره : الذراع سبعون باعاً في كل باع كما بين مكة والكوفة ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح ، وقال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هي ، وقيل : بالذراع المعروف ، وإنما خاطبنا تعالى بما نعرفه ونحصله وقال ابن عباس : لو وضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص (فاسلكوه) أي أدخلوه كقوله : ﴿ فسلكه ينابيع ﴾ [الزمر ٢١] والظاهر : أنه يدخله في السلسلة ولطولها تلتوي عليه من جميع جهاته فيبقى داخلاً فيها مضغوطاً حتى تعمه ، وقيل : في الكلام قلب ، والسلسلة تدخل في فمه وتخرج من دبره فهي في الحقيقة التي تسلك فيه ، ولا ضرورة تدعو إلى إخراج الكلام عن ظاهره إلا إن دل الدليل الصحيح على خلافه ، وقال الزمخشري : والمعنى في تقديم السلسلة على السلك : مثله في تقديم الجحيم على التصلية . أي : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم ، ومعنى (ثم) الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك في السلسلة ، لا على تراخي المدة . انتهى . وقد تقدم أن من مذهبه الحصر في تقديم المعمول وأما (ثم) فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية ، وأنه أولاً يؤخذ فيغل ، ولما لم يعذب بالعجلة صارت له استراحة ، ثم جاء تصلية الجحيم فكان ذلك أبلغ في عذابه إذ جاءه ذلك . وقد سكنت نفسه قليلاً ، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولاً معذباً في النار ، لكنه كان له انتقال من مكان إلى مكان فيجد بذلك بعض تنفس ، فلما سلك في السلسلة كان ذلك أشد ما عليه من العذاب حيث صار لا حراك له ولا انتقال ، وأنه يضيق عليه غاية ، فهذا يصح فيه أن تكون (ثم) على موضوعها من المهلة الزمانية ، (أنه كان لا يؤمن) بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله (وإنه) تعليل مستأنف ، كأن قائلاً لم يعذب هذا العذاب البليغ ؟ قيل إنه كان لا يؤمن ، وعطف (ولا يحض) على (لا يؤمن) داخل في العلة ، وذلك يدل على عظم ذنب من لا يحض على إطعام المسكين ، إذ جُعل قرين الكفر ، وهذا حكم ترك الحض فكيف يكون ترك الإطعام ؟ والتقدير على إطعام طعام المسكين ، وأضاف الطعام إلى المسكين من حيث لم ينسبه إليه إذ يستحق المسكين حقاً مال الغني الموسر ولو بأدنى يسار ، وللعرب في مكارمهم وإيثارهم آثار عجيبة غريبة بحيث لا توجد في غيرهم ، وما أحسن ما قيل فيهم :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

وكان أبو الدرداء يحض امرأته على تكثير الرزق لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر ؟ ، وقيل : هو منع الكفار وقولهم ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ [يس ٤٧] يعني أنه إذا نفي الحض انتفى الإطعام بجهة الأولى كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ [المدثر ٤٣ ، ٤٤] (فليس له اليوم ها هنا حميم) أي صديق ملاطف وادّ ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ﴾ [الزخرف ٦٧] وقيل قريب يدفع عنه (ولا طعام إلا من غسلين) قال ابن عباس : هو صديد أهل النار ، وقال قتادة ، وابن زيد : هو والزقوم أخبث شيء وأبشعه ، وقال الضحاك ، والربيع : هو شجر يأكله أهل النار ، وقيل : هو شيء يجري من أهل النار يدل على هذا قوله في الغاشية ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ [الغاشية ٦] فهما شيء واحد أو متداخلان ، قيل : ويجوز أن يكونا متباينين وأخبر بكل واحد منهما عن طائفة غير الطائفة التي الآخر طعامها ، و (له) خبر ليس ، وقال المهدوي : ولا يصح أن يكون (ها هنا) ، ولم يبين ما المانع من ذلك ، وتبعه القرطبي في ذلك وقال : لأن المعنى يصير ليس ها هنا طعام إلا من غسلين ، ولا يصح ذلك ، لأنَّ ثَمَّ طعاماً غيره . و (ها هنا) متعلق بما في (له) من معنى الفعل . انتهىٰ . وإذا كان ثم غيره من الطعام ، وكان الأكل غير أكل آخر صح الحصر بالنسبة إلى اختلاف الأكلين ، وأما إن كان الضريع هو الغسلين كما قال بعضهم فلا تناقض إذ المحصور في الآيتين هو شيء واحد ، وإنما يمتنع ذلك من وجه غير ما ذكره ، وهو أنه إذا جعلنا الخبر ها هنا كان له واليوم متعلقين بما تعلق به الخبر وهو العامل في ههنا وهو عامل معنوي فلا يتقدم معموله عليه ، فلو كان

العامل لفظياً جاز كقوله تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) فله متعلق بكفواً وهو خبر ليكن ، وقرأ الجمهور (الخاطئون) بالهمز اسم فاعل من خطىء وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك ، والمخطىء الذي يفعله غير متعمد ، وقرأ الحسن ، والزهري ، والعتكي ، وطلحة في نقل بياء مضمومة بدلاً من الهمزة ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وطلحة ، ونافع بخلاف عنه بضم الطاء دون همز ، فالظاهر اسم فاعل من خطىء كقراءة من همز ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ، ويتعدون حدود الله . انتهى . فيكون اسم فاعل من خطا يخطو كقوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان) خطا إلى المعاصي . قوله عز وجل ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ تقدم الكلام في (لا) قبل القسم في قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم) وقراءة الحسن (لأقسم) بجعلها لاماً دخلت على أقسم ، وقيل : (لا) هنا نفي للقسم أي لا يحتاج في هذا إلى قسم لوضوح الحق في ذلك ، وعلى هذا فجوابه القسم . قال مقاتل سبب ذلك : أن الوليد قال : إن محمداً ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر ، وقال : كاهن فردّ الله عليهم بقوله فلا أقسم بقوله (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) عام في جميع مخلوقاته ، وقال عطاء : (ما تبصرون) من آثار القدرة (وما لا تبصرون) من أسرار القدرة ، وقيل : الأجساد والأرواح (إنه) أي إن القرآن (لقول رسول كريم) هو محمد ﷺ في قول الأكثرين ويؤيده (وما هو بقول شاعر) وما بعده ونسب القول إليه ، لأنه هو مبلغه والعامل به ، وقال ابن السائب ، ومقاتل ، وابن قتيبة ، هو جبريل عليه السلام ، إذ هو الرسول عن الله . ونفى تعالى أن يكون قول شاعر لمباينته لضروب الشعر ، ولا قول كاهن لأنه وردُ بسبّ الشياطين ، وانتصب (قليلاً) على أنه صفة لمصدر محذوف ، أو لزمان محذوف ، أي : تؤمنون إيماناً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ، وكذا التقدير في (قليلاً ما تذكرون) والقلة : هو إقرارهم إذا سئلوا من خلقهم قالوا الله . وقال ابن عطية : ونصب (قليلاً) بفعل مضمر يدل عليه (تؤمنون) و (ما) تحتمل أن تكون نافية ، فينتفي إيمانهم البتة ، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية والمتصف بالقلة هو الإيمان اللغوي لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ هو حق صواب . انتهى . أمّا قوله ونصب (قليلاً) بفعل مضمر يدل عليه (تؤمنون) فلا يصح لأن ذلك الفعل الدال عليه (تؤمنون) إما أن تكون (ما) نافية أو مصدرية كما ذهب إليه ، فإن كانت نافية فذلك الفعل المضمر الدال عليه (تؤمنون) المنفي بما يكون منفياً فيكون التقدير (ما تؤمنون قليلاً ما تؤمنون) والفعل المنفي بما لا يجوز حذفه ولا حذف « ما » ، لا يجوز « زيداً ما أضربه » على تقدير « ما أضرب زيداً ما أضربه » وإن كانت مصدرية كانت (ما) في موضع رفع على الفاعلية بقليلاً أي : إيمانكم ، ويبقى (قليلاً) لا يقدمه ما يعتمد عليه حتى يعمل ولا ناصب له وأما في موضع رفع على الابتداء فيكون مبتدأ لا خبر له ، لأن ما قبله منصوب لا مرفوع . وقال الزمخشري : والقلة معنى العدم ، أي : لا تؤمنون ولا تذكرون البتة . والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم انتهى . ولا يراد بقليلاً هنا النفي المحض كما زعم ، وذلك لا يكون إلا في « أقل » نحو « أقل رجل يقول ذلك إلا زيد » وقد تستعمل في قليل وقليلة إذا كانا مرفوعين نحو ما جوزوا في قوله :

قَلِيلٌ بِهَا الأَصْوَاتُ إِلاَّ بُغَامُهَا[1]

---

(١) عجز بيت من الطويل لذي الرمة ديوانه (٧١٦) .

انيطت فألقت بلدة فوق بلدة ....

انظر الخزانة (٢/ ٥١) . ديوانه (٧١٦) .

أما إذا كان منصوباً نحو « قليلاً ضربت » أو « قليلاً ما ضربت » أن تكون « ما » مصدرية ، فإن ذلك لا يجوز ، لأنه في قليلاً ضربت منصوب بضربت ولم تستعمل العرب قليلاً إذا انتصب بالفعل نفياً بل مقابلاً لكثير ، وأمّا « قليلاً ما ضربت » على أن تكون ما مصدرية فتحتاج إلى رفع قليل ، لأن ما المصدرية في موضع رفع على الابتداء ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو بخلاف عنهما ، والجحدري ، والحسن (يؤمنون) (يذكرون) بالياء فيهما ، وباقي السبعة بتاء الخطاب ، وأبيّ بياءين ، وقرأ الجمهور (تنزيل) بالرفع . وأبو السمال (تنزيلاً) بالنصب ، وقرأ الجمهور (ولو تقول) والتقول : أن يقول الإنسان عن آخر إنه قال شيئاً لم يقله . وقرأ ذكوان ، وابنه محمد (يقول) مضارع قال ، وهذه القراءة معترضة بما صرحت به قراءة الجمهور . وقرىء (ولو تُقُوِّل) مبنياً للمفعول ، وحذف الفاعل ، وتام المفعول مقامه وهو بعض إن كان قرىء مرفوعاً ، وإن كان قرىء منصوباً بعلينا قام مقام الفاعل ، والمعنى : ولو تقول علينا متقول ولا يكون الضمير في (تقول) عائد على الرسول ﷺ لاستحالة وقوع ذلك منه فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه عليه الصلاة والسلام و (الأقاويل) جمع الجمع وهو أقوال كبيت وأبيات وأبابيت ، قال الزمخشري : وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً كقولك الأعاجيب والأضاحيك كأنها أفعولة من القول ، والظاهر أن قوله (باليمين) المراد به الجارحة فقال الحسن : المعنى قطعناه عبرة ونكالاً والباء على هذا زائدة ، وقيل : الأخذ على ظاهره ، قال الزمخشري : والمعنى ولو ادعى مدع علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما تفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول : وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته . وخص اليمين على اليسار، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحفه بالسيف ، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه . ومعنى (لأخذنا منه باليمين) لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله تعالى (لقطعنا منه الوتين) لقطعنا وتينه انتهى . وهو قول للمتقدمين حسنه الزمخشري بتكثير ألفاظه ومصاغها قالوا : المعنى لأخذنا بيده التي هي اليمين على جهة الإذلال والصغار ، كما يقول السلطان إذا أراد عقوبة رجل « يا غلام خذ بيده وافعل كذا » قاله أو قريباً منه الطبري ، وقيل : اليمين هنا مجاز ، فقال ابن عباس : باليمين بالقوّة معناه لنلنا منه عقابه بقوّة منّا ، وقال مجاهد : بالقدرة ، وقال السدّي : عاقبناه بالحق و (من) على هذا صلة ، وقال نفطويه : لقبضنا بيمينه عن التصرّف ، وقيل : لنزعنا منه قوّته ، وقيل : لأذللناه وأعجزناه (ثم لقطعنا منه الوتين) ، قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وقال مجاهد : حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع والموتون الذي قطع وتينه ، والمعنى : لو تقول علينا لأذهبنا حياته معجلاً ، والضمير في عنه الظاهر أنه يعود على الذي تقول ، ويجوز أن يعود على القتل أي لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه والخطاب في (منكم) للناس ، والظاهر : في (حاجزين) أن يكون خبراً لما على لغة الحجاز ، لأن حاجزين هو محط الفائدة ، ويكون منكم لو تأخر لكان صفة لأحد فلما تقدّم صار حالاً وفي جواز هذا نظر أو يكون للبيان أو تتعلق بحاجزين كما تقول « ما فيك زيد راغباً » ولا يمنع هذا الفصل من انتصاب خبر ما ، وقال الحوفي ، والزمخشري (حاجزين) نعت لأحد على اللفظ ، وجمع على المعنى ، لأنه في معنى الجماعة يقع في النفي العام للواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، ومنه ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة ٢٨٥] وقوله ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ [الأحزاب ٣٢] مثل بهما الزمخشري وقد تكلمنا على ذينك في موضعيهما، وفي الحديث: «لم تحل لأحد سود الرؤوس قبلكم» وإذا كان «حاجزين» نعتاً و(من أحد) مبتدأ والخبر (منكم) ويضعف هذا القول ، لأن النفي يتسلط على الخبر وهو كينونته منكم فلا يتسلط على الحجز ، وإذا كان حاجزين خبراً تسلط النفي عليه ، وصار المعنى ما أحد منكم يحجزه عن ما يريد به من ذلك (وإنه لتذكرة) أي : وإن القرآن أو الرسول ﷺ ، (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) وعيد أي مكذبين بالقرآن أو بالرسول ﷺ ، (وإنه لحسرة) أي القرآن من حيث كفروا به ويرون من آمن به ينعم وهم معذبون ، وقال مقاتل وإن تكذيبهم بالقرآن (لحسرة) عليهم عاد الضمير على

المصدر المفهوم من قوله مكذبين كقوله :

إذا نهي السفيه جرى إليه

أي للسفه ، (وإنه) أي وإن القرآن (لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) وسبق الكلام على إضافة حق إلى اليقين في آخر الواقعة .

سورة المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(العِهْن) الصوف دون تقييد ، أو الأحمر أو المصبوغ ألواناً أقوال ، « الفصيلة » قال ثعلب : الآباء الأدنون ، وقال أبو عبيدة الفخذ ، وقيل : عشيرته الأقربون ، لظى : اسم لجهنم ، أو للدركة الثانية من دركاتها وهو علم منقول من اللظى وهو اللهب ومنع الصرف هو للعلمية والتأنيث ، والشَّوَى : جمع شواة وهي جلدة الرأس ، وقال الأعشى :

قَـالَـتْ قُـتَـيْـلَةُ مَـا لَـهُ   قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَـوَاتُـهْ[1]

والشوى : جلد الإنسان ، والشوى : قوائم الحيوان ، والشوى : كل عضو ليس بمقتل ، ومنه رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل ، والشوى : زوال المال ،والشوى : الشيء الهين اليسير ، الهلع : الفزع والاضطراب السريع عند مس المكروه والمنع السريع عند مس الخير من قولهم ؛ ناقة هلوع سريعة السير ، وقال أبو عبيدة : الهلع في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع ، الجزع : الخوف قال الشاعر :

جَزِعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعَا

عزين : جمع عزة ، قال أبو عبيدة : جماعات في تفرقة ، وقيل الجمع اليسير كثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ، وقال الأصمعي : في الدار عزون أي أصناف من الناس ، وقال عنترة :

وَقِـرْنٍ قَـدْ تَـرَكْـتُ لَـذِي وَلِيٍّ   عَلَيْهِ الطَّيْرُ كَالْعُصَبِ الْعِـزِينِ[2]

وقال الراعي :

أَخَلِيفَـةَ الـرَّحْمَنِ إِنَّ عَـشِيـرَتِـي   أَمْـسَى سَـوَاتُـهُمْ عِـزِيـنَ فُلُولاً[3]

وقال الكميت :

وَنَحْنُ وَجَـنْـدَلٌ بَـاغٍ تَـرَكْـنَـا   كَتَائِبَ جَنْدَلٍ شَتَّى عِـزِينَـا[4]

وقال آخر :

تَـرَانَـا عِـنْـدَهُ وَاللَّـيْـلُ دَاجٍ   عَلَى أَبْـوَابِـهِ حَلَقـاً عِزِينَـا[5]

وقال آخر :

فَـلَمَّـا أَنْ أَتَيْـنَ عَـلَى أُضَـاخٍ   ضَـرَجْنَ حَصَاهُ أَشْتَـاتـاً عِـزِينَـا[6]

وعزة مما حذفت لامه ، فقيل : هي واو وأصله عزوة ، كأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى ، فهم متفرقون ويقال عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره ، وقيل : لامها هاء والأصل عزهة وجمعت ، عزة بالواو والنون ، كما جمعت سنة وأخواتها بذلك وتكسر العين في الجمع وتضم وقالوا عزى على فعل ولم يقولوا عزات ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذي المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً**

---

(١) البيت من مجزوء الكامل ليس في ديوان الأعشى انظر اللسان (شوا) القرطبي (١٨/١٨٦ ـ ١٨٧) روح المعاني (٢٩/٧٥) فتح القدير (٥/٢٩٠) .

(٢) البيت من الوافر انظر القرطبي (١٨/١٩٠) فتح القدير (٥/٢٩٣) .

(٣) البيت من الكامل انظر مجاز القرآن (٢/٢٧٠) معاني الفراء (٣/١٨٦) القرطبي (١٨/١٩٠) .

(٤) البيت من الوافر انظر الكشاف (٤/٤٩١) القرطبي (١٨/١٩٠) .

(٥) البيت من الوافر لم نهتد لقائله انظر القرطبي (١٨/١٩٠) .

(٦) البيت من الوافر لم نهتد لقائله انظر القرطبي (١٨/١٩٠) اللسان (غزا) .

جميلًا ، إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميـاً ، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى ، إنَّ الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جنات مكرمون ﴾ هذه السورة : مكية ، قال الجمهور : نزلت في النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال ٣٢] الآية ، وقال الربيع بن أنس : في أبي جهل ، وقيل : في جماعة من قريش ﴿ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق ﴾ [الأنفال ٣٢] الآية ، وقيل : السائل نوح عليه السلام ، سأل العذاب على الكافرين وقيل : السائل رسول الله ﷺ ، سأل أن يشدد وطأته على مضر الحديث ، فاستجاب الله دعوته ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها : أنه لما ذكر (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) أخبر عن ما صدر عن بعض المكذبين بنقم الله وإن كان السائل نوحاً عليه السلام أو الرسول ﷺ فناسب تكذيب المكذبين أن دعا عليهم رسولهم حتى يصابوا فيعرفوا صدق ما جاءهم به ، وقرأ الجمهور (سأل) بالهمز أي : دعا داع من قولهم : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه فالباء على أصلها ، وقيل : المعنى : بحث باحث واستفهم ، قيل : فالباء بمعنى عن وقرأ نافع ، وابن عامر (سال) بألف ، فيجوز أن يكون قد أبدلت همزته ألفاً ، وهو بدل على غير قياس ، وإنما قياس هذا بين بين ، ويجوز أن يكون على لغة من قال «سلت اسأل» حكاها سيبويه ، وقال الزمخشري : هي لغة قريش يقولون : سلت تسال وهما يتسايلان : انتهى . وينبغي أن يتثبت في قوله إنها لغة قريش ، لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال هو مهموز ، أو أصله الهمز كقراءة من قرأ : ﴿وسلوا الله من فضله﴾[1] [النساء ٣٢] إذ لا يجوز أن يكون من سال التي عينها واو إذ كان يكون ذلك وسلوا الله مثل خافوا الأمر ، فيبعد أن يجيء ذلك كله على لغة غير قريش ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم إلا يسيراً فيه لغة غيرهم . ثم جاء في كلام الزمخشري : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ وإنما هو يتساولان بالواو ، فإن توافقت النسخ بالياء فيكون التحريف من الزمخشري . وعلى تقدير أنه من السؤال فـ (سائل) اسم فاعل منه . وتقدم ذكر الخلاف في السائل من هو ، وقيل : سال من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس : (سال سايل) وقال زيد بن ثابت : في جهنم واد يسمى سايلاً وأخبر هنا عنه ، قال ابن عطية : ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه ، وقال الزمخشري : والسيل مصدر في معنى السايل ، كالغور بمعنى الغاير ، والمعنى : اندفع عليهم وادي عذاب ، فذهب بهم وأهلكهم انتهى . وإذا كان السائل هم الكفار فسؤالهم إنما كان على أنه كذب عندهم فأخبر تعالى أنه واقع وعيداً لهم ، وقرأ أبيّ ، وعبد الله (سالَ سال) مثل مال بإلقاء صورة الهمزة وهي الياء من الخط تخفيفاً ، قيل : والمراد سائل . انتهى . ولم يحك هل قرأ بالهمز أو بإسقاطها ألبتة فإن قرأ بالهمز : فظاهر ، وإن قرأ بحذفها فهو مثل شاك شايك ، حذفت عينه واللام جرى فيها الإعراب والظاهر : تعلق (بعذاب) بـ (سال) ، وقال أبو عبد الله الرازي يتعلق بمصدر دل عليه فعله كأنه

---

(١) يقصد المصنف رحمه الله أن أسألوا إذا خففت لكثرة الاستعمال نقلت حركة الهمزة على السين ثم تحذف الهمزة ، وهذا كثير كهذه الآية ﴿ وسلوا الله من فضله ﴾ النساء (٣٢) والأصل واسألوا ألقيت فتحة الهمزة على السين ، وحذفت الهمزة ، وكذا همزة الوصل ، للاغتناء بتحريك السين ، شرح الشافية للرضي (٤٢/٣) .

قيل : ما سؤاله فقيل : سؤاله بعذاب والظاهر : اتصال الكافرين بواقع ، فيكون متعلقاً به واللام للعلة أي نازل بهم لأجلهم أي لأجل كفرهم أو على أن اللام بمعنى على ، قاله بعض النحاة . ويؤيده قراءة أبيّ (على الكافرين) أو على أنه في موضع أي واقع كائن للكافرين ، وقال قتادة ، والحسن : المعنى كأن قائلاً قال لمن هذا العذاب الواقع ؟ فقيل للكافرين ، وقال الزمخشري : أو بالفعل أي دعاء للكافرين ثم قال ، وعلى الثاني وهو ثاني ما ذكر من توجيهه في الكافرين قال هو كلام مبتدأ جواب للسائل أي : هو للكافرين ، وكان قد قرر أن سأل ضمن معنى دعا فعدي تعديته كأنه قال : دعا داع بعذاب ، من قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ومنه قوله تعالى(يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) انتهى . فعلى ما قرره أنه متعلق بدعا يعني بسأل فكيف يكون كلاماً مبتدأ جواباً للسائل أي هو للكافرين ، هذا لا يصح . فقد أخذ قول قتادة والحسن وأفسده ، والأجود أن يكون من الله متعلقاً بقوله (واقع) و (ليس له دافع) جملة اعتراض بين العامل والمعمول ، وقيل : يتعلق بدافع أي من جهته إذا جاء وقته (ذي المعارج) المعارج : لغة الدرج وهنا استعارة ، قال ابن عباس وقتادة : في الرتب والفواضل والصفات الحميدة ، وقال ابن عباس : أيضاً المعارج: السموات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء ، وقال الحسن : هي المراقي إلى السماء ، وقيل : المعارج : الغرف أي جعلها لأوليائه في الجنة (تعرج) قراءة الجمهور بالتاء على التأنيث ، وعبد الله ، والكسائي ، وابن مقسم ، وزائدة عن الأعمش بالياء ، (والروح) قال الجمهور هو : جبريل خص بالذكر تشريفاً ، وأخر هنا بعد الملائكة ، وقدم في قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ، وقال مجاهد : ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم لا تراهم الحفظة ، كما لا نرى نحن حفظتنا ، وقيل : الروح ملك غير جبريل عظيم الخلقة ، وقال أبو صالح : خلق كهيئة الناس وليسوا بالناس ، وقال قبيصة بن ذؤيب : روح الميت حين تقبض إليه ، الضمير عائد على الله تعالى أي إلى عرشه وحيث يهبط منه أمره تعالى ، وقيل (إليه) أي : إلى المكان الذي هو محلهم ، وهو في السماء لأنها محل بره وكرامته ، والظاهر : أن المعنى أنها تعرج في يوم من أيامكم هذه ومقدار المسافة إن لو عرجها آدمي خمسون ألف سنة ، قاله ابن عباس ، وابن إسحاق ، وجماعة من الحذاق منهم القاضي منذر بن سعيد ، فإن كان العارج ملكاً فقال مجاهد : المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش ، ومن جعل الروح جنس أنواع الحيوان ، قال وهب : المسافة من وجه الأرض إلى منتهى العرش ، وقال عكرمة ، والحكم : أراد مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة لا يدري أحد ما مضى منها وما بقي ، أي تعرج في مدة الدنيا وبقاء هذه البنية ، وقال ابن عباس : أيضاً هو يوم القيامة ، وقيل : طوله ذلك العدد وهذا ظاهر ما جاء في الحديث في مانع الزكاة ، فإنه قال (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري قدره في رزاياه وهوله وشدته للكفار ذلك العدد وفي الحديث « يخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة » ، وقال عكرمة : « مقدار ما ينقضي فيه من الحساب قدر ما يقضى بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا » ، وقال الحسن : نحوه ، وقيل : لا يراد حقيقة العدد إنما أريد به طول الموقف يوم القيامة وما فيه من الشدائد ، والعرب تصف أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، قال الشاعر يصف أيام الفرح والسرور :

وَيَوْمٍ كَظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرَ طُولَهُ ... دَمُ الزِّقِّ عَنَّا وَاصْطِفَاقُ الْمَزَاهِرِ[1]

والظاهر : أن قوله في يوم متعلق بتعرج ، وقيل : بدافع والجملة من قوله (تعرج) اعتراض ، ولما كانوا قد سألوا استعجال العذاب ، وكان السؤال على سبيل الاستهزاء والتكذيب ، وكانوا قد وعدوا به ، أمره تعالى بالصبر ، ومن جعله من السيلان فالمعنى : أنه أشرف على الوقوع ، والضمير في (يرونه) عائد على العذاب ، أو على اليوم إذا أريد به يوم القيامة ، وهذا الاستبعاد هو على سبيل الإحالة منهم (ونراه قريباً) أي هيناً في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر ، وكل ما هو

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/ ٧١) .

آت قريب ، والبعد والقرب في الإمكان ، لا في المسافة (يوم تكون) منصوب بإضمار فعل أي يقع يوم تكون أو يوم تكون (السماء كالمهل) كان كيت وكيت أو بقريباً ، أو بدل من ضمير (نراه) إذا كان عائداً على يوم القيامة ، وقال الزمخشري أو هو بدل من (في يوم) فيمن علقه بواقع انتهى ولا يجوز هذا ، لأن (في يوم) وإن كان في موضع نصب لا يبدل منه منصوب ، لأن مثل هذا ليس من المواضع التي تراعى في التوابع[١] ، لأن حرف الجر فيها ليس بزائد ولا محكوم له بحكم الزائد كرب ، وإنما يجوز مراعاة المواضع في حرف الجر الزائد كقوله :

يَا بَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمَا بِيَدٍ إِلَّا يَداً لَيْسَتْ لَهَا عَضُدِ[٢]

ولذلك لا يجوز « مررت بزيد الخياط » على مراعاة موضع بزيد « ولا مررت بزيد وعمرا » و « لا غضبت على زيد وجعفراً » و « لا مررت بعمرو أخاك » على مراعاة الموضع (فإن قلت :) الحركة في يوم تكون حركة بناء لا حركة إعراب ، فهو مجرور مثل (في يوم) (قلت :) لا يجوز بناؤه على مذهب البصريين ، لأنه أضيف إلى معرب ، لكنه يجوز على مذهب الكوفيين فيتمشى كلام الزمخشري على مذهبهم إن كان استحضره وقصده ، (كالمهل) تقدم الكلام عليه في سورة الدخان [الدخان ٤٥] ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾[المعارج ٩] كما في القارعة ، لما نسفت طارت في الجو كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح ، قال الحسن تسير الجبال مع الرياح ، ثم تنهد ، ثم تصير كالعهن ، ثم تنسف فتصير هباء ، وقرأ الجمهور (ولا يَسْأل) مبنياً للفاعل ، أي لا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده ، وقال قتادة : لا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة ، وقيل : لا يسأل أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً ليأسه عن ذلك، وقيل : شفاعة ، وقيل : حميماً منصوب على إسقاط عن أي عن حميم لشغله بما هو فيه ، وقرأ أبو حيوة ، وشيبة ، وأبو جعفر ، والبزي ، بخلاف عن ثلاثتهم مبنياً للمفعول أي : لا يسأل إحضاره كل من المؤمن والكافر له سيما يعرف بها ، وقيل : عن ذنوب حميمه ليؤخذ بها ، (يبصرونهم) استئناف كلام ، قال ابن عباس : في المحشر يبصر الحميم حميمه ثم يفرّ عنه لشغله بنفسه ، وقيل : (يبصرونهم) في النار ، وقيل : (يبصرونهم) فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (يبصرونهم) صفة ، أي : حميماً مبصرين مصرفين إياهم ، انتهى . و(حميم حميماً) نكرتان في سياق النفي فيعمان ، ولذلك جمع الضمير ، وقرأ قتادة (يبصرونهم) مخففاً مع كسر الصاد ، أي : يبصر المؤمن الكافر في النار قاله مجاهد ، وقال ابن زيد : يبصر الكافر من أضله في النار عبرة وانتقاماً وحزناً (يود المجرم) أي الكافر ، وقد يندرج فيه المؤمن العاصي الذي يعذب ، وقرأ الجمهور : (من عذاب) مضافاً ، وأبو حيوة بفتحها (وصاحبته) زوجته (وفصيلته) أقرباؤه الأدنون(تؤويه) تضمه انتهاء إليها ، أو لياذاً بها في النوائب، (ثم ينجيه) عطف على (يفتدي) أي : ينجيه بالافتداء أو من تقدم ذكرهم ، وقرأ الزهري (تؤويه) وتنجيه بضم الهاءين ، (كلا) ردع لودادتهم الافتداء وتنبيه على أنه لا ينفع ، (إنها) الضمير للقصة و (لظى نزاعة) تفسير لها ، أو للنار الدال عليها عذاب يومئذ و (لظى) بدل من الضمير ، و (نزاعة) خبر « إن » ، أو خبر مبتدأ و (لظى) خبر (إن) أي هي نزاعة ، أو بدل من لظى ، أو خبر بعد خبر . كل هذا ذكروه وذلك على قراءة الجمهور برفع (نزاعة) وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر . انتهى . ولا أدري ما هذا المضمر الذي ترجم عنه الخبر ، وليس هذا من المواضع التي يفسر فيها المفرد الضمير ، ولولا أنه ذكر بعد هذا ، أو ضمير القصة لحلت كلامه عليه ، وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، والزعفراني ، وابن مقسم ، وحفص ، واليزيدي في اختياره (نزاعةً) بالنصب فتعين أن يكون (لظى) في (إنها) عائد على « النار » الدال عليها عذاب ، وانتصب (نزاعة) على الحال المؤكدة ، أو

---

(١) قال الألوسي : فاشتراط أبي حيان لمراعاة المحل كون الجار زائداً أو شبهه كرب غير صحيح (٢٩/٥٩) .

(٢) البيت من الكامل لأوس بن حجر انظر يوانه (٢١) ونسب لطرفة انظر شرح المفصل لابن يعيش (٢/٩٠) .

المبينة ، والعامل فيها (لظى) وإن كان عاملاً لما فيه من معنى التلظي كما عمل العلم في الظرف في قوله :

أَنَا أَبُو الْمِنْهَالِ بَعْضَ الأَحْيَانِ

أي المشهور بعض الأحيان ، أو على الاختصاص للتهويل ، قاله الزمخشري ، وكأنه يعني القطع ، فالنصب فيها كالرفع فيها إذا أضمرت هو فتضمر هنا ، أعني تدعو أي حقيقة يخلق الله فيها الكلام كما يخلقه في الأعضاء ، قاله ابن عباس وغيره : تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وقال الزمخشري : وكما خلقه في الشجرة . انتهى . فلم يترك مذهب الاعتزال ، وقال الخليل : مجاز عن استدنائها منهم ، وما توقعه بهم من عذابها ، وقال ثعلب : يهلك تقول العرب دعاك الله أي أهلكك وحكاه الخليل عن العرب قال الشاعر :

لَيَالِيَ يَدْعُونِي الْهَوَى فَأُجِيبُهُ ... وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانِي

وقال آخر :

تَرَفَّعُ لِلْعَيَانِ وَكُلُّ فَجٍّ ... طَبَاهُ الدَّعِي مِنْهُ وَالْخَلاءُ

يصف ظليماً ، وطباه . أي : دعاه ، والهوى والدعي لا يدعوان حقيقة ، ولكنه لما كان فيهما ما يجذب صارا داعيين مجازاً ، وقيل : تدعو أي خزنة جهنم أضيف دعاؤهم إليها من أدبر عن الحق وتولى (وجمع فأوعى) أي وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد حق الله فيه ، وهذه إشارة إلى كفار أغنياء ، وقال الحكيم : كان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول : سمعت الله يقول (وجمع فأوعى) (إن الإنسان) جنس ولذلك استثنى منه (إلا المصلين) ، وقيل : الإشارة إلى الكفار ، وقال ثعلب : قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت قد فسره الله تعالى ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو : الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس . انتهى . ولما كان شدة الجزع والمنع متمكنة في الإنسان جعل كأنه خلق محمولاً عليهما كقوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء ٣٧] والخير المال ، (إلا المصلين) استثناء كما قلنا من (الإنسان) ولذلك وصفهم بما وصفهم به من الصبر على المكاره والصفات الجميلة التي حاوروها ، وقرأ الجمهور (على صلاتهم) بالإفراد . والحسن جمعاً . وديمومتها قال الجمهور : المواظبة عليها ، وقال ابن مسعود : صلاتها لوقتها ، وقال عقبة بن عامر : يقرون فيها ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، ومنه المال الدائم ، وقال الزمخشري : دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها ولا يشتغلون عنها بشيء ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ، ويكملوها بسننها ، وأدائها ، ويحفظونها من الاحباط باقتران المآثم ، والدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة على أحوالها انتهى . وهو جوابه لسؤاله (فإن قلت :) كيف قال (على صلاتهم دائمون) ثم قال (على صلاتهم يحافظون) أقول إن الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد لكنه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها فذكرت أول تحصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها والصفات التي بعد هذه تقدم تفسيرها ومعظمها في سورة (قد أفلح المؤمنون) ، وقرأ الجمهور بشهادتهم على الإفراد ، والسلمي ، وأبو عمر ، وحفص على الجمع ، قوله عز وجل :

﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ، أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ، كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ، فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ كان رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة ويقرأ

القرآن ، فكانوا يحتفون به حلقاً حلقاً يسمعون ويستهزئون بكلامه ، ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم ، فنزلت وتقدم شرح (مهطعين) في سورة إبراهيم عليه السلام ومعنى (قبلك) أي في الجهة التي تليك (عن اليمين وعن الشمال) أي : عن يمينك وشمالك وقيل : نزلت في المستهزئين الخمسة ، وقرأ الجمهور (أن يُدْخَل) مبنياً للمفعول . وابن يعمر ، والحسن وأبو رجاء ، وزيد بن عليّ ، وطلحة ، والمفضل عن عاصم مبنياً للفاعل ، (كلا) ردّ وردع لطماعيتهم إذ أظهروا ذلك ، وإن كانوا لا يعتقدون صحة البعث ، ولا أن ثم جنة ولا ناراً (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي أنشأناهم من نطفة مذرة فنحن قادرون على إعادتهم وبعثهم يوم القيامة وعلى الاستبدال بهم خيراً منهم قيل : بنفس الخلق ، ومنته عليهم بذلك يعطي الجنة بل بالإيمان والعمل الصالح ، وقال قتادة : في تفسيرها : إنما خلقت من قذر يا ابن آدم ، وقال أنس : كان أبو بكر إذا خطبنا ذكر مناتن ابن آدم ومروره في مجرى البول مرتين ، وكذلك نطفة في الرحم ، ثم علقة ، ثم مضغة ، إلى أن يخرج ، فيتلوث في نجاسته طفلاً ، فلا يقلع أبو بكر حتى يقذر أحدنا نفسه ، فكأنه قيل : إذا كان خلقكم من نطفة مذرة فمن أين تتشرفون وتدعون دخول الجنة قبل المؤمنين ، وأبهم في قوله (مما يعلمون) وإن كان قد صرّح به في عدّة مواضع إحالة على تلك المواضع ، ورأى مطرف بن عبد الله بن الشخير المهلب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز ، فقال له : يا عبد الله : ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى ؟ فقال له أتعرفني ؟ قال نعم . أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت تحمل عذرة ، فمضى المهلب وترك مشيته ، وقرأ الجمهور(فلا أقسم برب المشارق والمغارب)لا نفياً ، وجمعهما . وقوم بلام دون ألف ، وعبد الله بن مسلم وابن محيصن والجحدري (المشرق والمغرب) مفردين ، أقسم تعالى بمخلوقاته على إيجاب قدرته (على أن يبدل خيراً منهم) وأنه لا يسبقه شيء إلى ما يريد ، (فذرهم يخوضوا ويلعبوا) وعيد ، وما فيه من معنى المهادنة هو منسوخ بآية السيف ، وقرأ أبو جعفر ، وابن محيصن (يلقوا) مضارع لقي ، والجمهور (يلاقوا) مضارع لاقى ، والجمهور (يَخْرُجُون) مبنياً للفاعل ، قال ابن عطية : وروى أبو بكر عن عاصم مبنياً للمفعول و (يوم) بدل من يومهم ، وقرأ الجمهور نصب بفتح النون وسكون الصاد وأبو عمران الجوني ، ومجاهد بفتحهما ، وابن عامر ، وحفص بضمهما والحسن ، وقتادة بضم النون وسكون الصاد والنصب : ما نصب للإنسان فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم وغلب في الأصنام حتى قيل الأنصاب ، وقال أبو عمرو : هو شبكة يقع فيها الصيد فيسارع إليها صاحبها ، مخافة أن يتفلت الصيد منها ، وقال مجاهد : نصب علم ومن قرأ بضمهما ، قال ابن زيد : أي أصنام منصوبة كانوا يعبدونها ، وقال الأخفش : هو جمع نصب كرهن ورهن والأنصاب جمع الجمع يوفضون يسرعون ، وقال أبو العالية يستبقون إلى غايات ، قال الشاعر :

فَـوَارِسُ ذُبْيَـانَ تَـحْـتَ الْـحَـدِيـ ـدِ كَـالجِنِّ يُـوفِضْنَ مِنْ عَبْقَـرِ(١)

وقال آخر في معنى الإسراع :

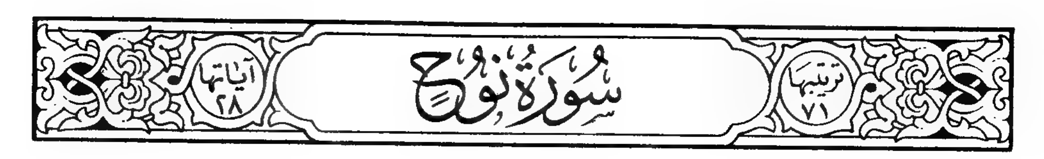
لأنـعَـتَـنَّ نَـعَـامَـةً مِـيـفَـاضَـا حَـرْجَاءَ ظَلَّتْ تَـطْلُبُ الإِضَـاضَـا(٢)

وقال ابن عباس وقتادة : يسعون ، وقال الضحاك : ينطلقون ، وقال الحسن : يبتدرون ، وقرأ الجمهور ذلة منوناً ، (ذلك اليوم) برفع الميم مبتدأ وخبر ، وقرأ عبد الرحمن بن خلاد ، عن داود بن سالم ، عن يعقوب ، والحسن بن عبد الرحمن ، عن التمار (ذلة) بغير تنوين مضافاً إلى ذلك واليوم بخفض الميم .

---

(١) البيت من الرمل لرار بن منقذ العدوي انظر فتح القدير (٥/٢٩٥) .

(٢) البيت من الرجز لم نهتد لقائله . انظر اللسان (خنص) .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

الأطوار : الأحوال المختلفة قال :

فَـإِنْ أَفَـاقَ فَقَـدْ طَـارَتْ عَمَـايَتُـهُ ... وَالْمَـرْءُ يُخْلَقُ طَوْراً بَعْـدَ أَطْـوَارِ[1]

(١) انظر البيت في اللسان (طور) روح المعاني (٢٩/٩١) .

ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ونسراً ، أسماء ، أصنام أعلام لها اتخذها قوم نوح عليه السلام آلهة ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا** ﴾ هذه السورة مكية ، ومناسبتها : لما قبلها ، أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيراً منهم ، وكانوا قد سخروا من المؤمنين ، وكذبوا بما وعدوا به من العذاب ، ذكر قصة نوح وقومه معه ، وكانوا أشد تمرّداً من المشركين فأخذهم الله أخذ استئصال ، حتى أنه لم يبق لهم نسلاً على وجه الأرض ، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة فحذر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا ، ونوح عليه السلام أوّل نبي أرسل ، ويقال له شيخ المرسلين وآدم الثاني : وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام ، (أن أنذر قومك) يجوز أن تكون (أن) مصدرية وأن تكون تفسيرية (عذاب أليم) قال ابن عباس : عذاب النار في الآخرة وقال الكلبي ما حل بهم من الطوفان (من ذنوبكم) من للتبعيض لأن الإيمان إنما يجبّ ما قبله من الذنوب لا ما بعده ، وقيل : لابتداء الغاية ، وقيل : زائدة وهو مذهب ، قال ابن عطية : كوفي ، وأقول : أخفشي ، لا كوفي ، لأنهم يشترطون أن تكون بعد من نكرة ، ولا يبالون بما قبلها من واجب أو غيره والأخفش يجيز مع الواجب وغيره ، وقيل : النكرة والمعرفة ، وقيل : لبيان الجنس ورد بأنه ليس قبلها ما تبينه ، قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف قال ويؤخركم مع إخباره بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلا تناقض ؟ (قلت :) قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمَّرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة ، فقيل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله تعالى وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف ، ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير انتهى . وقال ابن عطية : (ويؤخركم إلى أجل مسمى) مما تعلقت المعتزلة به في قولهم ، إن للإنسان أجلين ، قالوا : لو كان واحداً محدداً لما صح التأخير إن كان الحد قد بلغ ، ولا المعاجلة إن كان لم يبلغ ، قال : وليس لهم في الآية تعلق ، لأن المعنى أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم ، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير ، وإما ممن قضى له بالكفر والمعاجلة ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) وجواب (لو) محذوف تقديره « لو كنتم تعلمون » لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتي فيما جئتكم به منه تعالى ، ولما لم يجيبوه وآذوه شكا إلى ربه شكوى من يعلم أن الله تعالى عالم بحاله مع قومه لما أمر بالإنذار فلم يجد فيهم (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً) أي جميع الأوقات من غير فتور ولا تعطيل في وقت ولما ازدادوا إعراضاً ونفاراً عن الحق جعل الدعاء هو الذي زادهم إذ كـان سبب الزيادة ، ومثله (فـزادتهم رجساً إلى رجسهم) (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم) أي : ليتوبوا فتغفر لهم ذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح في إعراضهم عنه (جعلوا أصابعهم في آذانهم) والظاهر : أنه حقيقة سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه كراهة ، وبغضاً من سماع النصح ، ورؤية الناصح . ويجوز أن يكون كناية عن المبالغة في إعراضهم عن ما دعاهم إليه ، فهم بمنزلة من سد سمعه ومنع بصره ، ثم كرر صفة دعائه ، بياناً ، رتوكيداً ، لما ذكر دعاءه عموم الأوقات ذكر عموم حالات الدعاء و (كلما دعوتهم) يدل على تكرر الدعوات فلم يبين حالة دعائه أولاً ، وظاهره أن

يكون دعاؤه ، إسراراً ، لأنه يكون ألطف بهم ولعلهم يقبلون منه كحال من ينصح في السر فإنه جدير أن يقبل منه ، فلما لم يُجد له الإسرار انتقل إلى أشد منه وهو دعاؤهم جهاراً صلة بالدعاء إلى الله لا يحاشي أحداً ، فلما لم يجد عاد إلى الإعلان وإلى الإسرار ، قال الزمخشري : ومعنى ثم الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما انتهى . وكثيراً كرر الزمخشري أن ثم للاستبعاد ولا نعلمه من كلام غيره[1] . وانتصب (جهاراً) بدعوتهم وهو أحد نوعي الدعاء ، ويجيء فيه من الخلاف ما جاء في نصب هو يمشي الخوزلى . قال الزمخشري : أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهاراً ، أي مجاهراً به ، أو مصدراً في موضع الحال ، أي مجاهراً ، ثم أخبر أنه أمرهم بالاستغفار وأنهم إذا استغفروا درّ لهم الرزق في الدنيا ، فقدم ما يسرهم وما هو أحب إليهم إذ النفس متشوفة إلى الحصول على العاجل ، كما قال تعالى ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ [الصف ١٣] ، ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [الأعراف ٩٦] ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ [المائدة ٦٦] الآية ، ﴿ وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ﴾ [الجن ١٦] قال قتادة : كانوا أهل حب للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها ، وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرار الدعاء قحطوا ، وأعقم نساؤهم ، فبدأهم في وعده بالمطر ، ثم ثنى بالأموال والبنين و (مدراراً) من الدر وهو صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث ، ومفعال لا تلحقه التاء إلا نادراً فيشترك فيه المذكر والمؤنث ، تقول : رجل محدابة ، ومطرابة ، وامرأة محدابة ، ومطرابة ، والسماء المظلة ، قيل لأن المطر ينزل منها إلى السحاب ويجوز أن يراد السحاب والمطر كقوله :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ[2]

البيت « الرجاء » بمعنى الخوف وبمعنى الأمل ، فقال أبو عبيدة وغيره : (لا ترجون) لا تخافون ، قالوا : والوقار بمعنى العظمة والسلطان والكلام على هذا . وعيد وتخويف ، وقيل : لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً ، قال الزمخشري : والمعنى ما لكم لا تكونون على حال ما يكون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ، و (لله) بيان للموقر ، ولو تأخر لكان صلة أو لا تخافون لله حلماً ، وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا ، وقيل : ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وعن ابن عباس : لا تخافون لله عاقبة ، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقر إذا ثبت واستقر انتهى ، وقيل : ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله ، وتلقاءه وقاراً ويكون على هذا منهم كأنه يقول : تؤدة منكم وتمكناً في النظر ، لأن الفكر مظنة الخفة والطيش وركوب الرأس انتهى وفي التحرير قال سعيد بن جبير : ما لكم لا ترجون لله ثواباً ، ولا تخافون عقاباً وقاله ابن جبير عن ابن عباس ، وقال العوفي عنه : ما لكم لا تعلمون لله عظمة ؟ وعن مجاهد ، والضحاك ما لكم لا تبالون لله عظمة ، قال قطرب : هذه لغة حجازية ، وهذيل ، وخزاعة ، ومضر يقولون : لم أرج : لم أبال انتهى (لا ترجون) حال (وقد خلقكم أطواراً) جملة حالية تحمل على الإيمان بالله وإفراده بالعبادة ، إذ في هذه الجملة الحالية التنبيه على تدريج الإنسان في أطوار لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى ، قال ابن عباس ، ومجاهد : من النطفة والعلقة والمضغة ، وقيل :

---

(١) الجمهور على أن ثم تفيد المهلة بمعنى عدم اتصال معطوفها بما عطف عليه ، وقد ذكر الزمخشري هذا المعنى ، وهو الاستبعاد في ثم على أنه مجاز كونها للمهلة إذ الاستبعاد يستلزم التراخي في المنزلة ، وقال الرضي : وقد تجيء في الجمل خاصة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها ، وعدم مناسبته له انظر الصبان (٣/٩٤) وشرح الكافية للرضي (٢/٣٦٧) فإنكار أبي حيان مبني على أن غير الزمخشري لم يذكر هذا المعنى ، قلت فقد تابع الزمخشري الرضيُّ والشوكاني ، في فتح القدير (٥/٢٩٧) قال الشيخ سليمان الجمل : (ثم للدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار) .

(٢) تقدم .

في اختلاف ألوان الناس وخَلْقهم وخُلُقهم ومللهم ، وقيل : صبياناً ثم شباباً ثم شيوخاً وضعفاء ثم أقوياء ، وقيل : معنى (أطواراً) أنواعاً صحيحاً ، وسقيماً ، وبصيراً ، وضريراً ، وغنياً ، وفقيراً ، قوله عز وجل : ﴿ ألم تر وكيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ، قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ، مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ لما نبههم نوح عليه السلام على الفكر في أنفسهم ، وكيف انتقلوا من حال إلى حال ، وكانت الأنفس أقرب ما يفكرون فيه منهم ، أرشدهم إلى الفكر في العالم علوه وسفله ، وما أودع تعالى فيه أي في العالم العلوي من هذين النيرين اللذين بهما قوام الوجود ، وتقدم شرح (طباقاً) في سورة الملك ، والضمير في (فيهن) عائد على السموات ويقال القمر في السماء الدنيا ، وصح كون السموات ظرفاً للقمر ، لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف ، تقول : زيد في المدينة ، وهو في جزء منها ، ولم تقيد الشمس بظرف فقيل : هي في الرابعة ، وقيل : في الخامسة ، وقيل : في الشتاء في الرابعة ، وفي الصيف : في السابعة ، وهذا شيء لا يوقف على معرفته إلا من علم الهيئة . ويذكر أصحاب هذا العلم أنه يقوم عندهم البراهين القاطعة على صحة ما يدعونه ، وأن في معرفة ذلك دلالة واضحة على عظمة الله ، وقدرته ، وباهر مصنوعاته (سراجاً) يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم ، ولم يبلغ القمر مبلغ الشمس في الإضاءة ولذلك جاء هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، والضياء أقوى من النور ، والإنبات استعارة في الإنشاء ، أنشأ آدم من الأرض ، وصارت ذريته منه ، فصح نسبتهم كلهم إلى أنهم أُنبتوا منها . وانتصاب (نباتاً) بـ (أنبتكم) مصدراً على حذف الزائد ، أي : انباتاً ، أو على إضمار فعل أي فنبتم نباتاً ، وقال الزمخشري : المعنى أنبتكم فنبتم أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم . انتهى . ولا أعقل معنى هذا الوجه الثاني الذي ذكره (ثم يعيدكم فيها) أي : يصيركم فيها مقبورين (ويخرجكم إخراجاً) أي يوم القيامة ، وأكده بالمصدر أي ذلك واقع لا محالة (بساطاً) تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه . وظاهره أن الأرض ليست كروية بل هي مبسوطة (سبلاً) طرقاً (فجاجاً) متسعة . وتقدم الكلام على الفج في سورة الحج . ولما أصروا على العصيان وعاملوه بأقبح الأقوال والأفعال (قال نوح رب إنهم عصوني) الضمير للجميع . وكان قد قال لهم وأطيعون . وكان قد أقام فيهم ما نص الله تعالى عليه ألف سنة إلا خمسين عاماً وكانوا قد وسع عليهم في الرزق بحيث كانوا يزرعون في الشهر مرتين واتبعوا أي عامتهم وسفلتهم إذ لا يصح عوده على الجميع في عبادة الأصنام (من لم يزده) أي : رؤساؤهم وكبراؤهم وهم الذين كان ما تأثلوه من المال وما تكثروا به من الولد سبباً في خسارتهم في الآخرة ، وكان سبب هلاكهم في الدنيا وقرأ ابن الزبير ، والحسن ، والأعرج ، ومجاهد ، والأخوان ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع في رواية خارجة (ووُلده) بضم الواو ، وسكون اللام . والسلميّ ، والحسن أيضاً وأبو رجاء ، وابن وثاب ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر بفتحهما وهما لغتان كبخل وبخل والحسن أيضاً والجحدري ، وقتادة ، وزر ، وطلحة ، وابن أبي إسحاق ، وأبو عمرو في رواية بكسر الواو وسكون اللام ، وقال أبو حاتم : يمكن أن يكون الوُلد بالضم جمع الولد كخُشْب وخشب ، وقد قال حسان بن ثابت :

يَـا بِكْـرَ آمِنَـةَ الْمُبَـارَكِ بِكْـرُهَـا ... مِنْ وُلْـدِ مُحْصَنَـةٍ بِسَعْـدِ الأَسْعُـدِ[1]

---

(١) البيت من الكامل انظر ديوانه (١٥٤) .

(ومكروا) يظهر أنه معطوف على صلة (من) وجمع الضمير في (ومكروا) وقالوا على المعنى ، ومكرهم : احتيالهم في الدين وتحريش الناس على نوح عليه السلام ، وقرأ الجمهور (كبَّاراً) بتشديد الباء وهو بناء فيه مبالغة كثير ، قال عيسى ابن عمر : هي لغة يمانية وعليها قول الشاعر :

وَالْمَـرْءُ يُلْحِقُـهُ بِقُنَّـانِ النَّـدَى ... خُلُقُ الْكَـرِيـمِ وَلَيْسَ بِـالْـوُضَّـاءِ[١]

وقول الآخر :

بَيْضَـاءُ تَصْـطَادُ الْقُلُوبَ وَتَسْتَبِـي ... بِـالْحُسْنِ قَلْبَ الْمُسْلِمِ الْقُـرَّاءِ[٢]

ويقال : حسان وطوال وجمال ، وقرأ عيسى ، وابن محيصن ، وأبو السمال بخف الباء وهو بناء مبالغة ، وقرأ زيد بن علي ، وابن محيصن فيما روى عنه أبو الأخيرط وهب بن واضح (كِبَاراً) بكسر الكاف وفتح الباء ، وقال ابن الأنباري : هو جمع كبير كأنه جعل (مكراً) مكان ذنوب أو أفاعيل . انتهى . يعني فلذلك وصفه بالجمع ، وقالوا : أي كبراؤهم لأتباعهم ، أو قالوا : أي جميعهم بعضهم لبعض (لا تذرن) لا تتركن (آلهتكم) أي : أصنامكم وهو عام في جميع أصنامهم ، ثم خصوا بعد أكابر أصنامهم وهو (ودّ) وما عطف عليه . وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الزمان ، قال عروة بن الزبير : كانوا بني آدم ، وكان (ودّ) أكبرهم وأبرهم به ، وقال محمد بن كعب ، ومحمد بن قيس : كانوا بني آدم ونوح عليهما السلام ماتوا فصورت أشكالهم لتذكر أفعالهم الصالحة ، ثم هلك من صورهم وخلف من يعظمها ثم كذلك حتى عبدت ، قيل : انتقلت تلك الأصنام بأعيانها ، وقيل : بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب فكان ودّ لكلب بدومة الجندل ، وسواع لهذيل ، وقيل : لهمدان ، ويغوث لمراد ، وقيل : لمذحج ويعوق لهمدان ، وقيل : لمراد ، ونسر لحمير ، وقيل : لذي الكلاع من حمير ، ولذلك سمت العرب بعبد ودّ ، وعبد يغوث ، وما وقع من هذا الخلاف في سواع ، ويغوث ، ويعوق يمكن أن يكون لكل واحد منها صنم يسمى بهذا الاسم إذ يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام فإنما بقيت الأسماء فسموا أصنامهم بها . قال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد يسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا ، وقالوا رضي لكم المنزل فينزلون حوله ويضربون له بناء انتهى . وقال الثعلبي : كان يغوث لكهلان من سبأ يتوارثونه ، حتى صار في همدان وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

يَـرِيشُ اللهُ فِـي الـدُّنْيَـا وَيَبْـرِي ... ولا يَـبْـرِي يَـغُـوثُ وَلاَ يَـرِيش[٣]

وقال الماوردي « ود » اسم صنم معبود سمي وداً لودهم له . انتهى . وقيل : كان ود على صورة رجل وسواع ، على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونَسْر على صورة نسر . وهذا مناف لما تقدم من أنهم صوروا صور ناس صالحين ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة بخلافهم عنهم (وُداً) بضم الواو ، والحسن ، والأعمش ، وطلحة وباقي السبعة بفتحها قال الشاعر :

---

(١) البيت من الكامل لأبي صدقة الدبيري انظر القرطبي (١٨/١٩٨) روح المعاني (٢٩/٩٥) اللسان (وضأ) .
(٢) البيت من الكامل لأبي صدقة الدبيري انظر اللسان (قرأ) القرطبي (١٨/١٩٨) روح المعاني (٢٩/٩٥) .
(٣) تقدم .

حَيَّـاكَ وَدٌّ فَـإِنَّـا لَا يَحِـلُّ لَنَـا ... لَهْوُ النِّسَاءِ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا(١)

وقال آخر :

فَحَيَّـاكَ وَدٌّ مَنْ هَـدَاكَ لِعسـه ... وخوص بأعلا ذي فضالة هجه(٢)

قيل أراد ذلك الصنم ، وقرأ الجمهور (ولا يغوث ويعوق) بغير تنوين ، فإن كانا عربيين فمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين فللعجمة والعلمية ، وقرأ الأشهب (ولا يغوثاً ويعوقاً) بتنوينهما قال صاحب اللوامح جعلهما فعولاً فلذلك صرفهما ، فأما في العامة فإنهما صفتان من الغوث والعوق بفعل منهما ، وهما معرفتان فلذلك منع الصرف لاجتماع الفعلين اللذين هما تعريف ومشابهة الفعل المستقبل انتهى . وهذا تخبيط ، أما أولاً : فلا يمكن أن يكونا فعولاً ، لأن مادة يغث مفقودة وكذلك يعق ، وأما ثانياً فليسا بصفتين من الغوث والعوق لأن يفعلا لم يجيء اسماً ولا صفة وإنما امتنعا من الصرف لما ذكرناه ، وقال ابن عطية : وقرأ الأعمش (ولا يغوثاً ويعوقـاً) بالصرف وذلـك وهم ، لأن التعريف لازم ووزن الفعل انتهى . وليس ذلك بوهم ولم ينفرد الأعمش بذلك بل قد وافقه الأشهب العقيلي على ذلك ، وتخريجه على أحد الوجهين أحدهما : أنه جاء على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف عند عامة العرب وذلك لغة ، وقد حكاها الكسائي وغيره . والثاني أنه صُرِف لمناسبة ما قبله وما بعده من المنون إذ قبله (ودّاً) (ولا سواعاً) وبعده (ونسراً) كما قالوا في صرف (سلاسلاً) و (قواريراً) (قواريـراً) لمن صرف ذلك للمناسبة ، وقـال الزمخشري : وهـذه قراءة مشكلة ، لأنهما إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما منع الصرف ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات (وداً وسواعاً ونسراً) كما قرىء (وضحاها) بالإمالة لوقوعه مع المميلات للازدواج انتهى . وكأن الزمخشري لم يدر أن ثم لغة لبعض العرب تصرف كل ما لا ينصرف عند عامتهم فلذلك استشكلها ، (وقد أضلوا) أي : الرؤساء المتبوعون (كثيراً) من أتباعهم وعامتهم وهذا إخبار من نوح عليه السلام عنهم بما جرى على أيديهم من الضلال، وقال الحسن : (وقد أضلوا) أي : الأصنام عاد الضمير عليها كما يعود على العقلاء كقوله تعالى (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) ويحسنه عوده على أقرب مذكور ، ولكن عوده على الرؤساء أظهر ، إذ هم المحدث عنهم والمعنى فيهم أمكن ولما أخبر أنهم قد ضلوا كثيراً دعا عليهم بالضلال ، فقال ولا تزد وهي معطوفة على (وقد أضلوا) إذ تقديره وقال وقد أضلوا كثيراً فهي معمولة لقال المضمرة المحكي بها قوله وقد أضلوا ولا يشترط التناسب في عطف الجمل بل قد يعطف جملة الإنشاء على جملة الخبر والعكس خلافاً لمن يدعي التناسب ، وقال الزمخشري : ما نلخصه : عطف (ولا تزد) على (رب إنهم عصوني) أي : قال هذين القولين ، (إلا ضلالاً) قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته (قلت :) المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الألطاف ، لتصميمهم على الكفر ، ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به ، بل لا يحسن الدعاء بخلافه انتهى . وذلك على مذهب الاعتزال ، قال : ويجوز أن يراد بالضلال الضياع والهلاك ، كما قال (ولا تزد الظالمين إلا تباراً) ، وقال ابن بحر : (إلا ضلالاً) إلا عذاباً قال : كقوله : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر ٤٧] ، وقيل : إلا خسراناً ، وقيل : إلا ضلالاً في أمر دنياهم ، وترويج مكرهم وحيلهم ، وقرأ الجمهور (مما خطيئاتهم) جمعاً بالألف والتاء مهموزاً . وأبو رجاء كذلك إلا أنه أبدل الهمزة ياء وأدغم فيها ياء المد . والجحدري وعبيد عن أبي عمرو على الإفراد مهموزاً ، والحسن ، وعيسى ، والأعرج بخلاف عنهم

---

(١) البيت من المنسرح لم نهتد لقائله انظر القرطبي (١٨/١٩٩) فتح القدير (٥/٣٠١) .

(٢) البيت من الوافر لم نهتد لقائله ذكره السمين في الدر المصون .

وأبو عمرو (خطاياهم) جمع تكسير وهذا إخبار من الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأن دعوة نوح عليه السلام قد أجيبت و (ما) زائدة للتوكيد ، قال ابن عطية : لابتداء الغاية ، ولا يظهر إلا أنها للسبب ، وقرأ عبد الله (من خطيئاتهم ما أغرقوا) بزيادة (ما) بين (أغرقوا) و (خطيئاتهم) ، وقرأ الجمهور أغرقوا بالهمزة وزيد بن عليّ (غرقوا) بالتشديد وكلاهما للنقل وخطيئاتهم الشرك وما انجر معه من الكبائر فأدخلوا ناراً أي جهنم وعبر عن المستقبل بالماضي لتحققه وعطف بالفاء على إرادة الحكم أو عبر بالدخول عن عرضهم على النار غدوّاً وعشياً كما قال النار يعرضون عليها ، قال الزمخشري : أو أريد عذاب القبر انتهى ، وقال الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) تعريض بانتفاء قدرة آلهتهم عن نصرهم ودعاء نوح عليه الصلاة والسلام بعد أن أوحي إليه ﴿ انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود ٣٦] قاله قتادة ، وعنه أيضاً ما دعا عليهم إلا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصلاب ، وأعقم أرحام نسائهم ، وهذا لا يظهر ، لأنه قال (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) الآية فقوله (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يدل على أنه لم يعقم أرحام نسائهم ، وقاله أيضاً محمد بن كعب والربيع ، وابن زيد ، ولا يظهر كما قلنا وقد كان قبل ذلك طامعاً في إيمانهم عاطفاً عليهم ، وفي الحديث : أنه ربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون و (دياراً) من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي وما أشبهه ، ووزنه فيعال أصله دَيْوَار اجتمعت الياء والواو وسُبقت إحداهما بالسكون فأدغمت ويقال منه دوّار ووزنه فعال وكلاهما من الدوران كما قالوا قيام وقوام والمعنى واحد وعن السدّي من سكن داراً، وقال الزمخشري : وهو فيعال من الدور ، أو من الدار . انتهى . والدار أيضاً من الدور ، وألفها منقلبة عن واو (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) وصفهم وهم حالة الولادة بما يصيرون إليه من الفجور والكفر ، ولما دعا على الكفار استغفر للمؤمنين ، فبدأ بنفسه ، ثم بمن وجب برّه عليه ثم للمؤمنين فكان هو ووالداه اندرجوا في المؤمنين والمؤمنات ، وقرأ الجمهور (ولوالديّ) أنهما أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش ، وقيل : هما آدم وحوّاء ، وقرأ ابن جبير ، والجحدري (ولوالِدي) بكسر الدال ، فإما أن يكون خص أباه الأقرب ، أو أراد جميع من ولدوه إلى آدم عليه السلام ، وقال ابن عباس : لم يكفر لنوح عليه السلام أب ما بينه وبين آدم عليه السلام ، وقرأ الحسين بن عليّ ، ويحيى بن يعمر ، والنخعي ، والزهري ، وزيد بن عليّ (ولولـديَّ) تثنية ولد يعني ساماً وحاماً ، (ولمن دخل بيتي) قال ابن عباس ، والجمهور مسجدي ، وعن ابن عباس أيضاً شريعتي استعار لها بيتاً ، كما قالوا قبة الإسلام وفسطاطه ، وقيل : سفينته ، وقيل : داره (وللمؤمنين والمؤمنات) دعا لكل مؤمن ومؤمنة في كل أمّة ، والتبار : الهلاك .

سورة الجن مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

الجد : لغة العظمة والجلال وجد في عيني : عظم وجل ، وقال أبو عبيدة ، والأخفش : الملك والسلطان ، والجد : الحظ ، والجد : أبو الأب ، الحرس : اسم جمع الواحد حارس كغيب واحد غائب وقد جمع على أحراس ، قال الشاعر :
تجاوزت أحراساً وأهوالَ معشرٍ[(١)] كشاهد وأشهاد الحارس : الحافظ للشيء يرقبه ، القدد : السير المختلفة الوحدة قدة .

قال الشاعر :

الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْهَادِي بِطَاعَتِهِ　　فِي فِتْنَةِ النَّاسِ إِذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ[(٢)]

وقال الكميت :

جَمَعْتُ بِالرَّأْيِ مِنْهُمْ كُلَّ رَافِضَةٍ　　إِذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قِدَدُ[(٣)]

تحرى الشيء : طلبه باجتهاد ، وتوخاه وقصده ، الغدق : الكثير ، اللبد : جمع لبدة وهو تراكم بعضه فوق بعض ومنه لبدة الأسد ، ويقال للجراد الكثير المتراكم لبد ، ومنه اللبد الذي يفرش يلبد صوفه دخل بعضه في بعض **﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لا ندري أشرٌ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وأنا منا الصالحون ومنّا دون ذلك كنا طرائق قدداً ، وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ، وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾**

هذه السورة مكية ، ووجه مناسبتها لما قبلها : أنه لما حكي تمادي قوم نوح في الكفر ، وعكوفهم على عبادة الأصنام ، وكان عليه الصلاة والسلام أول رسول إلى الأرض ، كما أن محمداً ﷺ آخر رسول إلى الأرض ، والعرب الذي هو منهم عليه الصلاة والسلام كانوا عباد أصنام ، كقوم نوح ، حتى انهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء وكان ما جاء به محمد ﷺ من القرآن هادياً إلى الرشد ، وقد سمعته العرب وتوقف عن الإيمان به أكثرهم أنزل الله تعالى سورة الجن إثر سورة نوح تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان ، إذ كانت الجن خيراً لهم ، وأقبل للإيمان ، هذا وهم من غير جنس الرسول ﷺ ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به للوقت وعرفوا أنه ليس من نمط كلام الناس بخلاف العرب فإنه نزل بلسانهم وعرفوا كونه معجزاً وهم مع ذلك مكذبون له ولمن جاء به حسداً وبغياً (أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ، وقرأ الجمهور (قل أوحي) رباعياً ، وابن أبي عبلة ، والعتكي عن أبي عمرو ، وأبو إياس جوية بن عائذ الأسدي (وحى) ثلاثياً يقال : وحى وأوحى بمعنى واحد ، قال العجاج :

---

(١) صدر بيت من الطويل لامرىء القيس وعجزه (عليَّ حراصاً لو يسرّون مقتلي) انظر ديوانه (١٣) .
(٢) البيت من البسيط لم نهتد لقائله انظر روح المعاني (٢٩/ ١١٠) القرطبي (١٩/ ١١) .
(٣) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

وَحَى إِلَيْهَا الْقَرَارُ فَاسْتَقَرَّتِ(١)

وقرأ زيد بن عليّ ، وجوية فيما روى عن الكسائي ، وابن أبي عبلة ، أيضاً أحى بإبدال الواو همزة ، كما قالوا في وعد اعد، وقال الزمخشري : وهو من القلب المطلق ، جوازه في كل واو مضمومة انتهى . وليس كما ذكر ، بل في ذلك تفصيل ، وذلك أن الواو المضمومة قد تكون أولاً ، وحشوا ، وآخراً ، ولكل منها أحكام وفي بعضها خلاف وتفصيل مذكور في النحو ، قال الزمخشري : وقد أطلقه المازني في المكسور أيضاً كإشاح ، وإسادة ، وإعاء أخيه . انتهى . وهذا تكثير وتبجح ، وكان يذكر هذا في وعاء أخيه في سورة يوسف ، وعن المازني في ذلك قولان : أحدهما : القياس كما قال ، والآخر : قصر ذلك على السماع ، و (أنه استمع) في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله أي استماع نفر من الجن والمشهور : أن هذا الاستماع هو المذكور في الأحقاف في قوله تعالى (واذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) وهي قصة واحدة ، وقيل : قصتان ، والجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جن نينوى ، والسورة التي استمعوها قال عكرمة (اقرأ باسم ربك) وقيل : سورة الرحمن ، ولم تتعرض الآية لا هنا ولا في سورة الأحقاف ، إلى أنه رآهم وكلمهم عليه الصلاة والسلام ، ويظهر من الحديث أن ذلك كان مرتين إحداهما في مبدأ مبعث رسول الله ﷺ وهو في الوقت الذي أخبر فيه عبد الله بن مسعود أنه لم يكن معه ليلة الجن ، وقد كانوا فقدوه عليه الصلاة والسلام فالتمسوه في الأودية والشعاب فلم يجدوه فلما أصبح إذا هو جاء من قبل حراء وفيه : أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن ، فانطلق بنا ، وأرانا آثارهم وآثار نارهم ، والمرة الأخرى كان معه ابن مسعود ، وقد استندب ﷺ من يقوم معه إلى أن يتلو القرآن على الجن فلم يقم أحد غير عبد الله بن مسعود فذهب معه إلى الحجون عند الشعب ، فخط عليه خطاً وقال : لا تجاوزه فانحدر عليه ﷺ أمثال الحجر يجرون الحجارة بأقدامهم يمشون يقرعون في دفوفهم ، كما تقرع النسوة في دفوفهن حتى غشوه فلا أراه فقمت ، فأومأ إليّ بيده أن اجلس ، فتلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ، واختفوا في الأرض حتى ما أراهم ؛ الحديث. ويدل على أنهما قصتان اختلافهم في العدد فقيل : سبعة ، وقيل : تسعة . وعن زر : كانوا ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين قرية باليمن غير القرية التي بالعراق ، وعن عكرمة : كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، وأين سبعة من اثني عشر ألفاً (فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً) أي قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم ووصفوا قرآناً بقولهم (عجباً) وصفاً بالمصدر على سبيل المبالغة ، أي : هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه ، وحسن مبانيه ، ودقة معانيه ، وغرابة أسلوبه ، ومواعظه ، وكونه مبايناً لسائر الكتب . « والعجب » ما خرج عن أحد أشكاله ونظائره ، (يهدي إلى الرشد) أي يدعو إلى الصواب ، وقيل : إلى التوحيد والإيمان ، وقرأ الجمهور (الرُّشْد) بضم الراء وسكون الشين ، وعيسى بضمهما وعنه أيضاً فتحهما (فآمنا به) أي : القرآن ، ولما كان الإيمان به متضمناً الإيمان بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك قالوا (ولن نشرك بربنا أحداً) ، وقرأ الحرميان ، والأبوان بفتح الهمزة من قوله (وأنه تعالى) وما بعده وهي اثنتا عشرة آية آخرها (وأنامنا المسلمون) وباقي السبعة بالكسر فأما الكسر : فواضح لأنها معطوفات على قوله (إنا سمعنا) فهي داخلة في معمول القول ، وأما الفتح : فقال أبو حاتم : هو على أوحي فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله . انتهى . وهذا لا يصح لأن من المعطوفات ما لا يصح دخوله تحت أوحي وهو كل ما كان فيه ضمير المتكلم كقوله (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) ألا ترى أنه لا يلائم (أوحي إليّ) (انا كنا نقعد منها مقاعد) وكذلك باقيها ، وخرجت قراءة الفتح على أن تلك كلها معطوفة على الضمير المجرور في (به) من قوله (فآمنا به) أي وبأنه ، وكذلك باقيها ، وهذا جائز على مذهب الكوفيين وهو الصحيح . وقد تقدم احتجاجنا على صحة ذلك في قوله : ﴿ وكفر به والمسجد الحرام ﴾

---

(١) صدر بيت من الرجز انظر الديوان (٥) اللسان (عنا ـ وحى) المحتسب (٢/ ٣٣١) .

[البقرة ٢١٧] ، وقال مكي : هو أجود في « أن » منه في غيرها ، لكثرة حذف حرف الجر مع ان ، وقال الزجاج : وجهه أن يكون محمولاً على (آمنا به) لأن معناه صدقناه وعلمناه فيكون المعنى « فآمنا به أنه تعالى جد ربنا » وسبقه إلى نحوه الفراء ، قال : فُتحت أن لوقوع الإيمان عليها ، وأنت تجد الإيمان يحسن في بعض ما فتح دون بعض فلا يمنعك ذلك من إمضائهن على الفتح فإنه يحسن فيه ما يوجب فتح « أن » نحو صدقنا وشهدنا ، وأشار الفراء إلى أن بعض ما فتح لا يناسب تسليط آمنا عليه نحو قوله : (وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) وتبعهما الزمخشري ، فقال : ومن فتح كلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في (آمنا به) كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهنا وكذلك البواقي . انتهى . ولم يتفطن لما تفطن له الفراء من أن بعضها لا يحسن أن يعمل فيه (آمنا) ، وقرأ الجمهور (جَدُّ رَبنا) بفتح الجيم ورفع الدال مضافاً إلى ربنا أي عظمته قاله الجمهور ، وقال أنس والحسن : غناه ، وقال مجاهد : ذكره ، وقال ابن عباس : قدره وأمره ، وقرأ عكرمة (جدٌ) منوناً (ربُّنا) مرفوع الباء ، كأنه قال : عظيم هو ربنا فربنا بدل ، والجد : في اللغة العظيم ، وقرأ حميد بن قيس (جُد) بضم الجيم مضافاً ومعناه : العظيم حكاه سيبويه ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى تعالى ربنا العظيم ، وقرأ عكرمة (جَداً ربُّنا) بفتح الجيم والدال منوناً ورفع (ربنا) وانتصب (جداً) على التمييز المنقول من الفاعل أصله تعالى (جد ربنا) ، وقرأ قتادة وعكرمة أيضاً جداً بكسر الجيم والتنوين نصباً ربنا رفع ، قال ابن عطية : نصب جداً على الحال ، ومعناه تعالى : حقيقة ومتمكناً ، وقال غيره ، هو صفة لمصدر محذوف تقديره : تعالياً جداً ، وربنا مرفوع بتعالى ، وقرأ ابن السميفع (جدى ربنا) أي جدواه ونفعه ، وقرأ الجمهور (يقول سفيهنا) هو إبليس ، وقيل : هو اسم جنس لكل سفيه وإبليس مقدم السفهاء والشطط التعدي وتجاوز الحد ، قال الأعشى :

أَيَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذَوُو شَطَطٍ   كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفَتَلُ

ويقال أشط في السوم : إذا أبعد فيه ، أي قولاً هو في نفسه شطط ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى (وأنا ظننا) الآية كنا أحسنا الظن بالإنس والجن واعتقدنا أن أحداً لا يجترىء على أن يكذب على الله فينسب إليه الصاحبة والولد فاعتقدنا صحة ما أغوانا به إبليس ومردته حتى سمعنا القرآن فتبينا كذبهم ، وقرأ الجمهور (أن لن تقول) مضارع قال. والحسن ، والجحدري ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ، ويعقوب ، وابن مقسم (تقول) مضارع تتقول ، حذفت إحدى التاءين وانتصب كذباً في قراءة الجمهور بتقول لأن الكذب نوع من القول ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي : قولاً كذباً أي : مكذوباً فيه ، وفي قراءة الشاذ على أنه مصدر لتقول ، لأنه هو الكذب فصار كقعدت جلوساً (وأنه كان رجال) ، روى الجمهور أن الرجل كان إذا أراد المبيت أو الحلول في واد نادى بأعلى صوته : يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، فيعتقد بذلك أن الجني الذي بالوادي يمنعه ويحميه ، فروي أن الجن كانت تقول عند ذلك لا نملك لكم ولا لأنفسنا من الله شيئاً، قال مقاتل : أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ، ثم بنو حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، والظاهر : أن الضمير المرفوع في (فزادوهم) عائد على رجال من الإنس ، إذ هم المحدث عنهم ، وهو قول مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير (فزادوهم) أي : الإنس (رهقاً) أي جراءة وانتخاء وطغياناً وغشيان المحارم وإعجاباً بحيث قالوا سدنا الإنس والجن وفسر قوم الرهق بالإثم ، وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى :

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَتِهَا   لَا يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقَا[1]

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١٠٦) القرطبي (١٨/١٢٠٨) .

قال معناه ما لم يغش محرماً ، والمعنى : زادت الإنس الجن مأثماً ، لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى ، وقال قتادة وأبو العالية والربيع وابن زيد (فزادوهم) أي الجن زادت الإنس مخافة يتخيلون لهم بمنتهى طاقتهم ويغوونهم لما رأوا من خفة أحلامهم فازدروهم واحتقروهم ، وقال ابن جبير (رهقاً) كفراً ، وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجن ، فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس ، وكان الرجل يقول مثلاً : أعوذ بحذيفة بن اليمان من جن هذا الوادي ، وهذا قول غريب ، (وأنهم) أي كفار الإنس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن يخاطب به بعضهم بعضاً وظنوا وظننتم كل منها يطلب (أن لن يبعث) فالمسألة من باب الاعمال و (أن) هي المخففة من الثقيلة ، وقيل : الضمير في (وأنهم) يعود على الجن ، والخطاب في (ظننتم) لقريش ، وهذه والتي قبلها هما من الموحى به لا من كلام الجن (أن لن يبعث الله أحداً) الظاهر أنه بعثة الرسالة إلى الخلق ، وهو أنسب لما تقدم من الآي ولما تأخر ، وقيل : بعث القيامة ، (وأنا لمسنا السماء) أصل اللمس : المس ثم استعير للتطلب والمعنى : طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها (فوجدناها ملئت) الظاهر : أن وجد : هنا بمعنى صادف وأصاب وتعدت إلى واحد والجملة من ملئت في موضع الحال ، وأجيز أن تكون تعدت إلى اثنين فملئت في موضع المفعول الثاني ، وقرأ الأعرج (مليت) بالياء دون همز والجمهور بالهمز و (شديداً) صفة للحرس على اللفظ لأنه اسم جمع كما قال :

أَخْشَى رُجَيْلاً أَوْ ركيباً عَادِيا[١]

ولو لحظ المعنى لقال شداداً بالجمع والظاهر : أن المراد بالحَرَس : الملائكة أي حافظين من أن تقربها الشياطين و (شهباً) جمع شهاب وهو ما يرجم به الشياطين إذا استمعوا ، قيل : ويحتمل أن يكون الشهب هم الحرس ، وكرر المعنى لما اختلف اللفظ نحو .

وَهِنْدُ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ[٢]

وقوله (فوجدناها ملئت) بدل : على أنها كانت قبل ذلك يطرقون السماء ولا يجدونها قد ملئت ، (مقاعد) جمع مقعد ، وقد فسر رسول الله ﷺ صورة قعود الجن : أنهم كانوا واحداً فوق واحد ، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة ، فيلقونها إلى الكهان ، ويزيدون معها ثم يزيد الكهان الكلمة مائة كذبة (فمن يستمع الآن) الآن ظرف زمان للحال ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف واستعمل للاستقبال كما قال :

سَأَسْعَى الآنَ إِذْ بَلَغَتْ إِنَاهَا[٣]

فالمعنى : فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي (يجد له شهاباً رصداً) أي يرصده فيحرقه هذا لمن استمع ، وأما السمع فقد انقطع كما قال تعالى ﴿ فإنهم عن السمع لمعزولون ﴾ [الشعراء ٢١٢] والرجم : كان في الجاهلية وذلك مذكور

---

(١) شطر بيت من الطويل لعبد بن يغوث بن وقاص الحارثي وبعده (والذئب أخشاه وكلباً عاويا) انظر اللسان (رجل) روح المعاني (٢٩/١٠٨) الكشاف (٤/٦٢٤) .

(٢) البيت من الوافر للحطيئة وتمامه (ألا حبذا هند وأرض بها هند) انظر اللسان (نأى) وابن يعيش (١/١٠ ـ ٧٠) الهمع (٢/٨٨) شرح القصائد (٣٢١) .

(٣) عجز بيت من الوافر لم نهتد لقائله وصدره :

فإني لست خاذلكم ولكني ....

انظر الدسوقي على المغنى (١/١٤٩) .

في أشعارهم ، ويدل عليه الحديث حين رأى عليه الصلاة والسلام نجماً قد رمي به قال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ قالوا ، كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم ، قال أوس بن حجر :

وَانْـقَضَّ كَـالـدُّرِّيِّ يَـتْـبَـعُـهُ ... نَقْـعٌ يَثُـورُ بِحَـالَـةٍ طُنِبـا[١]

وقال عوف بن الجزع :

فَـرِدَّ عَلَيْنَـا الْعِيـرَ مِنْ دُونِ إِلْفِـهِ ... أَوِ الثَّـوْرَ كَـالـدُّرِّيِّ يَتْبَعُـهُ الـدَّمُ[٢]

وقال بشر بن أبي حازم :

وَالْعِيـرُ يَـرْهَـقُهَـا الْـغُبَـارُ وَجَـحْشُـهَـا ... يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَـا انْقِضَـاضَ الْكَـوْكَبِ[٣]

قال التبريزي : وهؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ليس فيهم مخضرم ، وقال معمر : قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال : نعم ، قلت : أرأيت قوله (وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ وقال الجاحظ : القول بالرمي أصح لقوله (فوجدناها ملئت) وهذا إخبار عن الجن أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت ولما روى ابن عباس وذكر الحديث السابق ، وقال الزمخشري : تابعاً للجاحظ . وفي قوله دليل على أن الحرس هو الملء والكثرة ، فلذلك نقعد منها مقاعد أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها انتهى . وهذا كله يبطل قول من قال إن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ ، وهو إحدى آياته ، والظاهر : أن رصداً على معنى ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ، ويمنعونهم من الاستماع ، ولما رأوا ما حدث من كثرة الرجم ومنع الاستراق قالوا (وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض) وهو كفرهم بهذا النبي ﷺ فينزل بهم الشر (أم أراد بهم ربهم رشداً) فيؤمنون به فيرشدون وحين ذكروا الشر لم يسندوه إلى الله تعالى وحين ذكروا الرشد أسندوه إليه تعالى ، (وأنا منا الصالحون) أخبروا بما هم عليه من صلاح وغيره ، (ومنا دون ذلك) أي : دون الصالحين ، ويقع (دون) في مواضع موقع غير فكأنه قال (ومنا) غير صالحين ، ويجوز أن يريدوا (ومنا دون ذلك) في الصلاح ، أي : فيهم أبرار ، وفيهم من هو غير كامل في الصلاح و (دون) في موضع الصفة لمحذوف ، أي : ومنا قوم دون ذلك ، ويجوز حذف هذا الموصوف في التفصيل بمن حتى في الجمل ، قالوا : منا ظعن ومنا أقام ، يريدون منا فريق ظعن ومنا فريق أقام ، والجملة من قوله (كنا طرائق قدداً) تفسير للقسمة المتقدمة ، قال ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، أهواء مختلفة ، وقيل : فرقاً مختلفة ، وقال الزمخشري : أي كنا ذوي مذاهب مختلفة ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا في طرائق مختلفة كقوله :

كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[٤]

أو كانت طرائقنا قدداً على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه ، انتهى . وفي تقديره الأولين حذف المضاف من (طرائق) وإقامة المضاف إليه مقامه ، إذ حذف ذوي ومثل ، وأما التقدير الثالث : وهو

---

(١) انظر البيت في القرطبي (١٩/١٠) روح المعاني (٢٩/١٠٩) الكشاف (٤/٦٢٦) .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١١١) الكشاف (٤/٦٢٦) .

(٣) انظر البيت في الكشاف (٤/٦٢٥) .

(٤) تقدم .

أن ينتصب على إسقاط (في) فلا يجوز ذلك إلا في الضرورة ، وقد نص سيبويه على أن « عسل الطريق » شاذ فلا يخرج القرآن عليه (وأنا ظننا أن لن نعجز الله) أي أيقنا في الأرض أي كائنين (في الأرض ولن نعجزه هرباً) أي من الأرض إلى السماء و (في الأرض) و (هرباً) حالان أي فارين أو هاربين ، (وانا لما سمعنا الهدى) وهو القرآن (آمنا) به أي بالقرآن (فمن يؤمن بربه فلا يخاف) أي فهو لا يخاف ، وقرأ ابن وثاب ، والأعمش ، والجمهور (فلا يخاف) وخُرّجت قراءتها على النفي ، وقيل : الفاء زائدة ولا نفي وليس بشيء وكان الجواب بالفاء أجود من المجيء بالفعل مجزوماً دون الفاء ، لأنه إذا كان بالفاء كان على إضمار مبتدأ ، أي : فهو لا يخاف ، والجملة الاسمية أدل وآكد من الفعلية على تحقق مضمون الجملة (بخساً) قال ابن عباس نقص الحسنات (ولا رهقاً) قال زيادة في السيئات ولا رهقاً قيل تحميل ما لا يطاق ، وقال الزمخشري : أي جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحداً ، ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما ، ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى ولا أن ترهقه ذلة من قوله : ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ [القلم ٤٣] انتهى . وقرأ الجمهور (بخْساً) بسكون الخاء . وابن وثاب بفتحها (ومنا القاسطون) أي الكافرون الجائرون عن الحق ، قال مجاهد وقتادة : القاسط الظالم ومنه قول الشاعر :

قَـوْمٌ هُـمُ قَتَلُوا ابْنَ هِـنْـدٍ عَنْـوَةً ... وَهُـمُـو قَسَـطُوا عَلَى النُّعْمَـانِ[1]

وجاء هذا التقسيم وإن كان قد تقدم (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك) ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة ، ويرغب من يدخل في الإسلام . والظاهر : أن (فمن أسلم) إلى آخر الشرطين من كلام الجن ، وقال ابن عطية : الوجه أن يكون (فمن أسلم) مخاطبة من الله تعالى لمحمد ﷺ ويؤيده ما بعده من الآيات ، وقرأ الأعرج (رُشْداً) بضم الراء وسكون الشين ، والجمهور بفتحها ، وقال الزمخشري : وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم وكفى به وعيداً . أي : (فأولئك تحروا رشداً) فذكر سبب الثواب وموجبه ، والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد . انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال في قوله وموجبه .

قوله عز وجل : ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ، قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً** ﴾ .

هـذا من جملة الموحى المندرج تحت (أوحي إليَّ) و (أن) مخففة من الثقيلة ، والضمير في (استقاموا) قال الضحاك ، والربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، وأبو مجلز : هو عائد على قوله (فمن أسلم) و (الطريقة) طريقة الكفر أي : لو كفر من أسلم من الناس (لأسقيناهم) إملاء لهم واستدراجاً واستعارة الاستقامة للكفر قلقة لا تناسب ، وقال ابن عباس : ومجاهد ، وقتادة ، وابن جبير : هو عائد على القاسطين ، والمعنى : على الطريقة الإسلام والحق لأنعمنا عليهم نحو قوله (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) الآية ، وقيل : الضمير في (استقاموا) عائد على الخلق كلهم ، (وأن) هي

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١١١) القرطبي (١٩/١٢) .

المخففة من الثقيلة (لأسقيناهم ماء غدقاً) كناية عن توسعة الرزق لأنه أصل المعاش ، وقال بعضهم : المال حيث الماء ، وقرأ الجمهور (غدقاً) بفتح الدال ، وعاصم في رواية الأعشى بكسرها ، ويقال : العين تغدق غدقاً فهي غدقة إذا كثر ماؤها ، (لنفتنهم) أي لنختبرهم كيف يشكرون ما أنعم عليهم به ، أو لنمتحنهم ونستدرجهم وذلك على الخلاف في من يعود عليه الضمير في استقاموا ، وقرأ الأعمش ، وابن وثاب بضم واو (لو) والجمهور بكسرها ، وقرأ الكوفيون (يسلكه) بالياء ، وباقي السبعة بالنون ، وابن جندب بالنون من أسلك وبعض التابعين بالياء من أسلك أيضاً وهما لغتان ، سلك وأسلك قال الشاعر :

حَتَّى إذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَائِدَةٍ[1]

وقرأ الجمهور (صَعَدًا) بفتحتين ، وهو مصدر صعد ، وصف به العذاب أي : يعلو المعذب ويغلبه وفسر بشاق يقال : فلان في صعد من أمره أي في مشقة ، وقال عمر ما يتصعد بي شيء كما يتصعد في خطبة النكاح أي : ما يشق عليّ ، وقال أبو سعيد الخدري ، وابن عباس : صعد جبل في النار ، وقال الخدري : كلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، وقال عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم ، فعلى هذا يجوز أن يكون بدلاً من (عذاب) على حذف مضاف أي عذاب صعد ، ويجوز أن يكون (صعداً) مفعول (يسلكه) و (عذاباً) مفعول من أجله ، وقرأ قوم (صُعُداً) بضمتين ، وابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين ، قال الحسن : معناه لا راحة فيه ، وقرأ الجمهور (وأَنَّ المساجد) بفتح الهمزة عطفاً على (أنه استمع) فهو من جملة الموحى ، وقال الخليل : معنى الآية : ولأن المساجد لله فلا تدعوا ، أي : لهذا السبب وكذلك عنده (لايلاف قريش) (فليعبدوا) وكذلك ﴿ وأن هذه أمتكم ﴾ [المؤمنون ٥٢] أي ولأن هذه ، وقرأ ابن هرمز ، وطلحة (وإن المساجد) بكسرها على الاستئناف ، وعلى تقدير الخليل : فالمعنى : فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد لأنها لله خاصة ولعبادته ، والظاهر : أن المساجد هي : البيوت المعدة للصلاة والعبادة في كل ملة ، وقال الحسن : كل موضع سجد فيه فهو مسجد كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن ، لأن الأرض كلها مسجد هذه الأمة ، وأبعد ابن عطاء في قوله : إنها الآراب التي يسجد عليها ، واحدها مسجد بفتح الجيم ، وهي : الجبهة ، والأنف ، واليدان ، والركبتان ، والقدمان عدَّ الجبهة والأنف واحداً ، وأبعد أيضاً من قال : المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد ، وقال إنه جمع مسجد وهو السجود ، وروي : أنها نزلت حين تغلبت قريش على الكعبة فقيل لرسول الله ﷺ المواضع كلها لله فاعبده حيث كنت ، وقال ابن جبير : نزلت ، لأن الجن قالت يا رسول الله : كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك ؟ فنزلت الآية ليخاطبهم على معنى : أن عبادتكم حيث كنتم مقبولة إذا دخلنا المساجد ، وقرأ الجمهور (وأنه لما قام عبد الله) بفتح الهمزة عطفاً على قراءتهم (وأن المساجد) بالفتح ، وقرأ ابن هرمز ، وطلحة ، ونافع وأبو بكر ، بكسرها على الاستئناف ، و (عبد الله) هو محمد رسول الله ﷺ (يدعوه) أي يدعو الله (كادوا) أي : كاد الجن قال ابن عباس والضحاك : ينقضون عليه لاستماع القرآن ، وقال الحسن وقتادة : الضمير في (كادوا) لكفار قريش ، والعرب في اجتماعهم على رد أمره ، وقال ابن جبير : المعنى أنها قول الجن لقومهم يحكون ، والضمير في (كادوا) لأصحابه الذين يطوعون له ، ويقتدون به في الصلاة قال الزمخشري : (فإن قلت :) هلا قيل رسول الله أو النبي (قلت :) لأن تقديره : وأوحى إليّ أنه لما قام عبد الله ، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ـ ﷺ ـ عن نفسه جيء به على ما

---

(١) صدر بيت من البسيط لعبد مناف بن ربعي عجزه :

.... ثلاثاً كما تطرد الجمالة الشردا

انظر ديوان الهذليين (٢/٤٢) روح المعاني (٢٩/١١٣) الكشاف (٤/٦٢٩) .

يقتضيه التواضع والتذلل ، أو لأن المعنى : أن عبادة الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ، ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبداً ، ومعنى : قام يدعوه ، قام يعبده يريد قيامه لصلاة الفجر بنخلة ، حين أتاه فاستمعوا لقراءته ـ عليه السلام ـ (كادوا يكونون عليه لبداً) أي : يزدحمون عليه متراكمين ، تعجباً مما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، قائماً وراكعاً وساجداً ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره انتهى . وهو قول متقدم كثره الزمخشري بخطابته ، وقرأ الجمهور (لِبَداً) بكسر اللام وفتح الباء جمع لبدة ، نحو كسرة وكسر ، وهي الجماعات شبهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض ، ومنه قول عبد مناف بن ربيع :

صَافُوا بِسِتَّةِ أَبْيَاتٍ وَأَرْبَعَةٍ حَتَّى كَأَنَّ عَلَيْهِمْ جَانِبَاً لِبَدَا[1]

وقال ابن عباس : أعواناً ، وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر بخلاف عنه بضم اللام جمع لبدة كَزُبْرة وزُبر ، وعن ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضم اللام (لُبْداً) ، وقرأ الحسن والجحدري وأبو حيوة وجماعة عن أبي عمرو بضمتين جمع لَبْد ، كرَهْن ورُهُن ، أو جمع لبود ، كصبور وصبر ، وقرأ الحسن والجحدري بخلاف عنهما (لُبَّداً) بضم اللام وشد الباء المفتوحة ، قال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام الرسول للدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره انتهى . وأبعد من قال (عبد الله) هنا نوح ـ عليه السلام ـ ، كاد قومه يقتلونه حتى استنقذه الله منهم . قال الحسن ، وأبعد منه قول من قال : إنه عبد الله بن سلام ، وقرأ الجمهور (قال إنما أدعو ربي) أي : أعبده أي : قال للمتظاهرين عليه ، إنما أدعو ربي ، أي : لم آتكم بأمر ينكر إنما أعبد ربي وحده . وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على عداوتي ، أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ما ترون من عبادة الله بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يعبد غيره ، أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وهذا كله مرتب على الخلاف في عود الضمير في (كادوا) ، وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بخلاف عنه ، (قل) أي : قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك ، وهم إما الجن ، وإما المشركون على اختلاف القولين في ضمير (كادوا) ، ثم أمره تعالى أن يقول لهم ما يدل على تبرئه من القدرة على إيصال خير أو شر إليهم ، وجعل الضر مقابلاً للرشد تعبيراً به عن الغي ، إذ الغي ثمرته الضرر ، يمكن أن يكون المعنى : ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً ، فحذف من كل ما يدل عليه مقابله ، وقرأ الأعرج (رُشُداً) بضمتين ، ولما تبرأ عليه السلام من قدرته على نفعهم وضرهم أمر بأن يخبرهم بأنه مربوب لله تعالى يفعل فيه ربه ما يريد ، وأنه لا يمكن أن يجيره منه أحد ، ولا يجد من دونه ملجأ يركن إليه قال قريباً منه قتادة ، وقال السدي : حرزاً وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض ، وقيل : ناصراً ، وقيل : مذهباً ومسلكاً ، ومنه قول الشاعر :

يَا لَهْفَ نَفْسِي ونَفْسِي غَيْرُ مُجْدِيَةٍ عَنِّي وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ[2]

وقيل : في الكلام حذف ، وهو قالوا له : اترك ما تدعو إليه ، ونحن نجيرك ، فقيل له (قل لن يجيرني) وقيل : هو جواب لقول وردان سيد الجن ، وقد ازدحموا عليه ، قال وردان : أنا أرحلهم عنك ، فقال: إني لن يجيرني أحد ذكره الماوردي ، (إلا بلاغا) قال الحسن : هو استثناء منقطع ، أي : لن يجيرني أحد ، لكن إن بلغت رحمتي بذلك ، والإجارة للبلاغ مستعارة ، إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته ، وقيل : على هذا المعنى هو استثناء متصل أي : لن يجيرني في أحد ، لكن لم أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به ، إلا أن أبلغ وأطيع ، فيجيرني الله ، فيجوز نصبه على الاستثناء من (ملتحداً) وعلى

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/ ١١٦) .

(٢) البيت من البسيط لم نهتد لقائله انظر روح المعاني (٢٩/ ١١٦) ، القرطبي (١٨/ ١١٩) .

البدل ، وهو الوجه ، لأن ما قبله نفياً ، وعلى البدل خرجه الزجاج ، وقال أبو عبد الله الرازي : هذا الاستثناء منقطع ، لأنه لم يقل : ولم يجد ملتحداً ، بل قال (من دونه) والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله (من دونه ملتحداً) لأنه لا يكون من دون الله ، بل يكون من الله وبإعانته وتوفيقه ، وقال قتادة : التقدير : لا أملك إلا بلاغاً إليكم ، فأما الإيمان والكفر فلا أملك انتهى ، وفيه بعد لطول الفصل بينهما ، وقيل : إلا في تقدير الانفصال (إن) شرطية ، و (لا) نافية وحذف فعلها لدلالة المصدر عليه ، والتقدير : إن لم أبلغ بلاغاً من الله ورسالته ، وهذا كما تقول : إن لا قياماً قعوداً ، أي : إن لم تقم قياماً فاقعد قعوداً ، وحذف هذا الفعل قد يكون لدلالة عليه بعده أو قبله ، كما حذف في قوله :

فَطَلِّقْهَا فَلَسْتَ لَهَا بِكُفْءٍ وَإِلَّا يَعْلُ مَفْرِقَكَ الْحُسَامُ[1]

التقدير : وإن لا تطلقها ، فحذف تطلقها ، لدلالة فطلقها عليه ، و (من) لابتداء الغاية ، وقال الزمخشري : تابعاً لقتادة أي : لا أملك إلا بلاغاً من الله ، و (قل إني لن يجيرني) جملة معترضة ، اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه ، وبيان عجزه على معنى أن الله إن أراد به سوءاً من مرض ، أو موت ، أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد ، أو يجد من دونه ملاذاً يأوي إليه انتهى . (ورسالاته) قيل : عطف على « بلاغاً » أي : إلا أن أبلغ عن الله ، أو أبلغ رسالاته ، الظاهر أن (رسالاته) عطف على (الله) أي : إلا أن أبلغ عن الله وعن رسالاته ، (ومن يعص الله ورسوله) أي : بالشرك والكفر ، ويدل عليه قوله (خالدين فيها أبداً) ، وقرأ الجمهور (فإن له) بكسر الهمزة ، وقرأ طلحة بفتحها ، والتقدير : فجزاؤه أن له ، قال ابن خالويه ، وسمعت ابن مجاهد يقول : ما قرأ به أحد ، وهو لحن ، لأنه بعد فاء الشرط ، وسمعت ابن الأنباري يقول : هو صواب ومعناه ، فجزاؤه ، أن له نار جهنم انتهى . وكان ابن مجاهد إماماً في القراءات ، ولم يكن متسع النقل فيها كابن شنبوذ ، وكان ضعيفاً في النحو ، وكيف يقول : ما قرأ به أحد ، وهذا كطلحة بن مصرّف قرأ به ، وكيف يقول وهو لحن ، والنحويون قد نصوا على أن بعد فاء الشرط يجوز فيها الفتح والكسر ، وجمع (خالدين) حملاً على معنى من ، وذلك بعد الحمل على لفظ (من) في قوله (يعص) (فإن له) (حتى إذا رأوا) (حتى) هنا حرف ابتداء ، أي : يصلح أن يجيء بعدها جملة الابتداء والخبر ، ومع ذلك فيها معنى الغاية ، قال الزمخشري : (فإن قلت :) بم تعلق (حتى) وجعل ما بعده غاية له (قلت :) بقوله (يكونون عليه لبداً) على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ، ويستضعفون أنصاره ، ويستقلون عددهم (حتى إذا رأوا ما يوعدون) من يوم بدر ، وإظهار الله له عليهم ، أو من يوم القيامة ، فسيعلمون حينئذ أنهم أضعف ناصراً وأقل عدداً ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له ، واستقلالهم لعدده ، كأنه لا يزالون على ما هم عليه (حتى إذا رأوا ما يوعدون) قال المشركون : متى يكون هذا الموعود إنكاراً له ، فقيل ، قل إنه كائن لا ريب فيه ، فلا تنكروه فإن الله قد وعد ذلك ، وهو لا يخلف الميعاد ، وأما وقته فلا أدري متى يكون ، لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة انتهى ، وقوله : بم تعلق إن عنى تعلق حرف الجر فليس بصحيح ، لأنها حرف ابتداء ، فما بعدها ليس في موضع جر خلافاً للزجاج وابن درستويه ، فإنهما زعما أنها إذا كانت حرف ابتداء فالجملة الابتدائية بعدها في موضع جر ، وإن عنى بالتعلق اتصال ما بعدها بما قبلها ، وكون ما بعدها غاية لما قبلها فهو صحيح ، وأما تقديره : إنها تتعلق بقوله : (يكونون عليه لبداً) فهو بعيد جداً لطول الفصل بينهما بالجمل الكثيرة ، وقال التبريزي (حتى) جاز أن تكون غاية لمحذوف ، ولم يبين ما المحذوف ، وقيل : المعنى : دعهم (حتى إذا رأوا ما يوعدون) من الساعة (فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) أهم أم أهل الكتاب ؟ والذي يظهر لي أنها غاية لما تضمنته الجملة التي قبلها ، من الحكم بكينونة النار لهم ، كأنه قيل : إن العاصي يحكم له بكينونة النار لهم ،

---

(١) تقدم .

والحكم بذلك هو وعيد حتى إذا رأوا ما حكم بكينونته لهم فسيعلمون ، فقوله (فإن له نار جهنم) هو وعيد لهم بالنار ، و (من أضعف) مبتدأ وخبر في موضع نصب لما قبله ، وهو معلق عنه ، لأن (من) استفهام . ويجوز أن تكون (من) موصولة في موضع نصب بـ (سيعلمون) و (أضعف) خبر مبتدأ محذوف ، والجملة صلة لـ (من) وتقديره : هو أضعف ، وحسن حذفه طول الصلة بالمعمول ، وهو (ناصراً) ، قال مكحول : لم ينزل هذا إلا في الجن ، أسلم منهم من وفق ، وكفر من خذل ، كالإنس قال : وبلغ من تابع النبي ـ ﷺ ـ ليلة الجن سبعين ألفاً ، وفزعوا عند انشقاق الفجر ، ثم أمره تعالى أن يقول لهم : إنه لا يدري وقت طول ما وعدوا به ، أهو قريب أم بعيد ؟ قال الزمخشري : (فإن قلت :) ما معنى قوله ﴿أم يجعل له ربي أمداً﴾ [آل عمران ٣٠] والأمد : يكون قريباً وبعيداً ، ألا ترى إلى قوله تعالى (تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) (قلت :) كان رسول الله ـ ﷺ ـ يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية . أي : هو (عالم الغيب فلا يظهر) فلا يطلع و (من رسول) تبين لمن ارتضى ، يعني : أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى ، الذي هو مصطفى للنبوّة خاصة ، لا كل مرتضى ، وفي هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط انتهى . وقال ابن عباس : عالم الغيب ، قال الحسن : ما غاب عن خلقه ، وقيل : الساعة ، وقال ابن عباس (إلا) بمعنى ، « لكن » فجعله استثناء منقطعاً ، وقيل : (إلا) بمعنى (ولا) أي : ولا من ارتضى من رسول ، و (عالم) خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو عالم الغيب ، أو بدل من (ربي) ، وقرىء (عالم) بالنصب على المدح ، وقال السدّي (عَلِمَ الغَيْبَ) فعلاً ماضياً ناصباً الغيب ، والجمهور (عالم الغيب) اسم فاعل مرفوعاً . وقرأ الجمهور (فَلَا يُظْهِرُ) من أظهر ، والحسن (يَظْهَر) بفتح الياء والهاء من ظهر (إلا من ارتضى من رسول) استثناء من (أحداً) أي : فإنه يظهره على ما يشاء من ذلك ، فإنه يسلك الله من بين يدي ذلك الرسول ، (ومن خلفه رصداً) أي : حفظة يحفظونه من الجن ، ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إلى ذلك الرسول من علم الغيب ، وعن الضحاك : ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين ، أن يتشبهوا بصورة الملك ، وقال القرطبي : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم ، ثم ذكر استدلالاً على بطلان ما يقوله المنجم ، ثم باستحلال دم المنجم ، وقال الواحدي : في هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدل على ما يكون من حياة أو موت ، أو غير ذلك ، فقد كفر بما في القرآن ، قال أبو عبد الله الرازي والواحدي : تجوز الكرامات على ما قال صاحب الكشاف ، فجعلها تدل على المنع من الأحكام النجومية ، ولا تدل على الإلهامات مجرد تشبه ، وعندي أن الآية لا تدل على شيء مما قالوه ، لأن قوله : على غيبه ليس فيه صفة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر خلقه تعالى على غيب واحد من غيوبه ، ويحمله على وقت قيام القيامة ، فلا يبقى دليل في الآية على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ، ويؤكده أنه ذكر هذه الآية عقيب قوله (إن أدري أقريب ما توعدون) الآية . أي : لا أدري وقت وقوع القيامة ، إذ هي من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد ، و (إلا من ارتضى) استثناء منقطع ، كأنه قال : فلا يظهر على غيبه المخصوص أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فله حفظة يحفظونه من شرّ مردة الإنس والجن ، قال أبو عبد الله الرازي : واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس المراد من هذه الآية أنه لا يطلع أحد على شيء من المغيبات إلا الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والذي يدل عليه وجوه ، أحدها : أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين يخبران بظهور محمد ـ ﷺ ـ قبل زمان ظهوره ، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم ، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا ﷺ وثانيها إطباق الأمم على صحة علم التعبير ، فيختبر المعبر عن ما

يأتي في المستقبل ، ويكون صادقاً ، وثالثها : أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه ، من بغداد إلى خراسان ، سألها عن أشياء في المستقبل ، فأخبرت بها ووقعت على وفق كلامها ، فقد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنه : أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة على سبيل التفصيل ، وجاءت كذلك ، وبالغ أبو البركات صاحب المعتبر في شرح حالها في كتاب التعبير ، وقال : فحصت عن حالها منذ ثلاثين سنة ، حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات أخباراً مطابقة موافقة ، ورابعها : أنا نشاهد أصحاب الإلهامات الصادقة ، ليس هذا مختصاً بالأولياء ، فقد يوجد في السحرة وفي الأحكام النجومية ما يوافق الصدق ، وإن كان الكذب يقع منهم كثيراً ، وإذا كان ذلك مشاهداً محسوماً فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن إلى القرآن ، وذلك باطل ، فقلنا إن التأويل الصحيح ما ذكرناه انتهى . وفيه بعض تلخيص ، وإنما أوردنا كلام هذا الرجل في هذه المسألة ، لننظر فيما ذكر من تلك الوجوه ، أما قصة شق وسطيح ، فليس فيها شيء من الإخبار بالغيب ، لأنه مما يخبر به رئي الكهان من الشياطين مسترقة السمع ، كما جاء في الحديث « إنهم يسمعون الكلمة ويكذبون ، ويلقون إلى الكهنة ، ويزيد الكهنة للكلمة مائة كذبة » ، وليس هذا من علم الغيب ، إذ تكلمت به الملائكة ، وتلقفها الجني ، وتلقفها منه الكاهن ، فالكاهن لم يعلم الغيب ، وأما تعبير المنامات فالمعبر غير المعصوم لا يعبر بذلك على سبيل البت والقطع ، بل على سبيل الحزر والتخمين ، وقد يقع ما يعبر به وقد لا يقع ، وأما الكاهنة البغدادية ، وما حكى عنها فحسبه عقلاً أن يستدل بأحوال امرأة لم يشاهدها ، ولو شاهد ذلك لكان في عقله ما يجوز أنه لبس عليه ، هذا وهو العالم المصنف الذي طبق ذكره الآفاق ، وهو الذي شكك في دلائل الفلاسفة وسامهم الخسف ، وأما حكايته عن صاحب المعتبر ، فهو يهودي أظهر إسلامه ، وهو منتحل طريقة الفلاسفة ، وأما مشاهدته أصحاب الإلهامات الصادقة ، فلي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة ، أصحب العلماء ، وأتردد إلى من ينتمي إلى الصلاح ، فلم أر أحداً منهم صاحب إلهام صادق ، وأما الكرامات . فلا أشك في صدور شيء منها ، لكن ذلك على سبيل الندرة ، وذلك في من سلف من صلحاء هذه الأمة ، وربما قد يكون في أعصارنا من تصدر منه الكرامات . والله تعالى أن يخص من شاء بما شاء والله الموفق ، وقرأ الجمهور (لِيَعْلَم) مبنياً للفاعل ، قال قتادة (لِيَعْلَم) محمد ـ ﷺ ـ أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وحفظوا . وقال ابن جبير (لِيَعْلَم) محمد أن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل وخلفه (قد أبلغوا رسالات ربهم) ، وقال مجاهد(لِيَعْلَم) من أشرك وكذب ، أن الرسل قد بلغت ، وعلى هذا القول لا يقع لهم هذا العلم إلا في الآخرة ، وقيل : ليعلم الله رسله مبلغة خارجة إلى الوجود ، لأن علمه بكل شيء قد سبق ، واختار الزمخشري هذا القول الأخير ، فقال : ليعلم الله أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، يعني الأنبياء ، وحد أولاً على اللفظ في قوله (من بين يديه ومن خلفه) ثم جمع على المعنى كقوله ﴿فإن له نار جهنم خالدين﴾ [الجن ٢٣] والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم ، كما هي محروسة من الزيادة والنقصان ، وذكر العلم كذكره في قوله ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ [محمد ٣١] انتهى . وقيل : ليعلم أي : أي رسول كان أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، سليمة من تخليطه وإسراف أصحابه ، وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم ، وقيل : ليعلم محمد أن قد بلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ، وقيل : ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل إليهم ، ولم يكونوا هم المتلقين باستراق السمع ، وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ (لِيُعْلَم) بضم الياء مبنياً للمفعول ، والزهري وابن أبي عبلة بضم الياء ، وكسر اللام ، أي : لِيُعْلِمْ الله ، أي : من شاء أن يعلمه أن الرسل قد أبلغوا رسالاته ، وقرأ الجمهور (رِسَالاتِ) على الجمع وأبو حيوة على الإفراد . وقرأ الجمهور (وأَحَاطَ بما لديهم) وأحاط مبنياً للفاعل ، أي : الله (وأَحْصى) مبنياً للفاعل ، أي : الله (كلَّ) نصباً ، وابن أبي عبلة (وأُحيط) (وأُحْصِي) مبنياً للمفعول (كلٌ) رفعاً ، ولما كان (لِيُعْلِم) مضمناً معنى علم ، صار المعنى : قد علم ذلك ، فعطف (وأحاط) على هذا الضمير ، والمعنى : وأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع ،

لا يفوته منها شيء (وأحصى كل شيء عدداً) أي : معدوداً محصوراً وانتصابه على الحال من (كل شيء) وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم ، ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لـ (أحصى) لأنه في معنى إحصاء ، وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون تمييزاً . فيكون منقولاً من المفعول ، إذ أصله : وأحصى عدد كل شيء ، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف .

سورة المزمل مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

تزمّل في ثوبه : التف ، وزمّل لف ، قال امرؤ القيس :

كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ (١)

وقال ذو الرمّة :

---

(١) عجز بيت من الطويل انظر ديوان امرىء القيس (٢٥) .

وَكَــائِــنْ تَخَــطَّتْ نَــاقَتِي مِنْ مَفَــازَةٍ   وَمِنْ نَــائِمٍ عَنْ لَيْلِهَــا مُتَــزَمِّــلِ [١]

تبتل إلى كذا : انقطع إليه ، ومنه : هبة بتلة ، وطلقة بتلة ، والبتول وبتل الحبل ، وقال الليث : البتل تمييز الشيء من الشيء ، والبتول المرأة المنقطعة عن الرّجال ، لا شهوة لها ولا حاجة لها فيهم ، والتبتل : ترك النكاح والزهد فيه ، ومنه قول امرىء القيس :

تُضِيءُ الـظَّلَامَ بِـالْعِشَــاءِ كَــأَنَّهَــا   مَنَــارَةُ مُمْــسى رَاهِــبٍ مُتَــبَتِّــلِ [٢]

ومنه النهي عن التبتل ، أي : عن الانقطاع عن التزويج ، ومنه قيل للراهب : متبتل ، لانقطاعه عن النـاس وانفراده للعبادة ، والغصة : الشجى ، وهو ما ينشب بالحلق من عظم أو غيره ، وجمعها غصص ، والفعل غصصت ، فأنت غاص وغصان قال :

كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي [٣]

الكثيب : الرمل المجتمع . وجمعه : كثب وكثبان في الكثرة وأكثبة في القلة . قال ذو الرمّة .

فَـقُـلْت لَـهَـا لَا إِنَّ أَهْـلِي جِيـرَة   لأَكْثِبَـةِ الـدَّهْـنَا جَمِيعـاً وَمَـالِيَـا [٤]

المهيل : الذي يمر تحت الرجل ، وهلت عليه التراب صببته ، وقال الكلبي : المهيل الذي إذا وطئته القدم زل من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال ، وأهلت لغة في هلت ، الشيب : جمع أشيب ، ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ، إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ، إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ، إن لك في النهار سبحاً طويلاً ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ، وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ، إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ، إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ، فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعده مفعولاً** ﴾ هذه السورة مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها (واصبر على ما يقولون) والتي تليها ذكره الماوردي ، وقال الجمهور : هي مكية إلا قوله تعالى (إن ربك يعلم) إلخ فإنه نزل بالمدينة . وسبب نزولها فيما ذكر الجمهور أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما جاءه الملك في غار حراء ، وحاوره بما حاوره ، رجع إلى خديجة ، فقال : زملوني زملوني ، فنزلت « يا أيها المدثر » وعلى هذا نزلت « يا أيها المزمل » قالت عائشة والنخعي وجماعة : ونودي بذلك لأنه كان في وقت نزول الآية ، متزملاً بكساء ، وقال قتادة : كان تزمل في ثيابه للصلاة ، واستعد فنودي على معنى ، يا أيها المستعد للعبادة ، وقال عكرمة : معناه للنبوة وأعبائها ، أي : المشمر المجد ، فعلى هذا يكون التزمل مجازاً ، وعلى ما سبق يكون حقيقة ، وما رووا أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ سئلت ما كان تزميله ، قالت : كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه عليّ وأنا نائمة ، ونصفه عليه إلى آخر الرواية كذب صراح ، لأن نزول « يا أيها المزمل » بمكة في أوائل مبعثه ، وتزويجه عائشة كان بالمدينة ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أن في آخر ما قبلها (عالم الغيب) الآيات ، فأتبعه بقوله (يا أيها المزمل) إعلامـاً بأنـه ـ ﷺ ـ ممن ارتضاه من الـرسل ، وخصه

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٦٠٠) الكشاف (٤/٥٠٧) .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٧) شرح المعلقات للزوزني (٣٥) القرطبي (١٩/ ٣٠) .

(٣) عجز بيت من الرمل لعدي بن زيد التميمي انظر الكتاب (١/ ٤٦٢) الخزانة (٣/ ٥٩٤) ، اللسان (عصر) .

(٤) البيت من الطويل انظر ديوانه (٧٣٢) اللسان (دحن) .

بخصائص ، وكفاه شر أعدائه . وقرأ الجمهور (المزّمّل) بشد الزاي ، وكسر الميم أصله المتزمل ، فأدغمت التاء في الزاي ، وقرأ أبيّ (المُتَزمِل) على الأصل وعكرمة بتخفيف الزاي ، أي : المزمل جسمه أو نفسه ، وقرأ بعض السلف بتخفيف الزاي وفتح الميم . أي : الذي لف وللزمخشري في كيفيه نداء الله له بهذا الوصف كلام ضربت عن ذكره صفحاً ، فلم أذكره في كتابي ، وقال السهيلي ليس المزمل باسم من أسمائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرف به ، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب ، والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب تترك المعاتبة ، نادوه مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي ﷺ لعليّ ـ كرم الله وجهه ـ وقد نام ولصق بجنبه التراب ، « قم أبا تراب » إشعاراً بأنه ملاطف له ، فقوله (يا أيها المزمل) فيه تأنيس وملاطفة ، وقرأ الجمهور (قم الليل) بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، وأبو السمال بضمها إتباعاً للحركة من القاف . وقرىء بفتحها طلباً للتخفيف ، قال ابن جني : الغرض بالحركة الهروب من التقاء الساكنين ، فبأي حركة تحرك الحرف حصل الغرض و(قم) طلب،فقال الجمهور : هو على جهة الندب ، وقيل : كان فرضاً على الرسول خاصة ، وقيل : عليه وعلى الجميع ، قال قتادة : ودام عاماً أو عامين ، وقالت عائشة : ثمانية أشهر ، ثم رحمهم الله ، فنزلت (إن ربك يعلم) الآيات ، فخفف عنهم (قم الليل إلا قليلاً) بين الاستثناء أن القيام المأمور به يستغرق جميع الليل ، ولذلك صح الاستثناء ، منه إذ لو كان غير مستغرق لم يصح الاستثناء منه ، واستغراق جميعه بالقيام على الدوام غير ممكن ، فلذلك استثنى منه لراحة الجسد ، وهذا عند البصريين منصوب على الظرف ، وإن استغرقه الفعل ، وهو عند الكوفيين مفعول به . وفي قوله (إلا قليلاً) دليل على أن المستثنى قد يكون مبهم المقدار ، كقوله ﴿ ما فعلوه إلا قليلاً منهم ﴾ [النساء ٦٦] في قراءة من نصب ﴿ ثم توليتم إلا قليلاً منكم ﴾ [البقرة ٨٣] ، قال وهب بن منبه : القليل ما دون المعشار والسدس ، وقال الكلبي ومقاتل : الثلث ، وقيل : ما دون النصف ، وجوزوا في (نصفه) أن يكون بدلاً من (الليل) ومن (قليلاً) فإذا كان بدلاً من (الليل) كان الاستثناء منه ، وكان المأمور بقيامه نصف الليل إلا قليلاً منه ، والضمير في (منه) و (عليه) عائد على النصف ، فيصير المعنى ، قم نصف النيل إلا قليلاً ، أو انقص من نصف الليل قليلاً ، أو زد على نصف الليل ، فيكون قوله (أو انقص) من نصف الليل (قليلاً) تكراراً لقول (إلا قليلاً) من نصف الليل ، وذلك تركيب غير فصيح ينزه القرآن عنه ، قال الزمخشري (نصفه) بدل من (الليل) و (إلا قليلاً) استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل ، والضمير في (منه) و (عليه) للنصف ، والمعنى التخيير بين أمرين ، بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين ، وهما النقصان من النصف والزيادة عليه انتهى . فلم يتنبه للتكرار الذي يلزمه في هذا القول ، لأنه على تقديره : قم أقل من نصف الليل ، كان قوله (أو انقص) من نصف الليل تكراراً ، وإذا كان (نصفه) بدلاً من قوله : (إلا قليلاً) فالضمير في (نصفه) إما أن يعود على المبدل منه ، أو على المستثنى منه ، وهو (الليل) لا جائز أن يعود على المبدل منه ، لأنه يصير استثناء مجهول من مجهول ، إذ التقدير : إلا قليلاً نصف القليل ، وهذا لا يصح له معنى البتة ، وإن عاد الضمير على (الليل) فلا فائدة في الاستثناء من الليل ، إذ كان يكون أخصر وأوضح وأبعد عن الإلباس أن يكون التركيب : قم الليل نصفه ، وقد أبطلنا قول من قال (إلا قليلاً) استثناء من البدل ، وهو (نصفه) وأن التقدير : قم الليل نصفه إلا قليلاً منه ، أي : من النصف ، وأيضاً ففي دعوى أن (نصفه) بدل من (إلا قليلاً) والضمير في (نصفه) عائد على الليل إطلاق القليل على النصف ، ويلزم أيضاً أن يصير التقدير : إلا نصفه فلا تقمه ، أو انقص من النصف الذي لا تقومه ، أو زد عليه النصف الذي لا تقومه ، وهذا معنى لا يصح ، وليس المراد من الآية قطعاً ، وقال الزمخشري : وإن شئت جعلت (نصفه) بدلاً من (قليلاً) وكان تخييراً بين ثلاث ، بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل ، وإن شئت قلت : لما كان معنى (قم الليل إلا قليلاً نصفه) إذا أبدلت النصف من الليل : قم أقل من

نصف الليل ، رجع الضمير في (منه) و (عليه) إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل ، وقم أنقص من ذلك الأقل ، أو أزيد منه قليلاً ، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث ، ويجوز إذا أبدلت (نصفه) من (قليلاً) وفسرته به أن تجعل (قليلاً) الثاني بمعنى نصف النصف ، وهو الربع ، كأنه قيل : أو انقص منه قليلاً نصفه ، وتجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع ، كأنه قيل : أو زد عليه قليلاً نصفه ، ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث ، فيكون تخييراً بين النصف والثلث والربع انتهى . وما أوسع خيال هذا الرجل ، فإنه يجوز ما يقرب وما يبعد ، والقرآن لا ينبغي ، بل لا يجوز أن يحمل إلا على أحسن الوجوه التي تأتي في كلام العرب ، كما ذكرناه في خطبة هذا الكتاب ، وممن نص على جواز أن يكون (نصفه) بدلاً من (الليل) أو من (قليلاً) الزمخشري ، كما ذكرنا عنه ، وابن عطية أورده مورد الاحتمال ، وأبو البقاء ، وقال : أشبه بظاهر الآية أن يكون بدلاً من (قليلاً أو زد عليه) والهاء فيهما للنصف ، فلو كان الاستثناء من النصف لصار التقدير : قم نصف الليل إلا قليلاً ، أو انقص منه قليلاً ، والقليل المستثنى غير مقدر ، فالنقصان منه لا يتحصل انتهى ، وأما الحوفي فأجاز أن يكون بدلاً من (الليل) ولم يذكر غيره ، وقال ابن عطية : وقد يحتمل عندي بقوله (إلا قليلاً) أنه استثناء من القيام ، فيجعل (الليل) اسم جنس ، ثم قال (إلا قليلاً) أي : الليالي التي تخل بقيامها عند العذر البين ونحوه ، وهذا النظر يحسن مع القول بالندب انتهى . وهذا خلاف الظاهر ، وقيل : المعنى : أو نصفه ، كما تقول : أعطه درهماً درهمين ثلاثة ، تريد ، أو درهمين ، أو ثلاثة انتهى ، وفيه حذف حرف العطف من غير دليل عليه ، وقال التبريزي : الأمر بالقيام والتخيير في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين من آخر الليل ، لأن الثلث الأول وقت العتمة ، والاستثناء وارد على المأمور به ، فكأنه قال : قم ثلثي الليل إلا قليلاً ، ثم جعل (نصفه) بدلاً من (قليلاً) فصار القليل مفسراً بالنصف من الثلثين ، وهو قليل من الكل ، فقوله (أو انقص منه) أي : من المأمور به وهو قيام الثلث (قليلاً) أي : ما دون نصفه (أو زد عليه) أي : على الثلثين ، فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعاً على الثلثين ، وقال أبو عبد الله الرازي : قد أكثر الناس في تفسير هذه الآية ، وعندي فيه وجهان ملخصان ، وذكر كلاماً طويلاً ملفقاً يوقف عليه من كتابه ، وتقدّم تفسير الترتيل في آخر الإسراء (قولاً ثقيلاً) هو القرآن ، وثقله بما اشتمل عليه من التكاليف الشاقة ، كالجهاد ومداومة الأعمال الصالحة ، قال الحسن : إن الهذّ خفيف ، ولكن العمل ثقيل . وقال أبو العالية والقرطبي : ثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ، وقيل : ثقله ما كان يحل بجسمه ـ ﷺ ـ حالة تلقيه الوحي ، حتى كانت ناقته تبرك به ذلك الوقت ، وحتى كادت رأسه الكريمة أن ترض فخذ زيد بن ثابت ، وقيل : كلام له وزن ، ورجحان فليس بالسفساني ، قال ابن عباس : كلاماً عظيماً ، وقيل : ثقيل في الميزان يوم القيامة ، وهو إشارة إلى العمل به ، وقيل : كناية عن بقائه على وجه الدهر ، لأن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه (إنّ ناشئة الليل) قال ابن عمر وأنس بن مالك وعليّ بن الحسين ، هي ما بين المغرب والعشاء ، وقالت عائشة ومجاهد : هي القيام بعد النوم ، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يَقُمْ ناشئة الليل . وقال ابن جبير وابن زيد ؛ هي لفظة حبشية ، نشأ الرجل : قام من الليل فـ (ناشئة) على هذا جمع ناشيء ، أي : قائم ، وقال ابن جبير وابن زيد أيضاً وجماعة (ناشئة الليل) ساعاته ، لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء ، وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن وأبو مجلز : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة ، وما كان قبلها فليس بناشئة ، قال ابن عباس : كانت صلاتهم أول الليل . وقال هو وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، وقال الكسائي : ناشئة الليل أوله ، وقال الزمخشري : ناشئة الليل : النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أي : تنهض وترتفع ، من نشأت السحابة إذا ارتفعت ، ونشأ من مكانه ونشر إذا نهض ، قال الشاعر :

نَشَأْنَا إِلَى خُوصٍ بَرَى نَيَّهَا السُّرَى وَأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاحِدِ[1]

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١٣١) .

أو قيام الليل على أن الناشئة مصدر ، من نشأ إذا قام ونهض ، على فاعلة كالعاقبة انتهى . وقرأ الجمهور (وِطَاء) بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً ، وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكة بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة ، وقرأ ابن محيصن بفتح الواو ممدوداً ، والمعنى : أنها أشد مواطأة ، أي : يواطىء القلب فيها اللسان ، أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ، ومن قرأ (وطْأ) أي : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل ، أو أقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار ، كما جاء « اللهم اشدد وطأتك على مضر »[1] ، وقال الأخفش : أشد قياماً ، وقال الفراء : أثبت قراءة وقياماً ، وقال الكلبي : أشد نشاطاً للمصلي ، لأنه في زمان راحته ، وقيل : أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ ، فالعبادة تدوم (وأقوم قيلاً) أي : أشد استقامة على الصواب ، لأن الأصوات هادئة ، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أصوب للقراء ، وأثبت للقول ، لأنه زمان التفهم ، وقال عكرمة : أتم نشاطاً وإخلاصاً وبركة ، وحكى ابن شجرة : أعجل إجابة للدعاء ، وقال زيد بن أسلم : أجدر أن يتفقه فيها القارىء . وقرأ الجمهور (سَبْحاً) أي : تصرّفاً وتقلباً في المهمات ، كما يتردّد السابح في الماء ، قال الشاعر :

أَبَـا حُوَا لَكُمْ شَـرْقَ الْبِـلَادِ وَغَـرْبَهَـا ... فَفِيهَـا لَكُمْ يَـا صَـاحِ سَبْحٌ مِنَ السَّبْـحِ

وقيل (سَبْحاً) سبحة أي : نافلة ، وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة (سبخاً) بالخاء المنقوطة ، ومعناه : خفة من التكاليف ، والتسبيخ التخفيف ، وهو استعارة من سبخ الصوف إذا نفشه ونشر أجزاءه ، فمعناه : انتشار الهمة وتفرّق الخاطر بالشواغل ، وقيل : فراغاً وسعة لنومك وتصرّفك في حوائجك . وقيل : المعنى : إن فات حزب الليل بنوم أو عذر ، فليخلف بالنهار ، فإن فيه سبحاً طويلاً ، قال صاحب اللوامح ، وفسر ابن يعمر وعكرمة (سبخـاً) بالخـاء معجمة ، وقال : نوماً أي : تنام بالنهار لتستعين به على قيام الليل ، وقد تحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى ، لكنهما فسراها فلا يجاوز عنه انتهى ، وفي الحديث (لا تسبخي بدعائك) أي : لا تخففي ، وقال الشاعر :

فَسَبِّـخْ عَلَيْكَ الْهَمَّ وَاعْلَمْ بِـأَنَّـهُ ... إِذَا قَـدَّرَ الـرَّحْمَنُ شَيْئـاً فَكَـائِنُ[2]

وقال الأصمعي : يقال : سبخ الله عنك الحمى ، أي : خففها ، وقيل : السبخ : المد يقال : سبخي قطنك أي : مديه ويقال لقطع القطن : سبائخ ، الواحدة سبيخة ، ومنه قول الأخطل :

فَـأَرْسَلُوهُنَّ يُـذْرِيـنَ التُّـرَابَ كَـمَـا ... يُذْرِي سَبَائِـخَ قُطْنٍ نَـدْفُ أَوْتَـارِ[3]

(واذكر اسم ربك) أي : دم على ذكره ، وهو يتناول كل ذكر ، من تسبيح وتهليل وغيرهما ، وانتصب (تبتيلاً) على أنه مصدر على غير الصدر ، وحسن ذلك كونه فاصلة ، وقرأ الأخوان وابن عامر وأبو بكر ويعقوب رب بالخفض على البدل من (ربك) وباقي السبعة بالرفع ، وزيـد بن عليّ بـالنصب ، والجمهور (المشرق والمغرب) موحـدين ، وعبد الله وأصحابه وابن عباس بجمعهما ، وقال الزمخشري : وعن ابن عبـاس على القسم يعني خفض (ربِّ) بـإضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه (لا إله إلا هو) كما تقول ، والله لا أحد في الدار إلا زيد انتهى ، ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس ، إذ فيه إضمار الجار في القسم ، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الله ، ولا يقاس

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٤٥٩٠) ومسلم (٦٧٥/٢٩٤) وقد تقدم .

(٢) البيت من الطويل لم نهتد لقائله انظر اللسان (سبخ) روح المعاني (١٣٢/٢٩) ، القرطبي (٢٩/١٩) .

(٣) البيت من البسيط انظر ديوانه ٧٨ اللسان (سبخ) روح المعاني (١٣٢/٢٩) ، القرطبي (٢٩/١٩) .

عليه ، ولأن الجملة المنفية في جواب القسم إذا كانت اسمية فلا تنفى إلا بما وحدها ، ولا تنفى بلا إلا الجملة المصدرة بمضارع كثيراً ، وبماض في معناه قليلاً ، نحو قول الشاعر :

رِدُوا فَوَاللهِ لا زُرْنَاكُمُ أَبَداً مَا دَامَ فِي مَائِنَا وِرْدٌ لِوُرَّادِ[1]

والزمخشري : أورد ذلك على سبيل التجويز والتسليم ، والذي ذكره النحويون هو نفيها بما نحو قوله :

لَعَمْرُكَ مَا سَعْدٌ بُخُلَّةِ آثِمٍ وَلاَ نَأْنأ يَوْمَ الْحِفَاظِ وَلاَ حَصر[2]

(فاتخذه وكيلاً) لأن من انفرد بالألوهية لم يتخذ وكيلاً إلا هو ، (واصبر) (واهجرهم) قيل : منسوخ بآية السيف (وذرني والمكذبين) قيل : نزلت في صناديد قريش ، وقيل : المطعمين يوم بدر ، وتقدّمت أسماؤهم في سورة الأنفال ، وتقدّم شرح مثل هذا في ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ [القلم ٤٤] (أولي النعمة) أي : غضارة العيش وكثرة المال والولد ، و (النَّعمة) بالفتح التنعم ، وبالكسر الإنعام ، وما ينعم به ، وبالضم المسرّة يقال : نعم ونعمة عين ، (ومهلهم قليلاً) وعيد لهم بسرعة الانتقام منهم ، والقليل موافاة آجالهم ، وقيل : وقعة بدر ، (إن لدينا) أي : ما يضاد نعمتهم (أنكالاً) قيوداً في أرجلهم ، قال الشعبي : لم تجعل في أرجلهم ، خوفاً من هروبهم ، ولكن إذا أرادوا أن يرتفعوا استقلت بهم ، وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال والأول أعرف في اللغة ، ومنه قول الخنساء :

دَعَاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَهُ وَقَدْ كُنَّ قَبْلَكَ لاَ تُقْطَعُ[3]

(وجحيماً) ناراً شديدة الإيقاد (وطعاماً ذا غصة) قال ابن عباس : شوك من نار يعترش في حلوقهم ، لا يخرج ولا ينزل . وقال مجاهد وغيره : شجرة الزقوم ، وقيل : الضريع وشجرة الزقوم (يوم) منصوب بالعامل في (لدينا) وقيل : بـ (ذرني) . (ترجف) تضطرب ، وقرأ الجمهور (تَرْجُف) بفتح التاء مبنياً للفاعل ، وزيد بن علي بضمها مبنياً للمفعول (كثيباً) أي : رملاً مجتمعاً (مهيلاً) أي : رخواً ليناً . قيل : ويقال : مهيل ومهيول ، ومكيل ومكيول ، ومدين ومديون الإتمام في ذوات الياء لغة تميم ، والحذف لأكثر العرب ، ولما هدد المكذبين بأهوال القيامة ذكرهم بحال فرعون ، وكيف أخذه الله تعالى ، إذ كذب موسى ـ عليه السلام ـ وأنه إن دام تكذيبهم أهلكهم الله تعالى ، فقال (إنا أرسلنا إليكم) والخطاب عام للأسود والأحمر ، وقيل : لأهل مكة (رسولاً شاهداً عليكم) كما قال ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ [النحل : ٨٩] وشبه إرساله إلى أهل مكة بإرسال موسى إلى فرعون على التعيين ، لأن كلاً منهما ربا في قومه واستحقروا بهما ، وكان عندهم علم بما جرى من غرق فرعون ، فناسب أن يشبه الإرسال بالإرسال ، وقيل : (الرسول) بلام التعريف ، لأنه تقدم ذكره ، فأحيل عليه ، كما تقول : لقيت رجلاً فضربت الرجل لأن المضروب هو الملقي ، والوبيل : الرديء العقبى ، من قولهم : كلأ وبيل ، أي : وخيم لا يستمرأ لثقله . أي : لا ينزل في المريء ، قوله عز وجل : **﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً ، إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من**

---

(١) البيت من البسيط لم نهتد لقائله انظر الهمع (٢ / ٤١) .

(٢) البيت من الطويل لامرىء القيس انظر ديوانه (١١٢) اللسان (نأنأ) .

(٣) البيت من المتقارب انظر الديوان (٦٦) القرطبي (١٩ / ٣١) .

فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (يوماً) منصوب بـ (تتقون) منصوب نصب المفعول به على المجاز ، أي : كيف تستقبلون هذا اليوم العظيم الذي من شأنه كذا وكذا ، والضمير في (يجعل) لليوم أسند إليه الجعل لما كان واقعاً له على سبيل المجاز . وقال الزمخشري (يوماً) مفعول به أي : فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً انتهى . و (تتقون) مضارع اتقى واتقى ليس بمعنى وقى حتى يفسره به ، واتقى يتعدى إلى واحد ، ووقى يتعدى إلى اثنين ، وقال تعالى (ووقاهم عذاب الجحيم) ولذلك قدره الزمخشري : تقون أنفسكم يوم القيامة ، لكنه ليس (تتقون) بمعنى تقون فلا يتعدى تعديته ، ودس في قوله : ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً الاعتزال . قال ويجوز أن يكون ظرفاً أي : فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ، قال : ويجوز أن ينتصب بـ (كفرتم) على تأويل جحدتم أي : فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحد ثم يوم القيامة والجزاء ، لأن تقوى الله خوف عقابه انتهى . وقرأ الجمهور (يوماً) منوناً (يجعل) بالياء ، والجملة من قوله : (يجعل) صفة ليوم ، فإن كان الضمير في (يجعل) عائداً على اليوم فواضح وهو الظاهر ، وإن عاد على الله كما قال بعضهم فلا بد من حذف ضمير يعود إلى اليوم ، أي : يجعل فيه كقوله ﴿يوماً لا تجزي نفس﴾ [البقرة : ١٢٣] ، وقرأ زيد بن علي بغير تنوين (نجعل) بالنون فالظرف مضاف إلى الجملة ، والشيب مفعول ثان لـ (يجعل) أي : يصير الصبيان شيوخاً ، وهو كناية عن شدة ذلك اليوم ، ويقال في اليوم الشديد ، يوم يشيب نواصي الأطفال ، والأصل فيه أن الهموم إذا تفاقمت أسرعت بالشيب ، قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ(1)

وقال قوم : ذلك حقيقة ، تشيب رؤوسهم من شدة الهول ، كما قد يرى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر ونحوه ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة ، وقال السدي (الولدان) أولاد الزنا ، وقيل : أولاد المشركين ، والظاهر العموم . أي : يشيب الصغير من غير كبر ، وذلك حين يقال لآدم يا آدم قم فابعث بعث النار ، وقيل : هذا وقت الفزع قبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ، (السماء منفطر به) قال الفراء يعني المظلة تذكر وتؤنث ، فجاء (منفطر) على التذكير ، ومنه قول الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْماً ... لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ وَبِالسَّحَابِ(2)

وعلى القول بالتأنيث فقال أبو علي الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر و﴿أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر : ٢٠] انتهى . يعني أنها من باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاء التأنيث ، وأن مفرده سماء واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث ، فجاء (منفطر) على التذكير . وقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والكسائي ، وتبعهم القاضي منذر بن سعيد : مجازها السقف ، فجاء عليه (منفطر) ولم يقل منفطرة ، وقال أبو علي أيضاً : التقدير : ذات انفطار ، كقولهم : امرأة مرضع أي : ذات رضاع ، فجرى على طريق التسبب ، وقال الزمخشري ، أو السماء شيء منفطر ، فجعل (منفطر) صفة لخبر محذوف مقدر بمذكر وهو شيء ، والانفطار : التصدع والانشقاق ، والضمير في (به) الظاهر أنه يعود على اليوم ، والباء للسبب أي : بسبب شدة ذلك اليوم ، أو ظرفية أي : فيه . وقال مجاهد : يعود على الله ، أي : بأمره

---

(١) انظر البيت في الكشاف (٤/٦٤١) .

(٢) تقدم .

وسلطانه ، والظاهر أن الضمير في (وعده) عائد على اليوم فهو من إضافة المصدر إلى المفعول أي : إنه تعالى وعد عباده هذا اليوم وهو يوم القيامة ، فلا بد من إنجازه ، ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى ، فيكون من إضافة المصدر إلى الفاعل ، وإن لم يجر له ذكر قريب ، لأنه معلوم أن الذي هذه مواعيده هو الله تعالى (إن هذه) أي : السورة ، أو الأنكال وما عطف عليه والأخذ الوبيل ، أو آيات القرآن المتضمنة شدة القيامة (تذكرة) أي : موعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) بالتقرب إليه بالطاعة ، ومفعول (شاء) محذوف يدل عليه الشرط ، لأن (مَنْ) شرطية أي : فمن شاء أن يتخذ سبيلاً اتخذه إلى ربه ، وليست المشيئة هنا على معنى الإباحة ، بل تتضمن معنى الوعد والوعيد ، (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) تصلي كقوله ﴿قم الليل﴾ [المزمل : ٢] لما كان أكثر أحوال الصلاة القيام عبر به عنها ، وهذه الآية نزلت تخفيفاً لما كان استمرار استعماله من أمر قيام الليل ، إما على الوجوب ، وإما على الندب على الخلاف الذي سبق (أدنى من ثلثي الليل) أي : زماناً هو أقل من ثلثي الليل ، واستعير الأدنى وهو الأقرب للأول ، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك ، وقرأ الجمهور (من ثلثي) بضم اللام ، والحسن وشيبة وأبو حيوة وابن السميفع وهشام وابن مجاهد عن قنبل فيما ذكر صاحب الكامل بإسكانها ، وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر صاحب اللوامح ، وقرأ العربيان ونافع (ونصفِه وثلثِه) بجرهما عطفاً على (ثُلُثَي اللَّيْلِ) ، وباقي السبعة وزيد بن علي بالنصب عطفاً على (أَدْنَى) لأنه منصوب على الظروف أي : وقتاً أدنى من ثلثي الليل ، فقراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أول السورة ، لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه أدنى من ثلثي الليل ، لأن الزمان الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثين ، فيصدق عليه قوله (إلا قليلاً) وأما قوله (ونصفه) فهو مطابق لقوله أولاً (نصفه) وأما (ثلثه) فإن قوله (أو انقص منه قليلاً) قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل ، وأما قوله (أو زد عليه) فإنه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين ، فيكون قد طابق قوله (أدنى من ثلثي الليل) ويكون قوله تعالى (نصفه أو انقص منه قليلاً) شرحاً لمبهم ما دل عليه قوله (قم الليل إلا قليلاً) وعلى قراءة النصب ، قال الحسن وابن جبير معنى (تحصوه) تطيقوه أي : قدر تعالى أنهم يقدرون الزمان على ما مر في أول السورة فلم يطيقوا قيامه لكثرته وشدته ، فخفف تعالى عنهم فضلاً منهم ، لا لعلة جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات ، وأما قراءة الجر فالمعنى ، أنه قيام مختلف ، مرة أدنى من الثلثين ، ومرة أدنى من النصف ، ومرة أدنى من الثلث ، وذلك لتعذر معرفة البشر مقادير الزمان مع عذر النوم ، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى والبشر لا يحصون ذلك ، أي : لا يطيقون مقادير ذلك فتاب عليهم أي : رجع بهم من الثقل إلى الخفة وأمرهم بقيام ما تيسر ، وعلى القراءتين يكون علمه تعالى بذلك على حسب الوقوع منهم ، لأنهم قاموا تلك المقادير في أوقات مختلفة ، قاموا أدنى من الثلثين ونصفاً وثلثاً ، وقاموا أدنى من النصف وأدنى من الثلث ، فلا تنافي بين القراءتين ، وقرأ الجمهور (وثُلُثه) بضم اللام ، وابن كثير في رواية شبل بإسكانها ، وطائفة معطوف على الضمير المستكن في (تقوم) وحسنه الفصل بينهما ، وقوله (وطائفة من الذين معك) دليل على أنه لم يكن فرضاً على الجميع ، إذ لو كان فرضاً لكان التركيب : والذين معك إلا إن اعتقد أنهم كان منهم من يقوم في بيته ومنهم من يقوم معه ، فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع ، (والله يقدر الليل والنهار) أي : هو وحده تعالى العالم بمقادير الساعات ، قال الزمخشري : وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير انتهى ، وهذا مذهبه ، وإنما استفيد الاختصاص من سياق الكلام لا من تقديم المبتدأ ، ولو قلت : زيد يحفظ القرآن ، أو يتفقه في كتاب سيبويه لم يدل تقديم المبتدأ على الاختصاص ، و (أن) مخففة من الثقيلة والضمير في (تحصوه) الظاهر أنه عائد على المصدر المفهوم من (يقدر) أي : أن لن تحصوا تقدير ساعات الليل والنهار ، لا تحيطوا بها على الحقيقة . وقيل : الضمير يعود على القيام المفهوم من قوله (فتاب عليكم) قيل : فيه دليل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به ، وقيل : رجع بكم من ثقل إلى خف ، ومن عسر إلى يسر ، ورخص

لكم في ترك القيام المقدر (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) عبر بالقراءة عن الصلاة ، لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود : أي فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل . قيل : وهذا ناسخ للأول ، ثم نسخا جميعاً بالصلوات الخمس ، وهذا الأمر بقوله (فاقرؤوا) ، قال الجمهور : أمر إباحة ، وقال ابن جبير وجماعة : هو فرض لا بد منه ولو خمسين آية ، وقال الحسن وابن سيرين : قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة ، وقيل : هو أمر بقراءة القرآن بعينها ، لا كناية عن الصلاة، وإذا كان المراد: فاقرؤوا في الصلاة ما تيسر ، فالظاهر أنه لا يتعين ما يقرأ ، بل إذا قرأ ما تيسر له وسهل عليه أجزأه ، وقدره وأبو حنيفة بآية حكاه عنه الماوردي ، وبثلاث حكاه ابن العربي ، وعين مالك والشافعي (ما تيسر) قالا : هو فاتحة الكتاب لا يعدل عنها ، ولا يقتصر على بعضها ، (علم أن سيكون منكم مرضى) بيان لحكمة النسخ ، وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة ، والمجاهدين في سبيل الله (فاقرؤوا ما تيسر منه) كرر ذلك على سبيل التوكيد ، ثم أمر بعمودي الإسلام البدني والمالي ، ثم قال (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) العطف يشعر بالتغاير ، فقوله (وآتوا الزكاة) أمر بأداء الواجب (وأقرضوا الله) أمر بأداء الصدقات التي يتطوع بها ، وقرأ الجمهور (هو خيراً وأعظم أجراً) بنصبهما ، واحتمل (هو) أن يكون فصلاً ، وأن يكون تأكيداً لضمير النصب في (تجدوه) ولم يذكر الزمخشري والحوفي وابن عطية في إعراب (هو) إلا الفصل ، وقال أبو البقاء : هو فصل ، أو بدل ، أو تأكيد فقوله : أو بدل وهم لو كان بدلاً لطابق في النصب ، فكان يكون إياه ، وقرأ أبو السمال وابن السميفع (هو خيرٌ وأعظمُ) برفعهما على الابتداء أو الخبر ، قال أبو زيد : هو لغة بني تميم يرفعون ما بعد الفاصلة ، يقولون : كان زيد هو العاقل بالرفع ، وهذا البيت لقيس بن ذريح وهو :

تَحِنُّ إِلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَـرَكْـتَهَـا وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالمـلا أَنْتَ أَقْدَرُ[1]

قال أبو عمرو الجرمي : أنشد سيبويه هذا البيت شاهداً للرفع ، والقوافي مرفوعة ، ويروى : أقدر ، وقال الزمخشري : وهو فصل ، وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأن أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة انتهى ، وليس ما ذكر متفقاً عليه ، ومنهم من أجاز ، وليس أفعل من أحكام الفصل ومسائله ، والخلاف الوارد فيها كثير جداً ، وقد جمعنا فيه كتاباً سميناه « بالقول الفصل في أحكام الفصل » وأودعنا معظمه شرح التسهيل من تأليفنا .

---

(١) تقدم .

سورة المدثر مكية وهي ست وخمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾
وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ذَرۡنِي وَمَنۡ
خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ
﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ
﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ
﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ
أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ
ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ
﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا
كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ
لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ
﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ
مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ
وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

تدثر : لبس الدثار ، وهو الثوب الذي فوق الشعار ، والشعار الثوب الذي يلي الجسد ، ومنه قوله ـ ﷺ ـ « الأنصار شعار والناس دثار » ، النقر : الصوت ، قال الشاعر :

أُخَفِّضُهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ ... وَيَرْفَعُ طَرْفاً غَيْرَ خَافٍ غَضِيضُ[١]

وقال الراجز :

أَنَا ابْنُ مَاوِيَّةَ إِذْ جَدَّ النَّقر[٢]

يريد : النقر ، فنقل الحركة فالناقور ، فاعول منه ، كالجاسوس مأخوذ من التجسس ، عبس يعبس عبساً وعبوساً قطب ، والعبس : ما تعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها . قال أبو النجم :

كَأَنَّ فِي أَذْنَابِهِنَّ الشُّوَّلِ ... مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرُونَ الإِبِلِ[٣]

بسر : قبض ما بين عينيه ، واربد وجهه ، قال :

صَحِبْنَا تَمِيماً غَدَاةَ الْجِفَارِ ... بِشَهْبَا مُلَوَّمَةٍ بَاسِرَهْ[٤]

وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر إذا وقف ، وقد أبسرنا ، وتقول العرب : وجه باسر بين البسور إذا تغير واسود لاحه البسر غير خلقته ، قال :

تَقُولُ مَا لاَحَكَ يَا مُسَافِرُ ... يَا ابْنَةَ عَمِّي لاَحَنِي الْهَوَاجِرُ[٥]

وقال آخر :

وَتَعْجَبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنِي شَاحِباً ... تَقُولُ لِشَيْءٍ لَوَّحَتْهُ السَّمَائِمُ[٦]

وقال الأخفش : اللوح شدة العطش ، لاحه العطش ولوحه غيره :

وقال الشاعر :

سَقَتْنِي عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْمَاءِ شَرْبَةً ... سَقَاهَا بِهِ الله الرِّهَامَ الْغَوَادِيَا[٧]

ويقال : التاح ، أي : عطش ، القسورة ، الرماة والصيادون قاله ابن كيسان ، أو الأسد قاله جماعة من اللغويين ، قال :

---

(١) البيت من الطويل لامرىء القيس انظر ديوانه (٧٥) .

(٢) صدر بيت من الرجز نسب لعبد الله بن معاوية الطائي انظر الإنصاف (٧٣٢) ـ التصريح (٢/٣٤١) المغني (٢/٨٤٣) الهمع (٢/١٠٧) اللسان (ثغر) .

(٣) انظر البيت في اللسان (عبس) .

(٤) البيت من المتقارب نسب لأبي تراب الظاهري ، ونسبه القرطبي في تفسير لبشر بن أبي حازم انظر القرطبي (١٩/٧٥) فتح القدير (٥/٣٢٧) .

(٥) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر الكشاف (٤/٦٥٠) ، روح المعاني (٢٩/١٥٧) ،

(٦) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون .

(٧) البيت من الطويل لم نهتد لقائله انظر فتح القدير (٥/٢٢٨) .

مُـضْـمَـرٌ تَـحْـدِرُهُ الأَبْـطَالُ كَـأَنَّـهُ الْقَسْـوَرَةُ الـرِّبَـالُ(١)

أو الرجال الشداد ، قال لبيد :

إذا مَـا هَـتَـفْـنَـا هَـتْـفَـةً في نَـدِيِّـنَـا أَتَـانَـا الـرِّجَـالُ الصَّـائِـدونَ الْقَسَـاوِرِ(٢)

أو ظلمة أول الليل لا ظلمة آخره قاله ابن الأعرابي وثعلب .

﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ، فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدّر ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : بإجماع ، وفي التحرير قال مقاتل : إلا آية وهي (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة) ومناسبتها لما قبلها : أن في ما قبلها : ﴿ ذرني والمكذبين ﴾ [المزمل ١١] وفيه ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ [المزمل ١٩] فناسب (يا أيها المدثر قم فأنذر) وناسب ذكر يوم القيامة بعد وذكر بعض المكذبين في قوله (ذرني ومن خلقت وحيداً) قال الجمهور : لما فزع من رؤية جبريل على كرسي بين السماء والأرض ورعب منه رجع إلى خديجة ، فقال : « زملوني دثروني » نزلت (يا أيها المدثر) قال النخعي وقتادة وعائشة : نودي وهو في حال تدثره ، فدعي بحال من أحواله ، وروي : أنه كان تدثر في قطيفة ، قيل : وكان يسمع من قريش ما كرهه ، فاغتم وتغطى بثوبه مفكراً ، فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه ، وقال عكرمة معناه : يا أيها المدثر للنبوة وأثقالها ، كما قال في المزمل ، وقرأ الجمهور (المُدَّثر) بشد الدال ، وأصله : المتدثر فأدغم ، وكذا هو في حرف أبي على الأصل ، وقرأ بتخفيف الدال كما قرىء بتخفيف الزاي في المزمل أي : دثر نفسه ، وعن عكرمة أيضاً فتح التاء اسم مفعول ، وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك (قم فأنذر) أي : قم من مضجعك أو (قم) بمعنى الأخذ في الشيء ، كما تقول : قام زيد يضرب عمراً أي : أخذ ، وكما قال :

عَلَامَ قَامَ يَشْتُمُني لَئِيمٌ(٣)

أي : أخذ ، والمعنى : قم قيام تصميم وجد (فأنذر) أي : حذر عذاب الله ووقائعه ، والإنذار عام بجميع الناس وبعثه إلى الخلق ، (وربك فكبر) أي : فعظم كبرياءه ، وقال الزمخشري : واختص (ربك) بالتكبر وهو الوصف بالكبرياء ، وأن يقال : الله أكبر انتهى ، وهذا على مذهبه من أن تقديم المفعول على الفعل يدل على الاختصاص . قال : ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره انتهى ، وهو قريب مما قدره النحاة في قولك ، زيداً فاضرب ، قالوا تقديره : تنبه فاضرب زيداً ، فالفاء هي جواب الأمر ، وهذا الأمر إما مضمن معنى الشرط ، وإما الشرط بعده محذوف ، على الخلاف الذي فيه عند النحاة ، (وثيابك فطهر) الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن

---

(١) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر اللسان (رهل) .

(٢) البيت من الطويل للبيد بن ربيعة انظر فتح القدير (٥/٣٣٣) .

(٣) تقدم .

طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي ، ومن هذه الآية ذهب الشافعي إلى وجوب غسل النجاسة من ثياب المصلي . وقيل : تطهيرها : تقصيرها ومخالفة العرب في تطويل الثياب وجرهم الذيول على سبيل الفخر والتكبر ، قال الشاعر :

ثُمَّ رَاحُـوا عَبَقُ الْـمِسْـكِ بِـهِـمْ ... يُلْحِفُـونَ الأَرْضَ هُـدَّابَ الأُزُرْ(١)

ولا يؤمن من إصابتها النجاسة وفي الحديث إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما كان أسفل من ذلك ففي النار » وذهب الجمهور إلى أن الثياب هنا مجاز ، فقال ابن عباس والضحاك : تطهيرها أن لا تكون تتلبس بالقذر ، وقال ابن عباس وابن جبير أيضاً : كني بالثياب عن القلب ، كما قال امرؤ القيس :

فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِي(٢)

أي : قلبي من قلبك . وعلى الطهارة من القذر ، وأنشد قول غيلان بن سلمة الثقفي :

إِنِّـي بِـحَـمْـدِ الله لاَ ثَـوْبَ غَـادِرٍ ... لَبِسْـتُ وَلاَ مِنْ خِـزْيَـةٍ أَتَـقَنَّـعُ(٣)

وقيل : كناية عن طهارة العمل ، المعنى : وعملك فأصلح قاله مجاهد وابن زيد ، وقال ابن زيد : إذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : فلان خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب ، ونحو هذا عن السدي ، ومنه قول الشاعر :

لاَ هُـمَّ إِنَّ عَـامِـرَ بْـنَ جَـهْـمِ ... أَوْ ذَمَّ حجـاً فِي ثِيَـابِ دَسْمِ(٤)

أي : دنسة بالمعاصي ، وقيل : كني عن النفس بالثياب قاله ابن عباس : قال الشاعر :

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَه

وقال آخر :

ثِـيَـابُ بَنِي عَـوْفٍ طَهَـارَى نَـقِيَّـةٌ ... وَأَوْجُـهُـهُـمْ بِـيضُ سَـافِـرُ غِـرَّانِ(٥)

أي : أنفسهم ، وقيل : كني بها عن الجسم ، قالت ليلى وقد ذكر إبلاً :

رَمَـوْهَـا بِـأَثْـوَابٍ خِفَـافٍ فَـلاَ نَـرَى ... لَهَـا شَبَـهَـا إِلاَّ النَّـعَـامَ الْـمُـنَفَّـرَا(٦)

أي : ركبوها فرموها بأنفسهم . وقيل : كناية عن الأهل قال تعالى ﴿ هن لباس لكم ﴾ [البقرة ١٨٧] والتطهر فيهن اختيار المؤمنات العفائف ، وقيل : وطئهن في القبل لا في الدبر ، في الطهر لا في الحيض ، حكاه ابن بحر ، وقيل :

---

(١) البيت لطرفة انظر ديوانه (٦٨) الأشموني (٢/١٩٠) العيني (٣/٣٠٨) روح المعاني (٢٩/١٤٨) .
(٢) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٢) روح المعاني (٢٩/١٤٧) .
(٣) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٢) .
(٤) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٢) .
(٥) تقدم .
(٦) انظر البيت في روح المعاني (١٩/١٤٧) القرطبي (١٩/٤٣) .

كناية عن الخلق أي : وخلقك فحسن قاله الحسن والقرطبي ، ومنه قوله :

وَيَحْيَى مَا يُلَائِمُ سُوءَ خَلْقٍ وَيَحْيَى طَاهِرُ الأَثْوَابِ حُرُّ[1]

أي : حسن الأخلاق ، وقرأ الجمهور (والرِّجز) بكسر الراء ، وهي لغة قريش ، والحسن ومجاهد والسلمي وأبو جعفر وأبو شيبة وابن محيصن وابن وثاب وقتادة والنخعي وابن أبي إسحاق والأعرج وحفص بضمها ، فقيل هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان ، وقيل : الكسر للبين والنقائص والفجور ، والضم لصنمين إساف ونائلة ، وقال عكرمة ومجاهد والزهري : للأصنام عموماً . وقال ابن عباس : الرجز السخط ، أي : اهجر ما يؤدي إليه ، وقال الحسن : كل معصية ، والمعنى في الأمر اثبت ودم على هجره ، انتهى . لأنه ـ ﷺ ـ كان بريئاً منه ، وقال النخعي : (الرجز) الإثم ، وقال القتبي : العذاب أي : اهجر ما يؤدي إليه ، وقرأ الجمهور (ولا تَمْنُنْ) بفك التضعيف ، والحسن وأبو السمال بشد النون ، قال ابن عباس وغيره : ولا تعط عطاء لتعطى أكثر منه ، كأنه من قولهم : من إذا أعطى . قال الضحاك : هذا خاص به ﷺ ، ومباح ذلك لأمته ، لكنه لا أجر لهم ، وعن ابن عباس أيضاً : لا تقل دعوت فلم أجب ، وعن قتادة : لا تدل بعملك ، وعن ابن زيد : لا (تمنن) بنبوتك (تستكثر) بأجر ، أو كسب تطلبه منهم ، وقال الحسن (تمنن) على الله بجدك (تستكثر) أعمالك ، ويقع لك بها إعجاب ، وهذه الأقوال كلها من المنّ تعداد اليد وذكرها . وقال مجاهد (ولا تمنن تستكثر) ما حملناك من أعباء الرسالة أو تستكثر من الخير من قولهم : حبل متين ، أي : ضعيف وقيل : ولا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه ، وقرأ الجمهور (تستكثر) برفع الراء والجملة حالية أي : مستكثراً ، قال الزمخشري : ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها ، كما روي :

أحضر الوغى

بالرفع انتهى . وهذا لا يجوز أن يحمل القرآن عليه . لأنه لا يجوز ذلك إلا في الشعر ، ولنا مندوحة عنه مع صحة الحال أي : مستكثر ، وقرأ الحسن وابن أبي عبلة بجزم الراء ووجهه أنه بدل من (تمنن) أي : لا تستكثر كقوله ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ [الفرقان ٦٩] في قراءة من جزم بدلاً من قوله (يلق) وكقوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[2]

ويكون من المن الذي في قوله تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ [البقرة ٢٦٤] لأن من شأن المان أن يستكثر ما يعطي أن يراه كثيراً ويعتد به ، وأجاز الزمخشري فيه وجهين ، أحدهما : أن تشبه ثرو بعضد ، فتسكن تخفيفاً ، والثاني : أن يعتبر حال الوقف ، يعني : فيجري الوصل مجرى الوقف ، وهذان لا يجوز أن يحمل القرآن عليهما مع وجود ما هو راجح عليهما وهو البدل ، وقرأ الحسن أيضاً والأعمش (تستكثرَ) بنصب الراء أي : لن تحقرها . وقرأ ابن مسعود (أن تستكثر) بإظهار أن (ولربك فاصبر) أي : لوجه ربك . أمره بالصبر ، فيتناول الصبر على تكاليف التوبة ، وعلى أداء طاعة الله ، وعلى أذى الكفار ، قال ابن زيد : على حرب الأحمر والأسود ، فكل مصبور عليه ومصبور عنه يندرج في الصبر ، وقال الزمخشري : والفاء في قوله (فإذا نقر) كأنه قيل : فاصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى عاقبة صبرك عليه ، وقال الزمخشري : والفاء في (فذلك) للجزاء فإن قلت : بم انتصب إذاً ؟

---

(١) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٣) ، روح المعاني (٢٩/١٤٦) .

(٢) تقدم .

وكيف صح أن يقع (يومئذ) ظرفاً لـ (يوم عسير) (قلت :) انتصب (إذا) بما دل عليه الجزاء ، لأن المعنى : فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين ، والذي أجاز وقوع (يومئذ) ظرفاً لـ (يوم عسير) أن المعنى ، فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير ، لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور ، ويجوز أن يكون (يومئذ) مبنياً مرفوع المحل بدلاً من (ذلك) و (يوم عسير) خبر كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير (فإن قلت :) فما فائدة قوله (غير يسير) و (عسير) مغن عنه . (قلت :) لما قال (على الكافرين) فقصر العسر عليهم ، قال (غير يسير) ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ، فيجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ، ويجوز أن يراد به عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً ، كما يرجى بيسير العسير من أمور الدنيا انتهى ، وقال الحوفي فـ (إذا) إذاً متعلقة بـ(أنذر) أي : فأنذرهم إذا نقر في الناقور ، قال أبو البقاء يجري على قول الأخفش أن تكون (إذا) مبتدأ والخبر (فذلك) والفاء زائدة ، فأما (يومئذ) فظرف لـ (ذلك) وأجاز أبو البقاء أن يتعلق (على الكافرين) بـ (يسير) أي : غير يسير أي : غير سهل على الكافرين ، وينبغي أن لا يجوز ، لأن فيه تقدم معمول العامل المضاف إليه (غير) على العامل ، وهو ممنوع على الصحيح ، وقد أجازه بعضهم فيقول : أنا بزيد غير راض ، (ذرني ومن خلقت وحيداً) لا خلاف أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، فروي أنه كان يلقب بالوحيد ، أي : لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته ، والظاهر انتصاب (وحيداً) على الحال من الضمير المحذوف العائد على (من) أي : خلقته منفرداً ذليلاً قليلاً لا مال له ولا ولد ، فآتاه الله تعالى المال والولد ، فكفر نعمته وأشرك به واستهزأ بدينه ، وقيل : حال من ضمير النصب في (ذرني) قاله مجاهد ، أي : ذرني وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه ، أو حال من التاء في (خلقت) أي : خلقته وحدي لم يشركني في خلقي أحد ، فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه ، وقيل : (وحيداً) لا يتبين أبوه وكان الوليد معروفاً بأنه دعي ، كما تقدم في قوله تعالى ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم ١٣] وإذا كان يدعى وحيداً فلا يجوز أن ينتصب على الذم ، لأنه لا يجوز أن يصدقه الله تعالى في أنه لا نظير له ، ورد ذلك بأنه لما لقب بذلك صار علماً ، والعلم لا يفيد في المسمى صفة ، وأيضاً فيمكن حمله على أنه وحيد في الكفر والخبث والدناءة ، (وجعلت له مالاً ممدوداً) ، قال ابن عباس : كان له بين مكة والطائف إبل وحجور ونعم وجنان وعبيد وجوار . وقيل : كان صاحب زرع وضرع وتجارة ، وقال النعمان بن بشير : المال الممدود : هو الأرض لأنها مدت ، وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هو الريع المستغل مشاهرة ، فهو مد في الزمان لا ينقطع . وقيل : هو مقدار معين ، واضطربوا في تعيينه ،فمما قيل: ألف دينار ، وقيل : ألف ألف دينار ، وكل هذا تحكم . (وبنين شهوداً) أي : حضوراً معه بمكة لا يظعنون عنه لغناهم ، فهو مستأنس بهم ، أو (شهوداً) أي : رجالاً يشهدون معه المجامع والمحافل ، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه ، واختلف في عددهم ، فذكر منهم خالد وهشام وعمارة وقد أسلموا ، والوليد والعاصي وقيس وعبد شمس ، قال مقاتل : فما زال الوليد بعد هذه الآية وبعد نزولها في نقص في ماله وولده حتى هلك ، (ومهدت له تمهيداً) أي :وطئت وهيئت وبسطت له بساطاً ، حتى أقام ببلدته مطمئناً يرجع إلى رأيه . وقال ابن عباس : وسعت له ما بين اليمن إلى الشام . وقال مجاهد : مهدت له المال بعضه فوق بعض ، كما يمهد الفراش (ثم يطمع أن أزيد) أي : على ما أعطيته من المال والولد (كلا) أي : ليس يكون كذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره : ثم يطمع أن أدخله الجنة : لأنه كان يقول : إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي (ثم يطمع) قال الزمخشري : استبعاد لطمعه واستنكار أي : لا مزيد على ما أوتي كثرة وسعة (كلا) قطع لرجائه وردع انتهى . وطمعه في الزيادة دليل على مبشعه وحبه للدنيا (إنه كان لآياتنا عنيداً) تعليل للردع على وجه الاستئناف ، كأن قائلاً قال : لم لا يزاد ، فقال : إنه كان يعاند آيات المنعم وكفر بذلك ، والكافر لا يستحق المزيد، وإنما جعلت الآيات بالنسبة إلى الإنعام لمناسبة قوله (وجعلت مالاً ممدوداً) إلى آخر ما آتاه الله ، والأحسن أن يحمل على آيات القرآن لحديثه في القرآن وزعمه أنه

سحر ، (سأرهقه) أي : سأكلفه وأعنته بمشقة وعسر (صعوداً) عقبة في جهنم ، كلما وضع عليها شيء من الإنسان ذاب ، ثم يعود ، والصعود في اللغة : العقبة الشاقة ، وتقدّم شرح (عنيد) في سورة إبراهيم عليه السلام (إنه فكر وقدّر) ، روي أن الوليد حاج أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن ، وقال : إن له لحلاوة وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى ، ونحو هذا من الكلام ، فخالفوه وقالوا : هو شعر ، فقال : والله ما هو بشعر ، قد عرفنا الشعر هزجه وبسيطه ، قالوا : فهو كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، قالوا : هو مجنون ، قال : والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وخنقه ، قالوا : هو سحر ، قال : أما هذا فيشبه أنه سحر ويقول أقوال نفسه ، وروي هذا بألفاظ غير هذه ، ويقرب من حيث المعنى ، وفيه : وتزعمون أنه كذب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ، فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ، ففكر ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلا سحر يؤثره عن مثل مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادي فرحاً ، وتفرّقوا متعجبين منه ، وروي : أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه ، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أن يقارب الإسلام ، ودخل إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ مراراً ، فجاءه أبو جهل فقال : يا وليد أشعرت أن قريشاً قد ذمّتك بدخولك إلى ابن أبي قحافة ، وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه ، وقد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد ، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولاً يرضيهم ، ففتنه أبو جهل ، فافتتن ، وقال : أفعل (إنه فكر) تعليل للوعيد في قوله (سأرهقه صعوداً) ، قيل : ويجوز أن يكون (إنه فكر) بدلاً من قوله (إنه كان لآياتنا عنيداً) بياناً ، لكنه عناد ، وفكر أي : في القرآن ومن أتى به (وقدر) أي : في نفسه ما يقول فيه ، (فقتل كيف قدر) قيل : (قتل) لعن ، وقيل : غلب وقهر ، وذلك من قوله :

لِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ (١)

أي : مذلل مقهور بالحب ، فلعن دعاء عليه بالطرد والإبعاد ، وغلب ، وذلك إخبار بقهره وذلته و (كيف قدر) معناه : كيف قدر ما لا يصح تقديره وما لا يسوغ أن يقدره عاقل ، وقيل : دعاء مقتضاه الاستحسان والتعجب ، فقيل : ذلك لمنزعه الأول في مدحه القرآن ، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه ، فيجري مجرى قول عبد الملك بن مروان : قاتل الله كثيراً ، كأنه رآنا حين قال كذا ، وقيل : ذلك لإصابته ما طلبت قريش منه ، وقيل : ذلك ثناء عليه على جهة الاستهزاء به ، وقيل : ذلك حكاية لما كرروه من قولهم (قتل كيف قدّر) تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ، وهذا فيه بعد وقولهم ﴿قاتلهم الله﴾ [المنافقون : ٤] مشهور في كلام العرب أنه يقال : عند استعظام الأمر والتعجب منه ، ومعناه : انه قد بلغ المبلغ الذي يحسد عليه ويدعى عليه من حساده ، والاستفهام في (كيف قدر) في معنى : ما أعجب تقديره وما أغربه ، كقولهم : أي : رجل زيد ، أي : ما أعظمه وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى ، للتراخي الذي بينهما ، كأنه دعي عليه أولاً ، ورجي أن يقلع عن ما كان يرومه فلم يفعل فدعي عليه ثانياً (ثم نظر) أي : فكر ثانياً . وقيل : نظر إلى وجوه الناس (ثم عبس وبسر) أي : قطب وكلح لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول : وقيل : قطب في وجه رسول الله ـ ﷺ ـ (ثم أدبر) رجع مدبراً ، وقيل : (أدبر) عن الحق (واستكبر) قيل : تشارس مستكبراً ، وقيل : استكبر عن الحق ، وصفه بالهيئات التي تشكل بها حين أراد أن يقول ما قال كل ذلك على سبيل الاستهزاء ، وأن ما يقوله كذب وافتراء إذ لو كان ممكناً لكان له هيئات غير هذه ، من فرح اللب ، وظهور السرور والجذل والبشر في وجهه ، ولو كان حقاً لم يحتج إلى هذا الفكر ، لأن الحق أبلج يتضح بنفسه من غير إكداد فكر ولا إبطاء تأمّل ، ألا

---

(١) البيت لامرىء القيس انظر ديوانه (٥٤).

ترى إلى ذلك الرجل ، وقوله حين رأى رسول الله ـ ﷺ ـ فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ؟ وأسلم من فوره . وقيل : (ثم نظر) فيما يحتج به للقرآن فرأى ما فيه من الإعجاز والإعلام بمرتبة الرسول ـ ﷺ ـ ودام نظره في ذلك (ثم عبس وبسر) دلالة على تأنيه وتمهله في تأمّله ، إذ بين ذلك تراخ وتباعد ، وكان العطف في (وبسر) وفي (واستكبر) لأن البسور قريب من العبوس ، فهو كأنه على سبيل التوكيد ، والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار ، إذ الاستكبار معنى في القلب ، والإدبار حقيقة من فعل الجسم ، فهما سبب ومسبب ، فلا يعطف بثم ، وقدّم المسبب على السبب ، لأنه الظاهر للعين ، وناسب العطف بالواو وكان العطف في (فقال) بالفاء ، دلالة على التعقيب ، لأنه لما خطر بباله هذا القول بعد تطلبه لم يتمالك أن نطق به من غير تمهل ، ومعنى (يؤثر) يروي وينقل . قال الشاعر :

لَقُلْتُ مِنَ الْقَـوْلِ مَـا لاَ يَـزَا   لُ يُـؤْثَـرُ عَنِّي بِـهِ الْـمَسْنِـدُ

وقيل : (يؤثر) أي : يختار ويرجح على غيره من السحر ، فيكون من الإيثار ، ومعنى (إلا سحرٌ) أي : شبيه بالسحر ، (إن هذا إلا قول البشر) تأكيد لما قبله أي : يلتقط من أقوال الناس ، ويظهر أن كفر الوليد إنما هو عناد ، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون ، وقصته مع رسول الله ـ ﷺ ـ حين قرأ عليه أوائل سورة فصلت إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [فصلت ١٣] وكيف ناشده الله بالرحم أن يسكت ؟ (سأصليه سقر) ، قال الزمخشري : بدل من (سأرهقه صعوداً) انتهى . ويظهر أنهما جملتان اعتقبت كل واحدة منهما ، فتوعد على سبيل التوعد العصيان الذي قبل كل واحدة منهما ، فتوعد على كونه عنيداً لآيات الله بإرهاق صعود ، وعلى قول بأن القرآن سحر يؤثر بإصلائه سقر ، وتقدّم الكلام على (سقر) في أواخر سورة القمر (وما أدراك ما سقر) تعظيماً لهولها وشدتها (لا تبقي ولا تذر) أي : (لا تبقي) على من ألقي فيها (ولا تذر) غاية من العذاب إلا أوصلته إليه ، (لوّاحة للبشر) قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين والجمهور معناه : مغيرة للبشرات ، محرقة للجلود ، مسوّدة لها ، والبشر جمع بشرة ، وتقول العرب : لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسوّدته . وقال الحسن وابن كيسان (لوّاحة) بناء مبالغة من لاح إذا ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمها وهـو لها وزجـرها . كقـوله تعـالى ﴿ لترون الجحيم ﴾ [التكـاثر ٦] وقـوله ﴿ وبـرزت الجحيم لمن يـرى ﴾ [النازعات ٣٦] وقرأ الجمهور (لوّاحةٌ) بالرفع أي : هي لوّاحة ، وقرأ العوفي وزيد بن علـيّ والحسن وابن أبي عبلة (لواحة) بالنصب على الحال المؤكدة ، لأن النار التي لا تبقي ولا تذر ، لا تكون إلا مغيرة للأبشار ، وقال الزمخشري : نصباً على الاختصاص للتهويل ، (عليها تسعة عشر) التمييز محذوف ، والمتبادر إلى الذهن أنه ملك ، ألا ترى العرَب وهم الفصحاء كيف فهموا منه أن المراد ملك حين سمعوا ذلك ؟ فقال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمّهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي ـ وكان شديد البطش ـ أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين ، فأنزل الله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي : ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون ، وأنزل الله تعالى في أبي جهل﴿ أولى لك فأولى ﴾ [القيـامة : ٣٥] وقيـل : التمييز المحـذوف صنفاً من المـلائكة ، وقيـل : نقيبـاً ، ومعنى (عليهـا) يتـولـون أمـرهـا وإليهم جماع زبانيتها ، فالذي يظهر من العدد ومن الآية بعد ذلك ومن الحديث أن هؤلاء هم النقباء ، ألا ترى إلى قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها ، وقد ذكر المفسرون من نعوت هؤلاء الملائكة وخلقهم وقوتهم ، وما أقدرهم الله تعالى عليه من الأفعال ما الله أعلم بصحته ، وكذلك ذكر أبو عبد الله ، الرازي حكماً على زعمه في كون هؤلاء الملائكة على هذا العدد المخصوص يوقف

عليها في تفسيره ، وقرأ الجمهور (تسعة عَشَرَ) مبنيين على الفتح على مشهور اللغة في هذا العدد ، وقرأ أبو جعفر وطلحة بن سليمان بإسكان العين كراهة توالي الحركات ، وقرأ أنس بن مالك وابن عباس وابن قطيب وإبراهيم بن قتة بضم التاء ، وهي حركة بناء ، عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات ولا يتوهم أنها حركة إعراب ، لأنها لوكانت حركة إعراب لأعرب (عشر) وقرأ أنس أيضاً (تسعةُ) بالضم أعشر بالفتح ، وقال صاحب اللوامح : فيجوز أنه جمع العشرة على أعشر ، ثم أجراه مجرى (تسعة عشر) وعنه أيضاً (تسعةُ وَعشر) بالضم وقلب الهمزة من أعشر واواً خالصة تخفيفاً ، والباء فيهما مضمومة ضمة بناء لأنها معاقبة للفتحة فراراً من الجمع بين خمس حركات على جهة واحدة ، وعن سليمان بن قتة ـ وهو أخو إبراهيم ـ بضم التاء ضمة إعراب وإضافته إلى أعشر ، وأعشر مجرور منون ، وذلك على فك التركيب ، قال صاحب اللوامح : ويجيء على هذه القراءة ـ وهي قراءة من قرأ (أعشرُ) مبنياً أو معرباً من حيث هو جمع ـ أن الملائكة الذين هم على النار تسعون ملكاً انتهى ، وفيه بعض تلخيص ، قال الزمخشري : وقرىء (تسعة أعشر) جمع عشير مثل يمين وأيمن انتهى ، وسليمان بن قتة هذا هو الذي مدح أهل بيت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو القائل :

مَــرَرْتُ عَلَى أَبْيَــاتِ آلِ مُـحَمَّــدِ ... فَـلَمْ أَرَ أَمْثَــالاً لَـهَــا يَــوْمَ حَـلَّتِ

وَكَــانُـوا ثِمَــالاً ثُمَّ عَــادُوا رَزِيَّــةً ... لَقَـدْ عَـظُمَتْ تِلْكَ الـرَّزَايَا وَجَلَّتِ

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي : جعلناهم خلقاً لا قبل لأحد من الناس بهم (وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي : سبب فتنة و (فتنة) مفعول ثان لـ (جعلنا) أي : جعلنا تلك العدّة ـ وهي تسعة عشر ـ سبباً لفتنة الكفار ، فليس (فتنة) مفعولاً من أجله ، وفتنتهم : هي كونهم أظهروا مقاومتهم في مغالبتهم ، وذلك على سبيل الاستهزاء ، فإنهم يكذبون بالبعث وبالنار وبخزنتها (ليستيقن) هذا مفعول من أجله ، وهو متعلق بـ (جعلنا) لا بـ (فتنة) فليس الفتنة معلولة للاستيقان ، بل المعلول جعل العدّة سبباً لفتنة (الذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود والنصارى أنّ هذا القرآن هو من عند الله ، إذ هم يجدون هذه العدّة في كتبهم المنزلة ، ويعلمون أن الرسول لم يقرأها ولا قرأها عليه أحد ، ولكن كتابه يصدّق كتب الأنبياء ، إذ كل ذلك حق يتعاضد من عند الله تعالى ، قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد ، وبورود الحقائق من عند الله تعالى يزداد كل ذي إيمان إيماناً ، ويزول الريب عن المصدّقين من أهل الكتاب وعن المؤمنين ، وقيل : إنما صار جعلها فتنة ، لأنهم يستهزئون ، ويقولون : لم لم يكونوا عشرين ، وما المقتضي لتخصيص هذا العدد بالوجود ، ويقولون هذا العدد القليل ، ويقوون بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام الساعة ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) قد جعل افتتان الكافرين بعدّة الزبانية سبباً لاستيقان أهل الكتاب ، وزيادة إيمان المؤمنين ، واستهزاء الكافرين والمنافقين ، فما وجه صحة ذلك ؟ (قلت :) ما جعل افتتانهم بالعدّة سبباً لذلك وإنما العدّة نفسها هي التي جعلت سبباً ، وذلك أن المراد بقوله (وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا) وما جعلنا عدّتهم إلا تسعة عشر ، فوضع (فتنة للذين كفروا) موضع (تسعة عشر) لأن حال هذه العدّة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ، ويعترض ويستهزىء ، ولا يذعن إذعان المؤمن وإن خفي عليه وجه الحكمة ، كأنه قيل : ولقد جعلنا عدّتهم عدّة من شأنها أن يفتتن بها ، لأجل استيقان المؤمنين ، وحيرة الكافرين انتهى . وهو سؤال عجيب وجواب فيه تحريف كتاب الله تعالى ، إذ زعم أن معنى (إلا فتنة للذين كفروا) إلا تسعة عشر ، وهذا لا يذهب إليه عاقل ، ولا من له أدنى ذكاء ، وكفى ردّاً عليه تحريف كتاب الله ، ووضع ألفاظ مخالفة لألفاظ ، ومعنى مخالف لمعنى ، وقيل : (ليستيقن) متعلق بفعل مضمر أي : فعلنا ذلك ليستيقن (ولا يرتاب) توكيد : لقوله (ليستيقن) إذ إثبات اليقين ونفي الارتياب أبلغ وآكد في الوصف ، لسكون النفس السكون التام ، (والذين في قلوبهم مرض) قال الحسين بن

الفضل : السورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما المرض في الآية الاضطراب وضعف الإيمان ، وقيل : هو إخبار بالغيب : أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة (ماذا أراد الله بهذا مثلاً) لما سمعوا هذا العدد لم يهتدوا وحاروا ، فاستفهم بعضهم بعضاً عن ذلك . استبعاداً أن يكون هذا من عند الله ، وسموه (مثلاً) استعارة من المثل المضروب ، استغراباً منهم لهذا العدد ، والمعنى : أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ، ومرادهم إنكار أصله ، وأنه ليس من عند الله وتقدّم إعراب مثل هذه الجملة في أوائل البقرة .

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ، كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر ، كلّ نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون ، عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلّين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدّين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين، فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة ، فرّت من قسورة ، بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ، كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا إنه تذكرة ، فما شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

الكاف في محل نصب ، و(ذلك) إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أي : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ، فيشكون ، فيزيدهم كفراً وضلالاً ، ويهدي المؤمنين ، فيزيدهم إيماناً ، (وما يعلم جنود ربك إلا هو) إعلام بأن الأمر فوق ما يتوهم ، وأن الجزاء إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها ، والسماء عامرة بأنواع من الملائكة ، وفي الحديث « أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً » (وما هي) أي : النار قاله مجاهد ، أو المخاطبة والنذارة ، أو نار الدنيا ، أو الآيات التي ذكرت ، أو العدّة التسعة عشر ، أو الجنود ، أقوال راجحها الأول ، وهي سقر . ذكر بها البشر ليخافوا ويطيعوا ، وقد جرى ذكر النار أيضاً في قوله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ [المدثر ٣١] (إلا ذكرى للبشر) أي : الذين أهلوا للتذكر والاعتبار كلا . قال الزمخشري : (كلا) إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى ، لأنهم يتذكرون انتهى . ولا يسوغ هذا في حق الله تعالى ، أن يخبر أنها ذكرى للبشر ، ثم ينكر أن تكون لهم ذكرى ، وإنما قوله (للبشر) عام مخصوص ، وقال الزمخشري : أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً وقيل : ردع لقول أبي جهل وأصحابه : أنهم يقدرون على مقاومة خزنة جهنم ، وقيل : ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة ، وقال الفراء : هي صلة للقسمَ ، وقدرها بعضهم بحقاً ، وبعضهم بألا الاستفتاحية ، وقد تقدم الكلام عليها في آخر سورة مريم ـ عليها السلام ـ (والقمر والليل إذا أدبر) أي : ولى ، ويقال : دبر وأدبر بمعنى واحد ، أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها ، وتنبيهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابن يعمر وأبو جعفر وشيبة وأبو الزاد وقتادة وعمر بن عبد العزيز والحسن وطلحة والنحويان والابنان وأبو بكر (إذا) زمان مستقبل (دَبَر) بفتح الدال ، وابن جبير والسلمي والحسن بخلاف عنهم ، وابن سيرين والأعرج وزيد بن علي وأبو شيخ وابن محيصن ونافع وحمزة وحفص (إذ) ظرف زمان ماض (أَدْبَر) رباعياً ، والحسن أيضاً ، وأبو رزين وأبو رجاء وابن يعمر أيضاً ، والسلمي أيضاً ، وطلحة أيضاً ، والأعمش ويونس بن عبيد ومطر (إذا) بالألف (أدبر) بالهمز ، وكذا هو في مصحف عبد الله وأبي . وهو مناسب لقوله (إذا أسفر) ويقال : كأمس الدابر ، وأمس المدبر بمعنى واحد ، وقال يونس بن حبيب (دَبَرَ) انقضى ، و(أدبر) تولى . وقال قتادة(دَبَر) الليل ولى ، وقال الزمخشري : و(دَبَر) بمعنى (أَدْبَرَ) كقبل بمعنى أقبل ، وقيل : هو من دبر

الليل النهار أخلفه ، وقرأ الجمهور (أَسْفَر) رباعياً وابن السميفع وعيسى بن الفضل (سَفَر) ثلاثياً ، والمعنى : طرح الظلمة عن وجهه ، (إنها لإحدى الكبر) الظاهر أن الضمير في (إنها) عائد على النار ، قيل : ويحتمل أن يكون للنذارة وأمر الآخرة ، فهو للحال والقصة ، وقيل : إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، فعاد الضمير إلى غير مذكور ، ومعنى (إحدى الكبر) الدواهي الكبرى أي : لا نظير لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهى إحدى النساء ، و (الكبر) العظائم من العقوبات .

وقال الراجز :

يَـاآبْنَ الْمُعَلَّى نَـزَلَتْ إِحْـدى الْكُبَـرْ ۝ دَاهِيَـةُ الـدَّهْـرِ وَصَمَّـاءُ الْـغِيَـرْ[1]

و (الكبر) جمع الكبرى ، طرحت ألف التأنيث في الجمع ، كما طرحت همزته في قاصعاء ، فقالوا : قواصع وفي كتاب ابن عطية : و (الكبر) جمع كبيرة ، ولعله من وهم الناسخ ، وقرأ الجمهور (لإحدى) بالهمزة وهي منقلبة عن واو ، أصله : لوحدى ، وهو بدل لازم ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن ووهب بن جرير عن ابن كثير بحذف الهمزة ، وهو حذف ، لا ينقاس ، وتخفيف مثل هذه الهمزة أن تجعل بين بين ، والظاهر أن هذه الجملة جواب للقسم ، وقال الزمخشري : أو تعليل لـ (كلا) والقسم معترض للتوكيد انتهى ، وقرأ الجمهور (نذيراً) واحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الإنذار ، كالنكير بمعنى الإنكار ، فيكون تمييزاً أي : (لإحدى الكبر) إنذار ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافاً ، كما ضمن (إحدى) معنى أعظم جاء عنه التمييز . وقال الفراء : هو مصدر نصب بإضمار فعل ، أي : أنذر إنذاراً ، واحتمل أن يكون اسم فاعل بمعنى منذر . فقال الزجاج : حال من الضمير في (إنها) ، وقيل : حال من الضمير في (إحدى) ومن جعله متصلاً بـ (قم) في أول السورة ، أو بـ (فأنذر) في أول السورة ، أو حالاً من (الكبر) أو حالاً من من ضمير (الكبر) فهو بمعزل عن الصواب ، قال أبو البقاء : والمختار أن يكون حالاً مما دلت عليه الجملة ، تقديره : عظمت نذيراً انتهى . وهو قول لا بأس به . قال النحاس : وحذفت الهاء من (نذيراً) وإن كان للنار على معنى النسب . يعني ذات الإنذار ، وقال علي بن سليمان : أعني : نذيراً ، وقال الحسن لأنذر ، إذ هي من النار ، قال ابن عطية : وهذا القول يقتضي أن (نذيراً) حال من الضمير في (إنها) ومن قوله (لإحدى) ، قال أبو رزين : (نذيراً) هنا هو الله تعالى ، فهو منصوب بإضمار فعل أي : أدعو نذيراً ، وقال ابن زيد : نذير هنا هو محمد ـ ﷺ ـ فهو منصوب بفعل مضمر ، أي : ناد ، أو بلغ ، أو أعلن . وقرأ أبي وابن أبي عبلة (نذيرٌ) بالرفع فإن كان من وصف النار جاز أن يكون خبراً وخبر مبتدأ محذوف ، أي : هي نذير ، وإن كان من وصف الله ، أو الرسول فهو على إضمار هو ، والظاهر أن (لمن) بدل من (البشر) بإعادة الجار ، و (أن يتقدم) منصوب بـ (شاء) ضمير يعود على (مِنْ) ، وقيل : الفاعل ضمير يعود على الله تعالى ، أي : لمن شاء هو أي : الله تعالى ، وقال الحسن : هو وعيد نحو قوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف ٢٩] ، قال ابن عطية : هو بيان في النذارة ، وإعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر ، إذ هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره ، ثم قوى هذا المعنى بقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) ، وقال الزمخشري (أن يتقدم) في موضع الرفع بالابتداء ، و (لمن شاء) خبر مقدم عليه ، كقولك لمن توضأ : أن يصلي ، ومعناه : مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر (أن يتقدم أو يتأخر) والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو كقوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف ٢٩] انتهى ، وهو معنى لا يتبادر إلى الذهن ، وفيه حذف ،

---

(١) البيت من الرجز للعجاج انظر فتح القدير (٥/٣٣١) القرطبي (١٩/٥٥) .

قيل : والتقدم الإيمان ، والتأخر الكفر ، وقال السدي (أن يتقدم) إلى النار المتقدم ذكرها (أو يتأخر) عنها إلى الجنة ، وقال الزجاج (أن يتقدم) إلى المأمورات (أو يتأخر) عن المنهيات ، والظاهر العموم في (كل نفس) ، وقال الضحاك (كل نفس) حقيق عليها العذاب ، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة و (رهينة) بمعنى رهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم ، وليست بمعنى مفعول ، لأنها بغير تاء للمذكر والمؤنث ، نحو : رجل قتيل وامرأة قتيل ، فالمعنى : كل نفس بما كسبت رهن ومنه قول الشاعر :

أَبَعْدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ ... رَهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلِ[1]

أي : رمس رهن والمعنى : ان كل نفس رهن عند الله غير مفكوك ، وقيل : الهاء في (رهينة) للمبالغة ، وقيل : على تأنيث اللفظ لا على الإنسان ، والذي أختاره أنها مما دخلت فيه التاء ، وإن كان بمعنى مفعول في الأصل ، كالنطيحة ، ويدل على ذلك أنه لما كان خبراً عن المذكر كان بغيرها ، قال تعالى (كل امرىء بما كسب رهين) فأنت ترى حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغير تاء ، وحيث كان خبراً عن المؤنث أتى بالتاء ، كما في هذه الآية ، فأما الذي في البيت فأنث على معنى النفس ، (إلا أصحاب اليمين) قال ابن عباس : هم الملائكة : وقال علي : هم أطفال المسلمين ، فعلى هذين القولين يكون استثناء منقطعاً أي : لكن أصحاب اليمين في جنات ، وقال الحسن وابن كيسان : هم المسلمون المخلصون ، ليسوا بمرتهنين ، لأنهم أدوا ما كان عليهم ، وهذا كقول الضحاك الذي تقدم ، وقال الزمخشري (إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق انتهى . وظاهر هذا أنه استثناء متصل (في جنات) أي : هم في جنات (يتساءلون) أي : يسأل بعضهم بعضاً ، أو يكون يتساءل بمعنى يسأل أي : يسألون عنهم غيرهم ، كما يقال : دعوته وتداعوته بمعناه ، وعلى هذين التقديرين : كيف جاء (ما سلككم في سقر) بالخطاب للمجرمين ، وفي الكلام حذف المعنى : أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً ، أو يسألون غيرهم عن من غاب من معارفهم ، فإذا عرفوا أنهم مجرمون في النار . قالوا لهم ، أو قالت لهم الملائكة ، هكذا قدره بعضهم ، والأقرب أن يكون التقدير : يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل (ما سلككم في سقر) ، وقال الزمخشري (فإن قلت :) كيف طابق قوله (ما سلككم) وهو سؤال وإنما كان يطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ما سلككم (قلت :) (ما سلككم) ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم ، لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم : ما سلككم في سقر ، قالوا : لم نك من المصلين ، إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه انتهى . وفيه تعسف ، والأظهر أن السائلين هم المتسائلون ، و (ما سلككم) على إضمار القول كما ذكرنا ، وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير ، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار ، والجواب : أنهم لم يكونوا متصفين بخصائل الإسلام ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم ارتقوا من ذلك إلى الأعظم ، وهو الكفر والتكذيب بيوم الجزاء ، كقولهم : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ [البلد ١١] ثم قال ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد ١٧] و (اليقين) أي : يقيناً ، على إنكار يوم الجزاء أي : وقت الموت ، وقال ابن عطية : و (اليقين) عندي صحة ما كانوا يكذبون ، من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، وقال المفسرون (اليقين) الموت ، وذلك عندي هنا متعقب ، لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي ، وإنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا ، فتيقنوه بعد الموت ، وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر ٩٩] (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ليس المعنى : أنهم يشفع لهم ، فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم ، وإنما

---

(١) البيت من الطويل لمسور بن زيادة الحارثي انظر ديوان الحماسة (١/ ٩٠) الكشاف (٤/ ٦٥٤) ، القرطبي (١٩/ ٥٦) .

المعنى : نفى الشفاعة فانتفى النفع ، أي : لا شفاعة شافعين لهم ، فتنفعهم من باب :

عَلَىٰ لاحِبٍ لاَ يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أي : لا منار له فيهتدى به ، وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات وينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك ، (فما لهم عن التذكرة) وهي مواعظ القرآن التي تذكر الآخرة ، (معرضين) أي : والحال المنتظرة هذه الموصوفة ، ثم شبههم بالحمر المستنفرة في شدة إعراضهم ونفارهم عن الإيمان وآيات الله تعالى . وقرأ الجمهور (حُمُر) بضم الميم والأعمش بإسكانها ، قال ابن عباس : المراد الحمر الوحشية ، شبههم تعالى بالحمر مذمة وتهجيناً لهم ، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم (مُسْتَنْفَرة) بفتح الفاء ، والمعنى : استنفرها فزعها من القسورة ، وباقي السبعة بكسرها ، أي : نافرة ، نفر واستنفر بمعنى : عجب واستعجب ، وسخر واستسخر ، ومنه قول الشاعر :

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ فِي إِصْرِ أَحْمِرَةٍ عَهِدْنَ لِغُرَّبِ[1]

ويناسب الكسر قوله (فَرَّتْ) ، وقال محمد بن سلام ، سألت أبا سرار العتوي ـ وكان أعرابياً فصيحاً ـ فقلت : كأنهم حمر مـاذا مستنفرة طردها قسورة ؟ فقلت : إنما هو (فرت من قسورة) قال : أفرّت قلت : نعم ، قال : فمستنفرة إذن ، قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقتادة وعكرمة : القسورة الرماة ، وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو هريرة وجمهور من اللغويين : الأسد ، وقال ابن جبير : رجال القنص ، وهو قريب من القول الأول ، وقاله ابن عباس أيضاً : وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل ، والمعنى : فرّت من ظلمة الليل ، ولا شيء أشدّ نفاراً من حمر الوحش ، ولذلك شبهت بها العرب الإبل ، في سرعة سيرها وخفتها (بل يريد كل امرىء منهم) أي : من المعرضين عن عظات الله وآياته (أن يؤتى صحفاً منشرة) أي : منشورة غير مطوية تقرأ كالكتب التي يتكاتب بها ، أو كتبت في السماء نزلت بها الملائكة ساعة كتبت رطبة لم تطو بعد ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ـ ﷺ ـ « لن نتبعك حتى يؤتى كل واحد منا بكتاب من السماء » عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، يؤمر فيها باتباعك ، ونحوه﴿لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ [الإسراء:٩٣] وروي أن بعضهم قال : إن كان يكتب في صحف ما يعمل كل إنسان فلتعرض تلك الصحف علينا ، فنزلت هذه الآية ، وقرأ الجمهور (صُحُفاً) بضم الصاد والحاء (مُنَشَّرة) مشدّداً ، وابن جبير بإسكانها (مُنْشَرَةً) مخففاً ، ونشر وأنشر مثل نزل وأنزل ، شبه نشر الصحيفة بإنشاء الله الموتى ، فعبر عنه بـ (منشرة) من أنشرت ، والمحفوظ في الصحيفة والثوب نشر مخففاً ثلاثياً ، ويقال في الميت : أنشره الله فنشر هو ، أي : أحياه فحيي ، (كلا) ردع عن إرادتهم تلك ، وزجر لهم عن اقتراح الآيات (بل لا يخافون الآخرة) ولذلك أعرضوا عن التذكرة ، لا لامتناع إيتاء الصحف . وقرأ الجمهور (يخافون) بياء الغيبة ، وأبو حيوة بتاء الخطاب التفاتاً(كلا) ردع عن إعراضهم عن التذكرة (إنه تذكرة فمن شاء ذكره) ذكر في (إنه) وفي (ذَكَرَه) لأن التذكرة ذكر ، وقرأ نافع وسلام ويعقوب (تذكرة) بتاء الخطاب ساكنة الذال ، وباقي السبعة وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى والأعرج بالياء ، وروي عن أبي حيوة (يذكرون) بياء الغيبة وشد الذال ، وروي عن أبي جعفر (تذكرون) بالتاء وإدغام التاء في الذال ، (هو أهل التقوى) أي : أهل أن يتقى ويخاف ، وأهل أن يغفر ، وروى أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ فسر هذه الآية ، فقال : يقول لكم ربكم جلت قدرته وعظمته : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل يتقى إله غيري ، ومن اتقى أن يجعل معي إلهاً غيري فأنا أغفر له » ، وقال الزمخشري : في قوله تعالى(وما يذكرون إلا أن يشاء الله) يعني إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه ، لأنهم مطبوع على قلوبهم ، معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً .

---

(١) البيت من الكامل لم نهتد لقائله انظر اللسان (نفر) القرطبي (١٩/٥٨) .

سورة القيامة مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

برِق بكسر الراء : فزع ودهش ، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق ، فدهش بصره . ومنه قول ذي الرمّة :

وَلَـوْ أَنَّ لُقْمَـانَ الْـحَكِيم تَـعَـرَّضَتْ   لِعَيْنَيْـهِ مَـيٌّ سَـافِـراً كَـادَ يَبْـرُقُ[1]

قال الأعشى :

وَكُنْتُ أَرَى فِي وَجْـهِ مَيَّـةَ لَمْحَـةً   فَـأَبْرقُ مَغْشِيّـاً عَلَيَّ مَكَـانِيَـا[2]

وبرَق بفتح الراء : شق بصره ، وهو من البريق أي : لمع بصره ، من شدّة شخوصه ، الوزر : ما يلجأ إليه من

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٤٧٩) روح المعاني (١٩/١٧٤) .

(٢) البيت من الطويل ليس في ديوان الأعشى وهو في ديوان ذي الرمة (٧٣١) .

حصن أو جبل أو غيرهما : قال الشاعر :

لَـعَمْـرُكَ مَـا لِلْفَتَـى مِـنْ وَزَر مِنَ الْمَـوْتَ يُـدْرِكُـهُ وَالْكِبَـرْ(١)

النضرة : النعمة وجمال البشرة وطراوتها ، قال الشاعر :

أَبَـى لِـيَ قَـبْـرٌ لَا يَـزَالُ مُـقَـابِـلِي وَضَـرْبَـةُ فَـأْسٍ فَـوقَ رَأْسِي فَـاقِـرَهْ(٢)

أي : مؤثرة ، التراقي : جمع ترقوة ، وهي عظام الصدر ، ولكل إنسان ترقوتان ، وهو موضع الحشرجة . قال دريد بن الصمة :

وَرُبَّ عَـظِيـمَـةٍ دَافَـعْـتُ عَـنْـهُـمْ وَقَـدْ بَلَغَتْ نُفُـوسُهُـمُ التَّـرَاقِـي(٣)

رقى يرقي من الرقية ، وهي ما يستشفى به للمريض من الكلام المعد لذلك ، (تمطى) تبختر في مشيته ، وأصله من المطا وهو الظهر أي : يلوي مطاه تبختراً ، وقيل : أصله تمطط أي : تمدد في مشيته ومد منكبيه . قلبت الطاء فيه حرف علة ، كراهة اجتماع الأمثال ، كما قالوا : تظنى من الظن ، وأصله : تظنن ، والمُطَيْطَا : التبختر ومد اليدين في المشي ، والمطيط : الماء الخاثر في أسفل الحوض ، لأنه يتمطط فيه ، أي : يمتد ، وعلى هذا الاشتقاق لا يكون أصله من المط لاختلاف المادتين ، إذ مادة المطا (م ط و) ومادة تمطط (م ط ط) ، (سدى) مهمل يقال : إبل سدى ، أي : مهملة ، ترعى حيث شاءت بلا راع ، وأسديت الشيء أي : أهملته وأسديت حاجتي ضيعتها ، قال الشاعر :

فَـأُقْسِمُ بِـاللهِ جِـهْـدَ الْيَـمِـيـن مَـا خَـلَقَ اللهُ شَيْئاً سُـدَى(٤)

وقال أبو بكر بن دريد في المقصورة :

لَـمْ أَرَ كَـالْمُـزْنِ سَـوامـاً بُـهَـلاً تَحْسَبُهَـا مَـرْعِيَّـةً وَهْيَ سُـدَى

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوّامة ، أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوّي بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يسأل أيان يوم القيامة ، فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ ، كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ، لا تحرّك به لسانك لتعجل به ، إنّ علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ، كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ، وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ، كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ، وظنّ أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق ، فلا صدّق ولا صلى ، ولكن كذّب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منيّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى ، فجعل منه الزّوجين الذّكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ .

---

(١) البيت من الرجز لربيعة بن الذئبة انظر مجاز القرآن (٢/٢٧٧) روح المعاني (٢٩/١٧٦) ، القرطبي (١٩/٩٤) .

(٢) البيت من الطويل للنابغة انظر ديوانه (٧٠) فتح القدير (٥/٣٣٩) .

(٣) البيت من الوافر ليس في ديوان دريد انظر روح المعاني (٢٩/١٨٤) فتح القدير (٥/٣٤١) .

(٤) البيت من البسيط لم نهتد لقائله انظر روح المعاني (٢٩/١٨٨) .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها : أن في آخر ما قبلها قوله ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة كلا إنه تذكرة ﴾ [المدثر ٥٣ ، ٥٤] وفيها كثير من أحوال القيامة ، فذكر هنا يوم القيامة وجُمَلاً من أحوالها ، وتقدّم الكلام في (لا أقسم) والخلاف في (لا) والخلاف في قراءاتها في أواخر الواقعة ، أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله ، و (لا أقسم) قيل : (لا) نافية ، نفى أن يقسم بالنفس اللوّامة ، وأقسم بيوم القيامة ، نص على هذا الحسن ، والجمهور على أن الله أقسم بالأمرين ، و (اللوامة) قال الحسن : هي التي تلوم صاحبها في ترك الطاعة ونحوها ، فهي على هذا ممدوحة ، ولذلك أقسم الله بها ، وروي نحوه عن ابن عباس ، وعن مجاهد : تلوم على ما فات وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ وقيل : النفس المتقية التي تلوم النفوس في يوم القيامة على تقصيرهنّ في التقوى ، وقال ابن عباس وقتادة : هي الفاجرة الخشعة اللوّامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأعراضها ، فهي على هذا ذميمة ، ويحسن نفي القسم بها ، والنفس اللوّامة : اسم جنس بهذا الوصف . وقيل : هي نفس معينة ، وهي نفس آدم ـ عليه السلام ـ لم تزل لائمةً له على فعله الذي أخرجه من الجنة . قال ابن عطية : وكل نفس متوسطة ليست بمطمئنة ولا أمّارة بالسوء فإنها لوّامة في الطرفين ، مرّة تلوم على ترك الطاعة ، ومرّة تلوم على فوت ما تشتهي ، فإذا اطمأنت خلصت وصفت انتهى . والمناسبة بين القسمين ، ومن حيث أحوال النفس من سعادتها وشقاوتها ، وظهور ذلك في يوم القيامة ، وجواب القسم محذوف يدل عليه يوم القيامة المقسم به ، وما بعده من قوله (أيحسب) الآية ، وتقديره : لتبعثن ، وقال الزمخشري (فإن قلت :) قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون) والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي ، وكان قد أنشد قول امرىء القيس :

لَا وَأَبِيـكِ ابْنَـةَ الْعَـامِـرِي   لَا يَـدَّعِي الْقَـوْمُ أَنِّي أَفِـرّ[١]

وقول غوية بن سلمى :

أَلَا نَـادَتْ أُمَـامَـةُ بِـاحْتِمَـالِي   لِتُحْـزِنَنِي فَـلَا بِـكَ مَـا أُبَـالِي[٢]

قال : فهلا زعمت أن (لا) التي للقسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ها هنا منفياً ، نحو قولك : لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى (قلت :) لو قصروا الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكنه لم يقسم ، ألا ترى كيف لقي ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد ١] بقوله ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [البلد ٤] وكذلك ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة ٧٥] ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ [الواقعة ٧٧] ثم قال الزمخشري : وجواب القسم ما دل عليه قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) وهو : لتبعثن انتهى . وهو تقدير النحاس . وقول من قال : جواب القسم هو (أيحسب الإنسان) وما روي عن الحسن : أن الجواب (بلى قادرين) وما قيل : إن (لا) في القسمين لنفيها أي : لا أقسم على شيء وأن التقدير : أسألك أيحسب الإنسان ، أقوال لا تصلح أن يرد بها ، بل تطرح ولا يسود بها الورق ، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها ، والإنسان هنا : الكافر المكذب بالبعث ، وروي أن عدي بن ربيعة قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : يا محمد ، حدّثني عن يوم القيامة ، متى يكون أمره ؟ فأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن به أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها فنزلت » ، وقيل : « نزلت في أبي جهل ، كان يقول أيزعم محمد ـ ﷺ ـ أن يجمع الله هذه العظام بعد بلاها وتفرّقها ، فيعيدها خلقاً

---

(١) انظر الكشاف (٤/٦٥٨) روح المعاني (٢٩/١٧٠) .

(٢) البيت من الوافر لغوية بن سلمى انظر الكشاف (٤/٦٥٨) ، روح المعاني (٢٩/١٧٠) .

جديداً[(١)] » ، وقرأ الجمهور (نجمع) بنون (عَظَامَه) نصباً . وقتادة بالتاء مبنياً للمفعول (عظامُه) رفعاً . والمعنى : بعد تفرّقها ، واختلاطها بالتراب ، وتطيير الرياح إياها في أقاصي الأرض ، وقوله (أيحسب) استفهام تقرير وتوبيخ ، حيث ينكر قدرة الله تعالى على إعادة المعدوم (بلى) جواب للاستفهام المنسحب على النفي ، أي : بلى نجمعها . وذكر العظام وإن كان المعنى إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة ، لأن العظام هي قالب الخلق ، وقرأ الجمهور (قادرين) بالنصب على الحال من الضمير الذي في الفعل المقدر وهو يجمعها . وابن أبي عبلة ، وابن السميفع ، (قادرون) أي : نحن قادرون (على أن نسوي بنانه) وهي الأصابع أكثر العظام تفرّقاً وأدقها أجزاء ، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها . وهذا عند البعث . وقال ابن عباس والجمهور : « المعنى : نجعلها في حياته هذه بضعة ، أو عظماً واحداً ، كخف البعير لا تفاريق فيه . أي : في الدنيا ، فتقل منفعته بها . وهذا القول فيه توعد . والمعنى الأول هو الظاهر ، والمقصود من رصف الكلام . وذكر الزمخشري هذين القولين بألفاظ منمقة على عادته في حكاية أقوال المتقدمين وقيل : (قادرين) منصوب على خبر كان ، أي : بلى كنا قادرين في الابتداء ، (بل يريد الإنسان) (بل) إضراب وهو انتقال من كلام إلى كلام من غير إبطال . والظاهر أن يريد إخبار عن ما يريده الإنسان . وقال الزمخشري : (بل يريد) عطف على (أيحسب) فيجوز أن يكون قبله استفهاماً . وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر . أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب » . انتهى . وهذه التقادير الثلاثة لا تظهر ، وهي متكلفة . بل المعنى : الإخبار عن الإنسان من غير إبطال لمضمون الجملة السابقة ، وهي : نجمعها قادرين ، لنبين ما هو عليه الإنسان من عدم الفكر في الآخرة وأنه معني بشهواته . ومفعول (يريد) محذوف يدل عليه التعليل في (ليفجر) قال مجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، وابن جبير ، والضحاك ، والسدي : « معنى الآية : ان الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً راكباً رأسه ، مطيعاً أمله ، ومسوفاً بتوبته . قال السدي أيضاً : ليظلم على قدر طاقته ، وعلى هذا فالضمير في (أمامه) عائد على الإنسان ، وهو الظاهر . وقال ابن عباس : « ما يقتضي أن الضمير عائد على يوم القيامة أن الإنسان في زمان وجوده أمام يوم القيامة ، وبين يديه يوم القيامة خلفه ، فهو يريد شهواته ، ليفجر في تكذيبه بالبعث ، وغير ذلك بين يدي يوم القيامة . وهو لا يعرف القدر الذي هو فيه ، والأمام : ظرف مكان استعير هنا للزمان : أي : ليفجر فيما بين يديه ويستقبله من زمان حياته .

(يسأل أيان يوم القيامة) أي : متى يوم القيامة ؟ سؤال استهزاء وتكذيب وتعنت وقرأ الجمهور (بَرِق) بكسر الراء وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم وعبد الله بن أبي أسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وابن مقسم ونافع وزيد بن علي وأبان عن عاصم وهارون ، ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو ، والحسن ، والجحدري بخلاف عنهما . بفتحها . قال أبو عبيدة : (بَرق) بالفتح شق . وقال ابن إسحاق : « خفت عند الموت » قال مجاهد « هذا عند الموت »[(٢)] وقال الحسن : « هو يوم القيامة »[(٣)] . وقرأ أبو السمال (بلق) باللام عوض الراء ، أي : انفتح وانفرج يقال : بلق الباب وأبلقته وبلقته : فتحته . هذا قول أهل اللغة إلا الفراء فإنه يقول : « بلقه وأبلقه إذا أغلقه » . وقال ثعلب : « أخطأ الفراء في ذلك إنما هو بلق الباب وأبلقه إذا فتحه » . انتهى . ويمكن أن تكون اللام بدلاً من الراء ، فهما يتعاقبان في بعض الكلام نحو قولهم : نثره ونثله ، ووجر ووجل . وقرأ (وخسَفَ) مبنياً للفاعل ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويزيد بن قطيب وزيد بن علي مبنياً للمفعول . يقال (خَسَفَ القَمر) وخسفه الله . وكذلك الشمس . قال أبو عبيدة وجماعة من أهل اللغة : الخسوف والكسوف بمعنى واحد . وقال ابن أبي أويس الكسوف ذهاب بعض الضوء والخسوف جميعه ، (وجمع الشمس

---

(١) انظر الوسيط (١٧٠ خ) .

(٢) انظر الوسيط (١٧٠ خ) والطبري (١١٣/٢٩) والقرطبي (٦٨٨٨/٩) وزاد المسير (٤١٩/٨) ، وابن كثير (٤٤٨/٤) .

(٣) انظر المصادر السابقة .

والقمر) لم تلحق علامة التأنيث ، لأن تأنيث الشمس مجاز أو لتغليب التذكير على التأنيث . وقال الكسائي : حمل على المعنى والتقدير جمع النوران أو والضياءان. ومعنى الجمع بينهما :قال عطاء بن يسار يجمعان فيلقيان في النار . وعنه : يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى ، وقيل : يجمع بينهما في الطلوع من المغرب فيطلعان أسودين مكورين . وقال علي وابن عباس : يجعلان في نور الحجب ، وقيل : يجتمعان ولا يتفرقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر فكأن المعنى يجمع حرهما . وقيل : يجمع بينهما في ذهاب الضوء ، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار ، وقرأ الجمهور (المَفَرّ) بفتح الميم والفاء أي أين الفرار ؟ وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب والحسن بن زيد وابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني وكلثوم بن عياض ومجاهد وابن يعمر وحماد بن سلمة وأبو رجاء وعيسى وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزهري بكسر الفاء وهو موضع الفرار ، وقرأ الحسن بكسر الميم وفتح الفاء ، ونسبها ابن عطية للزهري ، أي : الجيد الفرار . وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل نحو قوله :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً[1]

والظاهر أن قوله (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر) من تمام قول الإنسان . وقيل : هو من كلام الله تعالى لا حكاية عن الإنسان (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) لا ملجأ . وعبر المفسرون عنه بالجبل ، قال مطرف بن الشخير : هو كان وزر فرار العرب في بلادهم فلذلك استعمل والحقيقة أنه الملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غيره . (إلى ربك يومئذ) أي : إلى حكمه يومئذ ، تقول أين المفر (المستقر) أي الاستقرار أو موضع استقرار من جنة أو نار إلى مشيئته تعالى يدخل من شاء الجنة ويدخل من شاء النار (بما قدم وأخر) قال عبد الله وابن عباس (بما قدم) في حياته (وأخر) من سنة يعمل بها بعده[2] ، وقال ابن عباس أيضاً : بما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات[3] وقال زيد بن أسلم : بما قدم من ماله لنفسه وبما أخر منه للوارث . وقال النخعي ومجاهد ، بأول عمله وآخره[4] . وقال الضحاك: بما قدم من فرض وأخر من فرض . والظاهر حمله على العموم أي : يخبره بكل ما قدم وكل ما أخر مما ذكره المفسرون ومما لم يذكروه ، (بصيرة) خبر عن الإنسان أي شاهد . قاله قتادة . والهاء للمبالغة . وقال الأخفش : هو كقولك : فلان عبرة وحجة . وقيل : أنث لأنه أراد جوارحه أي جوارحه على نفسه بصيرة . وقيل : (بصيرة) مبتدأ محذوف الموصوف ، أي : عين بصيرة . و (على نفسه) الخبر والجملة في موضع خبر عن (الإنسان) والتقدير عين بصيرة . وإليه ذهب الفراء ، وأنشد :

كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْناً بَصِيرَةً ... بِمَقْعَدِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاظِرُهْ

يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ... مِنَ الْخَوْفِ لاَ تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرَائِرُهْ[5]

وعلى هذا نختار أن تكون (بصيرة) فاعلاً بالجار والمجرور وهو الخبر عن الإنسان ألا ترى أنه قد اعتمد بوقوعه خبراً

---

(١) صدر بيت لامرىء القيس وعجزه :

.... كجلمود صخر حطه السيل من عل

انظر ديوانه (١١٩) .

(٢) انظر الوسيط (١٧١ خ) والطبري (٢٩/ ١١٥) والقرطبي (٩/ ٦٨٩٠) والبغوي (٤/ ٤٢٢) وتفسير ابن جزي ص (٨١١) وابن كثير (٤/ ٤٤٨) وزاد المسير (٨/ ٤٢٠) وتفسير عبد الرزاق (٣/ ١١٨٢) .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) البيتان من الطويل انظر روح المعاني (٢٩/ ١٧٧) فتح القدير (٥/ ٣٣٨) .

عن الإنسان وعلى هذا فالتاء للتأنيث . وتأول ابن عباس البصيرة بالجوارح أو الملائكة الحفظة . والمعاذير : عند الجمهور الأعذار ، فالمعنى لو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه فإنه هو الشاهد عليها والحجة البينة عليها . وقيل : المعاذير : جمع معذرة . وقال الزمخشري : قياس معذرة معاذر فالمعاذير ليس بجمع معذرة إنما هو اسم جمع لها ونحو المناكير في المنكر . انتهى . وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع وإنما هو من أبنية جمع التكسير فهوكـذاكير وملاميح والمفرد منهما لمحة وذكر ولم يذهب أحد إلى أنهما من أسماء الجموع بل قيل هما جمع للمحة وذكر على غير قياس أو هما جمع لمفرد لم ينطق به وهو مذكار وملمحة . وقال السدي والضحاك : المعاذير الستور بلغة اليمن ، واحدها معذار ، وهو يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب ، وقاله الزجاج أيضاً . أي : وإن رمى مستورة يريد أن يخفى عمله فنفسه شاهدة عليه . وأنشدوا في أن المعاذير الستور . قول الشاعر :

وَلَـكِنَّهَـا ضَنَّـتْ بِمَنْـزِلِ سَـاعَـةٍ   عَلَيْنَـا وَأَطَّتْ فَـوْقَهَـا بِـالمَعَـاذِرِ[١]

وقيل : البصيرة : الكاتبان يكتبان ما يكون من خير أو شر أي وإن تستر بالستور ، وإذا كانت من العذر فمعنى (ولو ألقى) أي : نطق بمعاذيره وقالها . وقيل : ولو رمى بأعذاره واستسلم . وقال السدي : ولو أدلى بحجة وعذر ، وقيل : ولو أحال بعضهم على بعض كقوله تعالى (لولا أنتم لكنا مؤمنين) والعذرة والعذرى المعذرة . قال الشاعر :

هَا إنَّ ذي عُذْرَةٌ إن لا تَكُنْ نَفَعَتْ[٢]

وقال فيها ولا عذر لمجحود ، (لا تحرك به لسانك) ، الظاهر والمنصوص الصحيح في سبب النزول : أنه خطاب للرسول ـ ﷺ ـ على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وقال القفال : هو خطاب للإنسان المذكور في قوله (ينبأ الإنسان) وذلك حال تنبه بقبائح أفعاله يعرض عليه كتابه فيقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) فإذا أخذ في القراءة تلجلج من شدّة الخوف وسرعة القراءة ، فقيل له (لا تحرك به لسانك لتعجل به) فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك . (فإذا قرأناه) عليك (فاتبع قرآنه) بأنك فعلت تلك الأفعال (ثم إن علينا بيانه) أي بيان أمره وشرح عقوبته . وحاصل قوله هذا القول أنه تعالى يقرر الكافر على جميع أفعاله على التفصيل ، وفيه أشد الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخرة . وفي صحيح البخاري[٣] : « عن ابن عباس أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يعالج من التنزيل شدّة وكان ربما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه لحينه فنزلت »[٤] . وقال الضحاك : « السبب أنه كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق فنزلت »[٥] . وقال الشعبي : كان لحرصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أداء الرسالة والاجتهاد في عبادة الله ربما أراد النطق ببعض ما أوحي إليه قبل كمال إيراد الوحي فأمر أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى والضمير في (به) للقرآن دل عليه مساق الآية . (إن علينا جمعه) أي في صدرك (وقرآنه) أي : قراءتك إياه والقرآن . مصدر كالقراءة ، قال الشاعر :

---

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله انظر فتح القدير (٥/٣٣٨) .

(٢) انظر لسان العرب (عذر) للنابغة .

(٣) أخرجه البخاري (٨/٥٤٧ ـ ٥٤٨) في كتاب التفسير باب « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ، (٤٩٢٧) .

(٤) انظر الطبري (٢٩/١١٦ ، ١١٧) والقرطبي (٩/٦٨٩٧) وتفسير ابن جزي ص (٨١١) والبغوي (٤/٤٢٣) وزاد المسير (٨/٤٢١) وابن كثير (٤/٤٤٩) والوسيط (١٧١ خ) .

(٥) انظر المصادر السابقة .

ضَحَّـوا بِـأَشْمَطَ عُنْـوَانُ السُّجُـودِ بِـهِ   يُقَـطِّعُ اللَّيْـلَ تَسْبِيحـاً وقُـرْآنـا(١)

وقيل : (وقرآنه) وتأليفه في صدرك ، فهو مصدر من قرأت أي جمعت . ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد : ما قرأت سلا قطوقال الشاعر :

ذِرَاعَـيْ بَكْـرَةٍ أَدْمَـاء بِـكْـرٍ   هِجَان اللَّوْنِ لَمْ تَقْـرَأْ جَنِينَـا(٢)

(فإذا قرأناه) أي : الملك المبلغ عنا (فاتبع) أي : بذهنك وفكرك . أي : فاستمع قراءته قاله ابن عباس . وقال أيضاً هو وقتادة والضحاك : فاتبع في الأوامر والنواهي . وفي كتاب ابن عطية : وقرأ أبو العالية ، (فإذا قَرَتْه فاتبع) قرته بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة ولم يتكلم على توجيه هذه القراءة الشاذة . ووجه اللفظ الأول أنه مصدر أي إن علينا جمعه وقراءته . فنقل حركة الهمزة إلى الراء الساكنة وحذفها فبقى قَرَتْه كما ترى . وأمّا الثاني فإنه فعل ماض أصله فإذا قرأته أي أردت قراءته فسكن الهمزة فصار قرأتْه ثم حذف الألف على جهة الشذوذ كما حذفت في قول العرب : ولو تر ما الصبيان . يريدون ولو ترى ما الصبيان وما زائدة . وأمّا اللفظ الثالث فتوجيهه توجيه اللفظ الأول أي فإذا قرأته أي أردت قراءته فاتبع قراءته بالدرس أو بالعمل ، (ثم إن علينا بيانه) ، قال قتادة وجماعة : أن نبينه لك ونحفظكه . وقيل : أن تبينه أنت . وقال قتادة أيضاً : أن نبين حلاله وحرامه ومجمله ومفسره . وفي التحرير والتحبير : قال ابن عباس (إن علينا جمعه) أي حفظه في حياتك وقراءته تأليفه على لسانك ، وقال الضحاك : نثبته في قلبك بعد جمعه لك ، وقيل : جمعه بإعادة جبريل عليك مرة أخرى إلى أن يثبت في صدرك . (فإذا قرأناه) قال ابن عباس : أنزلناه إليك فاستمع قراءته ، وعنه أيضاً : فإذا يتلى عليك فاتبع ما فيه ، وقال قتادة : فاتبع حلاله واجتنب حرامه ، وقد نمق الزمخشري بحسن إيراده تفسير هذه الآية فقال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلت منه فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضى إليه وحيه ثم يعقبه بالدراسة أن يرسخ فيه . والمعنى لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ التعجيل به لتأخذه على عجلة ولئلا يتفلت منك ، ثم علل النهي عن العجلة بقوله (إن علينا جمعه) في صدرك وإثبات قراءته في لسانك (فإذا قرأناه) جعل قراءة جبريل قراءته ، والقرآن القراءة (فاتبع) قراءته ، فكن مقفياً له فيه ولا تراسله وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ فنحن في ضمان تحفيظه . (ثم إن علينا بيانه) إذا أشكل عليك شيء من معانيه كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾[طه ١١٤] انتهى . وذكر أبو عبد الله الرازي ، في تفسيره : أن جماعة من قدماء الروافض زعموا أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وما قبلها ، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك . ثم ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه . ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها ، أنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته ، وأنه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها . وبضدها تتميز الأشياء ، ولما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمثابرته على ذلك كان يبادر للتحفظ بتحريك لسانه أخبره تعالى أنه يجمعه له ويوضحه . (كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة) ، لما فرغ من خطابه

---

(١) تقدم .

(٢) انظر البيت في اللسان (قرأ) روح المعاني (٢٩/١٧٨) .

عليه الصلاة والسلام رجع إلى حال الإنسان السابق ذكره المنكر البعث وأن همه إنما هو في تحصيل حطام الدنيا الفاني لا في تحصيل ثواب الآخرة إذ هو منكر لذلك . وقرأ الجمهور (بل تحبون العاجلة) (وتذرون) بتاء الخطاب لكفار قريش المنكرين البعث . و (كلا) رد عليهم وعلى أقوالهم ، أي ليس كما زعمتم وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها وقال الزمخشري : (كلا) ردع وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه . وقرأ مجاهد والحسن وقتادة والجحدري وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيهما ، ولما وبخهم بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة تخلص إلى شيء من أحوال الآخرة فقال (وجوه يومئذ ناضرة) وعبر بالوجه عن الجملة ، وقرأ الجمهور (ناضرة) بألف وزيد بن علي (نضرة) بغير ألف . وقرأ ابن عطية (وجوه) رفع بالابتداء ، وابتدأ بالنكرة ، لأنها تخصصت بقوله (يومئذ) و (ناضرة) خبر (وجوه) وقوله (إلى ربها ناظرة) جملة هي في موضع خبر بعد خبر . انتهى . وليس (يومئذ) تخصيصاً للنكرة فيسوغ الابتداء بها ، لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة وإنما يكون (يومئذ) معمول لـ (ناضرة) ، وسوغ جواز الابتداء بالنكرة كون الموضع موضع تفصيل و (ناضرة) الخبر و (ناظرة) صفة . وقيل : (ناضرة) نعت لـ (وجوه) و (إلى ربها ناظرة) الخبر وهو قول سائغ . ومسألة النظر ورؤية الله تعالى مذكورة في أصول الدين . ودلائل الفريقين ، أهل السنة وأهل الاعتزال فلا نطيل بذكر ذلك هنا . ولما كان الزمخشري من المعتزلة ومذهبه أن تقديم المفعول يدل على الاختصاص قال هنا : ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر في محشر يجمع الله فيه الخلائق فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال فوجب حمله على معنى لا يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي يريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإِذَا نَـظَرتُ إِلَيْـكَ مِـنْ مَـلِكٍ ... وَالْبَحْـرُ دونَـكَ زِدْتَنِي نَـعْمَـاءَ

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول عيينتي ناظرة إلى الله وإليكم . والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه انتهى . وقال ابن عطية : ذهبوا يعني المعتزلة إلى أن المعنى إلى رحمة ربها ناظرة ، أو إلى ثوابه أو ملكه ، فقدروا مضافاً محذوفاً ، وهذا وجه سائغ في العربية ، كما تقول : فلان ناظر إليك في كذا أي إلى صنعك في كذا . انتهى . والظاهر أن (إلى) قوله (إلى ربها) حرف جر يتعلق بـ (ناظرة) ، وقال بعض المعتزلة (إلى) هنا واحد الآلاء ، وهي النعم ، وهي مفعول به معمول لـ (ناظرة) بمعنى منتظرة (وجوه يومئذ باسرة) يجوز أن يكون (وجوه) مبتدأ خبره (باسرة) و (تظن) خبر بعد خبر وأن تكون (باسرة) صفة و (تظن) الخبر . والفاقرة : قال ابن المسيب : قاصمة الظهر . و (تظن) بمعنى توقن أو يغلب على اعتقادها وتتوقع أن يفعل بها فاقرة فعل هو في شدة داهية تقصم . وقال أبو عبيدة : فاقرة : من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار (كلّا) ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، وتذكير لهم بما يؤولون إليه من الموت الذي تنقطع العاجلة عنده وينتقل منها إلى الآجلة . والضمير في (بلغت) عائد إلى النفس الدال عليها سياق الكلام ، كقول حاتم :

لَعَمْـرُكَ مَـا يُغْنِي الثَّـرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَـا الصَّدْرُ[١]

وتقول العرب : أرسلت يريدون جاء المطر ولا نكاد نسمعهم يقولون السماء . وذكرهم تعالى بصعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها . وقيل : مبني للمفعول فاحتمل أن يكون القائل حاضر والمريض طلبوا له من يرقي ويطب ويشفي وغير ذلك مما يتمناه له أهله . قاله ابن عباس والضحاك وأبو قلابة وقتادة، وهو استفهام

(١) تقدم .

حقيقة وقيل هو استفهام إبعاد وإنكار أي قد بلغ مبلغاً لا أحد يرقيه كما عند الناس من ذا الذي يقدر أن يرقي هذا المشرف على الموت . قاله عكرمة وابن زيد . واحتمل أن يكون القائل الملائكة أي من يرقي بروحه إلى السماء أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ قاله ابن عباس أيضاً وسليمان التيمي . وقيل : إنما يقولون ذلك ، لكراهتهم الصعود بروح الكافر لخبثها ونتنها ، ويدل عليه قوله بعد (فلا صدّق ولا صلى) الآية[1] ووقف حفص على (مَنْ) وابتدأ (راق) وأدغم الجمهور . قال أبو علي : لا أدري ما وجه قراءته ، وكذلك قرأ (بل ران) انتهى . وكأن حفصاً قصد أن لا يتوهم أنها كلمة واحدة فسكت سكتاً لطيفاً ليشعر أنها كلمتان ، وقال سيبويه : إن النون تدغم في الراء وذلك نحو من راشد والإدغام بغنة وبغير غنة ولم يذكر البيان ولعل ذلك من نقل غيره من الكوفيين وعاصم شيخ حفص يذكر أنه كان عالماً بالنحو ، وأمّا (بل ران) فقد ذكر سيبويه أن اللام البيان فيها والإدغام مع الراء حسنان ، فلما أفرط في شأن البيان في (بل ران) صار كالوقف القليل (وظن) أي المريض (أنه) أي : ما نزل به (الفراق) فراق الدنيا التي هي محبوبته والظن هنا على بابه . وقيل : فراق الروح الجسد . (والتفت الساق بالساق) قال ابن عباس والربيع بن أنس وإسماعيل بن أبي خالد : استعارة لشدّة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها لأنه بين الحالين قد اختلطا به[2] كما يقول شمرت الحرب عن ساق استعارة لشدتها . وقال ابن المسيب والحسن . هي حقيقة ، والمراد ساقا الميت عندما لفا في الكفن . وقال الشعبي وقتادة وأبو مالك : التفافهما لشدّة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذه على هذه[3] . وقال الضحاك : أسوق حاضريه من الإنس والملائكة هؤلاء يجهزونه إلى القبر وهؤلاء يجهزون روحه إلى السماء[4] : وقيل : التفافهما موتهما أولاً إذ هما أول ما تخرج الروح منهما فتبردان قبل سائر الأعضاء . وجواب[5] (إذا) محذوف تقديره وجد ما عمله في الدنيا من خير وشر . (إلى ربك يومئذ المساق) المرجع والمصير و (المساق) مفعل من السوق فهو اسم مصدر إمّا إلى جنة وإمّا إلى نار (فلا صدق ولا صلى) الجمهور أنها نزلت في أبي جهل وكادت أن تصرح به في قوله (يتمطى) فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم وكان يكثر منها ، وتقدم أيضاً أنه قيل في قوله ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة ٣] أنها نزلت في أبي جهل . وقال الزمخشري : يعني الإنسان في قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) ألا ترى قوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وهو معطوف على قوله (يسأل أيان يوم القيامة) أي لا يؤمن بالبعث (فلا صدق) بالرسول والقرآن (ولا صلى) ويجوز أن يراد فلا صدق ماله يعني فلا زكاة . انتهى . وكون (فلا صدق) معطوفاً على قوله (يسأل) فيه بعد . و (لا) هنا نفت الماضي أي : لم يصدق ولم يصل . وفي هذا دليل على أن لا تدخل على الماضي فتنصبه ومثله قوله :

وَأَيُّ خَمِيسٍ لاَ أَتَانَا نِهَابُهُ ... وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ كَبْشِهِ دَمَا[6]

وقال الراجز :

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا[7]

---

(١) انظر الوسيط (١٧٢ خ) والطبري (١٢١/٢٩) والبغوي (٤٢٤/٤) وزاد المسير (٤٢٤/٨) وابن كثير (٤٥١/٤) والقرطبي (٦٩٠١/٩ ، ٦٩٠٢) .

(٢) انظر الطبري (١٢٢/٢٩) والقرطبي (٦٩٠٣/٩) والبغوي (٤٢٤/٤) وزاد المسير (٤٢٥/٨) والوسيط (١٧٢ خ) .

(٣) انظر الوسيط (١٧٢ خ) .

(٤) انظر الوسيط (١٧٢ خ) .

(٥) انظر الوسيط (١٧٢ خ) .

(٦) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ذكره السمين في الدر المصون .

(٧) تقدم .

و (صدَّق) معناه برسالة الله . وقال قوم : هو من الصدقة وهذا الذي يظهر نفى عنه الزكاة والصلاة وأثبت له التكذيب ، كقوله ﴿ لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ [المدثر ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦] وحمل (فلا صدق) على نفي التصديق بالرسالة فيقتضي أن يكون (ولكن كذب) تكراراً ولزم أن يكون (لكن) استدراكاً بعد (ولا صلى) لا بعد (فلا صدق) لأنه كان يتساوى الحكم في (فلا صدق) وفي (كذب) ولا يجوز ذلك . إذ لا تقع (لكن) بعد متوافقين (وتولى) أعرض عن رسول الله ـ ﷺ ـ وكذَّب بما جاء به (ثم ذهب أهله) أي : قومه (يتمطى) يبختر في مشيته ، روي : « أن رسول الله ـ ﷺ ـ لبب أبا جهل يوماً في البطحاء ، وقال له : إن الله يقول لك : أولى فأولى لك . فنزل القرآن على نحوها » . وقالت الخنساء :

هَمَمْتُ بِنَفْسِي كُلَّ الْهُمُو ... مِ فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا

وتقدم الكلام على (أَوْلى) شرحاً وإعراباً في قوله تعالى (فأولى لهم طاعة وقول معروف) في سورة القتال وتكراره هنا ، مبالغة في التهديد والوعيد . ولما ذكر حاله في الموت وما كان من حاله في الدنيا قرر له أحواله في بدايته ليتأمّلها فلا ينكر معها جواز البعث من القبور . وقرأ الجمهور (ألم يكُ) بياء الغيبة والحسن بتاء الخطاب على سبيل الالتفات . وقرأ الجمهور (تُمْنى) أي : النطفة يمنيها الرجل . وابن محيصن والجحدري وسلام ويعقوب وحفص وأبو عمر بخلاف عنه بالياء أي (يُمْنَى) هو أي المني فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة (فَسَوَّى) أي سواه شخصاً مستقلاً (فجعل منه الزوجين) أي النوعين أو المزدوجين من البشر وفي قراءة زيد بن عليّ (الزوجان) بالألف وكأنه على لغة بني الحارث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالألف في جميع أحواله . وقرأ أيضاً (يَقْدِر) مضارعاً والجمهور (بقادر) اسم فاعل مجرور بالباء الزائدة (أليس ذلك) أي الخالق المسوى (بقادر) وفيه توقيف وتوبيخ لمنكر البعث . وقرأ طلحة بن سليمان والفيض بن غزوان بسكون الياء من قوله (أن يُحْيِيَ) وهي حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف وقد جاء في الشعر حذفها ، وقرأ الجمهور بفتحها ، وجاء عن بعضهم (يُحْيِّ) بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء . قال ابن خالويه : لا يجيز أهل البصرة سيبويه وأصحابه إدغام (يحيي) قالوا لسكون الياء الثانية ولا يعتدون بالفتحة في الياء لأنها حركة اعراب غير لازمة ، وأما الفراء فاحتج بهذا البيت :

تَمْشي بسده بَيْنَها فَتَعَيى

يريد فتعيي ، والله تعالى أعلم .

سورة الدهر مدنية وهي إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

الأمشاج : الأخلاط ، واحدها مَشَج بفتحتين ، أو مَشْج كعدل ، أو مَشج كشريف وأشراف ، قاله ابن الأعرابي ، وقال رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلَّ مُعْجَلٍ بِسَاجِ   لَمْ يُكْسَ جِلْداً مِنْ دَمٍ أَمْشَاجِ[١]

وقال الهذلي :

كَأَنَّ النَصْلَ وَالْفُوقَيْنِ مِنْهَا   خِلَافُ الرِّيشِ سِيطَ بِهِ مَشِيجُ[٢]

وقال الشماخ :

طَوَتْ أَحْشَاءَ مُرْتَجَةً لِوَقْتٍ   عَلَى مَشَجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينُ[٣]

ويقال : مشج يمشج مشجاً إذا خلط ومشيج كخليط وممشوج كمخلوط ، مزج الشيء بالشيء : خلطه ، وقال الشاعر :

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ   يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ[٤]

استطار الشيء : انتشر، وتقول العرب استطار الصدع في القارورة وشبهها واستطال . ومنه قول الشاعر :

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فِي الْفُؤَا   دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِهَا مُسْتَطِيرا[٥]

وقال الفراء : مستطير مستطيل . ويقال يوم قمطرير وقماطر واقمطرّ فهو مقمطر ، إذا كان صعباً شديداً ، وقال الراجز :

قَدْ جَعَلَتْ شَبْوَةٌ تَزْبَئِرُّ   تَكْسُو اسْتَهَا لَحْماً وَتَقْمَطِرّ[٦]

وقال الشاعر :

فَفَرُّوا إِذَا مَا الْحَرْبُ ثَارَ غُبَارُهَا   وَلَجَّ بِهَا الْيَوْمُ الشَّدِيدُ الْقَمَاطِرُ[٧]

وقال الزجاج : القمطرير : الذي يعيش حتى يجتمع ما بين عينيه ، ويقال : قمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها فاشتقه من القطر وجعل الميم زائدة . وقال أسد بن ناعصة :

وَاصْطَلَيْتُ الْحُرُوبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ   بَاسِلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّبَاحِ[٨]

واختلف في هذا الوزن ، وأكثر النحاة لا يثبت افعَلَّ في أوزان الأفعال . الزمهرير : أشد البرد ، وقال ثعلب : هو القمر بلغة طي . وأنشد قول الراجز :

---

(١) البيت من الرجز انظر فتح القدير (٥/٣٤٥) .
(٢) البيت من الوافر انظر اللسان (مشج) ديوان الهذليين (٣/٤) .
(٣) البيت من الوافر انظر الديوان (٣٢٨) الكشاف (٤/٥٣٢) القرطبي (١٩/٧٩) اللسان (سلك) .
(٤) تقدم .
(٥) البيت من المتقارب للأعشى انظر الديوان (٨٥) .
(٦) البيت من السريع لم نهتد لقائله انظر اللسان (قمطر) .
(٧) البيت من الطويل انظر فتح القدير (٥/٣٤٨) .
(٨) البيت من الخفيف انظر الكشاف (٤/٦٦٩) ، القرطبي (١٩/٨٩) .

وَلَيْلَةٍ ظَلامُهَا قَدِ اعْتَكَرْ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ[١]

القارورة : إناء رقيق صاف توضع فيه الأشربة . قيل : ويكون من الزجاج : الزنجبيل : قال الدينوري : نبت في أرض عمان عروق تسري وليس بشجر يؤكل رطباً ، وأجوده ما يحمل من بلاد الصين ، كانت العرب تحبه ، لأنه يوجب لذعاً في اللسان إذا مزج بالشراب فيتلذذون به ، قال الشاعر :

كَأَنَّ جَنْباً مِنَ الزَّنْجَبِيلِ بَاتَ بِفِيهَا وَارِياً مَسْتُورَا[٢]

وقال المسيب بن علس :

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيـ ـلِ إِذَا ذُقْتَهُ وَسُلافَةَ الْخَمْرِ[٣] .

السلسبيل والسلسل والسلسال : ما كان من الشراب غاية في السلاسة ، قاله الزجاج : وقال ابن الأعرابي : لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن ، ثَمَّ : ظرف مكان للبعد .

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاًمذكوراً، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ، إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ، يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقال مجاهد وقتادة مدنية ، وقال الحسن وعكرمة : مدنية إلا آية واحدة فإنها مكية وهي ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ [الإنسان: ٢٤] ، وقيل : مدنية إلا من قوله ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ [الطور : ٤٨] الخ فإنه مكي ، حكاه الماوردي ، ومناسبتها لما قبلها ظاهرة جدّاً لا تحتاج إلى شرح (**هل**) حرف استفهام فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بقد لأن قد من خواص الفعل فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتي للاستفهام المحض . وقال ابن عباس وقتادة : هي هنا بمعنى قد . قيل : لأن الأصل أهل فكأن الهمزة حذفت واجتزىء بها في الاستفهام ، ويدل على ذلك قوله :

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ لِحِلَّتِهَا أَهَلْ رَأَوْنَا بِوَادِي النَّتِّ ذِي الأَكَمِ[٤]

فالمعنى : أقد أتى ، على التقدير والتقريب جميعاً . أي : أتى (على الإنسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر) لم يكن كذا فإنه يكون الجواب أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور . وما تليت عند أبي بكر وقيل عند عمر رضي الله تعالى عنهما قال : ليتها تَمَّت . أي تلك الحالة تَمَّتْ . وهي كونه شيئاً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف . و (الإنسان) هنا جنس بني

---

(١) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر الكشاف (٤/ ٦٧٠) ، روح المعاني (٢٩/ ٢٠٠) ، القرطبي (١٩/ ٩٠) .
(٢) البيت من المتقارب للأعشى انظر الديوان (٨٥) الكشاف (٤/ ٦٧٢) ، روح المعاني (٢٩/ ٢٠٢) ، اللسان (زنجبيل) .
(٣) البيت من الكامل انظر الكشاف (٤/ ٦٧٢) .
(٤) البيت من البسيط لزيد الخيل انظر ابن يعيش (٨/ ١٥٢) الكشاف (٤/ ٦٦٥) روح المعاني (٢٩/ ١٨٩) .

آدم . والحين الذي مرّ عليه إما حين عدمه ، وإما حين كونه نطفة ، وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه فإنه في تلك المدة لا ذكر له ، وسمي إنساناً باعتبار ما صار إليه ، وقيل : آدم عليه الصلاة والسلام ـ والحين : الذي مر عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح[١] . وعن ابن عباس : بقي طيناً أربعين سنة صلصالاً أربعين ثم حمأ مسنوناً أربعين فتم خلقه في مائة وعشرين سنة ، وسمي إنساناً باعتبار ما آل إليه ، والجملة من (لم يكن) في موضع الحال من (الإنسان) كأنه قيل غير مذكور ، وهو الظاهر . أو في موضع الصفة لـ (حين) فيكون العائد على الموصوف محذوفاً ، أي : لم يكن فيه . (إنا خلقنا الإنسان) هو جنس بني آدم ، لأن آدم لم يخلق (من نطفة أمشاج) أخلاط وهو وصف لـ (النطفة) . فقال ابن مسعود وأسامة بن زيد عن أبيه : هي العروق التي في النطفة . وقال ابن عباس ومجاهد والربيع : هو ماء الرجل وماء المرأة اختلطا في الرحم فخلق الإنسان منهما[٢] . وقال الحسن : اختلاط النطفة بدم الحيض فإذا حبلت ارتفع الحيض . وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة وقتادة : أمشاج منتقلة من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى غير ذلك إلى انشائه إنساناً . وقال ابن عباس وعكرمة أيضاً والكلبي : هي ألوان النطفة[٣] وقيل : أخلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء والنطفة أريد بها الجنس فلذلك وصفت بالجمع كقوله ﴿على رفرف خضر﴾ [الرحمن : ٧٦] أو لتنزيل كل جزء من النطفة نطفة ، وقال الزمخشري : نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكياس وهي ألفاظ مفرد غير جموع ولذلك وقعت صفات للإفراد ويقال أيضاً نطفة مشج ، ولا يصح (أمشاج) أن تكون تكسيراً له بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما انتهى . وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن أفعالاً لا يكون مفرداً ، قال سيبويه : وليس في الكلام أفعال إلا أن يكسر عليه اسماً للجميع وما ورد من وصف المفرد بأفعال تأولوه . (نبتليه) نختبره بالتكليف في الدنيا . وعن ابن عباس : نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة . فعلى هذا هي حال مصاحبة ، وعلى أن المعنى نختبره بالتكليف فهي حال مقدرة ، لأنه تعالى حين خلقه من نطفة لم يكن مبتلياً له بالتكليف في ذلك الوقت . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ناقلين له من حال إلى حال فسمي ذلك الابتلاء على طريق الاستعارة . انتهى . وهذا معنى قول ابن عباس : وقيل : نبتليه بالإيجاد والكون في الدنيا ، فهي حال مقارنة . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير الأصل : فجعلناه سميعاً بصيراً نبتليه ، أي : جعله سميعاً بصيراً هو الابتلاء ، ولا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير . والمعنى يصح بخلافه ، وامتن تعالى عليه بهاتين الصفتين ، وهما كناية عن التمييز والفهم إذ آلتهما سبب لذلك وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات ولما جعله بهذه المثابة أخبر تعالى إلى أنه هداه إلى السبيل أي : أرشده إلى الطريق وعرفنا مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك إذ أرشدناه طريق الهدى وقال مجاهد : سبيل السعادة والشقاوة[٤] . وقال السدي : سبيل الخروج من الرحم . وقال الزمخشري : أي مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً وإذا دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع كان معلوماً منه أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة . انتهى . وهو على طريقة الالتزام ، وقرأ الجمهور (إمَّا) بكسر الهمزة فيهما . وأبو السمال وأبو العاج وهو كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة لهشام بن عبد الملك بفتحها فيهما ، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب . وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف[٥] .

---

(١) انظر الوسيط (١٧٣ خ) والقرطبي (٩/ ٦٩١٠) والبغوي (٤/ ٤٢٧) .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر الوسيط (١٧٣ خ) .

(٥) الذين ذهبوا بأن إما عاطفة استندوا إلى أن سيبويه ذكرها في حروف العطف (١/ ٢٢١) فحملوا كلامه على ظاهره واختلفوا في تأويله ففي شرح الكافية وقال الأندلسي إما الأولى مع الثانية حرف عطف ، والواو عاطفة لإما الثانية على إما الأولى نحو (جاء إما زيد وإما عمرو) حتى يصير الحرف واحد ، ثم تعطفان معاً ما بعد الثانية على ما بعد الأولى ، وهذا عذر بارد من وجوه ، لأن تقدم بعض العاطف على المعطوف =

وأنشدوا :

يَلْحقُهَـا إمَّـا شمـالٌ عَـرِيَّـةٌ وإما صَبَا جُنْحِ الْعَشِيِّ هبُوبُ[١]

وقال الزمخشري : وهي قراءة حسنة والمعنى (إما شاكراً) بتوفيقنا (وإما كفوراً) فبسوء اختياره انتهى . فجعلها (إما) التفصيلية المتضمنة معنى الشرط ولذلك تلقاها بفاء الجواب فصار كقول العرب : إما صديقاً فصديق . وانتصب (شاكراً) و (كفوراً) على الحال من ضمير النصب في (هـديناه) ، وقـال الزمخشري : ويجوز أن يكونـا حالـين من (السبيل) أي : عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً ، كقوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد ١٠] فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً . انتهى . ولما كان الشكر قل من يتصف به قال (شاكراً) ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء (كفوراً) بصيغة المبالغة ، ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد . وقرأ طلحة وعمرو بن عبيد وابن كثير وأبو عمرو وحمزة (سلاسل) ممنوع الصرف وقفاً ووصلاً . وقيل : عن حمزة وأبي عمر الوقف بالألف ، وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف ، واختلف عنهم في الوقف ، وكذا عن البزي وقرأ باقي السبعة بالتنوين وصلاً ، وبالألف المبدلة منه وقفاً ، وهي قراءة الأعمش . قيل : وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أفعل مِن وهي لغة الشعراء ثم كثر حتى جرى في كلامهم ، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا : « صواحبـات يوسف » ونواكسي الأبصار أشبه المفرد فجرى فيه الصرف ، وقال بعض الرجاز :

وَالصَّرْفُ فِي الْجَمْعِ أَتَى كَثِيرَا حَتَّى ادَّعَى قَوْمٌ بِهِ التَّخْيِيرَا[٢]

والصرف ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة وفي مصحف أبي وعبد الله وكذا (قوارير) ، وروى هشام عن ابن عامر (سلاسل) في الوصل (وسلاسلاً) بألف دون تنوين في الوقف ، وروي أن من العرب من يقول رأيت عمراً بالألف في الوقف (من كأس) (من) لابتداء الغاية (كان مزاجها كافوراً) ، قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك . وقيل : هو على التشبيه أي طيب رائحة وبرد كالكافور ، وقال الكلبي : (كافوراً) اسم عين في الجنة وصرفت لتوافق الآي . وقرأ عبد الله (قافوراً) بالقاف بدل الكاف ، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة كقولهم : عربي قح وكح ، و (عيناً) بدل من (كافوراً) ومفعولاً بـ (يشربون) أي ماء عين أو بدل من محل (من كأس) على حذف مضاف ، أي يشربون خمراً خمر عين أو نصب على الاختصاص ولما كانت الكأس مبدأ شربهم أتي بـ (من) وفي (يشرب بها) أي يمزج شرابهم بها أتي بالباء الدالة على الإلصاق . والمعنى يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول : شربت الماء بالعسل ، أو ضمن يشرب معنى يروى فعدي بالباء ، وقيل : زائدة ، والمعنى : يشرب بها. وقال الهذلي :

شَـرِبْنَ بِمَـاءِ الْبَحْـرِ ثُمَّ تَـرَفَّعَتْ مَتَى لُجَـجٍ خُضْـرٍ لَهُنَّ نَئِيـجُ[٣]

قيل : أي شربن ماء البحر . وقرأ ابن أبي عبلة (يشرَبُها) و (عباد الله) هنا هم المؤمنون (يفجرونها) يثقبونها بعود

= عليه ، وعطف بعض العاطف على بعضه وعطف الحرف على الحرف غير موجود في كلامهم ، فالحق أن الواو هي العاطفة ، وإما لأحد الشيئين غير عاطفة ، وعلى هذا الذي اختاره الرضي يونس وأبو علي ، وابن كيسان وابن عصفور . شرح الكافية (٢/٣٧٢ ـ ٣٩٨) .

(١) تقدم .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١٩٤) .

(٣) تقدم .

قصب ونحوه حيث شاؤوا فهي تجري عند كل واحد منهم هكذا ورد في الأثر . وقيل : هي عين في دار رسول الله ـ ﷺ ـ تنفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين . (يوفون بالنذر) في الدنيا وكانوا يخافون . وقال الزمخشري : (يوفون) جواب من عسى يقول ما لهم يرزقون ذلك . انتهى . فاستعمل عسى صلة لـ (من) وهو لا يجوز . وأتى بعد عسى بالمضارع غير مقرون بأن وهو قليل أو في شعر : والظاهر أن المراد بالنذر : ما هو المعهود في الشريعة أنه نذر . قال الأصم وتبعه الزمخشري : هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفي بما أوجبه هو على نفسه كان لما أوجبه الله تعالى عليه أوفى . وقيل (النذر) هنا عام لما أوجبه الله تعالى ، وما أوجبه العبد فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات (على حبه) أي على حب الطعام إذ هو محبوب للفاقة والحاجة ، قاله ابن عباس ومجاهد . أو على حب الله ، أي لوجهه وابتغاء مرضاته . قاله الفضيل بن عياض وأبو سليمان الداراني . والأول أمدح ، لأن فيه الإيثار على النفس ، وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر . وقال الحسن بن الفضل : على حب الطعام ، أي محبين في فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف . (مسكيناً) وهو الطواف المنكسر في السؤال (ويتيماً) هو الصبي الذي لا أب له (وأسيراً) والأسير معروف وهو من الكفار ، قاله قتادة . وقيل : من المسلمين تركوا في بلاد الكفار رهائن وخرجوا لطلب الفداء . وقال ابن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وقيل : وأسيراً استعارة وتشبيه . وقال مجاهد وابن جبير وعطاء : هو المسجون وقال أبو حمزة اليماني : هي الزوجة . وعن أبي سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون . وفي الحديث « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » . (إنما نطعمكم لوجه الله) هو على إضمار القول ، ويجوز أن يكون صرحوا به خطاباً للمذكورين منعاً منهم وعن المجازاة بمثله أو الشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق ، وهذا هو الظاهر . وقال مجاهد : إما أنهم ما تكلموا به ولكن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم به . (لا نريد منكم جزاء) أي : بالأفعال (ولا شكوراً) أي : ثناء بالأقوال . وهذه الآية قيل : نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً ظاهرة الاختلاف ، وفيها إشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوة ، وإشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم ظاهرها الاختلاف ، لسفساف ألفاظها ، وكسر أبياتها ، وسفاطة معانيها . (يوماً عبوساً) نسبة العبوس إلى اليوم مجاز . قال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه عرق كالقطران ، وقرأ الجمهور (فَوَقَّاهم) بخفة القاف ، وأبو جعفر بشدها (ولقاهم نضرة) بدل عبوس الكافر (وسروراً) فرحاً بدل حزنه ، لا تكاد تكون النظرة إلا مع فرح النفس وقرة العين وقرأ الجمهور (وجزاهم) وعليّ (وجازاهم) على وزن فاعل (جنة وحريراً) بستاناً فيه كل مأكل هنيء (وحريراً) فيه ملبس بهي . وناسب ذكر الحرير مع الجنة ، لأنهم أوثروا على الجوع والغذاء (لا يرون فيها) أي في الجنة (شمساً)أي حر شمس ولا شدة برد أي لا شمس فيها فترى فيؤذي حرها (ولا زمهريراً) يرى فيؤذي بشدته . أي هي معتدلة الهواء ، وفي الحديث : « هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر » . وقيل : لا يرون فيها شمساً ولا قمراً ، والزمهرير : في لغة طيىء القمر ، وقرأ الجمهور (ودانية) قال الزجاج : هو حال عطفاً على (متكئين) . وقال أيضاً : ويجوز أن يكون صفة للجنة فالمعنى وجزاهم جنة دانية . وقال الزمخشري ما معناه : إنها حال معطوفة على حال وهي (لا يرون) أي غير رائين ، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنوّ الظلال عليهم . وقرأ أبو حيوة (ودانيةٌ) بالرفع ، واستدل به الأخفش على جواز رفع اسم الفاعل من غير أن يعتمد ، نحو قولك : قائم الزيدون ، ولا حجة فيه ، لأن الأظهر أن يكون (ظلالها) مبتدأ (ودانية) خبر له ، وقرأ الأعمش (ودانياً عليهم) وهو كقوله ﴿ خاشعاً أبصارهم ﴾ [القمر ٧] وقرأ أبي (ودانٍ) مرفوع فهذا يمكن أن يستدل به الأخفش . (وذللت قطوفها) قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وإن قاعداً أو مضطجعاً فكذلك فهذا تذليلها لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك . فأما على قراءة الجمهور (ودانية) بالنصب كان (وذللت) معطوفاً على (دانية) لأنها في تقدير المفرد ، أي

ومذللة ، وعلى قراءة الرفع كان من عطف جملة فعلية على جملة اسمية . ويجوز أن تكون في موضع الحال ، أي وقد ذللت رفعت دانية أو نصبت . قوله عز وجل : ﴿ **ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً قوارير من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ، إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ، واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ، نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ، إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾ لما وصف تعالى طعامهم وسكناهم وهيئة جلوسهم ذكر شرابهم . وقدم ذكر الآنية التي يسقون منها ، والآنية : جمع إناء وتقدم شرح الأكواب . وقرأ نافع والكسائي (قواريراً قواريراً) بتنوينهما وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً . وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وحفص بمنع صرفهما ، وابن كثير بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني . وقال الزمخشري : وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفي الثاني لاتباعه الأول انتهى . وهذا قال في قراءة من قرأ ﴿ سلاسلاً ﴾ [الإنسان ٤] بالتنوين أنه بدل من حرف الإطلاق أجرى الفواصل مجرى أبيات الشعر ، فكما أنه يدخل التنوين في القوافي المطلقة إشعاراً بترك الترنم كما قال الراجز :

يَا صَاحِ مَا هَاجَ الدُّمُوعَ الذُّرَّفَنْ

فهذه النون بدل من الألف إذ لو ترنم لوقف بألف الإطلاق (من فضة) أي : مخلوقة من فضة ومعنى (كانت) أنه أوجدها تعالى من قوله ﴿ كن فيكون ﴾ [يس ٨٢] تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها ، وشفيف القوارير وصفائها ، ومن ذلك قوله ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ [الإنسان ٥] ، وقرأ الأعمش (قواريرُ من فضة) بالرفع ، أي هو قوارير . وقرأ الجمهور (قدَّروها) مبنياً للفاعل ، والضمير للملائكة ، أو للطواف عليهم ، أو المنعمين . والتقدير على قدر الأكف ، قاله الربيع . أو على قدر الري ، قاله مجاهد ، وقال الزمخشري : (قدروها) صفة لـ (قوارير من فضة) ومعنى تقديرهم لها : أنهم قدروها في أنفسهم على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروها ، وقيل : الضمير للطائفين بها يدل عليه قوله (ويطاف عليهم) على أنهم قدروا شرابها على قدر الري ، وهو ألذ الشراب ، لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ، ولا يعجز وعن مجاهد : لا يفيض ولا يغيض ، انتهى . وقرأ عليّ وابن عباس والسلمي والشعبي وابن أبزى وقتادة وزيد بن عليّ والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير وأبو حيوة وعباس عن أبان والأصمعي عن أبي عمرو وابن عبد الخالق عن يعقوب (قُدِّرُوها) مبنياً للمفعول ، قال أبو علي : كأن اللفظ قدروا عليها وفي المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم ، فهي مثل قوله ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ [القصص ٧٦] ومثل قول العرب « إذا طلعت الجوزاء ألقي العود على الحرباء » . وقال الزمخشري : ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر تقول : قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادراً عليه ، ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاءوا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا . انتهى . وقال أبو حاتم : قدرت الأواني على قدر ريهم ففسر بعضهم قول أبي حاتم قال فيه حذف على حذف وهو أنه قدر على قدر ريهم إياها ثم حذف على فصار قدر ريهم مفعول لم يسم فاعله ثم حذف قدر فصار ريهم قائماً مقامه ثم حذف الري فصارت الواو مكان الهاء والميم لما حذف المضاف مما قبلها وصارت الواو

مفعول ما لم يسم فاعله واتصل ضمير المفعول الثاني في تقدر النصب بالفعل بعد الواو التي تحولت من الهاء والميم حتى أقيمت مقام الفاعل . انتهى . والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة : أن يكون الأصل : « قدر ربهم منها تقديراً » فحذف المضاف وهو الذي وأقيم الضمير مقامه ، فصار التقدير : قدروا منها ، ثم اتسع في الفعل فحذفت من ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه ، فصار : قدّروها فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتساع في المجرور . والظاهر أن الكأس تمزج بالزنجبيل ، والعرب تستلذه ، وتذكره في وصف رضاب أفواه النساء كما أنشدنا لهم في الكلام على المفردات . وقال الزمخشري : تسمى العين زنجبيلاً ، لطعم الزنجبيل فيها انتهى . وقال قتادة الزنجبيل : اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً يمزج لسائر أهل الجنة[١] وقال الكلبي : يسقى بجامين ، الأول مزاجه الكافور ، والثاني مزاجه الزنجبيل . و (عيناً) بدل من (كأس) على حذف . أي كأس عين أو من زنجبيل على قول قتادة . وقيل : منصوب على الاختصاص ، والظاهر أن هذه العين تسمى سلسبيلاً بمعنى توصف بأنها سلسلة في الاتساع ، سهلة في المذاق . ولا يحمل سلسبيل على أنه اسم حقيقة لأنه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية ، وقد روي عن طلحة أنه قرأه بغير ألف جعله علماً لها ، فإن كان علماً فوجه قراءة الجمهور بالتنوين ، المناسبة للفواصل كما قال ذلك بعضهم في (سلاسلاً) و (قواريراً) ويحسن ذلك أنه لغة لبعض العرب ، أعني صرف ما لا يصرفه أكثر العرب . وقال الزمخشري : وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . انتهى . وكان قد ذكر فقال : شراب سلسل وسلسال وسلسيل ، فإن كان عنى أنه زيد حقيقة فليس بجيد ، لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة في علم النحو ، وإن عنى أنها حرف جاء في سنخ الكلمة وليس في سلسيل ولا في سلسال فيصح ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة . وقال بعض المعربين (سلسبيلاً) أمر للنبي ـ ﷺ ـ ولأمته بسؤال السبيل إليها وقد نسبوا هذا القول إلى علي كرم الله وجهه ويجب طرحه من كتب التفسير . وأعجب من ذلك توجيه الزمخشري له واشتغاله بحكايته ويذكر نسبته إلى عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه . وقال قتادة : هي عين تنبع من تحت العرش من جنة عدن إلى الجنان[٢] ، وقال عكرمة : عين سلس ماؤها[٣] وقال مجاهد : عين حديرة الجرية سلسة سهلة المساغ[٤] وقال مقاتل : عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا . وتقدّم شرح (مخلدون) وتشبيه الولدان باللؤلؤ المنثور في بياضهم ، وصفاء ألوانهم ، وانتشارهم في المساكن في خدمة أهل الجنة ، يجيئون ويذهبون . وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه ، فإنه أحسن في العين ، وأبهج للنفس وجواب (إذا رأيت) نعيماً ومفعول فعل الشرط محذوف حذف اقتصاراً . والمعنى إذا رميت ببصرك هنا و (ثَمَّ) ظرف العامل فيه (رأيت) ، وقيل : التقدير : وإذا رأيت ما ثم فحذف ما كما حذف في قوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام ٩٤] أي : ما بينكم ، وقال الزجاج : وتبعه الزمخشري ، فقال : ومن قال معناه ما ثم فقد أخطأ ، لأن (ثَمَّ) صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة . انتهى . وليس بخطأ مجمع عليه ، بل قد أجاز ذلك الكوفيون ، وثم شواهد من لسان العرب كقوله :

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ[٥]

أي : ومن يمدحه فحذف الموصول وأبقى صلته . وقال ابن عطية : و (ثم) ظرف العامل فيه (رأيت) أو معناه

---

(١) انظر القرطبي (٦٩٣٣/٩) والبغوي (٤٣٠/٤) والوسيط (١٧٣ خ) .
(٢) انظر القرطبي (٩٣/١٩) .
(٣) انظر القرطبي (٩٣/١٩) .
(٤) انظر القرطبي (٩٣/١٩) .
(٥) تقدم .

التقدير رأيت ما ثم حذفت ما . انتهى . وهذا فاسد ، لأنه من حيث جعله معمولاً لـ (رأيت) لا يكون صلة لما ، لأن العامل فيه إذ ذاك محذوف ، أي : ما استقر ثم . وقرأ الجمهو (ثَمَّ) بفتح الثاء . وحميد الأعرج (ثُمَّ) بضم التاء حرف عطف ، وجواب (إذا) على هذا محذوف . أي : وإذا رميت ببصرك رأيت نعيماً ، والملك الكبير : قيل : النظر إلى الله تعالى . وقال السدّي استئذان الملائكة عليهم[1] . وقال أكثر المفسرين : الملك الكبير : اتساع مواضعهم[2] . وقال الكلبي : كبيراً عريضاً يبصر أدناهم منزله في الجنة مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه[3] . وقال عبد الله بن عمرو قال : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه . وقال الترمذي : وأظنه الترمذي الحكيم لا أبا عيسى الحافظ صاحب الجامع : هو ملك التكوين والمشيئة إذا أراد شيئاً كان لقوله تعالى ﴿ لهم ما يشاءون فيها ﴾ [ق ٣٥] ، وقيل غير هذه الأقوال . وقرأ عمر وابن عباس والحسن ومجاهد والجحدري وأهل مكة وجمهور السبعة (عالِيَهُمْ) بفتح الياء . وابن عباس بخلاف عنه والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن ونافع وحمزة بسكونها . وهي رواية أبان عن عاصم . وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة وزيد بن عليّ مضمومة وعن الأعمش وأبان عن عاصم بفتح الياء . وقرأ (عَلَيْهِم) حرف جر ابن سيرين ومجاهد وقتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وأبان أيضاً وقرأت عائشة رضي الله عنها (عَلَتْهم) بتاء التأنيث فعلاً ماضياً فـ (ثياب) فاعل ، ومن قرأ بالياء مضمومة فمبتدأ خبره (ثياب) ومن قرأ (عَلَيْهِم) حرف جر فـ (ثياب) مبتدأ ، ومن قرأ بنصب الياء وبالتاء ساكنة فعلى الحال ، وهو حال من المجرور في (ويطوف عليهم) فذو الحال الطوف عليهم والعامل (يطوف) ، وقال الزمخشري : و (عاليهم) بالنصب على أنه حال من الضمير في (يطوف عليهم) أو في (حسبتهم) أي يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب أو حسبتهم (لؤلؤاً) عالياً لهم ثياب . ويجوز أن يراد رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب . انتهى . إما أن يكون حالاً من الضمير في (حسبتهم) فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول وهذا عائد على (ولدان) ولذلك قدر (عاليهم) بقوله عالياً لهم أي للولدان وهذا لا يصح لأن الضمائر الآتية بعد ذلك على أنها للمطوف عليهم من قوله (وحلوا وسقاهم) و (إن هذا كان لكم جزاء) وفك الضمائر يجعل هذا كذا وذاك كذا مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك لا يجوز ، وأما جعله حالاً من محذوف وتقديره : أهل نعيم ، فلا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف . و (ثياب) مرفوع على الفاعلية بالحال . وقال ابن عطية : ويجوز في النصب في القراءتين أن يكون على الظرف ، لأنه بمعنى فوقهم . انتهى . و (عال) وعالية ، اسم فاعل فيحتاج في إثبات كونها ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب عاليك أو عاليتك ثوب . وقرأ الجمهور (ثيابُ) بغير تنوين على الإضافة إلى (سندس) وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة (عليهم ثياب سندسٌ خضرٌ وإستبرقٌ) برفع الثلاثة برفع سندسٌ بالصفة ، لأنه جنس ، كما تقول : ثوب حرير تريد من حرير ، وبرفع خضر بالصفة أيضاً ، لأن الخضرة لونها ورفع إستبرقٌ بالعطف عليها ، وهو صفة أقيمت مقام الموصوف ، تقديره : وثياب استبرق ، أي من إستبرق . وقرأ الحسن وعيسى ونافع وحفص (خضرٌ) برفعهما ، وقرأ العربيان ونافع في رواية (خضرٌ) بالرفع صفة لـ (ثياب) و (استبرقٍ) جر عطفاً على (سندسٍ) ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بجر (خضرٍ) صفة لـ (سندسٍ) ورفع (إستبرق) عطفاً على (ثياب) ، وقرأ الأعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو بخلاف عنهما وحمزة والكسائي ووصف اسم الجنس الذي بينه وبين واحده تاء التأنيث والجمع جائز فصيح ، كقوله تعالى ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ [الرعد ١٢] وقال ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق ١٠] فجعل الحال جمعاً وإذا كانوا قد جمعوا صفة اسم الجنس

---

(١) انظر القرطبي (١٩/٩٣) والبغوي (٤/٤٣٠) .

(٢) انظر المصدرين السابقين .

(٣) انظر المصدرين السابقين .

الذي ليس بينه وبين واحده تاء التأنيث المحكي بأل بالجمع كقولهم : « أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض » حيث جمع وصفهما ليس بسديد ، بل هو جائز أورده النحاة مورد الجواز بلا قبح ، وقرأ ابن محيصن (واستبرق) وتقدّم ذلك والكلام عليه في الكهف ، وقال الزمخشري هنا وقرىء (واستبرق) نصباً في وضع الجر على منع الصرف، لأنه أعجمي وهو غلط ، لأنه نكرة يدخله حرف التعريف تقول الاستبرق إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب وقرىء (واستبرق) بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمى بـ (استفعل) من البريق وليس بصحيح ، أيضاً ، لأنه معرف مشهور تعريفه وأن أصله استبره . انتهى . ودل قوله إلا أن يزعم ابن محيصن . وقوله بعد وقرىء واستبرق بوصل الألف والفتح ، أنّ قراءة ابن محيصن هي بقطع الهمزة مع فتح القاف والمنقول عنه في كتب القراءات أنه قرأ بوصل الألف وفتح القاف . وقال أبو حاتم : لا يجوز والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه والصواب قطع الألف واجراؤه على قراءة الجماعة ، انتهى . ونقول : إن ابن محيصن قارىء جليل مشهور بمعرفة العربية ، وقد أخذ عن أكابر العلماء ويتطلب لقراءته وجه ، وذلك أنه يجعل استفعل من البريق ، تقول : برق واستبرق كعجب واستعجب . ولما كان قوله (خُضْر) يدل على الخضرة ، وهي لون ذلك السندس وكانت الخضرة مما يكون فيها لشدتها دهمة وغبش أخبر أن في ذلك اللون بريقاً وحسناً يزيل غبشته فـ (استبرق) فعل ماض والضمير فيه عائد على السندس ، أو على الاخضرار الدال عليه قوله (خضر) وهذا التخريج أولى من تلحين من يعرف العربية وتوهيم ضابط ثقة (أساوِرَ مِنْ فضة) وفي موضع آخر (من ذهب) أي يحلون منهما على التعاقب أو على الجمع بينهما كما يقع للنساء في الدنيا . قال الزمخشري : وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران سوار من ذهب وسوار من فضة . انتهى . فقوله بالمعصم إما أن يكون مفعول أحسن ، وإما أن يكون بدلاً منه ، وإمّا أن يكون مفعول أحسن ، وقد فصل بينهما بالجار والمجرور . فإن كان الأول فلا يجوز ، لأنه لم يعهد زيادة الباء في مفعول أفعل للتعجب ، لا تقول : ما أحسن بزيد . تريد ما أحسن زيداً ، وإن كان الثاني ففي مثل هذا الفصل خلاف والمنقول عن سيبويه أنه لا يجوز . والمولد منا إذا تكلم ينبغي أن يتحرز في كلامه عما فيه الخلاف (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) (طهور) صفة مبالغة في الطهارة وهي من فَعُل لازم ، وطهارتها بكونها لم يؤمر باجتنابها ، وليست كخمر الدنيا التي هي في الشرع رجس ، أو لكونها لم تدس برجل دنسة ، ولم تمس بيد وضرة ولم توضع في إناء لم يعن بتنظيفه ، ذكره بأبسط من هذا الزمخشري ، ثم قال : أو لأنه لا يؤول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك . انتهى . وهذا الآخر قاله أبو قلابة والنخعيّ وإبراهيم التيمي قالوا : لا تنقلب إلى البول ، بل تكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك ، (إن هذا) أي النعيم السرمدي (كان لكم جزاء) أي : لأعمالكم الصالحة (وكان سعيكم مشكوراً) أي مقبولاً مثاباً ، قال قتادة : لقد شكر الله سعياً قليلاً وهذا على إضمار يقال لهم ، وهذا القول لهم هو على سبيل التهنئة والسرور لهم بضد ما يقال للمعاقب إن هذا بعملك الردىء فيزداد غماً وحزناً ، ولما ذكر أولاً حال الإنسان وقسمه إلى العاصي والطائع ذكر ما شرف به نبيه محمد ـ ﷺ ـ فقال (إنا نحن نزلنا عليك القرآن) وأمره بالصبر بحكمه وجاء التوكيد بـ (إن) لمضمون الخبر ومدلول المخبر عنه وأكد الفعل بالمصدر ، (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) قتال قتادة : « نزلت في أبي جهل ، قال إن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه ، فأنزل الله تعالى (ولا تطع) الآية والنهي عن طاعة كل واحد منهما أبلغ من النهي عن طاعتهما ، لأنه يستلزم النهي عن أحدهما ، لأن في طاعتهما طاعة أحدهما ، ولو قال : لا تضرب زيداً وعمراً لجاز أن يكون نهياً عن ضربهما جميعاً لا عن ضرب أحدهما . وقال أبو عبيدة (أو) بمعنى الواو والكفور وإن كان آثماً فإن فيه مبالغة في الكفر . ولما كان وصف الكفور مبايناً للموصوف لمجرّد الإثم صلح التغاير فحسن العطف . وقيل : الآثم عتبة ، والكفور : الوليد ، عتبة كان ركّاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق ، وكان الوليد غالباً في الكفر شديد الشكيمة في العتوّ . (واذكر اسم ربك بكرة) يعني صلاة الصبح (وأصيلاً) الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب

والعشاء ، وقال ابن زيد وغيره : كان ذلك فرضاً ونسخ فلا فرض إلا الخمس . وقال قوم : هو محكم على وجه الندب . (إن هؤلاء) إشارة إلى الكفرة ، (يحبون العاجلة) يؤثرونها على الدنيا ، (ويذرون وراءهم) أي أمامهم وهو ما يستقبلون من الزمان ، (يوماً ثقيلاً) استعير الثقل لليوم لشدته وهوله من ثقل الجرم الذي يتعب حامله وتقدم شرح الأسر في سورة القتال (وإذا شئنا) أي تبديل أمثالهم بإهلاكهم (بدلنا أمثالهم) ممن يطيع . وقال الزمخشري : وحقه أي يجيء بـ (إن) لا بـ (إذا) كقوله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ [محمد ٣٨] ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ [الأنعام ١٣٣] انتهى . يعني أنهم قالوا : إن إذا للمحقق وإن للممكن وهو تعالى لم يشأ لكنه قد توضع إذا موضع إن وإن موضع إذا كقوله ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء ٣٤] (إن هذه) أي السورة ، أو آيات القرآن ، أو جملة الشريعة ، ليس على جهة التخيير بل على جهة التحذير من اتخاذ غير سبيل الله . وقال الزمخشري : لمن شاء ممن اختار الخير لنفسه والعاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة . (وما تشاءون) الطاعة (إلا أن يشاء الله) يقسرهم عليها . (إن الله كان عليماً) بأحوالهم وما يكون منهم (حكيماً) حيث خلقهم مع علمه بهم . انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال ، وقرأ العربيان وابن كثير (وما يشاءون) بياء الغيبة ، وباقي السبعة بتاء الخطاب . ومذهب أهل السنة أنه نفي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في أنفسهم ولا يرد هذا وجود ما لهم من الاكتساب ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما محل (أن يشاء الله) ؟ (قلت :) النصب على الظرف ، وأصله إلا وقت مشيئة الله وكذلك قرأ ابن مسعود إلا ما يشاء الله لأن (ما) مع الفعل كان معه . انتهى . ونصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر المصرح به ، كقولك : أجيئك صياح الديك . ولا يجيزون : أجيئك أن يصيح الديك ، ولا ما يصيح الديك . فعلى هذا لا يجوز ما قاله الزمخشري (يدخل من يشاء في رحمته) وهم المؤمنون . وقرأ الجمهور (والظالمين) نصباً بإضمار فعل يفسره قوله (أعدّ لهم) وتقديره : ويعذب الظالمين . وهو من باب الاشتغال ، جملة عطف فعلية على جملة فعلية . وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة (والظالمون) عطف جملة اسمية على فعلية ، وهو جائز حسن . وقرأ عبد الله (وللظالمين) بلام الجر ، وهو متعلق بـ (أعد لهم) توكيداً ، ولا يجوز أن يكون من باب الاشتغال ويقدر فعل يفسره الفعل الذي بعده ، فيكون التقدير ، وأعد للظالمين أعدّ لهم . وهذا مذهب الجمهور ، وفيه خلاف ضعيف مذكور في النحو . فتقول بزيد مررت به ويكون التقدير مررت بزيد مررت به ويكون من باب الاشتغال والمحفوظ المعروف عن العرب نصب الاسم وتفسير مررت المتأخر وما أشبهه من جهة المعنى فعلاً ماضياً .

سورة المرسلات مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

فرجت الشيء : فتحته فانفرج . قال الراجز :

الْفَارِجُو بَابِ الأَمِيرِ الْمُبْهَمِ

كفت : ضم وجمع . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ، « اكفتوا صبيانكم » ومنه قيل لبقيع الغرقد كفت وكفته والكفات : اسم لما يكفت كالضمام والجماع يقال هذا الباب جماع الأبواب ، وقال الصمصامة بن الطرماح :

فَـأَنْـتَ الْـيَـوْمَ فَـوْقَ الأَرْضِ حَـيٌّ   وَأَنْتَ غَـداً تَضُـمُّـكَ فِي كِـفَـاتِ[1]

وقال أبو عبيدة : الكفات الوعاء . شمخ : ارتفع ، الشرر : ما تطاير من النار متبدّداً في كل جهة ، واحده شررة . ولغة تميم شرار بالألف واحده شرارة . القصر . الدار الكبيرة المشيدة . والقصر : قطع من الخشب قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشتاء واحده قصرة ، والقصر : بفتح الصاد أعناق الإبل والنخل والناس واحده قصرة وبكسر القاف وفتح الصاد جمع قِصْرة كحلقة من الحديد وحلق والله تعالى أعلم ﴿ **والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشراً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً ، إنما توعدون لواقع ، فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمكذّبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ، ويل يومئذ للمكذّبين** ﴾ .

هذه السورة مكية : وحكى عن ابن عباس وقتادة ومقاتل أن فيها آية مدنية وهي ﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** ﴾ [المرسلات ٤٨] . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة جدّاً ، وهو أنه تعالى يرحم من يشاء ويعذب الظالمين فهذا وعد منه صادق فأقسم على وقوعه في هذه ، فقال (إنما توعدون لواقع) ولما كان المقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تعيين تلك الموصوفات ، فقال ابن مسعود وأبو هريرة وأبو صالح ومقاتل والفرّاء (والمرسلات) الملائكة أرسلت بالعرف ضد النكر ، وهو الوحي فبالتعاقب على العباد طرفي النهار . وقال ابن عباس وجماعة : الأنبياء ومعنى (عرفاً) إفضالاً من الله تعالى على عباده ، ومنه قول الشاعر :

لَا يَذْهَبِ العُرْفُ بَيْنَ اللّهِ والنَّاس

وانتصابه على أنه مفعول له ، أي أرسلن للإحسان والمعروف ، أو متتابعة تشبيهاً بعرف الفرس في تتابع شعره وأعراف الخيل ، وتقول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد . إذا توجهوا إليه متتابعين ، وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه وانتصابه على الحال . وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرّياح[2] . وقال الحسن : السحاب . وقرأ الجمهور (عرْفاً) بسكون الراء وعيسى بضمها ، (فالعاصفات) قال ابن مسعود : الشديدات الهبوب . وقيل : الملائكة تعصف بأرواح الكفار أي تزعجها بشدّة أو تعصف في مضيها كما تعصف الرّياح تحققاً في امتثال أمره . وقيل : هي الآيات المهلكة كالزلازل والصواعق والخسوف . (والناشرات) قال السدّي وأبو صالح ومقاتل : الملائكة تنشر صحف العباد بالأعمال . وقال الربيع : الملائكة تنشر الناس من قبورهم . وقال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة : الرّياح رحمة الله ومطره . وقال أبو صالح الأمطار : تحيي الأرض بالنبات ، وقال الضحاك : الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد . فعلى هذا تكون الناشرات على معنى النسب ، أي ذات النشر . (فالفارقات) قال ابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد والضحاك : الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقال قتادة والحسن وابن كيسان : آيات القرآن فرقت بين الحلال والحرام . وقال مجاهد أيضاً : الرّياح تفرق بين السحاب فتبدّده . وقيل : الرسل حكاه الزجاج . وقيل : السحاب الماطر تشبيهاً بالناقة الفاروق وهي الحامل التي تجزع حين تضع . وقيل : العقول تفرق بين الحق والباطل

---

(١) البيت من الوافر انظر فتح القدير (٣٥٨/٥) .

(٢) انظر الوسيط (١٧٦ خ) والقرطبي (٦٩٤٦/٩) والبغوي (٤٣٢/٤) وزاد المسير (٤٤٦/٨) .

والصحيح والفاسد . (فالملقيات ذكراً) قال ابن عباس وقتادة والجمهور : الملائكة تلقي ما حملت من الوحي إلى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وقال قطرب : الرسل تلقي ما أنزل عليها إلى الأمم . وقال الرّبيع : آيات القرآن ألقيت على النبي ـ ﷺ ـ . واختار الزمخشري من الأقوال أن تكون (والمرسلات) إلى آخر الأوصاف إما للملائكة ، وإما للرِّياح ، فللملائكة تكون (عذراً) للمحققين (أو نذراً) للمبطلين ، وللرّياح يكون المعنى فالقين (ذكراً) إما (عذراً) للذين يعتذرون إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها وإما إنذاراً للذين يغفلون عن الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء، وجعلن ملقيات للذكر ، لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت ، قال الزمخشري : والذي أراه أن المقسم به شيئان ولذلك جاء العطف بالواو في (والناشرات) والعطف بالواو يشعر بالتغاير ، بل هو موضوعه في لسان العرب . وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات فيدل على أنها راجعة إلى العاديات : وهي الخيل . وكقوله :

يَا لَهْفَ زَيَابَـةَ لِلْحَارِثِ فَـالصَّا ـبِحِ فَـالْـغَـانِـمِ فَـالآيِـبِ[1]

فهذه راجعة لموصوف واحد وهو الحارث فإذا تقرر هذا ، فالظاهر : انه أقسم أولاً بالرياح فهي مرسلاته تعالى ، ويدل عليه عطف الصفة بالفاء كما قلنا وأن العصف من صفات الريح في عدّة مواضع من القرآن . والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ويكون (فالفارقات) (فالملقيات) من صفاتهم كما قلنا في عطف الصفات ، وإلقاؤهم الذكر وهو ما أنزل الله يصح إسناده إليهم وقرأ الجمهور (فالْمُلْقِيَات) اسم فاعل خفيف ، أي نطرقه إليهم وابن عباس مشدد من التلقية ، وهي أيضاً إيصال الكلام إلى المخاطب ، يقال : لقيته الذكر فتلقاه . وقرأ أيضاً ابن عباس فيما ذكر المهدوي بفتح اللام والقاف مشددة اسم مفعول ، أي : تلقته من قبل الله تعالى . وقرأ إبراهيم التيمي والنحويان وحفص (عُذْراً أو نُذْراً) بسكون الذالين . وزيد بن ثابت وابن خارجة وطلحة وأبو جعفر وأبو حيوة وعيسى والحسن بخلاف والأعشى عن أبي بكر بضمهما وأبو جعفر أيضاً وشيبة وزيد بن علي والحرميان وابن عامر وأبو بكر بسكونها في (عذراً) وضمها في (نُذُراً) فالسكون على أنهما مصدران مفردان ، أو مصدران جمعان فـ (عذراً) جمع عذير بمعنى المعذرة و (نذراً) جمع نذير بمعنى الإنذار وانتصابهما على البدل من (ذكراً) كأنه قيل : فالملقيات عذراً أو نذراً ، أو على المفعول من أجله ، أو على أنهما مصدران في موضع الحال ، أي : عاذرين أو منذرين . ويجوز مع الإسكان أن يكونا جمعين على ما قررناه . وقيل : يصح انتصاب (عذراً أو نذراً) على المفعول به بالمصدر الذي هو ذكراً ، أي : فالملقيات أي فذكروا عذراً ، وفيه بعد ، لأن المصدر هنا لا يراد به العمل إنما يراد به الحقيقة لقوله (أألقي الذكر عليه) ق ٢٥ والإعذار هي بقيام الحجة على الخلق والإنذار هو بالعذاب والنقمة . (إنما توعدون) أي من الجزاء بالثواب والعقاب (لواقع) و (ما) موصولة وإن كانت قد كتبت موصولة بـ (إنّ) وهذه الجملة هي المقسم عليها . وقرأ الجمهور (أو نذراً) بواو التفصيل ، وإبراهيم التيمي (ونذراً) بواو العطف (فإذا النجوم طمست) أي : أذهب نورها فاستوت مع جرم السماء ، أو عبر عن إلحاق ذواتها بالطمس وهو انتثارها وانكدارها ، أو أذهب نورها ثم انتثرت ممحوقة النور . (وإذا السماء فرجت) أي : صار فيها فروج بانفطار . وقرأ عمرو بن ميمون (طمِّست) (فرِّجت) بشد الميم والراء . والجمهور بخفيفهما (وإذا الجبال نسفت) أي فرقتها الرياح وذلك بعد التسيير وقبل كونها هباء . وقرأ الجمهور (أُقِّتت) بالهمز وشد القاف . وبتخفيف القاف والهمز النخعي والحسن وعيسى وخالد . وقرأ أبو الأشهب وعمرو بن عبيد وعيسى أيضاً وأبو عمرو بالواو وشد القاف . قال عيسى : وهي لغة سفلى مضر وعبد الله والحسن وأبو جعفر بواو واحدة وخف القاف والحسن أيضاً . وقتت

---

(١) تقدم .

بواوين على وزن فوعلت والمعنى : جعل لها وقت منتظر فحان وجاء أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، والواو في هذا كله أصل والهمزة بدل . قال الزمخشري : ومعنى توقيت الرسل : تبيين وقتها الذي يحضرون فيها للشهادة على أممهم وجواب (إذا) محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وتقديره : إذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون . (لأي يوم أجلت) تعظيم لذلك اليوم ، وتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة والتأجيل : من الأجل أي ليوم عظيم أخرت (ليوم الفصل) أي بين الخلائق ، (ويل) تقدم الكلام فيه في أول ثاني حزب من سورة البقرة (يومئذ) يوم إذ طمست النجوم وكان ما بعدها ، وقرأ الجمهور (نُهلك الأولين) بضم النون وقتادة بفتحها . قال الزمخشري : من هلكه بمعنى أهلكه . قال العجاج :

وَمَهْمَهٍ هَالِكِ مَنْ تَعَرَّجَا[1]

انتهى . وخرج بعضهم . هالك من تعرجا

على أن هالكاً هو من اللازم ومَنْ موصول فاستدل به على أن الصفة المشبهة باسم الفاعل قد يكون معمولها موصولاً . وقرأ الجمهور (نتبعُهم) بضم العين على الاستئناف ، وهو وعد لأهل مكة ويقوي الاستئناف قراءة عبد الله (ثم سَنُتبعُهم) بسين الاستقبال . والأعرج والعباس عن أبي عمرو بإسكانها ، فاحتمل أن يكون معطوفاً على (نهلك) واحتمل أن يكون سكن تخفيفاً كما سكن ﴿ وما يشعركم ﴾ [الأنعام ١٠٩] فهو استئناف فعلى الاستئناف يكون (الأولين) الأمم التي تقدمت قريشاً أجمع ويكون (الآخرين) من تأخر من قريش وغيرهم ، وعلى التشريك يكون (الأولين) قوم نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ ومن كان معهم و (الآخرين) قوم فرعون ومن تأخر وقرب من مدة رسول الله ـ ﷺ ـ والإهلاك هنا : إهلاك العذاب والنكال ولذلك جاء (كذلك نفعل بالمجرمين) فأتى بالصفة المقتضية لإهلاك العذاب وهي الإجرام ، ولما ذكر إفناء الأولين والآخرين ذكر ووقف على أصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث (من ماء مهين) أي ضعيف هو مني الرجل والمرأة (في قرار مكين) وهو الرحم (إلى قدر معلوم) أي عند الله تعالى وهو وقت الولادة ، وقرأ عليّ بن أبي طالب (فقدَّرنا) بشد الدال من التقدير كما قال ﴿ من نطفة خلقه فقدَّره ﴾ [عبس ١٩] وباقي السبعة بخفها من القدرة . وانتصب (أحياء وأمواتاً) بفعل يدل عليه ما قبله . أي يكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها . واستدل بهذا من قال إن النباش يقطع لأن بطن الأرض حرز للكفن فإذا نبش وأخذ منه فهو سارق ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى نكفتكم أحياء وأمواتاً فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس . انتهى . و (رواسي) جبالاً ثابتات شامخات مرتفعات ، ومنه شمخ بأنفه : ارتفع شبه المعنى بالجرم (وأسقيناكم) جعلناه سقياً لمزارعكم ومنافعكم ﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب إنها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالت صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فإن كان لكم كيد فكيدون ، ويل يومئذ للمكذبين ، إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون، إنا كذلك نجزي المحسنين ، ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ، ويل يومئذ للمكذبين ، وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ يقال للمكذبين (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) أي من العذاب (انطلقوا إلى ظل) أمر قراءة الجمهور تكراراً أو بياناً للمنطلق إليه .وقرأ رويس عن يعقوب بفتح

---

(١) رجز بعده (هائلة أهواله من أدلجا) انظر اللسان (هلك) روح المعاني (٢٩/ ٢٢٠) الكشاف (٤/ ٦٧٩) .

اللام على معنى الخبر ، كأنهم لما أمروا امتثلوا فانطلقوا إذ لا يمكنهم التأخير إذ صاروا مضطرين إلى الانطلاق (ذي ثلاث شعب) ، قال عطاء : هو دخان جهنم[١] . وروي : « أنه يعلو من ثلاثة مواضع يظن الكفار أنه مغن من النار فيهرعون إليه فيجدونه على أسوإ وصف » . وقال ابن عباس : يقال ذلك لعبدة الصليب ، فالمؤمنون في ظل الله عز وجل وهم في ظل معبودهم ، وهو الصليب له ثلاث شعب ، والشعب : ما تفرق من جسم واحد ، (لا ظليل) نفي لمحاسن الظل (ولا يغني) أي ولا يغني عنهم من حر (اللهب) شيئاً ، (إنها ترمي بشرر) الضمير في (إنها) لجهنم ، وقرأ الجمهور (بشرر) وعيسى (بشرار) بألف بين الراءين . وابن عباس وابن مقسم كذلك إلا أنه كسر الشين ، فاحتمل أن يكون جمع شرر أي بشرار من العذاب ، وأن يكون صفة أقيمت مقام موصوفها ، أي : بشرار من الناس كما تقول : قوم شرار جمع شر غير أفعل التفضيل ، وقوم خيار جمع خير غير أفعل التفضيل ، ويؤنث هذا فيقال للمؤنث شرة وخيرة بخلافهما إذا كانا للتفضيل فلهما أحكام مذكورة في النحو . وقرأ الجمهور (كالقصر) وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحسن وابن مقسم بفتح القاف والصاد . وابن جبير أيضاً والحسن أيضاً (كالقِصَرِ) بكسر القاف وفتح الصاد . وبعض القراء بفتح القاف وكسر الصاد . وابن مسعود بضمهما كأنه مقصور من القصور كما قصروا النجم والنمر من النجوم والنمور قال الراجز :

فيها عَنَابِيل أسودٌ ونُمر

وتقدم شرح أكثر هذه القراءات في المفردات . وقرأ الجمهور ومنهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ (جمالات) بكسر الجيم وبالألف والتاء جمع جمال جمع الجمع ، وهي الإبل كقولهم رجالات قريش ، وابن عباس وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء بخلاف عنهم كذلك إلا أنهم ضموا الجيم ، وهي جمال السفن الواحد منها جملة لكونه جملة من الطاقات والقوى ، ثم جمع على جمل وجمال ثم جمع جمال ثانياً جمع صحة فقالوا جمالات . وقيل : الجمالات : قلوص الجسور . وقرأ حمزة والكسائي وحفص وأبو عمرو في رواية الأصمعي وهارون عنه (جِمَالَة) بكسر الجيم لحقت جمالاً التاء ، لتأنيث الجمع كحجر وحجارة . وقرأ ابن عباس والسلمي والأعمش وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ورويس كذلك إلا أنهم ضموا الجيم . قال ابن عباس وابن جبير : الجمالات : قلوص السفن وهي حباله العظام إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام[٢] . وقال ابن عباس أيضاً : الجمالات : قطع النحاس الكبار وكأن اشتقاق هذه من اسم الجملة . وقرأ الحسن (صُفُرٌ) بضم الفاء . والجمهور بإسكانها ، شبه الشرر أولاً بالقصر وهو الصحن . من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء وثانياً بالجمال ، لبيان التشبيه . ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان وهي القصور ، قال الشاعر :

فَـوَقَفْتُ فِيهَـا نَـاقَـتِي فَكَـأَنَّهَـا ... فَـدَنٌ لأَقْضَى حَـاجَـةِ الْمُتَلَوِّمِ[٣]

ومن قرأ بضم الجيم ، فالتشبيه من جهة العظم والطول والصفرة الفاقعة أشبه بلون الشرر ، قاله الجمهور ، وقيل : صفر سود . وقيل : سود تضرب إلى الصفرة . وقال عمران بن حطان الرقاشي :

دَعَتْهُمْ بِـأَعْلَى صَـوْتِهَـا وَرَمَتْهُـمُ ... بِمِثْلِ الْجِمَالِ الصُّفْرِ نَزَّاعَة الشَّوَى[٤]

---

(١) انظر الوسيط (١٧٧ خ) والقرطبي (١٩/١٠٦) .

(٢) انظر القرطبي (١٩/١٠٧) .

(٣) البيت من الكامل من معلقة عنترة بن شداد شرح المعلقات (١٠٨) روح المعاني (٢٩/٢٢٣) .

(٤) البيت من الطويل انظر الكشاف (٤/٦٨١) ، القرطبي (١٩/١٠٧) .

وقرأ الأعمش والأعرج وزيد بن علي وعيسى وأبو حيوة وعاصم في رواية (هذا يومَ لا ينطقون) بفتح الميم . والجمهور برفعها . قال ابن عطية : لما أضاف إلى غير متمكن بناه فهي فتحة بناء وهي في موضع رفع . وقال صاحب اللوامح : قال عيسى هي لغة سفلى مضر يعني بناءهم (يوم) مع (لا) على الفتح ، لأنهم جعلوا يوم مع لا كالاسم الواحد فهو في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ . انتهى . والجملة المصدرة بمضارع مثبت أو منفي لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجه وإنما هذا مذهب كوفي . قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نصباً صحيحاً على الظرف فيصير هذا إشارة إلى ما تقدمه من الكلام دون إشارة إلى (يوم) ويكون العامل في نصب (يوم) نداء تقدمه من صفة جهنم . ورميها بالشرر في يوم لا ينطقون فيكون يومئذ كلام معترض لا يمنع تفريغ العامل للمعمول كما كانت ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ﴾ [الرحمن ١٦] انتهى ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بهذا إلى رميها بشرر . وقال الزمخشري : ونصبه الأعمش أي هذا الذي قص عليكم وأوقع يومئذ ، وهنا نفي نطقهم . وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم نطقوا في مواضع من هذا اليوم ، وذلك باعتبار طول اليوم ، فيصح أن ينفى القول فيه في وقت ويثبت في وقت أو نفي نطقهم بحجة تنفع وجعل نطقهم بما لا ينفع كلا نطق . وقرأ القراء كلهم فيما أعلم (ولا يُؤْذَنُ) مبنياً للمفعول . حكى أبو علي الأهوازي أن زيد بن علي قرأ (ولاَ يَأْذَنُ) مبنياً للفاعل . أي الله تعالى (فيعتذرون) عطف على (ولا يؤذن) داخل في حيز نفي الإذن أي فلا إذن فاعتذار ، ولم يجعل الاعتذار متسبباً عن الإذن فينصب . وقال ابن عطية : ولم ينصب في جواب النفي ، لتشابه رؤوس الآي . والوجهان جائزان انتهى . فجعل امتناع النصب هو تشابه رؤوس الآي ، وقال : والوجهان جائزان . فيظهر من كلامه استواء الرفع والنصب ، وأن معناهما واحد ، وليس كذلك ، لأن الرفع كما ذكرنا لا يكون متسبباً بل صريح عطف ، والنصب يكون فيه متسبباً فافترقا ، وذهب أبو الحجاج الأعلم إلى أنه قد يرفع الفعل ويكون معناه المنصوب بعد الفاء وذلك قليل ، وإنما جعل النحويون معنى الرفع غير معنى النصب رعياً للأكثر في كلام العرب وجعل دليله ذلك وهذه الآية كظاهر كلام ابن عطية وقد رد ذلك عليه ابن عصفور وغيره . (هذا يوم الفصل جمعناكم) للكفار (والأولين) قوم نوح ـ عليه السلام ـ وغيرهم من الكفار الذين تقدم زمانهم على زمان المخاطبين . أي جمعناكم للفصل بين السعداء والأشقياء . (فإن كان لكم كيد) أي في هذا اليوم كما كان لكم في الدنيا ما تكيدون به دين الله وأولياءه (فكيدون) اليوم ، وهذا تعجيز لهم وتوبيخ . ولما كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفار في الآخرة وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفار والإيجاز في وصف المؤمنين فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين . وقرأ الجمهور (في ظِلاَل) جمع ظِلّ . والأعمش في (ظُلَلٍ) جمع ظُلَّة ، (كلوا واشربوا) خطاب لهم في الآخرة على إضمار القول ويدل عليه (بما كنتم تعملون) (كلوا وتمتعوا) خطاب للكفار في الدنيا (قليلاً) أي : زماناً قليلاً إذ قصارى أكلكم وتمتعكم الموت ، وهو خطاب تهديد لمن أجرم من قريش وغيرهم . (وإذا قيل لهم اركعوا) من قال : إنها مكية قال هي في قريش ، ومن قال إن هذه الآية مدنية قال هي في المنافقين . وقال مقاتل : نزلت في ثقيف . « قالوا لرسول الله ـ ﷺ ـ حط عنا الصلاة فإنا لا ننحني إنها مسبة فأبى ، وقال : لا خير في دين لا صلاة فيه » . ومعنى (اركعوا) اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه[1] . وقيل : الركوع هنا : عبارة عن الصلاة ، وخص من أفعالها الركوع ، لأن العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله (ويل يومئذ للمكذبين) لأن كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة وتقريرات من أحوال الدنيا ، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها للمكذب بالويل في يوم الآخرة . والضمير في (بعده) عائد على القرآن ، والمعنى أنه قد تضمن من

---

(١) انظر القرطبي (١٩/٤٠٨) .

الإعجاز والبلاغة والأخبار المغيبات وغير ذلك مما احتوى عليه ما لم يتضمنه كتاب إلهي ، فإذا كانوا مكذبين به ، (فبأي حديث بعده) يصدقون به ، أي لا يمكن تصديقهم بحديث بعد أن كذبوا بهذا الحديث الذي هو القرآن . وقرأ الجمهور (يؤمنون) بياء الغيبة . ويعقوب وابن عامر في رواية بتاء الخطاب .

سورة النبأ مكية وهي أحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

السبات : قال ابن قتيبة : السبات : أصله القطع والمدّ فالنوم قطع الأشغال الشاقة ، ومن المدّ قول الشاعر :

وَإِنْ سُبِتَتْهُ مَالَ حَبْلاً كَأَنَّهُ   سُدَى وامِلاتٍ مِنْ نَواسِجِ خَثْعَمَا

أي : إن مدت شعرها مال والتف كالتفاف السدي بأيدي نساء ناسجات . الوهاج : المتوقد المتلألىء ، المعصر : قال الفراء : السحاب الذي يجلب المطر ولما يجتمع مثل الجارية المعصر قد كادت تحيض ولما تحض . وقال نحوه ابن قتيبة . وقال أبو النجم العجلي :

تَمْشِي الْهُوَيْنَا مَائِلًا خِمَارُهَا ... قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدْ دَنَا إِعْصَارُهَا[١]

الثج : قال ثعلب أصله شدّة الانصباب . وقال الأزهري : ثجاج : شديد الانصباب ثج الماء وثججته ثجّاً وثجوجاً يكون لازماً بمعنى الانصباب وواقعاً بمعنى الصب . قال الشاعر في وصف الغيث :

إِذَا رَمَقَتْ فِيهَا رَحًى مُرْجَحِنَّةٌ ... تَنَعَّجَ ثَجَّاجاً غَزِيرَ الْحَوَافِلِ[٢]

ألفافاً : جمع لف ، ثم جمع لف على ألفاف . الكواعب : جمع كاعب وهي التي برز نهدها ، ومنه كعب الرجل لبروزه ، ومنه الكعبة . قال عاصم بن قيس المنقري :

وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةٍ ... وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا الْبُؤْسُ معصرِ[٣]

الدهاق : الملأى مأخوذ من الدهق ، وهو ضغط الشيء وشده باليد كأنه لامتلائه انضغط . وقيل : الدهاق : المتابعة . قال الشاعر :

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا ... فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقَا[٤]

وقال آخر :

لأَنْتَ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْباً ... مِنَ الصَّادِي إِلَى كَأْسٍ دِهَاقِ[٥]

﴿ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ، إن يوم الفصل كان ميقاتاً ، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ هذه السورة مكية . وروي « انه ـ ﷺ ـ لما بعث جعل المشركون يتساءلون بينهم فيقولون : ما الذي أتى به ؟ ويتجادلون فيما بعث به » فنزلت[٦] ، ومناسبتها لما ذكر قبلها ظاهرة لما ذكر (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : بعد الحديث الذي هو القرآن وكانوا يتجادلون فيه ويسائلون عنه ، قال (عم يتساءلون) وقرأ الجمهور (عَمَّ) وعبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى (عَمَّا) بالألف ، وهو أصل (عم) والأكثر حذف الألف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها ، ومن إثبات الألف قوله :

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ[٧]

وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية (عَمَّه) بهاء السكت أجرى الوصل مجرى الوقف ، لأن الأكثر في الوقف على ما

---

(١) البيت من الرجز انظر روح المعاني (٣٠/١٢) ، اللسان (عصر) .
(٢) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون .
(٣) انظر تفسير القرطبي (١٩/١١٩) .
(٤) البيت من الوافر لخداش بن زهير انظر اللسان (دهق) .
(٥) البيت من الوافر انظر القرطبي (١٩/١٢٠) .
(٦) انظر الوسيط (١٧٧ خ) والقرطبي (٣٠/٢) والقرطبي (٩/٦٩٦١) والبغوي (٤/٤٣٦) . والدر المنثور (٦/٣٠٥) .
(٧) تقدم .

الاستفهامية هو بإلحاق هاء السكت إلا إذا أضيفت إليها فلا بد من الهاء في الوقف نحو بحي مَهْ ، والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب . كما تقول : أي رجل زيد وزيد ما زيد كأنه لما كان عديم النظير أو قليله خفي عليك جنسه فأخذت تستفهم عنه ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء فجاء في القرآن . والضمير في (يتساءلون) (عن النبأ العظيم) وهو أمر رسول الله ـ ﷺ ـ وما جاء به من القرآن . وقيل : الضمير لجميع العالم ، فيكون الاختلاف تصديق المؤمن وتكذيب الكافر . وقيل : المتساءل فيه البعث والاختلاف فيه . (عم) متعلق بـ (يتساءلون) . ومن قرأ (عمه) بالهاء في الوصل فقد ذكرنا أنه يكون أجرى بالوصل مجرى الوقف . و (عن النبأ) بمتعلق بمحذوف ، أي : يتساءلون عن النبأ . وأجاز الزمخشري أن يكون وقف على (عمه) ثم ابتدأ بـ (يتساءلون عن النبأ العظيم) على أن يضمر لـ (عمه) (يتساءلون) وحذفت لدلالة ما بعدها عليه كشيء مبهم ثم يفسر . وقال ابن عطية : قال أكثر النحاة قوله (عن النبأ العظيم) متعلق بـ (يتساءلون) الظاهر كأنه قال لم يتساءلون ؟ (عن النبأ العظيم) ، وقال الزجاج : تام في قوله (عم يتساءلون) ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول : يتساءلون عن النبأ ، فاقتضى إيجاز القرآن ، وبلاغته أن يبادل المحتج بالجواب الذي يقتضيه الحال والمجاورة اقتضاء بالحجة وإسراعاً إلى موضع قطعهم . وقرأ عبد الله وابن جبير (يسَّألون) بغير تاء وشد السين ، وأصله يتساءلون بتاء الخطاب فأدغم التاء الثانية في السين . (كلا) ردع للمتسائلين . وقرأ الجمهور بياء الغيبة فيهما . وعن الضحاك : الأول بالتاء على الخطاب والثاني بالياء على الغيبة . وهذا التكرار توكيد في الوعيد . وحذف ما يتعلق به العلم ، على سبيل التهويل . أي سيعلمون ما يحل بهم . ثم قررهم تعالى على النظر في آياته الباهرة ، وغرائب مخلوقاته التي ابتدعها من العدم الصرف وأن النظر في ذلك يفضي إلى الإيمان بما جاءت به الرسل من البعث والجزاء ، فقال (ألم نجعل الأرض مهاداً) فبدأ بما هم دائماً يباشرونه . والمهاد : الفراش الموطأ . وقرأ الجمهور (مهاداً) ومجاهد وعيسى وبعض الكوفيين (مَهْداً) بفتح الميم وسكون الهاء . ولم ينسب ابن عطية عيسى في هذه القراءة . وقال ابن خالويه : مَهْداً على التوحيد مجاهداً وعيسى الهمداني وهو الحوفي ، فاحتمل أن يكون قول ابن عطية وبعض الكوفيين كناية عن عيسى الهمداني وإذا أطلقوا عيسى أو قالوا عيسى البصرة فهو عيسى بن عمر الثقفي . وتقدم الكلام في المهاد في البقرة في أو حزب ﴿واذكروا الله﴾ [البقرة ٢٠٣] (والجبال أوتاداً) أي ثبتنا الأرض بالجبال كما ثبت البيت بالأوتاد . قال الأفوه :

وَالْبَيْتُ لاَ يَنْبَنِي إلاَّ لَـهُ عُـمُـدُ   وَلاَ عِمَـادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَـادُ[1]

(أزواجاً) أي أنواعاً من اللون والصورة واللسان . وقال الزجاج وغيره : مزدوجين ذكراً وأنثى (سباتاً) سكوناً وراحة ، سبت الرجل : استراح وترك الشغل ، والسبات : علة معروفة يفرط على الإنسان السكوت حتى يصير قاتلاً والنوم شبيه به إلا في الضرر . وقال قتادة : النائم مسبوت لا يعقل كأنه ميت . (لباساً) أي يستترون به عن العيون فيما لا يحبون أن يظهر عليه (وجعلنا النهار) قابل النوم بالنهار إذ فيه اليقظة . (معاشاً) وقت عيش وهو الحياة تتصرفون فيه في حوائجكم . (سبعاً) أي سموات (شداداً) محكمة الخلق قوية لا تتأثر بمرور الأعصار إلا إذا أراد الله عزَّ وجلَّ ، وقال الشاعر :

فَـلَـمَّـا جِئْتُـهُ أَعْـلَى مَـحَـلِّي   وَأَجْلَسَنِي عَلَى السَّبْـعِ الشِّدَادِ

(سراجاً) هو الشمس (وهاجاً) حاراً مضطرم الاتقاد . وقال عبد الله بن عمر : والشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها ولهيبها يضطرم علواً . (من المعصرات) قال أبيّ والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم وقتادة ومقاتل : هي

---

(١) انظر البيت في روح المعاني (٣٠/٦) .

السموات . وقال ابن عباس وأبو العالية والربيع والضحاك : السحاب القاطرة ، مأخوذ من العصر ، لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء . وقيل : السحاب التي فيها الماء ولم تمطر . وقال ابن كيسان : سميت بذلك من حيث تغيث فهي من العصرة ومنه قوله ﴿وفيه يعصرون﴾ [يوسف ٤٩] والعاصر :المغيث فهو ثلاثي وجاء هنا من أعصر أي دخلت في حين العصر فحان لها أن تعصر وأفعل للدخول في الشيء . وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرياح ، لأنها تعصر السحاب جعل الإنزال منها لما كانت سبباً فيه . وقرأ ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس أخوه وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة (بالمعصرات) بالباء بدل من ، قال ابن عطية : فهذا يقوي أنه أراد الرياح . وقال الزمخشري فيه وجهان ، أن يراد بالرياح التي حان لها أن تعصر السحاب وأن يراد السحاب لأنه إذا كان الانزال منها فهو بها كما تقول أعطى من يده درهماً وأعطى بيده درهماً . (ثجاجاً) منصباً بكثرة ، ومنه « أفضل الحج العج والثج » . أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي . وقرأ الأعرج (ثجَّاجاً) بالحاء آخراً ومساجح الماء ، مصابه والماء ينثجح في الوادي . (حباً ونباتاً) بدأ بالحب ، لأنه الذي يتقوت به كالحنطة والشعير ، وثنى بالنبات فشمل كل ما ينبت من شجر وحشيش ودخل فيه الحب . (ألفافاً) ملتفة ، قال الزمخشري : ولا واحد له كالأوزاع والأخياف ، وقيل : الواحد لف . وقال صاحب الإقليد : أنشدني الحسن بن علي الطوسي :

جَـنَّـةٌ لِفٌّ وَعَـيْشٌ مُـغْـدِقٌ وَنَـدَامَى كلُّهُمْ بِيضٌ زُهُـر[1]

ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً ، انتهى . ولا حاجة إلى هذا القول ولا إلى وجاهته ، فقد ذكر في المفردات أن مفرده لف بكسر اللام ، وأنه قول جمهور أهل اللغة . و(إن يوم الفصل) هو يوم القيامة يفصل فيه بين الحق والباطن (كان ميقاتاً) أي في تقدير الله وحكمه تؤقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حداً للخلائق ينتهون إليه . (يوم ينفخ في الصور) بدل من (يوم الفصل) ، قال الزمخشري : أو عطف بيان وتقدم الكلام في الصور . وقرأ أبو عياض (في الصوَر) بفتح الواو جمع صورة ، أي : يرد الله الأرواح إلى الأبدان . والجمهور بسكون الواو (فتأتون) من القبور إلى الموقف أمماً كل أمة بإمامها . وقيل : جماعات مختلفة . وذكر الزمخشري حديثاً في كيفيات قبيحة لعشرة أصناف يخلقون عليها وسبب خلقه من خلق على تلك الكيفية ـ الله أعلم بصحته ـ وقرأ الكوفيون (وفُتِحَتْ) خف . والجمهور بالتشديد (فكانت أبواباً) تنشق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدرات ، وقيل : ينقطع قطعاً صغاراً حتى تكون كالألواح الأبواب المعهودة . وقال الزمخشري : فتحت فكانت أبواباً ، أي : كثرت أبوابها لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة كقولـه ﴿ وفجرنـا الأرض عيونـاً ﴾ [القمر ١٢] كـأن كلها عيـون تنفجر . وقيـل : الأبواب : الـطرق والمسالك ، أي : تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء . (فكانت سراباً) أي تصير شيئاً كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها ، انتهى . وقال ابن عطية : عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منبثاً ولم يرد أن الجبال تشبه الماء على بعد من الناظر إليها . وقال الواحدي : على حذف مضاف ، أي ذات أبواب . قوله عز وجل ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ، إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعناباً وكواكب أتراباً ، وكأساً دهاقاً ، لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً ، رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ، إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ، يوم ينظر المرء ما قدّمت**

---

(١) البيت من الرمل انظر الكشاف (٤/٦٨٧) .

يداه ، ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

(مرصاداً) مفعال من الرصد ترصد من حقت عليه كلمة العذاب . وقال مقاتل : مجلساً للأعداء وممراً للأولياء ، ومِفْعَال للمذكر والمؤنث بغير تاء ، وفيه معنى النسب أي ذات رصد وكل ما جاء من الأخبار والصفات على معنى النسب فيه التكثير واللزوم ، وقال الأزهري : المرصاد : المكان الذي يرصد فيه العدو ، وقال الحسن : إلا أن على النار المرصاد فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجيء بجواز احتبس . وقرأ أبو عمر والمنقري وابن يعمر (أَنَّ جهنم) بفتح الهمزة ، والجمهور بكسرها (مآباً) مرجعاً . وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وابن وثاب وعمرو بن ميمون وعمرو بن شرحبيل وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح (لَبِثين) بغير ألف بعد اللام ، والجمهور بألف بعدها . وفاعل يدل على من وجد منه الفعل وفعل على من شأنه ذلك كحاذر وحذر . أحقاباً تقدم الكلام عليه في الكهف عند (أو أمضي حقباً) [الكهف ٦٠] والمعنى هنا حقباً بعد حقب كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ولا يكاد يستعمل الحقب إلا حيث يراد تتابع الأزمنة . كقول أبي تمام :

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الحُقُبُ ... أَنُحِلُ الْمَغَانِي لِلْبِلَى أَمْ هِيَ نَهْبُ

ويجوز أن يتعلق (للطاغين) بـ (مرصاداً) ويجوز أن يتعلق بـ (مآباً) و (لبثين) حال من (الطاغين) و (أحقاباً) نصب على الظرف . وقال الزمخشري : وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره وحقب إذا أخطأ الرزق فهو حقب ، وجمعه أحقاب . فينتصب حالاً عنهم يعني (لبثين فيها) حقبين جحدين وقوله (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً) تفسير له ، والاستثناء منقطع يعني : لا يذوقون فيها برداً وروحاً ينفس عنهم حر النار ، ولا شراب يسكن من عطشهم ، ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً . انتهى . وكان قد قدم قبل هذا الوجه ما نصه : ويجوز أن يراد (لابثين فيها أحقاباً) غير ذائقين برداً ولا شراباً (إلا حميماً وغساقاً) ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب . انتهى . وهذا الذي قاله هو قول للمتقدمين حكاه ابن عطية . قال : وقال آخرون : إنما المعنى (لابثين فيها أحقاباً) غير ذائقين برداً ولا شراباً ، فبهذه الحال يلبثون أحقاباً ، ثم يبقى العذاب سرمداً ، وهم يشربون أشربة جهنم والذي يظهر : أن قوله (لا يذوقون) كلام كمستأنف وليس في موضع الحال و (إلا حميماً) استثناء متصل من قوله (ولا شراباً) وإن (أحقاباً) منصوب على الظرف حملاً على المشهور من لغة العرب لا منصوب على الحال على تلك اللغة التي ليست مشهورة ، وقول من قال إن الموصوفين باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين ، أواخر الآي يدفعه ، وقول مقاتل ، إن ذلك منسوخ بقوله (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) فاسد ، والظاهر وهو قول الجمهور أن البرد : هو مس الهواء القرّ ، أي لا يمسهم منه ما يستلذ ويكسر شدة الحر . وقال أبو عبيدة والكسائي ، والفضل بن خالد ومعاذ النحوي : البرد هنا : النوم والعرب تسميه بذلك لأنه يبرد سورة العطش ، ومن كلامهم « منع البرد البرد » وقال الشاعر :

فَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ ... وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخاً وَلاَ بَرْدا[١]

النقاخ : الماء ، والبرد : النوم . وفي كتاب اللغات في القرآن : إن البرد هو النوم بلغة هذيل والذوق على هذين القولين مجاز . وقال ابن عباس : البرد : الشراب البارد المستلذ ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقونَ مِنْ وِرْدِ الْبَرِيضِ عَلَيْهِمُ ... بَرَدَاً يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ[٢]

---

(١) انظر روح المعاني (١٩/٣٠) ، اللسان (نفخ) (برد) .

(٢) البيت من الكامل انظر ديوانه (٣٦٥) روح المعاني (١٩/٣٠) اللسان (برد) .

ومنه قول الآخر :

أَمَـانِيَ مِنْ سُعْـدَى حِسَـانٌ كَـأَنَّمَـا سَقَتْـكَ بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمَإٍ بَـرْدا(١)

والذوق على هذا حقيقة . والنحويون ينشدون على هذا بيت حسان بَرَدى بفتح الراء والدال بعدها ألف التأنيث وهو نهر في دمشق وتقدم شرح الحميم والغساق وخلف القرّاء في شدة الشين وخفتها (وفاقاً) أي لأعمالهم وكفرهم ، وصف الجزاء بالمصدر لـ (وافق) أو على حذف مضاف ، أي ذا وفاق . وقال الفراء : هو جمع وفق ، وقرأ الجمهور بخف الفاء . وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة بشدها من وفقه كذا . (لا يرجون) لا يخافون أو لا يؤمنون ، والرجاء والأمل مفترقان . والمعنى هنا : لا يصدقون بالحساب فهم لا يؤمنون ولا يخافون . وقرأ الجمهور (كِذَّاباً) بشد الذال مصدر كذَّب ، وهي لغة لبعض العرب يمانية ، يقولون في مصدر فعَّل فِعَّالاً وغيرهم يجعل مصدره على تفعيل نحو تكذيب ، ومن تلك اللغة قول الشاعر :

لَقَدْ طَالَ مَـا ثَبَّطْتني عَنْ صَحَـابَتِي وَعَنْ حَـاجَـةٍ قِضَّاؤُهَا مِنْ شِفَـائِيَـا(٢)

ومن كلام أحدهم وهو يستفتي : الحلق أحب إليك أم القِصَّار يريد التقصير يعني في الحج ، وقال الزمخشري : وفِعَّال في باب فعَّل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره ، وسمعني بعضهم أفسر آية فقال لقدفسَّرتها فساراً ما سمع بمثله . وقرأ علي وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى بخلاف عنه بخف الذال . قال صاحب اللوامح : علي وعيسى البصرة وعوف الأعرابي (كذَاباً) كلاهما بالتخفيف ، وذلك لغة اليمن بأن يجعلوا مصدر كذَب مخففاً كِذَاباً بالتخفيف مثل كتب كتاباً فصار المصدر هنا من معنى الفعل دون لفظه مثل أعطيته عطاء انتهى . وقال الأعشى :

فَصَـدَقْتُـهَـا وَكَـذَبْـتُـهَـا وَالْمَـرْءُ يَنْفَعُـهُ كِـذَابُـهُ(٣)

وقال الزمخشري : هو مثل قوله ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح ١٧] يعني : وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً أو تنصبه بـ (كذبوا) لا يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق ، كاذب ، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة ، أو كذبوا بها مكاذبين ، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة ، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده . انتهى . والأظهر الإعراب الأول ، وما سواه تكلف ، وفي كتاب ابن عطية وكتاب اللوامح : وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وفي كتاب ابن خالويه : عمر بن عبد العزيز والماجشون ثم اتفقوا (كُذَّاباً) بضم الكاف وشد الذال ، فخرج على أنه جمع كاذب ، وانتصب على الحال المؤكدة ، وعلى أنه مفرد صفة لمصدر أي تكذيباً كذاباً مفرطاً في التكذيب . وقرأ الجمهور (وكُلَّ شيء) بالنصب ، وأبو السمال بالرفع وانتصب (كتاباً) على أنه مصدر من معنى (أحصيناه) أي إحصاء ، أو يكون (أحصيناه) في معنى كتبناه ، والتجوز إما في المصدر وإما في الفعل وذلك لالتقائهما في معنى الضبط ، أو على أنه مصدر في موضع الحال ، أو مكتوباً في اللوح وفي مصحف الحفظة . (وكلُّ شيء) عام مخصوص . أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب وهي جملة اعتراض معترضة . و (فذوقوا) مسبب عن كفرهم بالحساب فتكذيبهم بالآيات . وقال عبد الله بن عمرو : ما نزلت في أهل النار آية أشد من هذه . ورواه أبو بردة عن النبي ـ ﷺ ـ ولما ذكر شيئاً من حال أهل النار ذكر ما

---

(١) البيت من الطويل لرجل من بني الحارث انظر ديوان الحماسة (٢/ ١٥٩) روح المعاني (٣٠/ ١٩) .

(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (قضى) روح المعاني (٣٠/ ٢٠) .

(٣) البيت من مجزوء الكامل ليس في ديوان الأعشى انظر الكشاف (٤/ ٦٨٩) ونسبه في اللسان للأعشى (صدق) .

لأهل الجنة فقال (إن للمتقين مفازاً) أي : موضع فوز وظفر حيث زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، و (حدائق) بدل من (مفازاً) وفواز فيكون أبدل الجرم من المعنى على حذف ، أي فوز حدائق أي بها . (دهاقاً) قال الجمهور : مترعة[١] ، وقال مجاهد وابن جبير : متتابعة[٢] ، وقرأ الجمهور (ولا كِذَّاباً) بالتشديد أي لا يكذب بعضهم بعضاً وقرأ الكسائي بالتخفيف كاللفظ الأول في قوله تعالى(وكذبوا بآياتنا كِذَّاباً) مصدر كذب ومصدر كاذب . قال الزمخشري : (جزاء) مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله (إن للمتقين مفازاً) كأنه قال جازى المتقين بمفاز وعطاء نصب بـ (جزاء) نصب المفعول به ، أي جزاءهم عطاء . انتهى . وهذا لا يجوز ، لأنه جعله مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة التي هي (إن للمتقين مفازاً) والمصدر المؤكد لا يعمل ، لأنه ليس ينحل بحرف مصدري والفعل ولا نعلم في ذلك خلافاً . وقرأ الجمهور (حساباً) وهو صفة لـ (عطاء) أي كافياً من قولهم : أحسبني الشيء ، أي كفاني ، وقال مجاهد : معنى حساباً هنا بتقسيط على الأعمال أو دخول الجنة برحمة الله والدرجات فيها على قدر الأعمال فالحساب هنا بموازنة الأعمال . وقرأ ابن قطيب (حِسَّاباً) بفتح الحاء وشد السين . قال ابن جني : بنى فَعَّالاً من أفعل كَدرَّاك من أَدْرَك انتهى . فمعناه محسباً أي كافياً ، وقرأ شريح بن يزيد الحمصي وأبو البرّهيثم بكسر الحاء وشد السين وهو مصدر مثل كِذَّاب أقيم مقام الصفة ، أي إعطاء محسباً أي كافياً . وقرأ ابن عباس وسراح (حسناً) بالنون من الحسن وحكى عنه المهدوي (حَسْباً) بفتح الحاء وسكون السين والباء نحو قولك حسبك كذا أي كافيك ، وقرأ عبد الله وابن أبي إسحق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم (ربِّ) و (الرحمن) بالجر والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان برفعهما . والأخوان (ربِّ) بالجر و(الرحمنُ) بالرفع وهي قراءة الحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما ، في الجر على البدل (من ربك) و(الرحمن) صفة أو بدل (من رب) أو عطف بيان . وهل يكون بدلاً (من ربك) فيه نظر ، لأن البدل الظاهر أنه لا يتكرر فيكون كالصفات ، والرفع على إضمار هو ربُّ أو على الابتداء وخبره (لا يملكون) والضمير في (لا يملكون) عائد على المشركين ، قاله عطاء عن ابن عباس ، أي لا يخاطب المشركون الله أما المؤمنون فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم . وقيل : عائد على المؤمنين ، أي لا يملكون أن يخاطبوه في أمر من الأمور لعلمهم أن ما يفعله عدل منه . وقيل : عائد على أهل السموات والأرض والضمير في (منه) عائد عليه تعالى والمعنى : أنهم لا يملكون من الله أن يخاطبوه في شيء من الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه . والعامل في (يوم) إما (لا يملكون) وإما (لا يتكلمون) وقد تقدم الخلاف في (الروح) أهو جبريل أم ملك أكبر الملائكة خلقة ، أو خلق على صورة بني آدم ، أو خلق حفظة على الملائكة ، أو أرواح بني آدم ، أو القرآن ، وقيامه مجاز يعني ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه ، والظاهر : عود الضمير في (لا يتكلمون) على (الروح) و (الملائكة) ، وقال ابن عباس : عائد على الناس فلا يتكلم أحد إلا بإذن منه تعالى ونطق بالصواب . وقال عكرمة : الصواب لا إله إلا الله أي قالها في الدنيا . وقال الزمخشري : هما شريطتان أن يكون المتكلم منهم مأذوناً لهم في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء ٢٨] انتهى . (ذلك اليوم الحق) أي كيانه ووجوده (فمن شاء) وعيد وتهديد . والخطاب في (أنذرناكم) لمن حضر النبي ـ ﷺ ـ واندرج فيه من يأتي بعدهم (عذاباً) هو عذاب الآخرة لتحقق وقوعه وكل آت قريب . (ويوم ينظر المرء) عام في المؤمن والكافر . (ما قدّمت يداه) من خير أو شر لقيام الحجة له وعليه ، وقال الزمخشري : وقاله قبله عطاء : المرء هو الكافر لقوله (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) ، والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ومعنى ما قدّمت يداه من الشر

---

(١) انظر القرطبي (١٩/ ١٢٠) والطبري (٣٠/ ١٣) وتفسير مجاهد (٢/ ٧٢٢) وتفسير عبد الرزاق .

(٢) انظر المصادر السابقة .

لقوله ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدّمت أيديكم ﴾ [آل عمران ١٨١ ، ١٨٢] ، وقال ابن عباس وقتادة والحسن : المرء هنا : المؤمن كأنه نظر إلى مقابله في قوله (ويقول الكافر) وقرأ الجمهور (المَرْءُ) بفتح الميم وابن أبي إسحاق بضمها . وضعفها أبو حاتم ولا ينبغي أن تضعف ، لأنها لغة يتبعون حركة الميم لحركة الهمزة فيقولون : مرؤ ومرأ ومرء على حسب الإعراب و (ما) منصوب بـ (ينظر) ومعناه ينتظر (ما قدّمت يداه) فـ (ما) موصولة ، ويجوز أن يكون ينظر من النظر وعلق عن الجملة فهي في موضع نصب على تقدير إسقاط الخافض و (ما) استفهامية منصوبة تقدّمت ، وتمنيه ذلك أي تراباً في الدنيا ولم يخلق أو في ذلك اليوم . وقال أبو هريرة وعبد الله بن عمر : « إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض ثم يقول لها بعد ذلك كوني تراباً فتعود جميعها تراباً فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله[١] . وقيل : الكافر هنا : إبليس إذا رأى ما حصل للمؤمنين من الثواب قال (يا ليتني كنت تراباً) كآدم الذي خلق من تراب واحتقره هو أوّلاً . وقيل : تراباً أي متواضعاً لطاعة الله تعالى لا جباراً ولا متكبراً .

---

(١) انظر الوسيط (١٨٠ خ) والقرطبي (١٩/١٢٣) والطبري (٣٠/١٧ ـ ١٨) وابن كثير (٤/٤٦٦) .

سورة النازعات مكية وهي ست وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

أغرق في الشيء بالغ فيه وأنهاه وأغرق النازع في القوس : بلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النصل، والاستغراق : الاستيعاب، والغرقى : قشرة البيضة . نشط البعير والإنسان : ربطه وأنشطه حله ومنه : « وكأنما أنشط من عقال » . ونشط : ذهب من قطر إلى قطر ، ولذلك قيل لبقر الوحش النواشط ، لأنهن يذهبن بسرعة من مكان إلى مكان ، ومنه قول الشاعر وهو هميان بن قحافة :

أَرَى هُمُــومِي تَـنْشِطُ الْـمَنَـاشِـطَا ... الشَّامَ بِي طَـوْراً وطَـوْراً وَاسِـطا[1]

---

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (نشط) .

وكأن هذه اللفظة مأخوذة من النشاط . وقال أبو زيد : نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته أنشوطة وأنشطته حللته وأنشطت الحبل مددته . وقال الليث : أنشطته بأنشوطة ، أي وثقته وأنشطت العقال مددت أنشوطته فانحلت . ويقال : نشط بمعنى أنشط . والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت كعقدة التكة . وجف القلب وجيفاً : اضطرب من شدّة الفزع ، وكذلك وجب وجيباً ، في كتاب لغات القرآن المروي عن ابن عباس : واجفة : خائفة بلغة همدان . الحافرة : يقال : رجع فلان في حافرته ، أي في طريقه التي جاء منها فحفرها أي أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفراً وتوقعها العرب على أول أمر يرجع إليه من آخره . ومنه قول الشاعر :

أَحَافِرَةً عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ[(١)]

أي أأرجع إلى الصبا بعد الصلع والشيب ، الناخرة : المصوتة بالريح المجوّفة ، والنخرة بمعناها كطامع وطمع وحاذر وحذر قاله الفراء وأبو عبيد وأبو حاتم وجماعة . وقيل : النخرة : البالية المتعفنة الصائرة رميماً . نخر العود والعظم : بلي وتفتت ، فمعناه مغاير للناخرة وهو قول الأكثرين . وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة ، التي لم تنخر بعد والنخرة التي قد بليت . قال الراجز لفرسه :

أَقْدِمْ أخا نهم عَلَى الأَسَاوِرَهْ ... وَلَا تَهُولَنْكَ رُؤوسٌ نَادِرَه

فَإِنَّمَا قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَهْ ... حَتَّى تَعُودَ بَعْدَهَا فِي الْحَافِرَهْ[(٢)]

مِنْ بَعْدِمَا صِرْت عِظَاماً نَاخِرَهْ

وقال الشاعر :

وَأَخْلَيْتَهَا مِنْ مُخِّهَا فَكَأَنَّهَا ... قَوَارِيرُ فِي أَجْوافِهَا الرِّيحُ تَنْخَرُ[(٣)]

ويروى تصفر ونُخرة الريح بضم النون : شدّة هبوبها والنخرة أيضاً مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير ، يقال : هشم نخرته ، الساهرة : وجه الأرض والفلاة ، وصفت بما يقع فيها وهو السهر للخوف . وقال أمية بن أبي الصلت :

وَفِيهَا لَحْمُ سَاهِرَةٍ وَبَحْرٌ ... وَمَا فاهُوا بِهِ لَهُمُ مُقِيمُ[(٤)]

وقال أبو بكر الهذلي :

يَرْتَدْنَ سَاهِرَةً كَأَنَّ جَمِيمَهَا ... وَعَمِيمَهَا أَسْدَافُ لَيْلٍ مُظْلِمِ[(٥)]

والساهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا نسف . وقال أمية بن أبي الصلت :

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا ... فَهُمْ قُطَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِي[(٦)]

---

(١) البيت من الوافر لم نهتد لقائله انظر اللسان (حفر) فتح القدير (٥/ ٣٧٤) .

(٢) الأبيات من الرجز للهمداني انظر اللسان (نخر) .

(٣) البيت من الطويل للحارثي انظر ديوان الحماسة (٢/ ١٦٥) .

(٤) البيت من الوافر انظر اللسان (سهر) .

(٥) البيت من المنسرح انظر اللسان (سهر) فتح القدير (٥/ ٣٧٥) .

(٦) البيت من الوافر انظر فتح القدير (٥/ ٣٧٩) .

وقيل : دحاها : سواها . قال زيد بن عمرو :

وَأَسْلَمت وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَت لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا

دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالاَ(١)

الطامّة : الدّاهية التي تطم على الدّواهي ، أي تعلو وتغلب وفي أمثالهم : « أجرى الوادي فطمّ على القرى » . ويقال : طمّ السيل الركية إذا دفنها ، والطم : الدّفن والعلو .

﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الرّاجفة ، تتبعها الرّادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ، أإذا كنا عظاماً نخرة ، قالوا تلك إذاً كرّة خاسرة ، فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ، هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدّس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذّب وعصى ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر في آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة أقسم في هذه على البعث يوم القيامة ، ولما كانت الموصوفات بها محذوفات وأقيمت صفاتها مقامها وكان لهذه الصفات تعلقات مختلفة اختلفوا في المراد بها . فقال عبد الله وابن عباس (النازعات) الملائكة تنزع نفوس بني آدم(٢) . و (غرقاً) إغراقاً في الصدر . وهي المبالغة في الفعل ، أو غرقاً في جهنم يعني نفوس الكفار . قاله عليّ وابن عباس . وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق . وقال السدّي وجماعة . تنزع بالموت إلى ربها . و (غرقاً) أي إغراقاً في الصدر(٣) وقال السدي أيضاً : النفوس تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذاهبها ولها نزع عند الموت . وقال عطاء وعكرمة القسي : أنفسها تنزع بالسهام . وقال عطاء أيضاً الجماعات النازعات بالقسي وغيرها إغراقاً . وقال مجاهد : المنايا تنزع النفوس . وقيل (النازعات) الوحش تنزع إلى الكلأ ، حكاه يحيى بن سلام . وقيل : جعل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، قاله في الكشاف . (والناشطات) قال ابن عباس ومجاهد : الملائكة تنشط النفوس عند الموت : أي تحلها وتنشط بأمر الله إلى حيث كان . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة والحسن والأخفش : النجوم تنشط من أفق إلى أفق تذهب وتسير بسرعة . وقال مجاهد أيضاً : المنايا(٤) وقال عطاء البقر الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر وقال ابن عباس أيضاً : النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج . وقيل : التي تنشط للإزهاق (والسابحات) قال عليّ ومجاهد : الملائكة تتصرّف في الآفاق بأمر الله تجيء وتذهب . وقال قتادة والحسن : النجوم تسبح في الأفلاك . وقال أبو روق : الشمس والقمر والليل والنهار . وقال عطاء وجماعة : الخيل يقال للفرس سابح . وقيل : السحاب ، لأنها كالعائمة في الهواء . وقيل : الحيتان دواب البحر فما دونها ، وذلك من عظم المخلوقات فيبدي أنه تعالى أمدّ في الدنيا نوعاً من الحيوان منها أربعمائة في البر وستمائة في البحر . وقال عطاء أيضاً : السفن ، وقال مجاهد أيضاً : المنايا تسبح في نفوس الحيوان (فالسابقات) قال مجاهد : الملائكة سبقت بني آدم بالخير والعمل الصالح ، وقاله أبو روق ، وقال ابن مسعود : أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين

---

(١) البيتان من المتقارب انظر اللسان (دحا) فتح القدير (٥/٣٧٩) .

(٢) انظر الوسيط (١٧٩ خ) والقرطبي (١٩/١٢٤) .

(٣) انظر المصدرين السابقين .

(٤) انظر المصدرين السابقين .

يقبضونها وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى . وقال عطاء : الخيل . وقيل : النجوم . وقيل : المنايا تسبق الآمال (فالمدبرات) قال ابن عطية : لا أحفظ خلافاً أنها الملائكة ، ومعناه أنها التي تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات . انتهى . وقيل : الملائكة الموكلون بالأحوال ، جبريل للوحي ، وميكائيل للمطر ، وإسرافيل للنفخ في الصور ، وعزرائيل لقبض الأرواح . وقيل : تدبيرها نزولها بالحلال والحرام . وقال معاذ : هي الكواكب السبعة . وإضافة التدبير إليها مجاز ، أي يظهر تقلب الأحوال عند قرانها وتربيعها وتسديسها وغير ذلك ولفق الزمخشري من هذه الأقوال أقوالاً اختارها وأدارها أولاً على ثلاثة ، الملائكة ، أو الخيل ، أو النجوم ، ورتب جميع الأوصاف على كل واحد من الثلاثة ، فقال : أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي هي تنزع الأرواح من الأجساد وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وبالطوائف التي تسبح في مضيها أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم ، كما رسم لهم غرقاً أي إغراقاً في النزع أي تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها ، أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها إلى آخر ما نقلناه ،ثم قال : من قولك : ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد والتي تسبح في جريتها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه ، وأقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب وإغراقها في النزع أن تقطع الفلك كله حتى تنحط من أقصى المغرب والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً في علم الحساب . وقيل : (النازعات) أيدي الغزاة وأنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنشط الإرهاق ، انتهى . والذي يظهر أن ما عطف بالفاء من وصف المقسم به قبل الفاء وأن المعطوف بالواو وهو مغاير لما قبله كما قرّرناه في المرسلات ، على أنه يحتمل أن يكون المعطوف بالواو من عطف الصفات بعضها على بعض . والمختار في جواب القسم أن يكون محذوفاً وتقديره لتبعثن لدلالة ما بعده عليه قاله الفراء . وقال محمد بن عليّ الحكيم الترمذي : الجواب (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) والمعنى فيما اقتصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون . قال ابن الأنباري : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال . وقيل : اللام التي تلقي بها القسم محذوفة من قوله (يوم ترجف الراجفة) أي : ليوم كذا (تتبعها الرادفة) ولم تدخل نون التوكيد لأنه قد فصل بين اللام المقدرة والفعل . وقول أبي حاتم هو على التقديم والتأخير كأنه قال (فإذا هم بالساهرة) (والنازعات) قال ابن الأنباري خطأ ، لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام . وقيل : التقدير : يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة والنازعات على التقديم والتأخير أيضاً ، وليس بشيء . وقيل : الجواب (هل أتاك حديث موسى) لأنه في تقدير قد أتاك ، وليس بشيء وهذا كله إعراب من لم يحكم العربية . وحذف الجواب هو الوجه ويقرب القول بحذف اللام من (يوم ترجف) قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : هما الصيحتان ، أي : النفختان الأولى تميت كل شيء وفي الثانية تحيى[1] . وقال مجاهد أيضاً (الواجفة) الزلزلة (والرادفة) الصيحة . وقال ابن زيد (الواجفة) الأرض و(الرادفة) الساعة . والعامل في (يوم) اذكر مضمرة ، أو لتبعثن المحذوف واليوم متسع تقع فيه النفختان وهم يبعثون في بعض ذلك اليوم المتسع و (تتبعها) حال . قيل : أو مستأنف (واجفة) مضطربة ، ووجيف القلب يكون من الفزع ويكون من الإشفاق ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بني حجبا وأسرتهم ... أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُ[1]

(قلوب) مبتدأ (واجفة) صفة تعمل في (يومئذ) (أبصارها) أي أبصار القلوب (خاشعة) مبتدأ وخبر في موضع

---

(١) انظر الوسيط (١٨٠ خ).

(٢) البيت من المنسرح انظر فتح القدير (٣٧٤/٥).

خبر قلوب . وقال ابن عطية : رفع قلوب بالابتداء ، وجاز ذلك وهي نكرة ، لأنها قد تخصصت بقوله (يومئذ) انتهى . ولا تتخصص الأجرام بظروف الزمان ، وإنما تخصصت بقوله (واجفة) (يقولون) حكاية حالهم في الدنيا ، والمعنى هم الذين يقولون ، و (الحافرة) قال مجاهد : فاعلة بمعنى مفعولة . وقيل : على النسب ، أي : ذات حفر ، والمراد : القبور أي لمردودون أحياء في قبورنا . وقال زيد بن أسلم (الحافرة) النار . وقيل : جمع حافرة بمعنى القدم ، أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الأرض . وقال ابن عباس : الحياة الثانية هي أول الأمر وتقول التجار النقد في الحافرة أي : في ابتداء الصوم . وقال الشاعر :

آلَيْتُ لَا أَنْسَاكُمُ فَاعْلَمُوا حَتَّى تُرَدَّ النَّاسُ فِي الْحَافِرَهْ[1]

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة (في الحَفِرَة) بغير ألف والجمهور بألف ، وقيل : هما بمعنى واحد . وقيل : هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها ، من قولهم : حفرت أسنانه إذا تأكلت وتغيرت . وقرأ عمر وأبيّ وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر (ناخرة) بألف وأبو رجاء والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة والسلمي وابن جبير والنخعي وقتادة وابن وثاب وأهل مكة وشبل وباقي السبعة بغير ألف . (قالوا تلك إذاً) أي الردة إلى الحافرة إن رددنا (كرة خاسرة) أي قالوا لتكذيبهم بالغيب ، أي لو كان هذا حقاً لكانت ردتنا خاسرة إذ هي إلى النار . وقال الحسن : خاسرة : كاذبة ، أي ليست بكافية وهذا القول منهم استهزاء . وروي أن بعض صناديد قريش قال ذلك (فإنما هي زجرة واحدة) لما تقدم (يقولون أئنا لمردودون) تضمن قولهم استبعاد النشأة الثانية واستضعاف أمرها فجاء قوله (فإنما) مراعاة لما دل عليه استبعادهم ، فكأنه قيل ليس بصعب ما تقولون فإنما هي نفخة واحدة (فإذا هم) منشورون أحياء على وجه الأرض قال ابن عباس : الساهرة : أرض من فضة يخلقها الله تعالى[2] . وقال وهب بن منبه جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس . وقال أبو العالية وسفيان أرض قريبة من بيت المقدس . وقال ابن عباس : أرض مكة . وقال قتادة : جهنم ، لأنه لا نوم لمن فيها . رأى أن الضمائر قبلها إنما هي للكفار ففسرها بجهنم ، وقيل : الأرض السابعة يأتي بها الله يحاسب عليها الخلائق ، ولما أنكروا البعث وتمردوا شق ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ فقص تعالى عليه قصة موسى ـ عليه السلام ـ وتمرد فرعون على الله عزَّ وجلَّ حتى ادعى الربوبية وما آل إليه حال موسى من النجاة ، وحال فرعون من الهلاك ، فكان ذلك مسلاة لرسول الله ـ ﷺ ـ وتبشيراً بهلاك من يكذبه ونجاته هو من أذاهم . قال تعالى (هل أتاك) توقيفاً له على جمع النفس لما يلقيه إليه وتقدم الكلام في (الوادي المقدس) والخلاف في القراءات في (طُوًى) (اذهب إلى فرعون) تفسير للنداء أو على إضمار القول (فقل هل لك إلى أن تزكى) لطف في الاستدعاء ، لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم . وتزكى تتحلى بالفضائل ، وبتطهر من الرذائل والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بخلاف (تزكّى) و(تصدَّى) [عبس ٦] بشد الزاي والصاد . وباقي السبعة بخفها . وتقول العرب هي لك في كذا ؟ أو هل لك إلى كذا ؟ فيحذفون القيد الذي تتعلق به (إلى) أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا ، أو سبيل إلى كذا . قال الشاعر :

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلَيَّ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النَّطَاسِيَّ حِذْيَمَا[3]

---

(١) البيت من الكامل انظر فتح القدير (٥/٣٧٤) .

(٢) انظر القرطبي (١٩/١٣٠) .

(٣) البيت من الطويل لأوس بن حجر انظر ديوانه (١١١) اللسان (نطس) فتح القدير (٥/٣٧٦) .

(وأهديك إلى ربك فتخشى) هذا تفسير للتزكية . وهي الهداية إلى توحيد الله تعالى ومعرفته (فتخشى) أي : تخافه ، لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر ٢٨] وذكر الخشية ، لأنها ملاك الأمر ، وفي الكلام حذف . أي فذهب وقال له ما أمر به ربه . وأتبع ذلك بالمعجزة الدالة على صدقه (فأراه الآية الكبرى) وهي العصا واليد جعلهما واحدة ، لأن اليد كأنها من جملة العصا ، لكونها تابعة لها ، أو العصا وحدها ، لأنها كانت المقدمة والأصل واليد تبع لها ، لأنه كان يتقيها بيده . وقيل له : (أدخل يدك في جيبك) (فكذب) أي فرعون موسى ـ عليه السلام ـ وما أتى به من المعجز وجعل ذلك من باب السحر ﴿ وعصى ﴾ [النمل ١٢] الله تعالى بعدما علم صحة ما أتى به موسى وإنما أوهم أنه سحر . (ثم أدبر يسعى) قيل : أدبر حقيقة ، أي قام من مكانه فاراً بنفسه . وقال الجمهور : هو كناية عن إعراضه عن الإيمان (يسعى) يجتهد في مكايدة موسى عليه السلام . (فحشر) أي جمع السحرة وأرباب دولته (فنادى) أي قام فيهم خطيباً . أو فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه . (فقال أنا ربكم الأعلى) قال ابن عطية : قول فرعون ذلك نهاية في المخرقة ونحوها باق في ملوك مصر وأتباعهم . انتهى . وإنما قال ذلك ، لأن ملك مصر في زمانه كان إسماعيلياً ، وهو مذهب يعتقدون فيه إلهية ملوكهم وكان أول من ملكها منهم المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله ولاهم العاضد وطهر الله مصر من هذا المذهب الملعون بظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي ـ رحمه الله تعالى ـ وجزاه عن الإسلام خيراً . (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) قال ابن عباس (الآخرة) قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص ٣٨] والأولى قوله (أنا ربكم الأعلى) ، وقيل : العكس وكان بين قولتيه أربعون سنة . وقال الحسن وابن زيد (نكال الآخرة) بالحرق (والأولى) يعني الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب آخرة حياته وأولاها . وقال أبوزرين : الأولى كفره وعصيانه ، والآخرة : قوله أنا ربكم الأعلى . وقال مجاهد : عبارة عن أول معاصيه وآخرها أي نكل بالجميع . وانتصب (نكال) على المصدر والعامل فيه (فأخذه) لأنه في معناه ، وعلى رأي المبرد بإضمار فعل من لفظه ، أي : نكل نكال . والنكال : بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم . وقال الزمخشري : (نكال الآخرة) هو مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله ، كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة والأولى انتهى . والمصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة يقدر له عامل من معنى الجملة (إن في ذلك) أي فيما جرى لفرعون وأخذه تلك الأخذة (لعبرة) لعظة (لمن يخشى) أي لمن يخاف عقوبة الله يوم القيامة وفي الدنيا .

قوله عزَّ وجلَّ ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم ، فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ، يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ الخطاب : الظاهر أنه عام ، والمقصود الكفار منكرو البعث ، وقفهم على قدرته تعالى (أشد خلقاً) أي أصعب إنشاء (أم السماء) فالمسؤول عن هذا يجيب ولا بد السماء لما يرى من ديمومة بقائها وعدم تأثرها . ثم بين تعالى كيفية خلقها (رفع سمكها) أي جعل مقدارها بها في العلوّ مديداً رفيعاً مقدار خمسمائة عام والسمك : الارتفاع الذي بين سطح السماء التي تليها وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها (فسواها) أي جعلها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع ولا منخفض ، أو تممها وأتقن إنشاءها بحيث إنها محكمة الصنعة (وأغطش) أي : أظلم (ليلها) (وأخرج) أبرز ضوء شمسها كقوله تعالى ﴿والشمس وضحاها﴾[الشمس ١]وقولهم : وقت الضحى الوقت الذي تشرق فيه الشمس . وأضيف الليل والضحى إلى السماء ، لأن الليل ظلها والضحى هو نور سراجها . (والأرض بعد ذلك) أي بعد خلق السماء وما فعل فيها (دحاها)

أي بسطها فخلق الأرض ثم السماء ثم دحا الأرض ، وقرأ الجمهور (والأرض) (والجبال) بنصبهما والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفعهما . وعيسى برفع الأرض وأضيف الماء والمرعى إلى الأرض ، لأنهما يظهران منها . والجمهور (متاعاً) بالنصب أي فعل ذلك تمتيعاً لكم وابن أبي عبلة بالرفع . أي ذلك متاع . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فهلا أدخل حرف العطف على أخرج ؟ (قلت :) فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون معنى (دحاها) بسطها ومهدها للسكنى ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المآكل والمشرب وإمكان القرار عليها . والثاني : أن يكون (أخرج) حالاً بإضمار قد كقوله ﴿أوجاؤوكم حصرت صدورهم﴾ [النساء ٩٠] انتهى . وإضمار قد قول للبصريين . ومذهب الكوفيين والأخفش أن الماضي يقع حالاً ولا يحتاج إلى إضمار قد وهو الصحيح . ففي كلام العرب وقع ذلك كثيراً . انتهى . (ومرعاها) مَفْعَل من الرعي فيكون مكاناً وزماناً ومصدراً ، وهو هنا مصدر يراد به اسم المفعول كأنه قيل : ومرعيها : أي النبات الذي يرعى وقدم الماء على المرعى ، لأنه سبب في وجود المرعى ، وشمل (ومرعاها) ما يتقوت به الآدمي والحيوان ، وغيره فهو في حق الآدمي استعارة ولهذا قيل دل الله سبحانه وتعالى بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح ، لأنه من الماء (فإذا جاءت الطامة) قال ابن عباس والضحاك : القيامة . وقال ابن عباس أيضاً والحسن : النفخة الثانية . وقال القاسم : وقت سوق أهل الجنة إليها وأهل النار إليها وهو معنى قول مجاهد : (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) أي : عمله الذي كان سعى فيه في الدنيا . وقرأ الجمهور (وبُرِّزَت) مبنياً للمفعول مشدد الراء (لمن يرى) بياء الغيبة ، أي لكل أحد فيشكر المؤمن نعمة الله ، وقيل (لمن يرى) هو الكافر . وعائشة وزيد بن علي وعكرمة ومالك بن دينار مبنياً للفاعل مخففاً وبتاء ، ويجوز أن يكون خطاباً للرسول ـ ﷺ ـ أي لمن ترى من أهلها ، وأن يكون إخباراً عن الجحيم فهي تاء التأنيث قال تعالى ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ [الفرقان ١٢] ، وقال أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن أبي عمرو : (وبُرِزَت) مبنياً ومخففاً و (يوم يتذكر) بدل من (فإذا) وجواب (إذا) قال الزمخشري : فإن الأمر كذلك . وقيل : عاينوا وعلموا ، ويحتمل أن يكون التقدير : انقسم الراؤون قسمين ، والأولى أن يكون الجواب (فأما) وما بعده ، كما تقول : إذا جاءك بنو تميم فأما العاصي فأهنه وأما الطائع فأكرمه . (طغى) تجاوز الحد في عصيانه (وآثر الحياة الدنيا) على الآخرة ، وهي مبتدأ أو فصل والعائد على (مَنْ) من الخبر محذوف على رأي البصريين ، أي المأوى له وحسن حذفه وقوع (المأوى) فاصلة ، وأما الكوفيون فمذهبهم أن أل عوض من الضمير . وقال الزمخشري : والمعنى فإن الجحيم مأواه ، كما تقول للرجل : غض الطرف تريد طرفك ، وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة ولكن لما علم أن الطاغي هو صاحب المأوى وأنه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الإضافة ودخول حرف التعريف في (المأوى) والطرف للتحريف لأنهما معرفان . انتهى . وهو كلام لا يتحصل منه الرابط العائد على المبتدأ إذ قد نفى مذهب الكوفيين ، ولم يقدر ضميراً محذوفاً كما قدره البصريون فرام حصول الربط بلا رابط ، (وأما من خاف مقام ربه) أي مقاماً بين يدي ربه يوم القيامة للجزاء . وفي إضافة المقام إلى الرب تفخيم للمقام وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعاً عظيماً . قال ابن عباس : خافه عندما هم بالمعصية فانتهى عنها (ونهى النفس عن الهوى) أي عن شهوات النفس وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بمحمود ، قال سهل : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين . وقال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه . وقال عمران الميرتليّ :

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَاعْصِهَا إنَّ مَنْ يُطِعْ ... هَوَى نَفْسِهِ تَنْزِعْ بِهِ كُلَّ مَنْزِعِ
وَمَنْ يُطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَةَ تُرْدِهِ ... وَتَرْمِ بِهِ فِي مَصْرعٍ أَيِّ مَصْرَعِ

وقال الفضيل : أفضل الأعمال خلاف الهوى وهذا التفصيل هو عام في أهل الجنة وأهل النار . وعن ابن عباس :

نزل ذلك في أبي جهل ومصعب بن عمير العبدري - رضي الله تعالى عنه - وعنه أيضاً (فأما من طغى) فهو أخ لمصعب بن عمير أسر فلم يشدوا وثاقه وأكرموه وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدثوا مصعباً فقال ما هو لي بأخ شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً فأوثقوه(وأما من خاف مقام ربه) فمصعب بن عمير وقى رسول الله - ﷺ - بنفسه يوم أحد حين تفرّق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه وهي السهام فلما رآه رسول الله - ﷺ - متشحطاً في دمه ، قال : عند الله أحتسبك ، وقال لأصحابه : لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعله من ذهب » ، قيل : واسم أخيه عامر . وفي الكشاف : وقيل الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله - ﷺ - بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه . انتهى . (يسألونك) أي قريش ، وكانوا يلحون في البحث عن وقت الساعة إذ كان يتوعدهم بها ، ويكثر من ذلك فنزلت هذه الآية (أيان مرساها) متى إقامتها ؟ أي متى يقيمها الله ؟ ويثبتها ويكونها ؟ وقيل : أيان منتهاها ومستقرها ؟ كما أن مرسى السفينة ومستقرها حيث تنتهي إليه (فيم أنت من ذكراها) قالت عائشة : « رضي الله تعالى عنها - كان رسول الله - ﷺ - يسأل عن الساعة كثيراً فلما نزلت هذه الآية انتهى . والمعنى في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها أي لست من ذلك في شيء ، (إنما أنت منذر) (إلى ربك منتهاها) أي انتهاء علم وقتها لم يؤت علم ذلك أحداً من خلقه . وقيل (فيم) إنكاراً لسؤالهم ، أي فيم هذا السؤال ثم قال (أنت من ذكراها) وعلامة من علاماتها ، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ، ولا معنى لسؤالهم عنها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، أي لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون إنذارك لطفاً به في الخشية منها . انتهى . وهذا القول حكاه الزمخشري وزمكه بكثرة ألفاظه ، وهو تفكيك للكلام وخروج عن الظاهر المتبادر إلى الفهم ولم يخله من دسيسة الاعتزال . وقرأ الجمهور (منذرُ من) بالإضافة ، وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وأبو عمرو في رواية وابن مقسم (منذرٌ) بالتنوين . وقال الزمخشري : وقرىء (منذرٌ) بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف . وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة ، كقولك : هو منذر زيد أمس انتهى أما قوله : وهو الأصل يعني التنوين فهو قول قد قاله غيره ممن تقدم . وقد قررنا في هذا الكتاب وفيما كتبناه في هذا العلم : أن الأصل الإضافة لأن العمل إنما هو بالشبه والإضافة هي أصل في الأسماء . وأما قوله : فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة ، فهذا فيه تفصيل وخلاف مذكور في علم النحو . وخص (من يخشاها) لأنه هو المنتفع بالإنذار (كأنهم يوم يرونها) تقريب وتقرير لقصر مقامهم في الدنيا (لم يلبثوا) لم يقيموا في الدنيا (إلا عشية) يوم أو بكرته . وأضاف الضحى إلى العشية ، لكونها طرفي النهار بدأ بذكر أحدهما فأضاف الأخر إليه تجوّزاً واتساعاً وحسن الإضافة كون الكلمة فاصلة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة عبس مكية وهي اثنتان وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

تَصَدَّى تعرّض ، قال الراعي :

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ ... سِرَاجُ الدُّجَى يُجْبَى إِلَيْهِ الأَسَاوِرُ[1]

وأصله : تصدَّدَ من الصدد ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك . يقال : داري صدد داره ، أي قبالتها . وقيل : من الصدى وهو العطش ، وقيل : من الصدى وهو الصوت الذي تسمعه إذا تكلمت من بعد في خلاء كالجبل ، والمصاداة : المعارضة . السفرة : الكتبة ، الواحد سَافِر . وسَفِرت المرأة : كشفت النقاب وسفرت بين القوم أسفر سفارة : أصلحت بينهم ، قاله الفراء الواحد سفير والجمع سفراء . قال الشاعر :

فَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي ... وَمَا أَسْعَى بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ[2]

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٠٩ ، وروي (السواتر) بدل (الأساور) .

(٢) البيت من الوافر لم نهتد لقائله انظر فتح القدير (٥/٣٨٣) .

القضب : قال الخليل : القضب : الفصفصة الرطبة ، ويقال بالسين فإذا يبست فهي القت . قال : والقضب : اسم يقع على ما يقع من أغصان الشجرة ليتخذ منها سهام أو قسي . الغلب : جمع غلباء ، يقال : حديقة غلباء . غليظة الشجر ملتفته . واغْلَولَب الشعب : بلغ والتف بعضه ببعض ، ورجل أغلب : غليظ الرقبة . والأصل في هذا الوصف استعماله في الرقاب . ومنه قول عمرو بن معدي كرب :

يَسْعَى بِهَا غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ ... بُزْلٌ كُسِينَ مِنَ الشُّعُورِ جِلَالَا[1]

الأب : المرعى لأنه يُؤب ، أي يُؤم وينتجع والأَبّ والأم أخوانِ ، قال الشاعر :

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا ... وَلَنَا الأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعِ[2]

وقيل : ما يأكله الآدميون من النبات يسمى الحصيد ، وما أكله غيرهم يسمى الأب . ومنه قول بعض الصحابة يمدح رسول الله ﷺ :

لَهُ دَعْوَةٌ مَيْمُونَةٌ رِيحهَا الصَّبَا ... بِهَا يُنْبِتُ الله الْحَصِيدَةَ وَالأَبَّا[3]

الصاخة : قال الخليل : صيحة تصخ الآذان صخاً : أي : تصمها لشدة وقعتها ، وقيل : مأخوذة من صخه بالحجر إذا صكه . وقال الزمخشري : أصاخ لحديثه مثل أصاخ له . الغبرة : الغبار ، القترة : سواد كالدخان . وقال أبو عبيدة القتر في كلام العرب الغبار جمع القترة . وقال الفرزدق :

مُتَوَّجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتْبَعُهُ ... فَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرايَاتِ وَالقَتَرَا[4]

﴿ عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدّى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة ، قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ، فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبّاً ، متاعاً لكم ولأنعامكم ، فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ هذه السورة مكية . وسبب نزولها مجيء ابن أم مكتوم إليه ـ ﷺ ـ وقد ذكر أهل الحديث وأهل التفسير قصته . ومناسبتها لما قبلها : أنه لما ذكر ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾[النازعات ٤٥] ذكر في هذه من ينفعه الإنذار ومن لم ينفعه الإنذار ، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام ، عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل ، وأبيّ وأمية ، ويدعوهم إليه (أن جاءه) مفعول من أجله ، أي : لأن جاءه ويتعلق بـ (تولى) على مختار البصريين في الإعمال وبـ (عبس) على مختار أهل الكوفة . وقرأ الجمهور (عبَس) مخففاً (أن) بهمزة واحدة . وزيد بن علي بشد الباء . وهو

---

(١) البيت من الكامل انظر الكشاف ٤/٥٦٢ .

(٢) البيت من الرمل انظر اللسان (أيب) الكشاف ٤/٥٦٣ .

(٣) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر المصون .

(٤) البيت من البسيط انظر الديوان ٢٣٤ .

والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى (آآن) بهمزة ومدة بعدها . وبعض القراء بهمزتين محققتين . والهمزة في هاتين القراءتين للاستفهام وفيهما يقف على (تولى) . والمعنى : ألأن جاءه كاد كذا . وجاء بضمير الغائب في (عبس وتولى) إجلالاً له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولطفاً به أن يخاطبه ، لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى . وجاء لفظ (الأعمى) إشعاراً بما يناسب من الرفق به والصغو لما يقصده . ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً . والضمير في (لعله) عائد على (الأعمى) أي يتطهر بما يتلقن من العلم (أو يذكر) أي يتعظ (فتنفعه) ذكراك ، أي موعظتك ، والظاهر نصب (يدريك) على جملة الترجي ، فالمعنى : لا تدري ما هو مترجى منه من تزك أو تذكر . وقيل : والمعنى وما يطلعك على أمره وعقبى حاله ، ثم ابتدأ القول (لعله يزكى) أي تنمو بركته ويتطهر لله . وقال الزمخشري : وقيل : الضمير في (لعله) للكافر يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق (وما يدريك) أن ما طمعت فيه كائن انتهى . وهذا قول ينزه عنه حمل القرآن عليه . وقرأ الجمهور (أو يذَّكَّر) بشد الذال والكاف ، وأصله يتذكر ، فأدغم والأعرج وعاصم في رواية (أو يذْكُر) بسكون الذال وضم الكاف . وقرأ الجمهور (فتنفعُه) برفع العين عطفاً على (أو يذكرُ) وعاصم في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني بنصبها ، قال ابن عطية : في جواب التمني لأن قوله (أو يذكر) في حكم قوله (لعله يزكى) انتهى . وهذا ليس تمنياً إنما هو ترج ، وفرق بين الترجي والتمني . وقال الزمخشري : وبالنصب جواباً لـ (لعل) كقوله ﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ [القصص ٣٨] انتهى . والترجي عند البصريين لا جواب له ، فينصب باضمار أن بعد الفاء . وأما الكوفيون فيقولون ينصب في جواب الترجي . وقد تقدم لنا الكلام على ذلك في قوله (فأطلع إلى إله موسى) في قراءة حفص ، ووجهنا مذهب البصريين في نصب المضارع ، (أما من استغنى) ظاهره من كان ذا ثروة وغنى . وقال الكلبي : عن الله وقيل : عن الإيمان بالله . قيل : وكونه بمعنى الثروة لا يليق بمنصب النبوة ، ويدل على ذلك : أنه لو كان من الثروة لكان المقابل : وأما من جاءك فقيراً حقيراً . وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والأعرج وعيسى والأعمش وجمهور السبعة (تَصَدَّى) بخف الصاد . وأصله : يتصدى ، فحذف والحرميان بشدها ، أدغم التاء في الصاد ، وأبو جعفر (تُصَدَّى) بضم التاء وتخفيف الصاد . أي يصديك حرصك على إسلامه ، يقال : تصدى الرجل وصديته ، وهذا المستغني هو الوليد أو أمية أو عتبة وشيبة أو أمية وجميع المذكورين في سبب النزول . أقوال . قال القرطبي : وهذا كله غلط من المفسرين ، لأن أمية والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما وماتا كافرين ، أحدهما : قبل الهجرة والآخر : في بدر ولم يقصد قط أمية المدينة ، ولا حضر معه مفرداً ولا مع أحد . انتهى . والغلط من القرطبي كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما ، وهو وهم منه ، وكلهم من قريش ، وكان ابن أم مكتوم بها والسورة كلها مكية بالإجماع وكيف يقوم وابن أم مكتوم بالمدينة كان أولاً بمكة ثم هاجر إلى المدينة وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية وابن أم مكتوم : هو عبد الله بن سرح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وأم مكتوم أم أبيه عاتكة وهو ابن خال خديجة ـ رضي الله عنها ـ (وما عليك أن لا يزكى) تحقير لأمر الكافر وحض على الإعراض عنه وترك الاهتمام به ، أي وأي شيء عليك في كونه لا يفلح ولا يتطهر من دنس الكفر ؟ (وأما من جاءك يسعى) أي يمشي بسرعة في أمر دينه (وهو يخشى) أي يخاف الله ، أو يخاف الكفار وأذاهم أو يخاف العثار والسقوط لكونه أعمى وقد جاء بلا قائد يقوده (تلهى) تشتغل يقال : لها عن الشيء يلهى إذا اشتغل عنه . قيل : وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو انتهى . ويمكن أن يكون منه ، لأن ما يبنى على فعل من ذوات الواو تنقلب واوه ياء لكسرة ما قبلها نحو شقي يشقى ، فإن كان مصدره جاء بالياء فيكون من مادة غير مادة اللهو وقرأ الجمهور (تلهى) والبزي عن ابن كثير (عَنْهُ وتلهى) بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل . وأبو جعفر بضمها مبنياً للمفعول أي بشغلك دعاء الكافر للإسلام . وطلحة بتاءين وعنه بتاء واحدة وسكون اللام . (كلا إنها) أي سورة القرآن أو الآيات (تذكرة) عظة ينتفع بها . (فمن شاء

ذكره) أي فمن شاء أن يذكر هذه الموعظة ذكره . أتى بالضمير مذكراً لأن التذكرة هي الذكر ، وهي جملة معترضة تتضمن الوعد والوعيد ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ [المزمل ١٩] واعترضت بين (تذكرة) وبين صفته أي تذكرة كائنة (في صحف) ، قيل : اللوح المحفوظ . وقيل : صحف الأولياء المنزلة . وقيل : صحف المسلمين فيكون إخباراً بمغيب إذ لم يكتب القرآن في صحف زمان كونه ـ عليه السلام ـ بمكة ينزل عليه القرآن (مكرمة) عند الله ، و (مرفوعة) في السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلام ، أو مرفوعة عن الشبه والتناقض ، أو مرفوعة المقدار (مطهرة) أي منزهة عن كل دنس قاله الحسن ، وقال أيضاً : (مطهرة) من أن تنزل على المشركين . قال الزمخشري : منزهة عن أيدي الشياطين لا تمسها إلا أيدي ملائكة مطهرة (سفرة) كتبة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ . انتهى . (بأيدي سفرة) قال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبة ، وقال أيضاً : لأنهم يسفرون بين الله تعالى وأنبيائه . وقال قتادة : هم القراء . وواحدة السفرة سافر . وقال وهب : هم الصحابة لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والعلم . (قتل الإنسان ما أكفره) ، قيل : نزلت في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه ، فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام فبعث إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كافر برب النجم إذا هوى . وروي « أنه ـ ﷺ ـ قال : اللهم ابعث عليه كلبك يأكله فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله ، فأقبل الأسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويبكي عليه ، وقال : ما قال محمد شيئاً قط إلا كان » والآية وإن نزلت في مخصوص فالإنسان يراد به الكافر . وقتل دعاء عليه والقتل أعظم شدائد الدنيا . (ما أكفره) الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره والتعجب بالنسبة للمخلوقين إذ هو مستحيل في حق الله تعالى أي هو ممن يقال فيه ما أكفره . وقيل : (ما) استفهام توقيف . أي أي شيء أكفره؟ أي : جعله كافراً بمعنى لأي شيء يسوغ له أن يكفر . (من أي شيء خلقه) ؟ استفهام على معنى التقرير على حقارة ما خلق منه . ثم بين ذلك الشيء الذي خلق منه فقال (من نطفة خلقه فقدره) أي فهيأه لما يصلح له . وقال ابن عباس : أي في بطن أمه . وعنه : قدر أعضاءه وحسناً ودميماً وقصيراً وطويلاً وشقياً وسعيداً . وقيل : من حال إلى حال نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه(ثم السبيل يسره) أي ثم يسر السبيل ، أي سهل ، قال ابن عباس وقتادة وأبو صالح والسدي : سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان ، وتيسيره له هو هبة العقل ، وقال مجاهد والحسن وعطاء وابن عباس في رواية أبي صالح عنه : السبيل العام اسم الجنس في هدى وضلال ، أي يسر قوماً لهذا كقوله ﴿إنا هديناه السبيل﴾ [الإنسان ٣] الآية وقوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد ١٠] وعن ابن عباس يسره للخروج من بطن أمه. (ثم أماته فأقبره) أي جعل له قبراً صيانة لجسده أن يأكله الطير والسباع (قبره) دفنه وأقبره : صيره بحيث يقبر وجعل له قبراً ، والقابر : الدافن بيده ، قال الأعشى :

لَـوْ أَسْنَـدَتْ مَيْتـاً إِلَى قَبْـرِهَـا عَـاشَ وَلَمْ يُنْـقَـلْ إِلَى قَـابِـرِ

(ثم إذا شاء أنشره) أي أراد إنشاره أنشره . والمعنى : إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه الله وهو يوم القيامة . وفي كتاب اللوامح : شعيب بن الحبحاب (شاء نشره) بغير همز قبل النون ، وهما لغتان في الأحياء ، وفي كتاب ابن عطية : وقرأ شعيب بن أبي حمزة (شاء نشره) ، (كلا) ردع للإنسان عن ما هو فيه من الكفر والطغيان لما يقضي في من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ما أمره به الله تعالى . فالضمير في (يقض) للإنسان ، وقال ابن فورك : لله تعالى ، أي لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره بما لم يقض له . ولما عدّد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر النعم فيما به قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه حتى صار بصدد أن يطعم . والظاهر أن الطعام هو المطعوم ، وكيف يسره الله تعالى بهذه الوسائط المذكورة من صب الماء ، وشق الأرض ، والإنبات وهذا قول الجمهور . وقال أبيّ وابن

عباس ومجاهد والحسن ، وغيرهم (إلى طعامه) أي إذا صار رجيعاً ليتأمل عاقبة الدنيا على أي شيء يتفانى أهلها . وقرأ الجمهور (إنَّا) بكسر الهمزة . والأعرج وابن وثاب والأعمش والكوفيون ورويس (أنَّا) بفتح الهمزة . والحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنهما (أنِّي) بفتح الهمزة ممالاً ، فالكسر على الاستئناف في ذكر تعداد الوصول إلى الطعام ، والفتح قالوا على البدل ورده قوم لأن الثاني ليس الأول ، قيل : وليس كما ردوا ، لأن المعنى فلينظر الإنسان إلى انعامنا في طعامه ، فترتب البدل وصح انتهى ، كأنهم جعلوه بدل كل من كل . والذي يظهر أنه بدل الاشتمال وقراءة أبيّ ممالاً على معنى : فلينظر الإنسان كيف صببنا . وأسند تعالى الصب والشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . وصب الماء هو المطر . والظاهر أن الشق : كناية عن شق الفلاح بما جرت العادة أن يشق به ، وقيل : شق الأرض هو بالنبات . (حباً) يشمل ما يسمى حباً من حنطة وشعير وذرة وسلت وعدس وغير ذلك . (وقضْباً) قال الحسن : العلف ، وأهل مكة يسمون القت القضب . وقيل : الفصفصة وضعف لأنه داخل في الأب ، وقيل : ما يقضب ليأكله ابن آدم غضاً من النبات كالبقول والهليون . وقال ابن عباس : هو الرطب ، لأنه يقضب من النخل ولأنه ذكر العنب قبله . (غُلْباً) قال ابن عباس : غلاظاً وعنه : طوالاً وعن قتادة : وابن زيد : كراماً (وفاكهة) ما يأكله الناس من ثمر الشجر كالخوخ والتين (وأبا) ما تأكله البهائم من العشب . وقال الضحاك : التبن خاصة . وقال الكلبي : كل نبات سوى الفاكهة رطبها والأب يابسها . الصاخة : اسم من أسماء القيامة ، يصم نبأها الآذان ، تقول العرب صختهم الصاخة ، ونابتهم النائبة ، أي الداهية . وقال أبو بكر بن العربي : الصاخة : هي التي تورث الصمم وإنها لمسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة ، كقوله :

أَصَمَّهُمْ سِرُّهُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِهِمْ ... فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَمَا[1]

وقول الآخر :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا[2]

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة . انتهى . (يوم يفر) بدل من (إذا) وجواب (إذا) محذوف تقديره : اشتغل كل إنسان بنفسه يدل عليه (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وفراره ومن شدّة الهول يوم القيامة كما جاء من قول الرسل : « نفسي نفسي » ، وقيل : خوف التبعات ، لأن الملابسة تقتضي المطالبة ، يقول الأخ لم تواسني بمالك ، والأبوان قصرت في برنا ، والصاحبة أطعمتني الحرام ، وفعلت وصنعت ، والبنون لم تعلمنا وترشدنا . وقرأ الجمهور (يُغْنيه) أي عن النظر في شأن الآخر من الإغناء . والزهري وابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميفع (يَعنيه) بفتح الياء والعين المهملة ، من قولهم : عناني الأمر قصدني (مسفرة) مضيئة من أسفر الصبح أضاء . (وترهقها) تغشاها (قترة) أي : غبار والأولى ما يغشاه من العبوس عند الهم ، والثانية من غبار الأرض . وقيل (غبرة) أي من تراب الأرض ، و (قترة) سواد كالدخان ، وقال زيد بن أسلم : الغبرة : ما انحطت إلى الأرض . والقترة : ما ارتفعت إلى السماء . وقرأ الجمهور (قَتَرَة) بفتح التاء وابن أبي عبلة بإسكانها .

---

(١) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٢) صدر بيت من الطويل لأبي تمام ، انظر الديوان ٤/١٩٧ وعجزه .

.... وأصبح معنى الجود بعدك بلقعا

سورة التكوير مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

انكدرت النجوم : انتثرت ، وقال أبو عبيدة : انصبت كما تنصب العقاب إذا كسرت ، قال العجاج يصف صقراً :

أَبْـصَـرَ خِـرْبَـانَ فَـلاةٍ فَـانْـكَـدَرْ ... تَقَضِّيَ البَـازِي إذَا البَـازِي كَسَرْ[1]

العِشَار : جمع عشراء ، وهي الناقة التي مر لحملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع في تمام السنة ، التعطيل : التفريغ والإهمال . الوحش : حيوان البر الذي ليس في طبعه التأنس ببني آدم ، الموءودة ، البنت التي تدفن حية ، وأصله من النقل كأنها تنقل من التراب حتى تموت ، ومنه اتئد ، أي توقر وأثقل ، ولا تخف . الكشط : التقشير ، كشطت جلد الشاة : سلخته عنها ، الخُنَّس : جمع خانس والخنوس : الانقباض والاستخفاء ، تقول خنس بين القوم وانخنس . الكُنَّس : جمع كانس وكانسة يقال : كنسَ إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الظباء . والخَنَس : تأخر الأنف عن الشفة مع ارتفاع قليل من الأرنبة . عَسْعَس : قال الفراء : عسعس الليل وعسَسَ إذا لم يبق منه إلا القليل . وقال الخليل : عَسْعَس الليل : أقبل وأدبر . قال المبرد : هو من الأضداد . وقال علقمة بن قرط :

حَتَّى إذَا الصُّبْـحُ لَهَـا تَـنَفَّسَـا ... وَانْـجَـابَ عَـنْـهَـا لَـيْـلُهَـا وَعَـسْـعَـسَـا

---

(١) البيت من مشطور الرجز انظر ديوانه ٢٨ ، المحتسب ١/١٥٧ وقد تقدم .

وقال رؤبة :

يَـا هِنْـدُ مَـا أَسْـرَعَ مَـا تَعَسْعَسَـا مِنْ بَعْـدِمَـا كَـانَ فَتىً قَـرَعْـرَعَـا

التنفُّس : خروج النسيم من الجوف ، واستعير للصبح ومعناه امتداده حتى يصير نهاراً واضحاً ، الظَّنين : المتهم ، فعيل بمعنى مفعول ظننت الرجل اتهمته ، والضَّنين : البخيل ، قال الشاعر :

أَجُـودُ بِمَكْنُـونِ الْحَـدِيثِ وَإِنَّنِي بِسِـرِّكَ عَنْ مَـا سَـأَلْتَنِي لَضَنِيـنُ

﴿ إذا الشمس كوّرت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوّجت ، وإذا الموءودة سئلت، بأيِّ ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت ، فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوّة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثمَّ أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها في غاية « الظهور » وتكوير الشمس . قال ابن عباس : إدخالها في العرش . وقال مجاهد وقتادة والحسن : ذهاب ضوئها . وقال الربيع بن خيثم : رمى بها ، ومنه كورته فتكوّر ، وقال أبو صالح : نكست ، وعن ابن عباس أيضاً : أظلمت ، وعن مجاهد : اضمحلت ، وقيل : غوّرت . وقيل : يلف بعضها ببعض ويرمى بها في البحر ، وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة . وقال القرطبي : من كار العمامة على رأسه يكورها ، أي لاثها وجمعها فهي تكور ثم يمحى ضوءها ثم يرمى بها ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ارتفاع الشمس على ابتداء أو الفاعلية ؟ (قلت :) بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كورت لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط انتهى . ومن طريقته أنه يسمي المفعول الذي لم يسم فاعله فاعلاً ولا مشاحة في الاصطلاح وليس ما ذكر من الإعراب مجمعاً على تحتمه عند النحاة بل يجوز رفع الشمس على الابتداء عند الأخفش والكوفيين ، لأنهم يجيزون أن تجيء الجملة الاسمية بعد إذا نحو : إذا زيد يكرمك فأكرمه (انكدرت) عن ابن عباس : تساقطت . وعنه أيضاً تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها ، من قولهم : ماء كدر . أي : متغير . وتسيير الجبال : أي عن وجه الأرض أو سيرت في الجو تسيير السحاب كقوله ﴿ وهي تمر مر السحاب﴾[النمل ٨٨] وهذا قبل نسفها وذلك في أول هول يوم القيامة . و (العشار) أنفس ما عند العرب من المال . وتعطيلها : تركها مسيبة مهملة أو عن الحلب ، لاشتغالهم بأنفسهم ، أو عن أن يحمل عنها الفحول . وأطلق عليها عشاراً باعتبار ما سبق لها ذلك . قال القرطبي : وهذا على وجه المثل لأنه في القيامة لا يكـون عشراء ، فالمعنى : أنه لو كان عشراء لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم . وقيل : إذا قاموا من القبور شاهدوا الوحوش والدواب محشورة وعشارهم فيها التي كانت كرائم أموالهم لم يعبؤوا بها لشغلهم بأنفسهم ، وقيل: العشار : السحاب ، وتعطيلها من الماء فلا تمطر ، والعرب تسمي السحاب بالحامل : وقيل : العشار : الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : العشار : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع وقرأ الجمهور (عُطِّلت) بتشديد الطاء . ومضر عن اليزيدي بتخفيفها ، كذا في كتاب ابن خالويه ، وفي كتاب اللوامح عن ابن كثير ، قال : في اللوامح : وقيل : هو وهم إنما هو عـطلت بفتحتين بمعنى تعطلت ، لأن التشديد فيه التعدي يقال منه عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه ، وعطلت المرأة فهي عاطل إذا لم يكن عليها الحلي فلعل هذه القراءة عن ابن كثير لغة استوى فيها فعلت وأفعلت ـ والله أعلم ـ . انتهى . وقال امرؤ القيس :

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ[1]

(حشرت) أي جمعت من كل ناحية . فقال ابن عباس : جمعت بالموت فلا تبعث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين . وعنه وعن قتادة وجماعة : يحشر كل شيء حتى الذباب . وعنه : تحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها البعض ثم يقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها موتي فتموت . وقيل : إذا قضى بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس ونحوه . وقال أبي : في الدنيا في أول الهول تفر في الأرض وتجتمع إلى بني آدم تأنساً بهم . وقرأ الجمهور (حُشرَت) بخف الشين والحسن وعمرو بن ميمون بشدها . (وإذا البحار سُجِّرت) تقدم أقوال العلماء في سجر البحر في الطور ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور ٦] وفي كتاب لغات القراءات : سُجِرت جمعت بلغة خثعم . وقال هنا ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى ملكت وقيد اضطرابها حتى لا تخرج على الأرض من الهول فتكون اللفظة مأخوذة من ساجور الكلب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بخف الجيم وباقي السبعة بشدها . قال ابن عطية : وذهب قوم إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأحواله عند الموت فالشمس نفسه والنجوم عيناه وحواسه وهذا قول ذاهب إلى إثبات الرموز في كتاب الله تعالى . انتهى . وهذا مذهب الباطنية ومذاهب من ينتمي إلى الإسلام من غلاة الصوفية . وقد أشرنا إليهم في خطبة هذا الكتاب وإنما هؤلاء زنادقة تستروا بالانتماء إلى ملة الإسلام وكتاب الله جاء بلسان عربي مبين لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ولا إيماء لشيء مما تنتحله الفلاسفة ولا أهل الطبائع . ولقد ضمن تفسيره أبو عبد الله الرازي المعروف بابن خطيب الري أشياء مما قاله الحكماء عنده وأصحاب النجوم وأصحاب الهيئة وذلك كله بمعزل عن تفسير كتاب الله عز وجل ، وكذلك ما ذكره صاحب التحرير والتحبير في آخر ما يفسره من الآيات من كلام من ينتمي إلى الصوف ويسميها الحقائق وفيها ما لا يحل كتابته فضلاً عن أن يعتقد نسأل الله تعالى السلامة في ديننا وعقائدنا وما به قوام ديننا ودنيانا . (وإذا النفوس زوجت) أي : المؤمن مع المؤمن ، والكافر مع الكافر كقوله ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة ٧] قاله عمر وابن عباس ، أو نفوس المؤمنين بأزواجهم من الحور العين وغيرهن . قاله مقاتل بن سليمان ، أو الأزواج الأجساد ، قاله عكرمة والضحاك والشعبي . وقرأ عاصم في رواية (زُوِّجَتْ) على فُوعِلَت ، والمفاعلة تكون بين اثنين والجمهور بواو مشددة . وقال الزمخشري : وَأَدِيئِد مقلوب من يؤود إذ أثقل قال الله تعالى ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة ٢٥٥] لأنه اثقال بالتراب . انتهى . ولا يدعى في وأد أنه مقلوب من آد لأن كلا منهما كامل التصرف في الماضي والأمر والمضارع والمصدر اسم الفاعل واسم المفعول وليس فيه شيء من مسوغات ادعاء القلب ، والذي يعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة والآخر ليس كذلك أو كونه مجرداً من حروف الزيادة والآخر فيه مزيداً ، وكونه أكثر تصرفاً والآخر ليس كذلك ، أو أكثر استعمالاً من الآخر وهذا على ما قرروا أحكم في علم التصريف . فالأول كـ (يئس) وأيس ، والثاني كـ (طَأْمَنَ) و (طَمْأَنَ) ، والثالث كشوايع وشواع ، والرابع كلعمري ورعملي . وقرأ الجمهور (المَوْءُدَة) بهمزة بين الواوين اسم مفعول . وقرأ البزي في رواية (الموؤدة) بهمزة مضمومة على الواو ، فاحتمل أن يكون الأصل المؤودة فحذف إحدى الواوين على الخلاف الذي فيه المحذوف ، واو المد أو الواو التي هي عين نحو مقوول حيث قالوا مقول . وقرىء (المُوودة) بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة ، أعني التسهيل بالحذف ونقل حركتها إلى الواو ، وقرأ الأعمش (المَوْدة) بسكون الواو على وزن الفَعْلة ، وكذا وقف لحمزة بن مجاهد ، ونقل القراء أن حمزة يقف عليها كالمودة لأجل الخط ، لأنها رسمت كذلك والرسم سنة متبعة . وقرأ الجمهور (سُئِلَت) مبنياً للمفعول ، (بأي ذنب قتلت) كذلك وخف الياء وبتاء التأنيث فيهما ، وهذا السؤال هو لتوبيخ الفاعلين للوأد ، سؤالها يؤول إلى سؤال

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٦ المعلقات للزوزني ٣٢ .

الفاعلين وجاء (قُتِلت) بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكي ما خوطبت به حين سئلت لقيل قتلت . وقرأ الحسن والأعرج (سِئلت) بكسر السين وذلك على لغة من قال سأل بغير همز . وقرأ أبو جعفر بشد الياء، لأن الموءودة اسم جنس فناسب التكثير باعتبار الأشخاص . وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد (سَألَتْ) مبنياً للفاعل (قُتِلْتُ) بسكون اللام وضم التاء حكاية لكلامها حين سئلت ، وعن أبيّ وابن مسعود أيضاً والربيع بن خيثم وابن يعمر (سألت) مبنياً للفاعل (بأي ذنب قتلت) مبنياً للمفعول بتاء التأنيث فيهما إخباراً عنها ولو حكي كلامها لكان قتلتُ بضم التاء ، وكان العرب إذا ولد لأحدهم بنت واستحياها ألبسها جبة من صوف أو شعر وتركها ترعى الإبل والغنم ، وإذا أراد قتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها ألى أحمائها ، وقد حفر حفرة أو بئراً في الصحراء فيذهب بها إليها ويقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي بالأرض . وقيل : كانت الحامل إذا قرب وضعها حفرت حفرة فتمخضت على رأسها فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته . وقد افتخر الفرزدق وهو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بجده صعصعة إذ كان منع وأد البنات ، فقال :

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ فَأَحْيَا الْوَئِيدَ وَلَمْ يُوئِدِ[1]

(وإذا الصحف نشرت) صحف الأعمال كانت مطوية على الأعمال فنشرت يوم القيامة . ليقرأ كل إنسان كتابه . وقيل : الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمائل بالجزاء وهي صحف غير صحف الأعمال ، وقرأ أبو رجاء وقتادة والحسن والأعرج وشيبة وأبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم (نُشِرتْ) بخف الشين ، وباقي السبعة بشدّها ، وكشط السماء : طيها كطي السجل ، وقيل : أزيلت كما يكشط الجلد عن الذبيحة ، وقرأ عبد الله (قُشِطَت) بالقاف وهما كثيراً ما يتعاقبان كقولهم : عربي قح وكح . وتقدّمت قراءته قافوراً أي كافوراً ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص سعرت بشد العين . وباقي السبعة بخفها وهي قراءة عليّ ، قال قتادة : سعرها غضب الله تعالى وذنوب بني آدم وجواب (إذا) وما عطفت عليه (علمت نفس ما أحضرت) ونفس : تعم في الإثبات من حيث المعنى ما أحضرت من خير تدخل به الجنة أو من شر تدخل به النار . وقال ابن عطية : ووقع الإفراد لينبه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه . انتهى . وقرئت هذه السورة عند عبد الله فلما فبلغ القارىء (علمت نفس ما أحضرت) قال عبد الله : وا انقطاع ظهراه. (بالخنس) قال الجمهور: الدراري السبعة، الشمس والقمر، وزحل، وعطارد، والمريخ، والزهرة، والمشتري وقال علي: الخمسة دون الشمس والقمر تجري الخمسة من الشمس والقمر وترجع حتى تخفى مع ضوء الشمس قاله الزمخشري . وقال ابن عطية : تخنس في جريها التي يتعهد فيها ترى العين وهي جوار في السماء وهي تكنس في أبراجها ، أي تستتر . وقال علي أيضاً والحسن وقتادة : هي النجوم كلها ، لأنها تخنس وتكنس بالنهار حين تختفي . وقال الزمخشري : أي تخنس بالنهار وتكنس بالليل أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها . انتهى . وقال عبد الله والنخعي وجابر بن زيد وجماعة : المراد بالخنس الجوار الكنس بقر الوحش ، لأنها تفعل هذه الأفعال في كنائسها . وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك : هي الظباء والخنس من صفة الأنوق لأنها يلزمها الخنس وكذا بقر الوحش (عَسْعَس) بلغة قريش ، وقال الحسن : أقبل ظلامه ويرجح مقابلته بقوله (والصبح إذا تنفس) فهما حالتان . وقال المبرد : أقسم بإقباله وإدباره وتنفسه كونه يجيء معه روح ونسيم فكأنه نفس له على المجاز ، (إنه) أي إن هذا المقسم عليه أي إن القرآن (لقول رسول كريم) الجمهور على أنه جبريل ـ عليه السلام ـ وقيل : محمد ـ ﷺ ـ و (كريم) صفة تقتضي نفي المذام كلها وإثبات صفات المدح اللائقة به . (ذي قوة) كقوله ﴿شديد

---

(١) انظر البيت في اللسان (وأد) .

القوى﴾ [النجم٥](عند ذي) الكينونة اللائقة من شرف المنزلة وعظم المكانة . وقيل : العرش متعلق بـ (مكين مطاع) (ثم) إشارة إلى (عند ذي العرش) أي : أنه مطاع في ملائكة الله المقربين يصدرون عن أمره . وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبـو البرهسـم وابن مقسم (ثُمَّ) بضم الثـاء حرب عـطف . والجمهور (ثَمَّ) بفتحهـا ظرف مكـان للبعيد ، وقـال الزمخشري : (وقرىء (ثم) تعظيماً للأمانة وبياناً ، لأنها أفضل صفاته المعدودة . انتهى . وقال صاحب اللوامح : بمعنى مطاع وأمين وإنما صارت (ثم) بمعنى الواو بعد أن مواضعتها للمهلة والتراخي عطفاً ، وذلك لأن جبريل ـ عليه السلام ـ كان بالصفتين معاً في حال واحدة فلو ذهب ذاهب إلى الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنى مطاع في الملأ الأعلى ثم أمين عند انفصاله عنهم حال وحيه على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لجاز أن لو ورد به أثر انتهى . (أمين) مقبول القول يصدق فيما يقول مؤتمن على ما يرسل به من وحي وامتثال أمره . (وما صاحبكم بمجنون) نفى عنه ما كانوا ينسبونه إليه ويبهتونه به من الجنون (ولقد رآه) أي رأى الرسول ـ ﷺ ـ جبريل ـ عليه السلام ـ وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء الأرض في صورته له ستمائة جناح .وقيل : هي الرؤية التي رآه فيها ﴿عند سدرة المنتهى﴾ [النجم١٤] وسمي ذلك الموضع أفقاً مجازاً ، وقد كانت له ـ عليه السلام ـ رؤية ثانية بالمدينة وليست هذه . ووصف الأفق بالمبين لأنه روى أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، قاله قتادة وسفيان وأيضاً أفق في غاية البيان ، وقيل : في أفق السماء الغربي ، حكاه ابن شجرة ، وقال مجاهد : رآه نحو جياد وهو مشرق مكة . وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروة وهشام بن جندب ومجاهد وغيرهم . ومن السبعة النحـويان وابن كثـير (بظنين بالظاء ، أي بمتهم ، وهذا نظير الوصف السابق بـ (أمين) ، وقيل : معناه بضعيف القوة على التبليغ من قولهم بئر ظنون إذا كانت قليلة الماء ، وكذا هو بالظاء في مصحف عبد الله . وقرأ عثمان وابن عباس أيضاً والحسن وأبو رجاء والأعرج وأبو جعفر وشيبة وجماعة غيرهم وباقي السبعة بالضاد ، أي ببخيل يشح به لا يبلغ ما قيل له وينحل كما يفعل الكاهن حتى يعطي حلوانه . قال الطبري : وبالضاد خطوط المصاحف كلها . (وما هو بقول شيطان رجيم) أي الذي يتراءى له إنما هو ملك لا مثل الذي يتراءى للكهان، (فأين تذهبون) استضلال لهم حيث نسبوه مرة إلى الجنون ، ومرة إلى الكهانة ، ومرة إلى غير ذلك مما هو بريء منه . وقال الزمخشري : كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيات الطريق أين تذهب مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل . انتهى . ذكر (تذكرة) وعظة (لمن شاء) بدل من (للعالمين) ثم عذق مشيئة العبيد بمشيئة الله تعالى ، قال ابن عطية : ثم خصص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر ، تشريفاً وتنبيهاً وذكراً لتلبسهم بأفعال الاستقامة . ثم بين تعالى أن تكسب العبد على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء . انتهى . وقال الزمخشري : وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعاً ، (وما تشاءون) الاستقامة يا من يشاؤها . إلا بتوفيق الله تعالى ولطفه وما تشاؤونها أنتم يا من لا يشاؤوها إلا بقسر الله وإلجائه ، انتهى ففسر كل من ابن عـطية والـزمخشري المشيئه على مذهبه . وقال الحسن : ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها .

سورة الانفطار مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

بعثرت المتاع قلبته ظهر البطن وبعثرت الحوض وبحثرته هدمته وجعلت أعلاه أسفله ﴿ **إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ، إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين ، وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾ هذه السورة مكية ، وانفطارها تقدم الكلام فيه ، وانتثار الكواكب ، سقوطها من مواضعها كالنظام . وقرأ الجمهور (**فُجِّرَت**) بتشديد الجيم ، ومجاهد والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري بخفها ، وتفجيرها ، من امتلائها فتفجر من أعلاها وتفيض على ما يليها ، أو من أسفلها فيذهب الله ماءها حيث أراد ، وعن مجاهد (**فُجِرت**) مبنياً للفاعل مخففاً بمعنى بغت لزوال البرزخ نظراً إلى قوله تعالى ﴿ **لا يبغيان** ﴾ [الرحمن ٢٠] لأن البغي والفجور متقابلان (**بعثرت**) قال ابن عباس بحثت ، وقال السدي : أثيرت لبعث الأموات . وقال الفراء : أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة . وقال الزمخشري : بعثر وبحثر بمعنى واحد وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما والمعنى بحثت وأخرج موتاها . وقيل : البراءة المبعثرة ، لأنها بعثرت أسرار المنافقين . انتهى . فظاهر قوله : انهما مركبان أن مادتهما ما ذكر ، وأن الراء ضمت إلى هذه المادة ، والأمر ليس كما يقتضيه كلامه ، لأن الراء ليست من حروف الزيادة بل هما مادتان مختلفتان وإن اتفقا من حيث المعنى ، وأما أن إحداهما مركبة من كذا فلا ونظيره قولهم دمث ودمثر وسبط وسبطر ، (**ما قدمت وأخرت**) تقدم الكلام على شبهه في سورة القيامة . وقرأ الجمهور (**ما غرك**) فـ (**ما**) استفهامية ، وقرأ ابن جبر والأعمش (**ما أغرك**)

بهمزة فاحتمل أن يكون تعجباً واحتمل أن تكون ما استفهامية ، وأغرك : بمعنى : أدخلك في الغرة ، وقال الزمخشري : من قولك غر الرجل فهو غار إذا غفل من قولك بينهم العدو وهم غارون وأغره غيره جعله غاراً . انتهى . وروي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرأ ما غرك بربك الكريم ، فقال : جهلة وقاله عمر رضي الله تعالى عنه . وقرأ ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب ٧٢] وهذا يترتب في الكافر والعاصي . وقال قتادة : عدوه المسلط عليه . وقيل : ستر الله عليه ، وقيل : كرم الله ولطفه يلقن هذا الجواب فهذا لطف بالعاصي المؤمن . وقيل : عفوه عنه إن لم يعاقبه أول مرة . وقال الفضيل رضي الله عنه : يستره المرخي . وقال ابن السماك :

يَـا كَـاتِمَ الـذَّنْبِ أَمَـا تَسْتَحِي ... وَاللهُ فِـي الْـخـلْوَةِ رَائِـيـكَـا
غَـرَّكَ مِـنْ رَبِّـكَ إِمْـهَـالُـهُ ... وَسَـتْـرُهُ طُـولَ مَـسَـاوِيـكَـا

وقال الزمخشري : في جواب الفضيل : وهذا على سبيل الاعتراف بالخطإ بالاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم إنما قال (بربك الكريم) دون سائر صفاته ، ليلقن عبده الجواب حتى يقول غرني كونه الكريم . انتهى . وهو عادته في الطعن على أهل السنة . (فسواك) جعلك سوياً في أعضائك (فعدَّلَكَ) صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وطلحة والأعمش وعيسى وأبو جعفر والكوفيون بخف الدال وباقي السبعة بشدها وقراءة التخفيف إما أن تكون كقراءة التشديد ، أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت ، وإما أن يكون معناه فصرفك ، يقال : عدله عن الطريق أي عدلك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق ، أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات . والظاهر أن قوله (في أي صورة) متعلق (بربك) أي وضعك في صورة اقتضتها مشيئته من حسن ، وطول وذكورة ، وشبه ببعض الأقارب ، أو مقابل ذلك ، و (ما) زائدة و (شاء) في موضع الصفة لـ (صورة) ولم يعطف (ركبك) الفاء كالذي قبله ، لأنه بيان لـ (عدلك) وكون (في أي صورة) متعلقاً (بربك) هو قول الجمهور . وقيل : يتعلق بمحذوف أي ركبك حاصلاً في بعض الصور . وقال بعض المتأولين : إنه يتعلق بقوله (فعدلك) أي فعدلك في صورة أي صورة و (أي) تقتضي التعجيب والتعظيم فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار وعلى هذا تكون (ما) منصوبة بـ (شاء) كأنه قال : أي تركيب حسن شاء ركبك والتركيب : التأليف وجمع شيء إلى شيء . وأدغم خارجة عن نافع (ركبك كلا) كأبي عمرو في إدغامه الكبير و (كلا) ردع وزجر لما دل عليه ما قبله من اغترارهم بالله تعالى ، أو لما دل عليه ما بعد (كلا) من تكذيبهم بيوم الجزاء والدين أو شريعة الإسلام ، وقرأ الجمهور (بل تكذبون) بالتاء خطاباً للكفار والحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو بشر بياء الغيبة ، (وإن عليكم لحافظين) استئناف إخبار أي عليهم من يحفظ أعمالهم ويضبطها . ويظهر أنها جملة حالية والواو واو الحال ، أي تكذبون بيوم الجزاء . والكاتبون : الحفظة يضطبون أعمالكم لأن تجازوا عليها . وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء ، وقرأ الجمهور (يَصْلَوْنها) مضارع (صَلَى) مخففاً وابن مقسم مشدّداً مبنياً للمفعول . (يعلمون ما تفعلون) فيكتبون ما تعلق به الجزاء . قال الحسن يعلمون ما ظهر دون حديث النفس . وقال سفيان : إذا هم العبد بالحسنة أو السيئة وجد الكاتبان ريحها . وقال الحسين بن الفضل : حيث قال (يعلمون) ولم يقل يكتبون دل على أنه لا يكتب الجميع فيخرج عنه السهو والخطأ وما لا تبعة فيه (وما هم عنها بغائبين) أي عن الجحيم أي لا يمكنهم الغيبة ، كقوله ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة ١٦٧] وقيل : إنهم مشاهدوها في البرزخ . لما أخبر عن صليهم يوم القيامة أخبر بانتفاء غيبتهم عنها قبل الصلي أي يرون مقاعدهم من النار . (وما أدراك) تعظيم لهول ذلك اليوم . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو (يومُ لا تملك) برفع الميم أي هو يوم وأجاز الزمخشري فيه أن يكون بدلاً مما قبله ، وقرأ محبوب عن أبي عمرو (يوم لا

تملك) على التنكير منوناً مرفوعاً فكه عن الإضافة وارتفاعه على هو يوم و (لا تملك) جملة في موضع الصفة والعائد محذوف ، أي لا تملك فيه . وقرأ زيد بن علي والحسن أبو جعفر وشيبة والأعرج وباقي السبعة (يوم) بالفتح على الظرف ، فعند البصريين هي حركة إعراب ، وعند الكوفيين يجوز أن تكون حركة بناء . وهو على التقديرين في موضع رفع خبر المحذوف ، تقديره الجزاء يوم لا تملك ، أو في موضع نصب على الظرف ، أي يدانون يوم لا تملك ، أو على أنه مفعول به أي اذكر يوم لا تملك ، ويجوز على رأي من يجيز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر المبتدأ محذوف ، تقديره : هو يوم (لا تملك نفس لنفس شيئاً) عام كقوله (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) [سبأ : ٤٢] وقال مقاتل : لنفس كافرة شيئاً من المنفعة . (والأمر يومئذ لله) قال قتادة : وكذلك هو اليوم ، لكنه هناك لا يدعي أحد منازعة ولا يمكن هو أحداً مما كان ملكه في الدنيا .

سورة المطففين مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

التطفيف : النقصان وأصله من الطفيف ، وهو النزل الحقير ، والمطفف : الآخذ في وزن أو كيل طفيفاً أي شيئاً حقيراً خفياً ، ران غطى وغشى كالصدإ يغشى السيف ، قال الشاعر :

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرٍ   فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي رَانَ فَانْجَلى

وأصل الرين : الغلبة ، يقال : رانت الخمر على عقل شاربها وران الغشي على عقل المريض ، قال أبو زبيد :

ثُمَّ لَمَّا رَآهُ رَانَتْ بِهِ الْخَمْـ   ـرُ وَأَنَّ لاَ تَرِيْنَهُ بِاتِّقَاءِ[1]

---

(١) البيت من الخفيف انظر اللسان (رين) .

وقال أبو زيد : يقال رِين بالرجل يُرَانُ به رَيْناً إذا وقع فيما لا يستطيع منه الخروج . الرحيق : قال الخليل أجود الخمر : وقال الأخفش : والزجاج : الشراب الذي لا غش فيه ، قال حسان :

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (١)

نافس في الشيء . رغب فيه ، ونفست عليه بالشيء ، أنفس نفاسة : إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه . التسنيم : أصله الارتفاع ، ومنه تسنيم القبر ، وسنام البعير وتسنمته : علوت سنامه ، الغمز الإشارة بالعين والحاجب .

﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدّين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالو الجحيم ، ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ هذه السورة مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . مدنية في قول الحسن وعكرمة ومقاتل أيضاً . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا من (إن الذين أجرموا) [المطففين : ٢٩] إلى آخرها فهو مكي ، ثمان آيات ، وقال السدي : كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيلان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فنزلت . ويقال إنها أول سورة أنزلت بالمدينة . وقال ابن عباس : نزل بعضها بمكة ونزل أمر التطفيف بالمدينة ، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله بهذه السورة . وقيل : نزلت بين مكة والمدينة ، ليصلح الله تعالى أمرهم قبل ورود رسوله ـ ﷺ ـ والمناسبة بين السورتين ظاهرة . لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء ، وعظم شأن يومه ذكر ما أعد لبعض العصاة وذكرهم بأخس ما يقع من المعصية وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته . (إذا اكتالوا على الناس) قبضوا لهم (وإذا كالوهم) أو وزنوهم أقبضوهم . وقال الفراء (من) و (على) يعتقبان هنا اكتلت على الناس واكتلت من الناس فإذا قال اكتلت منك ، فكأنه قال استوفيت منك ، وإذا قال :اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك . والظاهر أن (على) متعلق بـ (اكتالوا) كما قررناه ، وقال الزمخشري : لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل على مكان من للدلالة على ذلك . ويجوز أن يتعلق بـ (يستوفون) أي يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها . انتهى . وكال ووزن مما يتعدى بحرف الجر ، فتقول : كلت لك ووزنت لك . ويجوز حذف اللام ، كقولك : نصحت لك ونصحتك ، وشكرت لك وشكرتك . والضمير ضمير نصب ، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف حرف الجر ووصل الفعل بنفسه والمفعول محذوف وهو المكيل والموزون . وعن عيسى وحمزة المكيل له والموزون له محذوف ، و (هم) ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع الذي هو الواو ، وقال الزمخشري : ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين ، لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد وذلك أن المعنى إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا ، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر ، لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر انتهى . ولا تنافر فيه بوجه ، ولا فرق بين أن يؤكد الضمير وأن لا يؤكد،والحديث واقع في الفعل غاية ما في هذا أن متعلق الاستيفاء وهو (على الناس) مذكور وهو في (كالوهم) أو وزنوهم محذوف للعلم به ، لأنه معلوم أنهم لا يخسرون الكيل والميزان إذا كان لأنفسهم إنما يخسرون ذلك لغيرهم . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) هلاّ قيل : أو اتزنوا ، كما قيل (أو وزنوهم) (قلت :) كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء

---

(١) تقدم.

والسرقة ، لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً يخسرون ينقصون . انتهى . و (يخسرون) معدّى بالهمزة يقال خسر الرجل وأخسره غيره . (ألا يظن) توقيف على أمر القيامة وإنكار عليهم في فعلهم ذلك ، أي (ليوم عظيم) وهو يوم القيامة ، و (يوم) ظرف العامل فيه مقدر أي يبعثون (يوم يقوم الناس) ويجوز أن يعمل فيه (مبعوثون) ويكون معنى (ليوم) أي لحساب يوم . وقال الفراء : هو بدل من (يوم عظيم) لكنه بني . وقرىء (يوم يقومِ) بالجر وهو بدل من (ليوم) حكاه أبو معاذ ، وقرأ زيد بن عليّ (يومُ) بالرفع أي ذلك يوم و (يظن) بمعنى يوقن أو هو على وضعه من الترجيح ، وفي هذا الإنكار والتعجيب ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس لله خاضعين ووصفه برب العالمين دليل على عظم هذا الذنب وهو التطفيف . (كلا) ردع لما كانوا عليه من التطفيف ، وهذا القيام تختلف الناس فيه بحسب أحوالهم ، وفي هذا القيام الجام العرق للناس وأحوالهم فيه مختلفة ، كما ورد في الحديث . و (الفجار) الكفار ، وكتابهم هو الذي فيه تحصيل أعمالهم . و (سجين) قال الجمهور : فِعِّيل من السجن كسكير ، أو في موضع ساجن فجاء بناء مبالغة و (سجين) على هذا صفة لموضع المحذوف . قال ابن مقبل :

وَرُفْقَــةٍ يَضْــرِبُــونَ الْبِيضَ ضَــاحِيَــةً ... ضَــرْباً تَــوَاصَتْ بِــهِ الأَبْـطَالُ سِجِّينَا[١]

وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما (سجين) أصفة هو أم اسم ؟ (قلت :) بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم ، وهو منصرف ، لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف . انتهى . وكان قد قدم أنه كتاب جامع وهو ديوان الشر دوّن الله فيه أعمال الشياطين ، وأعمال الكفرة ، والفسقة من الجن والإنس ، وهو (كتاب مرقوم) مسطور بين الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه لا أنه لا خير فيه . والمعنى : أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان انتهى . واختلفوا في (سجين) إذا كان مكاناً اختلافاً مضطرباً حذفنا ذكره ، والظاهر : أن (سجيناً) هو كتاب ولذلك أبدل منه (كتاب مرقوم) وقال عكرمة سجين : عبارة عن الخسار والهوان ، كما تقول : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الجمود ، وقال بعض اللغويين : (سجين) نونه بدل من لام وهو من السجيل . فتلخص من أقوالهم ، أن (سجين) نونه أصلية أو بدل من لام وإذا كانت أصلية فاشتقاقه من السجن ، وقيل : هو مكان فيكون (كتاب مرقوم) خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو كتاب وعني بالضمير عوده على (كتاب الفجار) أو على (سجين) على حذف ، أي هو محل كتاب مرقوم و (كتاب مرقوم) تفسير له على جهة البدل أو خبر مبتدأ والضمير المقدر الذي هو عائد على (سجين) أو كناية عن الخسار والهوان هل هو صفة أو علم . (وما أدراك ما سجين) أي ليس ذلك مما كنت تعلم (مرقوم) أي مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحىٰ ، قال قتادة : رقم لهم بشر لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد ، وقال ابن عباس والضحاك (مرقوم) مختوم بلغة حمير وأصل الرقم الكتابة . ومنه قول الشاعر :

سَــأَرْقُمُ فِي الْمَــاءِ الْقَــرَاحِ إِلَيْكُمْ ... عَلَى بُعْــدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَـاءِ رَاقِمُ[٢]

وتبين من الإعراب السابق أن (كتاب مرقوم) بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، وكان ابن عطية قد قال : إن (سجيناً) موضع ساجن على قول الجمهور ، وعبارة عن الخسار على قول عكرمة ، ثم قال (كتاب مرقوم) من قال بالقول الأول في (سجين) فـ (كتاب) مرتفع عنده على خبر (إن) والظرف الذي هو (لفي سجين) ملغى ومن قال في (سجين) بالقول الثاني فـ (كتاب مرقوم) على خبر ابتداء مضمر التقدير ، هو كتاب مرقوم ويكون هذا الكتاب مفسر السجين ما هو انتهى .

---

(١) انظر البيت في اللسان (سجن) .

(٢) البيت من الكامل لم نهتد لقائله ، انظر اللسان (رقم) فتح القدير (٥/ ٤٠٠) .

فقوله : والظرف الذي هو (لفي سجين) ملغى قول لا يصح ، لأن اللام التي في (لفي سجين) داخلة على الخبر وإذا كانت داخلة على الخبر فلا إلغاء في الجار والمجرور ، بل هو الخبر ، ولا جائز أن تكون هذه اللام دخلت في (لفي سجين) على فضلة هي معمولة للخبر أو لصفة الخبر فيكون الجار والمجرور ملغى لا خبراً لأن (كتاب) موصوف بـ (مرقوم) فلا يعمل ، ولأن مرقوماً الذي هو صفة لـ (كتاب) لا يجوز أن تدخل اللام في معموله ، ولا يجوز أن يتقدم معموله على الموصوف ، فتعين بهذا أن قوله (لفي سجين) هو خبر (إن) ، (الذين يكذبون) صفة ذم كل معتد متجاوز الحد (أثيم) صفة مبالغة ، وقرأ الجمهور (إذا) والحسن (أئذا) بهمزة الاستفهام ، والجمهور (تتلى) بتاء التأنيث وأبوحيوة وابن مقسم بالياء ، قيل : ونزلت في النضر بن الحارث. (بلْ رَان) قرىء بإدغام اللام في الراء وبالإظهار . وقف حمزة على (بل) وقفاً خفيفاً يسيراً لتبيين الإظهار . وقال أبو جعفر بن الباذش : وأجمعوا يعني القراء على إدغام اللام في الراء إلا ما كان من سكت حفص على (بل) ثم يقول(ران) وهذا الذي ذكره ليس كما ذكر من الإجماع ، ففي كتاب اللوامح عن قالون من جميع طرقه إظهار اللام عند الراء نحو قوله ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ [النساء ٥٨] ﴿ بل ربكم ﴾ [الأنبياء ٥٦] وفي كتاب ابن عطية : وقرأ نافع (بل ران) غير مدغم وفيه أيضاً وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة ، وقال سيبويه : اللام مع الراء نحو أسفل رحمه البيان والادغام حسنان . وقال الزمخشري : وقرىء بإدغام اللام في الراء وبالإظهار ، والإدغام أجود وأمليت الألف وفخمت . انتهى . وقال سيبويه : فإذا كانت يعني اللام غير لام المعرفة ، نحو لام هل وبل فإن أدغم في بعضها أحسن ، وذلك نحو : هل رأيت فإن لم تدغم فقلت هل رأيت فهي لغة لأهل الحجاز ، وهي غريبة جائزة ، انتهى . وقال الحسن والسدي : هو الذنب على الذنب . وقال الحسن : حتى يموت قلبه . وقال السدي : حتى يسود القلب . وفي الحديث نحو من هذا . فقال الكلبي : طبع على قلوبهم . وقال ابن سلام : غطى . (ما كانوا يكسبون) قال ابن عطية : وعلق اللوم بهم فيما كسبوه وإن كان ذلك بخلق منه تعالى واختراع لأن الثواب والعقاب متعلقان بكسب العبد . والضمير في قوله (إنهم) للكفار ، فمن قال بالرؤية وهو قول أهل السنة قال إن هؤلاء لا يرون ربهم فهم محجوبون منه ، واحتج بهذه الآية مالك على سبيله الرؤية من جهة دليل الخطاب وإلا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص . وقال الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، ومن قال بأن لا رؤية وهو قول المعتزلة قال إنهم يحجبون عن ربهم وغفرانه . انتهى . وقال أنس بن مالك : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، وقال الزمخشري : (كلا) ردع عن الكسب الرائن (على قلوبهم) وكونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم ، قال الشاعر :

إِذَا اعْتَـروا بَـابَ ذِي عَيْبَـةٍ رَحَبُـوا وَالنَّـاسُ مَـا بَيْنَ مَرْحُـوبٍ وَمَحْجُـوبِ

وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة : محجوبين عن رحمته ، وعن ابن كيسان : عن كرامته . انتهى . وعن مجاهد : المعنى محجوبون عن كرامته ورحمته . و(عن ربهم) متعلق بـ(محجوبون) وهو العامل في (يومئذ) والتنوين تنوين العوض من الجملة المحذوفة ولم تتقدّم جملة قريبة يكون عوضاً منها لكنه تقدم (يقوم الناس لرب العالمين) فهو عوض من هذه الجملة ، كأنه قيل : يوم إذ يقوم الناس ثم هم مع الحجاب عن الله هم صالو النار وهذه ثمرة الحجاب . (ثم يقال) أي تقول لهم خزنة النار(هذا) أي العذاب وصلي النار وهذا اليوم (الذي كنتم به تكذبون) قال ابن عطية : (هذا الذي) يعني الجملة مفعول لم يسم فاعله لأنه قول بني له الفعل الذي هو يقال . انتهى . وتقدم الكلام على نحو هذا في أول البقرة في قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴾ [البقرة ١١] قوله عز وجل ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ، إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة**

النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون ، إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ لما ذكر تعالى أمر كتاب الفجار عقبه بذكر كتاب ضدهم ، ليتبين الفرق (عليون) جمع واحده (عليّ) مشتق من العلو ، وهو المبالغة . قاله يونس وابن جني . قال أبو الفتح : وسبيله أن يقال علّية كما قالوا للغرفة علّية ، فلما حذفت التاء عوضوا منها الجمع بالواو والنون . وقيل : هو وصف للملائكة ، فلذلك جمع بالواو والنون ، وقال الفراء : هو اسم موضوع على صفة الجمع ولا واحد له من لفظه كقوله عشرين وثلاثين والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالواو والنون ، وقال الزجاج : أعرب هذا الاسم كإعراب الجمع : هذه قنسرون ورأيت قنسرين ، و (عليون) الملائكة ، أو المواضع العلية ، أو علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما علمته الملائكة وصلحاء الثقلين ، أو علو في علو مضاعف ، أقوال ثلاثة للزمخشري . وقال أبو مسلم : كتاب الأبرار ، كتابة أعمالهم (لفي عليين) ثم وصف عليين بأنه (كتاب مرقوم) فيه جميع أعمال الأبرار . وإذا كان مكاناً فاختلفوا في تعيينه اختلافاً مضطرباً رغبنا عن ذكره وإعراب (لفي عليين) و (كتاب مرقوم) كإعراب (لفي سجين) و (كتاب مرقوم) وقال ابن عطية : و (كتاب مرقوم) في هذه الآية خبر (إن) والظرف ملغى . (انتهى) . هذا كما قال في لفي سجين وقد رددنا عليه ذلك وهذا مثله ، و (المقربون) هنا قال ابن عباس وغيره : هم الملائكة أهل كل سماء (ينظرون) قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : إلى ما أعد لهم من الكرامات : وقال مقاتل : إلى أهل النار ، وقيل : ينظر بعضهم إلى بعض . وقرأ الجمهور (تعرف) بتاء الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ أو للناظر (نضرةَ النعيم) نصباً ، وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحة وشيبة ويعقوب والزعفراني (تُعْرَفُ) مبنياً للمفعول (نضْرةُ) رفعاً ، وزيد بن عليّ كذلك إلا أنه قرأ يعرف بالياء إذ تأنيث نضرة مجازي والنضرة ، تقدّم شرحها في قوله ﴿ نضرة وسروراً ﴾ [الإنسان ١١] ، (مختوم) الظاهر : أن (الرحيق) ختم عليه تهماً وتنظفاً بالرائحة المسكية كما فسره ما بعده . وقيل : تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة ، وقرأ الجمهور ختامه أي خلطه ومزاجه قاله عبد الله وعلقمة ، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن معناه : خاتمته ، أي يجد الرائحة عند خاتمة الشراب رائحة المسك . وقال أبو عليّ أي ابزاره المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم . وقيل : يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك ، وفي الصحاح : الختام : الطين الذي يختم به ، وكذا قال مجاهد وابن زيد : ختم إناؤه بالمسك بدل الطين . وقال الشاعر :

كَـأَنَّ مُشَعْشَعـاً مِـنْ خَمْـرِ بـصْـرَى ... نَمَتْـهُ الْـبُـخْـتُ مَشْـدُودَ الْـخِتَـامِ[1]

وقرأ عليّ والنخعي والضحاك وزيد بن عليّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة والكسائي (خاتمه) بعد الخاء ألف وفتح التاء ، وهذه بينة المعنى أنـه يراد بها الطبع على الرحيق . وعن الضحاك وعيسى وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي : كسر التاء ، أي آخره : مثل قوله ﴿ وخاتم النبيين ﴾ [الأحزاب ٤٠] وفيه حذف ، أي خاتم رائحته المسك ، أو خاتمه الذي يختم به ويقطع (من تسنيم) . قال عبد الله وابن عباس : هو أشرف شراب الجنة ، وهو اسم مذكر لماء عين في الجنة . وقال الزمخشري : (تسنيم) علم لعين بعينها ، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه . و(عيناً) نصب على المدح . وقال الزجاج : على الحال . انتهى . وقال الأخفش : يسقون (عيناً يشرب بها) أي : يشربها ، أو منها ، أو ضمن يشرب معنى يروى بها ، أقوال : (المقرّبون) قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح : « يشربها المقربون

(١) البيت من الوافر ذكره السمين في الدر .

صرفاً ويمزج للأبرار . ومذهب الجمهور (الأبرار) هم أصحاب اليمين ، وأن المقرّبين هم السابقون ، وقال قوم : الأبرار والمقرّبون في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكل من نعم في الجنة ، وروي أن علياً وجمعاً معه من المؤمنين مروا بجمع من كفار قريش فضحكوا منهم ، واستخفوا بهم ، عبثاً فنزلت (إن الذين أجرموا) قبل أن يصل عليّ رضي الله تعالى عنه إلى الرسول ـ ﷺ ـ وكفار مكة هؤلاء قيل : هم أبو جهل ، والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ، والمؤمنون عمار ، وصهيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم من فقراء المؤمنين، والظاهر: أن الضمير في (مرّوا) عائد على (الذين أجرموا) إذ في ذلك تناسق الضمائر لواحد . وقيل : للمؤمنين ، أي وإذا مرّ المؤمنون بالكافرين ، يتنافر الكافرون أي يشيرون بأعينهم . و (فاكهين) أي متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم . وقرأ الجمهور فاكهين بالألف أي أصحاب فاكهة ومزح وسرور باستخفافهم بأهل اللإيمان . وأبو رجاء والحسن وعكرمة وأبو جعفر وحفص بغير ألف والضمير المرفوع في (رَأَوْهُم) عائد على المجرمين ، أي إذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال ، وهم محقون في نسبتهم إليه (وما أرسلوا) على الكفار (حافظين) وفي الإشارة إليه بأنهم ضالون إثارة للكلام بينهم ، وكأن في الآية بعض موادعة ، أي أن المؤمنين لم يرسلوا حافظين على الكفار . وهذا على القول بأن هذا منسوخ بآية السيف . وقال الزمخشري : وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدّهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك . ولما تقدّم ذكر يوم القيامة ، قيل (فاليوم الذين آمنوا) و (اليوم) منصوب بـ (يضحكون) منهم في الآخرة و (ينظرون) حال من الضمير في (يضحكون) أي يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والعذاب بعد العزة والنعيم . وقال كعب : لأهل الجنة كوى ينظرون منها إلى أهل النار . وقيل : ستر شفاف بينهم يرون منه حالهم . (هل ثوّب) أي هل جوزي ، يقال ثوبه وأثابه إذا جازاه ، ومنه قول الشاعر :

سَأَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مُثَوِّبٌ ... وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكَ وَتُحْمَدُ[1]

وهو استفهام بمعنى التقرير للمؤمنين ، أي هل جوزوا بها ، وقيل : (هل ثوب) متعلق بـ (ينظرون) و (ينظرون) معلق بالجملة في موضع نصب بعد إسقاط حرف الجر الذي هو إلى . وقرأ الجمهور (هلْ ثوب) بإظهار لام هل والنحويان وحمزة وابن محيصن بإدغامها في الثاء . وفي قوله (ما كانوا) حذف ، تقديره : جزاء أو عقاب ما كانوا يفعلون .

---

(١) البيت من الطويل لأوس بن حجر ، انظر الكشاف ٤/٥٧٨ .

سورة الانشقاق مكية وهي خمس وعشرن آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

الكدح : جهد النفس في العمل حتى يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه قال ابن مقبل :

وَمَـا الـدَّهْـرُ إلَّا تَـارَتَـانِ فَمِنْـهُمَـا ... أَمُوتُ وَأُخْـرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْـدَحُ[1]

وقال آخر :

وَمَضَتْ بَشَـاشَةُ كُـلِّ عَيْشٍ صَالِـحٍ ... وَبقِيتُ أَكْـدَحُ لِلْحَيَـاةِ وَأَنْصَـبُ[2]

حار : رجع ، قال الشاعر :

وَمَـا الْمَـرْءُ إِلَّا كَـالشِّهَـابِ وَضَـوْئِـهِ ... يَحُـورُ رَماداً بَعْـدَ إِذْ هُـوَ سَـاطِعُ[3]

الشَّفَق : الحمرة بعد مغيب الشمس حين تأتي صلاة العشاء الآخرة . قيل : أصله : من رقة الشيء ، يقال : شيء شفق ، أي لا يتماسك لرقته ، ومنه أشفق عليه رق قلبه : والشفقة : الاسم من الشفاق ، وكذلك الشفق ، قال الشاعر :

---

(١) البيت من الطويل لتميم بن مقبل ، انظر ديوانه ٢٤ اللسان (كدح) المحتسب ٢١٢/١ .

(٢) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر.

(٣) البيت من الطويل للبيد ، انظر ديوانه (١٦٩) ، الهمع ١٢٢/١ .

تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً   وَالْمَوْتُ أكرمُ نَزَّالٍ على الْحُرَمِ

وَسَق : ضم وجمع . ومنه الوسق : الأصواع المجموعة ، وهي ستون صاعاً ، وطعام موسوق ، أي مجموع ، وإبل مستوسقة ، قال الشاعر :

إنَّ لَنَا قَلَائِصاً حَقَائِقَا   مُسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقَا[١]

اتَّسق : قال الفراء : اتساق القمر امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر وهو افتعال من الوسق الذي هو الجمع ، يقال : وسقته فاتسق ، ويقال : أمر فلان متسق ، أي مجتمع على الصلاح منتظم . طَبَقاً عن طَبَق : حال بعد حال ، والطبق : ما طابق غيره ، وإطباق الثرى : ما تطابق منه ، ومنه قيل للغطاء الطبق . قال الأعرج بن حابس .

إنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ   وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إلَى طَبَقِ[٢]

وقال امرؤ القيس :

دِيمَةٌ هَطْلَاءُ فِيهَا وَطَف   طَبَقُ لِلأَرْضِ تَجْرِي وَتَدِرّْ[٣]

﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت ، يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً ، إنه كان في أهله مسروراً ، إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيراً ، فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقاً عن طبق فما لهم لا يؤمنون ، وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون ، والله أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب أليم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ هذه السورة مكية ، واتصالها بما قبلها ظاهر ، قال ابن عباس : انشقت تنشق : أي تتصدع بالغمام ، وقاله الفراء والزجاج . وقيل : تنشق لهول يوم القيامة ، كقوله ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ [الحاقة ١٦] وقرأ الجمهور بسكون تاء (انشقتْ) وما بعدها وصلاً ووقفاً . وقرأ عبيد بن عقيل عن أبي عمرو بإشمام الكسر وقفاً بعدما لم تختلف في الوصل إسكاناً ، قال صاحب اللوامح : فهذا من التغييرات التي تلحق الروي في القوافي ، وفي هذا الإشمام بيان أن هذه التاء من علامة ترتيب الفعل للإناث وليست مما تنقلب في الأسماء فصار ذلك فارقاً بين الاسم والفعل فيمن وقف على ما في الأسماء بالتاء ، وذلك لغة طيىء . وقد حمل في المصاحف بعض التاءات على ذلك. انتهى. وقال ابن خالويه : (إذا السماء انشقت) بكسر التاء عبيد عن أبي عمرو ، وقال ابن عطية : وقرأ أبو عمرو (انشقت) يقف على التاء كأنه يشمها شيئاً من الجر وكذلك في أخواتها . قال أبو حاتم : سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات، وهي لغة. انتهى. وذلك أن الفواصل قد تجري مجرى القوافي ، فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي تكسر في الفواصل ، ومثال كسرها في القوافي قول كثير عزة :

---

(١) البيت من البسيط لإسحاق بن خلف ، وقيل لابن المعلى ، انظر اللسان (شفق) .

(٢) البيت من الرجز للعجاج ، انظر ملحقات ديوانه ٨٤ ، اللسان (١٩٨٧) (وسق) .

(٣) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٤) البيت من الرمل انظر ديوانه ١٤٤ .

وَمَـا أَنَـا بِـالـدَّاعِي لِعَـزَّةَ بِـالـرَّدَى وَلَا شَـامِت إِنْ نَعْـلُ عَـزَّةَ زَلَّتِ[١]

وكذلك باقي القصيدة ، واجراء الفواصل في الوقف مجرى القوافي مهيع معروف ، كقوله تعالى ﴿ الظنونا ﴾ [الأحزاب ١٠] و﴿ الرسولا ﴾ [الأحزاب ٦٦] في سورة الأحزاب ، وحمل الوصف على حالة الوقف أيضاً موجود في الفواصل (وأذِنَتْ) أي استمعت ، وسمعت أمره ونهيه . وفي الحديث : « ما أذن الله بشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن » . وقال الشاعر :

صُمٌّ إِذَا سَمِعُـوا خَيْـراً ذُكِـرْتُ بِـهِ، وَإِنْ ذُكِـرْتُ بِسُـوءٍ عِنْـدَهُـمْ أَذَنُـوا[٢]

وقال قعنب :

إِنْ يَـأْذَنُـوا رِيبَـةً طَـارُوا بِهَـا فَـرَحـاً وَمَا هُم أُذِنُـوا مِنْ صَـالِـحٍ دَفَنُـوا[٣]

وقال الحجاف بن حكيم : أذنت لكم ، لما سمعت هريركم . وإذنها انقيادها لله تعالى حين أراد انشقاقها فعل المطيع إذا ورد عليه أمر المطاع أنصت وانقاد ، كقوله تعالى ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت ١١] ، (وحقت) قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير : وحق لها أن تسمع . وقال الضحاك : أطاعت وحق لها أن تطيع . وقال قتادة : وحق لها أن تفعل ذلك . وهذا الفعل مبني للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، أي وحق الله تعالى عليها الاستماع ، ويقال ، فلان محقوق بكذا وحقيق بكذا ، والمعنى أنه لم يكن في جرم السماء ما يمنع من تأثير القدرة في انشقاقه وتفريق أجزائه وإعدامه ، قيل : ويحتمل أن يريد وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى . وقال الزمخشري : وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، ومعناه الإيذان بأن القادر الذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك انتهى . وفي قوله : القادر الذات دسيسة الاعتزال وما أولع هذا الرجل بمذهب الاعتزال يدسه متى أمكنه في كل ما يتكلم به (وإذا الأرض مدت) ، قال مجاهد : سويت وقال الضحاك : بسطت باندكاك جبالها ، ومنه الحديث تمد الأرض مد الأديم العكاظي حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه » وذلك أن الأديم إذا مدّ زال ما فيه من تثنٍّ وانبسط فتصير الأرض إذ ذاك كما قال تعالى ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ [طه ١٠٦ ، ١٠٧] ، (وألقت ما فيها وتخلت) قال ابن جبير والجمهور : ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقال الزجاج : ومن الكنوز . وضعف هذابأن ذلك يكون وقت خروج الدجال وإنما تلقى يوم القيامة الموتى (وتخلت) أي عن ما كان فيها لم تتمسك منهم بشيء ، وجاء (تخلت) أي تكلفت أقصى جهدها في الخلو كما تقول : تكرم الكريم بلغ جهده في الكرم وتكلف فوق ما في طبعه . ونسبة ذلك إلى الأرض نسبة مجازية ، والله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء من باطنها ، وجواب (إذا) محذوف فإما أن يقدره الذي خرج به في سورة التكوير أو الانفطار ، أو ما يدل عليه (إنك كادح) أي لاقى كل إنسان كدحه وقال الأخفش والمبرد : وهو ملاقيه إذا انشقت السماء فأنت ملاقيه . وقيل : يا أيها الإنسان على حذف الفاء تقديره فيا أيها الإنسان . وقيل : وأذنت على زيادة الواو . وعن الأخفش . إذا السماء مبتدأ خبره وإذا الأرض على زيادة الواو ، والعامل فيها على قول الأكثرين الجواب إما المحذوف الذي قدروه وإما الظاهر الذي قيل إنه جواب . قال ابن عطية : وقال بعض النحويين العامل (انشقت) وأبى ذلك كثير من أئمتهم لأن (إذا) مضافة إلى (انشقت) ومن يجيز ذلك تضعف عنده

---

(١) البيت من الطويل انظر الديوان ١/٥٧ .

(٢) البيت من البسيط لقعنب بن أم صاحب ، انظر السان (أذن) ديوان الحماسة ٢/١٧٩ .

(٣)البيت من البسيط انظر ديوان الحماسة ٢/٧٩ .

الإضافة ويقوى معنى الجزاء . انتهى . وهذا القول نحن نختاره ، وقد استدللنا على صحته فيما كتبناه ، والتقدير : وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض . وقيل : لا جواب لها إذ هي قد نصبت بـ (اذكر) نصب المفعول به ، فليست شرطاً .
(وأذنت لربها) أي في إلقاء ما في بطنها وتخليها و (الإنسان) يراد به الجنس والتقسيم بعد ذلك يدل عليه . وقال مقاتل : المراد به الأسود بن عبد الأسد بن هلال المخزومي جادل أخاه أبا سلمة في أمر البعث ، فقال أبو سلمة : والذي خلقك لتركبن الطبقة ولتوافين العقبة ، فقال الأسود : فأين الأرض والسماء وما حال الناس ؟ انتهى . وكأن مقاتلاً يريد أنها نزلت في الأسود ، وهي تعم الجنس . وقيل : المراد أبيّ بن خلف ، كان يكدح في طلب الدنيا وإيذاء الرسول ـ ﷺ ـ والإصرار على الكفر . وأبعد من ذهب إلى أنه الرسول ـ ﷺ ـ والمعنى : إنك تكدح في إبلاغ رسالات الله تعالى وإرشاد عباده ، واحتمال الضر من الكفار فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل وهو غير ضائع عنده . (إنك كادح) أي جاهد في عملك من خير وشر (إلى ربك) أي طول حياتك إلى لقاء ربك ، وهو أجل موتك (فملاقيه) أي جزاء كدحك من ثواب وعقاب .
قال ابن عطية : فالفاء على هذا عاطفة جملة الكلام على التي قبلها ، والتقدير : فأنت ملاقيه ، ولا يتعين ما قاله ، بل يصح أن يكون معطوفاً على كادح عطف المفردات ، وقال الجمهور : الضمير في (ملاقيه) عائد على (ربك) أي فملاقي جزائه فاسم الفاعل معطوف على اسم الفاعل . (حساباً يسيراً) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها ، يقرر ذنوبه ثم يتجاوز عنه .
وقال الحسن : يجازي بالحسنة ويتجاوز عن السيئة . وفي الحديث : « من حوسب عذب » فقالت عائشة : ألم يقل الله تعالى (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) فقال عليه الصلاة والسلام إنما ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فيهلك[1] .
(وينقلب إلى أهله) أي إلى من أعد الله له في الجنة من نساء المؤمنات ، ومن الحور العين ، أو إلى عشيرته المؤمنين فيخبرهم بخلاصه وسلامته أو إلى المؤمنين إذ هم كلهم أهل إيمان ، وقرأ زيد بن علي (ويُقْلَبَ) مضارع قُلِبَ مبنياً للمفعول (وراء ظهره) روي : « أن شماله تدخل من صدره حتى تخرج من راء ظهره فيأخذ كتابه بها » . قال ابن عطية : وأما من ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم يعني عصاة المؤمنين فإنه يعطى كتابه عند خروجه من النار : وقد جوز قوم أن يعطاه أولاً قبل دخوله النار ، وهذه الآية ترد على هذا القول . انتهى . والظاهر من الآية أن الإنسان انقسم إلى هذين القسمين ولم يتعرض للعصاة الذين يدخلهم الله النار (يدعو ثبوراً) يقول واثبوراه ، والثبور : الهلاك وهو جامع لأنواع المكاره ، وقرأ قتادة وأبو جعفر وعيسى وطلحة والأعمش وعاصم وأبو عمرو وحمزة (ويَصْلىٰ) بفتح الياء مبنياً للفاعل . وباقي السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج بضم الياء وفتح الصاد واللام مشددة ، وأبو الأشهب وخارجة عن نافع وأبان عن عاصم وعيسى أيضاً والعتكي وجماعة عن أبي عمرو بضم الياء ساكن الصاد مخفف اللام بني للمفعول من المتعدي بالهمزة كما بني (ويُصَلَّى) المشدد للمفعول من المتعدي بالتضعيف . (إنه كان في أهله مسروراً) أي فرحاً بطراً مترفاً ، لا يعرف الله ، ولا يفكر في عاقبته ، لقوله تعالى ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص ٧٦] بخلاف المؤمن فإنه حزين مكتئب يتفكر في الآخرة . (إنه ظن أن لن يحور) أي أن لن يرجع إلى الله ، وهذا تكذيب بالبعث . (بلى) إيجاب بعد النفي ، أي بلى ليحورن . (إن ربه كان به بصيراً) أي لا تخفى عليه أفعاله فلا بد من حوره ومجازاته (فلا أقسم بالشفق) أقسم تعالى بمخلوقاته ، تشريفاً لها وتعريضاً للاعتبار بها . و (الشفق) تقدم شرحه ، وقال أبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة : هو البياض الذي يتلوه الحمرة ، وروى أسد بن عمرو أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا إلى قول الجمهور . وقال مجاهد والضحاك وابن أبي نجيح : إن الشفق هنا كأنه لما عطف عليه الليل قال ذلك . قال ابن عطية : وهذا قول ضعيف .

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧ ، في العلم باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه (١٠٣) في الرقاق (٦٥٣٦) (٦٥٣٧) ومسلم /٢٢٠٤ ، في الجنة باب إثبات الحساب (٧٩/ ٢٨٧٦) .

انتهى . وعن مجاهد : هو الشمس وعن عكرمة : ما بقي من النهار (وما وسق) ما ضم من الحيوان وغيره إذ جميع ذلك ينضم ويسكن في ظلمة الليل . وقال ابن عباس (وما وسق) أي ما غطى عليه من الظلمة . وقال مجاهد : وما ضم من خير وشر . وقال ابن جبير : وما ساق وحمل . وقال ابن بحر : وما عمل فيه . ومنه قول الشاعر :

فَيَوْماً تَرَانَا صَالِحِينَ وَتَارَةً ... تَقُومُ بِنَا كَالْوَاسِقِ الْمُتَلَبِّبِ(١)

وقال ابن الفضل : لف كل أحد إلى الله أي سكن الخلق إليه ورجع كل إلى ما رآه لقوله (لتسكنوا فيه) [القصص ٧٣] وقرأ عمر وعبد الله وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وطلحة وعيسى والأخوان وابن كثير بتاء الخطاب وفتح الباء ، فقيل : خطاب للرسول ـ ﷺ ـ أي حالاً بعد حال من معالجة الكفار . وقال ابن عباس : سماء بعد سماء في الإسراء وقيل : عِدَة بالنصر ، أي لتركبن أمر العرب قبيلاً بعد قبيل ، وفتحاً بعد فتح ، كما كان ووجد بعد ذلك ، وقال الزمخشري : وقرء (لتركبن) على خطاب الإنسان في (يا أيها الإنسان) وقال ابن مسعود : المعنى لتركبن السماء في أهوال القيامة حالاً بعد حال تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتنشق ، فالتاء للتأنيث وهو إخبار عن السماء بما يحدث لها ، والضمير الفاعل عائد على السماء . وقرأ عمر وابن عباس أيضاً بالياء من أسفل وفتح الباء على ذكر الغائب ، قال ابن عباس : يعني نبيكم ـ ﷺ ـ وقيل : الضمير الغائب يعود على القمر لأنه يتغير أحوالاً من إسرار واستهلال وإبدار ، وقال الزمخشري ليركبن الإنسان . وقرأ عمر وابن عباس أيضاً وأبو جعفر والحسن وابن جبير وقتادة والأعمش وباقي السبعة بتاء الخطاب وضم الباء ، أي لتَرْكَبن أيها الإنسان ، وقال الزمخشري : و (لتركبُن) بالضم على خطاب الجنس ، لأن النداء للجنس فالمعنى لتركبن الشدائد الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال ، أو يكون الأحوال من النطفة إلى الهرم كما تقول طبقة بعد طبقة ، قال نحوه عكرمة . وقيل : عن تجيء بمعنى بعد . وقيل : المعنى لتركبن هذه الأحوال أمة بعد أمة . ومنه قول العباس بن عبد المطلب في رسول الله ـ ﷺ ـ :

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأَرْضُ ... وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ
تَنَقَّلَ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ(٢)

وقال مكحول وأبو عبيدة : المعنى : لتركبن سنن من قبلكم . وقال ابن زيد : المعنى : لتركبن الآخرة بعد الأولى ، وقرأ عمر أيضاً (لَيَركَبُنَّ) بياء الغيبة وضم الباء ، قيل : أراد به الكفار لا بيان توبيخهم بعده ، أي يركبون حالاً بعد أخرى من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة . وقرأ ابن مسعود وابن عباس (لِتِرْكَبَن) بكسر التاء ، وهي لغة تميم ، قيل : والخطاب للرسول ـ ﷺ ـ وقرىء بالتاء وكسر الباء . على خطاب النفس ، و (طبق) الشيء مطابقة لأن كل حال مطابقة للأخرى في الشدة ، ويجوز أن تكون اسم جنس واحده طبقة ، وهي المرتبة من قولهم : هم على طبقات و (عن طبق) في موضع الصفة لقوله (طبقاً) أو في موضع الحال من الضمير في (لتركبن) وعن مكحول : كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه . (فما لهم لا يؤمنون) تعجب من انتفاء إيمانهم وقد وضحت الدلائل (لا يسجدون) لا يتواضعون ويخضعون قاله قتادة . وقال عكرمة : لا يباشرون بجباههم المصلى . وقال محمد بن كعب : لا يصلون ، وقرأ الجمهور (يُكَذِّبُون) مشدداً . والضحاك وابن أبي عبلة مخففاً وبفتح الياء (بما يوعون) بما يجمعون من الكفر والتكذيب ، كأنهم يجعلونه في أوعية ، وعيت العلم وأوعيت المتاع . قال نحوه ابن زيد ، وقال ابن عباس : بما تضمرون من عداوة الرسول ـ ﷺ ـ

---

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله انظر اللسان (وسق) .
(٢) البيتان من المنسرح ذكرهما السمين في الدر المصون .

والمؤمنين . وقال مجاهد : بما يكتمون من أفعالهم . وقرأ أبو رجاء (بما يَعُون) من وعى يعي ، (إلا الذين آمنوا) أي سبق لهم في علمه أنهم يؤمنون (غير ممنون) غير مقطوع . وقال ابن عباس (ممنون) معدد عليهم محسوب منغص بالمن . وتقدم الكلام على ذلك في فصلت ، والله الموفق .

سورة البروج مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

الأخدود : الخد في الأرض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الخق والأخقوق ومنه .

فساحت قوائمه في أخاقيق جردان

﴿ **والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ، إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز الكبير، إن بطش ربك لشديد، إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد، هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا في تكذيب ، والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ** ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها ، لما ذكر أنه تعالى أعلم بما يجمعون للرسول ـ ﷺ ـ وللمؤمنين من المكر والخداع وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس واحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه ، ذكر أن هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم يعذبون بالنار ، وأن أولئك الذين عرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم إن يرجعوا عن دينهم أو يحرموا ، وأن أولئك الذين عذبوا عباد الله ملعونون

فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش ملعونون . فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذب ، (ذات البروج) قال ابن عباس والجمهور : هي المنازل التي عرفتها العرب ، وهي اثنا عشر على ما قسمته ، وهي التي تقطعها الشمس في سنة ، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً ، وقال عكرمة والحسن ومجاهد : هي القصور ، وقال الحسن ومجاهد أيضاً : هي النجوم . وقيل : عظام الكواكب ، سميت بروجاً لظهورها . وقيل : هي أبواب السماء . وقد تقدّم ذكر البروج في سورة الحجر ، (واليوم الموعود) هو يوم القيامة ، أي الموعود به (وشاهد ومشهود) هذان منكران وينبغي حملهما على العموم لقوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير ١٤] وإن كان اللفظ لا يقتضيه لكن المعنى يقتضيه إذ لا يقسم بنكرة ولا يدرى من هي فإذا لوحظ فيه معنى العموم اندرج فيها المعرفة فحسن القسم وكذا ينبغي أن يحمل ما جاء من هذا النوع نكرة كقوله ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ [الطور ١ ، ٢] ولأنه إذ حمل (وكتاب مسطور) على العموم دخل فيه معنيان الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والقرآن فيحسن إذ ذاك القسم به ، ولما ذكر واليوم الموعود ، وهو يوم القيامة باتفاق ، وروي ذلك عن النبي ـ ﷺ ـ ناسب أن يكون المقسم به من يشهد في ذلك اليوم ومن يشهد عليه إن كان ذلك من الشهادة ، وإن كان من الحضور فالشاهد : الخلائق الحاضرون للحساب والمشهود : اليوم كما قال تعالى ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود ١٠٣] كان موعوداً به فصار مشهوداً . وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيينهما ، وعن ابن عباس : الشاهد الله تعالى . وعن الحسن بن علي وعكرمة ، الرسول ـ ﷺ ـ وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار : آدم ـ عليه السلام ـ وذريته وعن ابن عباس أيضاً والحسن الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي كل قول منها المشهود : يوم القيامة وعن علي وابن عباس وأبي هريرة والحسن وابن المسيب وقتادة (وشاهد) يوم الجمعة . وعن ابن المسيب : يوم التروية ، وعن علي أيضاً يوم القيامة . وعن النخعي : يوم الأضحى (ومشهود) في هذه الأقوال : يوم عرفة ، وعن ابن عمر : يوم الجمعة (ومشهود) يوم النحر . وعن جبار يوم الجمعة (ومشهود) الناس وعن محمد بن كعب : ابن آدم (ومشهود) الله تعالى . وعن ابن جبير : عكس هذا . وعن أبي مالك : عيسى (ومشهود) أمته . وعن علي : يوم عرفة (ومشهود) يوم النحر . وعن الترمذي الحكيم : الحفظة (ومشهود) عليهم الناس . وعن عبد العزيز بن يحيى : محمد ـ ﷺ ـ (ومشهود) أصحابها ، وقيل : هما يوم الاثنين ويوم الجمعة ، وقيل : الملائكة المتعاقبون وقرآن الفجر ، وقيل : النجم والليل والنهار ، وقيل : الله والملائكة وأولو العلم (ومشهود) به الوحدانية . و ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران ١٩] ، وقيل : مخلوقاته تعالى (ومشهود به) وحدانيته . وقيل : هما الحجر الأسود والحجيج ، وقيل : الليالي والأيام وبنو آدم ، وقيل : الأنبياء ومحمد ـ ﷺ ـ وهذه أقوال سبعة وعشرون لكل منها متمسك ، وللصوفية أقوال غير هذه . والظاهر ما قلناه أولاً ، وجواب القسم قيل محذوف ، فقيل : لتبعثن ونحوه . وقال الزمخشري : يدل عليه (قتل أصحاب الأخدود) ، وقيل : الجواب مذكور فقيل (وإن الذين فتنوا) ، وقال المبرد : (أن بطش ربك لشديد) وقيل (قتل) وهذا نختاره وحذفت اللام ، أي لقتل ، وحسن حذفها كما حسن في قوله ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس ١ ، ٩] ثم قال (قد أفلح من زكاها) أي لقد أفلح من زكاها ، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل ذلك ، وطرده من رحمة الله ، وتنبيهاً لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم على أنهم ملعونون بجامع ما اشتركا فيه من تعذيب المؤمنين وإذا كان (قُتِل) جواباً للقسم ، فهي جملة خبرية ، وقيل : دعاء فيكون الجواب غيرها . وقرأ الحسن وابن مقسم بالتشديد ، والجمهور بالتخفيف . وذكر المفسرون في (أصحاب الأخدود) أقوالاً فوق العشرة ، ولكل قول منها قصة طويلة كسلنا عن كتابتها في كتابنا هذا ، ومضمنها : أن ناساً من الكفار خدوا أخدوداً في الأرض ، وسجروه ناراً ، وعرضوا المؤمنين عليها ، فمن رجع عن دينه تركوه ، ومن أصرّ على الإيمان أحرقوه و (أصحاب الأخدود) هم المحرقون للمؤمنين . وقال الربيع وأبو العالية وابن إسحاق : بعث الله على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم أو

نحو هذا ، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود : فعلى هذا يكون القتل حقيقة لا بمعنى اللعن ويكون خبراً عن ما فعله الله بكالفار والذين أرادوا أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم . وقول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دل عليه القصص الذي ذكروه . وقرأ الجمهور (النارِ) بالجر وهو بدل اشتمال ، أو بدل كل من كل على تقدير محذوف ، أي أخدود النار ، وقرأ قوم (النارُ) بالرفع ، قيل : على معنى قتلهم ، ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين و (قُتِلَ) على حقيقته ، وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى (الوقود) بضم الواو وهو مصدر ، والجمهور بفتحها وهو ما يوقد به ، وقد حكى سيبويه أنه بالفتح أيضاً مصدر كالضم . والظاهر : أن الضمير في (إذ هم) عائد على الذين يحرقون المؤمنين وكذلك في (وهم) على قول الربيع يعود على الكافرين ويكون (هم) أيضاً عائداً عليهم ، ويكون معنى (على ما يفعلون) ما يريدون من فعلهم بالمؤمنين . وقيل : أصحاب الأخدود ، محرق وتم الكلام عند قوله (ذات الوقود) ويكون المراد بقوله (وهم) قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات و(إذ) العامل فيه (قُتِل) أي لعنوا وقعدوا على النار ، أو على ما يدنو منها من حافات الأخدود ، كما قال الأعشى :

تَشِبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقِ[1]

(شهود) يشهد بعضهم لبعض عند الملكِ ، أي لم يفرط فيما أمر به ، أو شهود يوم القيامة على ما فعلوا بالمؤمنين يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم ، وقرأ الجمهور (نَقَمُوا) بفتح القاف . وزيد بن عليّ وأبو حيوة وابن عبلة بكسرها ، أي ما عابوا ولا أنكروا الإيمان ، كقوله ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة ٥٩] وكقول ابن قيس الرقيات :

مَا نَقِمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلاَّ ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا[2]

جعلوا ما هو في غاية الحسن قبيحاً حتى نقموا عليه كما قال الشاعر :

وَلاَ عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةِ عَيْنِهَا ... كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلاً عُيُونُهَا[3]

وفي المنتخب : إنما قال (إلا أن يؤمنوا) لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإيمان في المستقبل ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى فكأنه قال إلا أن يديموا على إيمانهم . انتهى وذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به وهو كونه تعالى عزيزاً ، غالباً ، وقادراً ، يخشى عقابه ، حميداً منعماً ، يجب له الحمد على نعمته ، له ملك السموات والأرض ، وكل من فيهما ، يحق عليه عبادته ، والخشوع له ، تقريراً لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي . (والله على كل شيء شهيد) وعيد لهم أي أنه علم ما فعلوا فهو يجازيهم والظاهر : أن الذين فتنوا عام في كل من ابتلى المؤمنين والمؤمنات بتعذيب أو أذى وأن لهم عذابين عذاباً لكفرهم وعذاباً لفتنتهم . وقال الزمخشري : يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصة ، وبالذين آمنوا المطروحين في الأخدود ، ومعنى فتنوهم : عذبوهم بالنار وأحرقوهم (فلهم في الآخرة عذاب جهنم) بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق ، أو لهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا . لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم . انتهى . وينبغي أن لا يجوز هذا الذي جوّزه لأن في الآية ، ثم لم يتوبوا ، وأولئك المحرقون لم ينقل لنا أن أحداً منهم تاب ، بل الظاهر أنهم لم يلعنوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر . وقال ابن عطية (ثم لم يتوبوا) يقوي أن الآيات في قريش ، لأن هذا اللفظ في قريش

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٢٠ اللسان (حلق) الكشاف ٥٨٤/٤ .

(٢) البيت من المنسرح انظر ديوانه (٣) البيت من الطويل انظر اللسان (مشكل) .

(٣) اللسان (نقم) .

أحكم منه في أولئك الذين قد علموا أنهم ماتوا على كفرهم ، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب وآمن . انتهى . وكذلك قوله (إن الذين آمنوا) المراد به العموم لا المطروحون في النار . والبطش الأخذ بقوة(يبدىء ويعيد) قال ابن زيد والضحاك : يبدىء الخلق بالإنشاء ويعيده بالحشر . وقال ابن عباس : عام في جميع الأشياء ، أي كل ما يبدأ وكل ما يعاد ، وقال الطبري : يبدىء العذاب ويعيده على الكفار ، ونحوه : عن ابن عباس قال : تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً جديداً . وقرىء (يَبْدَأ) من بدأ ثلاثياً ، حكاه أبو زيد . ولما ذكر شدّة بطشه ذكر كونه غفوراً ساتراً لذنوب عباده ، وودوداً لطيفاً بهم ، محسناً إليهم ، وهاتان صفتا فعل . والظاهر أن (الودود) مبالغة في الوادّ . وعن ابن عباس : المتودد إلى عباده بالمغفرة . وحكى المبرد عن القاضي إسماعيل بن إسحاق : أن (الودود) هو الذي لا ولد له ، وأنشد :

وَأَرْكَبُ فِي الـرَّوْعِ عُـرْيَـانَـةً ذَلُـولَ الْجِمَـاعِ لِقَـاحـاً وَدُودَا[1]

أي لا ولد لها تحن إليه ، وقيل : (الودود) فعول بمعنى مفعول كركوب وخلوب ، أي يوده عباده الصالحون (ذو العرش) بإضافة نفسه ، تشريفاً للعرش ، وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات . وقرأ الجمهور (ذو) بالواو ، وابن عامر في رواية (ذي) بالياء صفة لـ (ربّك) ، وقال القفال (ذو العرش) ذو الملك والسلطان ، ويجوز أن يراد بالعرش : السرير العالي ، ويكون خلق سريراً في سمائه في غاية العظمة بحيث لا يعرف عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه . انتهى . وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان (المجيد) بخفض الدال صفة لـ (العرش) ومجادته : عظمه وعلوّه ومقداره وحسن صورته وتركيبه ، فإنه قيل : العرش : أحسن الأجسام صورة وتركيباً . ومن قرأ (ذي العرش) بالياء جاز أن يكون (المجيد) بالخفض صفة لـ (ذي) والأحسن جعل هذه المرفوعات أخباراً عن (هو) فيكون (فعّال) خبراً ، ويجوز أن يكون (الودود ، ذو العرش) صفتين لـ (الغفور) . و (فَعَّال) خبر مبتدأ ، وأتى بصيغة (فعال) لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، والمعنى أن كل ما تعلقت به إرادته فعله لا معترض عليه (هل أتاك حديث الجنود) تقرير لحال الكفرة ، أي قد أتاك حديثه ، وما جرى لهم مع أنبيائهم ، وما حل بهم من العقوبات ، بسبب تكذيبهم ، فكذلك يحل بقريش من العذاب مثل ما حل لهم ، و (الجنود) الجموع المعدّة للقتال (فرعون وثمود) بدل من (الجنود) وكأنه على حذف مضاف أي جنود فرعون ، واختصر ما جرى لهم إذ هم مذكورون في غير ما سورة من القرآن . وذكر ثمود ، لشهرة قصتهم في بلاد العرب ، وهي متقدّمة ، وذكر فرعون ، لشهرة قصته عند أهل الكتاب وعند العرب الجاهلية أيضاً . ألا ترى إلى زهير بن أبي سلمى ، وقوله :

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَهْـلَكَ تُـبَّـعـاً وَأَهْـلَكَ لُـقْـمَـانَ بْـنَ عَـادٍ وَعَـادِيَـا
وَأَهْلَكَ ذَا الْقَـرْنَيْنِ مِنْ قَبْـلِ مَـا لَـوَى وَفِـرْعَـوْنَ جَبَّـاراً طَغَى وَالنَّجَـاشِيَـا[2]

وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك فدل بقصته وقصة ثمود على أمثالها من قصص الأمم المكذبين وهلاكهم (بل الذين كفروا) أي من قومك (في تكذيب) حسداً لك ، لم يعتبروا بما جرى لمن قبلهم حين كذبوا أنبياءهم (والله من ورائهم محيط) أي هو قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون وثمود ، ومن كان محاطاً به فهو محصور في غاية لا يستطيع دفعاً ، والمعنى دنو هلاكهم . ولما ذكر أنهم (في تكذيب) وأن التكذيب عمهم ، حتى صار كالوعاء لهم وكان ـ ﷺ ـ قد كذبوه

---

(١) البيت من المتقارب انظر اللسان (ودد) فتح القدير ٥/٤١٣ .

(٢) البيتان من الطويل انظر الديوان ١٤١ .

وكذبوا ما جاء به وهو القرآن أخبر تعالى عن الذي جاء به وكذبوا فقال (بل هو قرآن) أي : بل الذي كذبوا به قرآن (مجيد) ومجادته : شرفه على سائر الكتب بإعجازه في نظمه ، وصحة معانيه ، وإخباره بالمغيبات ، وغير ذلك من محاسنه . وقرأ الجمهور (قرآنٌ مجيدٌ) موصوف وصفة . وقرأ ابن السميفع (قرآنُ مجيدٍ) بالإضافة قال ابن خالويه : سمعت ابن الأنباري يقول معناه : بل هو قرآن رب مجيد ، كما قال الشاعر :

وَلَـكِنَّ الغِنَـى رَبٌّ غَفُـورُ

معناه : ولكن الغنى غنى رب غفور . انتهى . وعلى هذا أخرجه الزمخشري ، وقال ابن عطية : وقرأ اليماني (قرآن مجيدٍ) على الإضافة وأن يكون الله تعالى هو المجيد انتهى . ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته فيكون مدلوله ومدلول التنوين ورفع مجيد واحداً ، وهذا أولى لتوافق القراءتين . وقرأ الجمهور (في لَوْح) بفتح اللام (محفوظٍ) بالخفض صفة لـ (اللوح) واللوح المحفوظ : هو الذي فيه جميع الأشياء . وقرأ ابن يعمر وابن السميفع بضم اللام قال ابن خالويه : اللوح : الهواء ، وقال الزمخشري : يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح المحفوظ من وصول الشياطين إليه . انتهى . وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه (محفوظٌ) بالرفع صفة لـ (قرآن) كما قال تعالى (وإنا له لحافظون) [الحجر ٩] أي : هو محفوظ في القلوب لا يلحقه خطأ ولا تبديل .

سورة الطارق مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

طرق يطرق طروقاً ، أتى ليلاً ، قال امرؤ القيس :

وَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ

وأصله الضرب ، لأن الطارق يطرق الباب ، ومنه المطرقة : وهي المبيعة . واتسع فيه فكل ما جاء بليل يسمى طارقاً ، ويقال : أطرق فلان : أمسك عن الكلام وأطرق بعينيه ، رمى بهما نحو الأرض . دفق الماء يدفقه دفقاً : صبه ، وماء دافق على النسب ، ويقال دفق الله روحه إذا دعا عليه بالموت ، التَّريبة : موضع القلادة من الصدر ، قال امرؤ القيس :

مُهفْهَفَـةٌ بَيْضَـاءُ غَيْـرُ مُفَـاضَـةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ تَرَائِبُهَا مَصْقُـولَةٌ كَـالسَّجَنْجَلِ [1]

جمعها بما حولها فقال ترائبها : وقال الشاعر :

وَالـزَّعْفَـرَانُ عَلى تَـرَائِبِهَـا ‌ ‌ ‌ ‌ شَـرِقَـتْ بِـهِ الـلَّبَّـاتُ وَالـنَّحْـرُ [2]

وقال أبو عبيدة : وجمع تريبة تريب ، قال المثقب العبدي :

وَمِـنْ ذَهَـبٍ يِـبِـيـنُ عَـلى تَـرِيـبٍ ‌ ‌ ‌ ‌ كَلَونِ الْعَـاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُـونِ [3]

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٥) ، المعلقات للزوزني ٣٠ .

(٢) البيت من الكامل نسب لأبي بكر بن المسور الزهري انظر اللسان (ثرب) ، الطبري ٤٥٣/٨ .

(٣) البيت من الوافر انظر اللسان (ترب) .

الهزل : ضدّ الجد . وقال الكميت :

تَجِدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَتَهْزِلُ[1]

أَمْهَلت الرجل : انتظرته . والمَهْل والمُهْلة : السكينة ، ومهلته أيضاً تمهيلاً ، وتمهل في أمره : اتأد واستمهلته انتظرته . ويقال : مهلاً ، أي : رِفقاً وسكوناً ، رُوَيْداً : مصدر أرود يرود، مصغر تصغير الترخيم ، وأصله إرواداً ، وقيل : هو تصغير رود من قوله « يمشي على رود » ، أي : مهل ، ويستعمل مصدراً نحو : رويد عمر ، وبالإضافة : أي إمهال عمرو، كقوله ﴿فضرب الرقاب﴾ [محمد ٤] ونعتاً لمصدر، نحو: ساروا سيراً رويداً، وحالاً، نحو سار القوم رويداً ، ويكون اسم فعل ، وهذا كله موضح في علم النحو ، والله تعالى أعلم .

﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، إن كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ، إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ هذه السورة مكية ، ولما ذكر فيها قبلها تكذيب الكفار للقرآن نبه هنا على حقارة الإنسان ثم استطرد منه إلى أن هذا القرآن قول فصل جد لا هزل فيه ولا باطل يأتيه ، ثم أمر نبيه بإمهال هؤلاء الكفرة المكذبين وهي آية موادعة منسوخة بآية السيف (والسماء) هي المعروفة ، قاله الجمهور ، وقيل : (السماء) هنا المطر و (الطارق) هو الآتي ليلاً ، أي يظهر بالليل ، وقيل : لأنه يطرق الجني ، أي يصكه من : طرقت الباب إذا ضربته ليفتح لك ، أتى بالطارق ، مقسماً به ، وهي صفة مشتركة بين النجم الثاقب وغيره ، ثم فسره بقوله (النجم الثاقب) إظهار الفخامة ما أقسم به لما علم فيه من عجيب القدرة ، ولطيف الحكمة ، وتنبيهاً على ذلك كما قال تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة ٧٥ ، ٧٦] ، وقال ابن عطية : معنى الآية : والسماء وجميع ما يطرق فيه من الأمور والمخلوقات ، ثم ذكر بعد ذلك على جهة التنبيه أجل الطارقات قدراً ، وهو النجم الثاقب ، وكأنه قال (وما أدراك ما الطارق) حتى الطارق . انتهى . فعلى هذا يكون (النجم الثاقب) بعضاً مما دل عليه (والطارق) إذ هو اسم جنس يراد به جميع الطوارق . وعلى قول غيره يراد به واحد مفسر بالنجم الثاقب و (النجم الثاقب) عند ابن عباس : الجدي . وعند ابن زيد : زحل ، وقال هو أيضاً وغيره الثريا ، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم النجم. وقال علي: نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد . وقال الحسن : هو اسم جنس ، لأنها كلها ثواقب ، أي ظاهرة الضوء ، وقيل : المراد جنس النجوم التي يرمى بها ويرجم ، و (الثاقب) قيل : المضيء ، يقال ثقب يثقب ثقوباً وثقابة : أضاء ، أي يثقب الظلام بضوئه ، وقيل : المرتفع العالي ، ولذلك قيل هو زحل ، لأنه أرقها مكاناً ، وقال الفراء : ثقب الطائر : ارتفع وعلا . وقرأ الجمهور (إن خفيفة) (كُلُّ) رفعاً (لَمَا) خفيفة ، فهي عند البصريين مخففة من الثقيلة و (كل) مبتدأ و (اللام) هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن المخففة و (ما) زائدة و (حافظ) خبر المبتدأ و (عليها) متعلق به ، وعند الكوفيين (إن) نافية و (اللام) بمعنى إلا و (ما) زائدة و (كل) و (حافظ) مبتدأ وخبر ، والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو . وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وعاصم وابن عمر وحمزة وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما

---

(١) عجز بيت من الطويل وصدره :

أرانا على حب الحياة وطولها . . . .

انظر اللسان (هزل) .

(لَمَّا) مشددة ، وهي بمعنى إلا لغة مشهورة، في هذيل وغيرهم ، تقول العرب : أقسمت عليك لَمّا فَعلت كذا أي إلا فعلت ، قاله الأخفش ، فعلى هذه القراءة يتعين أن تكون نافية ، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ وحكى هرون أنه قرىء (إنَّ) بالتشديد (كُلَّ) بالنصب . فاللام هي الداخلة في خبر (إن) و (ما) زائدة و (حافظ) خبر إن وجواب القسم هو ما دخلت عليه إنَّ سواء كانت المخففة أو المشددة أو النافية ، لأن كلاً منها يتلقى به القسم فتلقيه بالمشددة مشهورة ، وبالمخففة ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ [الصافات ٥٦] وبالنافية ﴿ ولئن زالتا ان أمسكهما ﴾ [فاطر ٤١] ، وقيل : جواب القسم (إنه على رجعه لقادر) وما بينهما اعتراض ، والظاهر : عموم كل نفس . وقال ابن سيرين وقتادة وغيرهما : إن كل نفس مكلفة عليها حافظ يحصي أعمالها ، ويعدها للجزاء عليها ، فيكون في الآية وعيد وزاجر وما بعد ذلك يدل عليه . وقيل : حفظة من الله يذبون عنها ، ولو وكل المرء إلى نفسه لاختطفته الغير والشياطين ، وقال الكلبي والفراء : حافظ من الله يحفظها ، حتى يسلمها إلى المقادير ، وقيل : الحافظ العقل يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره ، وقيل : حافظ مهيمن ، ورقيب عليه وهو الله تعالى ، ولما ذكر أن كل نفس عليها حافظ أتبع ذلك بوصية الإنسان بالنظر في أول نشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه فيعمل لذلك ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته و (مِمَّ خُلِقَ) ستفهام و (مَنْ) متعلقة بـ (خُلِق) والجملة في موضع نصب بـ (فلينظر) وهي معلقة وجواب الاستفهام ما بعده وهو خلق من ماء دافق) وهو مني الرجل والمرأة لما امتزجا في الرحم واتحدا عبر عنهما بماء وهو مفرد ، و (دافق) قيل : هو بمعنى مدفوق ، وهي قراءة زيد بن عليّ . وعند الخليل وسيبويه هو على النسب كـلابن وتامر ، أي : ذي دفق ، وعن ابن عباس بمعنى دافق لزج ، وكأنه أطلق عليه وصفه لأنه موضوع في اللغة لذلك . والدفق الصب فعله متعد . وقال ابن عطية : والدفق : دفع الماء بعضه ببعض تدفق الوادي والسيل : إذا جاء يركب بعضه بعضاً . ويصح أن يكون الماء دافقاً ، لأن بعضه يدفع بعضاً فمنه دافق ومنه مدفوق . انتهى . وركب قوله هذا على تدفق . وتدفق لازم دفقته فتدفق ، نحو كسرته فتكسر . ودفق ليس في اللغة معناه ما فسر من قوله ، والدفق : دفع الماء بعضه ببعض بل المحفوظ أنه الصب . وقرأ الجمهور (يَخْرُجُ) مبنياً للفاعل (من بين الصُّلْبُ) بضم الصاد وسكون اللام ، وابن أبي عبلة وابن مقسم مبنياً للمفعول ، وهما وأهل مكة وعيسى بضم الصاد واللام واليماني بفتحهما ، قال العجاج :

فِي صُلُب مِثْل الْعَنَانِ الْمُؤْدَمِ (١)

وتقدمت اللغات في (الصلب) في سورة النساء وإعرابها صالب كما قال العباس :

تُنَقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ (٢)

قال قتادة والحسن معناه : من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترؤبه . وقال سفيان وقتادة أيضاً : من بين صلب الرجل وترائب المرأة . وتقدم شرح الترائب في المفردات ، وقال ابن عباس : موضع القلادة ، وعن ابن جبير هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب . وقيل : ما بين المنكبين والصدر . وقيل : هي التراقي . وعن معمر : هي عصارة القلب ، ومنه يكون الولد . ونقل مكي عن ابن عباس أن الترائب : أطراف المرء رجلاه ويداه وعيناه . قال ابن عطية :

---

(١) عجز بيت من الرجز انظر ديوانه (٤٠٥/١) اللسان (صلب) .

(٢) صدر بيت من المنسرح عجزه :

.... إذا مضى عالم بدا طبقُ

انظر اللسان (صلب) .

وفي هذه الأحوال تحكم على اللغة . انتهى . (إنه) الضمير يعود على الخالق الدال عليه (خلق) ، (على رجعه) قال ابن عباس : وقتادة : الضمير (في رجعه) عائد على الإنسان ، أي على رده حياً بعد موته أي من أنشأه أولاً قادر على بعثه يوم القيامة لا يعجزه شيء . وقال الضحاك : على رده من الكبر إلى الشباب ، وقال عكرمة ومجاهد : الضمير عائد على الماء ، أي على رد الماء في الإحليل أو في الصلب . وعلى هذا القول وقول الضحاك يكون العامل في (يوم تبلى) مضمر تقديره اذكر وعلى قول ابن عباس وهو الأظهر ، فقال بعض النحاة العامل (ناصر) من قوله (ولا ناصر) وهذا فاسد ، لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وكذلك (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها على المشهور المنصور . وقال آخرون ومنهم الزمخشري : العامل (رجعه) ورد بأن فيه فصلاً بين الموصول ومتعلقه وهو من تمام الصلة ولا يجوز ، وقال الحذاق من النحاة . العامل فيه مضمر يدل عليه المصدر تقديره : يرجعه يوم تبلى السرائر ، قال ابن عطية : وكل هذه الفرق فرت من أن يكون العامل (لقادر) لأنه يظهر من ذلك تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده ، وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون المعنى ، لقادر وذلك أنه قال (إنه على رجعه لقادر) على الإطلاق أولاً وآخراً ، وفي كل وقت ، ثم ذكر تعالى وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب ليجتمع الناس إلى حذره والخوف منه . انتهى . (تبلى) قيل : تختبر . وقيل : تعرف وتتصفح ، وتميز صالحها من فاسدها و (السرائر) ما أكنته القلوب من العقائد والنيات وما أخفته الجوارح من الأعمال والظاهر : عموم السرائر وفي الحديث « إنها التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة وكأن المذكور في الحديث هو أعظم السرائر . وسمع الحسن من ينشد :

سَيَبْقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا ... سَرِيرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

فقال ما أغفله عما في السماء والطارق ، والبيت للأحوص . ولما كان الامتناع في الدنيا إما بقوة في الإنسان وإما بناصر خارج عن نفسه نفي عنه تعالى ما يمتنع به وأتى بـ (مِنْ) الدالة على العموم في نفي القوة والناصر (والسماء) أقسم ثانياً بالسماء ، وهي المظلة ، قيل : ويحتمل أن يكون السحاب . (ذات الرجع) قال ابن عباس : الرجع : السحاب فيه المطر . وقال الحسن : ترجع بالرزق كل عام . وقال ابن زيد : الرجع : مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ومن منزلة إلى منزلة تذهب وترجع ، وقيل : الرجع : المطر . ومنه قول الهذلي :

أَبْيَض كَالرَّجْعِ رَسُوب إِذَا ... مَا نَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي[1]

يصف سيفاً شبهه بماء المطر في بياضه وصفائه ، وسمي رجعاً كما سمي إرْباً ، قال الشاعر :

رَبَّاء شَمَّاءُ لَا يَأْوِي لِقُلَّتِهَا ... إِلَّا السَّحَابُ وَإِلَّا الإِربُ وَالسَّبل[2]

تسمية بمصدر آب ورجع تزعم العرب أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض إذا أرادوا التفاؤل ، وسموه رجعاً وإرباً ليرجع ويؤوب . وقيل : لأن الله تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً . قالت الخنساء :

كَالرَّجْعِ فِي الْمُوجَنَةِ السَّارِيَه

وقيل : الرجع الملائكة ، سموا بذلك ، لرجوعهم بأعمال العباد ، وقيل : السحاب والمشهور عند أهل اللغة وقول

---

(١) انظر اللسان (رجع) .

(٢) البيت من البسيط انظر ديوان الهذليين ٢/ ٣٧. اللسان (أوب) .

الجمهور إن الرجع : هو المطر . والصدع : ما تتصدع عنه الأرض من النبات . ويناسب قول من قال : الرجع المطر ، وقال ابن زيد : ذات الانشقاق النبات ، وقال أيضاً ، ذات الحرث . وقال مجاهد : الصدع : ما في الأرض من شقاق ولصاب وخندق وتشقق بحرث وغيره ، وهي أمور فيها معتبر . وعنه أيضاً ، ذات الطرق تصدعها المشاة ، وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم يوم النشور والضمير في (إنه) قالوا عائد على القرآن . (فَصْل) أي فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان . وأقول : ويجوز أن يعود الضمير في (إنه) على الكلام الذي أخبر فيه ببعث الإنسان يوم القيامة وابتلاء سرائره ، أي إن ذلك القول قول جزم مطابق للواقع لا هزل فيه ، ويكون الضمير قد عاد على مذكور وهو الكلام الذي تضمن الإخبار عن البعث وليس من الأخبار التي فيها هزل بل هو جد كله . (إنهم) أي الكافرون (يكيدون) أي في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق (وأكيد) أي أجازيهم على كيدهم . فسمى الجزاء كيداً على سبيل المقابلة نحو قوله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ آل [عمران ٥٤] ﴿ إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة ١٤ ، ١٥] ثم أمر رسوله ـ ﷺ ـ فقال (أمهلهم رويداً) أي انتظر عقوبتهم ، ولا تستعجل ذلك . ثم أكد أمره فقال (أمهلهم رويداً) أي إمهالاً لما كرر الأمر توكيداً خالف بين اللفظين على أن الأول مطلق ، وهذا الثاني مقيد بقوله (رويداً) ، وقرأ ابن عباس (مَهِّلْهم) بفتح الميم وشدّ الهاء موافقة للفظ الأمر الأول .

سورة الأعلى مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

الغثاء : مخفف الثاء ومشدّدها ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش . قال الشاعر :

كَـأَنَّ طَـمـيـا الْـمُـجَـيْـمِـرِ غُـدْوَةً ... مِنَ السَّيْـلِ والأغذاء فلكةُ مغـزلِ

ورواه الفرّاء والأغثاء على الجمع وهو غريب من حيث جمع فعال على أفعال ، الحوّة : سواد يضرب إلى الخضرة ، قال ذو الرمّة :

لَمْيَـاءُ فِي شَفَتَيْهَـا حُـوَّةٌ لَـعَسٌ ... وَفِي اللِّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ[1]

وقيل : خضرة عليها سواد ، والأحوى : الظبي الذي في ظهره خطان من سواد وبياض قال الشاعر :

وَفِي الْحَيِّ أَحْـوَى يَنْفِضُ الْمُـرْدَ شَـادِنٌ ... مُـظَاهِـرُ سِـمْـطَي لُـؤْلُؤٍ وَزَبَـرْجَـدِ[2]

وفي الصحاح : الحوة : سمرة . وقال الأعلم : لون يضرب إلى السواد ، وقال أيضاً : الشديد الخضرة التي تضرب إلى السواد .

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوّى ، والذي قدّر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذّكرى ، سيذكّر من

---

(١) البيت من البسيط انظر ديوانه (٥) الصبان على الأشموني ٣/١٢٧ ، الهمع ٢/١٢٦ .

(٢) البيت من الطويل لطرفة انظر شرح المعلقات للزوزني ٦٦ .

يخشى، ويتجنبها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيما قبلها ، (فلينظر الإنسان ممّ خلق) الطارق كأن قائلاً قال من خلقه ؟ على هذا المثال فقيل (سبح اسم ربك) وأيضاً لما قال (إنه لقول فصل) الطارق قيل هو (سنقرئك) أي : ذلك القول الفصل . (سبح) نزّه عن النقائص (اسم ربكَ) الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم ، أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن فيقال له رب أو إله وإذا كان قد أمر بتنزيهه للفظ أن يطلق على غيره فهو أبلغ وتنزيه الذات أحرى . وقيل : الاسم هنا بمعنى المسمى ، وقيل : معناه نزّه اسم الله عن أن تذكره إلا وأنت خاشع . وقال ابن عباس : المعنى : صلّ باسم ربك الأعلى كما تقول ابدأ باسم ربك وحذف حرف الجر . وقيل : « لما نزل ﴿ سبح باسم ربك العظيم ﴾ [الحاقة ٥٢] قال رسول الله ـ ﷺ ـ اجعلوها في ركوعكم فلما نزل (سبح اسم ربك الأعلى) قال اجعلوها في سجودكم » . وكانوا يقولون في الركوع . اللهم لك ركعت ، وفي السجود : اللهم لك سجدت ، قالوا (الأعلى) يصح أن يكون صفة لـ (ربك) وأن يكون صفة لـ (اسم) فيكون منصوباً ، وهذا الوجه لا يصح أن يعرب (الذي خلق) صفة لـ (ربك) فيكون في موضع جر لأنه قد حالت بينه وبين الموصوف صفة لغيره ، لو قلت : رأيت غلام هند العاقل الحسنة لم يجز بل لا بد أن تأتي بصفة هند ثم تأتي بصفة الغلام فتقول رأيت غلام هند الحسنة العاقل فإن لم يجعل الذي صفة لـ (ربك) بل ترفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو تنصبه على المدح جاز أن يكون (الأعلى) صفة لـ (اسم) ، (الذي خلق) أي كل شيء (فسوّى) أي لم يأت متفاوتاً بل متناسباً على إحكام وإتقان دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم ، وقرأ الجمهور (قدّر) بشد الدال فاحتمل أن يكون من القدر والقضاء واحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء . وقال الزمخشري : (قدّر) لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به انتهى . وقرأ الكسائي (قَدَر) مخفف الدال من القدرة أو من التقدير والموازنة وهدى عام لجميع الهدايات . وقال الفرّاء (فهَدَى) وأضل اكتفى بالواحدة عن الأخرى . وقال الكلبي ومقاتل : هدى الحيوان إلى وطء الذكور للإناث . وقال مجاهد : هدى الإنسان للخير والشر والبهائم للمراتع . وقيل : هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي وهذه الأقوال محمولة على التمثيل لا على التخصيص ، والظاهر أن أحوى صفة لغثاء ، قال ابن عباس : المعنى فجعله غثاء أحوى أي أسود لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار أسود وتعفن فصار أحوى . وقيل (أحوى) حال من المرعى أي أحرى المرعى أحوى أي للسواد من شدّة خضرته ونضارته لكثرة ريه وحسن تأخير (أحوى) لأجل الفواصل ، قال :

وَغَيْث مِنَ الـوَسْمِيِّ حُوٌّ تِـلاَعُـهُ   تَـبَـطَّنْتُـهُ بِـشَـيْـظَمٍ صَـلْتَـانِ

(سنقرئك فلا تنسى) ، قال الحسن وقتادة ومالك : هذا في معنى ﴿ لا تحرّك به لسانك ﴾ [القيامة ١٦] وعده الله أن يقرئه وأخبره أنه لا ينسى ، وهذه آية للرسول ـ ﷺ ـ في أنه أمّيّ وحفظ الله عليه الوحي وأمنه من نسائه ، وقيل : هذا وعد باقراء السور وأمر أن لا ينسى على معنى التثبيت والتأكيد وقد علم أن النسيان ليس في قدرته فهو نهي عن إغفال التعاهد ، وأثبتت الألف (في فلا تنسى) وإن كان مجزوماً بـ (لا) التي للنهي لتعديل رؤوس الآي . (إلا ما شاء الله) الظاهر أنه استثناء مقصود . قال الحسن وقتادة وغيرهما : مما قضى الله نسخه وأن ترتفع تلاوته وحكمه ، وقال ابن عباس (إلا ما شاء الله) أن ينسيك لتسن به على نحو قوله عليه الصلاة والسلام « إني لأنسى وأنسى لأسن » . وقيل : (إلا ما شاء الله) أن يغلبك النسيان عليه ثم يذكرك به بعد كما قال عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عباد بن بشير : « لقد ذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا » . وقيل : (فلا تنسى) أي فلا تترك العمل به (إلا ما شاء الله) أن تتركه بنسخه إياه فهذا في نسخ العمل . وقال الفراء وجماعة : هذا استثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى في الاستثناء وليس ثم شيء أبيح

استثناؤه ، وأخذ الزمخشري هذا القول فقال : وقال (إلا ما شاء الله) والغرض نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله ولا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي . انتهى . وقول الفراء والزمخشري يجعل الاستثناء كلا استثناء ، وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى ، بل ولا في كلام فصيح وكذلك القول بأن (لا) في (فلا تنسى) للنهي والألف ثابتة لأجل الفاصلة ، وهذا قول ضعيف . ومفهوم الآية في غاية الظهور وقد تعسفوا في فهمها والمعنى : أنه تعالى أخبر أنه سيقرئه وأنه لا ينسى إلا ما شاء الله فإنه ينساه إما النسخ وإما أن يسن وإما على أن يتذكر وهو ـ ﷺ ـ معصوم من النسيان فيما أمر بتبليغه فإن وقع نسيان فيكون على وجه من الوجوه الثلاثة . ومناسبة (سنقرئك) لما قبله : أنه لما أمره تعالى بالتسبيح وكان التسبيح لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، وكان يتذكر في نفسه مخافة أن ينسى فأزال عنه ذلك وبشره بأنه تعلى يقرئه وأنه لا ينسى استثنى (ما شاء الله) أن ينسيه لمصلحة من تلك الوجوه . (إنه يعلم الجهر) أي جهرك بالقرآن (وما يخفى) أي في نفسك من خوف التفلت وقد كفاك ذلك بكونه تكفل بإقرائك إياه وإخباره أنك لا تنسى إلا ما استثناه وتضمن ذلك إحاطة علمه بالأشياء (ونيسرك) معطوف على (سنقرئك) وما بينهما من الجملة المؤكدة اعتراض أي يوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل يعني في حفظ الوحي . وقيل : للشريعة الحنيفية السهلة . وقيل : يذهب بك إلى الأمور الحسنة في أمر دنياك وآخرتك من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة . ولما أخبر أنه يقرئه وييسره أمره بالتذكير إذ ثمرة الإقراء هي انتفاعه في ذاته وانتفاع من أرسل إليهم . والظاهر : أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرى وهذا الشرط إنما جيء به توبيخاً لقريش أي (إن نفعت الذكرى) في هؤلاء الطغاة العتاة ، ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى فهو كما قال الشاعر :

لَقَـدْ أَسْمَعْتَ لَـوْ نَـادَيْتَ حَيًّـا ... وَلَكِنْ لَا حَيَـاةَ لِمَنْ تُنَـادِي[1]

كما تقول : قل لفلان وأعدله إن سمعك فقوله إن سمعك إنما هو توبيخ وإعلام إن لن يسمع . وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني : معناه وإن لم ينفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني ، وقيل : إن بمعنى (إذ) كقوله ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران ١٣٩] أي : إذ كنتم لأنه لم يخبر بكونهم الأعلون إلا بعد إيمانهم (سيذكر من يخشى) أي لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيه مما يخافه فإذا نظر فأداه النظر والتذكر إلى الحق ، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون كل على قدر ما وفق له . (ويتجنبها) أي الذي (الأشقى) أي المبالغ في الشقاوة ، لأن الكافر بالرسول ـ ﷺ ـ هو أشقى الكفار كما أن المؤمن به وبما جاء به هو أفضل ممن آمن برسول قبله ثم وصفه بما يؤول إليه حاله في الآخرة وهو صلي النار ووصفها بالكبرى . قال الحسن : (النار الكبرى) نار الآخرة والصغرى نار الدنيا . وقال الفراء (الكبرى) السفلى من أطباق النار . وقيل : نار الآخرة تتفاضل ففيها شيء أكبر من شيء (ثم لا يموت) فيستريح (ولا يحيى) حياة هنية وجيء بـ (ثم) المقتضية للتراخي ، إيذاناً بتفاوت مراتب الشدة لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلى بالنار (قد أفلح) أي فاز وظفر بالبغية (من تزكى) تطهر ، قال ابن عباس : من الشرك وقال لا إله إلا الله . وقال الحسن : من كان عمله زاكياً ، وقال أبو الأحوص وقتادة وجماعة : من رضخ من ماله وزكاه (وذكر اسم ربه) أي وحده لم يقرنه بشيء من الأنداد (فصلى) أي أتى الصلاة المفروضة وما أمكنه من النوافل . والمعنى أنه لما تذكر آمن بالله ثم أخبر عنه تعالى أنه أفلح من أتى بهاتين العبادتين الصلاة والزكاة واحتج بقوله (وذكر اسم ربه) على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنه جائز بكل اسم من أسمائه تعالى وأنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة على الذكر الذي هو تكبيرة الافتتاح وهو احتجاج ضعيف . وقال ابن عباس (وذكر اسم ربه) أي معاده وموقفه بين يدي ربه

(١) البيت من الوافر ذكره السمين في الدر المصون .

(فصلى) له . وقرأ الجمهور (بل تؤثرون) بتاء الخطاب للكفار . وقيل : خطاب للبر والفاجر ، يؤثرها البر ، لاقتناء الثواب والفاجر لرغبته فيها . وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم بياء الغيبة . (إن هذا) أي الإخبار بإفلاح من تزكى وإيثار النّاس للدنيا قاله ابن زيد وابن جرير ويرجح بقرب المشار إليه بهذا . وقال ابن عباس وعكرمة والسدي : إلى معاني السورة . وقال الضحاك : إلى القرآن . وقال قتادة : إلى قوله (والآخرة خير وأبقى) (لفي الصحف الأولى) لم ينسخ إفلاح من تزكى والآخرة خير وأبقى في شرع من الشرائع فهو في الأولى وفي آخر الشرائع ، وقرأ الجمهور (الصحُف) بضم الحاء كالحرف الثاني . والأعمش وهرون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكونها . وفي كتاب اللوامح العبقلي عن أبي عمرو (الصحْف صُحف) بإسكان الحاء فيهما لغة تميم . وقرأ الجمهور (إبراهيم) بألف وبياء والهاء مكسورة ، وأبو رجاء بحذفهما والهاء مفتوحة مكسورة معاً وأبو موسى الأشعري وابن الزبير (إبراهام) بألف في كل القرآن . ومالك بن دينار ابراهم بألف وفتح الهاء وبغير ياء وعبد الرحمن بن أبي بكرة (إبراهِم) بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن . قال ابن خالويه : وقد جاء (إبراهم) يعني بألف وضم الهاء وتقدم في (والنجم) الكلام على (صحف إبراهيم وموسى) عليه الصلاة والسلام .

سورة الغاشية مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

الضريع : قال أبوحنيفة : وأظنه صاحب النبات ، الضريع الشبرق وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً ، ومنه قول ابن عزارة الهذلي :

وَحُبِسْنَ فِي هَزْمِ الضَّرِيعِ فَكُلُّهَا حَدْبَاءُ دَامِيَةُ الْيَدَيْنِ حَرُودُ[1]

وقال أبو ذؤيب :

رَعَى الشِّبْرِقَ الرَّيَانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى وَصَارَ ضَرِيعاً بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ[2]

وقال بعض اللغويين : يبيس العرفج إذا تحطم ، وقال الزجاج هو نبت كالعوسج . وقال الخليل : نبت أخضر منتن الريح يرمي به البحر . النمارق : الوسائد واحدها نُمْرُقة بضم النون والراء وبكسرهما .

وقال زهير :

---

(١) البيت من الكامل انظر ديوان الهذليين ٧٣/٣ اللسان (فرع) .

(٢) البيت من الطويل انظر الكشاف ٥٩٣/٤ فتح القدير ٤٢٩/٥ .

كُهُولاً وَشُبَّاناً حِسَاناً وُجُوهُهُمْ　　عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ[1]

الزرابي : بُسُط عراض فاخرة . وقال الفراء : هي الطنافس المخملة وواحدها زربية ، بكسر الزاي وبفتحها ، وسطحت الأرض : بسطت ووطئت .

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، ولا يسمن ولا يغني من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابيّ مبثوثة ، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ هي مكية ، ولما ذكر فيما قبلها فذكر وذكر النار والآخرة قال (هل أتاك حديث الغاشية) والغاشية ، الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة . قاله سفيان والجمهور . وقال ابن جبير ومحمد بن كعب : النار قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ [إبراهيم ٥٠] ، وقال ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف ٤١] فهي تغشى سكانها . وهذا الاستفهام توقيف ، وفائدته : تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر . وقيل : المعنى : هل كان هذا من عملك لولا ما علمناك وفي هذا تعديد النعمة . وقيل : بمعنى قد . (وجوه يومئذ) أي يوم إذ غشيت ، والتنوين عوض من الجملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً منها لكن لما تقدّم لفظ الغاشية و« أل » موصولة باسم الفاعل فتنحل للتي غشيت ، أي للداهية التي غشيت فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها وإلى الموصول الذي هو التي . (خاشعة) ذليلة (عاملة ناصبة) ، قال ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة : عاملة في النار ، ناصبة تعبة فيها ، لأنها تكبرت عن العمل في الدنيا ، قيل : وعملها في النار جر السلاسل والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود نار وهبوطها في حدور منها . وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم وابن جبير (عاملة) في الدنيا (ناصبة) فيها لأنها على غير هدى فلا ثمرة لها إلا النصب وخاتمته النار والآية في القسيسين وعباد الأوثان وكل مجتهد في كفره . وقال عكرمة والسدي (عاملة ناصبة) بالنصب على الذم والجمهور برفعهما . وقرأ (تَصلى) بفتح التاء وأبو رجاء وابن محيصن والأبوان بضمها وخارجة بضم التاء وفتح الصاد مشدّد اللام وقد حكاها أبو عمرو بن العلاء (حامية) مسعرة آنية قد انتهى حرها كقوله ﴿ وبين حميم آن ﴾ [الرحمن ٤٤] قاله ابن عباس والحسن ومجاهد . وقال ابن زيد : حاضرة لهم من قولهم أنى الشيء حضر . والضريع : قال ابن عباس شجر من نار . وقال الحسين وجماعة : الزقوم ، وقال ابن جبير : حجارة من نار . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وعكرمة ومجاهد : شبرق النار ، وقيل : العبشرق . وقيل : رطب العرفج ، وتقدم ما قيل فيه في المفردات . وقيل : واد في جهنم ، والضريع إن كان الغسلين ، والزقوم فظاهر ، ولا يتنافى الحصر في ﴿ إلا من غسلين ﴾ [الحاقة ٣٦] و (إلا من ضريع) وإن كانت أغيار مختلفة والجمع بأن الزقوم لطائفة والغسلين لطائفة والضريع لطائفة ، وقال الزمخشري : (لا يسمنُ) مرفوع المحل أو مجروره على وصف (طعام) أو (ضريع) يعني أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك ، والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به ، وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن انتهى . فقوله مرفوع

---

(١) البيت من الطويل انظر الديوان (١١٣) برواية :

وفيهم مقامات حسان وجوهها　　وأندية ينتابها القول والفعل

فتح القدير ٥/ ٤٣٠ .

المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع ، أما جره على وصفه لـ (ضريع) فيصح ، لأنه مثبت منفي عنه السمن والإغناء من الجوع . وأما رفعه على وصفه لـ (طعام) فلا يصح ، لأن الطعام منفي ولا يسمن منفي فلا يصح تركيبه إذ يصير التقدير : ليس لهم طعام لا يسمن ولا يغني من جوع إلا من ضريع ، فيصير المعنى أن لهم طعاماً يسمن ويغني من جوع من غير ضريع كما تقول ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو . فمعناه أن له مـالاً ينتفع به من غير مال عمرو ، ولو قيل : الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدر في (إلا من ضريع) كان صحيحاً ، لأنه في موضع رفع على أنه بدل من اسم ليس أي ليس لهما طعام إلا كائن من ضريع إذ لا طعام من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع . وهذا تركيب صحيح ومعنى واضح ، وقال الزمخشري : أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم ، فضلاً عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبع وأسمن ، وهو منهما بمعزل ، كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد انتهى . فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً إذ لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظة طعام إذ ليس بطعام ، والظاهر الاتصال فيه وفي قوله ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ [الحاقة ٣٦] لأن الطعـام هو مـا يطعمـه الإنسان وهـذا قدر مشـترك بين المستلذ والمكروه وما لا يستلذ ولا يستكره ، (وجوه يومئذ ناعمة) صح الابتداء في هذا وفي قوله (وجوه يومئذ خاشعة) بالنكرة لوجود مسوغ ذلك ، وهو التفصيل (ناعمة) لحسنها ونضارتها أو متنعمة ، (لسعيها راضية) أي لعملها في الدنيا بالطاعة (راضية) إذا كان ذلك العمل جزاؤه الجنة (في جنة عالية) أي مكاناً ومكانة . وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم (لا تُسْمَع) مبنياً للمفعول (لاغية) رفع أي كلمة لاغية أو جماعة لاغية أو لغو ، فيكون مصدراً كالعاقبة . ثلاثة أقوال الثالث : لأبي عبيدة وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك إلا أنهم قرأوا بالياء لمجاز التأنيث والفضل والجحدري كذلك إلا أنه نصب (لاغية) على معنى لا يسمع فيها أي أحد ، من قولك : أسمعت زيداً والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة وابن سيرين ونافع في رواية خارجة وأبو عمرو بخلاف عنه وباقي السبعة (لا تسمع) بتاء الخطاب عموماً ، أو للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو الفاعل الوجود ، (لاغية) بالنصب (فيها عين جارية) عين : اسم جنس أي عيون أو مخصوصة ذكرت تشريفاً لها . (فيها سرر مرفوعة) من رفعة المنزلة أو رفعة المكان ليرى ما خوله ربه من الملك والنعيم أو مخبوءة من رفعت لك هذا أي خبأته . (وأكواب موضوعة) أي بأشربتها معدة لا تحتاج إلى مالىء أو موضوعة بين أيديهم أو موضوعة على حافات العيون . (ونمارق مصفوفة) أي وسائد صف بعضها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها (وزرابي مبثوثة) متفرقة هنا وهناك في المجالس . ولما ذكر تعالى أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم ، أتبع ذلك بذكر هذه الدلائل وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) وهي الجمال فإنه اجتمع فيها ماتفرق من المنافع في غيرها من أكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة وعيشها بأي نبات أكلته وصبرها على العطش حتى أن فيها ما يرد الماء لعشر وطواعيتها لمن يقودها ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال وكثرة حنينها وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها ، وهي لا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها . وقد أبان تعالى امتنانه عليهم بقوله ﴿أولم يروا أنا خلقنـا لهم مما عملت أيـدينا أنعـاماً﴾ [يس ٧١ الآيـات] ولكونها أفضـل ما عنـد العرب جعلوهـا دية القتل ووهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه وذكرها الشعراء في مدح من وهبها كما قال :

أَعْطوا هُنَيْدَةَ تَحْدُوهَا ثَمانِيَة

وقال آخر :

الْوَاهِبُ المائَةَ الْهِجَانَ بِرُمتِها

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع بل هو عام في كل موجوداته كما قيل :

وَفِـي كُـلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ   تَـدُلُّ عَـلَى أَنَّـهُ وَاحِـدُ

وقال أبو العباس المبرد : الإبل هنا السحاب ، لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالاً كالإبل وتزجى كما تزجى الإبل ، وهي في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام ، ومنه قوله :

كَـأَنَّ السَّحَـابَ دُوَيْنَ السَّمَـا   ءَنَـعَـامٌ تَـعَـلَّقَ بِـالأَجْـلِ

وقال الزمخشري : ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم وغير ذلك وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم ، فجوّز أن يراد بها السحاب على طريقة التشبيه والمجاز . انتهى . وقرأ الجمهور (الإبل) بكسر الباء وتخفيف اللام . والأصمعي عن أبي عمرو بإسكان الباء . وعليّ وابن عباس بشد اللام ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي . وقالوا : إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة . وقال : الحسن : خص الإبل بالذكر ، لأنها تأكل النوى والقت ، وتخرج اللبن ، فقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة ، وقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره ، والإبل لا واحد له من لفظه ، وهو مؤنث ، ولذلك إذا صغر دخلته التاء فقالوا أُبَيْلَة ، وقالوا في الجمع آبال وقد اشتقوا من لفظه فقالوا : تأبل الرجل ، وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا ما آبل زيداً وإبل اسم جاء على فِعِل ولم يحفظ سيبويه مما جاء على هذا الوزن غيره و (كيف خلقت) جملة استفهامية في موضع البدل من الإبل و (ينظرون) تعدى إلى إبل بواسطة إلى وإلى (كيف خلقت) على سبيل التعليق ، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها كقولهم : عرفت زيداً أبو من هو على أصح الأقوال على أن العرب قد أدخلت إلى علي (كيف) فحكى أنهم قالوا : انظر إلى كيف يصنع ؟ و (كيف) سؤال عن حال ، والعامل فيها (خلقت) وإذا علق الفعل عن ما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته ، وقد بينا ذلك في كتابنا المسمىٰ بالتذكرة وفي غيره . وقرأ الجمهور (خلقت) (رفعت) (نصبت) (سطحت) بتاء التأنيث مبنياً للمفعول وعليّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة بتاء المتكلم مبنياً للفاعل والمفعول محذوف ، أي خلقتها رفعتها نصبتها رفعت رفعاً بعيد المدى بلا عمد نصبت نصباً ثابتاً لا تميل ولا تزول سطحت سطحاً حتى صارت كالمهاد للمتقلب عليها . وقرأ الجمهور (سطحت) خفيفة الطاء والحسن وهارون بشدّها ولما حضهم على النظر أمر رسوله ـ ﷺ ـ بتذكيرهم فقال (فذكر) ولا يهمنك كونهم لا ينظرون (إنما أنت مذكر) كقوله تعالى ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [الشورى ٤٨] (لست عليهم بمسيطر) أي بمسلط كقوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق ٤٥] وقرأ الجمهور بالصاد وكسر الطاء ، وابن عامر في رواية ونطيق عن قنبل ، وزرعان عن حفص بالسين ، وحمزة في رواية بإشمام الزاي ، وهارون بفتح الطاء وهي لغة تميم ، وسيطر : متعد عندهم ، ويدل عليه فعل المطاوعة ، وهو تسطر وليس في الكلام على هذا الوزن إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر ومبيقر ، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر ، وجاء مجيمر اسم واد ومديبر ويمكن أن يكون أصلهما مدبر ومجمر فصغرا ، وقرأ الجمهور (إلا) حرف استثناء ، فقيل : متصل ، أي فأنت مسيطر عليه . وقيل : متصل من (فذكر) أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض . وقيل : منقطع وهي آية موادعة نسخت بآية

---

(١) تقدم .

السيف . وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ وقتادة وزيد بن أسلم (ألا) حرف تنبيه واستفتاح ، والعذاب الأكبر : هو عذاب جهنم ، وقرأ الجمهور (إيابهم) بتخفيف الياء مصدر آب ، وأبو جعفر وشيبة بشدّها مصدراً لفعيل من آب على وزن فيعال ، أو مصدراً كفوعل كحوقل على وزن فيعال أيضاً كحيقال ، أو مصدر الفعول كجهور على وزن فعوال كجهوار فأصله أوواب فقلبت الواو الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها واجتمع في هذا البناء والبناءين قبله واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغم ولم يمنع الادغام من القلب لأن الواو والياء ليستا عينين من الفعل بل الياء في فيعل والواو في فعول زائدتان . وقال صاحب اللوامح ، وتبعه الزمخشري : يكون أصله إواباً مصدر أوّب نحو ، كذّب كذّاباً ثم قيل إيواباً فقبلت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها . قال الزمخشري : كديوان في دوان ثم فعل به ما فعل بسيد يعني أنه اجتمع ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الواو فأما كونه مصدر أوب فإنه لا يجوز لأنهم نصوا على أن الواو الأولى إذا كانت موضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة ومثلوا باخروّاط مصدر أخروّط ومثلوا أيضاً بمصدر أوب نحو أوّب إوّاباً ، فهذه وضعت على الإدغام فحصنها من الإبدال ولم تتأثر للكسرة . وأما تشبيه الزمخشري بديوان فليس بجيد ، لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة فلم يقولوا دوّان ، ولولا الجمع على دواوين لم يعلم أن أصل هذه الياء واو وأيضاً فنصوا على شذوذ ديوان فلا يقاس عليه غيره . وقال ابن عطية : ويصح أن يكون من أوب فيجيء إواباً سهلت الهمزة وكان اللام في الإدغام يردها إواباً لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس ، انتهى . فقوله : وكان اللازم في الإدغام يردها إواباً ليس بصحيح ، بل اللازم إذا اعتبر الإدغام أن يكون إياباً لأنه قد اجتمعت ياء وهي المبدلة من الهمزة بالتسهيل وواو وهي عين الكلمة وإحداهما ساكنة فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير إياباً ، ولما كان من مذهب الزمخشري أن تقديم المعمول يفيد الحصر قال معناه : أن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه تعالى ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير ومعنى الوجوب الوجوب في الحكمة ، والله أعلم .

سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

الحجر : العقل ، قال الفراء ، العرب تقول إنه لذوحجر إذا كان قاهراً لنفسه ، حافظاً لها ، كأنه من حجرت على الرجل . إرم : أمّة قديمة ، وقيل : اسم أبي عاد كلها وهو عاد بن عوص ، بن إرم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وقيل : مدينة وعلى أنه اسم قبيلة ، قال زهير :

وَآخَـرِينَ تَـرَى الْمَـاذِيَّ عُـدَّتَهُمْ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ أَوْ مَـا أَوْرَثَتْ إِرَمُ[1]

وقال الرقيات :

مَـجْـداً تَـلِيـداً بَـنَـاهُ أَوَّلُـهُ ... أَدْرَكَ عَـاداً وَقَـبْـلَهُ إِرَمُ[2]

---

(١) البيت من البسيط انظر شرح ديوانه ١٥٨ .

(٢) البيت من مجزوء البسيط لابن قيس الرقيات ، انظر الكشاف ٤/٥٩٦ .

جاب خرق وقطع تقول جبت البلاد أجوبها إذا قطعتها وجاوزتها ، قال :

وَلَا رَأَيْتَ قَلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ　　سِتِّينَ وَسْقاً وَلَا جَابَتْ بِهَا بَلَدا(١)

السوط : آلة للضرب معروفة ، قال بعض اللغويين : وهو مصدر من ساط يسوط إذا اختلط ، وقال الليث : ساطه إذا خلطه بالسوط . ومنه قول الشاعر :

أَحَارِثُ إِنَّا لَوْ تُسَاطُ دِمَاؤُنَا　　تَزَايَلْنَ حَتَّى لَا يَمَسَّ دَمٌ دَمَا(٢)

وقال أبو زيد : يقال أموالهم سويطة بينهم : أي مختلطة اللم الجمع واللف . قال أبو عبيدة : لممت ما على الخوان إذا أكلت جميع ما عليه بأسره ، وقال الحطيئة :

إذا كان لمّا يتبع الذمُّ ربَّهُ　　فَلَا قَدَّسَ الرَّحْمٰنُ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا(٣)

ومنه : لممت الشعث ، قال النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لَا تَلُمُّهُ　　عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ(٤)

الجم الكبير ﴿ **والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ، كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لماً ، وتحبون المال حباً جماً ، كلا إذا دكت الأرض دكاً ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى ، يقول يا ليتني قدّمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي** ﴾ هذه السورة مكية في قول الجمهور . وقال عليّ بن أبي طلحة : مدنية ولما ذكر فيها قبلها ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ [الغاشية ١] ﴿ ووجوه يومئذ ناعمة ﴾ [الغاشية ٨] أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر ٢٧] وأيضاً لما قال ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ [الغاشية ٢٣] وقال هنا ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر ١٤] تهديداً لمن كفر وتولى ، وقرأ أبو الدينار الأعرابي (والفجر) (والوتر) (ويسر) بالتنوين في الثلاثة ، قال ابن خالويه : هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين وإن كان فعلاً وإن كان فيه ألف ولام ، قال الشاعر :

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا　　وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

---

(١) البيت من البسيط لأبي وجزة ، وانظر الكامل ١٠٩/١ .

(٢) البيت من الطويل للمتلمس ، انظر اللسان (زيل) .

(٣) البيت من الوافر انظر الكشاف ٥٩٩/٤ .

(٤) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٨) اللسان (شعث) .

انتهى . وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي ، وقرأ الجمهور (وليالٍ عشر) بالتنوين ، وابن عباس بالإضافة ، فضبطه بعضهم (وليالِ عشرٍ) بلام دون ياء وبعضهم (وليالي عشر) بالياء ويريد وليالي أيام عشر ، ولما حذف الموصوف المعدود وهو مذكر جاء في عدده حذف التاء من عشر . والجمهور (والوَتْر) بفتح الواو وسكون التاء ، وهي لغة قريش والأغر عن ابن عباس وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلاف عنه والأخوان بكسر الواو ، وهي لغة تميم ، واللغتان في الفرد فأما في الرحل فالكسر لا غير . وحكى الأصمعي فيه اللغتين ويونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء . والجمهور (يسر) بحذف الياء وصلاً ووقفاً ، وابن كثير بإثباتها فيهما . ونافع وابن عمر بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف والظاهر ؛ وقول الجمهور منهم علي وابن عباس وابن الزبير : أن (الفجر) هو المشهور أقسم به كما أقسم بالصبح ويراد به الجن لا فجر يوم مخصوص . وقال ابن عباس ومجاهد : من يوم النحر . وعكرمة من يوم الجمعة . والضحاك : من ذي الحجة . ومقاتل : من ليلة جمع . وابن عباس وقتادة : من أول يوم من المحرم . وعن ابن عباس أيضاً : الفجر النهار كله . وعنه أيضاً وعن زيد بن أسلم (الفجر) هو صلاة الصبح ، وقرآنها هو قرآن الفجر ، وقيل : فجر العيون من الصخور وغيرها . وقال ابن الزبير والكلبي وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي وعطية العوفي : هي عشر ذي الحجة . وابن عباس والضحاك : العشر الأواخر من رمضان . وقال ابن جريج : الأول منه ، ويمان وجماعة : الأول من المحرم ، ومنه يوم عاشوراء ، ومسروق ومجاهد : وعشر موسى عليه السلام التي أتمها الله تعالى . قيل : والأظهر . قول ابن عباس للحديث المتفق على صحته . قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله »[١] . قال التبريزي : اتفقوا على أنه العشر الأواخر يعني من رمضان لم يخالف فيه أحد فتعظيمه مناسب لتعظيم القسم . وقال الزمخشري : وأراد بالليالي العشر ذي الحجة . (فإن قلت :) فما بالها منكرة من بين ما أقسم به ؟ (قلت :) لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليس لغيرها . (فإن قلت :) فهلاً عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة ؟ (قلت :) لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ، ليكون الكلام أبعد من الالغاز والتعمية انتهى . أما السؤالان فظاهران وأما الجواب عنهما فلفظ ملفق لا يعقل منه معنى فيقبل أن يرد (والشفع والوتر) ذكر في كتاب التحرير والتحبير : فيها ستة وثلاثين قولاً ضجرنا من قراءتها فضلاً عن كتابتها في كتابنا هذا . وعن عمران بن حصين عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر[٢] . وروى : « أبو أيوب عنه ـ ﷺ ـ الشفع : يوم عرفة ويوم الأضحى والوتر ليلة النحر »[٣] وروى « جابر عنه ـ ﷺ ـ الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة » . وفي هذا الحديث تفسيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ الفجر بالصبح ، والليالي العشر بعشر النحر ، وهو قول ابن عباس وعكرمة واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي ـ ﷺ ـ وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين صوم عرفة وتر لأنه تاسعها ويوم النحر شفع لأنه عاشرها[٤] . وذكر ابن عطية في (الشفع والوتر) أربعة عشر قولاً ، والزمخشري ثلاثة أقوال ، ثم قال : وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان

---

(١) البخاري ٢٦٩/٤ في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم ٨٣٢/٢ في الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤/٧) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٨/٤ ، وانظر تفسير القرطبي ٣٩/٢٠ .

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ١٤٠/٧ في باب سورة الفجر ، وعزاه للطبراني من حديث طويل ، وفيه واصل بن السائب وهو متروك .

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ١٤٠/٧ ، وعزاه للبزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح ، غير عياش بن عقبة وهو ثقة .

فيه وذلك قليل الطائل ، جدير بالتلهي عنه ، انتهى . (والليل إذا يسري) قسم بجنس الليل و (يسري) يذهب وينقرض ، كقوله ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ [المدثر ٣٣] ، وقال الأخفش : وابن قتيبة (يسري) فيه فيكون من باب ليلك نائم ، وقال مجاهد وعكرمة والكلبي : المراد ليلة جمع ، لأنه يسري فيها . وجواب القسم محذوف . قال الزمخشري : وهو لنعذبن يدل عليه قوله (ألم تر) إلى قوله ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ [الفجر ١٣] ، وقال ابن الأنباري : الجواب ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر ١٤] والذي يظهر : أن الجواب محذوف يدل عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية وهو قوله ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ [الغاشية ٢٥ ، ٢٦] وتقديره لإيابهم إلينا وحسابهم علينا ، وقول مقاتل (هل) هنا في موضع تقديره إن في ذلك قسماً لذي حجر ، فهل على هذا في موضع جواب القسم قول لم يصدر عن تأمل ، لأن المقسم عليه على تقدير أن يكون التركيب إن في ذلك قسماً لذي حجر : لم يذكر فيبقى قسم بلا مقسم عليه ، لأن الذي قدره من إن في ذلك قسماً لذي حجر لا يصح أن يكون مقسماً عليه ، وهل في ذلك تقرير على عظم هذه الأقسام أي هل فيه مقنع في القسم لذي عقل فيزدجر ويفكر في آيات الله . ثم وقف المخاطب على مصارع الأمم الكافرة الماضية مقصوداً بذلك توعد قريش ، ونصب المثل لها . و (عاد) هو عاد بن عوص وأطلق ذلك على عقبه ثم قيل للأولين منهم عاداً الأولى و (إرم) نسبة لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الأخيرة . وقال مجاهد وقتادة : هي قبيلة بعينها . وقال ابن إسحاق : ارم هو أبو عاد كلها . وقال الجمهور : إرم : مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن . وقال محمد بن كعب : هي الإسكندرية . وقال ابن المسيب والمقبري : هي دمشق . وقال مجاهد أيضاً : معناه القديمة ، وقرأ الجمهور (بعادٍ) مصروفاً (إرَم) بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية ، لأنه اسم للقبيلة و (عاد) وإن كان اسم القبيلة فقد يلحظ فيه معنى الحي فيصرف أو لا يلحظ فجاء على لغة من صرف هنداً و (إرم) عطف بيان أو بدل ، وقرأ الحسن : (بعادٍ) غير ممنوع الصرف مضافاً إلى (إرم) فجاز أن يكون (إرم) جداً ومدينة والضحاك إرم بفتح الراء وما بعدها ممنوعي الصرف ، وقرأ ابن الزبير (بعاد) بالإضافة (أرم) بفتح الهمزة وكسر الراء وهي لغة في المدينة . والضحاك (بعاد) مصروفاً و (بعاد) غير مصروف أيضاً (أرْم) بفتح الهمزة وسكون الراء تخفيف أرم بكسر الراء . وعن ابن عباس والضحاك (أرم) فعلاً ماضياً أي بلي ، يقال : رم العظم وأرم هو أي بلي وأرمه غيره معدى بالهمزة من رم الثلاثي . و (ذاتِ) على هذه القراءة مكسورة التاء . وابن عباس أيضاً فعلاً ماضياً (ذاتَ) بنصب التاء على المفعول به . و (ذاتِ) بالكسر صفة لـ(إرم) وسواء كانت اسم قبيلة أو مدينة وإن كان يترجح كونها مدينة بقوله (لم يخلق مثلها في البلاد) فإذا كانت قبيلة صح إضافة عاد إليها وفكها منها بدلاً أو عطف بيان ، وإن كانت مدينة فالإضافة إليها ظاهرة والفك فيها يكون على حذف مضاف ، أي بعاد أهل إرم ذات العماد . وقرىء (إرم ذات) بإضافة (ارم) إلى (ذات) والإرم : العلم يعني بعاد أعلام ذات العماد . ومن قرأ (أرم) فعلاً ماضياً (ذات) بالنصب ، أي جعل الله ذات العماد رميماً ، ويكون (إرم) بدلاً من فعلِ ربك وتبييناً لفعل . وإذا كانت (ذات العماد) صفة للقبيلة ، فقال ابن عباس : هي كناية عن طول أبدانهم . ومنه قيل ؛ رفيع العماد ، شبهت قدودهم بالأعمدة ، ومنه قولهم : رجل عمد وعمدان أي طويل . وقال عكرمة ومقاتل : أعمدة بيوتهم التي كانوا يرحلون بها ، لأنهم كانوا أهل عمود . وقال ابن زيد : أعمدة بنيانهم . وإذا كانت صفة للمدينة فأعمدة الحجارة التي بنيت بها . وقيل : القصور العالية والأبراج يقال لها عماد ، وحكي عن مجاهد : ارم مصدر أرم يأرم إذا هلك والمعنى : كهلاك ذات العماد وهذا قول غريب . كأن معنى (كيف فعل ربك بعاد) كيف أهلك عاداً كهلاك ذات العماد . وذكر المفسرون أن (ذات العماد) مدينة ابتناها شداد بن عاد لما سمع بذكر الجنة على أوصاف بعيد أو مستحيل عادة أن يبنى في الأرض مثلها وأن الله تعالى بعث عليها وعلى أهله صيحة قبل أن يدخلها هلكوا جميعاً ويوقف على صفتهم في كتاب التحرير وشيء منها في الكشاف . وقرأ الجمهور (لم يُخْلَقْ) مبنياً للمفعول (مثْلُهَا) رفع ، وابن الزبير مبنياً

للفاعل (مثلها) نصباً ، وعنه (نخلق) بالنون والضمير في (مثلها) عائد على المدينة التي هي ذات العماد (في البلاد) أي في بلاد الدنيا أو عائد على القبيلة أي في عظم أجسام وقوة . وقرأ ابن وثاب وثمود بالتنوين . والجمهور بمنع الصرف (جابوا الصخر) خرقوه ونحتوه فاتخذوا في الحجارة منها بيوتاً ، كما قال تعالى ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ [الشعراء ١٤٩] قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة (بالوادي) وادي القرى ، وقيل : جابوا واديهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوه فعل ذي القوة والآمال . (ذي الأوتاد) تقدم الكلام على ذلك في سورة ص . (الذين) صفة لعاد وثمود وفرعون أو منصوب على الذم أو مرفوع على إضمارهم (فصب عليهم ربك سوط عذاب) أبهم هنا وأوضح في الحاقة وفي غيرها ، ويقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه واستعمل الصب لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب ، قال :

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مُحْصِرَاتٍ كَأَنَّهَا ... شَآبِيبُ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطْرِ

يريد المحدودين في قصة الإفك . وقال بعض المتأخرين في صفة الخيل :

صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ شَيَاطِناً ... فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ

وخص السوط فاستعير للعذاب ، لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره وقال الزمخشري : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا في من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائل ما يعذب به و (المرصاد) المكان الذي يترتب فيه الرصد مفعال من رصده وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون (المرصاد) في الآية اسم فاعل كأنه قال لبالراصد فعبر ببناء المبالغة . انتهى ولو كان كما زعم لم تدخل الباء ، لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة . (فأما الإنسان) ذكر تعالى ما كانت قريش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالى وإهانته لعبده فيرون المكرم من عنده الثروة والأولاد والمهان ضده ، ولما كان هذا غالباً عليهم وبخوا بذلك ، والإنسان اسم جنس ويوجد هذا في كثير من أهل الإسلام . وقال الزمخشري (فإن قلت :) بم اتصل قوله (فأما الإنسان) (قلت:) بقوله (إن ربك لبالمرصاد) كأنه قال إن الله تعالى لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة وهو مرصد للعاصي (فأما الإنسان) فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة ما يلذه وينعمه فيها . انتهى . وفيه التصريح بمذهب الاعتزال في قوله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة و (إذا) العامل فيه فيقول ، والنية فيه التأخير ، أي فيقول كذا وقت الابتداء . وهذه الفاء لا تمنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها وإن كانت فاء دخلت في خبر المبتدأ لأجل (أما) التي فيها معنى الشرط وبعد (أما) الثانية مضمر به وقع التوازن بين الجملتين تقديره : فأما إذا هو ما ابتلاه و (فيقول) خبر عن ذلك المبتدأ المضمر و (ابتلاه) معناه اختبره أيشكر أم يكفر إذا بسط له وأيصبر أم يجزع إذا ضيق عليه لقوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير وفتنة) وقابل (ونعمه) بقوله (فقد عليه رزقه) ولم يقابل (فأكرمه) بلفظ (فأهانه) لأنه ليس من يضيق عليه الرزق كان ذلك إهانة له . ألا ترى إلى ناس كثير من أهل الصلاح مضيقاً عليهم الرزق كحال الإمام أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني ـ رضي الله تعالى عنه ـ وغيره وذم الله تعالى العبد في حالتيه هاتين أما في قوله (فيقول ربي أكرمن) فلأنه إخبار منه على أنه يستحق الكرامة ويستوجبها . وأما قوله (أهانن) فلأنه سمى ترك التفضيل من الله تعالى إهانة وليس بإهانة أو يكون إذا تفضل عليه أقر بإحسان الله إليه وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك تفضل الله إهانة لا إلى الاعتراف بقوله (أكرمن) ، وقرأ ابن كثير (أكرمني وأهانني) بالياء فيهما ، ونافع بالياء وصلاً وحذفها وقفاً ، وخير في الوجهين أبو عمرو ، وحذفها باقي السبعة فيهما وصلاً ووقفاً ، ومن حذفها وقفاً سكن النون فيه . وقرأ الجمهور فقدَر بخف الدال . وأبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلاف عنه وابن عامر بشدها . قال الجمهور : هما بمعنى واحد بمعنى ضيق والتضعيف

فيه للمبالغة لا للتعدي ولا يقتضي ذلك قول الإنسان أهانن لأن إعطاء ما يكفيه لا إهانة فيه . (كلا) على قولهم ومعتقدهم أي ليس إكرام الله وتقدير الرزق سببه ما ذكرتم بل إكرامه العبد تيسيره لتقواه وإهانته تيسيره للمعصية . ثم أخبرهم بما هو عليه من أعمالهم السيئة ، وقال الزمخشري : (كلا) ردع للإنسان عن قولهم ، ثم قال : بل هنا شر من هذا القول وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدون فيه ما يلزمهم من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرة وحض أهله على طعام المسكين ، ويأكلونه أكل الانعام ، ويحبونه فيشحون به ، انتهى . وفي الحديث : « أحب البيوت إلى الله تعالى بيت فيه يتيم مكرم » . وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمرو (يكرمون) (ولا يحضون) (ويأكلون) ويحبون بياء الغيبة فيها . وباقي السبعة بتاء الخطاب . وأبو جعفر وشيبة والكوفيون وابن مقسم (تحاضون) بفتح التاء والألف ، أصله تتحاضون ، وهي قراءة الأعمش ، أي يحض بعضكم بعضاً وعبد الله أو علقمة وزيد بن عليّ وعبد الله بن المبارك والشيرزي عن الكسائي كذلك إلا أنهم ضموا التاء ، أي تحاضون أنفسكم أي بعضكم بعضاً . وتفاعيل وفاعل يأتي بمعنى فعل أيضاً . (على طعام) يجوز أن يكون بمعنى إطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء ، والأولى أن يكون على حذف مضاف ، أي على بذل طعام ، (وتأكلون التراث) كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد فيأكلون نصيبهم ، ويقولون لا يأخذ الميراث إلا من يقاتل ويحمي الحوزة . والتراث تاؤه بدل من واو كالتكلة والتخمة من توكلت ووخمت . وقيل : كانوا يأكلون ما جمعه الميت من المظلمة ، وهم عالمون بذلك يجمعون بين الحلال والحرام ، ويسفون في إنفاق ما ورثوه ، لأنهم ما تعبوا في تحصيله كما شاهدنا الوراث البطالين . (كلا) ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم ، ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه في دار الدنيا . (دكاً دكاً) حال كقولهم باباً باباً ، أي : مكرراً عليهم الدّك . (وجاء ربك) قال القاضي منذر بن سعيد معناه : ظهوره للخلق هنالك وليس بمجيء نقلة وكذلك مجيء الطامّة والصاخة ، وقيل : وجاء قدرته وسلطانه . وقال الزمخشري : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبيين آثار قدرته وسلطانه ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ، ووزرائه وخواصه . انتهى . (والملك) اسم جنس يشمل الملائكة . وروى : « أنه ملائكة كل سماء تكون صفاً حول الأرض في يوم القيامة . قال الزمخشري : (صفاً صفاً) تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس انتهى . (وجيء بجهنم) كقوله تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات ٣٦] ، يومئذ بدل من (إذا) ، قال الزمخشري : وعامل النصب فيهما (يتذكر) انتهى . ظاهر كلامه أن العامل في البدل هو العامل نفسه في المبدل منه ، وهو قول قد نسب إلى سيبويه ، والمشهور خلافه[(١)] . وهو أن البدل على نية تكرار العامل ، أي يتذكر ما فرط فيه . (وأنى له الذكرى) أي منفعة الذكرى ، لأنه وقت لا ينفع فيه التذكر لو اتعظ في الدنيا لنفعه ذلك في الأخرى ، قاله الجمهور . قال الزمخشري : وغيره : أو وقت حياتي في الدنيا ، كما تقول : جئت لطلوع الشمس ولتاريخ كذا وكذا . وقال قوم (لحياتي) في قبري، يعني الذي كنت أكذب به . قال الزمخشري : وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ، ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم ، وأنهم لم يكونوا محجورين عن الطاعات ، مجبرين على المعاصي كمذهب أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقرأ الجمهور (لا يُعذِّب) (ولا يُوثِق) مبنيين للفاعل والضمير في (عذابه) و (وثاقه) عائد على الله تعالى أي لا يكل عذابه ، ولا وثاقه إلى أحد لأن الأمر لله وحده وفي ذلك أو هو من الشدّة في حيز لم يعذب قط أحد في

---

(١) مذهب سيبويه والمبرد والسيرافي وابن الحاجب : أن العامل في البدل هو العامل في المبدل منه ، إذ المتبوع في حكم الطرح ، فكأن عامل الأول باشر الثاني ، يقول سيبويه . هذا باب من الفعل يستعمل في الاسم ، ثم ينزل مكان الاسم اسماً آخر فيعمل فيه كما عمل في الأول ومعنى كون المبدل منه : في نية الطرح : أن البدل قائم بنفسه غير مبين للمبدل منه ، تبين النعت للمنعوت وليس المراد الإلغاء والطرح لفظاً ، وإلا كان زيد رأيت أباه عمراً في تقدير : زيد رأيت عمراً وهو فاسد انظر شرح الكافية ١ / ٣٠٠ والكتاب ١ / ٧٥ وانظر الهامش .

الدنيا مثله ، والأول أوضح لقوله (لا يعذب ولا يوثق) ولايطلق على الماضي إلا بمجاز بعيد ، بل موضوع (لا) إذا دخلت على المضارع أن يكون مستقبلاً ، ويجوز أن يكون الضمير قبلها عائداً على الكافر ، أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه . وقيل : إلى الله أي لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله للكافر ، ويضعف هذا عمل لا يعذب في (يومئذ) وهو ظرف مستقبل . وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وسوّار القاضي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو حرية ولاسم والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو بفتح الذال والثاء مبنيين للمفعول ، فيجوز أن يكون الضمير فيهما مضافاً للمفعول ، وهو الأظهر أي لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، أو لا يحمل أحد عذاب الإنسان لقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء ١٥] و (عذاب) وضع موضع تعذيب ، وفي اقتباس مثل هذا خلاف وهو أن يعمل ما وضع لغير المصدر كالعطاء والثواب والعذاب والكلام ، فالبصريون لا يجيزونه ويقيسونه .

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنهم وثاقه بكسر الواو والجمهور بفتحها والمعذب : هو الكافر على العموم ، وقيل : هو أمية بن خلف ، وقيل : أبيّ بن خلف ، وقيل : المراد به إبليس ، وقام الدليل على أنه أشد من الناس عذاباً ويدفع القول هذا قوله (يومئذ يتذكر الإنسان) والضمائر كلها مسوقة له ، ولما ذكر تعالى : شيئاً من أحوال من يعذب ذكر شيئاً من أحوال المؤمن فقال (يا أيتها النفس) وهذا النداء الظاهر أنه على لسان ملك . وقرأ الجمهور بتاء التأنيث . وقرأزيد بن علي (يا أيها) بغير تاء ، ولا أعلم أحداً ذكر أنها تذكر وإن كان المنادى مؤنثاً إلا صاحب البديع . وهذه القراءة شاهدة بذلك ، ولذلك وجه من القياس وذلك أنه لم يثن ولم يجمع في نداء المثنى والمجموع فكذلك لم يؤنث في نداء المؤنث . (المطمئنة) الآمنة التي لا يلحقها خوف ولا حزن أو التي كانت مطمئنة إلى الحق لم يخالطها شك . قال ابن زيد : يقال لها ذلك عند الموت وخروجها من جسد المؤمن في الدنيا ، وقيل : عند البعث ، وقيل : عند دخول الجنة . (إلى ربك) أي إلى موعد ربك . وقيل الرب هنا : الإنسان دون النفس ، أي ادخل في الأجساد ، والنفس اسم جنس . وقيل : هذا النداء هو الآن للمؤمنين . لما ذكر حال الكفار قال يا مؤمنون دوموا وجدوا حتى ترجعوا راضين مرضيين (راضية) بما أوتيته (مرضية) عند الله ، فادخلي في عبادي أي في جملة عبادي الصالحين (وادخلي جنتي) معهم ، وقيل النفس والروح ، والمعنى : فادخلي في أجساد عبادي . وقرأ الجمهور (في عبادي) جمعاً . وابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبوجعفر وأبو صالح والكلبي وأبو شيخ الهنائي واليماني ، (في عبدي) على الإفراد ، والأظهر أنه أريد به اسم الجنس فمدلوله ومدلول الجمع واحد . وقيل : هو على حذف خاطب النفس مفردة ، فقال : (فادخلي في عبدي) أي في جسد عبدي وتعدي فادخلي أولاً بـ (في) وثانياً بغير فاء ، وذلك أن ءذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي تعددت إليه بـ (في) دخلت في الأمر ودخلت في غمرا الناس . ومنه (فادخلي في عبادي) وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً تعدت إليه في الغالب بغير وساطة فيه . قيل : في عثمان بن عفان ، وقيل : في حمزة ، وقيل : في خبيب بن عدي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

سورة البلد مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

الكبد : الشدة والمشقة ، وأصله من كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا وجعه كبده وانتفخت فاستعمل في كل تعب ومشقة ومنه المكابدة . وقال لبيد :

يَـا عَـيْـنُ هَـلاَّ بَـكَـيْـتِ أَرْبَـدَ إِذْ قُمْنَـا وَقَـامَ الْخُصُـومُ فِي كَبَـدِ[1]

وقال ذو الأصبع :

وَلَى ابْنُ عَمٍّ لَـو انَّ النَّاسَ فِي كَبَـدِ لَـظَلَّ مُحْتَجِـراً بِـالنَّبْـلِ يَـرْمِينِي[2]

الشفة : معروفة وأصلها شفهة ، حذفت منه الهاء ، ويدل عليه شُفَيْهة وشفاه وشافَهت ، وهي مما لا يجوز جمعه بالألف والتاء ، وإن كان تاء التأنيث . النجد : العنق ، وجمعه نجود ، وبه سميت نجد ، لارتفاعها عن انخفاض تهامة . والنجد : الطريق العالي ، قال امرؤ القيس :

فَـرِيقَـانِ مِنْهُمْ جَـازِعٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ وَآخَـرُ مِـنْهُـمْ قَـاطِـعٌ كَـبْـكَـبِـيـر

الفك : تخليص الشيء من الشيء ، قال الشاعر :

---

(١) البيت من مجزوء البسيط انظر اللسان (كبد) الكشاف ٤/٦٠٢ .

(٢) البيت من البسيط انظر ديوان المفضليات (٣٢٦) .

فَيَـا رُبَّ مَكْـرُوبٍ كَـرَرْتُ وَرَاءَهُ وَعَـانٍ فَكَكْتُ الْغُـلَّ عَنْـهُ فقـدني

السغب : الجوع العام ، وقد يقال سغب الرجل إذا جاع . ترب الرجل : إذا افتقر ولصق بالتراب ، وأتْرَب : إذا استغنى وصار ذا مال كالتراب ، وكذلك أثرى . أوصـدت الباب وآصدته : إذا أغلقته وأطبقته . قال الشاعر :

تَحِنُّ إِلَى أَجْبَـالِ مَكَّـةَ نَـاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤْصَدَه[1]

﴿ لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان في كبد ، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، يقول أهلكت مالاً لبدا ، أيحسب أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو طعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا أصحاب المشأمة ، عليهم نار مؤصدة ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقيل : مدنية ولما ذكر تعالى ابتلاءه للإنسان بحالة التنعيم ، وحالة التقدير ، وذكر من صفاته الذميمة ما ذكر وما آل إليه حاله وحال المؤمن ، أتبعه بنوع من ابتلائه ومن حاله السيء وما آل إليه في الآخرة . والإشارة لهذا البلد إلى مكة (وأنت حل) جملة حالية تفيد تعظيم المقسم به ، أي فـأنت مقيم به وهـذا هو الظاهر . وقال ابن عباس وجماعة معناه : وأنت حلال بهذا البلد يحل لك فيه قتل من شئت وكان هذا يوم فتح مكة . وقال ابن عطية : وهذا يتركب على قول من قال لا نافية أي أن هذا البلد لا يقسم الله به وقد جاء أهله بأعمال توجب الإحلال إحلال حرمته . وقال شـرحبيل بن سعد يعني (وأنت حل بهذا البلد) جعلوك حلالاً مستحل الأذى والقتل والإخراج ، وهذا القول بدأ به الزمخشري . وقال : وفيه بعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجب من حالهم في عداوته ، أو سلي رسول الله ـ ﷺ ـ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال (وأنت حل) به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، ثم قال الزمخشري بعد كلام طويل (فإن قلت :) أين نظير قوله (وأنت حل) في معنى الاستقبال ؟ (قلت :) قوله عزَّ وجلَّ ﴿إنـك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر ٣٠] واسع في كلام العباد تقول لمن تعده الإكرام والحباوأنت مكرم محبووهـوفي كلام الله أوسع ، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ، وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح . انتهى . وحمله على أن الجملة اعتراضية لا يتعين وقد ذكرنا أولاً أنها جملة حالية وبينا حسن موقعها ، وهي حال مقارنة لا مقدرة ولا محكية فليست من الإخبار بالمستقبل . وأما سؤاله والجواب فهذا لا يسأله من له أدنى تعلق بالنحو لأن الأخبار قد تكون بالمستقبلات ، وأن اسم الفاعل وما يجري مجراه حالة إسناده أو الوصف به لا يتعين حمله على الحال بل يكون للماضي تارة ، وللحال أخرى ، وللمستقبل أخرى ، وهذا من مبادىء علم النحو . وأما قوله : وكفاك دليلاً قاطعاً إلخ فليس بشيء ، لأنا لم نحمل (وأنت حل) على أنه يحل لك ما تصنع في مكة من الأسر والقتل في وقت نزولها بمكة فتنافيا بل حملناه على أنه مقيم بها خاصة وهو وقت النزول كان مقيماً بها ضرورة وأيضاً فما حكاه من الاتفاق على أنها نزلت بمكة فليس بصحيح . وقد حكى الخلاف فيها عن قول ابن عطية . ولا يدل قوله (وأنت حل بهذا البلد) على ما ذكروه من أن المعنى يستحل إذ ذاك ، ولا على أنك تستحل فيه أشياء ، بل الظاهر ما ذكرنا أولاً من

---

(١) البيت من الطويل انظر شواهد الكشاف (٦٩) ، فتح القدير ٥/٤٤٥ .

أنه تعالى أقسم بها لما جمعت من الشرفين شرفها بإضافتها إلى الله تعالى ، وشرفها بحضور رسول الله ـ ﷺ ـ وإقامته فيها ، فصارت أهلاً لأن يقسم بها ، والظاهر : أن قوله (ووالد وما ولد) لا يراد به معين ، بل ينطلق على كل والد . وقال ابن عباس ، ذلك ، قال : هو على العموم يدخل فيه جميع الحيوان . وقال مجاهد : آدم وجميع ولده . وقيل : والصالحين من ذريته ، وقيل : نوح وذريته ، وقال أبو عمران الحوفي : إبراهيم عليه السلام وجميع ولده ، وقيل : ووالد رسول الله ـ ﷺ ـ وما ولد إبراهيم عليه السلام . وقال الطبري والماوردي : يحتمل أن يكون الوالد النبي ـ ﷺ ـ لتقدم ذكره وما ولد أمته لقوله ـ ﷺ ـ إنما أنا لكم بمنزلة الوالد(١) ولقراءة عبد الله وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فأقسم تعالى به وبأمته بعد أن أقسم ببلده مبالغة في شرفه عليه الصلاة والسلام . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما المراد بوالد وما ولد ؟ (قلت :) رسول الله ـ ﷺ ـ ومن ولده أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وبمن ولده وبه . (فإن قلت :) لم نكر ؟ (قلت :) للإبهام المستقبل بالمدح والتعجب . (فإن قلت :) هلا قيل ومن ولد ؟ (قلت :) فيه ما في قوله ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ [آل عمران ٣٦] أي بأي شيء وضعت يعني موضوعاً عجيب الشأن انتهى . وقال الفراء : وصلح ما للناس كقوله ﴿ ما طاب لكم ﴾ [النساء ٣] ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ [الليل ٣] وهو الخالق للذكر والأنثى انتهى . وقال ابن عباس وعكرمة وابن جبير : المراد بالوالد الذي يولد له (وبما ولد) العاقر الذي لا يولد له . جعلوا (ما) نافية فتحتاج إلى تقدير موصول يصح به هذا المعنى كأنه قال : ووالد والذي ما ولد وإضمار الموصول لا يجوز عند البصريين . (لقد خلقنا الإنسان في كبد) هذه الجملة المقسم عليها . والجمهور على أن (الإنسان) اسم جنس و (في كبد) يكابد مشاق الدنيا والآخرة ، ومشاقه لا تكاد تنحصر من أول قطع سرته إلى أن يستقر قراره إما في جنة فتزول عنه المشقات ، وإما في نار فتتضاعف مشقاته وشدائده . وقال ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبو صالح والضحاك ومجاهد (في كبد) معناه منتصب القامة ، واقفاً ، ولم يخلق منكباً على وجهه وهذا امتنان عليه . وقال ابن كيسان : منتصباً رأسه في بطن أمه فإذا أذن له بالخروج قلب رأسه إلى قدمي أمه . وعن ابن عمر يكابد الشكر على السرّاء ويكابد الصبر على الضراء . وقال ابن زيد : (الإنسان) آدم في كبد في السماء سماها كبداً ، وهذه الأقوال ضعيفة . والأول هو الظاهر . والظاهر : أن الضمير في (أيحسب) عائد على (الإنسان) أي هو لشدة شكيمته وعزته وقوته يحسب أن لا يقاومه أحد ، ولا يقدر عليه أحد لاستعصامه بعدده وعدده . يقول على سبيل الفخر (أهلكت ما لا لبداً) أي في المكارم وما يحصل به الثناء (أيحسب) أن أعماله تخفى وأنه لا يراه أحد ، ولا يطلع عليه في إنفاقه ، ومقصد ما يبتغيه مما ليس لوجه الله منه شيء بل عليه حفظة يكتبون ما يصدر منه من عمل في حياته ويحصونه إلى يوم الجزاء ، وقيل : الضمير في (أيحسب) لبعض صناديد قريش . وقيل : هو أبو الأسد أسيد بن كلدة كان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول من أزالني عنه فله كذا ؟ فلا ينزع إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه ، وقيل : الوليد بن المغيرة ، وقيل : الحرث بن عامر بن نوفل ، وكان إذا أذنب استفتى النبي ـ ﷺ ـ فيأمره بالكفارة فقال (لقد أهلكت مالاً لبداً) في الكفارات والتبعات منذ تبعت محمداً ـ ﷺ ـ وقرأ الجمهور (لُبَدا) بضم اللام وفتح الباء وأبو جعفر بشد الباء ، وعنه وعن زيد بن علي (لبداً) بسكون الباء ومجاهد وابن أبي الزناد بضمهما . ثم عدّد تعالى على الإنسان نعمه فقال (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما (ولساناً) يفصح عما في باطنه (وشفتين) يطبقهما على فيه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك . (وهديناه النجدين) قال ابن مسعود وابن عباس والجمهور : طريق الخير والشر ، وقال ابن عباس أيضاً وعليّ وابن المسيب

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم ١/٢٢ في الطهارة ، والدارمي في السنن ١/١٧٢ ـ ١٧٣ في الوضوء باب الاستنجاء بالأحجار ، وأبو داود ١/١٨ في الطهارة باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨) والنسائي ١/٣٨ ، في الطهارة باب النهي عن الاستطابة بالروث ، وابن ماجة ١/١١٤ في الطهارة (٣١٣) .

والضحاك : الثديين لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه . (فلا اقتحم العقبة) أي لم يشكر تلك النعم السابقة و(العقبة) استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بدل مال تشبيه بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وكان صعوداً فإنه يلحقه مشقة في سلوكها واقتحمها : دخلها بسرعة وضغط وشدّة والقحمة الشدّة والسنة الشديدة ، ويقال : قحم في الأمر قحوماً رمى نفسه فيه من غير روية ، والظاهر أن (لا) للنفي وهو قول أبي عبيدة والفرّاء والزجاج كأنه قال : وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً ، أي فلم يقتحم . قال الفرّاء والزجاج كأنه قال : وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً ، أي فلم يقتحم . قال الفرّاء والزجاج : ذكر لا مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيد كقوله تعالى ﴿ فلا صدّق ولا صلى ﴾ [القيامة ٣١] وإنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله (ثم كان من الذين آمنوا) قائماً مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ولا آمن . وقيل : هو جار مجرى الدعاء كقوله : لا نجا ولا سلم دعاء عليه أن لا يفعل خيراً . وقيل : هو تحضيض بـ (ألا) ولا نعرف أن (لا) وحدها تكون للتحضيض وليس معها الهمزة . وقيل : العقبة : جهنم لا ينجي منها إلا هذه الأعمال . قاله الحسن . وقال ابن عباس ومجاهد وكعب : جبل في جهنم . وقال الزمخشري بعد أن تنحل مقالة الفرّاء والزجاج : هي بمعنى لا متكررة في المعنى لأن معنى (فلا اقتحم العقبة) فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . انتهى . ولا يتم له هذا إلا على قراءة من قرأ (فَكَّ) فعلاً ماضياً . وقرأ ابن كثير والنحويان (فكَّ) فعلاً ماضياً (رقبةً) نصب أو (أطعم) فعلاً ماضياً . وباقي السبعة (فكُّ) مرفوعاً (رقبةٍ) مجروراً . وإطعام مصدر منون معطوف على (فك) وقرأ عليّ وأبو رجاء كقراءة ابن كثير إلا أنهما قرآ (ذا مسغبة) بالألف . وقرأ الحسن وأبو رجاء أيضاً ، (و إطعام في يوم ذا) بالألف : ونصب (ذا) على المفعول أي إنساناً ذا مسغبة ، و (يتيماً) بدل منه أو صفة ، وقرأ بعض التابعين (فك رقبة) بالإضافة (أو أطعم) فعلاً ماضياً . ومن قرأ (فك) بالرفع فهو تفسير لاقتحام العقبة ، والتقدير : وما أدراك ما اقتحام العقبة . ومن قرأ فعلاً ماضياً فلا يحتاج إلى تقدير مضاف ، بل يكون التعظيم للعقبة نفسها ، ويجيء (فك) بدلاً من (اقتحم) قاله ابن عطية ، وفك الرقبة : تخليصها من الأسر والرق . (ذا مقربة) ليجتمع صدقة وصلة . و(أو) هنا للتنويع ووصف (يوم) بـذي مسغبة ، على الاتساع (ذا متربة) قال : هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم . وقال ابن عباس : هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب ، (ثم كان من الذين آمنوا) هذا معطوف على قوله (فلا اقتحم) ودخلت (ثم) لتراخي الإيمان والفضيلة لا للتراخي في الزمان ، لأنه لا بد أن يسبق تلك الأعمال الحسنة الإيمان إذ هو شرط في صحة وقوعها من الطائع ، أو يكون المعنى : ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمـان إذ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات ، أو يكون التراخي في الذكر كأنه قيل : ثم اذكر أنه كان من الذين آمنوا (وتواصوا بالصبر) أي : أوصى بعضهم بعضاً بالصبـر على الإيمـان والطاعـات وعن المعاصي (وتـواصوا بالمرحمة ، أي بالتعاطف والتراحم ، أو بما يؤدي إلى رحمة الله و (الميمنة) و (المشأمة) تقدّم القول فيهما في الواقعة . وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص (مُؤْصدة) بالهمز هنا وفي الهمزة فيظهر أنه من آصدت ، قيل : ويجوز أن يكون من أوصْدت ، وهمز على حد من قرأ (بالسؤق) مهموزاً ، وقرأ باقي السبعة بغير همز فيظهر أنه من أوصدت . وقيل : يجوز أن يكون من آصدت وسهل الهمزة وقال الشاعر :

قَـومـاً تُعَـالِـجُ قُمَّـلاً أَبْنَـاءَهُمْ وسَلاَسِلاً حَلَقـاً وَبَابـاً مُؤْصَدَا[1]

---

(١) البيت من الطويل ولم نهتد لقائله انظر اللسان (وسق) .



سورة الشمس

ترتيبها ٩١ — آياتها ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

طحا ودحا بمعنى واحد أي : بسط ووطأ ، ويأتي طحاً بمعنى ذهب . قال علقمة :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ[1]

ويقال : ما أدري أين طحا ، أي ذهب . قاله أبو عمرو . وفي أيمان العرب « ولا القمر الطاحي » . أي المشرق المرتفع . ويقال : طحا يطحو طحواً ، ويطحى طحواً ، التدسية : الإخفاء ، وأصله دسس ، فأبدل من ثالث المضاعفات حرف علة ، كما قالوا في : القصص نقص قال الشاعر :

وَأَنْتَ الَّذِي دَسَّيْتَ عَمْراً فَأَصْبَحَتْ ... حَلائِلُهُ مِنْهُ أَرَامِلَ ضُيَّعَا[2]

وينشد أيضاً :

وَدَسَسْتَ عَمْراً فِي التُّرَابِ

دمدم عليه القبر : أطبقه ، وقال مؤرج :الدمدمة : إهلاك باستئصال ، وقال في الصحاح : دمدمت الشيء : ألزقته بالأرض وطحطحته .

﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذاجلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض

---

(١) صدر بيت من الطويل وعجزه :

يعيد الشباب عصر حان مشيب

. . . .

انظر فتح القدير ٥/٤٤٩ . اللسان (طى) .

(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (دسا) .

وما طحاها ، ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، كذّبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يخاف عقباها ﴾ هذه السورة مكية . ولما تقدّم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها أقسم هنا بشيء من العالم العلوي ، والعالم السفلي ، وبما هو آلة التفكر في ذلك وهو النفس ، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة ، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا ، وفي ذلك بما آلهم في الآخرة إلى النار ، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل . وتقدّم الكلام على ضحى في سورة طه عند قوله ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾[طه ٥٩] ، وقال مجاهد : هو ارتفاع الضوء وكماله . وقال مقاتل : حرها لقوله ﴿ ولا تضحى ﴾[طه ١١٩] ، وقال قتادة : هو النهار كله ، وهذا ليس بجيد ، لأنه قد أقسم بالنهار . والمعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد ، وفتح الضاد إلى الزوال ، وقول مقاتل ، تفسير باللازم . وما نقل عن المبرد من أن الضحى : مشتق من الضحى ، وهو نور الشمس والألف مقلوبة من الحاء الثانية ، وكذلك الواو في ضحوه مقلوبة عن الحاء الثانية ، لعله مختلف عليه ، لأن المبرد أجلّ من أن يذهب إلى هذا ، وهاتان مادتان مختلفتان لا تشتق إحداهما من الأخرى ، (والقمر إذا تلاها) قال الحسن والفراء (تلاها) معناه تبعها دأباً في كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك . وقال ابن زيد يتلوها في الشهر كله ، يتلوها في النصف الأول من الشهر بالطلوع ، وفي الآخر بالغروب ، وقال ابن سلام : في النصف الأول من الشهر ، وذلك لأنه يأخذ موضعها ويسير خلفها إذا غابت يتبعها القمر طالعاً ، وقال قتادة: إنما ذلك البدر تغيب هي فيطلع هو ، وقال الزجاج وغيره (تلاها) معناه امتلأ واستدار وكان لها تابعاً للمنزل من الضياء والقدر ، لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر . وقيل : من أول الشهر إلى نصفه في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو ، وفي النصف الآخر يتحاوران وهو أن تغرب هي فيطلع هو . وقال الزمخشري : (تلاها) طالعاً عند غروبها آخذاً من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر . (والنهار إذا جلاها) الظاهر أن مفعول (جلاها) هو الضمير عائد على الشمس ، لأنه عند انبساط النهار تنجلي الشمس في ذلك الوقت تمام الانجلاء ، وقيل : يعود على الظلمة ، وقيل : على الأرض وقيل : على الدنيا والذي يجلي الظلمة هو الشمس أو النهار فإنه وإن لم تطلع الشمس لا تبقى الظلمة . والفاعل بـ (جلاها) ضمير النهار . قيل : ويحتمل أن يكون عائداً على الله تعالى ، كأنه قال : والنهار إذا جلى الله الشمس ، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته . (والليل إذا يغشاها) أي يغشى الشمس فبدخوله تغيب وتظلم الآفاق ونسبة ذلك إلى الليل مجاز ، وقيل : الضمير عائد على الأرض ، والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها إلى قوله (يغشاها) عائدة على الشمس ، وكما أن النهار جلاها كان النهار هو الذي يغشاها . ولما كانت الفواصل ترتبت على ألف وهاء المؤنث أتى (والليل إذا يغشاها) بالمضارع ، لأنه الذي ترتب فيه ، ولو أتى بالماضي كالذي قبله وبعده كان يكون التركيب إذا غشيها ، فتفوت الفاصلة وهي مقصودة . وقال القفال ما ملخصه : هذه الأقسام بالشمس في الحقيقة بحسب أوصاف أربعة ، ضوءها عند ارتفاع النهار وقت انتشار الحيوان وطلب المعاش . وتلو القمر لها بأخذ الضوء وتكامل طلوعها وبروزها . وغيوبتها بمجيء الليل . و (ما في قوله) (وما بناها) و (ما طحاها) و (ما سواها) بمعنى الذي ، قاله الحسن ومجاهد وأبو عبيدة واختاره الطبري . قالوا : لأن (ما) تقع على أولي العلم وغيرهم . وقيل : مصدرية قاله قتادة والمبرد والزجاج ، وهذا قول من ذهب إلى أن (ما) لا تقع على آحاد أولي العلم . وقال الزمخشري : جعلت مصدرية وليس بالوجه ، لقوله (فألهمها) وما يؤدي إليه من فساد النظم ، والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على (من) لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم « سبحان من سخركن لنا » انتهى . أما قوله : « وليس بالوجه ، لقوله (فألهمها) » يعني من عود الضمير في (فألهمها) على الله تعالى ، فيكون قد عاد على مذكور وهو ما المراد به

الذي ولا يلزم ذلك ، لأنا إذا جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام ، ففي (بناها) ضمير عائد على الله تعالى ، أي وبناها هو أي الله تعالى كما إذا رأيت زيداً قد ضرب عمراً ، فقلت : عجبت مما ضرب عمراً تقديره من ضرب عمرو هو كان حسناً فصيحاً جائزاً ، وعود الضمير على ما يفهم من سياق الكلام كثير . وقوله : وما يؤدي إليه من فساد النظم » ليس كذلك ، ولا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ذكر . وقوله : « إنما أوثرت إلخ » لا يراد بـ (ما) و لا بمن الموصولتين معنى الوصفية ، لأنهما لا يوصف بهما بخلاف الذي فاشتراكهما في أنهما لا يؤديان معنى الوصفية موجود فيهما فلا ينفرد به ما دون من . وقوله « وفي كلامهم » إلخ تأوله أصحابنا على أن « سبحان » علم و « ما » مصدرية ظرفية . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) الأمر في نصب (إذا) معضل لأنك إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر فتقع في العطف على عاملين ، وفي نحو قولك : مررت أمس بزيد واليوم عمرو . وأما أن تجعلهن للقسم فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه ؟ (قلت :) الجواب فيه أن واو القسم مطرح معه إبراز الفعل اطراحاً كلياً فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل وأضمر ، فكانت الواو قائمة الفعل ، والباء سادة مسدهما معاً ، والواوات العواطف نوائب عن هذه ، فحقهن : أن يكن عوامل على الفعل والجار جميعاً كما تقول : ضرب زيد عمراً وبكر خالداً ، فترفع بالواو تنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها . انتهى . أما قوله : « وفي واوات العطف فتنصب بها وتجر » فليس هذا بالمختار ، أعني أن يكون حرف العطف عاملاً لقيامه مقام العامل ، بل المختار أن العمل إنما هو للعامل في المعطوف عليه ثم إنا لانشاء حجة في ذلك ، وقوله : « فتقع في العطف على عاملين » ليس ما في الآية من العطف على عاملين وإنما هو من باب عطف اسمين ، مجرور منصوب ، على اسمين مجرور ومنصوب ، فحرف العطف لم ينب مناب عاملين ، وذلك نحو قولك : أمرر بزيد قائماً وعمرو جالساً ، وقد أنشد سيبويه في كتابه[1] :

فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحاً ... وَلَا مُسْتَنْكِرٍ أَنْ تُعَقَّرَا[2]

فهذا من عطف مجرور ومرفوع على مجرور ومرفوع ، والعطف على عاملين فيه أربع مذاهب ، وقد نسب الجواز إلى سيبويه . وقوله : « في نحو قولك مررت أمس بزيد واليوم عمرو وهذا المثال مخالف لما في الآية بل وزان ما في الآية مررت بزيد أمس وعمر واليوم » ونحن نجيز هذا ، وأما قوله : على استكراه فليس كما ذكر ، بل كلام الخليل يدل على المنع . قال الخيل في قوله عزَّ وجلَّ ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى ﴾ [الليل ١ ، ٢ ، ٣] الواوان الأخيرتان ليستا بمنزلة الأولى ولكنهما الواوان اللتان يضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك : مررت بزيد وعمرو والأولى بمنزلة الباء والتاء . انتهى وأما قوله : « إن واو القسم مطرح معه إبراز الفعل اطراحاً كلياً » فليس هذا الحكم مجمعاً عليه ، بل قد أجاز ابن كيسان التصريح بفعل القسم مع الواو ، فتقول : أقسم أو أحلف والله لزيد قائم ، وأما قوله « والواوات العواطف نوائب عن هذه » إلخ فمبنى على أن حرف العطف عامل لنيابته مناب العامل وليس هذا بالمختار ، والذي نقوله إن المعضل هو تقرير العامل في إذا بعد الإقسام كقوله (والنجم إذا هوى) (والليل إذا دبر) (والصبح إذا أسفر) (والقمر إذا تلاها) (والليل إذا يغشى) وما أشبهها فإذا ظرف مستقبل لا جائز أن يكون العالم فيه فعل القسم المحذوف لأنه فعل إنشائي فهو في الحال ينافي أن يعمل في المستقبل لإطلاق زمان العامل زمان المعمول ، ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف

---

(١) يريد رحمه الله أن سيبويه جعل (ولا مستنكر أن تعقّرا) من العطف على معمول عامل واحد ، وبيانه : أن سيبويه جوز الجر حملاً على (معروف) فيكون مستنكر خبراً عن الرد الذي هو اسم ليس ، وتأويل المسببية بين مستنكر ، والرد أن الرد ملتبس بالخيل ، وكأنه منها وأن تعقرا متصل بضمير الخيل ، فكأنه اتصل بضمير الرد حيث كان من الخيل ، وأن تعقرا فاعل بمستنكر أيضاً . فالعطف مع الجر على معمول عامل واحد وهو الباء في بمعروف .

(٢) البيت من الطويل للنابغة الجعدي انظر الكتاب ١/٣٢ الجمهرة (١٤٨) شرح أبيات سيبويه للسيرا في ١/٢٣٨ .

أقيم المقسم به مقامه ، أي وطلوع النجم ومجيء الليل ، لأنه معمول لذلك الفعل فالطلوع حال ولا يعمل فيه المستقبل ضرورة أن زمان المعمول زمان العامل ، ولا جائز أن يعمل فيه نفس المقسم به ، لأنه ليس من قبيل ما يعمل سيما إن كان جزماً ، ولا جائز أن يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه ويكون ذلك العامل في موضع الحال ، وتقديره : والنجم كائناً إذا هوى ، والليل كائناً إذا يغشى ، لأنه لا يلزم كائناً أن يكون منصوباً بالعامل ولا يصح أن يكون معمولاً لشيء مما فرضناه أن يكون عاملاً وأيضاً فقد يكون القسم به جثة وظروف الزمان لا تكون أحوالاً عن الجثث كما لا تكون أخباراً .

(ونفس وما سواها) اسم جنس ويدل على ذلك ما بعده من قوله (فألهمها) وما بعده ، وتسويتها إكمال عقلها ونظرها ، ولذلك ارتبط به (فألهمها) لأن الفاء تقتضي الترتيب على ما قبلها من التسوية التي هي لا تكون إلا بالعقل . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) لم نكرت النفس ؟ (قلت :) فيه وجهان : أحدها : أن يريد نفساً خاصة من النفوس وهي نفس آدم ، كأنه قال : وواحدة من النفوس ، انتهى . وهذا فيه بعده ، للأوصاف المذكورة بعدها فلا تكون إلا للجنس ، ألا ترى إلى قوله (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) كيف تقتضي التغاير في المزكي وفي المدسي . (فألهمها) قال ابن جبير : ألزمها ، وقال ابن عباس : عرفها ، وقال ابن زيد : بين لها . وقال الزجاج : وفقها للتقوى . (وألهمها فجورها) أي خذلها ، وقيل : عرفها ، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى . وقال الزمخشري : ومعنى إلهام الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما ، بدليل قوله (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما والتزكية الإنماء والقدسية النقص والإخفاء بالفجور انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال (قد أفلح من زكاها) قال الزجاج وغيره : هذا جواب القسم ، وحذفت اللام لطول الكلام ، والتقدير : لقد أفلح . وقيل : الجواب محذوف ، تقديره : لتبعثن . وقال الزمخشري : تقديره : ليد من الله عليهم . أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ـ ﷺ ـ كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً . وأمّا (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لقوله (فألهمها فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء . انتهى . وزكاؤها ، طهورها ونماؤها بالعمل الصالح . ودساها : أخفاها وحقرها بعمل المعاصي . والظاهر : أن فاعل (زكى) و (دسى) ضمير يعود على (من) وقاله الحسن وغيره . ويجوز أن يكون ضمير الله تعالى وعاد الضمير مؤنثاً باعتبار المعنى من مراعاة التأنيث . وفي الحديث ما يشهد لهذا التأويل : « كان عليه السلام إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » . وقال الزمخشري : (وأما) قول من زعم أن الضمير في (زكّى) و (دسَّى) لله تعالى وأن تأنيث الراجع إلى (مَنْ) لأنه في معنى النفس فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدراً هو بريء منه ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه تعالى . انتهى . فجرى على عادته في سب أهل السنة . وقائل ذلك هو بحر العلم عبد الله بن عباس والرسول ـ ﷺ ـ يقول « وزكها أنت خير من زكاها » . وقال تعالى (دساها) في أهل الخير بالرياء وليس منهم وحين قال (وتقواها) أعقبه بقوله (قد أفلح من زكاها) ولما قال (وقد خاب من دساها) أعقبه بأهل الجنة ، ولما ذكر تعالى خيبة من دسى نفسه ذكر فرقة فعلت ذلك ليعتبر بهم (بطغواها) الباء عند الجمهور سببية ، أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها . وقال ابن عباس : الطغوى : هنا العذاب كذبوا به حتى نزل بهم لقوله ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ [الحاقة ٥] ، وقرأ الجمهور (بطَغواها) بفتح الطاء ، وهو مصدر من الطغيان ، قلبت فيه الياء واواً فصلاً بين الاسم وبين الصفة . قالوا فيها صرنا وحدنا ، وقالوا في الاسم تقوى وشروري . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة بضم الطاء ، وهو مصدر كالرُّجعي . وكان قياسها الطغيا بالياء كالسُّقيا لكنهم شذوا فيه (إذا نبعث) أي خرج لعقر الناقة بنشاط وحرص . والناصب لـ (إذ) (كذبت) و (أشقاها) قدار بن سالف وقد يراد به الجماعة ، لأن أفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة جاز إفراده وإن عنى به جمع . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكونوا جماعة

والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث . وكان يجوز أن يقال أشقوها انتهى . فأطلق الإضافة . وكان ينبغي أن يقول إلى معرفة لأن إضافته إلى نكرة لا يجوز فيه إذ ذاك إلا أن يكون مفرداً مذكراً كحاله إذا كان بـ (من) والظاهر أن الضمير في (لهم) عائد على أقرب مذكور وهو (أشقاها) إذا أريد به الجماعة . ويجوز أن يعود على (ثمود) (رسول) هو صالح عليه السلام . وقرأ الجمهور (ناقة الله) بنصب التاء ، وهو منصوب على التحذير مما يجب إضمار عامله ، لأنه قد عطف عليه فصار حكمه بالعطف حكم المكرر ، كقولك : الأسد الأسد أي : احذروا ناقة الله (وسقياها) فلا تفعلوا ذلك . (فكذبوه) الجمهور على أنهم كانوا كافرين وروى : « أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً بمدة ثم كذبوا وعقروا » . وأسند العقر للجماعة لكونهم راضين به ومتمالئين عليه . وقرأ الجمهور (فدمدم) بميم بعد دالين . وابن الزبير (فدهْدَم) بهاء بينهما . أي أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم (بذنبهم) فيه تخويف من عاقبة الذنوب (فسواها) قيل : فسوى القبيلة في الهلاك ، عاد عليها بالتأنيث كما عاد في (بطغواها) ، وقيل : الدمدمة ، أي سواها بينهم فلم يفلت منهم صغيراً ولا كبيراً . وقرأ أبيّ والأعرج ونافع وابن عامر (فلا يخاف) بالفاء وباقي السبعة (ولا) بالواو ، والضمير في (يخاف) الظاهر عوده إلى أقرب مذكور وهو (ربهم) أي لأدرك عليه تعالى في فعله بهم ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء ٢٣] قاله ابن عباس والحسن ، وفيه ذم لهم وتعقبة لآثارهم . وقيل : يحتمل أن يعود على صالح أي لا يخاف عقبى هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذرهم . ومن قرأ (ولا يحتمل الضمير الوجهين) . وقال السدي والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي : الواو واو الحال ، والضمير في (يخاف) عائد على (أشقاها) أي انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه والعقبى : خاتمة الشيء وما يجيء من الأمور بعقبه وهذا فيه بعد لطول الفصل بين الحال وصاحبها .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

هذه السورة مكية ، وقال علي بن أبي طلحة مدنية ، وقيل : فيها مدني . ولما ذكر فيما قبلها ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس ٩ ، ١٠] ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح وما تحصل به الخيبة ، ثم حذر النار وذكر من يصلاها ومن يتجنبها . ومفعول (يغشى) محذوف فاحتمل أن يكون (النهار) كقوله ﴿ يغشى الليل والنهار ﴾ [الأعراف ٥٤] وأن يكون الشمس كقوله (والليل إذا يغشاها) ، وقيل : الأرض وجميع ما فيها بظلامه . و (تجلى) انكشف وظهر إما بزوال ظلمة الليل ، وإما بنور الشمس . أقسم بالليل الذي فيه كل حيوان يأوي إلى مأواه ، وبالنهار الذي تنتشر فيه ، وقال الشاعر :

يُجْلَى السُّرَى مِنْ وَجْهِهِ عَنْ صَفِيحَةٍ   عَلَى السَّيْرِ مِشْرَاقٌ كَثِيرٌ شُحُومُهَا

وقرأ الجمهور (تجلَّى) فعلاً ماضياً فاعله ضمير (النهار) ، وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير (تتجلى) بتاءين يعني الشمس . وقرىء (تُجْلى) بضم التاء وسكون الجيم ، أي الشمس (وما خلق) (ما) مصدرية أو بمعنى الذي والظاهر : عمم الذكر والأنثى . وقيل : من بني آدم فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته . وقال ابن عباس والكلبي والحسن : هما آدم وحواء . والثابت في مصاحف الأمصار والمتواتر ، (وما خلق الذكر والأنثى) وما ثبت في الحديث من قراءة (والذكر والأنثى) نقل آحاد مخالف للسواد فلا يعد قرآناً ، وذكر ثعلب : أن من السلف من قرأ (وما خلق الذكر) بجر الذكر . وذكرها الزمخشري عن الكسائي وقد خرجوه على البدل من (ما) على تقدير : والذي خلق الله . ، وقد يخرج على توهم المصدر أي وخلق الذكر والأنثى ، كما قال الشاعر :

تَطُوفُ الْعُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ   كَمَا طَافَ بِالْبِيعَةِ الرَّاهِبُ[1]

---

(١) البيت من المتقارب ذكره السمين في الدر المصون .

بجر الراهب على توهم النطق بالمصدر ، أي كطواف الراهب بالبيعة . (إن سعيكم) أي مساعيكم (لشتى) لمتفرقة مختلفة . ثم فصل هذا السعي (فأما من أعطى) الآية روي : « أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كان يعتق ضعفة عبيده الذين أسلموا وينفق في رضا رسول الله ـ ﷺ ـ ماله وكان الكفار بضدّه » . قال عبد الله بن أبي أوفى : نزلت هذه السورة في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأبي سفيان بن حرب . وقال السدّي : نزلت في أبي الدحداح الأنصاري بسبب ما كان يعلق في المسجد صدقة وبسبب النخلة التي اشتراها من المنافق بحائط لـه وكان الرسول ـ ﷺ ـ ساوم المنافق في شرائها بنخلة في الجنة وذلك بسبب الأيتام الذين كانت النخلة تشرف على بيتهم فيسقط منها الشيء فتأخذه الأيتام فمنعهم المنافق فأبى عليه المنافق فجاء أبو الدحداح وقال يا رسول الله أنا أشتري النخلة التي في الجنة بهذه » . وحذف مفعولي (أعطى) إذ المقصود الثناء على المعطي دون تعرض للمعطى والعطية . وظاهره بذل المال في واجب ومندوب ومكرمة . وقال قتادة : أعطى حق الله . وقال ابن زيد : أنفق ماله في سبيل الله . (واتقى) قال ابن عباس : اتقى الله . وقال مجاهد : واتقى البخل وقال قتادة : واتقى ما نهى عنه . (وصدّق بـالحسنى) صفة تأنيث الأحسن . فقال ابن عباس وعكرمة وجماعة : هي الخلف في الدنيا الواردة وعد الله تعالى . وقال مجاهد والحسن وجماعة : الجنة ، وقال جماعة : الثواب . وقال السلمي وغيره : لا إله إلا الله . (فسنيسره لليسرى) أي نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون وذلك في الدنيا والآخرة . وقابل (أعطى) بـ (بخل) واتقى بـ (استغنى) لأنه زهد فيما عند الله بقوله واستغنى (للعسرى) وهي الحالة السيئة في الدنيا والآخرة . وقال الزمخشري : فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد كقوله (يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء)[الأنعام ١٢٥] إذ سمى طريقة الخير باليسرى ، لأن عاقبتها اليسر وطريقة الشر العسر ، لأن عاقبتها العسر ، أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي فسنهديهما في الآخرة للطريقين . انتهى . وفي أول كلامه دسيسة الاعتزال . وجاء (فسنيسره للعسرى) على سبيل المقابلة لقوله (فسنيسره لليسرى) والعسرى لا تيسير فيها ، وقد يراد بالتيسير التهيئة وذلك يكون في اليسرى والعسرى ، (وما يغني) يجوز أن تكون (ما) نافية واستفهامية أي : شيء يغني عنه ماله (إذا تردى) تفعل من الرّدى أي هلك قاله مجاهد ، وقال قتادة وأبو صالح (تردى في جهنم أي سقط من حافاتها . وقال قوم : تردى بأكفانه من الردى . وقال مالك بن الذئب :

وَخُـطًّا بِـأَطْـرَافِ الأَسِنَّـةِ مَضْجَعِي   وَرُدًّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْـلَ رِدَائِيَـا[١]

وقال آخر :

نَصِيبُـكَ مِمَّـا تَجْمَـعُ الـدَّهْـرَ كُلَّهُ   رِدَاءانِ تُلْوَى فِيهِمَـا وَحَـنُـوطُ[٢]

(إن علينا للهدى) التعريف بالسبيل ومنحهم الإدراك كما قال تعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل ٩] وقال الزمخشري : إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع ، (وإن لنا للآخرة والأولى) أي ثواب الدارين لقوله تعالى ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [العنكبوت ٢٧] ، وقرأ ابن الزبير وزيد بن عليّ وطلحة وسفيان بن عيينة وعبيد بن عمير (تتلظى) بتاءين والبزي بتاء مشدّدة والجمهور بتاء واحدة . وقال الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين . فقيل (الأشقى) وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له . وقال (الأتقى) وجعل مختصاً بالنجاة وكأن

---

(١) البيت من الطويل انظر الجمهرة (٦١٠) .

(٢) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون .

الجنة لم تخلق إلا له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يتزكى من الزكاة أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة . انتهى . وقرأ الجمهور (يتزكى) مضارع تزكى . وقرأ الحسن بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم بإدغام التاء في الزاي و (يتزكى) في موضع الحال فموضعه نصب ، وأجاز الزمخشري أن لا يكون له موضع من الإعراب لأنه جعله بدلاً من صلة الذي وهو (يؤتى) قاله . وهو إعراب متكلف وجاء (تُجْزَى) مبنياً للمفعول لكونه فاصلة وكان أصله نجزيه إياها أو نجزيها إياه . وقرأ الجمهور (إلا ابتغاء) بنصب الهمزة وهو استثناء ، لأنه ليس داخلاً في (من نعمة) وقرأ ابن وثاب بالرفع على البدل في موضع نعمة لأنه رفع ، وهي لغة تميم ، وأنشد بالوجهين قول بشر بن أبي حازم :

أَضْحَتْ خَلَاءً قِفَاراً لَا أَنِيسَ بِهَا ... إلَّا الْجَآذِرَ وَالظُّلْمَاتُ تَخْتَلِفُ[1]

وقال الراجز في الرفع :

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ ... إلَّا الْيَعَافِيرَ وَإِلَّا الْعِيسُ[2]

وقرأ ابن أبي عبلة (إلا ابتغاء) مقصوراً ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (ابتغاء وجه) الله مفعولاً له على المعنى ، لأن معنى الكلام لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة . انتهى . وهذا أخذه من قول الفراء ، قال الفراء : ونصب على تأويل ما أعطيك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله . (ولسوف يرضى) وعد بالثواب الذي يرضاه . وقرأ الجمهور (يَرْضى) بفتح الياء وقرىء بضمها ، أي يرضى فعله يرضاه الله ويجازيه عليه .

---

(١) البيت من البسيط انظر الكشاف ٤/٦٠٩ .

(٢) البيت من الرجز لجران بن العود عامر بن الحرث انظر الصبان ٢/١٤٧ ، الكشاف ٤/٦١٠ .

سورة الضحى مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سجا الليل : أدبر ، وقيل : أقبل ، ومنه :

يَـا حَبَّـذَا الْقَمْـرَاءُ وَاللَّيْـلُ السَّـاجْ   وَطُـرقٌ مِـثْـلُ مِـلاءِ النَّسَّـاجْ[1]

وبحر ساج : ساكن ، قال الأعشى :

وَمَـا ذَنْبُنَا إِنْ جَـاشَ بَحْرُ ابن عَمِّكُمْ   وَبَحْرُكَ سَاجٍ لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا[2]

وطرف ساج : غير مضطرب بالنظر . وقال الفراء : سجا الليل : أظلم وركد . وقال ابن الأعرابي : سجا الليل : اشتد ظلامه . ﴿ **والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودّعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدّث** ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيما قبلها (وسيجنبها الأتقى) وكان سيد الأتقين رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر تعالى هنا نعمه عليه . وقرأ الجمهور (ما ودّعك) بتشديد الدال . وعروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة بخفها ، أي ما تركك . واستغنت العرب في فصيح كلامها بـ (ترك) عن ودع ووذر، وعن اسم فاعلهما بتارك ، وعن اسم مفعولها بمتروك ، وعن مصدرهما بالترك . وقد سمع ودع ووذر ، قال أبو الأسود :

لَيْتَ شِعْـرِي عَنْ خَلِيلِي مَـا الَّـذِي   غَـالَـهُ فِـي الْحُـبِّ حَـتَّـى وَدَعَـهْ

وقال آخر :

وَثَـمَّ وَدَعْـنَـا آلَ عَـمْـرٍو وَعَـامِـرٍ   فَـرَائِسَ أَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ[3]

---

(١) البيت من الرجز للحارثي انظر اللسان (سجا) .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوان (١٠٠) اللسان (سجا) .

(٣) البيت من الطويل انظر الكشاف (٦١١/٤) .

والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك . (وما قلى) ما أبغضك . واللغة الشهيرة في مضارع (قلى يقلي) وطيىء تعلى بفتح العين . وحذف المفعول اختصاراً في (قلى) و في (فآوى) وفي (فهدى) وفي (فأغنى) إذ يعلم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول ـ ﷺ ـ قال ابن عباس وغيره : « أبطأ الوحي مرة على الرسول ـ ﷺ ـ وهو بمكة حتى شق ذلك عليه فقالت أم جميل امرأة أبي لهب يا محمد ما أرى شيطانك إلا تركك فنزلت » . وقال زيد بن أسلم إنما احتبس عنه جبريل عليه السلام لجر وكلب كان في بيته . (وللآخرة خير لك من الأولى) يريد الدارين . قاله ابن إسحاق وغيره ويحتمل أن يريد حالتيه قبل نزول السورة وبعدها وعده تعالى بالنصر والظفر قاله ابن عطية احتمالاً . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف اتصل قوله (وللآخرة خير لك من الأولى) بما قبله ؟ (قلت :) لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته . (ولسوف يعطيك ربك فترضى) قال الجمهور : ذلك في الآخرة . وقال ابن عباس : رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار ، وقال أيضاً : رضاه أنه وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم ، وقيل : في الدنيا بفتح مكة وغيره . والأولى أن هذا موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الظفر ، ولما ادخر له من الثواب . واللام في (وللآخر) لام ابتداء أكدت مضمون الجملة ، وكذا في (ولسوف) على إضمار مبتدأ ، أي ولأنت سوف يعطيك . ولما وعده هذا الموعود الجليل ذكره بنعمه عليه في حال نشأته . (ألم يجدك) يعلمك (يتيماً) توفي أبوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو جنين أتت عليه ستة أشهر ، وماتت أمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه أبو طالب فأحسن تربيته ، وقيل : لجعفر الصادق : لم يتم النبي ـ ﷺ ـ من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق ، قال الزمخشري : ومن يدع التفاسير أنه من قولهم : درّة يتيمة وأن المعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك انتهى . وقرأ الجمهور (فآوى) رباعياً . وأبو الأشهب العقيلي (فأوى) ثلاثياً بمعنى رحم . تقول أويت لفلان أي رحمته . ومنه قوله الشاعر :

أَرَانِـي وَلَا كُـفْـرَانَ لِـلّهِ إِنَّـهُ ... لِنَفْسِيَ قَـدْ طَـالَبْتُ غَيْـرَ مُنِيـلِ[1]

(ووجدك ضالاً) لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلـك . قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة ثم رده الله إلى جده عبد المطلب . وقيل : ضلاله من حليمة مرضعته ، وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب . ولبعض المفسرين أقوال فيه بعض ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور (ووجدك) أي وجد رهطك ضالاً فهداه بك . ثم أقول على حذف مضاف نحو ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف ٨٢] ، وقرأ الجمهور (عائلاً) أي فقيراً ، قال جرير :

اللّهُ نَـزَّلَ فِي الْكِتَابِ فَـرِيضَـةً ... لابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ[2]

كرر لاختلاف اللفظ . وقرأ اليماني (عَيِّلًا) كسيد بتشديد الياء المكسورة . ومنه قول أجيحة بن الحلاج :

---

(١) البيت من الطويل انظر حاشية الدسوقي على المغني ٢ /٥١ .

(٢) البيت من الكامل انظر ديوانه ٢ /٧٣٧ .

وَمَـا يَـدْرِي الْفَقِيـرُ مَتَى غِنَـاهُ   وَمَا يَـدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيـلُ[١]

عال : افتقر . وأعال : كثر عياله . قال مقاتل : فأغنى رضاك بما أعطاك من الرزق . وقيل : أغناك بالقناعة والصبر ، وقيل : بالكفاف ، ولما عدد عليه هذه النعم الثلاث وصاه بثلاث كأنها مقابلة لها ، (فلا تقهر) قال مجاهد : لا تحتقره ، وقال ابن سلام : لا تستزله ، وقال سفيان : لا تظلمه بتضييع ماله . وقال الفراء لا تمنعه حقه . والقهر : هو التسليط بما يؤذي . وقرأ الجمهور (تقهر) بالقاف ، وابن مسعود وإبراهيم التيمي بالكاف بدل القاف ، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور . (وأما السائل) ظاهره المستعطي (فلا تنهر) أي تزجره لكن أعطه أو رده رداً جميلاً . وقال قتادة : لا تغلظ عليه وهذه في مقابلة (ووجدك عائلاً فأغنى) فالسائل كما قلنا المستعطي ، وقاله الفراء وجماعة . وقال أبو الدرداء والحسن وغيرهما : السائل هنا : السائل عن العلم والدين لا سائل المال فيكون بإزاء (ووجدك ضالاً فهدى) ، (وأما بنعمة ربك فحدّث) ، قال مجاهد والكلبي : معناه : بث القرآن وبلغ ما أرسلت به ، وقال محمد بن إسحاق : هي النبوة ، وقال آخرون : هي عوم في جميع النعم . وقال الزمخشري : التحديث بالنعم شكرها وإشاعتها ، يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك . انتهى . ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة ، أمره بثلاثة فذكر اليتيم أولاً ، وهي البادية، ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف ما امتن به عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة ، لأنه بعد اليتيم هو زمان التكليف وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ معصوم من اقتراف ما لا يرضى الله عزَّ وجلَّ في القول والفعل والعقيدة ، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم ، وحالة التكليف . وفي الآخر ترقى إلى الأشرف فهما مقصدان في الخطاب .

---

(١) البيت من الوافر انظر اللسان (عيل) فتح القدير ٥/٤٥٨ .

سورة الانشراح مكية وهي ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، وشرح الصدر ، تنويره بالحكمة ، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه . قاله الجمهور ، والأولى العموم لهذا ولغيره من سقاساة الدعاء إلى الله تعالى وحده واحتمال المكاره من إذاية الكفار . وقال ابن عباس وجماعة : إشارة إلى شق جبريل ـ عليه السلام ـ صدره في وقت صغره . ودخلت همزة الاستفهام على التقي فأفاد التقرير على هذه النعمة وصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك . ولذلك عطف عليه الماضي وهو (ووضعنا) وهذا نظير قوله ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت ﴾ [الشعراء ١٨] وقرأ الجمهور (نشرحْ) بجزم الحاء لدخول الجازم ، وقرأ أبو جعفر بفتحها . وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه ألم نشرحن فأبدل من النون ألفاً ثم حذفها تخفيفاً فيكون مثل ما أنشده أبو زيد في نوادره من قول الراجز :

مِنْ أَيِّ يَـوْمَيَّ مِنَ الْمَـوْتِ أَفِـرُّ أَيَـوْمُ لَـمْ يُقَـدَّرْ أَمْ يَـوْمُ قُـدِرْ[1]

وقال الشاعر :

أَضْـرِب عَنْـكَ الْهُمُـومَ طَـارِقَهَـا ضَرْبَكَ بِـالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَـرَسِ[2]

وقال قراءة مرذولة . وقال الزمخشري : وقد ذكرها عن أبي جعفر المنصور وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها . انتهى . ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله ، وهو أنه لغة لبعض العرب ، حكاها اللحياني في نوادره ، وهي الجزم بـ (لن) والنصب بـ (لم) عكس المعروف عند الناس . وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد وهو القائم بثار الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما :

قَـدْ كَانَ سَمْـكُ الْهُدَى يَنْهَـدُّ قَائِمُـهُ حَتَّى أُتِيحَ لَـهُ الْمُخْتَـارُ فَـانْعَمَـدَا
فِي كُـلِّ مَـا هَمَّ أَمْضَى رَأْيَـهُ قُـدُماً وَلَمْ يُشَـاوِر فِي إِقْـدَامِـهِ أَحَـدَا[3]

---

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (قدر) المغني ١/٢٨١ المحتسب ٢/٣٦٦ الخصائص ٣/٩٥ .

(٢) البيت من المنسرح لطرفة ، انظر ديوانه ١٩٠ الخصائص ٢/١٢٦ المحتسب ٢/٢٦٧ .

(٣) البيتان من البسيط ذكرهما السمين في الدر المصون .

بنصب يشاور هذا محتمل للتخريجين ، وهو أحسن مما تقدم . (ووضعنا عنك وزرك) كناية عن عصمته من الذنوب ، وتطهيره من الأدناس . عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك كما يقول القائل : رفعت عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر منه زيارة على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه . وقال أهل اللغة : أنقض الحمل ؛ ظهر الناقة إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل ، وسمعت نقيض المرجل : أي صريره ، قال عباس بن مرادس :

وَأَنْقَضَ ظَهْـرِي مَا تَـطَوَّيْتُ مِنْهُمُ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ مُشْـفِقـاً مُـتَحَـنِّنـا[١]

وقال جميل :

وَحَتَّى تَـدَاعَتْ بِـالنَّقِيضِ حِبَـالُـهُ وَهَمَّتْ بـوأي زَوْرَة إِنْ نَحُـطَّهَـا[٢]

والنقيض : صوت الانقضاض والانفكاك . (ورفعنا لك ذكرك) هو أن قرنه بذكره تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخب ، وفي غير موضع من القرآن ، وفي تسميته نبي الله ورسول الله وذكره في كتب الأولين ، والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به . وقال حسان :

أَغَـرُّ عَـلَيْـهِ لِـلنُّـبُـوَّةِ خَـاتَـمٌ مِنَ اللهِ مَشْهُـورٌ يَلُوحُ وَيَـشْـهَـدُ
وَضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ[٣]

وتعديد هذه النعم عليه ـ ﷺ ـ يقتضي أنه تعالى كما أحسن إليك بهذه المراتب ، فإنه يحسن إليك بظفرك على أعدائك ، وينصرك عليهم ، وكان الكفار أيضاً يعيرون المؤمنين بالفقر فذكره هذه النعم وقوى رجاءه بقوله (فإن مع العسر يسراً) أي : مع الضيق فرجاً ثم كرر ذلك مبالغة في حصول اليسر . ولماكان اليسر يعتقب العسر من غير تطاول أزمان جعل كأنه معه وفي ذلك تبشير الرسول ـ ﷺ ـ بحصول اليسر عاجلاً ، والظاهر : أن التكرار للتوكيد كما قلنا . وقيل : تكرر اليسر باعتبار المحل فيسر في الدنيا ويسر في الآخرة . وقيل : مع كل عسر يسر إن من حيث إن العسر معرف بالعهد ، واليسر منكر فالأول غير الثاني ، وفي الحديث : « لن يغلب عسر يسرين » وضم سين (العسُر) و (يُسرا) فيهن ابن وثاب وأبو جعفر وعيسى . وسكنها الجمهور . ولما عدد تعالى نعمه السابقة ـ ﷺ ـ ووعده بتيسير ما عسره أمره بأن يدأب في العبادة إذا فرغ من مثلها ولا يفتر . وقال ابن مسعود : فرغت من فرضك فانصب في التنفل عبادة لربك . وقال أيضاً ، فانصب في قيام الليل . وقال مجاهد : قال : فإذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك ، وقال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، وقال الحسن : فإذا فرغت من الجهاد فانصب في العبادة . ويعترض قوله هذا بأن الجهاد فرض بالمدينة . وقرأ الجمهور (فرَغت) بفتح الراء ، وأبو السمال بكسرها ، وهي لغة ، قال الزمخشري : ليست بفصيحة ، وقرأ الجمهور (فانصبْ) بسكون الباء خفيفة ، وقوم بشدها مفتوحة من الأنصاب . وقرأ آخرون من الإمامية (فانصِبْ) بكسر الصاد بمعنى إذا فرغت من الرسالة فانصب خليفة . قال ابن عطية : وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم انتهى . وقرأ الجمهور (فارغبْ) أمر رغب ثلاثياً أي اصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه . وقرأ أبو زيد بن علي وابن أبي عبلة (فرغت) أمر من رغّب بشد الغين .

---

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٤٦١ .

(٢) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٤٦١ .

(٣) البيتان من الطويل انظر ديوانه (٥٤) .

سورة التين مكية وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

التين هو الفاكهة المعروفة واسم جبل وتأتي أقوال المفسرين فيه **﴿ والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾** .

هذه السورة مكية في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية . ولما ذكر فيما قبلها من كمله الله خلقاً وخلقاً وفضله على سائر العالم ذكر هنا حالة من يعاديه وأنه يرده أسفل سافلين في الدنيا والآخرة ، وأقسم تعالى بما أقسم به أنه خلقه مهيأ لقبول الحق ، ثم نقله كما أراد إلى الحالة السافلة ، والظاهر : أن (التين والزيتون) هما المشهوران بهذا الاسم . وفي الحديث : « مدح التين وأنها تقطع البواسير[1] وتنفع من النقرس » . وقال تعالى ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ [المؤمنون ٢٠] قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والنخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي . وقال كعب وعكرمة : أقسم تعالى بمنابتهما . فإن التين ينبت كثيراً بدمشق والزيتون بإيليا فأقسم بالأرضين ، وقال قتادة : هما جبلان بالشام ، على أحدهما دمشق ، وعلى الآخر بيت المقدس . انتهى . وفي شعر النابغة ذكر التين وشرح بأنه جبل مستطيل ، قال النابغة :

صهْب الظِّلَال أَتَيْنَ التِّين عَنْ عَرَضٍ   يُـزْجِينَ غَيْماً قَلِيـلاً مَاؤُهُ شَبِهَـا

وقيل : هما مسجدان ، واضطربوا في مواضعهما اضطراباً كثيراً ضربنا عن ذلك صفحاً ولم يختلف في (طور سينا) أنه جبل بالشام هو الذي كلم الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ ومعنى (سينين) ذو الشجر . وقال عكرمة : حسن مبارك . وقرأ الجمهور (سينين) وابن أبي اسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتح السين ، وهي لغة بكر وتميم . قال

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الطب والثعلبي من حديث أبي ذر ، وفي إسناده من لا يعرف انظر تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر على الكشاف ٧٧٣/٤ . وأخرجه البغوي في التفسير ٥٠٤/٤ والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في السواك ، عن معاذ رفعه الزيتون من شجرة مباركة . . . .) قال الحافظ ابن حجر : إسناده واه .

الزمخشري : ونحو سينون بيرون في جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء تحريك النون بحركات الإعراب انتهى . وقرأ عمر بن الخطاب وعبد الله وطلحة والحسن (سيناء) بكسر السين، والمد ، وعمر أيضاً وزيد بن علي بفتحها والمد ، وهو لفظ سرياني اختلفت بها لغات العرب . وقال الأخفش (سينين) شجر واحده سينينة . (وهذا البلد الأمين) هو مكة و (أمين) للمبالغة ، أي آمن من فيه ومن دخله ، وما فيه من طير . وحيوان ، أو من : أَمُن الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين ، وأمانته : حفظه من دخله ولا ما فيه من طير وحيوان أو من . أمُنَ الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين ، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمنه ، لأنه مأمون الغوائل ، كما وصف بالأمن في قوله ﴿ حرماً آمناً ﴾ [القصص ٥٧] بمعنى ذي أمن . ومعنى القسم بهذه الأشياء إبانة شرفها وما ظهر فيها من الخير بسكنى الأنبياء والصالحين ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومولد عيسى ومنشأه ، والطور : هو المكان الذي نودي عليه موسى ـ عليه السلام ـ ومكة : مكان مولد رسول الله ـ ﷺ ـ ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين . (في أحسن تقويم) ، قال النخعي ومجاهد وقتادة : حسن صورته وحواسه ، وقيل : انتصاب قامته ، وقال أبو بكر بن طاهر : عقله وإدراكه زيّناه بالتمييز . وقال عكرمة : شبابه وقوته ، والأولى العموم في كل ما هو أحسن ، والإنسان هنا ، اسم جنس و (أحسن) صفة لمحذوف ، أي في تقويم أحسن . (ثم رددناه أسفل سافلين) قال عكرمة والضحاك والنخعي : بالهرم وذهول العقل وتغلب الكبر حتى يصير لا يعلم شيئاً ، أما المؤمن فمرفوع عنه القلم ، والاستثناء على هذا منقطع وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا بل في الجنس من يعتريه ذلك . وقال الحسن ومجاهد وأبو العالية وابن زيد وقتادة أيضاً (أسفل سافلين) في النار على كفره ثم استثنى استثناء متصلاً . وقرأ الجمهور (سافلين) منكراً ، وعبد الله (السافلين) معرفاً بالألف واللام . وأخذ الزمخشري أقوال السلف وحسنها ببلاغته وانتقاء ألفاظه فقال : في أحسن تعديل لشكله وصورته ، وتسوية أعضائه ، ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية إذ (رددناه أسفل) من سفل خلقاً وتركيباً ، يعني أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة وهم أصحاب النار ، و (أسفل) من سفل من أهل الدركات أو (ثم رددناه) بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل ، حيث نكسناه في خلقه ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وتشنن جلده وكان بضاً ، وكلَّ سمعه وبصره وكانا حديدين ، وتغير كل شيء فيه فمشيه دلف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف ، انتهى وفيه تكثير وعلى أن ذلك الرد هو إلى الهرم فالمعنى ولكن الصالحين من الهرمى لهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم ، وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم . وفي الحديث « إذا بلغ مائة ولم يعمل كتب له مثل ما كان يعمل في صحته ولم تكتب عليه سيئة »[1] وفيه أيضاً : « أن المؤمن إذا رد لأرذل العمر كتب له ما كان يعمل في قوته وذلك أجر غير ممنون » وممنوع مقطوع ، أي محسوب يمن به عليهم . والخطاب في (فما يكذبك) للإنسان الكافر قاله الجمهور . أي ما الذي يكذبك أي يجعلك مكذباً بالدين تجعل لله أنداداً وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل . وقال قتادة والأخفش والفراء : قال الله لرسوله ـ ﷺ ـ فإذا الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبر التي توجب النظر فيها صحة ما قلت (أليس الله بأحكم الحاكمين) وعيد للكفار وإخبار بعدله تعالى .

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في المجمع ١٠ /٢٠٧ ـ ٢٠٨ باب فيمن طال عمره من المسلمين وعزاه لأبي يعلى .

سورة العلق مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

السَّفْع : قال المبرد : الجذب بشدة ، وسفع بناصية فرسه : جذب ، قال عمرو بن معد يكرب :

قَــوْمٌ إِذَا كَـثُــرَ الصِّـيَــاحُ رَأَيْتَـهُـمْ   مِنْ بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أَوْ سَافِـعِ(١)

وقال مؤرج : معناه الأخذ بلغة قريش . النادي والندى ، المجلس ، ومنه قول الأعرابية سيد ناديه وثمال عافيه ، وقال زهير :

وَفِيهِمْ مَقَـامَـاتٌ حِسَــانٌ وُجُـوهُهُمْ   وَأَنْـدِيَـةٌ يَنْتَـابُهَـا الْقَـوْلُ وَالْفِعْـلُ(٢)

الزبانية : ملائكة العذاب ، فقيل : جمع لا واحد له من لفظه كعباديد . وقيل : واحدهم زبنية على وزن حدرية وعفرية ، قاله أبو عبيدة . وقال الكسائي : زبنى وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير للنسب كقولهم إنسي وأصله زباني . قال عيسى بن عمر والأخفش : واحدهم زابن ، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه ، ومنه قول الشاعر :

وَمُسْتَعْجِب مِمَّــا يَـرى مِنْ أَنَــاتِنَــا   وَلَـوْ زَبَنَتْـهُ الْحَـرْبُ لَمْ يَتَـرَمْـرَمِ(٣)

وقال عتبة بن أبي سفيان : وقد زبنتنا الحرب وزبناها .

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما

---

(١) البيت من الكامل انظر الديوان ١٤٥ .

(٢) البيت من الطويل انظر الديوان ١١٣ اللسان (قوم) .

(٣) البيت من الطويل لأوس بن حجر وانظر المحتسب ٢ /١٠٨ اللسان (رمم) .

لم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ هذه السورة مكية . وصدرها أول ما نزل من القرآن وذلك في غار حراء على ما ثبت في صحيح البخاري وغيره ، وقول جابر أول ما نزل المدثر ، وقول أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أول ما نزل الفاتحة لا يصح . وقال الزمخشري : عن ابن عباس ومجاهد : هي أول سورة نزلت . وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم . انتهى . ولما ذكر فيما قبلها خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم ذكر ما عرض له بعد ذلك ذكره هنا منبهاً على شيء من أطواره وذكر نعمته عليه ثم ذكر طغيانه بعد ذلك وما يؤول إليه حاله في الآخرة . وقرأ الجمهور (اقرأ) بهمزة ساكنة ، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم بحذفها كأنه على قول من يبدل الهمزة بمناسب حركتها فيقول قرأ يقرأ كسعى يسعى فلما أمر منه قيل (اقر) بحذف الألف ، كما تقول : اسع ، والظاهر تعلق الباء بـ (اقرأ) وتكون للاستعانة ، ومفعول (اقرأ) محذوف ، أي : اقرأ ما يوحى إليك ، وقيل : (باسم ربك) هو المفعول وهو المأمور بقراءته ، كما تقول : اقرأ الحمد لله . وقيل : المعنى اقرأ في أول كل سورة وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم . وقال الأخفش : الباء بمعنى على أي : اقرأ على اسم الله ، كما قالوا في قوله ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله ﴾ [هود ٤١] أي على اسم الله . وقيل : المعنى اقرأ القرآن مبتدئاً باسم ربك . وقال الزمخشري : محل (باسم ربك) النصب على الحال ، أي : اقرأ مفتتحاً باسم ربك قل بسم الله ثم اقرأ انتهى . وهذا قاله قتادة ، المعنى : اقرأ ما أنزل عليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك . وقال أبو عبيدة : الباء صلة والمعنى : اذكر ربك . وقال أيضاً : الاسم صلة ، والمعنى اقرأ بعون ربك وتوفيقه ، وجاء (باسم ربك) ولم يأت بلفظ الجلالة ، لما في لفظ الرب من معنى الذي رباك ونظر في مصلحتك . وجاء الخطاب ليدل على الاختصاص والتأنيس . أي ليس لك رب غيره . ثم جاء بصفة الخالق ، وهو المنشىء للعالم ، لما كانت العرب تسمى الأصنام أرباباً أتى بالصفة التي لا يمكن شركة الأصنام فيها . ولم يذكر متعلق الخلق أولا فالمعنى أنه قصد إلى استبداده بالخلق فاقتصر أو حذف إذ معناه خلق كل شيء ، ثم ذكر خلق الإنسان وخصه من بين المخلوقات ، لكونه هو المنزل إليه ، وهو أشرف . قال الزمخشري : أشرف ما على الأرض ، وفيه دسيسة أن الملك أشرف . وقال : ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان كما قال ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ﴾ [الرحمن ١ ، ٢ ، ٣] فقيل : الذي خلق مبهماً ثم فسره بقوله (خلق) تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته انتهى . و (الإنسان) هنا اسم جنس . و (العلق) جمع علقة فلذلك جاء (من علق) وإنما ذكر من (خلق) (من علق) لأنهم مقرون به ولم يذكر أصلهم آدم ، لأنه ليس متقرراً عند الكفار فيسبق الفرع . وترك أصل الخلقة ، تقريباً لأفهامهم . ثم جاء الأمر ثانياً تأنيساً كأنه قيل امض لما أمرت به وربك ليس مثل هذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص . و (الأكرم) صفة تدل على المبالغة في الكرم إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى ، ويحلم على الجاني ويقبل التوبة ، ويتجاوز عن السيئة ، وليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال (الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على أفضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به . ولبعضهم في الأقلام :

وَرَوَاقِمٌ رُقْشٌ كَمِثْلِ أَرَاقِمٍ ... قَطفَ الْخَطَانِيَا لَهُ أَقْصَى الْمَدَى

سُودُ الْقَوَائِمِ مَا يَجِدُّ مَسِيرُهَا ... إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بيضُ الْمُدَى

انتهى . من كلام الزمخشري ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة لله تعالى الأكرم ، والرشيد ، وفخر السعداء ، وسعيد السعداء ، والشيخ الرشيد فيا لها مخزية على من يدعوهم بها يجدون عقابها يوم عرض الأقوال والأفعال ومفعولا (عَلَّم) محذوفان ، إذ المقصود إسناد التعليم إلى الله تعالى وقدر بعضهم (الذي علم) الخط (بالقلم) وهي قراءة تعزى لابن الزبير ، وهي عندي على سبيل التفسير لا على أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف ، والظاهر أن المعلم كل من كتب بالقلم ، وقال الضحاك إدريس . وقيل : آدم لأنه أول من كتب . (والإنسان) في قوله (علم الإنسان) الظاهر : أنه اسم الجنس . عدد عليه اكتساب العلوم بعد الجهل بها . وقيل : الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ (كلا إن الإنسان ليطغى) نزلت بعد مدة في أبي جهل ناصب رسول الله ـ ﷺ ـ العداوة ونهاه عن الصلاة في المسجد فروي أنه قال لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه فيروى : «أن رسول الله ـ ﷺ ـ رد عليه وانتهره وتوعده فقال أبو جهل أيتوعدني محمد والله ما بالوادي أعظم نادياً مني » ، ويروى « أنه همّ أن يمنعه من الصلاة فكف عنه » . (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يتقدّم ذكره ، لدلالة الكلام عليه (إن الإنسان ليطغى) أي يجاوز الحد (إن رآه استغنى) الفاعل ضمير الإنسان وضمير المفعول عائد عليه و (رأى) هنا من رؤية القلب يجوز أن يتحد فيها الضميران متصلين فتقول رأيتني صديقك ، وفقد وعدم بخلاف غيرها . فلا يجوز زيد ضربه وهما ضميرا زيد ، وقرأ الجمهور (إن رآه) بألف بعد الهمزة وهي لام الفعل . وقنبل بخلاف عنه بحذف الألف ، وهي رواية ابن مجاهد عنه ، قال : وهو غلط لا يجوز وينبغي أن لا يغلطه ، بل يتطلب له وجهاً ، وقد حذفت الألف في نحو من هذا ، قال :

وصَّاني العجَّاج فيما وَصَّني

يريد وصاني ، فحذف الألف وهي لام الفعل وقد حذفت في مضارع (رأى) في قولهم أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة ، وهو حذف لا ينقاس لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها . (إن إلى ربك الرجعى) أي الرجوع مصدر على وزن فُعْلى ، الألف فيه للتأنيث ، وفيه وعيد للطاغي المستغني ، وتحقير لما هو فيه من حيث مآله إلى البعث والحساب والجزاء على طغيانه . (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) تقدم أنه أبو جهل ، قال ابن عطية : ولم يختلف أحد من المفسرين أن الناهي أبو جهل وأن العبد المصلي هو محمد رسول الله ـ ﷺ ـ انتهى . وفي الكشاف : وقال الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة . وقال التبريزي : المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر . قيل : جماعة أقيمت في الإسلام ، كان معه أبو بكر وعليّ وجماعة من السابقين فمرّ به أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال له صل جناح ابن عمك وانصرف مسروراً ، وأنشأ أبو طالب يقول :

إنَّ عَـلِيًّـا وَجَـعْـفَـراً ثِـقَـتـي ... عِـنْـدَ مُلِمِّ الـزَّمَـانِ وَالْكَـرَبِ
وَاللَّهِ لَا أَخْـذُلُ الـنَّـبِـيَّ وَلَا ... يَخْـذُلُهُ مَنْ يَكُـونُ مِنْ حَسبِي
لا تَخْـذُلَا وَانْصُـرَا ابْنَ عَمِّكُـمَـا ... أَخِـي لِأُمِّي مِـنْ بَـيْنِهِـمْ وَأَبِي

ففرح رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك ، والخطاب في (أرأيت) الظاهـر أنه للرسول ـ ﷺ ـ وكذا (أرأيت) الثـاني ، والتناسق في الضمائر هو الذي يقتضيه النظم ، وقيل (أرأيت) خطاب للكافر التفت إلى الكافر ، فقال (أرأيت) يا كافر ان كانت صلاته هدى ، ودعاء إلى الله ، وأمراً بالتقوى ، أتنهاه مع ذلك . والضمير في (إن كان) وفي (إن كذب) عائد على الناهي ، قال الزمخشري : ومعناه أخبرني عن من ينهي بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله وكان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد وكذلك إن كان على التكذيب

للحق والتولي عن الدّين الصحيح كما نقول نحن (ألم يعلم بأن الله يرى) ويطلع على أحواله من هداة وضلالة فيجازيه على حسب ذلك وهذا وعيد . انتهى . وقال ابن عطية : الضمير في (إن كان على الهدى) عائد على المصلي ، وقاله الفراء وغيره . قال الفراء : المعنى : أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى وآمر بالتقوى والناهي مكذب متولي عن الذكر أي فما أعجب هذا ألم يعلم أبو جهل بأن الله تعالى يراه ويعلم فعله فهذا تقرير وتوبيخ . انتهى . وقال : من جعل الضمير في (إن كان) عائداً على المصلي إنما ضم إلى فعل الصلاة الأمر بالتقوى لأن أبا جهل كان يشق عليه من رسول الله ـ ﷺ ـ أمران ، الصلاة والدعاء إلى الله تعالى . ولأنه كان ـ ﷺ ـ لا يوجد إلا في أمرين ، إصلاح نفسه . بفعل الصلاة ، وإصلاح غيره بالأمر بالتقوى . وقال ابن عطية : (ألم يعلم بأن الله يرى) إكمال التوبيخ ، والوعيد بحسب التوفيقات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها يجاء بها في نسق ثم جاء بالوعيد الكافي بجميعها اختصاراً واقتضاباً ، ومع كل تقرير تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها (ألم يعلم) دال عليها مغن ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما متعلق (أرأيت) ؟ (قلت :) (الذي ينهى) مع الجملة الشرطية ، وهما في موضع المفعولين . (فإن قلت :) فأين جواب الشرط (قلت :) هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني (فإن قلت :) فكيف صح أن يكون (ألم يعلم) جواباً للشرط ؟ (قلت :) كما صح في قولك : إن أكرمتك أتكرمني وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه (فإن قلت :) فما (أرأيت) الثانية وتوسطها بين مفعولي (أرأيت) ؟ (قلت :) هي زائدة مكررة للتوكيد . انتهى . وقد تكلمنا على أحكام (رأيت) بمعنى أخبرني في غير موضع منها التي في سورة الأنعام وأشبعنا الكلام عليها في شرح التسهيل ، وما قرره الزمخشري هنا ليس بجار على ما قررناه فمن ذلك أن ادعى أن جملة الشرط في موضع المفعول الواحد والموصول هو الآخر ، وعندنا أن المفعول الثاني لا يكون إلا جملة استفهامية كقوله ﴿أفرأيت الذي تولى﴾[النجم ٣٣ ، ٣٤، ٣٥]وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب﴾[مريم ٧٧ ، ٧٨] ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه ﴾[الواقعة ٥٨ ، ٥٩] وهو كثير في القرآن فتخرج هذه الآية على ذلك القانون ويجعل مفعول (أرأيت) الأولى هو الموصول وجاء بعده (أرأيت) وهي تطلب مفعولين و (أرأيت) الثانية كذلك ، فمفعول (أرأيت) الثانية والثالثة محذوف يعود على (الذي ينهى) فيهما أو على (عبداً) في الثانية (وعلى الذي ينهى) في الثالثة على الاختلاف السابق في عود الضمير . والجملة الاستفهامية توالى عليها ثلاثة طوالب . فنقول : حذف المفعول الثاني لـ (أرأيت) وهو جملة الاستفهام الدال عليه الاستفهام المتأخر لدلالته عليه حذف مفعول (أرأيت) الأخير لدلالة مفعول (أرأيت) الأولى عليه وحذفا معاً لـ (أرأيت) الثانية لدلالة الأولى على مفعولها الأول ولدلالة الآخر لـ (أرأيت) الثالثة على مفعولها الآخر وهؤلاء الطوالب ليس طلبها على طريق التنازع ، لأن الجمل لا يصح إضمارها وإنما ذلك من باب الحذف في غير التنازع ، وأما تجويز الزمخشري وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء فلا أعلم أحداً أجازه بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه مّا ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة شعر . (كلا) ردع لأبي جهل ومن في طبقته عن نهي عباد الله عن عبادة الله ، (لئن لم ينته) عن ما هو فيه وعيد شديد (لنسفعا) أي لنأخذن (بالناصية) وعبر بها عن جميع الشخص أي سحباً إلى النار لقوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن ٤١] واكتفى بتعريف العهد عن الإضافة إذ علم أنها ناصية الناهي . وقرأ الجمهور بالنون الخفيفة وكتبت بالألف باعتبار الوقف إذ الوقف عليها بإبدالها ألفاً وكثر ذلك حتى صارت روياً فكتبت ألفاً كقوله :

وَمَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فَزَارَةُ تَمْنَعَا

وقال آخر :

يَحْسَبُهُ الجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا

ومحبوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو بالنون الشديدة ، وقيل : هو مأخوذ من سفعته النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى حال شديد . وقال التبريزي : قيل : أراد لنسودن وجهه من السفعة وهي السواد ، وكفت من الوجه لأنها في مقدمه . وقرأ الجمهور (ناصية خاطئة) بجر الثلاثة على أن (ناصية) بدل نكرة من معرفة . قال الزمخشري : لأنها وصفت فاستقلت بفائدة . انتهى . وليس شرطاً في إبدال النكرة من المعرفة أن توصف عند البصريين خلافاً لمن شرط ذلك من غيرهم ولا أن يكون من لفظ الأول أيضاً خلافاً لزاعمه . وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي بنصب الثلاثة على الشتم . والكسائي في رواية ببعض رفعها أي هي ناصية كاذبة خاطئة . وصفها بالكذب والخطأ مجازاً والحقيقة صاحبها ، وذلك أحرى من أن يضاف فيقال : ناصية كاذب خاطىء لأنها هي المحدث عنها في قوله (لنسفعا بالناصية) ، (فليدع ناديه) إشارة إلى قول أبي جهل : وما « بالوادي أكبر نادياً مني» . والمراد أهل النادي . وقال جرير :

لَهُمْ مَجْلِسٌ صهْبُ السِّبَالِ أَذِلَّةٌ

أي : أهل مجلس، ولذلك وصف بقوله صهب السبال أذلة وهو أمر تعجبي أي لا يقدره الله على ذلك . « ولو دعا ناديه لأخذته الملائكة عياناً » . وقرأ الجمهور (سَنَدْعُ) بالنون مبنياً للفاعل . وكتبت بغير واو لأنها تسقط في الوصل لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن أبي عبلة (سَيُدْعَى) مبنياً للمفعول (الزبانيةُ) رفع ، (كَلَّا) ردع لأبي جهل ورد عليه في (لا تطعه) أي : لا تلتفت إلى نهيه وكلامه . (واسجد) أمر له بالسجود . والمعنى : دم على صلاتك وعبر عن الصلاة بأفضل الأوصاف التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى (واقترب) وتقرب إلى ربك ، وثبت في الصحيحين : سجود رسول الله ـ ﷺ ـ في إذا السماء انشقت ، وفي هذه السورة ، وهي من العزائم عند علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكان مالك يسجد فيها في خاصية نفسه .

سورة القدر مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

هذه السورة مدنية في قول الأكثر ، وحكى الماوردي عكسه ، وذكر الواحدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة وفي الحديث : أن أربعة عبدوا الله تعالى ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين ، أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع فعجب الصحابة من ذلك فقرأ (إنا أنزلناه في ليلة القدر) السورة فسروا بذلك[1] . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة . لما قال (اقرأ باسم ربك) فكأنه قال : اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا (إنا أنزلناه في ليلة القدر) والضمير عائد على ما دل عليه المعنى ، وهو ضمير القرآن . قال ابن عباس وغيره : أنزله الله تعالى ليلة القدر إلى سماء الدنيا جملة ثم نجمه على محمد - ﷺ - في عشرين سنة . وقال الشعبي وغيره : إنا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك في ليلة القدر . وروي « أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان » . وقيل : المعنى إنا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفضلها ، ولما كانت السورة من القرآن جاء الضمير للقرآن ، تفخيماً وتحسيناً فليست ليلة القدر ظرفاً للنزول بل على نحو قول عمر رضي الله تعالى عنه لقد خشيت أن ينزل فيَّ قرآن . وقول عائشة : لأنا أحقر في نفسي من أن ينزل فيَّ قرآن . وقال الزمخشري : عظم من القرآن من إسناد إنزاله إلى مختصاً به ومن مجيئه بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة ، والاستغناء عن التنبيه عليه ، وبالرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه . انتهى . وفيه بعض تلخيص . وسميت ليلة القدر ، لأنه تقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ، وتدفع إلى الملائكة لتمتثله ، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وقال الزهري : معناه ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن من قولك رجل له قدر ، وقال أبو بكر الوراق : سميت بذلك ، لأنها تكسب من أحياها قدراً عظيماً لم يكن له قبل وترده عظيماً عند الله تعالى . وقيل : سميت بذلك ، لأن كل العمل فيها له قدر وخطر . وقيل : لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر لأمة ذات قدر ، لأنه ينزل فيها ملائكة ذات قدر وخطر . وقيل : لأنه قدر فيها الرحمة على المؤمنين ، وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ [الطلاق ٧] أي ضيق وقد اختلف السلف والخلف في تعيين وقتها اختلافاً متعارضاً جداً ، وبعضهم قال : رفعت والذي يدل عليه الحديث أنها لم ترفع وأن العشر الأخير تكون فيه وأنها في أوتاره كما قال عليه الصلاة والسلام « التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة » . وفي الصحيح « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . (وما أدراك ما ليلة القدر) تفخيم لشأنها ، أي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٦/٢٧١ وعزاه لابن أبي حاتم عن علي بن عروة .

لم تبلغ درايتك غاية فضلها ، ثم بين له ذلك ، قال سفيان بن عيينة : ما كان في القرآن (وما أدراك) فقد أعلمه وما قال (وما يدريك) فإنه لم يعلمه . قيل : وأخفاها الله تعالى عن عباده ، ليجدوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويقصروا في غيرها . والظاهر أن ألف شهر يراد به حقيقة العدد وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام والحسن : في ليلة القدر أفضل من العمل في هذه الشهور . والمراد خير من ألف شهر عار من ليلة القدر وعلى هذا أكثر المفسرين ، وقال أبو العالية : خير من ألف شهر رمضان لا يكون فيها ليلة القدر . وقيل : المعنى خير من الدهر كله لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها قال تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة ٩٦] يعني جميع الدهر وعوتب الحسن بن عليّ على تسليمه الأمر لمعاوية فقال : إن الله تعالى أري في المنام نبيه ـ ﷺ ـ بني أمية ينزون على مقبرة نزو القردة فاهتم لذلك فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وهي خير من مدة ملوك بني أمية وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان . قال القاسم بن الفضل الجذامي : فعددنا ذلك فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً وخرج قريباً من معناه الترمذي وقال حديث غريب انتهى . وقيل : آخر ملوكهم مروان الجعدي في آخر القدر من الزمان ولا يعارض هذا تملك بني أمية في جزيرة الأندلس مدة غير هذه لأنهم إنما كانوا في بعض أطراف الأرض وآخر عمارة العرب بحيث كان في إقليم العرب إذ ذاك ملوك كثيرون غيرهم وذكر أيضاً في تخصيص هذه المدة « أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت أعمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي » وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد . وقال أبو بكر الوراق : ملك كل من سليمان وذي القرنين خمسمائة سنة فصار ألف شهر فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما . (تنزل الملائكة والروح) تقدم الخلاف في الروح أهو جبريل أم رحمة ينزل بها أم ملك غيره ؟ أم أشراف الملائكة ؟ أم جند من غيرهم ؟ أم حفظة على غيرهم من الملائكة . والتنزيل إما إلى الأرض وإما إلى سماء الدنيا ، (بإذن ربهم) متعلق بـ (تنزل) (من كل أمر) متعلق بـ (تنزل) و (من) للسبب أي تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل ، و (سلام) مستأنف خبر للمبتدأ الذي هو (هي) أي هي سلام إلى أول يومها ، قاله أبو العالية ونافع المقري والفراء وهذا على قول من قال : إن تنزلهم لتقدير الأمور لهم ، وقال أبو حاتم (من) بمعنى الباء ، أي : بكل أمر وابن عباس وعكرمة والكلبي : من كل امرىء أي من أجل كل إنسان . وقيل : يراد بكل امرىء الملائكة ، أي من كل ملك تحية على المؤمنين العاملين بالعبادة . وأنكر هذا القول أبو حاتم سلام هي أي هي سلام جعلها سلاماً لكثرة السلام فيها . قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة . وقال منصور والشعبي : سلام بمعنى التحية أي تسلم الملائكة على المؤمنين ، ومن قال تنزلهم ليس لتقدير الأمور في تلك السنة جعل الكلام تاماً عند قوله (بإذن ربهم) ، وقال (من كل) أمر متعلق بقوله (سلام هي) أي من كل أمر مخوف ينبغي أن يسلم منه هي سلام ، وقال مجاهد : لا يصيب أحداً فيها داء . وقال صاحب اللوامح : وقيل معناه هي سلام من كل أو أمري سالمة أومسلمة منه ولا يجوز أن يكون (سلام) بهذه اللفظة الظاهرة التي هي المصدر عاملاً فيما قبله لامتناع تقدم معمول المصدر على المصدر كما أن الصلة كذلك لا يجوز تقديمها على الموصول انتهى . وعن ابن عباس : تم الكلام عند قوله (سلام) ولفظة (هي) إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة انتهى . ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى . وقرأ الجمهور (مُطلَع) بفتح اللام . وأبو رجاء والأعمش وابن وثاب وطلحة وابن محيصن والكسائي وأبو عمرو بخلاف عنه بكسرها . فقيل : هما مصدران في لغة بني تميم . وقيل : المصدر بالفتح وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

هذه السورة مكية في قول الجمهور . وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار مدنية . قاله ابن عطية . وفي كتاب التحرير : مدنية ، وهو قول الجمهور . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أنها مكية ، واختاره يحيى بن سلام . ولما ذكر إنزال القرآن وفي السورة التي قبلها ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق ١] ذكر هنا أن الكفار لم يكونوا منفكين عن ما هم عليه حتى جاءهم الرسول يتلو عليهم ما أنزل عليه من الصحف المطهرة التي أمر بقراءتها وقسم الكافرين هنا إلى أهل كتاب وأهل إشراك .
وقرأ بعض القراء (والمشركون) رفعا عطفاً على (الذين كفروا) ، والجمهور بالجر عطفاً على (أهل الكتاب) و (أهل الكتاب) اليهود والنصارى و (المشركون) عبدة الأوثان من العرب . وقال ابن عباس (أهل الكتاب) اليهود الذين كانوا بيثرب هم قريظة والنضير وبنو قينقاع (والمشركون) الذين كانوا بمكة وحولها والمدينة وحولها . قال مجاهد وغيره : لم يكونوا منفكين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة . وقال الفراء وغيره : لم يكونوا منفكين عن معرفة صحة نبوّة محمد ـ ﷺ ـ والتوكف لأمره حتى جاءتهم البينة فتفرقوا عند ذلك . وقال الزمخشري : كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث لا ننفك ما نحن فيه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ـ ﷺ ـ فحكى الله ما كانوا يقولونه . وقال ابن عطية : ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى : وذلك أنه يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة ويتم على من آمن النعمة فكأنه قال ما كانوا ليتركوا سدى ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى . انتهى . وقيل : لم يكونوا منفكين عن حياتهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة . والظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين أي منفصلاً بعضهم من بعض بل كان كل منهم مقرّاً الآخر على ما هو عليه مما اختاره لنفسه هذا من اعتقاده في شريعته وهذا من اعتقاده في أصنامه والمعنى أنه اتصلت مودّتهم

واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البينة وقيل معنى (منفكين) هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة وأن ينفصل فلا يلتئم والمعنى لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب . انتهى . و (منفكين) اسم فاعل من انفك وهي التامة ، وليست الداخلة على المبتدأ والخبر . وقال بعض النحاة : هي الناقصة ، ويقدر (منفكين) عارفين أمر محمد ـ ﷺ ـ أو نحو هذا وخبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه لا اقتصاراً ولا اختصاراً نص على ذلك أصحابنا ولهم علة في منع ذلك ذكروها في علم النحو وقالوا في قوله حين ليس مجير أي في الدنيا . فحذف الخبر أنه ضرورة والبينة الحجة الجليلة ، وقرأ الجمهور (رسول) بالرفع بدلاً من (البينة) وأبيّ وعبد الله بالنصب حالاً من (البينة) (يتلو صحفاً) أي قراطيس مطهرة من الباطل فيها كتب مكتوبات قيمة مستقيمة ناطقة بالحق (وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب) أي من المشركين وانفصل بعضهم من بعض فقال كل ما يدل عنده على صحة قوله (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وكان يقتضي مجيء البينة أن يجتمعوا على اتباعها ، وقال الزمخشري : كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ـ ﷺ ـ وقال أيضاً : أفرد أهل الكتاب يعني في قوله (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) بعد جمعهم (والمشركين) قيل : لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف ، والمراد بتفرقهم : تفرقهم عن الحق أو تفرقهم فرقاً فمنهم من آمن ومنهم من أنكر . وقال ليس به ومنهم من عرف وعاند ، وقال ابن عطية : ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد ـ ﷺ ـ إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته فلما جاء من العرب حسدوه انتهى . وقرأ الجمهور (مخلِصين) بكسر اللام و (الدين) منصوب به والحسن بفتحها أي : يخلصون هم أنفسهم في نياتهم وانتصب (الذين) إما على المصدر من (ليعبدوا) أي ليدينوا الله بالعبادة الدين ، وإما على إسقاط في أي في الدين والمعنى : وما أمروا أي في كتابيهما بما أمروا به إلا ليعبدوا (حنفاء) أي مستقيمي الطريقة . وقال محمد بن الأشعث الطالقاني (القيمة) هنا الكتب التي جرى ذكرها كأنه لما تقدم لفظ قيمة نكرة كانت الألف واللام في القيمة للعهد كقوله تعالى ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ [المزمل ١٥ ، ١٦] ، وقرأ عبد الله (وذلك الدين القيمة) فالهاء في هذه القراءة للمبالغة ، أو أنث على أن عني بالدين الملة ، كقوله : ما هذه الصوت يريد ما هذه الصيحة ، وذكر تعالى مقر الأشقياء وجزاء السعداء و (البرية) جميع الخلق . وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع (البرئة) بالهمز من برأ بمعنى خلق . والجمهور بشد الياء ، فاحتّمل أن يكون أصله الهمز ثم سهل بالإبدال وأدغم ، واحتمل أن يكون من البراء وهو التراب ، قال ابن عطية : وهذا الاشتقاق يجعل الهمزة خطأً ، وهو اشتقاق غير مرضي ويعني اشتقاق البرية بلا همز من البرا وهو التراب فلا يجعله خطأً بل قراءة الهمزة مشتقة من برأ وغير الهمز من البرا والقراءتان قد تختلفان في الاشتقاق نحو أو ننساها ﴿ أو ننسها ﴾ [البقرة ١٠٦] فهو اشتقاق مرضي وحكم على الكفار من الفريقين بالخلود في النار وبكونهم شر البرية . وبدأ بأهل الكتاب ، لأنهم كانوا يطعنون في نبوته وجناياتهم أعظم ، لأنهم أنكروه مع العلم به و (شر البرية) ظاهره العموم ، وقيل : (شر البرية) الذين عاصروا الرسول ـ ﷺ ـ إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر من هؤلاء كفرعون وعاقر ناقة صالح . وقرأ الجمهور (خير البرية) مقابل (شر البرية) وحميد وعامر بن عبد الواحد (خيار البرية) جمع خير كجيِّد وجياد وبقية السورة واضحة وتقدم شرح ذلك إفراداً وتركيباً .

سورة الزلزلة مدنية وهي ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

الذرّة : النملة صغيرة حمراء رقيقة . ويقال : إنها أصغر ما تكون إذا مضى لها حول . وقال امرؤ القيس :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ ... مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْأَتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وقيل : الذرّة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء . ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يومئذ تحدّث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ هذه السورة مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاء . مدنية في قول قتادة ومقاتل ، لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة . ولما ذكر فيها قبلها كون الكفار يكونون في النار ، وجزاء المؤمنين فكأن قائلاً قال متى ذلك ؟ فقال (إذا زلزلت الأرض زلزالها) ، قيل : والعامل فيها مضمر يدل عليه مضمون الجمل الآتية تقديره تحشرون . وقيل : اذكر ، وقال الزمخشري : « تحدث » انتهى . وأضيف الزلزال إلى الأرض ، إذ المعنى زلزالها الذي تستحقه ، ويقتضيه جرمها وعظمها ، ولو لم يضف لصدق على كل قدر من الزلزال وإن قل . والفرق بين أكرمت زيداً كرامة وكرامته واضح . وقرأ الجمهور (زِلزالها) بكسر الزاي والجحدري وعيسى بفتحها ، قال ابن عطية : « وهو مصدر كالوسواس » وقال الزمخشري : « المكسور مصدر والمفتوح اسم وليس في الأبنية فَعْلال بالفتح إلا في المضاعف » انتهى . أما قوله : « والمفتوح اسم » فجعله غيره مصدراً جاء على فعلال بالفتح . ثم قيل : قد يجيء بمعنى اسم الفاعل[1] فتقول فَضْفَاض في معنى مُفَضْفِض وصَلْصَال في معنى مُصَلصِل وأما قوله « وليس في الأبنية » إلخ فقد وجد فيها فَعْلال بالفتح من غير المضاعف . قالوا : ناقة بها خَزْعَال بفتح الخاء وليس بمضاعف (وأخرجت الأرض أثقالها) جعل ما في بطنها أثقالاً . وقال النقاش والزجاج والقاضي منذر بن سعيد . (أثقالها) كنوزها وموتاها . ورد بأن الكنوز إنما تخرج وقت الدجال لا يوم القيامة . وقائل ذلك يقول هو الزلزال يكون في الدنيا وهو من أشراط الساعة ، وزلزال يوم القيامة كقوله

---

(١) قول ابن حبان (ثم قيل قد يجيء بمعنى اسم الفاعل ، قال ابن مالك في التسهيل (٢٠٦) وفتح أول هذا ـ يعني مصدر فعلل إن كان كالزلزال جائز ، والغالب أن يراد به حينئذ اسم فاعل .

﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات ٦ ، ٧] فلا يرد عليه بذلك إذ قد أخذ الزلزال عاماً باعتبار وقتيه . ففي الأول أخرجت كنوزها ، وفي الثاني أخرجت موتاها . وصدقت أنها زلزلت زلزالها . وأخرجت أثقالها . وقيل : أثقالها : كنوزها . ومنه قوله : « تلقى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة » . وقال ابن عباس « موتاها » وهو إشارة إلى البعث وذلك عند النفخة الثانية ، فهو زلزال يوم القيامة لا الزلزال الذي هو من الأشراط ، (وقال الإنسان مالها) يعني معنى التعجب لما يرى من الهول . والظاهر عموم الإنسان . وقيل : ذلك الكافر ، لأنه يرى ما لم يقع في ظنه قط ، ولا صدقه ، والمؤمن وإن كان مؤمناً بالبعث فإنه استهول المرأى ، وفي الحديث « ليس الخبر كالعيان » . قال الجمهور : « الإنسان » : هو الكافر يرى ما لم يظن . (يومئذ) أي : يوم إذ زلزلت وأخرجت (تحدث) (ويومئذ) بدل من (إذا) فيعمل فيه لفظ العامل في المبدل منه أو المكرر على الخلاف في العامل في البدل . (تحدث أخبارها) الظاهر : أنه تحديث وكلام حقيقة بأن يخلق فيها حياة وإدراكاً فتشهد بما عمل عليها من صالح أو فاسد ، وهو قول ابن مسعود والثوري وغيرهما ، ويشهد له ما جاء في الحديث : « بأنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة » . وماجاء في الترمذي[1] عنه ـ ﷺ ـ : « أنه قرأ هذه الآية ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، فقال : إن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا قال فهذه أخبارها » . هذا حديث حسن صحيح غريب . قال الطبري : وقوم التحديث مجاز عن إحداث الله تعالى فيها الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينادون به ويحدثون عنه . وقال يحيى بن سلام : « تحدث بما أخرجت من أثقالها » . وهذا هو قول من زعم أن الزلزلة هي التي من أشراط الساعة . وفي سنن ابن ماجة حديث في آخره : تقول الأرض يوم القيامة يا رب هذا ما استودعتني » . وعن ابن مسعود : « تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالها فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى ، فيكون ذلك جواباً لهم عند سؤالهم » و (تحدث) هنا تتعدى إلى اثنين ، والأول محذوف أي : تحدث الناس وليست بمعنى أعلم المنقولة من علم المتعدية إلى اثنين فتتعدى إلى ثلاثة (بأن ربك أوحى لها) أي : بسبب إيحاء الله ، فالباء متعلقة بـ (تحدث) قال الزمخشري : « ويجوز أن يكون المعنى ؛ يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها (بأن ربك أوحى لها) تحديث بأخبارها ، كما تقول : نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين » انتهى . وهو كلام فيه عفش ينزه القرآن عنه . وقال أيضاً : « ويجوز أن يكون (بأن ربك) بدلاً من (أخبارها) كأنه قيل : يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها ، لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا » انتهى . وإذا كان الفعل تارة يتعدى بحرف جر ، وتارة يتعدى بنفسه وحرف الجر . ليس بزائد . فلا يجوز في تابعه إلا الموافقة في الإعراب فلا يجوز : استغفرت الذنب العظيم . بنصب الذنب وجر العظيم ، لجواز أنك تقول : من الذنب . ولا : اخترت زيداً الرجال الكرام بنصب الرجال وخفض الكرام ، وكذلك لا يجوز أن تقول : استغفرت من الذنب العظيم ، بجر الذنب ونصب العظيم . وكذلك في : اخترت فلو كان حرف الجر زائداً جاز الاتباع على موضع الاسم بشروطه المحررة في علم النحو . تقول : ما رأيت من رجل عاقلاً ، لأن من زائدة ومن رجل عاقل على اللفظ . ولا يجوز نصب رجل وجر عاقل على مراعاة جواز دخول من . وإن ورد شيء من ذلك فبابه الشعر . وعدي أوحى باللام لا بـ (إلى) وإن كان المشهور تعديتها بـ (إلى) لمراعاة الفواصل . قال العجاج يصف الأرض :

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارُ فَاسْتَقَرَّتِ ... وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ[2]

---

(١) أخرجه الترمذي ٤١٦/٣ في التفسير باب ٨٧ (٣٣٥٣) .

(٢) البيت من الرجز انظر ديوانه (٥) المحتسب ٣٣١/٢ .

فعداها باللام . وقيل ؛ الموحى إليه محذوف ، أي : أوحى إلى ملائكته المصرفين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال . واللام في (لها) للسبب ، أي : من أجلها ، ومن حيث الأفعال فيها وإذا كان الإيحاء إليها احتمل أن يكون وحي إلهام واحتمل أن يكون برسول من الملائكة . (يومئذ يصدر الناس) انتصب (يومئذ) بـ (يصدر) والصدر يكون عن ورد . وقال الجمهور : « سو كونهم في الأرض مدفونين » . والصدر : قيامهم للبعث و (أشتاتاً) جمع شت . أي : فرقاً مؤمن وكافر وعاص سائرون إلى العرض (ليروا أعمالهم) ، وقال النقاش : « الصدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار ووردهم هو ورد المحشر » . فعلى الأول . المعنى : ليرى عمله ويقف عليه . وعلى قول النقاش ليرى أجزاء عمله وهو الجنة والنار . والظاهر : تعلق لـ (يروا) بقوله (يصدر) ، وقيل بـ (أوحى) لها وما بينهما اعتراض . وقال ابن عباس : (أشتاتاً) متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حدة وأهل كل دين على حدة » . وقال الزمخشري : (أشتاتاً) بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين » . انتهى . ويحتمل أن يكون (أشتاتاً) أي : كل واحد وحده ، لا ناصر له ، ولا عاضد كقوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ [الأنعام ٩٤] ، وقرأ الجمهور (ليُروا) بضم الياء . والحسن والأعرج وقتادة وحماد بن سلمة والزهري وأبو حيوة وعيسى ونافع في رواية بفتحها . والظاهر تخصيص العامل . أي : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من السعداء ، لأن الكافر لا يرى خيراً في الآخرة . وتعميم (ومن يعمل مثقال ذرة شراً) من الفريقين ، لأنه تقسيم جاء بعد قوله (يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) وقال ابن عباس : « قال هذه الأعمال في الآخرة ، فيرى الخير كله من كان مؤمناً والكافر لا يرى في الآخرة خيراً » ، لأن خيره قد عجل له في دنياه ، والمؤمن تعجل له سيئاته الصغائر في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها ، وما عمل من شر أو خير رآه ، ونبه بقوله (مثقال ذرة) على أن ما فوق الذرة يراه قليلاً كان أو كثيراً ، وهذا يسمى مفهوم الخطاب . وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد بل يكون المسكوت عنه بالأولى في ذلك الحكم كقوله ﴿ ولا تقل لهما أفٍّ ﴾ [الإسراء ٢٣] والظاهر انتصاب (خيراً) و (شراً) على التمييز لأن (مثقال ذرة) مقدار ، وقيل : بدل من (مثقال) . وقرأ الجمهور بفتح الياء فيهما . أي : يرى جزاءه من ثواب وعقاب . وقرأ الحسين بن علي وابن عباس وعبد الله بن مسلم وزيد بن علي والكلبي وأبو حيوة وخليد بن نشيط وأبان عن عاصم والكسائي في رواية حميد بن الربيع عنه بضمها وهشام وأبو بكر بسكون الهاء فيهما . وأبو عمرو بضمهما مشبعتين ، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية ، والإسكان في الوصل لغة حكاها الأخفش ولم يحكها سيبويه ، وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل . وهذه الرؤية رؤية بصر . وقال النقاش : « ليست برؤية بصر وإنما المعنى يصيبه وينالـه » . وقرأ عكرمة (يراه) بالألف فيهما ، وذلك على لغة من يرى الجزم بحذف الحركة المقدرة في حروف العلة . حكاها الأخفش أو على توهم أن (من) موصولة لا شرطية ، كما قيل في ﴿ إنه من يتقي ويصبر ﴾ [يوسف ٩٠] في قراءة من أثبت ياء (يتقي) وجزم (يصبر) توهم أن (مَنْ) شرطية لا موصولة ، فجزم (ويصْبر) عطفاً على التوهم . والله تعالى أعلم .

سورة العاديات مدنية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

العاديات : الجاريات بسرعة . وهو وصف ويأتي في التفسير الخلاف في الموصوف . الضبح : تصويت جهير عند العدو الشديد ، ليس بصهيل ، ولا رغاء ، ولا نباح ، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضبح . وعن ابن عباس : «ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب » . قيل : ولا يصح عن ابن عباس ، لأن الإبل تضبح ، والأسود من الحيات والبوم والصدى والأرنب والثعلب والقوس ، كما استعملت العرب لها الضبح . وأنشد أبو حنيفة في صفة قوس :

حَنَّانَةٌ مِنْ نَشَمٍ أَوْ تَأْلَبِ ⁂ تَضْبَحُ فِي الْكَفِّ ضباح الثَّعْلَبِ[1]

وقال أهل اللغة : « أصله للثعلب فاستعير للخيل وهو من ضبحته النار غيرت لونه ولم تبالغ فيه ، وانضبح لونه ، تغير إلى السواد قليلاً » ، وقال أبو عبيدة : « الضبح والضبع بمعنى العدو الشديد . وكذا قال المبرد : « الضبح : من إضباعها في السير » . القدح : الصك . وقيل : الاستخراج ومنه قدحت العين أخرجت منها الفاسد ، والقداح والقداحة والمقدحة ما تورى به النار ، أغار على العدو : قصده لنهب ، أو قتل ، أو أسر . النقع : الغبار . قال الشاعر :

يُخْرِجْنَ مِنْ مُسْتَطَارِ النَّقْعِ دَامِيَةً ⁂ كَأَنَّ آذانَهَا أَطْرَاقُ أَقْلَامِ[2]

وقال ابن رواحة :

عَدِمْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ⁂ تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنفَيْ كَدَاء[3]

---

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (صبح) .

(٢) البيت من البسيط انظر فتح القدير ٤٨٢/٥ .

(٣) البيت من الوافر انظر فتح القدير ٤٨٢/٥ .

وقال أبو عبيدة : « النقع : رفع الصوت » ، ومنه قول لبيد :

فَمَتَى يَنْقَعْ صُرَاخٌ صَادِقٌ تَحلِبُوهَا ذَاتَ جَرْسٍ وَزَجَلْ[١]

الكنود : الكفور للنعمة . قال الشاعر :

كَنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ كَنُوداً لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ يُبَعَّدِ[٢]

وعن ابن عباس : « الكنود : بلسان كندة وحضرموت العاصي ، وبلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كنانة البخيل السيء الملكة » . وقاله مقاتل . وقال الكلبي مثله إلا أنه قال : « وبلسان بني مالك ، البخيل » ولم يذكر وحضرموت . ويقال كند النعمة كنوداً ، وقال أبو زبيد في البخيل :

إنْ تَفُتْنِي فَلَمْ أطِبْ عَنْكَ نَفْساً غَيْرَ أنِّي أُمْنَى بِدَهْرٍ كَنُودِ[٣]

حصل الشي : جمعه ، وقيل : ميزه من غيره . ومنه قيل للمنخل المحصل ، وحصل الشيء : ظهر واستبان ﴿ **والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ، إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ هذه السورة مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ، مدنية في قول ابن عباس وأنس وقتادة . لما ذكر فيها قبلها ما يقتضي تهديداً ووعيداً بيوم القيامة بتعنيف لمن لا يستعد لذلك اليوم ، ومن آثر أمر دنياه على أمر آخرته ، والجمهور من أهل التفسير واللغة على أن العاديات هنا : الخيل تعدو في سبيل الله وتضبح حالة عدوها ، وقال عنترة :

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَـ ـحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا[٤]

وقال أبو عبد الله وعلي وإبراهيم والسدي ومحمد بن كعب وعبيد بن عمير (العاديات) الإبل ، أقسم بها حين تعدو من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاج . وبأهل غزوة بدر لم يكن فيها غير فرسين فرس للزبير وفرس للمقداد ، وبهذا حج عليّ رضي الله عنه ابن عباس حين تماريا فرجع ابن عباس إلى قول علي رضي الله تعالى عنهما . وقالت صفية بنت عبد المطلب :

فَلاَ وَالْعَادِيَاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِأَيْدِيهَا إذَا سَطَعَ الْغُبَارُ[٥]

وانتصب (ضبحاً) على إضمار فعل ، أي : يضبحن ضبحاً ، أو على أنه في موضع الحال ، أي : ضابحات ، أو على المصدر على قول أبي عبيدة ان معناه : العدو الشديد فهو منصوب بـ (العاديات) وقال الزمخشري : « أو بـ (العاديات) كأنه قيل : والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو » . انتهى . وإذا كان الضبح مع العدو فلا يكون معنى (والعاديات) معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به . (فالموريات قدحاً) والإيراء : إخراج النار ، أي : تقدح

---

(١) البيت من الرمل انظر الكامل ١/٣٣١ اللسان (نقع) .
(٢) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٤٨٣ .
(٣) البيت من الخفيف انظر فتح القدير ٥/٤٨٣ .
(٤) البيت من مجزوء الكامل انظر الكشاف ٤/٩٢٧ ، فتح القدير ٥/٤٨١ ، اللسان (ضبح) .
(٥) البيت من الوافر انظر فتح القدير ٥/٤٨٢ .

بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار لصك بعض الحجار بعضاً . ويقال : قدح فأورى ، وقدح فأصلد ، وتسمى تلك النار التي تقدحها الحوافر ، من الخيل أو الإبل نار الحباحب ، قال الشاعر :

تَقِدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ

وقيل : (فالموريات قدحاً) مجاز أو استعارة في الخيل تشعل الحرب . قاله قتادة . وقال تعالى ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ [المائدة ٦٤] ويقال : حمي الوطيس إذا اشتدّ الحرب . وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم : « الموريات : الجماعة التي تمكر في الحرب والعرب تقوله إذا أرادت المكر بالرجل والله لا يكون ذلك ولأورين لك » . وعن ابن عباس أيضاً : « التي توري نارها بالليل لحاجتها وطعامها » وعنه أيضاً : جماعة الغزاة تكثر النار إرهاباً . وقال عكرمة : ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به ، وتظهر من الحجج والدلائل ، وإظهار الحق وإبطال الباطل » .
(فالمغيرات صبحاً) أي : تغير على العدو في الصبح . ومن قال هي الإبل قال : العرب تقول : أغار إذا عدا جرياً أي من مزدلفة إلى منى ، أو في بدر ، وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب . والظاهر أنها الخيل التي يجاهد عليها العدو من الكفار ، ولا يستدل على أنها الإبل بوقعة بدر وإن لم يكن فيها إلا فرسان ، لأنه لم يذكر أن سبب نزول هذه السورة هو وقعة بدر، ثم بعد ذلك لا يكاد يوجد أن الإبل جوهد عليها في سبيل الله بل المعلوم أنه لا يجاهد في سبيل الله تعالى إلا على الخيل في شرق البلاد وغربها . (فأثرن) معطوف على اسم الفاعل الذي هو صلة أل ، لأنه في معنى الفعل ، إذ تقديره فاللاتي عَدَوْنَ فأغرْن فأثَرْن . وقال الزمخشري : « معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه » انتهى . وتقول أصحابنا هو معطوف على الاسم ، لأنه في معنى الفعل . وقرأ الجمهور (فأَثَرْنَ فوسَّطْنَ) بتخفيف الثاء والسين ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة بشدّهما . وعليّ وزيد بن علي وقتادة وابن أبي ليلى بشدّ السين ، وقال الزمخشري : وقرأ أبو حيوة (فأَثَّرْن) بالتشديد بمعنى : فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة . وقرىء (فوسَّطْن) بالتشديد للتعدية ، والباء مزيدة للتوكيد . كقوله ﴿ وأتوا به ﴾ [البقرة ٢٥] وهي مبالغة في وسطن » انتهى . أما قوله : أو قلب ، فتمحل بارد ، وأما أن التشديد للتعدية ، فقد نقلوا أن وَسَط مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد ، وأنها لغتان . والضمير في (به) عائد في الأول على الصبح . أي : هيجن في ذلك الوقت غباراً . وفي (به) الثاني على الصبح . قيل : أو على النقع ، أي : وسطن النقع الجمع ، فيكون وسطه بمعنى توسطه . وقال علي وعبد الله (فوسطن به جمعاً) أي : الإبل و (جمعاً) اسم للمزدلفة ، وليس بجمع من الناس . وقال بشر بن أبي حازم :

فَوَسَطْنَ جَمْعَهُم وَأَفْلَتَ حَاجِبٌ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ فِي الْغُبَارِ الأَقْتَمِ [1]

وقيل : الضمير في (به) يعود على العدو الدال عليه (والعاديات) أيضاً . وقيل : يعود على المكان الذي يقتضيه المعنى وإن لم يجر له ذكر ، لدلالة (والعاديات) وما بعدها عليه . وقيل : المراد بالنقع هنا : الصياح والظاهر أن المقسم به هو جنس العاديات ، وليست أل فيه للعهد ، والمقسم عليه (إن الإنسان لربه لكنود) وفي الحديث : « الكنود يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده » . وقال ابن عباس والحسن : « هو الجحود لنعمة الله تعالى » وعن الحسن أيضاً : « هو اللائم لربه يعد السيئات وينسى الحسنات » . وقال الفضيل : « هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة

---

(١) البيت من الكامل ، انظر ديوان المفضليات ٦٨٢ الجمهرة (٤٠٢) .

ويعامل الله على عقد عوض » . وقال عطاء : « هو الذي لا يعطي في النائبات مع قومه » . وقيل : البخيل . وقال ابن قتيبة : « أرض كنود لا تنبت شيئاً والظاهر عود الضمير في (وإنه) على (ذلك لشهيد) أي : يشهد على كنوده ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره . وقاله الحسن ومحمد بن كعب . وقال ابن عباس وقتادة : « هو عائد على الله تعالى . أي : وربه شاهد عليه ، وهو على سبيل الوعيد » . وقال التبريزي : هو عائد على الله تعالى وربه شاهد عليه هو الأصح ، لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين ، ويكون ذلك كالوعيد والزجر عن المعاصي » . انتهى . ولا يترجح بالقرب إلا إذا تساويا من حيث المعنى . والإنسان هنا : هو المحدث عنه والمسند إليه الكنود وأيضاً فتناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنى أولى من جعلهما لمختلفين ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين على واحد . (وإنه) أي : وإن الإنسان (لحب الخير) أي : المال (لشديد) أي : قوي في حبه وقيل : لبخيل بالمال ضابط له ، ويقال للبخيل شديد ومتشدد . وقال طرفة :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِـرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَـاحِشِ الْمُتَشَـدِّدِ(١)

وقال قتادة : الخير من حيث وقع في القرآن هو المال . قال ابن عطية : ويحتمل أن يراد هذا الخير الدنيوي من مال وصحة وجـاه عند الملوك ونحوه ، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك ، فأما المحب في خير الآخرة فممدوح مرجو له الفوز » . وقال الفراء : نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير فلما تقدم الحب قال (لشديد) وحذف من آخره ذكر الحب ، لأنه قد جرى ذكره ولرؤوس الآي كقوله تعالى ﴿ في يوم عاصف ﴾ [إبراهيم ١٨] والعصوف للريح لا للأيام كأنه قال في يوم عاصف الريح . انتهى . وقال غيره ما معناه : لأنه ليس أصله ذلك التركيب بل اللام في (الحب) لام العلة ، أي : وإنه لأجل حب المال لبخيل أو وإنه لحب المال وإيثاره قوي مـطيق ، وهو لحب عبـادة الله وشكر نعمـه ضعيف متقاعس ، تقول : هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً ، قال الزمخشري . أو أراد وإنه لحب الخيرات غير هش منبسط ، ولكنه شديد منقبض . (أفلا يعلم) توقيف إلى ما يؤول إليه الإنسان . ومفعول (يعلم) محذوف وهو العامل في الظرف . أي : أفلا يعلم مآله إذا بعثر . وقال الحوفي : (إذا) ظرف مضاف إلى (بعثر) والعامل فيه (يعلم) انتهى . وليس بمتضح ، لأن المعنى : أفلا يعلم الآن . وقرأ الجمهور (بُعْثِرَ) بالعين مبنياً للمفعول . وقرأ عبد الله بالحاء . وقرأ الأسود بن زيد (بحث) وقرأ نصر بن عاصم (بحثر) على بنائه للفاعل وقرأ ابن يعمر ونصر بن عاصم ومحمد بن أبي سعدان (وحُصِّلَ) مبنياً للفاعل . والجمهور مبنياً للمفعول . وقرأ ابن يعمر أيضاً ونصر بن عاصم أيضاً (وَحَصَلَ) مبنياً للفاعل خفيف الصاد . والمعنى : جمع ما في المصحف . أي : أظهر محصلاً مجموعاً . وقيل : ميز وكشف ، ليقع الجزاء عليه ، وقرأ الجمهور (إن) بكسر الهمز (لخبير) باللام . هو استئناف إخبار والعامل في بهم وفي (يومئذ لخبير) وهو تعالى خبير دائماً لكنه ضمن (خبير) معنى مجاز لهم في ذلك اليوم . وقرأ أبو السمال والحجاج بفتح الهمزة وإسقاط اللام . ويظهر في هذه القراءة تسلط (يعلم) على (إن) لكنه لا يمكن إعمال (خبير) في (إذا) لكونه في صلة أن المصدرية لكنه لا يمكن أن يقدر له عامل فيه من معنى الكلام فإنه قال : يجزيهم إذا بعثر . وعلى هذا التقدير ، يجوز أن يكون (يعلم) معلقة عن العمل في قراءة الجمهور وسدت مسد المعمول في (إن) وفي خبرها اللام ظاهر إذ هي في موضع نصب بـ (يعلم) و (إذا) العامل فيها من معنى مضمون الجملة تقديره كما قلنا يجزيهم إذا بعثر .

---

(١) البيت من الطويل انظر شرح المعلقات للزوزني (٩٠) الكشاف ٤/ ٦٢٨ .

سورة القارعة مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

الفراش : قال الفراء : هو الهمج الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد ، ويقال : هو أطيش من فراشة . قال : وقد كان أقوام رددت قلوبهم عليهم وكانوا كالفراش من الجهل . وقيل : فراشة الحلم نفشت الصوف والقطن فرقت ما كان ملبداً من أجزائه .

﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، لأنه ذكر وقت بعثرت القبور ، وذلك هو وقت الساعة وقال الجمهور : القارعة : القيامة نفسها ، لأنها تقرع القلوب بهولها ، وقيل : صيحة النفخة في الصور ، لأنها تقرع الأسماع وفي ضمن ذلك القلوب . وقال الضحاك : هي النار ذات التغيظ والزفير . وقرأ الجمهور (القارعةُ ما القارعةُ) بالرفع فـ (ما) استفهام ، فيه معنى الاستعظام والتعجيب ، وهي مبتدأ و (القارعة) خبره . وتقدم تقرير ذلك في (الحاقة وما الحاقة) وقيل : ذلك في قوله ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة ٨] وقال الزجاج : هو تحذير والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب . قال الشاعر :

أَخُو النَّجْدَةِ السِّلَاح السِّلَاحِ(١)

وقرأ عيسى بالنصب ، وتخريجه على أنه منصوب بإضمار فعل ، أي : اذكروا القارعة . و (ما) زائدة للتوكيد

---

(١) شطر بيت من الخفيف وهو بكماله :

لـجـديـرون بـالـوفـاء إذ قـا ل أخـو الـنجـدة الـسلاح الـسلاح

انظر شواهد الأشموني ١٩٣/٣ .

و (القارعة) تأكيد لفظي للأولى . وقرأ الجمهور (يومَ) بالنصب وهو ظرف . العامل فيه قال ابن عطية (القارعة) فإن كان عنى بالقارعة اللفظ الأول فلا يجوز ، للفصل بين العامل وهو في صلة أل والمعمول بالخبر ، وكذا لو صار (القارعة) علماً للقيامة لا يجوز أيضاً . وإن كان عنى اللفظ الثاني أو الثالث فلا يلتئم معنى الظرف معه . وقال الزمخشري : الظرف نصب بمضمر دل عليه (القارعة) . أي : تقرع (يوم يكون الناس) . وقال الحوفي : تأتي (يوم ،كون) . وقيل : اذكر يوم ، وقرأ زيد بن علي (يوم يكونُ) مرفوع الميم أي : وقتها يوم يكون الناس (كالفراش المبثوث) قال قتادة : هو الطير الذي يتساقط في النار . وقال الفراء : غوغاء الجراد ، وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض يركب بعضه بعضاً من الهول . وقيل : الفراش : طير دقيق يقصد النار ، ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق . شبهوا في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجيء والذهاب على غير نظام ، والتطاير إلى الداعي من كل جهة حتى تدعوهم إلى ناحية المحشر كالفراش المتطاير إلى النار ، قال جرير :

إِنَّ الْفَــرَزْدَقَ مَــا عَلِمْتُ وَقَــوْمَــهُ   مِثْلَ الْفَرَاشِ غَشِيْنَ نَارَ الْمُصْطَلِي[1]

وقرن بين الناس والجبال ، تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالعهن المنفوش فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها . وتقدم الكلام في الموازين وثقلها وخفتها في الأعراف و (عيشة راضية) في الحاقة . (فأمه هاوية) الهاوية : دركة من دركات النار . و (أمه) معناه مأواه ، كما قيل للأرض أم الناس ، لأنها تؤويهم وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب فنحن بنوها وهي أمنا . وقال قتادة وأبو صالح وغيره : فأم رأسه هاوية في قعر جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوساً . وقيل : هو تفاؤل بشر وإذا دعوا بالهلكة قالوا « هوت أمه » ، لأنه إذا هوى ، أي : سقط وهل فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً . قال الشاعر :

هَــوَتْ أُمُّهُ مَــا يَبْعَثُ الصُّبْحَ غَــادِيَــا   وَمَــاذَا يَــرُدُّ الــلَّيْــلَ حِيــنَ يَــؤُوبُ

وقرأ الجمهور (فَأُمُّهُ) بضم الهمزة . وطلحة بكسرهـا . قال ابن خـالويـه : وحكى ابن دريد أنها لغـة . وأما النحويون فإنهم يقولون لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء ، انتهى . (وما أدراك ما هيه) (هي) ضمير يعود على (هاوية) إن كانت كما قيل : دركة من دركات النار معروفة بهذا الاسم ، وإن كانت غير ذلك مما قيل فيها فهي ضمير الداهية التي دل عليها قوله (فأمه هاوية) والهاء في (ماهية) هاء السكت . وحذفها في الوصل ابن أبي إسحق والأعمش وحمزة ، وأثبتها الجمهور (نار) خبر مبتدأ محذوف . أي : هي نار أعاذنا الله منها بمنه وكرمه .

---

(١) البيت من الكامل انظر الديوان ٩٤٣ الكشاف ٤/ ٦٢٩ .

سورة التكاثر مكية وهي ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين . وقال البخاري : مدنية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة وسبب نزولها . أنه فيما روى الكلبي ومقاتل كان بين بني سهم وبين بني عبد مناف لحاء فتعادّوا الأشراف الأحياء أيهم أكثر؟ فكثرهم بنو عبد مناف ، ثم تعادوا الأموات فكثرهم بنو سهم ، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية . وقال قتادة : نزلت في اليهود قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان . وقال ابن زيد : نزلت في بطن من الأنصار . (ألهاكم) شغلكم . فعلى ما روى الكلبي ومقاتل يكون المعنى ، أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات . عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر ، تهكماً بهم . وهذا معنى ينبو عنه لفظ (زرتم) قيل : حتى زرتم ، أي متم وزرتم بأجسادكم مقابرها ، أي : قطعتم بالتكاثر ، والمفاخرة بالأموال ، والأولاد ، والعدد ، أعماركم حتى متم وسمع بعض الأعراب (حتى زرتم) فقال : بعث القوم للقيامة ورب الكعبة فإن الزائر منصرف لا مقيم . وعن عمر بن عبد العزيز نحو من قول الأعرابي . وقيل : هذا تأنيب على الإكثار من زيارة تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره . وكان رسول الله - ﷺ - نهى عن زيارة القبور ثم قال « فزوروها »[1] . أمر إباحة ، للاتعاظ بها ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر . قال ابن عطية : كما يصنع الناس في ملازمتها ، وتسنيمها بالحجارة والرخام ، وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليها . وابن عطية لم ير إلا قبور أهل الأندلس فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنتهم بالقرافة الكبرى ، والقرافة الصغرى ، وباب النصر ، وغير ذلك ، وما يضيع فيها من الأموال لتعجب من ذلك ، ولرأى ما لم يخطر ببال . وأما التباهي بالزيارة ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوف أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور . زرت قبر سيدي فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلاناً بكذا ، والشيخ فلاناً بكذا ، فيذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد ، وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفاراً ، وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه ، وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحسين الظن بهم ، وبذل أموالهم لهم ، وأما من شذ منهم لأن يتكلم للعامة فيأتي بعجائب ، يقولون : هذا فتح

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٦٧٢ في الجنائز باب استئذان النبي - ﷺ - ربه عز وجل في زيارة قبر أمه (٩٧٧/١٠٦) .

هذا من العلم اللدني ، علم الخضر حتى إن من ينتمي إلى العلم لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ، ونقل كثيراً من حكاياتهم ، ومزج ذلك بيسير من العلم طلباً للمال والجاه ، وتقبيل اليد ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته . وقرأ الجمهور (ألهاكم) على الخبر . وابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة بالمد على الاستفهام . وقد روى كذلك عن الكلبي ويعقوب . وعن أبي بكر الصديق وابن عباس أيضاً والشعبي وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في رواية (أألهاكم) بهمزتين . ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقرير على قبح فعلهم . والجمهور على أن التكرير توكيد . قال الزمخشري : والتكرير تأكيد للردع والإنذار و (ثم) دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك لا تفعل والمعنى : سوف تعلمون الخطاب فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى ، وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ (كلا سوف تعلمون) في القبور (ثم كلا سوف تعلمون) في البعث غاير بينهما بحسب التعلق . وتبقى (ثم) على بابها من المهلة في الزمان . وقال الضحاك : الزجر الأول ووعيده للكافرين . والثاني للمؤمنين . (كلا لو تعلمون) أي : ما بين أيديكم مما تقدمون عليه (علم اليقين) أي : كعلم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر . أو العلم اليقين فأضاف الموصوف إلى صفته وحذف الجواب ، لدلالة ما قبله عليه وهو (ألهاكم التكاثر) ، وقيل : (اليقين) هنا الموت . وقال قتادة : البعث ، لأنه إذا جاء زال الشك . ثم قال (لترون الجحيم) والظاهر أن هذه الرؤية هي رؤية الورود ، كما قال تعالى (وإن منكم إلا واردها) ولا تكون رؤية عند الدخول فيكون الخطاب للكفار ، لأنه قال بعد ذلك ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ [مريم ٧١] (ثم ترونها عين اليقين) تأكيد للجملة التي قبلها . وزاد التوكيد بقوله (عين اليقين) نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى . وعن ابن عباس : هو خطاب للمشركين ، فالرؤية رؤية دخول . وقرأ ابن عامر ، والكسائي (لَتُرَوُنَّ) بضم التاء . وباقي السبعة بالفتح . وعليّ وابن كثير في رواية وعاصم في رواية بفتحها في (لَتَرَون) وضمها في (لـتُرُونها) ومجاهد والأشهب وابن أبي عبلة بضمهما . وروي عن الحسن وأبي عمرو بخلاف عنهما أنهما همزا الواوين . استثقلوا الضمة على الواو فهمزوا كما همزوا في ﴿ وقتت ﴾ [المرسلات ١١] وكان القياس أن لا تهمز ، لأنها حركة عارضة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها ، لكنها لما تمكنت من الكلمة بحيث لا تزول أشبهت الحركة الأصلية فهمزوا ، وقد همزوا من الحركة العارضة ما يزول في الوقف نحو استرؤا الصلاة . فهمز هذه أولى . (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) الظاهر العموم في (النعيم) وهو كل ما يتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب . فالمؤمن يسأل سؤال إكرام وتشريف ، والكافر سؤال توبيخ وتقريع ، وعن ابن مسعود والشعبي وسفيان ومجاهد : هو الأمن والصحة . وعن ابن عباس : البدن والحواس فيم استعملها . وعن ابن جبير : كل ما يتلذذ به وفي الحديث : « بيت يكنك وخرقة تواريك وكسرة تشد قلبك وما سوى ذلك فهو نعيم » .

سورة العصر مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

هذه السورة مكية في قول ابن عباس وابن الزبير ، والجمهور . ومدنية في قول مجاهد وقتادة ومقاتل لما قال فيها قبلها (ألهاكم التكاثر) ووقع التهديد بتكرار (كلا سوف تعلمون) بين حال المؤمن والكافر ، (والعصر) قال ابن عباس : هو الدهر يقال فيه عصر وعصر وعصر . أقسم به تعالى ، لما في مروره من أصناف العجائب . وقال قتادة (العصر) العشي أقسم به كما أقسم بالضحى ، لما فيها من دلائل القدرة . وقيل : العصر : اليوم والليلة . ومنه قول حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا انْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا[(١)]

وقيل : العصر بكرة ، والعصر عشية ، وهما الأبردان. فعلى هذا والقول قبله ، يكون القسم بواحد منهما غير معين . وقال مقاتل : العصر الصلاة الوسطى ، أقسم بها . وبهذا القول بدأ الزمخشري قال : لفضلها بدليل قوله تعالى ﴿ والصلاة الوسطى صلاة العصر ﴾ [البقرة ٢٣٨] في مصحف حفصة . وقوله ـ ﷺ ـ : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » لأن التنكيف في أدائها أشق ، لتهافت الناس في تجاراتهم وتحاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم انتهى . وقرأ سلام (والعصِر) بكسر الصاد والصَّبِر بكسر الباء . قال ابن عطية : وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة . وروي عن أبي عمرو (بالصَّبِر) بكسر الباء إشماماً . وهذا لا يكون إلا في الوقف . انتهى . وفي الكامل للهزلي (والعصر)(والصبر) ﴿ والفجر ﴾ [الفجر ١] ﴿ والوتر ﴾ [الفجر ٣] بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها ، هارون وابن موسى عن أبي عمرو ، والباقون بالإسكان كالجماعة . انتهى . وقال ابن خالويه (وتواصوا بالصبر) بنقل الحركة عن أبي عمرو ، وقال صاحب اللوامح : عيسى البصرة (بالصبر) بنقل حركة الهاء إلى الياء ، لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف ، ولا إلى أن يسكن فيجمع بين ساكنين ، وذلك لغة شائعة ، وليس شاذة ، بل مستفيضة وذلك دلالة على الإعراب وانفصال عن التقاء الساكنين ومادته حق الموقوف عليه من السكون . انتهى . وقد أنشدنا في الدلالة على هذا في شرح التسهيل عدّة أبيات كقول الراجز :

أَنَا جَرِيرٌ كُنْيَتِي أَبُو عَمْرو أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَسَعْدٌ فِي القَصْرِ[(٢)]

---

(١) البيت من الطويل انظر الكامل ١/١٢٨ اللسان (عسر) .

(٢) البيت من الرجز ذكره السمين في الدر المصون .

يريد أبو عمر ، (والعصر) و (الإنسان) اسم جنس يعم ، ولذلك صح الاستثناء منه . والخسر : الخسران كالكفر والكفران . وأي خسران أعظم ممن خسر الدنيا والآخرة ؟ وقرأ ابن هرمز وزيد بن عليّ وهارون عن أبي بكر عن عاصم (خُسُرْ) بضم السين . والجمهور بالسكون . ومن باع آخرته بدنياه فهو في غاية الخسران بخلاف المؤمن فإنه اشترى الآخرة بالدنيا فربح وسعد . (وتواصوا بالحق) أي : بالأمر الثابت من الذين عملوا به وتواصوا به (وتواصوا بالصبر) في طاعة الله تعالى وعن المعاصي .

سورة الهمزة مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

الحطمة : أصله : الوصف من قولهم : رجل حطمة ، أي : أكول ، قال الراجز :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ[1]

وقال آخر :

إِنَّا حَطَمْنَا بِالْقَضِيبِ مُصْعَبَا ... يَوْمَ كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيَغْضَبَا[2]

﴿ **ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالاً وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة في عمد ممّدة** ﴾ هذه السورة مكية ، لما قال فيما قبلها (إن الإنسان لفي خسر) بين حال الخاسر ، فقال : (ويل لكل همزة) ونزلت في الأخنس بن شريق ، أو العاصي بن وائل ، أو جميل بن معمر ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أمية بن خلف ، أقوال ، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع ، وهي مع ذلك عامة فيمن اتصف بهذه الأوصاف ، وقال السهيلي : هو أمية بن خلف الجمحي ، كان يهمز النبي - ﷺ - ويعينه ذكره ابن إسحق . وإنما ذكرته وإن كان اللفظ عاماً ، لأن الله سبحانه وتعالى تابع في أوصافه والخبر عنه حتى فهم أنه يشير إلى شخص بعينه وكذلك قوله في سورة ن ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ [القلم ١٠] تابع في الصفات حتى علم أنه يريد إنساناً بعينه . وتقدم الكلام في الهمزة في سورة (ن) وفي (اللمز) في سورة براءة . وفعله من أبنية المبالغة كنُومة وعُيَبَة وسُخَرَة وضُحَكَة ، وقال زياد الأعجم :

تدلي بِوُدِّي إذا لاقَيْتَنِي كَذِباً ... وَإِنْ أُغَيَّبْ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ[3]

---

(١) عجز بيت من الرجز وصدره :

يحمي الذمار خزرجي من جشم ....

(حطم) انظر الكامل ١/٢٢٤ اللسان (حطم) .

(٢) البيت من الرجز انظر فتح القدير ٥/٤٩٤ .

(٣) البيت من البسيط انظر فتح القدير ٥/٤٩٤ .

وقرأ الجمهور بفتح الميم فيهما ، والباقون بسكونها ، وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك منه ويشتم ويهمز ويلمز . (الذي) بدل أو نصب على الذم . وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر والأخوان (جَمَّع) مشدد الميم ، وباقي السبعة بالتخفيف . والجمهور (وعدّده) بشد الدال الأولى أي : أحصاه وحافظ عليه وقيل : جعله عدة لطوارق الدهر . والحسن والكلبي بتخفيفها . أي : جمع المال وضبط عدده . وقيل : وعدداً من عشيرته ، وقيل : (وعدده) على ترك الإدغام كقوله :

إنِّي أَجُودُ لأقوامٍ وَإنْ ضَنِنُوا

(أخلده) أي : أبقاه حياً إذ به قوام حياته ، وحفظه مدّة عمره . وقال الزمخشري : أي طوّل المال أمله ومناه الأماني البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت . قيل : وكان للأخنس أربعة آلاف دينار ، وقيل : عشرة آلاف دينار . (كلا) ردع له عن حسبانه . وقرأ الجمهور (لينبذَن) فيه ضمير الواحد . وعليّ والحسن بخلاف عنه وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو (لينبذانٍّ) بألف ضمير اثنين . الهُمَزة ومَالَه . وعن الحسن أيضاً (لينبَذُن) بضم الذال . أي : هو وأنصاره . وعن أبي عمرو (لينبذنه) وقرأ الجمهور في الحطمة (وما أدراك ما الحطمة) وزيد بن عليّ (في الحاطمة) (وما أدراك ما الحاطمة) وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها . قال الضحاك : الحطمة الدرك الرابع من النار . وقال الكلبي : الطبقة السادسة من جهنم . وحكى عنه القشيري أنها الدركة الثانية . وعنه أيضاً : الباب الثاني . وقال الواحدي : باب من أبواب جهنم انتهى . و (نار الله) أي هي أي الحطمة . (التي تطلع على الأفئدة) ذكرت الأفئدة ، لأنها ألطف ما في البدن وأشدّه تألماً بأدنى شيء من الأذى . واطلاع النار عليها هو أنها تعلوها وتشتمل عليها ، وهي تعلو الكفار في جمع أبدانهم لكن نبه على الأشرف ، لأنها مقر العقائد . وقرأ الأخوان وأبو بكر في (عُمُدْ) بضمتين جمع عمود . وهارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم . وباقي السبعة بفتحها وهو اسم جمع ، الواحد عمود ، وقال الفرّاء : جمع عمود كما قالوا : أديم وأُدم ، وقال أبو عبيدة : جمع عماد ، قال ابن زيد (في عمد) حديد مغلولين بها . وقال أبو صالح : هذه النار هي قبورهم . والظاهر : أنها نار الآخرة ، إذ يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمد كل ذلك إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية . وقال قتادة : كنا نحدّث أنها عمد يعذبون بها في النار . وقال أبو صالح : هي القيود . والله تعالى أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

الفيل : أكبر ما رأيناه من وحوش البر ، يجلب إلى ملك مصر ولم نره بالأندلس بلادنا . ويجمع في القلة على أفيال ، وفي الكثرة على فيول وفِيَلة . الأبابيل : الجماعات تجيء شيئاً بعد شيء ، قال الشاعر :

كَـادَتْ تُهـدُّ مِنَ الأَصْـوَاتِ رَاحِلَتِي   إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ (١)

وقال الأعشى :

طَـرِيـقٌ وَخـبَّـارٌ رَوَاءٌ أُصُـولُـهُ   عَلَيْـهِ أَبَـابِيـلٌ مِنَ الـطَّيْـرِ تَنْعَبُ(٢)

قال أبو عبيدة والفراء : لا واحد له من لفظه ، فيكون مثل عبابيد وبيادير : وقيل : واحده إبّوْل مثل عِجَّوْل . وقيل : إبِّيل مثل سِكِّين ، وقيل : إبَّال وذكر الرقاشي وكان ثقة أنه سمع في واحده إبَّالة وحكى الفراء أبَالَة مخففاً . ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا والظاهر أن الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ بذكر نعمته عليه إذ كان صرف ذلك العدوّ العظيم عام مولده السعيد ـ عليه السلام ـ وإرهاصاً بنبوّته ، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعنى (ألم تر) ألم تعلم قدره على وجود علمه بذلك ، إذ هو أمر منقول نقل التواتر ، فكأنه قيل : قد علمت فعل الله ربك بهؤلاء الذين قصدوا حرمه ؟ ضلل كيدهم ، وأهلكهم بأضعف جنوده ، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل . وقصة الفيل ذكرها أهل السير والتفسير مطولة ومختصرة . وتطالع في كتبهم . وأصحاب الفيل : أبرهة بن الصباح الحبشي ومن كان معه من جنوده . والظاهر : أنه فيل واحد وهو قول الأكثرين . وقال الضحاك : ثمانية فيلة . وقيل : اثنا عشر فيلاً . وقيل : ألف فيل . وهذه أقوال متكاذبة . وكان العسكر ستين ألفاً لم يرجع

(١) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (١١) .

أحد منهم إلا أميرهم في شرذمة قليلة ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا ، وكان الفيل يوجهونه نحو مكة لما كان قريباً منها فيبرك ، ويوجهونه نحو اليمن والشام فيسرع . وقال الواقدي : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن الرسول ـ ﷺ ـ وقرأ السلمي (ألم ترْ) بسكون ، وهو جزم بعد جزم ، ونقل عن صاحب اللوامح (ترْأ) بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل ، وهي لغة لتيم و (تر) معلقة والجملة التي فيها الاستفهام في موضع نصب به و (كيف) معمول لفعل . وفي خطابه تعالى لنبي ـ ﷺ ـ بقوله (فعل ربك) تشريف له ـ ﷺ ـ وإشادة من ذكره كأنه قال ربك معبودك هو الذي فعل ذلك لا أصنام قريش أساف ونائلة وغيرهما . (ألم يجعل كيدهم في تضليل) وإبطال ، يقال : ضلل كيدهم إذا جعله ضالاً ضائعاً ، وقيل لامرىء القيس الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه . أي : ضيعه وتضييع كيدهم هو بأن أحرق الله تعالى البيت الذي بنوه قاصدين أن يرجع حج العرب إليه وبأن أهلكهم لما قصدوا هدم بيت الله الكعبة بأن أرسل عليهم طيراً جاءت من جهة البحر ، ليست نجدية ، ولا تهامية ، ولا حجازية سوداء ، وقيل : خضراء على قدر الخطاف ، وقرأ الجمهور (ترميهم) بالتاء والطير : اسم جمع بهذه القراءة . وقوله :

كالطَّيْرِ يَنْجُو مِنَ الشؤبُوبِ ذِي البَرَدِ

وتذكر كقراءة أبي حنيفة وابن يعمر وعيسى وطلحة في رواية عنه (يرميهم) ، وقيل : الضمير عائد على (ربك) (بحجارة) كان كل طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران ، كل حجر فوق حبة العدس ودون حبة الحمص مكتوب في كل حجر اسم مرميه ، ينزل على رأسه ويخرج من دبره . ومرض أبرهة فتقطع أنملة أنملة ، وماما حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت أبو مكسوم وزيره وطائره يتبعه حتى وصل إلى النجاشي وأخبره بما جرى للقوم فرماه الطائر بحجره فمات بين يدي الملك ، وتقدم شرح (سجيل) في سورة هود و (العصف) في سورة الرحمن . شبهوا بالعصف ورق الزرع الذي أكل أي : وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود ، والتبن الذي أكلته الدواب وراثته ، وجاء على آداب القرآن نحو قوله ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ [المائدة ٧٥] أو الذي أكل حبه فبقي فارغاً فنسبه أنه أكل مجاز إذ المأكول حبه لا هو . وقرأ الجمهور (مأكول) بسكون الهمزة وهو الأصل ، لأن صيغة مفعول من فَعَل ، وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه بفتح الهمزة ، إتباعاً لحركة الميم ، وهو شاذ وهذا كما اتبعوا في قولهم (محموم) بفتح الحاء لحركة الميم . قال ابن إسحاق : لما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم ، فكان ذلك نعمة من الله تعالى عليهم . وقيل : هو إجابة لدعاء الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

سورة قريش مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

قريش : علم اسم قبيلة ، وهم بنو النضر بن كنانة ، فمن كان من بني النضر فهو من قريش دون بني كنانة . وقيل : هم بنو فهر بن مالك بن النضر . فمن لم يلده فهر فليس بقرشي ، قال القرطبي : والقول الأول أصح وأثبت وسموا بذلك ، لتجمعهم بعد التفرق ، والتقريش : التجمع والالتئام . ومنه قول الشاعر :

إِخْـوَةٌ قَرَشُـوا الـذُّنُـوبَ عَلَيْنـا … فِي حَـدِيثٍ مِنْ دَهْـرِهِمْ وَقَـدِيـم

كانوا متفرقين في غير الحرم فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوه مسكناً ، ومنه قوله :

أَبُـونَا قُصَيٌّ كَـانَ يُدْعَى مُجمعـاً … بِهِ جَمَعَ اللهُ الْقَبَـائِلَ مِنْ فِهْـرِ[1]

وقال الفراء : التقرش : التكسب . وقد قرش يقرش قرشاً إذا كسب ، وجمع ، ومنه سميت قريش . وقيل : كانوا يفتشون على ذي الخلة من الحاج ليسدوها ، والقرش : التفتيش . ومنه قول الشاعر :

أَيُّهَـا النَّـاطِقُ الْمُقَـرِّشُ عَنَّـا … عِنْـدَ عَمْـرو هَـلْ لِـذَاكَ بَقَـاءُ[2]

وسأل معاوية ابن عباس بم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : بدابة في البحر أقوى دوابه يقال لها القرش تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى . ومنه قول تبع :

وَقُـرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْـ … ـرَ بِهَـا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُـرَيشـا
تَـأْكُـلُ الغَثَّ وَالسَّمِينَ وَلاَ تَتْـ … ـرُكُ فِيهَـا لِذِي جَنَـاحَيْنِ رِيشَـا
هَكَـذَا فِي الْبِـلَادِ حَيُّ قُـرَيْشٍ … يَـأْكُلُونَ الْبِـلَادَ أَكْـلاً كَمِيشَـا
وَلَـهُـمْ آخِـر الـزَّمَـانِ نَـبِيٌّ … يُكْثِـرُ الْقَتْلَ فِيهِمُ وَالْخُمُـوشَا[3]

---

(١) البيت من الطويل لمطرود الخزاعي ، انظر شرح ديوان أبي تمام ٤/ ٩٥ اللسان (جمع) .

(٢) البيت من الخفيف لابن حلزة انظر اللسان(قرش) .

(٣) الأبيات من الخفيف انظر الكشاف ٤/ ٦٤٠ ، اللسان (قرش) المقتضب ٢/ ٣٦٢ .

وفي الكشاف : دابة تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار فإن كان قُرَيْش من مزيد فيه فهو تصغير ترخيم ، وإن كان من ثلاثي مجرد فهو تصغير على أصل التصغير (الشتاء والصيف) فصلان معروفان من فصول السنة الأربعة . وهمزة الشتاء مبدلة من واو ، قالوا ، شتا يشتو . وقالوا : شتوة . و (الشتاء) مفرد وليس بجمع شتوة .

﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور . مدنية في قول الضحاك وابن السائب . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، ولا سيما أن جعلت اللام متعلقة بنفس (فجعلهم) وهو قول الأخفش ، أو بإضمار فعلنا ذلك لإيلاف قريش . وهو مروي عن الأخفش حتى تطمئن في بلدها . فذكر ذلك للامتنان عليهم ، إذ لو سلط عليهم أصحاب الفيل لتشتتوا في البلاد والأقاليم ، ولم تجتمع لهم كلمة . قال الزمخشري : وهذا بمنزلة التضمين في الشعر : وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به ، وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل . وعن عمر : أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب . وقرأ في الأوليين (والتين) والمعنى : أنه أهلك أهل الحبشة الذين قصدوهم ، ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ، ويحترموهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم . انتهى . قال الحوفي: ورد هذا القول جماعة ، وقالوا : لو كان كذا لكان لإيلاف بعض سورة (ألم تر) وفي إجماع الجميع على الفصل بينهما ما يدل على غير ما قال يعني الأخفش والكسائي والفراء تتعلق بأعجبوا مضمرة أي أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت ، ثم أمرهم بالعبادة بعد وأعلمهم أن الله هو الذي أطعمهم وآمنهم لا آسفهم ، أي : فليعبدوا الذي أطعمهم بدعوة أبيهم حيث قال ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ [إبراهيم ٣٧] وآمنهم بدعوته حيث قال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [إبراهيم ٢٥] ولا تشتغلوا بالأسفار التي إنما هي طلب كسب وعرض دنيا . وقال الخليل بن أحمد : تتعلق بقوله (فليعبدوا) والمعنى : لأن فعل الله بقريش هذا ، ومكنهم من إلفهم هذه النعمة ، (فليعبدوا) أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلة قال الزمخشري : (فإن قلت :) فلم دخلت الفاء ؟ (قلت :) لما في الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى إمالا فليعبدوا لإيلافهم على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الواحدة التي هي نعمة ظاهرة . انتهى . وقرأ الجمهور (لإيلاف قريش) مصدراً آلف رباعياً وابن عامر (لإِلافَ) على وزن فِعال مصدر ألف ثلاثياً يقال ألف الرجل الأمر الفاً وإلافاً وآلفه غيره إياه إيلافاً وقد يأتي أَلِف متعدياً لواحد كألف ، قال الشاعر :

مِنَ الْمُؤلفَاتِ الـرَّمْـل أُدْمَـاء حَـرَّة   شُعَاعُ الْضحَى فِي مَتْنِهَا يَتَـوَضَّحُ[1]

ولم يختلف القراء السبعة في قراءة (إيلافهم) مصدراً للرباعي ، وروي عن أبي بكر عن عاصم أنه قرأ بهمزتين فيهما الثانية ساكنة ، وهذا شاذ وإن كان الأصل . أبدلوا الهمزة التي هي فاء الكلمة لثقل اجتماع همزتين ولم يبدلوا في نحو يؤلف على جهة اللزوم ، لزوال الاستثقال بحذف الهمزة فيه . وهذا المروي عن عاصم هو من طريق الشمني عن الأعشى عن أبي بكر . وروى محمد بن داود النقار عن عاصم (إإيلافهم) بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة ناشئة عن حركة الهمزة الثانية لما أشبع كسرتها . والصحيح رجوع عاصم عن الهمزة الثانية وأنه قرأ كالجماعة ، وقرأ أبو جعفر فيما حكى الزمخشري (لإلف) قريش وقرأ فيما حكى ابن عطية الفهم ، قال الشاعر :

---

(١) البيت من الطويل لذي الرمة ، انظر ديوانه (١١١) اللسان (ألف) .

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشاً   لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافُ[١]

جمع بين مصدري ألف الثلاثي ، وعن أبي جعفر وابن عامر (إلافهم) على وزن فعال ، وعن أبي جعفر وابن كثير الفَهِم على وزن فعل . وبذلك قرأ عكرمة ، وعن أبي جعفر أيضاً (لِيْلاف) بياء ساكنة بعد اللام اتبع لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى حذفاً على غير قياس . وعن عكرمة (لِيَأْلف قريش) وعنه أيضاً ، (لتَأْلَفْ قريش) على الأمر وعنه وعن هلال بن فتيان بفتح لام الأمر . وأجمعوا هنا على صرف (قريش) راعوا فيه معنى الحي ويجوز منع صرفه ملحوظاً فيه معنى القبيلة للتأنيث والعلمية . قال الشاعر :

وَكَفَى قُرَيْش الْمُعْضِلاَتِ وَسَادَهَا

جعله اسماً للقبيلة سيبويه في نحو معد وقريش وثقيف . وكينونة هذه للأحياء أكثر ، وإن جعلتها اسماً للقبائل فجائز حسن . وقرأ الجمهور (رِحْلَة) بكسر الراء . وأبو السمال بضمها . فبالكسر مصدر ، بالضم الجهة ، التي يرحل إليها . والجمهور على أنهما رحلتان . فقيل : إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح ، ومنه قول الشاعر :

سَفَرَيْنَ بَيْنَهُمَا لَه وَلِغَيْرِهِ   سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرِحْلَة الأَصْيَافِ

وقال ابن عباس : رحلة إلى اليمن ورحلة إلى بصرى . وقال : يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل ، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم . وقال الزمخشري : وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس ، كقوله :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُم تعفُّوا   فَإِنَّ زَمَانَكُمُ زَمَنٌ خَمِيصُ[٢]

انتهى . وهذا عند سيبويه لا يجوز إلا في الضرورة[٣] ومثله .

حمامة بطن الواديين ترنمي[٤]

يريد بطني الواديين . أنشده أصحابنا على الضرورة . وقال النقاش : كانت لهم أربع رحل . قال ابن عطية : وهذا قول مردود . انتهى . ولا ينبغي أن يرد فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنوعبد مناف هاشم كان يؤلف ملك الشام أخذ منه خيلاً فأمن به في تجارته إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . فكان هؤلاء يسمون الُمجيرين . فتختلف تجر قريش إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم ، قال الأزهري : الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة فإذا كان كذلك جاز أن يكون لهم رحل أربع باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجار في خفارة هؤلاء الأربعة فيها ، وفيهم قول الشاعر بمدحهم :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوِّلُ رَحْلَهُ   هَلاَّ نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ

---

(١) البيت من البسيط لمساور بن هند ، انظر اللسان (ألف) الكشاف ٤/ ٦٣٩ .

(٢) انظر الكتاب ١/ ١٠٥ ، الخزانة ٧/ ٥٥٩ ، المقتضب ٢/ ١٧٠ .

(٣) يريد المصنف رحمه الله استعمال البطن في معنى البطون ، في قوله بطنكم قال سيبويه : وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً ، والمعنى جميع حتى قال بعضهم في الشعر عن ذلك ما لا يستعمل في الكلام الكتاب ١/ ١٠٧ .

(٤) شطر بيت للشماخ انظر الأشموني ٣/ ٩٤ .

الآخِذُونَ الْعَهْدَ مِنْ آفَاقِهَا وَالرَّاحِلُونَ لِرِحْلَةِ الإِيلَافِ
وَالرَّائِشُونَ وَلَيْسَ يُوجَدُ رَائِشٌ وَالْقَائِلُونَ هَلُمَّ لِلأَضْيَافِ
وَالْخَالِطُونَ غَنِيَّهُمْ لِفَقِيرِهِمْ حَتَّى يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافي

فتكون (رحلة) هنا اسم جنس يصلح للواحد ولأكثر و (إيلافهم) بدل من (لإيلاف قريش) أطلق المبدل منه وقيد البدل بالمفعول به ، وهو (رحلة) أي : لأن ألفوا رحلة ، تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً بعظيم النعمة فيه . (هذا البيت) هو الكعبة ، وتمكن هنا هذا اللفظ ، لتقدم حمايته في السورة التي قبلها . و (من) هنا للتعليل أي : لأجل الجوع كانوا قطاناً ببلد غير ذي زرع عرضة للجوع والخوف لولا لطف الله تعالى بهم وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام . قال تعالى ﴿ تجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ [القصص ٥٧] (وآمنهم من خوف) فضلهم على العرب بكونهم يأمنون حيث ما حلوا ، فيقال : هؤلاء قطان بيت الله فلا يتعرض إليهم أحد وغيرهم خائفون . وقال ابن عباس والضحاك . (وآمنهم من خوف) معناه : من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً . قال الزمخشري : والتنكير في (جوع) و (خوف) لشدتها يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلها وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم . وقرأ الجمهور (مِنْ خوف) بإظهار النون عند الخاء . والمسيبي عن نافع بإخفائها وكذلك مع العين نحو من على وهي لغة حكاها سيبويه ، وقال ابن الأسلت يخاطب قريشاً :

فَقُومُوا فَصلُّوا رَبَّكُمْ وَتَمَسَّحُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الأَخَاشِبِ
فَعِنْدَكُمُ مِنْهُ بَلَاءٌ وَمَصْدَقٌ غَدَاةَ أَبِي مَكْسُوم هَادِي الْكَتَائِبِ
كَتِيبَةٌ بِسالسَّهْلِ تَمْشِي وَرِحْلَةٌ عَلَى الْعَادِقَاتِ فِي رُؤوسِ الْمَنَاقِبِ
فَلَمَّا أَتَاكُمْ نَصْرُ ذِي الْعَرْشِ رَدَّهُمْ جُنُودُ الْمَلِيكِ بَيْنَ سَاقٍ وَحَاجِبِ
فَوَلَّوْا سِرَاعاً هَارِبِينَ وَلَمْ يَؤُبْ إِلَى أَهْلِهِ مِلْجَيْشِ غَيْرُ عَصَائِبِ

سورة الماعون

ترتيبها ١٠٧ — آياتها ٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سها عن كذا يسهو سهواً لها عنه وتركه عن غفلة . الماعون : فاعول من المعن وهو الشيء القليل . تقول العرب : ما له معن أي شيء قليل . وقاله قطرب . وقيل : أصله معونة والألف عوض من الهاء فوزنه مَفْعل في الأصل على مَكْرَم فتكون الميم زائدة ووزنه بعد زيادة الألف عوضاً ما فعل . وقيل : هو اسم مفعول من أعان يُعين جاء على زنة مَفْعول قلب فصارت عينه مكان الفاء فصار مَوْعُون ، ثم قلبت الواو ألفاً كما قال في بوب باب فصار مَاعُون فوزنه على هذا مفعول . وقال أبو عبيدة والزجاج والمبرد : الماعون في الجاهلية : كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل أو كثير . وأنشدوا بيت الأعشى :

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ   إِذَا مَا سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَغِمْ

وقالوا : المراد به في الإسلام الطاعة . وتأتي أقوال أهل التفسير فيه إن شاء الله تعالى عز وجل : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هو يراؤون ، ويمنعون الماعون** ﴾ هذه السورة مكية في قول الجمهور . مدنية في قول ابن عباس وقتادة . قال هبة الله المفسر الضرير : نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق ، ولما عدد تعالى نعمه على قريش وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء أتبع امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه ، ونزلت في أبي جهل أو الوليد بن المغيرة أو العاصي بن وائل أو عمر بن عائذ أو رجلين من المنافقين أو أبي سفيان بن حرب ، كان ينحر في كل أسبوع جزوراً فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصا . أقوال آخرها لابن جريج والظاهر : أن (أرأيت) هي التي بمعنى أخبرني فتتعدى لاثنين ، أحدهما (الذي) والآخر محذوف . فقدره الحوفي : أليس مستحقاً عذاب الله . وقدره الزمخشري : من هو . ويدل على أنها بمعنى أخبرني قراءة عبد الله (أرأيتك) بكاف الخطاب ، لأن كاف الخطاب لا تلحق البصرية . قال الحوفي : ويجوز أن تكون من رؤية البصر فلا يكون في الكلام حذف . وهمزة الاستفهام تدل على التقرير والتفهيم ليتذكر السامع من يعرفه بهذه الصفة و (الدين) الجزاء بالثواب والعقاب . وقال الزمخشري : والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء ؟ هو (الذي يدع اليتيم) أي : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة أو أذى (ولا يحض) أي ولا يبعث أهله على

بذل الطعام للمسكين . جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف . انتهى . وقرأ الجمهور (يدُعُّ) بضم الدال وشد العين . وعليّ والحسن وأبو رجاء واليماني بفتح الدال وخف العين . أي : يتركه بمعنى لا يحسن إليه ويجفوه . وقرأ الجمهور (ولا يحض) مضارع حَضَّ . وزيد بن علي (يحاض) مضارع حاضضت . وقال ابن عباس (بالدين) بحكم الله . وقال مجاهد : بالحساب . وقيل : بالجزاء ، وقيل : بالقرآن ، وقال إبراهيم ابن عرفة : (يدع اليتيم) يدفعه عن حقه وقال مجاهد : يدفعه عن حقه ولا يطعمه . وفي قوله (ولا يحض) إشارة إلى أنه هو لا يطعم إذا قدر وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحض غيره بخلاً فلأن يترك هو ذلك فعلاً أولى وأحرى ، وفي إضافة طعامْ إلى المسكين دليل على أنه يستحقه . ولما ذكر أولاً عمود الكفر وهو التذكيب بالدين ذكر ما يترتب عليه مم يتعلق بالخالق وهو عبادته بالصلاة . فقال (فويل للمصلين) والظاهر أن (المصلين) هم غير المذكور . وقيل : هو داع اليتيم غير الحاض وأن كلًا من الأوصاف الذميمة ناشيء عن التكذيب بالدين ، فالمصلون هنا ـ والله أعلم ـ هم المنافقون . أثبت لهم الصلاة وهي الهيآت التي يفعلونها . ثم قال (الذين هم عن صلاتهم ساهون) نظراً إلى أنهم لا يوقعونها كما يوقعها المسلم من اعتقاد وجوبها والتقرب بها إلى الله تعالى . وفي الحديث (عن صلاتهم ساهون) يؤخرونها وقتها تهاوناً بها[1] . قال مجاهد : تأخير ترك وإهمال ، وقال إبراهيم : هو الذي إذا سجد قالْ برأسه هكذا ملتفتاً . وقال قتادة : هو الترك لها أو هم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم أصلى أم لم يصل . وقال قطرب : هوالذي يقرأ ولا يذكر الله تعالى : وقال ابن عباس : المنافقون يتركون الصلاة سراً ويفعلونها علانية ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ [النساء ١٤٢] الآية ويدل على أنها في المنافقين قوله تعالى (الذي هم يراؤون) وقاله ابن وهب عن مالك ، قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم لكانت في المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذي قال عن صلاتهم ولم يقل في صلاتهم . وقال الزمخشري بعد أن قدم فيما نقلناه من كلامه ما يدل على أن (فذلك الذي يدع) في موضع رفع قال : وطريقة أخرى أن يكون (فذلك) عطفاً على (الذي يكذب) إما عطف ذات على ذات ، أو عطف صفة على صفة ، ويكون جواب (أرأيت) محذوفاً لدلالة ما بعده عليه كأنه قال : أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين أنعم ما يصنع ؟ ثم قال (فويل للمصلين) أي : إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين على معنى فويل لهم إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ، لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة ، مرائين غير مزكين أموالهم (فإن قلت :) كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذّب وهو واحد ؟ (قلت :) معناه الجمع ، لأن المراد به الجنس انتهى . فجعل (فذلك) في موضع نصب عطفاً على المفعول وهو تركيب غريب ، كقولك : أكرمت الذي يزورنا فذلك الذي يحسن إلينا . فالمتبادر إلى الذهن أن (فذلك) مرفوع بالابتداء وعلى تقدير النصب يكون التقدير أكرمت الذي يزورنا فأكرمت ذلك الذي يحسن إلينا ، فاسم الإشارة في هذا التقدير غير متمكن . تمكن ما هو فصحيح إذ لا حاجة إلى أن يشار إلى الذي يزورنا بل الفصيح أكرمت الذي يزورنا فالذي يحسن إلينا أو أكرمت الذي يزورنا فيحسن إلينا ، وأما قوله : إما عطف ذات على ذات فلا يصح ، لأن (فذلك) إشارة إلى (الذي يكذب) فليسا بذاتين ، لأن المشار إليه بقوله (فذلك) هو واحد ، وأما قوله : ويكون جواب (أرأيت) محذوفاً فلا يسمى جواباً بل هو في موضع المفعول الثاني لـ (أرأيت) وأما قوله : أنعم ما يصنع ؟ فهمزة الاستفهام لا نعلم دخولها على نعم ولا بئس ، لأنها إنشاء والاستفهام لا يدخل إلا على الخبر . وأما وضعه المصلين موضع الضمير وأن المصلين جمع لأن ضمير الذي يكذب معناه الجمع . فتكلف واضح ولا ينبغي أن يحمل القرآن إلا على ما اقتضاه ظاهر التركيب . وهكذا عادة هذا الرجل يتكلف أشياء في فهم القرآن ، ليس بواضحة . وتقدّم الكلام في الرياء في سورة البقرة . وقرأ الجمهور

---

(١) البيت من المتقارب انظر ديوانه (١٩٩) . فتح القدير ٥/٥٠٠ .

(يراؤون) مضارع رأى على وزن فاعل . وابن أبي إسحاق والأشهب مهموزة مقصورة مشدّدة الهمزة ، وعن ابن أبي إسحاق بغير شد في الهمزة ، فتوجيه الأولى إلى أنه ضعف الهمزة تعدية كما عدوا بالهمزة فقالوا في رأى أرى فقالوا راءى فجاء المضارع يَرْأى كيصلي وجاء الجمع يروّون كيصلون ، وتوجيه الثانية أنه استثقل التضعيف في الهمزة فخففها ، أو حذف الألف : من يراؤون حذفاً لا لسبب ، (ويمنعون الماعون) قال ابن المسيب وابن شهاب (الماعون) بلغه قريش المال . وقال الفرّاء عن بعض العرب (الماعون) الماء . وقال ابن مسعود وابن عباس وابن الحنفية والحسن والضحاك وابن زيد : ما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية . وفي الحديث : « سئل ـ ﷺ ـ عن الشيء الذي لا يحل منعه فقال الماء والملح والنار » . وفي بعض الطرق : الإبرة والخمير . وقال عليّ وابن عمر وابن عباس أيضاً (الماعون) الزكاة . ومنه قول الراعي[1] :

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمنِ[1] إِنَّــا مَعْشَرٌ ... حُنَفَـاءُ نَسْجُدُ بُكْـرَةً وَأَصِيـلاَ

عُـرْبٌ نَـرَى للهِ مِنْ أَمْـوَالِنَـا ... حَقَّ الـزَّكَـاةِ مُنَـزَّلاً تَنْـزِيـلاَ

قَوْمٌ عَلَى الإِسْلاَمِ لَمَّا يَمْنَعُوا ... مَـاعُـونَهُمْ وَيُضَيِّعُـوا التَّهْلِيـلاَ

يعني بالماعون الزكاة . وهذا القول يناسبه مما ذكره قطرب من أن أصله من المعن وهو الشيء القليل فسميت الزكاة ماعوناً ، لأنها قليل من كثير وكذلك الصدقة غيرها . وقال ابن عباس : هو العارية . وقال محمد بن كعب والكلبي : هو المعروف كله . وقال عبد الله بن عمر : منع الحق ، وقيل : الماء والكلأ .

---

(١) بنحوه أخرجه ١/ ٤٠٩ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٥٣٢ ، والقرطبي ٢٠/ ١٤٤ .

(٢) الأبيات في القرطبي (٢٠/ ١٤٥).

سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

وهو ضرب النحر للإبل بما يفيت الروح من محدود (الأبتر) الذي لا عقب له . والبتر : القطع بترت الشيء قطعته . وبتر بالكسر فهو أبتر ، وانقطع ذنبه وخطب زياد خطبته البتراء ، لأنه لم يحمد فيها الله تعالى ولا صلى على رسوله ﷺ ورجل أباتر ، بضم الهمزة الذي يقطع رحمه . ومنه قول الشاعر :

لَئِيمٌ بَـدَتْ فِـي أَنـفِـهِ خـنْـزَوَانَـةٌ   عَلَى قَـطْعِ ذي الْقُرْبى أَحَـذُّ أُبـاتِـرُ[1]

والبترية : قوم من الزيدية نسبوا إلى المغيرة بن سعد ولقبه الأبتر والله تعالى أعلم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر ، فصلّ لربك وانحر ، إنّ شانئك هو الأبتر** ﴾ هذه السورة مكية في المشهور . وقول الجمهور مدنية في قول الحسن وعكرمة وقتادة . ولما ذكر فيما قبلها وصف المنافق بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة قابل في هذه السورة البخل بـ (إنا أعطيناك الكوثر) والسهو في الصلاة بقوله (فصلّ) والرياء (لربك) ومنع الزكاة بقوله (وانحر) أراد به التصدّق بلحم الأضاحي . فقابل أربعاً بأربع ونزلت في العاصي بن وائل كان يسمي الرسول - ﷺ - بالأبتر ، وكان يقول دعوه إنما هو رجل أبتر لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه ، وقرأ الجمهور أعطيناك بالعين ، والحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني أنطيناك بالنون ، وهي قراءة مروية عن رسول الله - ﷺ - ، قال التبريزي : هي لغة للعرب العاربة من أولى قريش ومن كلامه - ﷺ - : « اليد العلياء المَنطية واليد السفلى المنطاة » . ومن كلامه أيضاً - عليه الصلاة والسلام - « وأنطوا النيحة » . وقال الأعشى :

جِيَـادُكَ خَيْـرُ جِيَـادِ الْـمُـلُوكِ   تُصَانُ الْجِلَالَ وَتُنْطَى الشَّعِيرَا[2]

قال أبو الفضل الرازي وأبو زكريا التبريزي : أبدل من العين نوناً فإن عنيا النون في هذه اللغة مكان العين في غيرها فحسن ، وإن عنيا البدل الصناعي فليس كذلك ، بل كل واحد من اللغتين أصل بنفسها لوجود تمام التصرّف من كل واحدة فلا يقول الأصل العين ثم أبدلت النون منها . وذكر في التحرير في الكوثر ستة وعشرين قولاً . والصحيح هو ما فسره به رسول الله - ﷺ - فقال : « هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم واقتطعنا منه .

---

(١) البيت من الطويل لعبادة بن طهفة انظر اللسان (بتر) .

(٢) البيت من المتقارب انظر ديوانه (٨٨) .

قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم » . انتهى . قال ذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند ما نزلت هذه السورة وقرأها . وقال ابن عباس : الكوثر : الخير الكثير . وقيل لابن جبير: إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة فقال هو من الخير الكثير . وقال الحسن : الكوثر القرآن ، وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن وثاب : كثرة الأصحاب والأتباع . وقال هلال بن يساف : هو التوحيد ، وقال جعفر الصادق : نور قلبه دله على الله تعالى وقطعه عما سواه . وقال عكرمة : النبوّة . وقال الحسن بن الفضل : تيسير القرآن وتخفيف الشرائع . وقال ابن كيسان : الإيثار . وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا أن الكوثر منحصر في واحد منها . والكوثر . فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر بم آب ابنك قالت آب بكوثر . وقال الشاعر :

وَأَنْتَ كَثِيــرٌ يــا ابْنَ مَــرْوَانَ طَـيِّبٌ ... وَكَـانَ أَبُوكَ ابْنَ العَقَـائِلِ كَـوْثَـرَا[1]

(فصلِّ لربك وانحر) الظاهر : أن (فصل) أمر بالصلاة يدخل فيها المكتوبات والنوافل . والنحر : نحر الهدي والنسك والضحايا ، قاله الجمهور ، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد فأمر بهذين . قال أنس : كان ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة فأمر أن يصلي وينحر . وقاله قتادة . وقال ابن جبير : نزلت وقت صلح الحديبية . قيل له صل وانحر الهدى . فعلى هذا الآية من المدني . وفي قوله (لربك) تنذير بالكفار حيث كانت صلاتهم مكاء وتصدية ، ونحرهم للأصنام . وعن علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ صل لربك وضع يمينك على شمالك عند نحرك في الصلاة . وقيل : ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند نحرك . وعن عطية وعكرمة : هي صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى . وقال الضحاك : استو بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحرك . وقال أبو الأحوص : استقبل القبلة بنحرك (إن شانئك) أي : مبغضك . تقدم أنه العـاصي ابن وائل . وقيل : أبو جهل . وقال ابن عباس : لما مات إبراهيم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال بتر محمد فأنزل الله تعالى إن شانئك هو الأبتر . وقال شمر بن عطية هو عقبة بن أبي معيط . وقال قتادة الأبتر هنا يراد به الحقير الذليل . وقرأ الجمهور (شانئك) بالألف وابن عباس (شينك) بغير ألف . فقيل : مقصور من شاني ، كما قالوا برر وبر في بارر وبار . ويجوز أن يكون بناء على فعل وهو مضاف للمفعول إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال ، وإن كان بمعنى الماضي فتكون إضافته لا من نصب على مذهب البصريينَ . وقد قالوا :

حذر أموراً ومزقون عرضي

فلا يستوحش من كونه مضافاً للمفعول وهو مبتدأ ، والأحسن الأعرف في المعنى أن يكون فصلاً ، أي : هو المنفرد بالبتر المخصوص به لا رسول الله ـ ﷺ ـ فجميع المؤمنين أولاده ، وذكره مرفوع على المنائر والمنابر ، ومسرود على لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر . يبدأ بذكر الله تعالى ويثني بذكره ـ ﷺ ـ وله في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف ـ ﷺ ـ وعلى آله وشرف وكرم .

---

(١) البيت من الطويل للكميت ، انظر الكشاف ٤/٦٤٤ اللسان (كثر) .

سورة الكافرون مكية وهي ست آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

هذه مكية في قول الجمهور ، وروي عن قتادة أنها مدنية ، وذكروا من أسباب نزولها . أنهم قالوا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ دَعْ ما أنت فيه ونحن نموّلك ونزوجك من شئت من كرائمنا ، ونملكك علينا ، وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ونحن نعبد إلهك حتى نشترك فحيث كان الخير نلناه جميعاً ، ولما كان أكثر شانئه قريشاً وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، أنزل الله تعالى هذه السورة ، تبرياً منهم وإخباراً لا شك فيه أن ذلك لا يكون ، وفي قوله (قل) دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله . وخطابه لهم بـ (يا أيها الكافرون) في ناديهم ومكان بسطة أيديهم مع ما في هذا الوصف من الإرذال بهم ، دليل على أنه محروس من عند الله تعالى لا يبالي بهم . و (الكافرون) ناس مخصوصون وهم الذين قالوا له تلك المقالة الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب ، وأمية ، وأبيّ ابنا خلف ، وأبو جهل ، وابنا الحجاج ، ونظراؤهم ممن لم يسلم ووافى على الكفر تصديقاً للإخبار في قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، وللمفسرين في هذه الجمل أقوال ، أحدها : أنها للتوكيد . فقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) توكيد لقوله (لا أعبد ما تعبدون) وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ثانياً تأكيد لقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أولاً . والتوكيد في لسان العرب كثير جداً وحكوا من ذلك نظماً ونثراً ما لا يكاد يحصر . وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبداً ، والثاني أنه ليس للتوكيد . واختلفوا ، فقال الأخفش : المعنى : لا أعبد الساعة ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون السنة ما أعبد ، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد ، فزال التوكيد إذ قد تقيدت كل جملة بزمان مغاير . وقال أبو مسلم (ما) في الأوليين بمعنى الذي ، والمقصود المعبود ، و (ما) في الأخريين مصدرية ، أي : لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر ، ولا أنتم مثل عبادتي المبنية على اليقين . وقال ابن عطية : لما كان قوله لا أعبد محتملاً أن يراد به الآن ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أبداً وما حييت . ثم جاء قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب فهذا كما قيل لنوح ـ عليه السلام ـ ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود ٣٦] أما أن هذا في معينين وقوم نوح عموا بذلك فهذا معنى الترديد الذي في السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط بل فيه ما ذكرته . انتهى . وقال الزمخشري : (لا أعبد) أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال . والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه

ما أطلب منكم من عبادة إلهي (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي : وما كنت قط . عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه . يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الإسلام (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي : وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته (فإن قلت :) فهلا قيل ما عبدت كما قيل ما عبدتم ؟ (قلت :) لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت » انتهى . أما حصره في قوله لأن (لا) لا تدخل وفي قوله لا تدخل ، فليس بصحيح ، بل ذلك غالب فيهما لا متحتم . وقد ذكر النحاة دخول لا على المضارع يراد به الحال ، ودخول ما على المضارع يراد به الاستقبال ، وذلك مذكور في المبسوطات من كتب النحو . ولذلك لم يورد سيبويه ذلك بأداة الحصر إنما قال : وتكون لا نفياً لقوله يفعل ولم يقع الفعل . وقال : وأما ما فهي نفي لقوله هو يفعل إذا كان في حال الفعل . فذكر الغالب فيهما . وأما قوله في قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي : وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فلا يستقيم لأن (عابداً) اسم فاعل قد عمل في (ما عبدتم) ثم فلا يفسر بالماضي إنما يفسر بالحال أو الاستقبال ، وليس مذهبه في اسم الفاعل مذهب الكسائي وهشام من جواز إعماله ماضياً ، وأما قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي : وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته فـ (عابدون) قد أعمله في (ما أعبد) فلا يفسر بالماضي . وأما قوله : وهو لم يكن إلى آخره فسوء أدب منه على منصب النبوة ، وهو أيضاً غير صحيح لأنه ـ ﷺ ـ لم يزل موحد الله عز وجل ، منزهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله ، مجتنباً لأصنامهم يحج بيت الله ، ويقف بمشاعر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذه عبادة لله تعالى . وأي عبادة أعظم من توحيد الله تعالى ونبذ أصنامهم ، والمعرفة بالله تعالى من أعظم العبادات . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات ٥٦] ، قال المفسرون : معناه ليعرفون فسمى الله تعالى المعرفة به عبادة . والذي أختاره في هذه الجمل أنه أولاً نفى عبادته في المستقبل لأن (لا) الغالب أنها تنفي المستقبل قيل : ثم عطف عليه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفياً للمستقبل على سبيل المقابلة ثم قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) نفياً للحال لأن اسم الفاعل الحقيقة فيه دلالته على الحال ثم عطف عليه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفياً للحال على سبيل المقابلة فانتظم المعنى أنه ـ ﷺ ـ لا يعبد ما يعبدون لا حالاً ولا مستقبلاً وهم كذلك ، إذ قد حتم الله موافاتهم على الكفر . ولما قال (لا أعبد ما تعبدون) فأطلق ما على الأصنام قابل الكلام بما في قوله (ما أعبد) وإن كانت يراد بها الله تعالى لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ مع الإنفراد . وهذا على مذهب من يقول : إن ما لا تقع على آحاد من يعلم أما من جوّز ذلك وهو منسوب إلى سيبويه فلا يحتاج إلى استعذار بالتقابل . وقيل : (ما) مصدرية في قوله (ما أعبد) ، وقيل : فيها جميعها ، وقال الزمخشري : المراد الصفة ، كأنه قيل : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . (لكم دينكم ولي دين) أي : لكم شرككم ولي توحيدي . وهذا غاية في التبرؤ . ولما كان الأهم انتفاءه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من دينهم بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه . ولما تحقق النفي رجع إلى خطابهم في قوله (لكم دينكم) على سبيل المهادنة . وهي منسوخة بآية السيف ، وقرأ سلام (ديني) بياء وصلاً ووقفاً ، وحذفها القراء السبعة والله تعالى أعلم .

سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

هذه مدنية ، نزلت منصرفة ـ ﷺ ـ من غزوة خيبر وعاش بعد نزولها سنتين . وقال ابن عمر : نزلت في أوسط أيام التشريق بمنى في حجة الوداع وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها ـ ﷺ ـ ولما كان في قوله (لكم دينكم) موادعة جاء في هذه بما يدل على تخويفهم وتهديدهم وأنه آن مجيء نصر الله ، وفتح مكة ، واضمحلال ملة الأصنام ، وإظهار دين الله تعالى . قال الزمخشري : (إذا) منصوب بـ (سبح) وهو لما يستقبل والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة ، انتهى . وكذا قال الحوفي ، ولا يصح إعمال (فسبح) في (إذا) لأجل الفاء لأن الفاء في جواب الشرط لا يتسلط الفعل الذي بعدها على اسم الشرط فلا تعمل فيه بل العامل في (إذا) الفعل الذي بعدها على الصحيح المنصور في علم العربية ، وقد استدللنا على ذلك في شرح التسهيل وغيره وإن كان المشهور غيره[1] والنصر : الإعانة والإظهار على العدو ، والفتح : فتح البلاد ومتعلق النصر والفتح محذوف . فالظاهر أنه نصر رسوله ـ ﷺ ـ والمؤمنين على أعدائهم وفتح مكة وغيرها عليهم ، كالطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن ، وقيل : نصره ـ ﷺ ـ على قريش ، وفتح مكة ، وكان فتحها لعشر مضين من رمضان سنة ثمان . ومعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار . وقرأ الجمهور (يَدْخلون) مبنياً للفاعل . وابن كثير في رواية مبنياً للمفعول (في دين الله) في ملة الإسلام الذي لا دين له يضاف غيرها . (أفواجاً) أي : جماعات كثيرة ، كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً بعد واحد واثنين اثنين قال الحسن : لما فتح ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا أما الظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل . وقال أبو عمر بن عبد البر لم يمت رسول الله ـ ﷺ ـ وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين منهم من قدم ومنهم من قدّم وافده . قال ابن عطية : والمراد ـ والله أعلم ـ عبدة الأوثان ، وأما نصارى بني ثعلب فما أراهم أسلموا قط في حياة الرسول ـ ﷺ ـ لكن أعطوا الجزية ، وقال مقاتل وعكرمة : المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل . وقال الجمهور : وفود العرب . وكان دخولهم بين فتح مكة وموته ـ ﷺ ـ و (أفواجاً) جمع فوج . قال الحوفي وقياس جمعه أَفْوُج ولكن استثقلت الضمة على الواو فعدّل إلى أفواج . كأنه يعني أنه كان ينبغي أن يكون معتل العين كالصحيح فكما أن قياس فَعْل صحيحها أن يجمع على أفْعُل لا على أفْعال فكذلك هذا ، والأمر في هذا المعتل بالعكس

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن المنصور خلاف ما عليه الجمهور ، فالجمهور يرون أن ناصب (إذا) الشرطية جوابها ، وأنها مضافة إلى الفعل الذي يليها .

القياس فيه أفعال كحَوْض وأحْوَاض . وشذ فيه أفعل كثَوْب وأثْوبُ ، وهو حال و (يدخلون) حال أو مفعول ثان إن كان (أرأيت) بمعنى علمت المتعدية لاثنين . وقال الزمخشري : إما على الحال على أن (رأيت) بمعنى أبصرت أو عرفت . انتهى . ولا نعلم (رأيت) جاءت بمعنى عرفت ، فنحتاج في ذلك إلى استثبات (فسبح بحمد ربك) أي ملتبساً بحمده على هذه النعم التي خوَّلَكَهَا من نصرك على الأعداء ، وفتحك البلاد ، وإسلام الناس ، وأي نعمة أعظم من هذه إذ كل حسنة يعملها المسلمون فهي في ميزانه . وعن عائشة : « كان ـ ﷺ ـ يكثر قبل موته أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك » . قال الزمخشري : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة في نفسه . وعن النبي ـ ﷺ ـ « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة »[1] . انتهى . وقد علم هو ـ ﷺ ـ من هذه السورة دنو أجله وحين قرأها ـ عليه الصلاة والسلام ـ استبشر الصحابة وبكى العباس ، فقال : وما يبكيك يا عم ؟ قال : نعيت إليك نفسك ، فقال : إنها لكما تقول : فعاش بعدها سنتين . (إنه كان توّاباً) فيه ترجية عظيمة للمستغفرين .

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٧٥ في كتاب الذكر باب استحباب الاستغفار (٤١/٢٧٠٢) .

سورة المسد مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

الحطب : معروف ، ويقال : فلان يحطب على فلان إذا وشى عليه . الجيد : العنق . المسد : الحبل من ليف . وقال أبو الفتح : ليف المقل . وقال ابن زيد : هو شجر باليمن يسمى المسد . انتهى . وقد يكون من جلود الإبل ومن أوبارها . قال الراجز :

ومسد أمر من أيانق

ورجل ممسود الخلق : أي مجدوله شديده . ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد** ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيما قبلها دخول الناس في دين الله تعالى أتبع بذكر من لم يدخل في الدين وخسر ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان . وتقدم الكلام على التباب في سورة غافر ، وهنا قال ابن عباس : خابت . وقتادة : خسرت . وابن جبير : هلكت . وعطاء : ضلت . ويمان بن رياب : صفرت من كل خير . وهذه الأقوال متقاربة في المعنى . وقالوا فيما حكي أشابة أم تابة : أي هالكة من الهرم والتعجيز . وإسناد الهلاك إلى اليدين ، لأن العمل أكثر ما يكون بهما وهو في الحقيقة للنفس كقوله ﴿ ذلك بما قدّمت يداك ﴾ [الحج ١٠] ، وقيل : أخذ بيديه حجراً ليرمي به الرسول ـ ﷺ ـ فأسند التب إليهما ، والظاهر أن التب : دعاء (وتب) إخبار بحصول ذلك . كما قال الشاعر :

جَـزَانِـي جَـزَاهُ الله شَـرَّ جَـزَائِـهِ   جَـزَاءَ الْكِلاَبِ الْعَاوِيَاتِ وَقَـدْ فَعَلْ[1]

ويدل عليه قراءة عبد الله (وقد تب) ، روي : « أنه لما نزل ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء ٢١٤] قال : يا صفية بنت عبد المطلب يا فاطمة بنت محمد لا أغني لكما من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئتما ، ثم صعد الصفا فنادى بطون قريش يا بني فلان يا بني فلان » . وروي : « أنه صاح بأعلى صوته يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه من كل وجه فقال لهم : أرأيتم لو قلت لكم إني أنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : نعم . قال فإني نذير لكم بين يدي

(١) البيت من الطويل نسب لأبي الأسود الدؤلي ، وقيل للنابغة الذبياني ، انظر الكشاف ٤/٦٤٩ اللسان (عوى) الأشموني ٢/٥٩ . ملحقات ديوان أبي الأسود (١٢٤) ديوان النابغة (٧٩) الهمع ١/٦٦ .

عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فافترقوا عنه ونزلت هذه السورة » . وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله ـ ﷺ ـ وقرأ ابن محيصن وابن كثير (أبي لَهْب) بسكون الهاء . وفتحها باقي السبعة . ولم يختلفوا في (ذات لهب) لأنها فاصلة والسكون يزيلها على حسن الفاصلة . قال الزمخشري : وهو من تغيير الأعلام كقولهم شمس مالك بالضم . انتهى . يعني سكون الهاء في (لهْب) وضم الشين في شُمْس . ويعني في قول الشاعر :

وَإنِّي لَمُهْـدٍ مِنْ ثَنَـائِي فَقَـاصِـدٌ بِـهِ لابْنِ عَمِّي شَمْسِ بْنِ مَالِـكِ[1]

فأما في لهب فالمشهور في كنيته فتح الهاء . وأما شمس بن مالك فلا يتعين أن يكون من تغيير الأعلام بل يمكن أن يكون مسمى بشمس المنقول من شمس الجمع كما جاء أذناب خيل شمس . قيل : وكنى بأبي لهب ، لحسنه وإشراق وجهه . ولم يذكره تعالى باسمه لأن اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى الكنية ، أو لأن الكنية كانت أغلب عليه من الاسم ، أو لأن مآله إلى النار . فوافقت حالته كنيته كما يقال للشرير أبو الشر وللخير أبو الخير ، أو لأن الاسم أشرف من الكنية فعدل إلى الأنقص ، ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأسمائهم ولم يكنِّ أحداً منهم . والظاهر أن (ما) في (ما أغنى عنه ماله) نفي . أي لم يغن عنه ماله الموروث عن آبائه (وما كسب) هو بنفسه أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها ، أو ما كسب من أرباح ماله الذي يتجر به . ويجوز أن تكون (ما) استفهاماً في موضع نصب ، أي : أيّ شيء يغني عنه ماله ؟ على وجه التقرير والإنكار . والمعنى أين الغنى الذي لماله وكسبه . والظاهر أن (ما) في قوله (وما كسب) موصولة . وأجيز أن تكون مصدرية . وإذا كانت (ما) في (ما أغنى) استفهاماً فيجوز أن تكون (ما) في (وما كسب) استفهاماً أيضاً ، أي : وأي شيء كسب ؟ أي : لم يكسب شيئاً . وعن ابن عباس : وما كسب ولده ، وفي الحديث : « ولد الرجل من كسبه » . وعن الضحاك : وما كسب هو عمله الخبيث في عداوة الرسول ـ ﷺ ـ وعن قتادة : وعمله الذي ظن أنه منه على شيء . وروي عنه أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي .

وقرأ عبد الله (وما اكتسب) بتاء الافتعال . وقرأ أبو حيوة وابن مقسم وعباس في اختياره وهو أيضاً (سيُصَلّى) بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام (ومريئته) وعنه أيضاً (ومُرَيَّته) على التصغير فيهما بالهمز وبإبدالها ياء وادغام ياء التصغير فيها ، وقرأ أيضاً (حمالةً للحطب) بالتنوين في (حمالة) وبلام الجر في (الحطب) ، وقرأ الحسن وابن أبي اسحاق (سيُصْلى) بضم الياء وسكون الصاد . وأبو قلابة (حاملة الحطب) على وزن فاعلة مضافاً ، واختلس حركة الهاء في (وامرأته) أبو عمرو في رواية والحسن وزيد بن علي والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن محيصن وعاصم (حمالة) بالنصب . وقرأ الجمهور (سيَصْلَى) بفتح الياء وسكون الصاد (وامرأته) على التكبير (حمَّالة) على وزن فعَّالة للمبالغة مضافاً إلى الحطب مرفوعاً ، والسين للاستقبال وإن تراخى الزمان ، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة . وارتفع (وامرأته) عطفاً على الضمير المستكن في (سيصلى) وحسنه وجود الفصل بالمفعول وصفته . و (حمالة) في قراءة الجمهور خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة لامرأته لأنه مثال ماض فيعرف بالإضافة . وفعال أحد الأمثلة الستة وحكمها كاسم الفاعل . وفي قراءة النصب انتصب على الذم . وأجازوا في قراءة الرفع أن يكون (وامرأتهُ) مبتدأ و(حمالة) واسمها أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء . والظاهر أنها كانت تحمل الحطب أي ما فيه شوك لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه لتعقرهم فذمت بذلك ، وسميت حمالة الحطب ، قاله ابن عباس فـ (حمالة) معرفة فإن كان صار لقباً لها جاز فيه حالة الرفع أن يكون عطف بيان وأن يكون بدلاً . قيل : وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنشرها بالليل في طريق

(١) البيت من الطويل لتأبط شرا ، انظر ديوان الحماسة ١/ ٣١ ، الخزانة ١/ ٩٧ .

رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة ويقال للمشاء بها يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم النائرة ويورث الشر . قال الشاعر :

مِنَ الْبِيضِ لَمْ يَصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لَامِهِ ... وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ(١)

جعله رطباً ليدل على التدخين الـذي هو زيادة في الشر . وقال الراجز :

إِنَّ بَنِي الأَدْرَمِ حَمَّالُو الْحَطَبْ ... هُمُ الْوُشَاةُ فِي الرِّضَا وَفِي الْغَضَبْ(٢)

وقال ابن جبير : حمالة الخطايا والذنوب من قولهم يحطب على ظهره . قال تعالى ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام ٣١] ، وقيل : الحطب جمع حاطب كحارس وحرس أي يحمل الجناة على الجنايات . والظاهر أن الحبل من مسد . وقال عروة بن الزبير ومجاهد وسفيان : استعارة ، والمراد سلسلة من حديد في جهنم . وقال قتادة : قلادة من ودع . وقال ابن المسيب : قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لأنفقنها على عداوة محمد . قال ابن عطية : وإنما عبر عن قلادتها بحبل من مسد على جهة التفاؤل لهاوذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث . انتهى . وقال الحسن : إنما كانت خرزاً . وقال الزمخشري : والمعنى في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون تخسيساً لحالها وتحقيراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها ، وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب ، فقال :

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي ... أَمْ مَا تُعَيِّرُ مِنْ حَمَّالَةِ الْحَطَبِ

غَرْسَاءَ شَادِخَةً فِي الْمَجْدِ سَامِيَةٍ ... كَانَتْ سَلِيلَةَ شَيْخٍ ثَاقِبِ الْحَسَبِ

ويحتمل أن يكون المعنى : أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك فلا يزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجر الزقوم أو الضريع وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه انتهى . ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر وهو مع رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد وبيدها فهر ، فقالت : بلغني أن صاحبك هجاني ولأفعلنّ وأفعلنّ وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله ـ ﷺ ـ فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها هل ترين معي أحداً؟ فقالت : أتهزأ بي ؟ لا أرى غيرك وإن كان شاعراً فأنا مثله أقول :

مُذَمَّماً أَبَيْنَا ... وَدِينَهُ قَلَيْنَا ... وأَمْرَهُ عَصَيْنَا

فسكت أبو بكر ومضت هي فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأتني وكفى الله شرها . وذكر أنها ماتت مخنوقة بحبلها وأبو لهب رماه الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال .

---

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/١٢ ، الكشاف ٤/٦٥١ .

(٢) البيت من الرجز انظر اللسان (درع) .

سورة الإخلاص مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

الصمد : فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ويستقل بها . قال :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ بِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ(١)

وقال آخر :

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا حُزَيْتَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ(٢)

الكفو : النظير ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هذه السورة مكية في قول عبد الله والحسن وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة ، مدنية في قول ابن عباس ومحمد بن كعب وأبي العالية والضحاك ، ولما تقدم فيها قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول - ﷺ - وهو عمه أبو لهب وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد ، وعن ابن عباس : « أن اليهود قالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه ؟ فنزلت » . وعن أبي العالية ، قال قادة الأحزاب انسب لنا ربك فنزلت . فإن صح هذا السبب كان (هو) ضميراً عائداً على الرب ، أي (قل هو الله) . أي : ربي الله ويكون مبتدأ وخبر و (أحد) خبر ثان . وقال الزمخشري : و (أحد) بدل من قوله (الله) أو على هو أحد . انتهى . وإن لم يصح السبب فهو ضمير الأمر والشأن مبتدأ والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر (هو) و (أحد) بمعنى واحد . أي فرد من جميع جهات الوحدانية ، أي في ذاته وصفاته ، لا يتجزأ ، أو همزة أحد هذا بدل من واو وإبدال الهمزة مفتوحة من الواو قليل من ذلك امرأة أناة يريدون وناة لأنه من الونى وهو الفتور كما أن أحداً من الوحدة . وقال ثعلب : بين واحد وأحد فرق ، الواحد يدخله العدد والجمع والاثنان والأحد لا يدخله ، يقال : الله أحد ولا يقال زيد أحد ، لأن الله خصوصية له الأحد وزيد تكون منه حالات انتهى . وما ذكر من أن أحداً لا يدخله ما ذكر منقوض بالعدد . وقرأ أبان بن عثمان وزيد بن علي ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وأبو عمرو وفي رواية يونس ومحبوب

---

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥١٦/٥ .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٦٧/٢٠ .

والأصمعي واللؤلؤي وعبيد وهارون عنه (أحدُ الله) بحذف التنوين لالتقائه مع لام التعريف ، وهو موجود في كلام العرب وأكثر ما يوجد في الشعر نحو قوله :

ولا ذَاكرَ الله إلاَّ قـليلاً

ونحو قوله :

عمرُو الذِي هَشَمَ الثريدَ لقوْمِه

(الله الصمد) مبتدأ وخبر ، والأفصح أن تكون هذه جملاً مستقلة بالإخبار على سبيل الاستئناف كما تقول زيد العالم زيد الشجاع . وقيل : الصمد صفة والخبر في الجملة بعده ، وتقدم شرح الصمد في المفردات وقال الشعبي ويمان بن رياب : هو الذي لا يأكل ولا يشرب . وقال أبيّ بن كعب : يفسره ما بعده وهو قوله (لم يلد ولم يولد) ، وقال الحسن (الصمد) المصمت الذي لا جوف له . ومنه قوله :

شِهَـابُ حُرُوبٍ لاَ تَـزَالُ جِيَـادُهُ عَوَابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ الْمُصَمَّدَا[١]

وفي كتاب التحرير أقوال غير هذه لا تساعد عليها اللغة ، وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد : هو السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم ، قال الزمخشري : (لم يلد) لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . ودل على هذا المعنى بقوله ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ [الأنعام ١٠١] ، (ولم يولد) لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد يقال له كُفُوٌ بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وبضم الكاف مع ضم الفاء . وقرأ حمزة وحفص بضم الكاف وإسكان الفاء . وهمز حمزة . وأبدلها حفص واواً . وباقي السبعة بضمهما والهمز ، وسهل الهمزة الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع . وفي رواية عن نافع أيضاً كفا من غير همز نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة . وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس كِفَاء بكسر الكاف وفتح الفاء والمد كما قال النابغة :

لاَ تَقْذفَنِّي بِرُكْنٍ لاَ كِفَاءَ لَهُ[٢]

الأعلم : لا كفاء له لا مثل له . وقال مكي : سيبويه يختار أن يكون الظرف خبراً إذا قدمه ، وقد خطأه المبرد بهذه الآية ، لأنه قدم الظرف ولم يجعله خبراً والجواب أن سيبويه لم يمنع إلغاء الظرف إذا تقدم إنما أجاز أن يكون خبراً وأن لا يكون خبراً . ويجوز أن يكون حالاً من النكرة وهي (أحد) لما تقدم نعتها عليها نصب على الحال فيكون (له) الخبر على مذهب سيبويه واختياره ، ولا يكون للمبرد حجة على هذا القول . انتهى . وخرجه ابن عطية أيضاً على الحال . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه ؟ (قلت :) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه . انتهى . وهذه الجملة ليست من هذا الباب ، وذلك أن قوله ، (ولم يكن له كفواً أحد) ليس الجار والمجرور فيه تاماً إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـ (كان) بل هو متعلق بكفواً وقدم عليه فالتقدير ولم يكن أحد كفواً له أي مكانته فهو في معنى المفعول متعلق بـ (كفواً) وتقدم على (كفواً) للاهتمام به إذ فيه ضمير الباري تعالى . وتوسط الخبر وإن كان الأصل

---

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥١٦/٥ .

(٢) صدر بيت من البسيط انظر ديوانه (٣٦) اللسان (ركن) فتح القدير ٥١٧/٥ .

التأخر ، لأن تأخر الاسم هو فاصلة فحسن ذلك . وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب مكي وغـيره أن (له) الخبر و (كفوا) حال من (أحد) لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه . وسيبويه إنما تكلم في هذا الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ويصلح أن يكون غير خبر ، قال سيبويه : وتقول ما كان فيها أحد خير منك وما كان أحد مثلك فيها وليس أحد فيها خير منك إذا جعلت فيه مستقراً ولم تجعله على قولك : فيها زيد قائم ، أجريت الصفة على الاسم فإن جعلته على فيها زيد قائم نصبت ، فتقول : ما كان فيها أحد خيراً منك . وما كان أحد خيراً منك فيها إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخرت الملغي كان أحسن ، وإذا أردت أن يكون مستقراً فكلما قدمته كان أحسن . والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير قال تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) وقال الشاعر :

مَـا دَامَ فِـيهِنَّ فَصِـيلٌ حَيًّا[1]

انتهى . وما نقلناه ملخصاً ، وهو بألفاظ سيبويه فأنت ترى كلامه وتمثيله بالظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ، ومعنى قوله « مستقراً » أي : خبراً للمبتدأ ولـ (كان) (فإن قلت :) فقد مثل بالآية الكريمة ؟ (قلت :) هذا الذي أوقع مكياً والزمخشري وغيرهما فيها وقعوا فيه وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام وهو في قوله :

ما دام فيهن فصيل حيا

أجرى فضلة لا خبراً كما أن (له) في الآية أجرى فضلة فجعل الظرف القابل أن يكون خبراً كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبراً ، ولا يشك من له ذهن صحيح أنه لا ينعقد كلام من قوله (ولم يكن له أحد) بل لو تأخر (كفواً) وارتفع على الصفة وجعل (له) خبراً لم ينعقد منه كلام ، بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو (كفواً) و (له) متعلق به . والمعنى ولم يكن له أحد مكافئه . وقد جاء في فضل هذه السـورة أحاديث كثيرة منها : « أنها تعدل ثلث القرآن » . وقد تكلم العلماء على ذلك وليس هذا موضعه والله الموفق .

---

(١) عجز بيت من الرجز انظر الكتاب ١/ ٢٧ الخزانة ٤/ ٦٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

الفلق : فَعَل بمعنى مفعول . وتأتي أقوال أهل التفسير فيه إن شاء الله تعالى . وقب الليل : أظلم والشمس : غابت والعذاب حل ، قال الشاعر :

وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَيهم فَكَأَنَّهُمْ   لحقَتْهُمْ نَارُ السَّمُومِ فَأُحْصِدُوا[1]

النفث : شبه النفخ دون تفل بريق ، قاله ابن عطية . وقيل : نفخ بريق معه ، قاله الزمخشري . وقال صاحب اللوامح : شبه النفخ من الفم في الرقية ولا ريق معه ، فإذا كان بريق فهو التفل . قال الشاعر :

فَإِنْ أَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ   وَإِنْ يَفْقِدْ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ[2]

﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شرّ غاسق إذا وقب ، ومن شرّ النفاثات في العقد ، ومن شرّ حاسد إذا حسد ﴾ هذه السورة مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر ورواية كريب عن ابن عباس ، مدنية في قول ابن عباس في رواية صالح وقتادة وجماعة . قيل : وهو الصحيح . وسبب نزول المعوّذتين قصة سخر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ـ ﷺ ـ[3] وهو جف والجف قشر الطلع فيه مشاطة رأسه عليه الصلاة والسلام وأسنان مشطه ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغروز بالإبر فأنزلت عليه المعوّذتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد ـ ﷺ ـ في نفسه خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال » . ولما شرح أمر الإلهية في السورة قبلها شرح ما يستعاذ منه بالله من الشرّ الذي في العالم ومراتب مخلوقاته . و (الفلق) الصبح ، قاله ابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد وقتادة وابن جبير والقرطبي وابن زيد ، وفي المثل : « هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح » . وقال الشاعر :

يَا لَيْلَةً لَمْ أَنَمْهَا بِتُّ مُرْتَقِباً   أَرْعَى النُّجُومَ إِلَى أَنْ قُدِّرَ الْفَلَقُ[4]

---

(١) البيت من الكامل انظر فتح القدير ٥/٥٢٠ .

(٢) البيت من الوافر لعنترة انظر ديوانه ٤٢ ديوان الحماسة ١٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري ٨/٢٣٢ في الطب باب السحر (٥٧٦٣) وأحمد في المسند ٦/٥٧ ، ٦٣ ، ٩٦ ، انظر من فتح الباري ٨/٢٢٣ .

(٤) البيت من البسيط انظر فتح القدير ٥/٥١٩ .

وقال الشاعر يصف الثور الوحشي :

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ   هَادِيهِ فِي أُخْرَيَاتِ اللَّيْلِ مُنْتَصِبُ[١]

وقيل (الفلق) كلما يفلقه الله تعالى كالأرض والنبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك . وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين : الفلق : جب في جهنم ، ورواه أبو هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقالوا لما اطمأن من الأرض الفلق وجمعه فلقان . وقيل : واد في جهنم . وقال بعض الصحابة : بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حره . وقرأ الجمهور (من شرِّ ما خلق) بإضافة (شر) إلى (ما) و (ما) عام يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد كالإحراق بالنار والإغراق بالبحر والقتل بالسم . وقرأ عمرو بن فايد (مِن شرٍّ) بالتنوين ، وقال ابن عطية : وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر (من شرٍّ) بالتنوين (ما خلق) على النفي وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الزمر ٦٢] ولهذه القراءة وجه غير النفي فلا ينبغي أن ترد وهو أن يكون (ما خلق) بدلاً (من شر) على تقدير محذوف ، أي من شرّ ما خلق ، فحذف لدلالة (شر) الأول عليه ، أطلق أولاً ثم عمّ ثانياً . والغاسق : الليل . و (وقب) أظلم ودخل على الناس قاله ابن عباس . والحسن ومجاهد وزمّكه الزمخشري على عادته ، فقال : والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى ﴿ إلى غسق الليل ﴾ [الإسراء ٧٨] ومنه : غسقت العين امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة . امتلأت دماً ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء . انتهى . وقال الزجاج : هو الليل لأنه أبرد من النهار والغاسق : البارد استعيذ من شره ، لأنه فيه تنبث الشياطين والهوام والحشرات وأهل الفتك . قال الشاعر :

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَرَقَا   إِذْ جِئْتَنَا طَارِقاً وَاللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا[٢]

وقال محمد بن كعب : النهار دخل في الليل . وقال ابن شهاب : المراد بالغاسق الشمس إذا غربت وقال القتبي وغيره : هو القمر إذا دخل في ساهوره فخسف وفي الحديث : نظر ـ ﷺ ـ إلى القمر فقال يا عائشة : نعوذ بالله من هذا فإنه الغاسق إذا وقب » . وعنه ـ ﷺ ـ : « الغاسق النجم » . وقال ابن زيد عن العرب : الغاسق الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام والطاعون تهيج عند ذلك . وقيل : الحية إذا لدغت ، والغاسق سم نابها لأنه يسيل منه . و (النفاثات) النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين . وقرأ الجمهور (النَّفَّاثات) والحسن بضم النون . وابن عمر والحسن أيضاً وعبد الله بن القاسم ويعقوب في رواية (النافاثات) والحسن أيضاً وأبو الربيع (النَّفَّثات) بغير ألف نحو الحذرات . والاستعاذة من شرهن : هو ما يصيب الله تعالى به من الشر عند فعلهن ذلك . وسبب نزول هاتين المعوذتين ينفي ما تأوله الزمخشري من قوله : ويجوز أن يراد به النساء ذات الكيادات من قوله ﴿إن كيدكن عظيم﴾ [يوسف ٢٨] تشبيهاً لكيدهنّ بالسحر والنفث في العقد : أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهنّ لهم وعرضهنّ محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك . انتهى . وقال ابن عطية : وهذا النفث هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذي بذلك ، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب ، وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع انتهى . وقيل : الغاسق والحاسد بالطرف ، لأنه إذا لم يدخل الليل لا يكون منسوباً إليه . وكذا كل ما فسر به

---

(١) البيت من البسيط لذي الرمة انظر ديوانه ٣٠ فتح القدير ٥١٩/٥ .

(٢) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

الغاسق وكذلك الحاسد لا يؤثر حسده إذا ظهره بأن يحتال للمحسود فيما يؤذيه ، أما إذا لم يظهر الحسد فإنما يتأذى به هولاً المحسود لاغتمامه بنعمة غيره . قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهار أثره انتهى . وعم أولاً فقال (من شر ما خلق) ثم خص هذه لخفاء شرها . إذ يجيء من حيث لا يعلم ، وقالوا : شر العداة المراجي بكيدك من حيث لا تشعر . ونكر (غاسق) و (حاسد) وعرف (النفاثات) لأن كل نفاثة شريرة ، وكل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ومنه : « لا حسد إلا في اثنتين » . ومنه قول أبي تمام :

وَمَا حَاسِدٌ فِي ٱلْمَكْرُمَاتِ بِحَاسِد

وقال آخر :

إِنَّ ٱلْغَلَا حسن فِي مِثْلِهَا ٱلْحَسَدُ

وقول المنظور إليه للحاسد إذا نظر الخمس على عينيك يعني به هذه السورة لأنها خمس آيات . وعين الحاسد في الغالب واقعة نعوذ بالله من شرها .



سُورَةُ النَّاسِ

ترتيبها ١١٤ — آياتها ٦

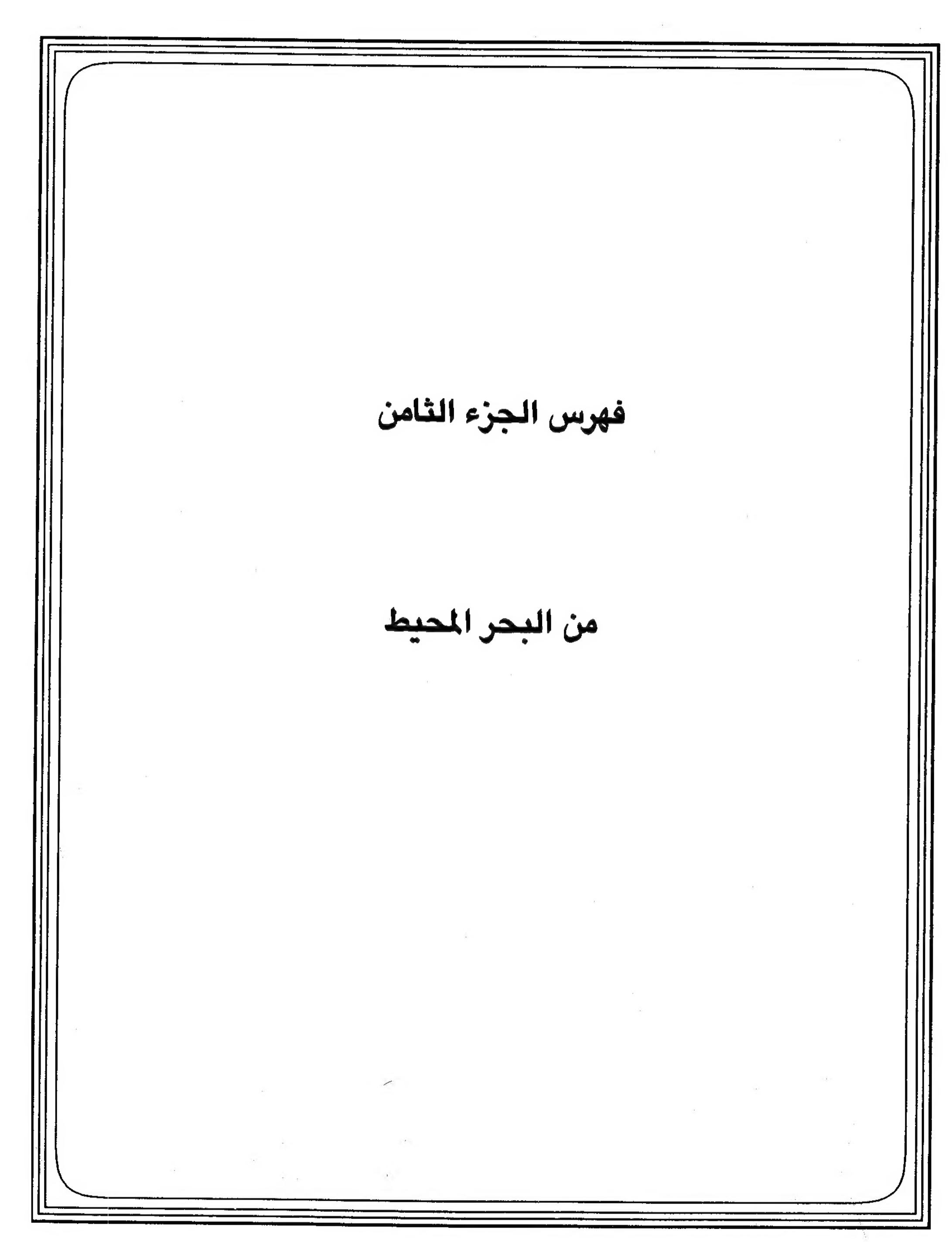
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

تقدم أنها نزلت مع ما قبلها . والخلاف أهي مدنية أم مكية ، وأضيف الرب إلى الناس ، لأن الاستعاذة من شر الموسوس في صدورهم استعاذوا بربهم مالكهم وإلههم كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر . والظاهر أن (ملك الناس . إله الناس) صفتان وقال الزمخشري : هما عطفا بيان كقولك سيرة أبي حفص عمر الفاروق ، بين بـ (ملك الناس) ثم زيد بياناً بـ (إله الناس) لأنه قد يقال لغيره رب الناس كقوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة ٣١] وقد يقال ملك الناس . وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان . انتهى . وعطف البيان المشهور أنه يكون بالجوامد . وظاهر قوله : إنهما عطفا بيان لواحد ولا أنقل عن النحاة شيئاً في عطف البيان هل يجوز أن يتكرر لمعطوف عليه واحد أم لا يجوز . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فهلا أكتفي بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة ؟(قلت :) لأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار دون الإضمار . انتهى . و(الوسواس) قالوا : اسم من أسماء الشيطان . والوسواس أيضاً مما يوسوس به شهوات النفس ، وهو الهوى المنهي عنه . و (الخناس) الراجع على عقبه المستتر أحياناً وذلك في الشيطان ممكن إذا ذكر العبد الله تعالى تأخر ، وأما الشهوات فتخنس بالإيمان وبلمة الملك وبالحياء فهذان المعنيان يندرجان في الوسواس ويكون معنى (من الجنة والناس) من الشياطين ونفوس الناس ، أو يكون (الوسواس) أريد به الشيطان ، والمغري المزين من قرناء السوء فيكون (من الجنة والناس) تبييناً لذلك الوسواس . قال تعالى ﴿ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام ١١٢] وقال قتادة : إن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين فنعوذ بالله منهم . وقال أبو ذر لرجل : هل تعوذت من شياطين الإنس . وقال الزمخشري : (الوسواس) اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال . والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه أو أريد ذو الوسواس . وقد تكلمنا معه في دعواه أن الزلزال بالفتح اسم وبالكسر مصدر في إذا زلزلت . ويجوز في (الذي) الجر على الصفة ، والرفع والنصب على الشتم . و (من) في (من الجنة والناس) للتبعيض . أي كائناً من الجنة والناس فهو في موضع الحال ، أي ذلك الموسوس هو بعض الجنة وبعض الناس . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (من) متعلقاً بـ (يوسوس) ومعناه : ابتداء الغاية . أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس انتهى ولما كانت مضرة الدين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب والملك والإله وإن اتحد المطلوب ، وفي

الاستعاذة من ثلاث الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب وإن تكثر الذي يستعاذ منه . « كان رسول الله - ﷺ - إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ (قل هو الله أحد) والمعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثاً » .

تم هذا التفسير بعونه تعالى .



فهرس الجزء الثامن

من البحر المحيط